أحمد أوميت

AHMET ÜMIT



كاتب القصر الملكي

Patasana

رواية



كاتب القصر الملكي

رواية

أحمد أوميت

AHMET ÜMIT

تعريب

أفنان محمد سعدالدين - حسان البستاني





الطبعة الأولى:
1435 هـ - 2014 م

0-2209-02-614-978 :ISBN

يتضمن هذا الكتاب ترجمة النسخة التركية
Patasana
نشر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة والسياحة في الجمهورية التركية
ضمن مشروع
TEDA by sponsered is Translation



Bakanligi Turizm ve Kultur .T.C
Mudurlugu Genel Yayimlar ve Kutuphaneler
sayıŞtay Eski) No:4 Bulvarı Cumhuriyet Mahallesi PaŞa Fevzi
(Binası
Ulus/ANKARA/TURKEY 06030
www.tedaproject.com :Web - teda@kulturturizm.gov.tr :e-mail

THAQAFA ثقافة للنشر والتوزيع
Publishing & Distribution L.L.C.
أبوظبي هاتف: (+971-2) 6345404 فاكس: (+971-2) 6345407
دبي هاتف: (+971-4) 2651623 فاكس: (+971-4) 2653661
بيروت هاتف: (+961-1) 786233 فاكس: (+961-1) 786230

تصميم الغلاف: سامح الخلف
التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت- هاتف (+9611) 785107
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت- هاتف (+9611) 786233

الفصل الأول

أول ما أبصرته هو ذلك الضوء اللامع في الظلام الذي خيم فجأة على السهل. وبينما هي مستندة على السور الحجري للمدينة الأثرية، تتتبّعه ببصرها- فهو الشيء الوحيد الذي ظل مرئياً في ذلك السواد الحالك الذي اكتنف المكان- هب نسيم محمل بعبير زهور الدَّفْلَى، فأغمضت عينيها لتستمتع بتأثيره على بشرتها. إلا أنه وبمجرد إغماضها عينيها توقف. سمعت صوت أزيز قادماً من بعيد، عندئذٍ فتحت عينيها بعد أن تملكها الفضول لمعرفة مصدره، فوجدت اليراعات التي رأتها قبل قليل قد تكاثرت، وتضاعفت أعدادها، وأخذت تزداد بسرعة كبيرة لدرجة أنها لم تعد تستطيع إحصاء عددها. وكلما ازداد عدد اليراعات المحلِّقة حولها، ازدادت ظلمة الليل سواداً. ابتعدت خطوة عن الجدار، وأرهفت السمع لذلك الصوت الذي راح يدنو منها. كلا، لم يكن ظنها في غير محله؛ فالصوت لم يكن صادراً من اليراعات. انتظرت بصبر وهي تركّز نظرها على حشد الأضواء الذي ظل يتضاعف ويتضاعف ويدنو منها أكثر. أرهفت السمع، فأيقنت أن صوت الأزيز يعلو ويهبط كالأمواج. بات بوسعها أن تسمع الأصوات بشكل أفضل الآن، ولكنها ظلت عاجزة عن تبيان ما يقال بوضوح؛ مع أنها وجدت إيقاعها مألوفاً. وعندئذ، استطاعت أن تميز تلك العبارة المألوفة: "الله أكبر، الله أكبر".

فجأة، اختفت اليراعات وظهر من قلب الظلام أشخاص يحملون مشاعل مضيئة. عندئذ، استطاعت إسراء أن ترى قبضات أيدي الرجال ممتدة وراياتهم الخضراء تخفق ومن خلفها الأفق المظلم. أحست بتوتر أعضاء جسدها من فرط الخوف. ونتيجة للرعب الذي انتابها، خطت متراجعة إلى الوراء، ولكن جدران المدينة الأثرية منعتها من التراجع كثيراً، بينما ظل الحشد يدنو منها بخطوات بطيئة وهو يردد: "الله أكبر، الله أكبر".

وقف سكان البلدة بمواجهتها وأنظارهم مثبتة عليها. ورسمت الأضواء المتحركة أقنعة غريبة على وجوه أولئك الناس الذين تعرفهم، وبث الخوف في نفسها حتى كادت تفقد وعيها، وجعلت قلبها يخفق بعنف وكأنه سينخلع من صدرها. "الله أكبر، الله أكبر".

أدركت أن عليها الهرب من ذلك المكان، ولكن كيف؟ بقيت مسمَّرة أمام الحائط الأثري والحشد المتقدم نحوها لا يغيب عن ناظريها. لم يُبدِ

المحتشدون أمامها أي دليل على الغضب، بل حافظوا على هدوئهم وهم يتقدمون نحوها خطوة خطوة، ويصيحون ملء حناجرهم بصوت واحد: "الله أكبر، الله أكبر".

استولى عليها الرعب، وفقدت كل أمل في أن يهب أحد لإنقاذها. فغطت رأسها بيديها، وانتظرت بفزع أول ضربة تُسدَّد إليها؛ سواء أكانت حجراً أم قبضة يد، ولكنها بدلاً من ذلك سمعت صوت إنسان يكلمها. وبالرغم من أن الصوت بدا بعيداً إلا أنه كان قوياً لدرجة جعلته يطغى على هتافات ذلك الحشد. فرفعت رأسها وحدقت إلى الظلام، وحاولت أن تفهم ما أراد الصوت أن يقوله لها. فقد ظل الصوت يكرر كلمتين مألوفتين. استطاعت أن تتبينهما، وأدركت أنها تعرفهما، ولكنها عجزت عن تحديد معناهما بالضبط. واصلت الإصغاء وكأنها مسحورة. كان الصوت ملحاً، لأنه استمر بتكرار الكلمتين إلى أن تمكنت أخيراً من فهمهما.

"سيدة إسراء... سيدة إسراء...".

حالما استوعبت الكلمتين، أشرق ضوء الشمس داخل الغرفة، متسرباً من النافذة، وأعاد إلى أغراضها مظهرها الحقيقي. فميزت غرفة إقامتها، وهي غرفة صف صغيرة في مدرسة ابتدائية كانت قاعاتها تغص بأطفال القرية قبل شهرين فقط، إلا أنها الآن ممتلئة بحاجياتها. جلست على سريرها بحركة واحدة سريعة. فقد سمعت شخصاً ما يطرق باب غرفتها بجنون، بينما واصل صوته مناداتها بإلحاح باسمها.

"سيدة إسراء... سيدة إسراء".

نهضت من سريرها من دون أن تخطر ببالها أية فكرة حول ما تريد فعله، وتوجهت نحو الباب مباشرة. ولكن، عندما وصلت إلى وسط الغرفة توقفت عن المشي، وحاولت أن تهدئ من روعها. في تلك اللحظة، أدركت أنها لا ترتدي سوى قميص قطني. فنادت الشخص المنتظر أمام الباب قائلة: "دقيقة واحدة. إنني قادمة حالاً". كان صوتها يرتعش بسبب الرعب الذي شهدته في كابوسها. تناولت سروالها القطني الذي تركته على الكرسي بجانب السرير. لا بد أن الشخص الواقف عند الباب سمعها، لأنه كف عن الصراخ. وبينما هي ترتدي سروالها، فكرت في الصوت، وشعرت أنها واثقة من أنها ميزت نبرته، ولكنها لم تستطع أن تتذكر اسم صاحبه والنعاس لا يزال يسيطر عليها. وعندما فتحت الباب، ووجدت نفسها أمام نظرات عينيه الداكنتين الخجولتين، أدركت أن الصوت هو صوت النقيب أشرف.

كان النقيب واقفاً على بعد خطوة واحدة من الباب. وحالما رأته،

انفرجت شفتاها عن ابتسامة. لم تشعر من قبل أن الأزياء الموحدة تثير إعجابها، ولكن القماش الأخضر البسيط الذي ارتداه أشرف تخلى في نظرها عن وظيفته المعهودة، واكتسب مظهر الملابس العادية. فكرت في أيام دراستها الثانوية، عندما اعتادت أن تسخر من الفتيات اللواتي يخرجن مع طلاب الكلية الحربية وتدعوهن بالمعتوهات اللواتي سحرتهن ملابس الضباط. ومع ذلك، لم يعترها الآن أي خجل حيال "التنازل" إلى هذا المستوى. في الواقع، وبالرغم من اعتقادها أن نشوء علاقات من هذا النوع خلال مهمات التنقيب عن الآثار التي تعمل فيها يؤثر تأثيراً سلبياً على مستوى إنتاجها، فإنها لم تمنع نفسها من الاهتمام بهذا النقيب.

حالما تخطت إسراء الصدمة التي اعترتها لهذه المفاجأة الصباحية، عادت أفكارها بقلق إلى مظهرها الفوضوي. فقد خرجت أمام الرجل من دون حتى أن تكلف نفسها عناء النظر في المرآة لتنسق شعرها وتحرص على الظهور بمظهر لائق. إذ إن وجهها عادة كان يبدو في الصباح متورماً، وعينيها كالدم، ولكنها صباح هذا اليوم ظلمت نفسها بالتفكير بأفكار من هذا النوع. فشعرها المشعث الذي انسدلت خصلاته على وجهها منحها تعبيراً موحياً بالبراءة، بينما أخذت عيناها العسليتان تلمعان بلطف تحت جفنيها المثقلين بالنعاس.

لم يكن جمال إسراء من النوع الذي يكشف عن نفسه بوضوح من النظرة الأولى، بل كان جمالاً يكتشفه المرء بشكل تدريجي بمرور الزمن. وبالرغم من بلوغها أواسط العقد الثالث من العمر، إلا أنها كانت تتمتع بوجه منمنم التكوين، لم تتجرأ التجاعيد على غزوه، وكانت عيناها العسليتان الكبيرتان ترنوان من تحت حاجبين بنيين، ومن فوق أنف صغير وذقن غير منتظم بعض الشيء وشفتين تبدوان وسطاً بين الامتلاء والنحافة. ولم تضف الشائبة الواضحة التي تكمن في فمها المائل إلى الجانب والتي تزداد وضوحاً عندما تتكلم إلا لمسة من الطفولية وشيئاً من الظرف والمرح على ملامحها الجادة. ويبدو أن إسراء غافلة عن جمال ملامحها، فهي لم تجد نفسها جذابة على الإطلاق.

ارتسمت ابتسامة متكلفة على وجه النقيب وهو يلقي التحية على إسراء. وقد بدا عليه الارتباك بينما كان يبحث عن الكلمات المناسبة ليبدأ بها حديثه: "أعتذر لأنني أيقظتك، إلا أنني مضطر. حاولت مخابرتك على هاتفك المحمول، ولكنني وجدته مقفلاً".

أجابته إسراء: "لا ضير في ذلك، فأنا أستيقظ في مثل هذا الوقت

عادة". وأدركت في اللحظة التي أنهت فيها كلامها نظرة القلق البادية على وجهه. فسألته: "ما الخطب؟ ماذا حدث؟".

جهد النقيب محاولاً النظر إلى إسراء بثبات، إلا أن حدقتي عينيه كانتا تتحركان بتوتر. وبعد لحظة، نطق بالخبر السيئ.

"لقد مات الحاج عبد الستار".

بدا على إسراء وكأنها تلقت لكمة عنيفة موجعة، ومرت أمام عينيها صورة الحاج عبد الستار بلحيته البيضاء، ووجهه البشوش، وقبعته ذات الكرة الصوفية التي أضفت عليه مظهر رجل دين أرمني عاش قبل آلاف السنين.

"مات؟".

في الواقع، سمعت ما قاله النقيب بوضوح تام، ولكنها أرادت أن تتيقن مما سمعته.

"نعم، لقد مات صباحاً". شعر النقيب بالأسى وهو يبلغها هذا الخبر المؤسف. وتابع قائلاً: "لقد سقط من أعلى المئذنة عندما صعد ليرفع الأذان كحاله فجر كل جمعة".

سقط من أعلى المئذنة؟!

وتمتمت قائلة: "ما كان ينبغي عليه أن يصعد إلى تلك المئذنة المرتفعة وهو في هذه السن".

هز النقيب رأسه بأسى، وقد خمن ما يدور في ذهن إسراء، وقال: "إننا لا نظن أن الأمر حادث عرضي، بل نعتقد أن شخصاً ما ألقى به من أعلى المئذنة".

سألت الشابة بقلق: "هل أنت واثق مما تقوله؟".

"إن سياج شرفة المئذنة مرتفع نوعاً ما، وهذا ما يجعل احتمال سقوطه من جراء فقدانه التوازن مستحيلاً. فلا بد أن هناك من دفعه...".

حاولت التأكد من كلامه قائلة: "أنت تخمن، أليس كذلك؟".

فرد عليها قائلاً: "لا للأسف. فقد شاهدت جماعة المصلين راهباً متشحاً بالسواد يهرب مبتعداً عن المسجد...".

وجدت إسراء في سقوط الحاج من على المئذنة ومشاهدة راهب يلوذ بالفرار أمراً يدعو للإرباك، فصعُب عليها استيعاب ما حدث.

قاطعته قائلة: "مهلاً، ياسيد أشرف. هذا كله غير معقول. تفضل بالدخول، ودعنا نناقش الأمر من بدايته".

تردد النقيب للحظة، ثم ما لبث أن التفت إلى الجندي الذي ينتظره

أمام سيارة الجيب المركونة ويحمل بندقية، وقال له: "لا تبرح المكان. سنغادر قريباً".

وقف الجندي بوضعية الاستعداد، وأجاب رئيسه: "حاضر سيدي".

دخل النقيب غرفة إسراء، وقبل أن تغلق الباب، نظرت نظرة خاطفة إلى نهر الفرات الذي تجري مياهه بعيداً خلف الجندي الشاب، وقد بدا لون المياه أزرق ومائلاً إلى الأرجواني تحت أشعة شمس الصباح المشرقة. كان النهر يجري بصمت كدأبه منذ آلاف السنين.

حالما انتبهت للفوضى العارمة التي ضربت أطنابها في الغرفة، ندمت لدعوتها النقيب للدخول، ثم سخرت من هذه الفكرة التي خطرت ببالها. فكيف يمكنها أن تفكر في ترتيب الغرفة بعد الخبر الصاعق الذي حمله لها النقيب، والذي قد يضع مشروع التنقيب الذي تعمل عليه في خطر!؟ أضف إلى ذلك أنه لم يبدُ على النقيب أنه يعير اهتماماً للغرفة وترتيبها. دعت إسراء النقيب للجلوس على كرسي بجانب الطاولة.

انهار النقيب على كرسيه، بينما استقرت إسراء على الكرسي المقابل له. لفتت الصور الفوتوغرافية المبعثرة على الطاولة انتباه أشرف على الفور، فراح ينظر باهتمام شديد إلى الصور المنوعة التي تظهر عليها بعض الكتابة المسمارية، حيث قد يحسب المرء أنه يجيد قراءة هذه اللغة. وسرعان ما جمعت الصور ووضعتها أمامها.

"هل أنت واثق من أن الحاج عبد الستار قتل؟".

قال النقيب: "أظن ذلك بكل أسف". ثم استنتج ممعناً النظر إلى وجهها بخجل: "تشير إفادات شهود العيان والتحقيقات التي أجريناها إلى أن ما حدث جريمة قتل وليس وفاة عرضية". رأت على وجهه خوفاً، وهو الذي خدم في الجبهة خلال الحروب، وشارك في عشرات الاشتباكات القتالية، وشاهد مئات الجثث؛ فجعلها هذا الخوف تشعر بالدهشة والانـزعاج في آن معاً. فقد انـزعجت لأنها وضعت النقيب أشرف في قمة لائحة الأشخاص الذين يمكنها أن تضع ثقتها بهم. إذ قدم الدعم لفريق التنقيب عن الآثار منذ اليوم الأول لبدء الموسم، وبادر بمدهم بالمساعدة كلما احتاجوا إليها، ولكنها ربما أخطأت التقدير. فربما لم يشعر النقيب بالخوف، بل بالدهشة أمام هذا المصاب الجلل، ولكنه ارتبك وعجز عن أن يقرر ما يفعله حيال ذلك.

قالت إسراء محاولة قدر استطاعتها التحلي بمظهر المتماسك: "أصغ إلي ياسيد أشرف. لا بد أنك تدرك أهمية هذا الأمر. فإن انتشر الخبر بأن

الحاج عبد الستار قد دفع من فوق المئذنة، وأن راهباً بملابس سوداء هو الفاعل...".

أجاب أشرف بيأس: "لقد بدأ الخبر بالانتشار بالفعل. فقد ألقى السيد عابد إمام المسجد خطبة أمام جثمان الفقيد قال فيها إن هذا الحادث وقع لأنكم نبشتم الضريح الأسود".

ارتعشت أوصال إسراء. فالقصة التي خطرت ببالها على أنها مجرد إمكانية حين وصلت إلى المنطقة وشاهدت الضريح المقدس عند الموقع الأثري بدأت تتخذ شكلاً فعلياً.

"يا للسخف! كيف يمكن لفكرة من هذا القبيل أن تخطر ببالهم؟".

لم يجبها النقيب، ولكنها ظنت أنه فكّر في أن الأمور ستعود إلى سابق عهدها إن توقفت حملة التنقيب، والأهم من ذلك هو أنها أدركت أنه لو أراد ذلك لوضع بالفعل حداً للحملة. ومع ذلك، فالسؤال الذي راودها هو: هل سيقدم فعلاً على هذا العمل؟

خاطبته بعد فترة وجيزة من الصمت: "عليكم العثور على الجاني أياً يكن". انتبهت أن نبرة صوتها أتت أعلى من اللازم، ولكنها لو بقيت ملتزمة الصمت لتمكن التردد الذي سيطر على النقيب من الإمساك بها بين براثنه. كررت كلامها بتصميم: "العثور على الفاعل يثبت أن لا علاقة لهذه الجريمة بمهمة التنقيب عن الآثار التي نقوم بها".

ظنت أنها لمحت لمعة في عيني النقيب، فتابعت كلامها بنبرة تنم عن قناعة راسخة بعد أن اعتبرت ذلك مؤشراً على أنها أحدثت تأثيراً إيجابياً فيه.

فقالت: "هذه منطقة صغيرة. ولا ينبغي أن تجدوا صعوبة في القبض على المجرمين فيها".

تمتم أشرف بقلق متجنباً النظر إلى عينيها: "لن يكون من السهل القيام بذلك إن ثبت أن المتمردين هم من يقفون وراء الجريمة".

"المتمردون؟ أتعتقد أنهم هم من قتلوا الحاج عبد الستار؟".

"بكل تأكيد".

ردت إسراء: "شكراً لأنك أعلمتني. ولكن فكرة وقوف المتمردين وراء الجريمة لا تبدو منطقية بالنسبة إليّ. لماذا قتلوا الحاج؟".

"لهز ثقة الناس بالدولة، وإحداث بلبلة".

لم تقتنع بما قاله: "بوجود الكثير من الأمور التي يسعهم استخدامها، لا أظن أنهم بحاجة إلى ارتكاب جريمة من هذا النوع".

"إنك لا تعرفين هذه المنطقة وسكانها على الإطلاق. فأنت تنقبين في منطقة يعتبرونها مقدسة، وهذا ما بعث القلق في نفوسهم. لن يتردد المتمردون في استغلال أية فرصة لإحداث الفوضى، ولهذا السبب قتلوا الحاج عبد الستار".

"أظن أن آخرين يقفون وراء هذا العمل".

نظر النقيب إلى الشابة وكأنه يحاول استيعاب ما أرادت أن تتوصل إليه.

تابعت قائلة: "أظن أن بعض المتعصبين هم من قتلوا الحاج. فقد قلت بنفسك إن الحاج "عابد" بدأ يتحدث عنا فور وصولنا، كما أنك تعلم أنني أتلقى اتصالات تهديد".

"ولكننا لسنا واثقين من أن الأشخاص الذين يهددونك من المتعصبين".

"أظن أنهم كذلك. يمكنني أن أعرف ذلك من أسلوبهم، فهم يذكرون عبارات ذات دلالة دينية عند تهديدهم لي. وبالرغم من تهديداتهم المستمرة، فهم لم يشتموني قط".

ثم أضافت: "ما من شيء أكيد. عندما تقبضون على الفاعلين فستتضح الأمور، ولن نعاني من أية مشكلات مع السكان المحليين بعد الآن على حد سواء".

"حتى لو ألقينا القبض على المجرمين، فسيلقي السكان اللوم على حملة التنقيب عن الآثار. قبل قدومكم كان كل شيء على ما يرام، ثم أتيتم وقلبتم الحياة الهادئة إلى فوضى عارمة، هذا ما سيقولونه".

اعترضت قائلة: "ولكن هذا محض افتراء".

فأتى رد النقيب سريعاً عندما قال: "سمّيه ما تشائين ياسيدتي. ولكن، هذا هو ما يعتقده الناس". فجعل كلامه إسراء تلجأ لصمت مطبق.

بعد قليل، سألته بصوت حاد قائلة: "حسناً، ماذا سنفعل الآن؟ هل سنوقف المهمة من دون أن نكملها؟".

"صدقيني إن قلت لك إنني لا أعلم ياسيدتي".

بدأ الموقف المستسلم الذي اتخذه النقيب يثير أعصابها.

فقالت: "أصغ إليّ حضرة النقيب". وتعمدت أن تشدد على كلمة نقيب ، ثم تابعت قائلة: "ربما أنت لا تعرف ماذا ستفعل، ولكنني سأواصل مهمة التنقيب عن الآثار إلى أن يتم إنجاز أهدافها بشكل كامل. فقد اكتشفنا الكثير من المكتشفات بالغة الأهمية، لذا لن أترك هذه المهمة من دون إكمالها خوفاً من بعض المعتقدات الشعبية التي لا أساس لها من

الصحة".

حلت محل نظرة الحيرة في عيني النقيب الداكنتين نظرة شجب واستنكار، وقال لها بلهجة الخبير: "لقد قتل شخص ما".

ردت عليه بانفعال: "لهذا السبب ينبغي علينا ألا نتخلى عن إكمال هذه المهمة. فلطالما وقف الحاج عبد الستار إلى جانبنا، وأكد أن تنقيبنا عن الآثار في موقع الضريح المقدس لا يدل على أية قلة احترام من جانبنا، وربما لهذا السبب تعرض للقتل. إن هجرنا الموقع الأثري، فهذا تصرف يدل على الاستخفاف بذكرى الحاج عبد الستار. يجب علينا مواصلة العمل لكي يدرك القتلة أنهم لم يحققوا أهدافهم الدنيئة".

هذه المرة، أحدث كلامها تأثيراً على النقيب. فقد تبددت سحب الغضب من ملامحه، وحل محلها تعبير أشد تصميماً، ولكن من الصعب القول إن حديثهما ساهم في تهدئته. فخيم الصمت عليهما لبعض الوقت وهما جالسان هناك، إلى أن اقترب النقيب وأشار إلى الصور.

وسألها قائلاً: "أهذه هي صور المكتشفات الأثرية التي تم العثور عليها في الموقع؟".

نظرت إسراء بدورها إلى الصور، ثم قالت: "نعم. إنها الألواح الأولى التي عثرنا عليها. لقد كتبت قبل ألفين وسبعمائة سنة".

أمسك النقيب بإحدى الصور، وراح يتفحص الخربشات المنقوشة عليها، واستفسر قائلاً: "من كتبها؟".

"الحثيون، أو بالأحرى الحثيون الجدد".

"أهم من ندعوهم بالإتّيين؟".

"نعم، إنهم مؤسسو أول إمبراطورية كبيرة في الأناضول. ورغم أنهم يتحدرون من أصول هندو- أوروبية، إلا أن هناك أوجه شبه تجمعهم بأسلافنا العثمانيين. فهم هاجروا إلى الأناضول من الخارج. وكما فعلت القبائل التركية، عاشوا مع سكان الأناضول لقرون، واختلطوا مع السكان المحليين قبل أن يؤسسوا إمبراطورية ضخمة. وعندما أقول إنها ضخمة، فأنا أعني أنها شاسعة ومترامية الأطراف. ففي ذلك الوقت من الماضي، حلت إمبراطوريتهم في المرتبة الثانية فقط بعد مملكة المصريين".

قال النقيب بتأثر واضح: "هذا رائع. ما نوع هذه الكتابة؟".

"إنها كتابة مسمارية. في الواقع، اعتاد الحثيون الجدد استخدام الكتابة الهيروغليفية. ومع ذلك، فقد استخدم الكاتب في هذه الألواح الكتابة المسمارية ليجعلها أكثر دواماً. لقد تعمد كتابتها باللغة الأكادية ليجعلها في

متناول أكبر شريحة ممكنة من الناس. فقد كانت الأكادية وقتها أشبه بالإنكليزية اليوم، حيث كانت اللغة التي ساعدت الناس في بلاد الرافدين والأناضول على التواصل مع بعضهم بعضاً".

"هل يمكنكم فهم المكتوب؟".

"بالطبع... فقد تمكن خبير اللغات البائدة الأميركي تيموثي هيرلي من فك شيفرة عشرة ألواح حتى الآن. ويتضح لنا أن ثمة اكتشافاً مثيراً للاهتمام بين أيدينا؛ لأنها لا تبدو أبداً مثل الألواح التي اكتشفناها من قبل".

انعقد حاجبا النقيب من الحيرة، فسأل قائلاً: "كيف ذلك؟".

"عادة، تتناول الألواح مواضيع مثل المواثيق الملكية والنصوص الدينية والمعاهدات الدولية والقانون الاجتماعي أو القصائد الملحمية، ولكن ثمة قصة مختلفة كل الاختلاف مدونة في هذه الألواح".

سأل النقيب بفضول: "قصة؟".

"حسناً، كلمة قصة ليست دقيقة كل الدقة، بل ربما يجب أن أقول إنها اعترافات. وعلى أية حال، فهذه الألواح تحتوي على أقدم وثيقة تاريخية غير رسمية معروفة حتى الآن، أي أن هذه الألواح لم يطلب أي حاكم أو ملك كتابتها".

"من كتبها إذاً؟".

"شخص يدعى باتاسانا. لقد شغل هذا الرجل منصب كبير كتبة القصر الملكي، وهو منصب حكومي مهم عند الحثيين. كان أولئك الكتبة عادة يتمتعون بدرجة عالية من الثقافة ويجيدون عدة لغات. وكانت مهامهم تتركز على صياغة النصوص كما يمليها عليهم الملك، لا أن يدونوا مشاعرهم الخاصة وأفكارهم وذكرياتهم، ولكن هذا لم يمنع الكاتب باتاسانا من كتابة اعترافاته الخاصة. لهذا السبب، إننا نجد هذه الألواح على قدر كبير من الأهمية، ونفكر في أن نعلن هذا الاكتشاف للعالم أجمع في وقت قريب".

"هل اكتشافكم مهم إلى هذا الحد فعلاً؟".

"إنه على قدر بالغ الأهمية. هل سمعت من قبل بملحمة جلجامش؟".

"سمعت عنها، ولكنني لم أقرأها".

"حسناً، إنها من أقدم الملاحم المكتوبة في التاريخ البشري. نحن نعتقد أن هذه الألواح على القدر نفسه من الأهمية، لأننا نظن أن ما لدينا هنا هو أقدم توثيق للتاريخ غير الرسمي للبشرية. سنعقد مؤتمراً صحفياً دولياً في غضون أيام. فقد بدأ المعهد الألماني لعلم الآثار يبحث في التفاصيل التي

سنقوم بها من أجل الإعلان عن هذا الاكتشاف التاريخي المهم".

"ما الذي كتبه ذلك الرجل حيث يجعله مهماً إلى هذا الحد؟".

"نظن أنه يروي قصة المدينة القديمة في أيامها الأخيرة قبل سقوطها، ويجمع بين تاريخ المدينة وتاريخه الشخصي على حدٍّ سواء، فقد بدأ كتابة اللوح الأول بعبارة كنت وغداً يعيش في زمن الطغاة ".

تأمل النقيب صور الألواح قبل أن ينهض معلناً أن الوقت قد حان للمغادرة. ومع ذلك، فحالما نهض، توقف للحظة ليلقي نظرة أخرى على الصور، ثم التفت إلى إسراء وقد ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتيه: "لقد كتب كنت وغداً يعيش في زمن الطغاة ، أليس كذلك؟".

á á á

اللوح الأول

كنت وغداً يعيش في زمن الطغاة؛ وغداً حُوّل إلى جبان رعديد، بل إلى أشد الأوغاد بغضاً وأكثرهم تفاهة وحقارة؛ وكاتب قصر كائد تغذى قلبه على التملق وعقله على الكراهية والعداء.

في الوقت الذي كان ينبغي عليّ فيه إتمام القصائد بتأثير القوة التي نفختها فيّ أنفاس السادة الحقيقيين؛ أنفاس تيشوب وزوجته هيبات بالإضافة إلى كوبابا، هجرت الشعر ولم أتردد في خيانة كل شيء؛ حتى موهبة كتابة المعاهدات التي لا تخدم سوى مصالح الملوك.

أنا ذلك المرائي الذي يظهر في الطقوس الرسمية مخفياً ألمه العميق وراء الملابس الفخمة، والكره الشديد الذي غزا جسده خلف قناع سعادة أثخن من البرونـز ليمثل بين يدي ملك الحثيين عند كل أمر من أوامره.

أنا الأكثر دناءة على وجه الأرض، أنا الذي تجاهل معاناة حبيبته حتى ماتت من أجل حبهما، وآثر أن يلتزم الصمت وأن يضم يديه على صدره بكل وقار ولاءً للملك. أنا عار على الرجال، وأكثرهم وضاعة. أنا الذي لم يتردد في اللجوء إلى الظل الفخم لوجوده عديم القيمة الذي راح يزداد ويتسع بين جدران القصر الحجرية بدلاً من أن يؤثر الموت في سبيل حبه الوحيد.

أنا باتاسانا مستشار الملك بيزيريس وكبير كتبة قصر الحثيين والعضو المهم في برلمان بانكو وأشد النبلاء انحطاطاً.

أنا من يسبح بين جثث الموتى، ومن حُكم عليه بالتلوي ألماً إلى الأبد. أنا كبير كتبة القصر، باتاسانا.

أنا باتاسانا البائس الذي استطاع بالمعاهدات والرسائل أن يغير قدر بلاده، ولكنه عجز عن التأثير على مسار حياته.

أقول لك يامن ستعثر على هذه الألواح أن تتوخى الحذر لكي لا تحل عليك اللعنة التي حولت حياتي من شجرة مزهرة إلى غصن يابس، ولئلا يُحكم عليك بعمر كامل من التعاسة بأوامر ملك طاغية كما حدث معي.

قبل أن تقرأ هذه الألواح، اذهب إلى المعبد، وخذ معك قرابين ونذوراً، وقدم احترامك لسيدي وسيدك تيشوب وزوجته هيبات بالإضافة إلى كوبابا. قدم كل هذا كي لا يضاف شخص آخر إلى الآلاف الذين تعرضوا للصلب والسلخ والحرق والنفي من بلادهم بسببـي، ولكي لا تؤدي هذه

اللعنة التي حلت عليّ قبل سنوات عدة لدمار شخص آخر.

إن لم تفعل ما أمرتك به، فإياك أن تقرأ هذه الألواح أو تمسها بيدك، ولا تتنفس الهواء الرطب الذي يملأ هذه الغرفة الحجرية تحت الأرض حيث أخفيتها. وسواء أكنت شاباً له ساقان قويتان كساقي مهرة فتية، أو مسناً بالكاد تقوى على الوقوف على قدميك، فاهرب وابتعد من هنا. لا تذكر هذه الألواح لأحد ولا لأقرب الناس لك ولا حتى لزوجتك. عندئذ قد يسامحك تيشوب وزوجته هيبات بالإضافة إلى كوبابا، وقد تنجو من هذه اللعنة التي انهارت كجدار على مدينة الحكمة هذه وعلى شواطئ نهر الفرات البراقة.

أنت، يامن مظهرك غريب عن عيني وصوتك غير مألوف لأذني واسمك غائب عن ذاكرتي، أعرف أنني في الوقت الذي ستدخل فيه إلى هذه الغرفة تحت القصر؛ هذا المأوى الذي اتخذته لنفسي لأخفي فيه هذه الألواح سأكون عندئذ قد غادرت إلى عالم الموت. وأدرك أنه لن يُغفر لي ولن أُسامح حتى بعد موتي، بل ستبقى هذه اللعنة التي تحرق قلبي وتمزقه تلازمني إلى الأبد، وهذا ما سيحصل لأنني لا أتمنى أن أنال الغفران. إنني أستحق هذا المصير، ولكن أمنيتي الوحيدة هي أن يعرف أولئك الذين سيأتون من بعدي عن حياتي وما عشته وما مررت به. لهذا السبب دوّنت هذه الألواح وشويتها بالنار، وجعلتها قاسية لتصمد أمام عوامل الزمن. وبعدها، حفظت هذه الألواح بالترتيب على الرفوف التي وضعتها في هذه الغرفة تحت القصر. والآن، هذه الألواح لك أنت. هذه الألواح لمن يجدها.

قد يخامرك الشك حيال ما كتبته، ولكن يجب أن تكون واثقاً من أن هذه الألواح المسمارية لا تحوي بين سطورها كلمة زيف واحدة. فقد كتبت فيها عن خوفي، وشجاعتي، وطيبتي، وشروري، وثقتي، وشكي، وتعاطفي، وخيانتي، وأنانيتي، وتضحيتي بنفسي كما حدثت بالحرف الواحد. ثم قلّبت هذه الاعترافات في ذهني، وأقصيت عنها تلك الكلمات المبتذلة والمزيفة والمبالغ بها، لذا أتمنى ألا يعتري الملل من يأخذ هذه الاعترافات وهذا العهد الكبير الذي قدمته بين يديه، وأن يقرأها جملة واحدة كما يقرأ أسطورة تيليبينو. ورغم أنني فشلت في التعبير عن أفكاري بأسلوب بليغ، يجب أن تكون واثقاً من أن ما كتبته لا يحتوي على كلمة كذب واحدة. فكلماتي الكاذبة هي تلك التي حفرتها على جدران بوابة المياه ثناء على الملك بيزيريس. بتلك الكلمات زخرفت حروفاً للملك ميداس ملك الفريجيين لأخدعه، وربطت تلك الكلمات ببعضها لأُربك الملك روسا ملك الأورارتيين،

وبعثتها لأستفز الملك الآشوري سرجون. لجأت للمبالغة والخيال وكلمات الكذب المعسولة لأخدع الملوك الذين تلمع أسماؤهم الضخمة في السماء، ولكن لهم نفوساً صغيرة تافهة تنتفخ غروراً لسماع كلمات المديح المزيف والنفاق والتملق. ولكن، لا توجد كلمة واحدة من تلك الكلمات بين كلمات الألواح التي ستجدها.

أيها الغريب، يامن ستشاركني أسراري ومكنونات قلبـي، سواء أكنت من أفراد العائلة المالكة أم رجلاً تقياً، وسواء أكنت طيب القلب أم طاغية أو أحمق لا تعي شيئاً، لست أدري، فأنا آمل أن تكون إنساناً صالحاً، وأتمنى أن يمتلئ قلبك بالحب والشجاعة، وأن تتحلى بالذكاء الكافي لتفهم ما تقرؤه، وأن تتعلم مما تفهمه. أريدك أن تخبر الآخرين عما قرأته، وأن يخبروا هم غيرهم بدورهم. أتمنى أن ينتقل مصيري الأسود همساً من أذن إلى أخرى، وأن يترجم إلى كل لغات حوض نهر الفرات، وأن يدون على الألواح، وينتقل من المسنين إلى الشباب، وأن يكبر الأطفال مع هذه الأسطورة، عندئذ فقط قد يبدأ الناس بتحكيم عقولهم أكثر ويكفون عن الطغيان، وربما عندئذ سيكون هناك موت أقل وألم أقل.

á á á

الفصل الثاني

بعد تلقي إسراء للخبر السيئ، خيّمت عليها ظلال قاتمة من الحزن انعكست على وجهها. وقد بدا ذلك جلياً عندما وقفت أمام الباب تشاهد سيارة النقيب وهي تبتعد متخبطة على الطريق. وبالرغم من أن الشمس لم تصل إلى ذروتها بعد، فقد بدأ الحر يكتنف المكان. في تلك المنطقة، لا تستمر برودة الصباح لوقت طويل، فبعد برد الليل الذي يجعل الإنسان يتجمد حتى النخاع، يدنو الفجر شيئاً فشيئاً محولاً السماء من اللون الأسود إلى الرمادي، ثم يكسبها لوناً برتقالياً. وما إن تشرق الشمس، حتى تحل حرارة لا تطاق محل البرد، فتلهب الحدائق والحقول التي تعلّم حدودها حجارة كبيرة، والقرى ببيوتها المبنية من الآجر، والقلعة الحصينة بجدرانها التي تقف صامدة بوجه الزمن، والمدينة الأثرية بقصرها المهدم ومعابدها ومعتقداتها وأسرارها الدفينة التي لا حصر لها والتي ظلت عاصمة الحثيين لمئات السنين.

اعتاد عمال فريق التنقيب بدء العمل قبل شروق الشمس، ليقوا أنفسهم القيظ قبل أن يتلاشى الضباب الرقيق عطر الرائحة المتصاعد من نهر الفرات في السماء الزرقاء الواسعة. فإن انتصفت فترة الصباح، وضعوا أدواتهم جانباً، ولم يعاودوا العمل مجدداً إلاّ بعد أن يبدأ الحر بالتلاشي، وتبدأ الشمس بالهبوط نحو الأفق، عندئذ يعود خبراء الآثار إلى موقع الحفر ليتابعوا عملهم. ولكن اليوم هو الجمعة؛ أي يوم العطلة، حيث يذهب الجميع؛ حتى أقل العمال تديناً لتأدية صلاة الجمعة في المسجد. وهكذا، فقد سُلمت مهمة حراسة موقع التنقيب للمهرب السابق سيلو ببندقيته التي تلقم من الخلف. ولو وقعت الجريمة في يوم آخر، لتوجب على النقيب البحث عن إسراء في موقع التنقيب.

تمنت إسراء وهي تتأمل سيارة النقيب تشق طريقها مبتعدة، لو أنه لم يعثر عليها، ولم ينقل لها الخبر. فكلما أمعنت التفكير في الأمر أكثر، أدركت الكارثة التي قد تنتج عن مقتل الحاج عبد الستار. لقد ساهم كل تفصيل خطر ببالها في خفض روحها المعنوية وزيادة تشاؤمها أكثر من ذي قبل. فشعرت أن النقيب أشرف قد استعاد ثقتها به ولاذ بالفرار. وتلاشى الحزم الذي أظهرته أمامه قبل بضع ثوان كسحابة تبددت في مهب الريح؛ بالضبط كما فعلت سحابة الغبار تلك التي ثارت خلف عجلات سيارته، ثم اختفت. شعرت أنها عاجزة، كفتاة صغيرة تركت وحدها في بلاد غريبة تماماً

لا تدري عنها شيئاً.

لقد كان أشرف محقاً في ما قاله. إذ أدركت إسراء أنه ليس بوسعها الادعاء بأنها تعرف سكان تلك المنطقة حق المعرفة، بالرغم من مخالطتها لهم في عدة مناطق من الجنوب الشرقي لشهرين أو ثلاثة أشهر في مواسم التنقيب صيف كل عام طوال السنوات العشر المنصرمة. خلال ذلك الوقت، حلت ضيفة على بيوتهم، وأشرفت عليهم كعمال في مواقع الحفر، وساعدت النساء على الولادة، وحضرت حفلات الزفاف، وشهدت جهلهم وكرمهم وفقرهم وأعمالهم الماكرة الصغيرة وصدقهم وتدميرهم القاسي لبعضهم بعضاً، لكنها بالرغم من ذلك عجزت عن سبر أغوار صمتهم المتجهم الذي لا يغيب عن وجوههم الداكنة التي تركت الشمس اللاهبة أثرها عليها بكل قسوة. لم تستطع أن تعرف إن كانوا يخفون جهلهم أم غرورهم وراء صمت المضطهدين الذي يتسم به كل أولئك الناس برجالهم ونسائهم وشيبهم وشبانهم على حدٍّ سواء، ويرتدونه على وجوههم كقناع. طوال السنوات العشر الماضية، لم تشعر أنها قادرة على تحديد نظرتهم للحياة والدوافع الحقيقية الكامنة وراء أعمالهم وطريقة تفكيرهم. وبالرغم من عيشها معهم في البلد نفسه، إلا أنهم ظلوا بالنسبة إليها غرباء لا يمكنها أبداً أن تتوقع نواياهم المضمرة وأفعالهم التالية، وهذا الغموض بالتحديد هو ما زاد من حدة قلقها منذ أن بدأت المشكلات تظهر بسبب الضريح الأسود. في البدء، بدت المسألة وكأنها سويت بفضل أسلوب النقيب أشرف الحازم، وقدرة الحاج عبد الستار على تهدئة النفوس ونشر السلام بين الجميع. لكن الآن، وبعد أن تلقى الجميع خبر مقتل الحاج، بدأ القلق يتفاقم في داخلها من جديد، هذه المرة أكثر من ذي قبل. لسبب ما، لم يخطر ببالها سوى أسوأ الاحتمالات، ولاحت أمام عينيها أكثر المشاهد رعباً، حتى إنها تخيلت القرويين يثورون على خبراء الآثار الذين سيعتبرونهم مسؤولين عن كل ما حدث حاملين قميص الحاج عبد الستار المضرج بالدماء وهم يصيحون "الله أكبر"، وهم قادمون لرجم الموقع الأثري بالحجارة كما رأت في كابوسها الليلة الفائتة، ثم سيقبضون على أفراد الفريق ويدفنونهم أحياء في غرف القلعة الأثرية التي تقع تحت الضريح الأسود.

تمتمت وهي تلوح بعنف بيدها اليمنى في الهواء، وكأنها تحاول أن تطرد كل تلك الصور السلبية: "يجب أن أحافظ على هدوئي". فجأة، خشيت أن يراها أحد وهي تقوم بهذه الحركات الغريبة، لذا دخلت غرفتها

مسرعة. وما إن خطت قدماها الغرفة حتى فكّرت، لماذا لم أخبر الآخرين بما يجري؟ فإن كان لا بد من اتخاذ قرار فليتشارك الجميع في اتخاذه، وبهذه الحالة تحرّر نفسها من عبء تحمل المسؤولية بمفردها. كان لهذه الفكرة أثر مريح عليها، ولكن صوتاً في أعماقها نبأها أنها ترتكب خطأ، وذكّرها أنها رئيسة الحملة والشخص المخول اتخاذ القرارات. في الواقع، كان الشخص المخول إيقاف حملة التنقيب هو من يسمى أخصائي الآثار المجاز. فعلى عكس مدير الحملة، يؤدي أخصائي الآثار المجاز من الحكومة مهمات المشرف القانوني الذي يقوم بجرد المكتشفات الأثرية والإشراف على خبراء الآثار الأجانب، كما أنه يتمتع بالسلطة التي تخوله إلغاء المهمة برمتها إن وجد ضرورة لذلك. لحسن الحظ، كان زميلها كمال خبير الآثار المجاز في هذه الحملة. ومع ذلك، فقد أتى إلى الموقع بمحض الصدفة. إذ إن "كمال"، وهو عضو في طاقم موظفي متحف إسطنبول، التقى المصورة إيلاف ووقع في حبها في حملة التنقيب عن الآثار التي حصلت العام الفائت، وتمكن بمساعدة بعض الأشخاص النافذين في الوزارة من تأمين تعيينه بصفته خبير الآثار المجاز في الموقع الذي تعمل فيه. بصراحة، وجدت إسراء أن من مصلحتها أن يتوفر لديها شخص مثل كمال يمكنها العمل معه بانسجام، وتعرف أنه لن يتدخل في عملها. فلو أنهم عينوا أحد الموظفين البيروقراطيين، فما هي الحالة التي سيؤول إليها العمل الآن؟ لربما قام بإيقاف الحملة على الأرجح. ولكن السؤال المهم الذي يطرح نفسه مرة أخرى هو: هل من الحكمة فعلاً عدم إيقافها؟ لقد وقعت جريمة، وهذا لا يهدد الحملة وحدها فقط، بل يجعل حياة أفراد فريق التنقيب في خطر، لذا من الطبيعي أن يكون من حق كل فرد من أفراد الفريق أن يبدي رأيه في موضوع استمرار المهمة أو إيقافها. بالرغم من كل ما تقدم، أدركت أنه يجب عليها اتخاذ القرار ومن ثم طرحه على أعضاء الفريق ليناقشوه، إلا أنها وجدت أن تصرفاً من هذا القبيل قد يعتبر ضعفاً من جانبها وسيربك الزملاء أعضاء الفريق.

في أثناء وقوفها حائرة، لاحظت وجود علبة سجائر على طاولة صغيرة بجانب سريرها، فتوجهت إليها من دون تفكير. وبينما هي تسحب سيجارة منها بسرعة وتضعها بين شفتيها، لاحظت أن يديها ترتجفان، عندها أدركت مقدار احتقارها للأفكار التي راحت تدور في رأسها والعجز الذي شعرت به، فانتزعت السيجارة من بين شفتيها، وألقتها على الطاولة، وكأنها تلومها على كل شيء. لم تكن بحاجة إلى سيجارة تنفث دخانها، بل كانت بحاجة

للسيطرة على أعصابها المتوترة. فإن استسلمت للفزع، فسينتهي مصير هذه المهمة- وهي أول مهمة تنقيب تتولى رئاستها- إلى فشل ذريع. أدركت أن فشلها لن يحدث تأثيراً سلبياً على منصبها في الجامعة وحسب، بل سيشكل خيبة أمل كبيرة لأستاذتها المرموقين كالسيدة بهيجة التي شجّعتها على تولي مسؤولية هذه المهمة، ورئيس معهد الآثار الألماني البروفسور كرينشر؛ وهو زميل لطالما مدها بالدعم والتشجيع. ما الذي ستقوله لإيلاف، وتيومان، وكمال؟ لقد عمل أولئك الشباب في مشروعها لعامين. وماذا عن المراسلات، وطلبات الحصول على الإذن، والجهود التي بذلت للحصول على ممولين وإقامة علاقات مع خبراء آثار أجانب؟ كل هذا استغرق شهوراً عديدة. وماذا عن الأجانب في فريق التنقيب عن الآثار؟ كيف ستشرح الموقف لهم؟ هل ستتصل بتيموثي وبيرند وتقول لهما: "إنني آسفة، ولكن بعض المعتقدات ستدفعنا لأن نشدّ الرحال ونمضي من هنا ببساطة بعد أن عثرنا على ما قد يكون أقدم وثائق تاريخية غير رسمية موجودة على سطح الأرض؟". فكّرت في أن تيموثي الذي يتمتع بخبرة أكبر قد يتفهم قرارها إلى حدٍّ ما، ولكن بيرند لن يفعل ذلك، ولا سيما بعد ما بذله من جهد من البداية للاستيلاء على منصبها فبات يمقت إسراء نتيجة لفشله في ذلك. ألن يسخر منها؟ ألن يكتب رسالة للمعهد الألماني للآثار، والمجموعة التي تغطي معظم تكاليف الحملة يقول فيها إن رئيسة الحملة المختارة من قبل جامعة إسطنبول، قد أفسدت المشروع برمته؟ كلا... كلا... لن تترك الحملة من دون أن تنهيها. توجب عليها أن تستجمع شتات أفكارها، وتقوم بالصواب. فقد أدركت أن على فريق الحملة أن يرى رئيسته واثقة من نفسها، وإلا فستفشل كل جهودها. أولاً، يتوجب عليها استعادة ثقتها بنفسها ورباطة جأشها اللتين تحلت بهما في اليوم الفائت قبل أن تخلد للنوم...

فكّرت إسراء في أنه ربما يكون الوهن الصباحي هو الذي دفعها بين براثن الشك وجعلها في حيرة من أمرها. تذكرت أنها لم تغسل وجهها بعد، وأن فعل ذلك قد يساعدها على استجماع أفكارها. فخرجت إلى الحديقة، وقصدت الصنبور الموجود تحت الكرمة، وفتحته وبدأت تغسل وجهها. فوجدت الماء بارداً كالثلج، ولكنها لم تكترث لبرودته، بل رمته على وجهها وبللت خلف أذنيها والجزء الخلفي من عنقها. لكن ولسوء الحظ، لم يبارحها القلق الذي ظل يتنامى في داخلها، ولم تتناقص الأسئلة التي راح رأسها يضج بها. حاولت تجاهل الأمر وقالت لنفسها: "إنك بخير. إنك على

ما يرام". ولكنها أدركت أنها ليست على ما يرام على الإطلاق، وأدركت أن قلقها انعكس على وجهها، وأنها باتت على وشك الصراخ عند أول استفزاز بسيط تتعرض له. عادت إلى غرفتها، ونظرت إلى علبة السجائر. تناولت سيجارة وهي تشعر الآن أنها عاجزة عن مقاومتها، ووضعتها بين شفتيها، ثم أشعلتها بصبر نافد، وأغمضت عينيها، وأخذت عدة أنفاس منها، فملأت رائحة التبغ الجو. وعندما فتحت عينيها، رأت الدخان الرمادي يتصاعد إلى السقف، فأخذت عدة أنفاس أخرى؛ وكأن الدخان سيتبعثر لو لم تفعل ذلك. نظرت إلى يديها فوجدتهما لا تزالان ترتجفان، ولكنها شعرت أنها أحسن حالاً الآن. جلست على الكرسي الذي نهض النقيب عنه قبل قليل، وبدأت تفكر.

لا بد أنهم قتلوا الحاج عبد الستار لكي يطردوا المنقبين عن الآثار من المنطقة. فكّرت في فياض الذي اعتاد أن يؤدي بعض الخدمات لدورة تحفيظ القرآن، وهو رجل طويل، أزرق العينين، خفيف اللحية. كان فياض ابن أخت الحاج عبد الستار، ولكن لم يكن هناك أي وجه شبه يجمعه بخاله على الإطلاق. فقد اعتاد أن يمشي في الأنحاء سواء أكان ذلك في الصيف أو الشتاء معتمراً عمامة خضراء على رأسه، وواضعاً رداءً بنياً على ظهره، وحاملاً عصا تشبه الصولجان في يده. لطالما تصرف فياض بعدائية تجاه فريق التنقيب عن الآثار بقدر تودد الحاج عبد الستار إليهم. فكلما التقاهم تجهم. وفي الأسبوع الثاني على بدء الحملة، قطع كل المسافة إلى الموقع مشياً ليهددهم. لم تنس إسراء ذلك اليوم قطّ.

فبينما كانت تجلس برفقة زميلها تيومان، وخبير الآثار المجاز كمال، ومصورة الفريق إيلاف، وأحد الطلاب واسمه مراد تحت التعريشة يشربون الشاي وينظرون إلى الصور التي تم التقاطها قبل يومين، ظهر فياض أمامهم بغتة، وكأنه طيف خرج من المجهول. فشاهدته إسراء قبل أصدقائها وهو واقف تحت أشعة الشمس يرمقهم بنظرات مليئة بالامتعاض والكره بعينيه الزرقاوين. وقف هناك لبعض الوقت بصمت مطبق، وراح ينظر إليهم من الأعلى إلى الأسفل بعينيه الجامحتين وكأنهم قادمون من كوكب آخر. لم يستطع أفراد المجموعة أن يدركوا ما يريده، لذا راحوا يحدقون إلى ذلك الرجل الغريب. توجه نظر إسراء إلى كاحلي فياض النحيلين الداكنين البارزين من حذائه الملطخ بالغبار، وسرواله القصير الذي يصل إلى ركبتيه. وجعل ضعف كاحليه وهشاشتهما الشديدة كاحليه يبدوان على وشك الانكسار في أية لحظة؛ مما تناقض مع النظرات القوية التي أطلت من عينيه الزرقاوين.

عجزت إسراء عن تحمل التوتر الذي ساد بينهم أكثر من ذلك، فطلبت من فياض ألا يقف تحت أشعة الشمس ودعته للجلوس معهم تحت التعريشة. وبدا صوتها ودوداً ولا يحمل أي تلميح بالتقليل من شأنه، ولكن نظرة إدانة ظهرت على وجهه، وقال بلغته التركية ذات اللكنة الكردية إن الحفر حول الضريح الأسود إثم عظيم، وإنهم سيقعون بمتاعب جمة ما لم يكفوا عما يقومون به، وبينما جلس أفراد الفريق ينظرون إلى بعضهم بعضاً بحيرة ولا يدرون كيف يردون على كلامه، اندفع خلف، وهو السائق والطاهي الخاص بالفريق، خارجاً من المطبخ وهو لا يزال يرتدي مئزره.

وقال ليضايق "فياض": "من تظن نفسك كي تهدد؟". وقبل أن تهب إسراء ورفاقها للتدخل، سدد خلف لكمتين قويتين طرحتا "فياض" أرضاً. وقبل أن يصل تيومان الطويل والضخم ومراد الرشيق لنجدة فياض، كان خلف قد ألحق به أذى كبيراً. فقد تمدد فياض على الأرض وشفته مشقوقة، والدم ينـزف منها حتى اصطبغت أسنانه باللون القاني. رفض فياض اليد التي مدها له تيومان، ونهض بنفسه، ونفض الغبار عن ملابسه، وقال بصوت ينضح بالحقد: "سيعاقبكم الله. انتظروا وسترون. سينـزل بكم الله عز وجل عقابه".

وعندئذ تلاشى من المكان بسرعة كما يتلاشى الشبح. وحالما اختفى فياض، استدعت إسراء "خلف" وقالت له إن وظيفته هي إعداد الطعام لا ضرب الناس. فشعر خلف، الذي لم تكن نيته سوى حماية أفراد الفريق وربما التباهي بنفسه بعض الشيء، بالصدمة والحزن لموقف إسراء، واعتذر بشدة.

بالرغم من انـزعاج إسراء من الحادث، إلا أنها آثرت ألا تخبر النقيب عنه، لأنها رفضت أن تقحم الشرطة في الموضوع، ولم تود بكل تأكيد أن يخرج الموضوع عن سياقه. وبدلاً من ذلك، آثرت أن تتحدث إلى الحاج عبد الستار. فاستشاط الحاج غضباً عندما سمع بما قام به فياض، لذا بحث عنه تلك الليلة ووبخه توبيخاً شديداً. فلم يزعج فياض فريق التنقيب عن الآثار مرة أخرى، ولكنه ظل يعبس كلما رآهم وكأنهم مجرد قاذورات أمامه.

أيمكن أن يكون فياض هو من ارتكب الجريمة؟ لم تجد تلك الفكرة معقولة. فبالرغم من شدة مقت فياض وكرهه لفريق التنقيب عن الآثار، إلا أنه لطالما أضمر لخاله الحاج عبد الستار الكثير من التقدير والاحترام. وقيل إنه تلقى تعليمه الديني المبكر على يديه. ولكن، ماذا إن كان لدى

فياض شيوخ آخرون مستعدون للقتل أو التحريض على القتل؟ فحتى إمام المسجد السيد عابد بدأ فور شيوع الخبر يتحدث عن لعنة تتعلق بموقع التنقيب عن الآثار.

طيلة قرون، شكّل الضريح الأسود المقدس المكان الذي يلجأ إليه السكان المحليون طلباً للمساعدة عندما يحل بهم الجفاف أو الفيضانات، أو عندما يصابون بالمرض أو العقم، أو عندما تبقى بناتهم في البيوت من دون زواج. ولما أتت إسراء وفريقها للتنقيب عن الآثار في الضريح الأسود الذي ساعد القرويين في هذه الحياة الدنيا والآخرة على حد سواء، كان من الطبيعي أن يعتبروا تصرفها هذا اعتداء على معتقداتهم، أو على حدّ تعبير فياض نوعاً من الإلحاد والزندقة. وبعد موت الحاج عبد الستار، لم يعد هناك ما يمكن فعله لردع المسؤول عن جريمة القتل عن استفزاز الناس كما فعل الحاج عابد صباح ذلك اليوم.

من ناحية أخرى، لم تتسبب النـزاعات الدينية بأي جرائم قتل في المنطقة منذ عدة سنوات. وبالرغم من معارضة الناس لكثير من الممارسات التي وجدوا أنها تتناقض ومعتقداتهم الدينية وتوجيههم الاتهامات العنيفة لبعضهم بعضاً في كثير من المناسبات، إلا أنهم لم يقتلوا أحداً بسبب النـزاع الديني، ولكنها ربما أخطأت في تقدير هذا. فربما لا يكون المتطرفون الدينيون من ارتكب الجريمة. ولكن، من غيرهم قد تكون لديه مصلحة في قتل الحاج عبد الستار؟

خطرت الفكرة ببالها فجأة كالصاعقة، بينما تنقل بصرها بين صور الألواح الملقاة على الطاولة، وتمتمت قائلة: "إنهم صائدو الكنوز". نعم، صائدو الكنوز. لماذا لم يخطروا ببالها من قبل؟ لقد سعى أولئك الناس ربما وراء الكنـز الذي يقال إن آخر ملوك الحثيين، الملك بيزيريس، أخفاه بعيداً عن متناول يد الآشوريين. ولا بد أنهم ظنوا على الأرجح أن حملة التنقيب عن الآثار تنقب عن ذلك الكنـز، لذا عمدوا إلى قتل أكثر الأشخاص الذين دعموا الحملة وأكثرهم احتراماً ليوقفوا مهمة التنقيب، وليضعوا أيديهم على الكنـز قبل الجميع. من يمكن أن يكون أولئك الرجال الخبثاء عديمو الرحمة؟ ظهرت صورة ميميلي الأعرج أمام عينيها. كلا، لا يمكن أن يكون هو. إذ لم يبدُ من المنطقي على الإطلاق أن يتمكن ذلك الرجل القصير مشوه الشكل الذي اعتاد أن يتكلم عليهم من وراء ظهورهم ولكن من دون أن يفعل شيئاً سوى تملقهم كلما التقاهم من تنفيذ مؤامرة مخطط لها بهذه العناية الفائقة بما في ذلك جريمة قتل، ولكن أحداً آخر لم يخطر

ببالها.

قال لها النقيب عندما أتى لزيارتها إن راهباً متسربلاً بالسواد هو من دفع بالحاج عبد الستار من أعلى المئذنة. لا بد أن القاتل قد ارتدى اللون الأسود ليخفي هويته، وربما تعمد ارتداءه ليظهر العلاقة بينه وبين الضريح الأسود. بدا هذا أكثر منطقية في نظرها. في هذه الحالة، إن اعتقاد الناس بأن لعنة قد حلت عليهم سيدفعهم لمزيد من الضغط لإيقاف مهمة التنقيب عن الآثار. ولا بد أن ذلك سيأتي في مصلحة صائدي الكنوز في وقت ما. ومع ذلك، فالسؤال الذي ظل يحيرها هو: من قتل الحاج عبد الستار؟

á á á

اللوح الثاني

أنا المسؤول عن كل جرائم القتل، والمشتبه به بارتكاب كل الجرائم؛ أنا القاتل والضحية في آن. أنا الخادم البائس الملعون، أنا الشاعر السابق والعاشق سيئ الطالع والتابع الأول للملك وجلاده. أنا من خان الخبز الذي أكله، والمياه التي شربها، والهواء الذي تنفسه، والأرض التي عاش عليها. أنا الكاتب باتاسانا.

أقول لمن سيقرأ هذه الألواح: آمل أن تبقى اللعنة بعيدة عنك، وأن تعيش حياة سعيدة وطويلة كطول نهر الفرات العظيم.

لقد عشت من قبل حياة جميلة، ولطالما اعتبر الكثير من الناس في بلاد الحثيين عائلة باتاسانا عائلة محظوظة. فلم يكن أسلافي وأسلافهم عبيداً، ولا أشخاصاً من عامة الشعب، بل عاشوا جميعاً في البلاط. ومنذ فترة حكم الملك البطل العظيم سوبيلوليوما، عمل أفراد عائلتي كتبة في القصر، وواصلوا عملهم هذا حتى بعد أن انقسمت بلادنا الكبيرة إلى ممالك صغيرة بعد هجوم البرابرة الذين وصلوا من البحر بالسفن ومن البر بالعربات التي تجرها الثيران قبل مئات السنين، وذلك لأن الملوك احتاجوا إلى رجال مثلنا تلقوا تعليماً ملائماً، وأصبحوا على دراية بقوانين الحكومة. لهذا السبب، لطالما عاش أسلافي بالقرب من الملوك، وانتسب كل واحد منهم لجمعية بانكو للنبلاء. وكما يتم توريث الملكية من الأب إلى ابنه برابطة الدم، فقد تم توريث مهنة الكتابة في عائلتنا من الأب إلى الابن، وهذا يعني أنني لم أقم باختيار هذه المهنة بملء إرادتي، بل فرضت عليّ بسبب صلة الدم.

من بين أسلافي الذين عملوا كتبة في القصر، لا أعرف سوى جدي ميتانوا ووالدي آراراس، ولكنني أحب جدي أكثر مما أحب أبـي، فهو بالنسبة إليّ أكثر من مجرد جد. إنه معلمي وصديقي، وهو من جعلني الرجل الذي أنا عليه الآن. يتميز جدي بالود ودماثة الأخلاق والمرح بقدر ما يبدو والدي بارداً وعديم الإحساس. من الصعب أن يتخيل المرء كيف يمكن لشخصين مختلفين إلى هذا الحد أن يكونا أباً وابناً. أما بالنسبة إليّ، فأنا أشبههما معاً. من ناحية المشاعر الجياشة، فأنا أشبه جدي. ومن ناحية رجاحة العقل، فأنا أشبه والدي. أيمكنك أن تتخيل هذا المزيج الرهيب؟ فما يقول لي قلبـي أن أفعله، يأمرني عقلي ألا أفعله. وما يجده عقلي نبيلاً، يعتبره قلبـي تملقاً ذليلاً. وما يجده قلبـي صحيحاً، يعتبره عقلي غلطاً. نصف شخصيتي جامح ومتهور كرياح الشتاء، والنصف الآخر بارد وكسول

كرياح الربيع. نصف كياني يصغي إلى صوتي الداخلي، بينما يصغي النصف الآخر إلى المعرفة والتعليم اللذين فرضا عليّ.

طوال سنوات عدة، شعرت أنني أجسد شخصين مختلفين منفصلين عن بعضهما ينظران بالاتجاه نفسه إلا أنهما يشاهدان شيئين مختلفين كل الاختلاف. وبالرغم من أنني حاولت أن ألبـي حاجات الجزءين في الوقت عينه، إلا أنني فشلت في أن أميل لأحدهما أكثر من الآخر. وبدلاً من ذلك، ظللت متذبذباً بين الشخصيتين. ولو أنني تمكنت من ذلك، لطردت ذلك الجزء الشبيه بوالدي وتأسيت بشخصية جدي بكل ما فيها، ولكنني للأسف عجزت عن ذلك. يالحظي العاثر الذي فُرض عليّ عندما جسّدت نقيضين في جسد واحد! ولأنني حرمت من الإرادة لكي أقاوم، فقد حاولت بدلاً من ذلك أن أكبح هذين الجزءين المتناحرين. وبالرغم من أنني اعتقدت في بعض الأحيان أنني حققت هذا الكبح، إلا أنني في النهاية أدركت كم كنت مخطئاً.

لو نظر جدي إلى نهر الفرات، لوجد فيه سر سعادتنا. أما والدي، فلطالما وجد في النهر القوة التي جعلتنا متفوقين على أعدائنا. ولو سألت جدي عما يعنيه له نهر الفرات، لقال: "في النهار، هو النور الذي ينعكس في عيون الحبيبة. وفي الليل، يتدفق كشعرها الأسود المنساب على كتفيها". ولو سألت والدي، لأتى جوابه واضحاً: "الفرات مجرى مائي مهم يجب علينا حمايته من الأعداء".

á á á

الفصل الثالث

امتدت أشعة الشمس كأصابع تداعب صفحة مياه نهر الفرات. على طول مجرى النهر، بدت كل الكائنات الحية وكأنها تستيقظ من سباتها وتنهض: كل الأشجار؛ من أقدم شجرة جوز إلى أصغر شجرة تين، وكل الأعشاب؛ من أكثرها علاجية إلى أشدها سمية، وكل الحيوانات؛ من الأليفة إلى البرية، وكل الناس؛ من أغناهم إلى أفقرهم.

خرجت إسراء من غرفتها وقد بدت عليها ملامح العزم والتصميم على التحدث مع أصدقائها فوراً قبل أن تعاودها موجة الفزع. وعندما وصلت إلى الباب، بهر وهج الشمس الساطع عينيها، فأدركت أنها نسيت أن تعتمر قبعة القش التي لم تغب عن رأسها قبلاً قط، ولكنها لم تعد لتعتمرها. وبدلاً عن ذلك، حثت الخطى نحو الصفوف الدراسية في الجزء الأمامي من المدرسة.

كان كل من تيومان وكمال ومراد يقيمون في غرفة صف كبيرة يضعون فيها أجهزة الكمبيوتر. في الواقع، أراد كمال الإقامة في الغرفة نفسها مع صديقته إيلاف، ولكن إسراء أشارت إلى أن هذا التصرف سيعتبر تصرفاً غير ملائم في هذا المجتمع المحافظ. وبما أن إيلاف أيدت وجهة نظر إسراء، فلم يبقَ أمامه من خيار سوى الإقامة مع الرجلين الآخرين، بينما أقامت إيلاف في غرفة صغيرة بجوارهم. أما بيرند فأقام في الغرفة المقابلة لغرفتهم، واختار تيموثي غرفة مشمسة تطل على الحديقة.

قررت إسراء التحدث إلى أفراد فريقها قبل كل شيء. فمهما اعتبرت سلطة كمال صورية، فهذا لا يحجب عنه الحق في معرفة حقيقة الوضع الراهن. وبعد أن تتناقش معهم في الأمر، عزمت على شرح الأمر لتيموثي هيرلي وبيرند بيرنز. لكن، وبينما هي تنعطف عند زاوية المدرسة، صادفت تيموثي بكامل أناقته. فقد ارتدى بنطالاً أسود اللون من قماش رقيق وقميصاً باهت اللون. بدا تيموثي مفعماً بالنشاط على الرغم من تجاوزه الحادية والخمسين من عمره.

قال لها بلغة تركية تكاد تخلو من أية لكنة أعجمية: "صباح الخير". وكان يحمل بيده اليمنى غصناً غليظاً تتدلى منه بعض الأسماك، فخاطبها قائلاً: "إنها أسماك شبوط". ورفع يده ليريها إياها ثم قال: "إنها ألذ أسماك الفرات. هذه هدية من صيادي الأسماك...".

ألقت إسراء نظرة عابرة على الأسماك، وحراشفها تكاد تتحول إلى لون

أحمر قانٍ تحت أشعة الشمس. لم تتمكن إسراء من إخفاء القلق البادي بوضوح على وجهها، فأنـزل تيموثي الغصن المليء بالأسماك، وسألها بصوت مفعم بالقلق: "ماذا جرى؟ ما الخطب؟".

بدت نبرة صوته ودودة وشديدة الإخلاص والصدق لدرجة أن إسراء نسيت كل شيء عن القرار الذي اتخذته بإخبار أصدقائها قبل الجميع.

تمتمت قائلة: "قتل الحاج عبد الستار".

فتح تيموثي عينيه السوداوين الكبيرتين على وسعهما من فرط الدهشة، ثم قال: "ماذا قلت؟ قتل!".

"نعم، يجب علينا أن نجتمع ونناقش الأمر. هل يمكنك إيقاظ بيرند؟ سأوقظ الآخرين؟".

التزم تيموثي الصمت، واكتفى بالمشي بصمت مع إسراء إلى مقدمة مبنى المدرسة.

اختاروا لاجتماعهم الغرفة الكبيرة التي يقيم فيها تيومان والرجلان الآخران، حيث صفوا بضعة مقاعد بالقرب من بعضها بعضاً بجانب النوافذ ليصنعوا منها أسرة تبعد عن بعضها بعضاً بضعة أمتار فقط، ووضعوا أربعة مقاعد في وسط الغرفة تماماً، حيث استخدمت كطاولات للكمبيوترات، أما بقية المقاعد، فقد كدسوها بجانب الجدار.

سرعان ما اجتمع أفراد الفريق، ولكن توجب عليهم الانتظار خمس عشرة دقيقة قبل بدء الاجتماع، لأنهم لم يتمكنوا من العثور على بيرند في أي مكان. وعندما وصل خبير الآثار الألماني أخيراً، قال إنه ذهب في جولة على دراجته بجانب ضفة النهر، ففوجئ تيموثي من كلامه.

وسأله: "لماذا لم ألتقك هناك؟".

أجابه بيرند: "من الطبيعي ألا تلتقيني. فالنهر طويل".

لم يعلّق تيموثي على الموضوع. وعندما لم يطرح أحد من أعضاء الفريق أي سؤال آخر، أخبرتهم إسراء وهي تحاول أن تتحلى بالقوة عن مقتل الحاج عبد الستار. في البداية، لم يصدقوا ما سمعته آذانهم، لذا انهالوا عليها بالأسئلة إلى أن اقتنعوا في نهاية المطاف أن ما قالته صحيح بالفعل. فاستولى حزن عميق على الجميع. إذ كانوا جميعاً معجبين بالحاج عبد الستار. فلطالما عرف ذلك الرجل المسن كيف يكسب قلوب الجميع حتى بيرند. وكان تيومان أول من كسر الصمت الذي خيم على الغرفة. حين قال:

"ربما أصيب الحاج عبد الستار بنوبة قلبية وسقط من على المئذنة".

واقترح كمال قائلاً: "ربما قتل بسبب ثأر قديم؟".

فردّ عليه مراد: "ولكن، ليس للحاج عبد الستار أي أعداء. من سيود قتله؟".

أما إيلاف فقالت: "مراد على حق. لم أقابل أحداً هنا لم يذكره بالخير".

أصغت إسراء إلى الجميع وهم يناقشون ما حدث، وأوشكت أن تفصح لهم عن ظنها أن من ارتكب الجريمة يهدف لمنع حملة التنقيب عن الآثار من متابعة مهمتها، عندها دخل خلف إلى الغرفة. وكان ذلك الطاهي الشاب قد سمع حديثهم من خلال الباب المفتوح.

قال خلف من دون اعتبار لنيته الأساسية في سؤالهم إن كانوا يريدون أن يعد لهم الفطور الآن: "لا تتعبوا أنفسكم، أنا أعرف من قتله".

اتجهت كل الأنظار نحوه. وعندما شعر خلف بكل الأنظار متجهة نحوه، تراجع خطوة إلى الوراء. فقد تذكر رد الفعل الذي أبدته إسراء عندما ضرب "فياض".

"آسف، سيدة إسراء، ولكنني سمعتكم تتحدثون عن الموضوع، لذلك قلت ما قلته بشكلٍ عفوي".

سألته إسراء بتوتر: "كيف عرفت أن الحاج عبد الستار قتل؟".

أجاب خلف على مضض، ولكن بسرعة: "لقد أخبرني الجندي الذي كان يقف بجانب سيارة الجيب بينما كان النقيب أشرف يتحدث إليك في الداخل".

تحولت النظرة التي علت وجه إسراء إلى نظرة فضول.

سألته: "هل أخبرك الجندي أنه يعرف من قتل الحاج عبد الستار؟".

"ليس هو من يعرف، بل أنا".

والآن، بدا الارتباك على إسراء.

فسألت الطاهي قائلة: "من أين لك أن تعرف؟".

قال خلف: "لقد أخبرني القاتل بنفسه". وأظهرت ملامح وجهه براءة رجل عاجز تماماً عن فهم خطورة معنى كلماته.

قال كمال ساخراً ظناً منه أن "خلف" يتفوه ببعض السخافات: "أتعني أن القاتل أتى إليك وأخبرك أنه قتل الحاج عبد الستار؟".

نظر خلف إليه شزراً، فهو لم يستطع أن يجبر نفسه على استلطاف ذلك الرجل الطويل والنحيل القادم من إسطنبول.

فردّ عليه وهو يهزّ رأسه: "أتظن أن هذا ممكن فعلاً؟ بالطبع أخبرني

قبل أن تقع جريمة القتل".

هذه المرة، حان دور مراد، الشاب الأصغر سناً والأكثر لهفة من بين أفراد الفريق، ليدلي بدلوه.

فسأله: "من القاتل؟".

أجاب خلف من دون تردد: "إنه شهموز ابن عم روجين".

بدأت إسراء تنـزعج من الطريقة المقسطة التي يعرض بها خلف لمعلوماته.

"ومن هي روجين؟".

"روجين هي زوجة الحاج عبد الستار الأخيرة...".

تذكرت إسراء تلك الشابة ممشوقة القوام وبشوشة الوجه التي التقتها عندما دعاها الحاج عبد الستار وأفراد الفريق الآخرين لزيارته في منـزله. بدت روجين صغيرة السن بما يكفي لكي يحسبها المرء حفيدة الحاج عبد الستار لو أنه لم يعلن لهم قائلاً: "روجين هي السيدة الثالثة لهذا المنـزل". لم يكن من الممكن أن يخطر ببالهم أن تلك الشابة هي زوجته، ولكن الغريب في الموضوع أن الشابة لم تبدُ تعيسة على الإطلاق. فقد قامت بكل لهفة بعجن مكونات طبق كرات اللحم بيديها، بينما شغلت المرأتان الأخريان نفسيهما بتحضير الأرض حيث ستقدم وجبة الطعام.

"لقد وقع شهموز في غرام روجين، ولكن عمه زوجها للحاج عبد الستار بدلاً منه".

فترت حماسة إسراء، وباتت نبرة صوتها أكثر هدوءاً وهي تسأله: "وكيف تعرف كل هذا؟".

"خلال رحلاتي ذهاباً وإياباً إلى غازي عنتاب، ركبت حافلة صغيرة عدة مرات. فأخبرني شهموز بذلك".

"هل يعمل شهموز سائقاً لتلك الحافلة الصغيرة؟".

"كلا، إنه يعمل مساعداً في حافلة ميميلي. ولكنني أعرف أنه وميميلي يقومان بأعمال أخرى إلى جانب العمل على الحافلة، وهي أعمال قذرة. ظلا يطرحان عليّ أسئلة عن مهمة التنقيب عن الآثار، مثل: سمعنا أنكم عثرتم على بعض الذهب، أليس كذلك؟ أو هل عثرتم على أي كنوز؟ في العام الماضي، أمضى شهموز بضعة شهور في السجن بتهمة زراعة الحشيش في حديقة منـزله".

سألت الشابة بفضول قائلة: "الحشيش؟".

شرح لها تيموثي: "نعم الحشيش. إنه يقصد عشبة القنب الهندي

المخدرة".

ضحك بيرند بصمت على كلمات تيموثي، وسرعان ما انضم إليه مراد. فرمقته إسراء بنظرة، ولكن خبير الآثار المستقبلي سرعان ما أشاح بوجهه. ومع ذلك، فقد انـزعجت من ضحك بيرند أكثر مما أزعجها مراد.

تابع خلف شرحه قائلاً: "نعم، القنب الهندي. إن ذلك الرجل قذر كما أؤكد لكم. أظن أن ذلك الوغد شهموز هو من قتل الحاج عبد الستار".

"ماذا قال لك شهموز بالتحديد؟". هذه المرة، بادرت إسراء بطرح السؤال. وعندما شاهد عينيها العسليتين موجهتين نحوه، استحال لون وجهه أحمر كالدم. فأجاب عن السؤال، ولكنه لم يستطع أن يجبر نفسه على النظر إلى وجهها.

"ظل يكرر ويقول إنه سيقتل ذلك العجوز حين تسنح له الفرصة".

قالت إسراء: "هذا مثير للاهتمام". فقد منحها كلامه شعوراً بالراحة. فإن ثبت أن ما قاله صحيح، فهذا يعني أن حملة التنقيب لم تعد في خطر. فربما يكون ميميلي هو من حرض شهموز على ارتكاب جريمته. وبهذه الطريقة، لن ينجح شهموز في الوصول إلى المرأة التي يحبها وحسب، ولكن الإشاعة بأن موقع الآثار ملعون سرعان ما ستنتشر بين الناس وتنال مصداقية. تمتمت قائلة: "هذا مثير للاهتمام". ولمع بصيص أمل خافت بشكل واضح في عينيها.

التفتت إلى الآخرين وقالت: "ينبغي أن نخبر النقيب بهذا".

قال تيومان موافقاً على كلامها: "أنت محقة. ينبغي عليهم اعتقال المدعو شهموز على الفور".

وافق الجميع باستثناء بيرند. فقد تململ خبير الآثار الألماني في مقعده، وسأل بصوت يدل على القلق: "لماذا نورط أنفسنا في الموضوع؟ أليست هذه مهمة الشرطة؟".

أجابت إسراء بحزم: "لا، للموضوع صلة بعملنا. فقد بدأ سكان القرية الذين علموا بمقتل الحاج عبد الستار بعد سقوطه عن المئذنة يتحدثون عن لعنة الضريح الأسود".

قال بيرند: "ولكن هذا سخف...".

اعترض تيموثي، وقد عكست نبرة صوته ثقة بالنفس أكسبته إياها سنوات عمله الطويلة: "هذا ليس سخفاً على الإطلاق. هذه هي معتقداتهم. وبما أننا ضيوفهم، يجب علينا أن نحترم معتقداتهم حتى لو اعتبرناها محض

سخف وهراء".

ردّ بيرند بسخرية: "إن هذا النوع من الإشاعات ينتشر في كل مكان يتم فيه التنقيب عن الآثار. فعندما عثر هوارد كارتر على مدفن الفرعون توت عنخ آمون في وادي الملوك، تحدث الجميع عن لعنة الفراعنة، ولكن الإشاعات لم تمنع علماء الآثار من متابعة عملهم".

عندما أوشكت إسراء على أن تخبرهم أنهم لا يفهمون حقيقة الوضع، غامر مراد وأدلى بدلوه في الموضوع، مما حول الموضوع بأكمله إلى فوضى عارمة.

فقد قال: "ولكن ما قلته ليس إلا أقل من نصف الحقيقة. فبعد أن تم فتح الضريح، مات أحد الرجال المسؤولين عن الحملة وهو اللورد كارنافون، ثم لقي أعضاء الحملة الآخرون حتفهم واحداً تلو الآخر. حتى الآن، لا تزال هذه الحوادث بلا تفسير. في ذلك الوقت، امتلأت الصحف في لندن بعناوين عن هذا الموضوع لوقت طويل جداً".

بعد أن أصغى الجميع إلى هذا الكلام من مراد الذي يثق بشدة بوجود قوى خارقة للطبيعة ولديه اهتمام بعلم التخاطر النفسي وما شابه، أطلقت إسراء تنهيدة عميقة، بينما لوى تيموثي شفتيه بسخرية، وتابع تيومان وإيلاف النقاش باهتمام كبير، وراح كمال يهز رأسه بصمت ولسان حاله يقول: "يا لها من ورطة ورطنا أنفسنا بها!". في الوقت الذي بدا فيه خلف مرعوباً مما سمعه.

قال بيرند وهو يرمق ذلك الطالب الشاب بتعالٍ: "لقد حلت تلك المسألة قبل وقت طويل. ففي العام 1933، أعلن البروفسور ستايندروف أنه ليس هناك أي أساس لهذه الشائعات، لذا انتقلت الصحف لنشر مواضيع أخرى ترفه بها عن قرائها الجهلة. إنه لأمر غريب أن يستمر طالب متفوق مثلك بتصديق مثل هذه الترهات!".

كان مراد على وشك أن يرد عليه الرد الملائم عندما تدخلت إسراء وقالت: "دعونا نناقش هذا الأمر في وقت آخر. إن الشيء المهم الآن هو أن يتم حل لغز هذه الجريمة من دون أن يُلحق هذا الحادث أي ضرر بعمل التنقيب عن الآثار... أظن أن ما قاله خلف مهم جداً. فقد يكون شهموز هو من قتل الحاج عبد الستار. أظن أن فكرة إطلاع النقيب على هذه المعلومات حسنة، ولكن يجب علينا توخي الحذر".

اعترض بيرند مرة أخرى قائلاً: "لماذا ينبغي علينا توخي الحذر؟ إننا هنا لنقوم بالتنقيب. ومن نهتم لأمرهم هم الحثيون الجدد وليس حل لغز

جريمة مقتل الحاج عبد الستار".

نظرت إسراء بتصميم إلى الرجل الألماني.

وقالت: "أصغ إلي ياسيد بيرنـز. لا أعرف كيف تقيم علاقاتك مع السكان المحليين عندما تترأس حملة للتنقيب عن الآثار، ولكنني أفضل أن أقيم علاقة طيبة معهم. إنني أعرف هذا البلد وأهله أكثر منك، لذا أصغ من فضلك لما أقوله من دون أن تقاطعني. إنني أفعل هذا من أجل حماية الجميع بمن فيهم أنت".

قال تيموثي: "حمايتنا! هل سمعت شيئاً؟".

بدلاً من أن ترد على تيموثي، التفتت إسراء إلى الطاهي الشاب الذي ظل واقفاً في مكانه.

وقالت: "شكراً لك ياخلف. ما قلته على قدر كبير من الأهمية، وسيقدم مساعدة كبيرة في حل هذه القضية، ولكن يجب عليك الآن أن تذهب إلى مخفر الشرطة وتشرح كل هذا للنقيب".

تغيرت ملامح وجه خلف وقال: "هل يتوجب علينا أن نذهب إلى هناك؟ ألا يمكننا أن نخبرهم عبر الهاتف...".

شرحت له إسراء قائلة: "سنتصل بهم قبل أن نتوجه إلى هناك، وإلا فسوف يفلت شهموز بفعلته، ولكنهم سيطلبون منك أن تقدم شهادتك". عندئذ، أدركت مدى التوتر الذي سيطر على الطاهي الشاب لدى سماعه تلك الكلمات، فحاولت أن تهدئ من روعه وقالت له مشجعة: "لا تقلق. سنذهب معاً إلى النقيب".

لم يخفف كلامها من توتره، ولكنه طأطأ رأسه كرجل مستعد لتقبل قدره المحتوم.

وقال: "في هذه الحالة، دعوني أحضر لكم الفطور". ثم أخذ يجر قدميه خارجاً من الغرفة وكأنه يمشي في جنازة.

حالما أصبح الطاهي الشاب على بعد مسافة كافية من الآخرين، تابعت إسراء كلامها.

فقالت: "في الواقع، نحن غير معرضين لخطر مباشر". ووجهت نظرها إلى تيموثي، ولكنها تحدثت بلهجة تشمل الجميع قائلة: "ولكن تلك الإشاعة التي تتحدث عن لعنة الضريح الأسود لا تزال تقلقني. إن للمعتقدات الدينية تأثيراً قوياً جداً في هذه المنطقة. يجب علينا أن نشرح للسكان أن حملة التنقيب عن الآثار لا تشكل أي إساءة لمعتقداتهم، وأنها لن تتسبب بنـزول أية لعنة عليهم. ومن نافلة القول إننا يجب أن نفعل ذلك من

دون اللجوء إلى الشرطة. لقد كان وجود الحاج عبد الستار مهماً بالنسبة إلينا، فهو واحد من سكان البلدة، وهذا ما جعلهم يصغون إليه. ولكن الحاج ميت الآن، وبموته فقدنا الرجل الوحيد الذي تمتع بالقدرة على ردع المتطرفين الذين يعارضون مهمتنا. والآن، يجب علينا أن نتحمل المزيد من المسؤولية".

قال تيموثي وهو يمسد لحيته الخشنة ذات اللون النحاسي: "أنت محقة. فقد تعرضنا لتجربة مماثلة عندما قمنا بالتنقيب قرب منطقة نينوفا. إذ أردنا أن نأخذ بعض الألواح التي تحوي نقوشاً مسمارية يقدسها السكان المحليون، ولكنهم رفضوا أن يعطونا إياها بسبب اعتقادهم أن تلك الألواح تحميهم من سوء الطالع. ولهذا السبب، لجأ رئيس الحملة الفرنسي البروفسور أندريه للحكومة طلباً للمساعدة. فقابل السكان هذا العمل برد فعل عنيف، ووصل بهم الأمر لإطلاق النار علينا. وفي نهاية المطاف، توجب علينا أن نتخلى عن المهمة وننجو بجلدنا من تلك المنطقة. والأسوأ من ذلك أننا هربنا من دون أن نأخذ لوحاً واحداً معنا. إن المواجهة مع السكان المحليين أسوأ ما يمكن أن يحدث للمرء في هذه المهنة. فحالما تقع هذه المواجهة، يتوجب على المرء أن يبدأ بحزم أمتعته؛ لأن هذا يعني نهاية مهمته في المنطقة".

قطّب بيرند حاجبيه لدى سماعه كلمات تيموثي، بينما استأنفت إسراء حديثها من حيث توقفت.

قالت إسراء: "هذا لا يعني أننا سنرحل ونترك مهمتنا من دون أن ننهيها. يجب علينا ألا ندع العمال في الموقع يشعرون بالقلق. فنحن سنواصل عملنا حتى نهايته. ولا ينبغي أن يفكر أحد منا مجرد تفكير بمغادرة الموقع".

سأل بيرند قائلاً: "ماذا تعنين بمغادرة الموقع؟ لقد بذل المعهد الألماني للآثار جهوداً جبارة لعقد المؤتمر الصحفي. فقد تحدثت إلى السيد كرينشر البارحة وقال لي إن التحضيرات الأولية قد تم إنجازها".

أشاع هذا الكلام شيئاً من الراحة في نفس إسراء، فقالت: "بيرند محق في كلامه. من الآن فصاعداً، دعونا نكف عن أي ذكر للتوقف عن العمل أو مغادرة الموقع".

قال تيموثي مستمراً بتأييدها: "ليس لدينا خيار آخر. لا يمكننا أن نترك المهمة الآن بعد أن وضعنا أيدينا على هذا الاكتشاف المهم. لا أعرف رأي الباقين، ولكنني لا أطيق الانتظار لأقرأ بقية الألواح التي كتبها باتاسانا".

á á á

اللوح الثالث

يا من ستقرأ هذه الكلمات، ربما ستجدها غير كافية، وربما ستود أن تعرف المزيد، وأن تستوعب المعلومات وتلتهمها كلها في آن معاً كآبار نهر الفرات التي لا قرار لها؛ تلك التي تبتلع الماشية والناس والقوارب، ولكن التعلم ليس بالأمر السهل. إذ يجب عليك أن تتحلى بصبر الجمل، وعناد الرياح التي تطحن الجروف الصخرية حتى تحولها إلى مسحوق ناعم كالرماد.

وربما ستجدها كلاماً فيه مبالغة، أو تظن أن كلامي مليء بفخاخ غامضة نصبتها بنفسي لأضللك وأوقع بك. أو قد تقول: "لقد سمعت قصصاً من هذا القبيل". ولكن صدقني، إن ما سمعته مجرد مساحة صغيرة من ضفة نهر الفرات الذي يكتنفه الضباب، في حين أن الحقيقة تبقى مخفية بين سطور هذه الألواح كالنهر المتدفق تحت ذلك الضباب الداكن بكل جبروته وعظمته.

أولاً، سأخبرك عن جدي الشاعر ميتانوا. إنني أسميه شاعراً لأنه بالرغم من اعتلائه منصب كبير كتبة القصر، أراد أن يتذكره الناس على الدوام كشاعر. في تلك الأيام، عندما كان يطلب مني قراءة ألواح كُتبت عليها سطور بلغات أجنبية، كان يقول لي:

"سواء أتعلمت اللغة الأكادية أو الآرامية أو غيرهما من اللغات الأجنبية، فلا تتعلمها لمجرد المراسلات الرسمية. فالمعاهدات والقوانين والعقود لا تعلم الإنسان أي شيء، بل تهدف فقط لحماية المصالح السخيفة للملوك والنبلاء. في حين أن الأساطير والملاحم والقصائد توسع آفاق الإنسان إلى ما وراء الجبال والبحر الذي يصب فيه نهر الفرات والسهول التي تقع خلف الأشجار. إنها تعلم الإنسان كل هذه الأشياء. والأهم من كل ذلك أنها تعلمنا أننا جزء من هذا العالم، تعلمنا أن شجرة الجوز ذات الظل الداكن وجذوع الكروم وأكواز الذرة الممتلئة والأعشاب الجافة والنمل على الأرض والحية في وكرها والذئب في الجبال والعصفور والصقر في السماء كلها بمثابة إخوتنا وأخواتنا. هذه الكتابات تعلمنا عن أنفسنا. إن السبب الذي يجعلنا نتعلم اللغة الأكادية هو أن نقرأ ملحمة جلجامش والقصائد التي كتبها الشاعر السومري لودينغيرا. والسبب الذي يجعلنا نتعلم اللغة الحورية هو أن نقرأ ملحمة غورابارانـزا بلغتها الأم. يجب عليك بالتأكيد أن تتعلم عن الأساطير والملاحم والأغاني الأخرى على حدّ سواء. ينبغي أن تحفظ عن ظهر

قلب أساطير كومارپي وكيشيشي، وأسطورة الخير والشر، وأسطورة القمر الذي سقط من السماء باللغات الأصلية التي كتبت بها، وإلا فسوف تفشل في فهم سر الحياة، ولن تعود مختلفاً عن الحمير البنية التي تنقل الماء من نهر الفرات من الصباح حتى الليل، وستتحول إلى رجل كأبيك آراراس الذي يمضي كل وقته في خدمة مصالح الملك، فهو رجل لا يضحك ولا يبكي ولا يغضب".

اعتدت أن أصغي إلى جدي، وأنفذ كل ما يأمرني به. وعندما بلغت الخامسة عشرة من عمري، كنت قد حفظت كل الأساطير التي أخبرني عنها. لم يُبدِ والدي سروره لتكريسي معظم وقتي للأساطير والملاحم، ولكنه امتنع عن التدخل، والسبب على الأرجح هو أنه أراد أن يتجنب الجدال مع جدي. أما بالنسبة إليّ، فقد بذلت قصارى جهدي لأتجنب إغاظته؛ لأنني في الواقع لم أكن متمرداً كجدي، بل كنت سهل القياد وغير محب للشجار ومفضلاً للصلح حتى لو تطلب هذا تقديم بعض التنازلات.

نبهني أبـي لضرورة توخي الحرص الشديد من الإمبراطورية الآشورية؛ القوة المتفوقة في المنطقة. فقد كانت مملكة غادرة ووحشية لدرجة تجعلها لا تتورع عن قتل الآلاف من الرجال بضربة واحدة. ولم يكن من الممكن التقليل من شأن مملكة الأورارتيين التي تقع إلى الشمال الشرقي أيضاً لأنهم لطالما انتظروا بفارغ الصبر اقتناص الفرصة المناسبة لتدميرنا. ومن ناحية أخرى، لم تبدِ مملكة الفريجيين أي اهتمام سوى بردع الآشوريين الذين أخذوا يتوسعون إلى مشارف إمبراطوريتهم كل يوم.

لم يكن والدي يتحدث بالسياسة وحدها، بل اعتاد أيضاً أن يشرح لي بطريقة بسيطة ولكنها شديدة الرتابة كيف تتم ترجمة نص إلى لغتنا. وبالإضافة إلى ذلك، فقد اصطحبني مراراً إلى مكتبة القصر عندما تيسر له ذلك، بعد أن ذكرني بأن إدارة المكتبة من واجبات كبير الكتبة، وشرح لي كل شيء بحرص؛ من كيفية حفظ الألواح وحتى نظام الحفظ في الرفوف. وحين أنهى الشرح، طلب مني أن أكرر كل شيء حتى أدق التفاصيل ليحرص على أنني فهمت ما شرحه لي.

وهكذا، فقد علمني جدي ميتانوا ووالدي آراراس أشياء مختلفة كل الاختلاف بأساليب شرح متباينة. فأصغيت باهتمام لكل ما قاله لي والدي، ولكن لطالما مالت نفسي للدروس التي شرحها لي جدي في بيته الجميل المطل على نهر الفرات.

á á á

الفصل الرابع

يقع مخفر الشرطة على تلة بجوار نهر الفرات، وهو عبارة عن مبنى جذاب مؤلف من طابق واحد، له حديقة معتنى بها، تظللها أشجار المشمش والخوخ والتوت. ويحيط بالحديقة سور حجري كبير، ويتوسط المخفر الحديقة تماماً. وُضعت نقاط حراسة عند كل زوايا السور، بالإضافة إلى جنديين يقفان لحراسة المدخل. اعتاد الجنود الوقوف للحراسة ليلاً ونهاراً غير مبالين بحرارة الصيف أو صقيع الشتاء. ويوجد بين النهر ومخفر الشرطة مبنى مؤلف من طابقين يحوي شققاً تأوي الجنود وعائلاتهم. بدت حديقة مبنى الشقق فخمة ومتعهدة بعناية أكثر من تلك التي تحيط بمخفر الشرطة. وكان يمر بجانب مخفر الشرطة طريق أسفلتي مليء بالحفر لم يتم إصلاحه منذ آخر انتخابات أجريت. لم يشاهد القرويون نقاط الحراسة خالية على الإطلاق وهم يشقون طريقهم على طول ذلك الطريق إلى المدينة. ومع ذلك، فالنـزاع الذي جرى في المنطقة طوال السنوات الست عشرة الماضية لم يكن له أثر يذكر هنا. فقد قامت العصابات الكردية قبل خمس سنوات بمهاجمة مبعوث عسكري، ولكن، الآن تم القضاء على معظمها. ومنذ ذلك الحين، لم تقع أي أنشطة مسلحة في القرية؛ باستثناء بعض الحوادث الثانوية. وكان المرحوم الحاج عبد الستار يعزو ذلك إلى ازدهار ثروة القرية؛ فقد أصبحت لدى الجميع حدائق يعتنون بها وحقول يزرعونها، ومن سيتخلى عن عمله ومصدر دخله ليتوجه إلى الجبال؟ ومع ذلك، ظل النقيب يعتقد أن سبب هذا الهدوء النسبـي يعود لنجاح الجيش في التصدي للهجمات الأولى التي شنتها العصابات. وإلا لا يمكن القول إن الوضع الحالي قد خفف من قلق النقيب. فعلى الرغم من عدم وجود أي نـزاع مسلح الآن، لا يزال النقيب يعتقد أن المتمردين ينشطون في القرية. ومع أنه لا يستطيع أن يتهم القرويين جزافاً بأنهم أعضاء في تنظيمات المتمردين، إلا أنه يدرك أن هناك الكثيرين من المتعاطفين معهم والداعمين لهم في هذه القرية بالإضافة إلى القرى المجاورة. وخامرته شكوك بشكل خاص أن شاباً يدعى "محمود"، وهو الفرد الأصغر من عائلة غينشيليز التي كانت إحدى أكبر عشيرتين في المنطقة، قد توجه إلى الجبال لينضم إلى المتمردين، فزادت هذه الحقيقة من شكوك النقيب حول صلات تلك العشيرة بالمتمردين. من جهة أخرى، هناك عشيرة أخرى لم تبالِ بأصولها الكردية، واتخذت لنفسها اسماً تركياً وهو ترك أوغلو، أي ابن الأتراك،

ووالت الحكومة. وبالرغم من ذلك، لا يثق النقيب بها. فبرأيه، تتظاهر عشيرة ترك أوغلو بالولاء للحكومة؛ نظراً لما تجنيه من عوائد مالية سهلة من عمل أبنائها في حراسة القرية. وإذا انقلبت الموازين، فما من ضمان أنهم لن يوجهوا أسلحتهم نحو الجنود.

لاحظت إسراء قلق النقيب عندما وصلت وفريقها للمرة الأولى إلى المنطقة. وعندما اقترح النقيب خلال أيامهم الأولى أن يعين جنوداً لحمايتهم، لم تتردد للحظة في رفض طلبه.

وقالت: "لا أظن أنهم سيهاجموننا. فنحن علماء وأكاديميون".

نظر النقيب إليها وكأنها طفلة ساذجة جاهلة تماماً بما يجري في العالم من حولها.

وردّ عليها قائلاً: "إنك لا تعرفينهم على الإطلاق. فأهم شيء في نظرهم هو إثارة المشاكل. إنهم لا يترددون للحظة في فعل أي شيء يمكنهم فعله لإحداث الفوضى، ولا يكترثون البتة لحقيقة عملكم العلمي".

لكن إسراء كانت تعرفهم بالفعل. فقبل عامين، أقدموا على مهاجمة حملة تنقيب كانت تعمل فيها في مدينة ميليديا الأثرية قرب ملطية. في ذلك الوقت، لم تستطع أن تتبين عددهم بوضوح بسبب الظلام. فقد اقتربت مجموعة منهم من فريق الآثار، وظهر رجل نحيل وطويل القامة له لحية كثة وعينين ثاقبتين، وطلب منهم بلغة تركية صافية إعطاءه مؤن الطعام. وعندما تردد رئيس الحملة في الرد عليه، استخدم آزاد بندقيته ليشير إلى الحجيرة التي يستخدمها الفريق كمطبخ.

وقال: "إن لم تعطونا إياها، فسنأخذها بأنفسنا". أصيب رئيس المهمة بالرعب لفكرة وجود شخص لا يعرفونه على الإطلاق، ولكنه على دراية بمخيمهم، حيث يعرف بالضبط مكان حفظهم للمؤن، لذا طلب من الآخرين على الفور إعداد المؤن المطلوبة. وبينما هو ينتظر المؤن، تأمل آزاد المكتشفات التي تم العثور عليها في الموقع الأثري. وازداد اهتمامه عندما ألقى نظرة فاحصة على الحجارة التي نقشت عليها الكتابات الهيروغليفية والتماثيل.

سألها آزاد: "هل هذه الأشياء مهمة فعلاً إلى هذا الحد؟".

فردت إسراء عليه: "إنها شديدة الأهمية، فهي تخبرنا عن الحياة التي عاشها الناس قبل آلاف السنين. إننا نستطيع بطريقة ما من خلال الكشف عن هذه التحف أن ننقذ الماضي من الغرق في الظلام".

تمتم وهو ينقل بندقيته من يد إلى أخرى: "إنها مهنة جيدة، ولكن

الحاضر هو الذي يحتاج إلى إنقاذ من الظلام وليس الماضي. لا تكفي محاولة انتشال الماضي من الظلام فقط في الوقت الذي يعيش فيه شعب كامل تحت وطأة الطغيان والظلم".

همّت إسراء أن تقول له إنها لا تتفق معه، وإن العلم والسياسة شيئان مختلفان، والأكثر من ذلك أن الإرهاب لا يمكن أن يوصل أحداً إلى أي نتيجة إيجابية، ولكن الخوف أصابها من آزاد الذي ازداد صمته إثارة للرعب وهو يقف أمامها والبندقية في يده، لذا آثرت الصمت. حذرهم آزاد وهو يأخذ المؤن التي حزمها فريق الآثار له قائلاً: "إن بلغتم الشرطة، فستدفعون الثمن". وبعد ذلك، اختفى مع رفاقه في الظلام.

لم يبلغوا الشرطة؛ فهم لم يجدوا فائدة ترجى من إثارة المشاكل.

لم تخبر إسراء أشرف عن تلك الحادثة. فمهما حاولت أن تضع ثقتها بالنقيب، فقد ظلت تعتبره أحد الأطراف المشاركة بتلك الحرب، لذا رفضت أن تخبره لأنها ظنت أنه سيحاول أن يربط بين كل حادثة في الماضي والصراع في المنطقة.

مرت كل هذه الحوادث ببال إسراء قبل أن تتوقف الشاحنة أمام المخفر.

وجدا النقيب أشرف جالساً بانتظارهما تحت شجرة مشمش إلى جوار طاولة تغطيها ملاءة مزركشة بمربعات زرقاء وسوداء عليها جهاز كبير. نهض أشرف مبتسماً عندما رأى الضيفين يدخلان من الباب الأمامي للمخفر. لم يكن يعتمر قبعته، فظهرت جبهته العريضة الآن بوضوح تحت شعره القصير، بينما أكمل ذقنه البارز الانسجام بين وجنتيه البارزتين وعينيه الداكنتين وبشرته الملفوحة بالشمس التي أضفت على مظهره جاذبية خاصة.

فكّرت إسراء أن ابتسامته تبدو جميلة جداً. وكانت قد سمعت أنه مطلق مثلها ولديه ابنة.

عادت إلى رشدها عندما سمعت صوت أشرف يرحب بهما. تأملته وهو يدعوهما للجلوس على الكرسيين الشاغرين بجانب الطاولة، فوجدت أنه استعاد هدوءه ولم يعد مكدراً كما بدا صباحاً. وعندما لاحظت مزاجه الجديد، سألته بتفاؤل وهي تجلس في مكانها.

"هل قبضت على شهموز؟".

فأجابها النقيب بجدية: "لقد أرسلت فريقاً إلى بيته بعد أن تحدثت إليك، ولكنه لم يجده، لذا توجّه إلى محطة الحافلات. نأمل أن يتم العثور عليه هناك".

أصغت إسراء إلى النقيب وهي غاضبة من تهورها. وسادت لحظة صمت، بينما كانت تخلع قبعتها المصنوعة من القش ونظارتها الشمسية وتضعهما على الطاولة بجانب الجهاز اللاسلكي.

سألها النقيب: "هل هو بالفعل من قتل الحاج عبد الستار؟".

أدركت من نبرة صوته أنه ميال للشك حيال ذلك. ولكن، بدلاً من أن تسأله عن السبب، اكتفت بالقول: "هذا ما قاله خلف". ثم التفتت إلى الطاهي الشاب الذي ظل واقفاً بالقرب منهما، وقالت له: "لماذا لا تجلس؟ هيا، اجلس وأخبر النقيب".

بينما جلس خلف على مقعده بتواضع، طلب النقيب إحضار الشاي. وسرعان ما قدمه لهم أحد الجنود.

سأل النقيب بعد أن أخذ رشفة من فنجان الشاي: "من أي قرية أنت؟".

فقال خلف وهو يشير بيده إلى تلة بعيدة: "من قرية ألاغوز الواقعة خلف تلك التلة. إنها على بعد عشرة كيلومترات".

"هل أنت كردي؟".

أثار السؤال أعصاب خلف فتردد في الإجابة. بدورها، وجدت إسراء السؤال غريباً إلى حدٍّ ما.

قال النقيب: "دعني أصوغ سؤالي بطريقة أخرى. هل تتكلم اللغة الكردية؟".

فاسترخى وجه خلف الملفوح بالشمس، وقال: "نعم، ياحضرة النقيب. إن جميع سكان قريتنا يتكلمونها".

لم تتغير نظرة الشك على وجه النقيب، فقال: "منذ متى وأنت تعرف شهموز؟".

"منذ وقت طويل. كنت أراه دائماً في رحلات الحافلة من القرية إلى المدينة".

"هل يجيد الكردية أيضاً؟".

"نعم، معظم الناس هنا يجيدونها".

"إلى أي حدّ تتفق مع شهموز؟".

"إنني لا أعرفه حق المعرفة، بل أقوم بمجرد تبادل التحية معه، هذا كل ما في الأمر".

"إن كنت لا تعرفه معرفة وثيقة، فلماذا أخبرك أنه سيقتل الحاج عبد الستار؟".

شحب وجه خلف وكأنما تملكه شعور بأنه هو المتهم بارتكاب الجريمة.

"لا أعرف أيها النقيب. حدث هذا ونحن في الحافلة. ركبت في مؤخر الحافلة، وظل المقعد بجانبـي شاغراً، لذا جلس شهموز عليه. إنه يحاول أن يبقى على علاقة ودية معي منذ بدأت مهمة التنقيب عن الآثار. صادفنا الحاج عبد الستار أمام المرأب. وعندما رآه شهموز، شتمه. فقلت له: لماذا تشتم هذا الرجل التقي؟ فأخذ طوال الطريق إلى المدينة يحدثني عن مدى حبه لروجين، ثم قال إنه سيقتل الحاج عبد الستار يوماً ما".

أصغى النقيب إلى الطاهي الشاب بتركيز، وكأنه يخشى أن تفوته إيماءة واحدة أو أي رعشة في صوته.

وعندما أنهى النقيب استجواب خلف، قال له: "حسناً، شكراً لتعاونك. اذهب واشرب الشاي الآن، فأنت لم تمسه منذ وصلت. اشربه الآن ريثما ينتهي رجالنا من إعداد إفادتك المكتوبة".

قال خلف بعد أن شرب الشاي الذي أصبح بارداً: "أيها النقيب، لن يعرف شهموز أنني بلغت الشرطة عنه، أليس كذلك؟".

فردّ عليه أشرف وهو ينظر إليه بصرامة: "وماذا لو عرف؟".

فأجاب خلف: "لا شيء، أيها النقيب". وبلع لعابه بتوتر، ثم قال: "ولكن أولئك الرجال كالكلاب المسعورة التي تعض المرء غدراً".

رفع النقيب حاجبيه بريبة، وقال: "من تقصد بأولئك الرجال؟".

"أقصد رجال ميميلي الأعرج. فشهموز أحدهم".

شعرت إسراء أنه يجب عليها أن تقدم تفسيراً، فقالت: "إن ميميلي الأعرج يعمل أيضاً بتهريب الآثار". وأضافت عندما شعرت بالانـزعاج من الطريقة التي أخذ بها النقيب يضغط على خلف: "ربما يكون هو من حرّض شهموز".

فقال النقيب وهو يهز رأسه: "ممكن". ثم نظر إلى خلف وعلى وجهه ابتسامة أبوية رقيقة وأضاف قائلاً: "لا تقلق. فلن يعرف أحد شيئاً عن إفادتك".

رافق خلف النقيب بعد أن شرب الشاي دفعة واحدة. وعندما بقيت إسراء بمفردها، راحت تتأمل نهر الفرات من بعيد. ورغم مضي عدة أيام على إقامتها هنا ورؤيتها للنهر عدة مرات من قبل، فقد فاجأها للمرة الأولى مدى شبه الفرات بمضيق البوسفور. وتملكها شعور أنها عادت بالزمن آلاف السنين إلى الوراء، وجلست عند قمة تلة، وراحت تنظر إلى ذلك المضيق في إسطنبول من دون وجود أثر لبيوت الشاطئ الخشبية القديمة

والقصور الأسمنتية والمطاعم والمقاهي والطرق الأسفلتية التي تزدحم بالسيارات ليلاً نهاراً. ولم يعد هناك سوى النهر الأزرق تنساب مياهه بين شريطين من الأشجار الخضراء، والحضارة التي قامت وانهارت ثم قامت من جديد لآلاف السنين داخل تلك المنطقة الخضراء...

عادت إلى واقعها عندما سمعت صوت أشرف يقول لها: "أما زلت هنا؟ ما الذي يشغل تفكيرك؟".

جمعت إسراء شتات أفكارها وقالت: "لا شيء. ولكن، بدا لي الفرات للحظة واحدة شبيهاً بالبوسفور".

"البوسفور؟".

بدأ أشرف أيضاً ينظر إلى النهر.

فقالت إسراء: "أقصد كالبوسفور ولكن قبل مئات أو آلاف السنين بالطبع".

"يبدو أنك تفتقدين إلى إسطنبول".

ثم لاحظ أن كوب إسراء فارغ، فقال: "هل تريدين المزيد من الشاي؟".

فارتسمت ابتسامة صادقة على شفتيها وقالت: "نعم، من فضلك".

أشار النقيب إلى الجندي الواقف على بعد بضعة أمتار لكي يحضر له كوبين آخرين من الشاي. فانطلق الجندي مسرعاً.

"هل لك أحد في إسطنبول؟".

قال أشرف: "أمي وابنتي". واستغرق في التفكير، ثم قال: "تعيش أمي في حي أوسكودار. إنها تتقدم في السن، وأخشى أن يصيبها مكروه. وابنتي تعيش مع طليقتي".

"هل تفكر في العودة إلى هناك؟".

التفت أشرف نحو إسراء، ونظر إليها كما لم ينظر إليها من قبل. فقد رمقها بنظرة عميقة وكأنه يريد أن يبوح لها بسر. شعرت إسراء أن ما يريد قوله مهم، فأصغت إليه بانتباه، ولكنه أشاح ببصره وكأنه طفل يخشى أن ينكشف ذنبه.

وقال متملصاً من الإجابة: "كلا، لا أفكر في ذلك. ماذا عنك؟ هل لك أحد في إسطنبول؟".

"والداي".

"هل تعيشين معهما؟".

ضحكت إسراء وقالت: "أيها النقيب، لا بد أنك تظنني شابة متخرجة

حديثاً من الجامعة. لقد غادرت منـزل والدي منذ سنوات. فقد تزوجت وانتقلت للعيش في شقتي في العام الذي تخرجت فيه من الجامعة، وهذا حدث قبل عشر سنوات. إنني أعيش في شقة في حي كوتشوك تشامليكا منذ ذلك الحين".

ارتسمت نظرة إحراج على وجه أشرف، ولكنه حاول ألا يظهر ذلك، وأشار إلى يد إسراء اليسرى برأسه.

وقال: "ظننتك عازبة لأنك لا تضعين خاتم زفاف".

"إنني مطلقة منذ عامين".

في تلك اللحظة، وصل الجندي مع كوبين من الشاي، ثم جمع الأكواب المتسخة. أخرجت إسراء علبة سجائر من حقيبتها، وعرضت عليه سيجارة، فألقى النقيب نظرة خاطفة إلى العلبة. ظنت إسراء أنه لن يأخذ منها، ولكنه مدّ يده وسحب سيجارة وقال: "لن تحل نهاية العالم إن دخنت سيجارة واحدة". ووضع السيجارة بين شفتيه.

فسألت إسراء وهي تخرج سيجارة من العلبة لنفسها أيضاً: "ألم تدخن من قبل؟".

ابتسم لها أشرف ابتسامة ذات مغزى وقال: "لقد كنت مدمناً خطيراً إلى أن منعني الأطباء من التدخين قبل عام".

قالت وهي تشعل سيجارتها: "الأطباء! آمل أنك لا تعاني من مرض خطير".

فردّ عليها: "كلا، ولكنك تعرفين كيف هم الأطباء".

وعندما أدرك أن إسراء راحت تنظر إليه بشيء من الشفقة، غيّر الموضوع في الحال وقال: "في الواقع، ليست تلك هي المرة الأولى التي أقلع فيها عن التدخين. فقد بدأت التدخين للمرة الأولى عندما التحقت بمدرسة كوليلي الثانوية العسكرية. تعرفين تلك الحاجة الملحة التي تدفع المراهق لأن يبدو ناضجاً. ولكن، ذات يوم- لا أعرف إن توجب عليّ أن أدعو ذلك ضربة حظ سيئة أم جيدة- ضبطني قائد مدرستنا، العقيد صالح سورغن الذي لطالما نظر إليه الطلاب برهبة شديدة. لقد شكل ذلك العقيد في نظرنا أسطورة حقيقية. فقد كان رجلاً مهيباً جداً، طويل القامة، أشقر الشعر، أزرق العينين كمصطفى كمال أتاتورك. لم يكن هناك أي شيء مزيف فيه، فصرامته صادقة ومخلصة لأنه جندي في الصميم وفي نظرته للأشياء وسلوكه وكلماته ولباسه العسكري. لقد ضبطني وأنا أدخن، تخيلي هذا. في الواقع، لا يمكن حتى أن تقولي إنه ضبطني، فقد رآني وحسب. لم

يستشط غضباً بل رمقني بنظرة إدانة وقال لي بصوت أجش: ارم السيجارة من يدك . فرميتها على الفور، واعتراني إحراج شديد، وخشيت أن يعاقبني، ولكنه لم يفعل أو يطلب مني أن أمتنع عن التدخين. ومع ذلك، لم أمس سيجارة أخرى إلى أن ذهبت إلى شيرناك عام 1991".

التزم النقيب الصمت مرة أخرى، وراح يحدق إلى الفضاء مستغرقاً في التفكير والنظر إلى نهاية سيجارته المحترقة.

سألته إسراء وكأنها تريد أن تذكره بوجودها: "هل عاودت التدخين من جديد في شيرناك؟".

فقال أشرف بصوت حالم: "في الجبال. في الواقع، نحن نسمي ذلك المكان الميدان، بينما يسميه المتمردون الجبال".

بدأ يضحك بهدوء وهو يهز رأسه، ثم تابع كلامه قائلاً: "عندما تدوم الحرب وقتاً طويلاً، يبدأ المرء بالتشبه بعدوه، فيتحدث، ويفكّر، ويتصرف مثله".

ولكنه بدا قلقاً فجأة، فرمى سيجارته على الأرض وتمتم قائلاً: "أرجو المعذرة، لا بد أنك مللت من حديثي بهذه الطريقة".

فأجابته إسراء: "على الإطلاق. من فضلك تابع". ولكن الأوان كان قد فات، فقد ساد صمت مطبق بينهما. فوجهت إسراء عينيها المفعمتين بالتساؤل نحوه، ولكنها أخفقت في الحصول على أي رد فعله منه، وعادت لتتأمل نهر الفرات. فقام النقيب بكسر الصمت هذه المرة.

وخاطبها بصوت جاد خالٍ من أي عواطف: "دعيني أخبرك شيئاً. لا أظن أن شهموز هو القاتل".

بدأت تصاب بالانـزعاج من مزاج النقيب الغريب وتصرفاته التي عانت من وقت عصيب في فهمها.

فسألته: "لماذا؟". وحاولت أن تجعل صوتها خالياً من أية عواطف أيضاً مثل صوته، ثم تابعت قائلة: "لماذا؟ ألا تصدق "خلف"؟".

ردّ النقيب: "إنني أصدق "خلف"، ولكن تلك كانت مجرد كلمات قالها شهموز في لحظة غضب. لا يتمتع كل من شهموز أو ميميلي بالشجاعة الكافية لقتل الحاج عبد الستار. فهما مجرد رجلين تافهين وليسا من النوع الذي قد يتحمل وزر ارتكاب جريمة قتل".

اعترضت إسراء قائلة: "إن الغيرة شعور جارف أيها النقيب". ورمقته بنظرة مفعمة بالثقة بالنفس، بينما كانت تشبك أصابع يديها أمامها، وقالت: "إن الإنسان الغيور يتصرف عادة من دون التفكير بالعواقب".

"قد تكونين محقة، ولكنني لا أظن أن شخصاً مثل شهموز قادر على الشعور بهذا النوع من الغيرة القاتلة. إن حدة أي غيرة قد يشعر بها قد تكفي فقط لكي تجعله يشتم الحاج عبد الستار بالخفاء".

شعرت إسراء بنفسها تستشيط غضباً من حديث أشرف المليء بالتفاصيل، وأوشكت أن تقول: "إذاً، أنت تعرف شهموز معرفة جيدة، أليس كذلك؟". ولكن، فجأة أخذ جهاز اللاسلكي يصدر صوتاً.

فأمسك به أشرف وهو يقول: "قد يكون أحد رجالنا". ثم رد على الاتصال قائلاً: "النقيب أشرف معك".

صدر صوت مرتفع مخترقاً صوت الأزيز، وقال: "الرقيب إحسان معك، سيدي".

"هل ألقيتم القبض على المشتبه به؟".

"نحن في الطريق المؤدي إلى غازي عنتاب الآن".

"ماذا تفعل في الطريق المؤدي إلى غازي عنتاب؟".

"لقد ألقينا القبض على المشتبه به وهو يحاول الهرب إلى هناك. نحن في طريق العودة الآن".

انتقلت نظرة أشرف إلى إسراء، بينما عكست ابتسامة الشابة شعورها بالفخر لأنها أثبتت صحة كلامها.

قال النقيب قبل أن يضع اللاسلكي على الطاولة: "حسناً، إنني بانتظاركم".

خاطبته قائلة: "أترى؟ لم تصدقني، ولكن الرجل كان على وشك الفرار".

فأجابها أشرف مجبراً نفسه على الابتسام: "سنرى".

في تلك اللحظة، رأت إسراء "خلف" يخرج من المخفر ويدنو من الطاولة، فبدأت تجمع حاجياتها وتتأهب للذهاب.

قال أشرف وهو يبدو حزيناً لحدوث ذلك: "هل ستغادرين؟".

فأجابت وهي تضع نظارتها وتعتمر قبعتها: "لدي عمل أقوم به. وإن بقيت، فلن تسمح لي بحضور الاستجواب أياً يكن الأمر".

"لسوء الحظ، لن أتمكن من فعل ذلك، ولكنني سأخطرك بالنتائج".

فأجابته إسراء: "سأكون ممتنة لذلك". ثم التفتت إلى خلف، وقالت: "هل كل شيء على ما يرام؟ هل يمكنك الذهاب؟".

فأجاب خلف وهو يقف باستعداد كالجندي الذي أحضر الشاي: "كل شيء على ما يرام، سيدة إسراء".

"إذاً، يمكننا أن نذهب الآن".

ونهضت إسراء على قدميها.

قال خلف: "يجب علينا أن نمر بالمدينة لشراء بعض المؤن".

فقاطعه النقيب أشرف قائلاً: "سيكون من الأفضل ألا يذهب أحد إلى المدينة اليوم". ونهض على قدميه، ثم قال: "لم يمض وقت طويل على وقوع جريمة القتل. وقد يحاول أحمق ما لديه فكرة مغلوطة أن يلحق بكم الأذى".

ارتسم تعبير موح بالتصميم على وجه خلف وقال: "لا تقلق ياسيدي. بعون الله لن يصادف أي مكروه طريق السيدة إسراء وهي بصحبتي".

نظرت إسراء بابتسامة عذبة نحو خلف، وهو يقف ممتلئاً ثقةً بالنفس، وكأنه أحد أولئك الرجال الأشداء من الماضي، وقالت: "هل من الضروري أن نذهب إلى المدينة؟".

"ليس من الضروري، ولكن بما أننا قطعنا هذه المسافة...".

"إن لم تكن هناك ضرورة لذلك، فلن نذهب. ليست هناك حاجة لزيادة التوتر في هذا الجو المتوتر أصلاً". ثم التفتت إلى أشرف وقالت: "متى سينتهي كل هذا؟". وارتسمت نظرة قلق عميق على ملامحها.

فأجابها أشرف: "ليتني أعرف ذلك. سنرى حالما تنتهي الجنازة".

وكانت إسراء قد نسيت أمر الجنازة كلياً، فقالت: "حسناً، متى ستقام الجنازة؟".

"أشك في أنها ستقام قبل الغد. فقد أمر المدعي العام بإرسال الجثة إلى غازي عنتاب لتشريحها".

"أود المشاركة في الجنازة أيضاً".

"إنني آسف، ولكن هذا مستحيل. فهم لا يستلطفون فكرة مشاركة النساء في الجنائز. يمكنك الذهاب وتقديم التعازي لعائلة المرحوم في وقت لاحق. فالحداد يستمر وقتاً طويلاً هنا".

á á á

اللوح الرابع

يا من تشهد حدادي على سنوات عديدة. أيها القارئ الصبور الذي يحاول أن يفك لغز الأسرار الكامنة وراء هذه الأحداث. سأخبرك عن الكراهية العميقة التي يشعر بها شخصان تجري في عروقهما الدماء نفسها. سأخبرك عن روحين مختلفتين كل الاختلاف تسكنان جسدين تجمع بينهما صلة قرابة. سأخبرك عن العداء المترسخ بين والد وولده. سأتحدث عن الحقد الدفين في عائلتي الذي أدى إلى حلول اللعنة عليّ.

كان جدي ميتانوا يكره ابنه آراراس أكثر مما يكره ألد أعدائه. ومع ذلك، فقد وصل والدي إلى أعلى منصب يمكن لأحد أن يصل إليه في الدولة، وهو يأتي بالمرتبة الثانية بعد الملك. ورغم افتقاره للأقدمية، فقد بات من أشد الشخصيات توقيراً في مجلس النبلاء. ومع ذلك، لم يعن هذا شيئاً لجدي ميتانوا، لأنه لم يكن يحب ابنه أو يتردد في التعبير عن شعوره هذا بكل صراحة. فقد اعتاد أن يوبخه عندما يكونان وحدهما، وحتى أمام الآخرين. وبالرغم من أنه لم يكن من النوع الذي يصرّح بمشاعره بشكل واضح، فإن والدي آراراس لم يكترث على الإطلاق لميتانوا العجوز.

أما سبب هذه الكراهية من جانب جدي، بحسب قول والدي، فيتلخص في أن زوجة جدي الأولى توناوي توفيت أثناء ولادة أبـي.

كانت توناوي حبيبة جدي وأعظم عشق في حياته؛ فقد اعتاد أن يدعوها حب حياتي . وكانت توناوي تبادل جدي حبه، فلم يكن يتوجب عليه أن يطلب منها الطلب ذاته مرتين. وعندما أصبحت جدتي حاملاً بطفل جدي، اصطاد سمكة شبوط كبيرة من نهر الفرات. وعندما شق سمكة الشبوط، خرجت من جوفها سمكة سوداء من نوع لم يصادفه من قبل في النهر، وهذا يعتبر نذير شؤم، لذا توجه جدي مباشرة إلى العراف الذي أكّد له بدوره أن هذا فأل سيئ، وطلب منه أن يعيدها إلى النهر. ففعل جدي على الفور ما طلبه منه العراف، ولكن من دون فائدة. إذ لا بد أن تيشوب قد أحب توناوي الجميلة أكثر مما أحبها جدي، لذا قرر أن يستأثر بها لنفسه.

عندما عرف جدي أن توناوي قد فارقت الحياة، أقسم على الامتناع عن الطعام والشراب. ولم يعد يقوى على الذهاب إلى القصر لأيام، والأهم من ذلك أنه عجز عن النظر إلى وجه ابنه المولود الجديد. ولم يحدث أن حمل والدي بين ذراعيه إلا بعد أيام، ومع ذلك فقد ظل يعتبر والدي

مسؤولاً عن وفاة زوجته. ففسر والدي هذا التصرف بقوله: "إنه لم يسامحني قطّ. فأنا لم أره ينظر إليّ بحب أو أشعر به يمسك بيدي بحنان. بالنسبة إليه، أنا لست ابناً بل شخصاً مسؤولاً عن وفاة زوجته. وظل يعاملني بهذه الطريقة منذ طفولتي وحتى بلغت سن الرشد. إنني ممتن لملكنا كاماناس الذي حماني وعاملني معاملة الأب لابنه. وهكذا، لم يعد بوسع حقد والدي أن يؤذيني. ولو أنني تركت تحت رحمته، لرباني لأكون راعياً وليس كاتباً. ومع ذلك، فقد تولى ملكنا العظيم الراحل كاماناس مسؤولية تعليمي كما فعل مع ابنه أستاروس وحماني من ميتانوا. وهكذا، لم يستطع أن يأخذ بثأر زوجته التي حملني مسؤولية موتها، واستمر عداء والدي لي طوال حياته. أما أنا، فلن أسامحه كابن ما حييت".

بينما راح والدي يروي هذه القصة، استطعت أن أرى الدم يتلاشى من وجهه الطويل النحيل، وانتابني خوف من الكراهية الشديدة التي رأيتها تشتعل وتتأجج في عينيه الضيقتين، ولكنني أدركت الحزن والأسى اللذين يتملكان قلبه وأحاسيسه. فلا بد من أن يلقي هجر ذلك الطفل اليتيم المكروه من والده بظلاله القاتمة على وجهه حتى وهو رجل ناضج؛ رغم تحليه بالثقة بالنفس ومقدرته على تولي أهم المهمات في القصر الملكي. في أوقات كتلك، ورغم شدة حبي لجدي ميتانوا، فقد عجزت عن منع نفسي من الشعور بالغضب من تصرفاته. ولم أفهم كيف يمكن لأكثر الرجال على طول ضفتي الفرات حكمة أن يتصرف بهذه القسوة مع ابنه الذي من صلبه.

á á á

الفصل الخامس

بحلول الظهر، توقفت الشاحنة بجانب المخيم بعد أن أنهت رحلتها المتخبطة على الطريق الأسفلتي على طول نهر الفرات. أصبح الطقس شديد الحرارة، بينما ساد صمت يبعث على الهدوء والطمأنينة، هذا إن لم نأخذ بعين الاعتبار أصوات جداجد الحقل العنيدة التي راحت تصفر في الحديقة الصغيرة أمام المدرسة. فقد صدرت أصواتها من بين أشجار الحور التي تعانق السماء بأغصانها الطويلة النحيلة المتطاولة إلى الأعلى، وأوراقها الجميلة التي يعزف عليها النسيم حفيفاً ناعماً.

عندما دخلت إسراء غرفة الصف، وجدت نوافذها مفتوحة على مصاريعها على أمل دخول بعض النسيم العليل إلى المكان. وسرت لرؤية كمال وتيومان منغمسين في عملهما أمام جهازي الكمبيوتر. فقد وجدت تيومان يعمل على رسومات المدينة الأثرية، بينما راح كمال يدخل بعض البيانات حول المكتشفات الأثرية. عندما رأت صديقيها منهمكين بعملهما بهذا الشكل وكأن شيئاً لم يحدث، لم يسعها إلا أن تتساءل إن كانت تبالغ في رد فعلها. صحيح أن جريمة قتل قد وقعت، ولكن الكثير من الناس تعرضوا للقتل في هذه المنطقة؛ إن صح التعبير. ظهرت صورة وجه الحاج عبد الستار في مخيلتها مرة أخرى. نعم، لقد حزنت لموته، ولكن على حدّ تعبير بيرند فما علاقة هذا الموضوع بهم؟ لماذا يزعجها إلى هذا الحدّ؟ شعرت أنها تريد لوم النقيب على شعورها هذا. فالطريقة التي نقل بها الخبر لها في وقت مبكر من الصباح، وكذلك سلوكه الباعث على الخوف أثرا بشكل حتمي على رد فعلها. غضبت من نفسها لأنها سمحت لتصرفات النقيب أن تؤثر عليها بهذا الشكل. قد تكون معجبة به، ولكن لا ينبغي لها أن تسمح له بالتأثير على أفكارها بهذه السهولة.

قال تيومان حالما لاحظ وصولها: "مرحباً إسراء، كيف سارت الأمور؟".

ردّت عليه وهي تخلع قبعتها ونظارتها الشمسية: "على ما يرام. في الواقع، لقد قبض على شهموز وهو في طريقه للهرب. إذا اعترف بأنه القاتل، فسوف نتخلص من كل هذه الفوضى".

أشاح كمال بعينيه بعيداً عن الكمبيوتر للحظة وجيزة، ولوّح بيده لإسراء محيياً إياها، ثم تمتم قائلاً: "إذاً، أظن أن الأمور في طور التحسن، أليس كذلك؟".

لم تجب إسراء عن سؤاله، وبدلاً من ذلك سألت قائلة: "أين

الآخرون؟".

قطّب كمال حاجبيه، وأجاب تيومان عن سؤالها عوضاً عنه: "لقد ذهب كل من تيم وإيلاف ومراد إلى قرية يازير. فتيم يريد التحدث إلى القرويين بشأن كتابه، وقالت إيلاف إنها ستلتقط بعض الصور، بينما قال مراد إنه سيذهب برفقتهما ليوصلهما".

قالت إسراء: "ظننت أن تيم سيترجم الألواح". وبدت خيبة الأمل واضحة عليها. فقد كانت هناك ثلاثة ألواح لا تزال بحاجة إلى قراءة وترجمة.

لاحظ كمال المعنى الذي تضمنته نبرة صوت إسراء، فأخذ نفساً عميقاً مبتعداً عن الكمبيوتر.

وقال من دون حاجة لإخفاء عدائيته: "إنني حقاً لا أستطيع تحمل تيم بعد الآن. هل هو خبير آثار أم أخصائي اجتماعي أم ماذا؟ من يدري؟ إنه لا يبقى في موقع التنقيب عن الآثار أبداً، بل يمضي وقته في التسكع هنا وهناك. لم تبق قرية واحدة على طول نهر الفرات لم يتعرف عليها ويصبح له أصدقاء فيها".

فعرض عليه تيومان تفسيراً للوضع قائلاً: "حسناً، لقد مضت على الرجل خمس سنوات هنا. لو أننا أتينا إلى هنا منذ فترة زمنية طويلة كهذه، لأصبحنا على معرفة بالمنطقة كما يعرفها".

تابع كمال تذمره: "إنني لا أفهم موقف إيلاف أيضاً. لماذا تستمر بمرافقته إلى كل مكان؟".

أدرك تيومان غيرة كمال من ذلك الأمريكي، فأمعن في استفزاز صديقه وهو يضحك بينه وبين نفسه طوال الوقت.

"حسناً، إنه وسيم وأجنبي. فتياتنا مولعات بالرجال الأجانب".

قال كمال وهو يرغي ويزبد: "مولعات بالأجانب، أليس كذلك؟ إنه بعمر والدها ياصديقي".

"أتظن أن فرويد عالم النفس الشهير أجهد دماغه كل ذلك الجهد ليأتي بنظرية عقدة إليكترا بلا فائدة؟".

"لا تبدأ، ياصاح. سأعلمك معنى فرويد وعقدة إلكترا...".

قالت إسراء: "هذا يكفي". وانفجرت ضاحكة، وشعرت أنها نجحت في تخطي توتر الصباح واستعادت صفاء ذهنها، ثم أضافت: "ما من شيء بين تيم وإيلاف".

أطلق تيومان ضحكة مدوية، ثم ربت بعطف على رأس كمال، وقال:

"وأنا أيضاً لا أظن ذلك، ولكن هذا الأحمق يظن ذلك لأنه غارق حتى أذنيه في حبها".

فردّ كمال وهو يبعد رأسه عن يد تيومان: "أنت وحدك الأحمق. أتساءل عما ستفعله لو كنت مكاني".

قالت إسراء بعد أن استعادت جديتها: "بعيداً عن المزاح، إنني أعتبر الحظ حليفنا لوجود تيم في فريق عملنا. فكرا بالأمر، لولا وجود تيم، لتوجب علينا إرسال الألواح إلى الجامعة ليقوم شخص يعرف الأكادية بفك شيفرتها. إنه امتياز كبير أن نتمكن من معرفة فحوى النصوص في التو واللحظة. لا يمكننا أن نتوقع منه أن يحضر إلى الموقع كل يوم، فهو خبير". وبعد فترة صمت وجيزة، هزت رأسها وكأن فرصة هامة فاتتهم، ثم قالت: "ولكن، سيكون من الأجمل لو نتمكن من فك شيفرة هذه الألواح اليوم... أظن أنه أراد أن يعمل على كتابه في يوم إجازته. أياً يكن الأمر، أظن أنه ينبغي علينا أن نمنح الرجل هذا الامتياز على الأقل".

تذمر كمال بسخرية لاذعة: "بالطبع ينبغي ذلك. فليذهب بالسيارة ويتسكع بالقرية بينما نقبع نحن خلف هذه الكمبيوترات من دون أن نحظى حتى بمجرد فكرة الحصول على يوم إجازة".

قالت إسراء محاولة تهدئة روعه: "هذا يكفي الآن. هيا، فلنكفّ عن التذمر، ولنعد إلى العمل. أين بيرند؟".

قال تيومان: "من أين لنا أن نعرف؟ إن لم يكن في غرفته، فهو يتجول على دراجته. إنه لا يهبط بمستواه ويتحدث إلى أمثالنا. ماذا تريدين من ذلك المتعجرف؟".

في الواقع، لم تكن إسراء تكن لبيرند مشاعر مختلفة عما يكنه تيومان له. ومع ذلك، فقد فضلت أن تخفي تلك الحقيقة عن الآخرين.

ردت إسراء عليه قائلة: "حسناً، يبدو أن الفريق يعاني من حالة تشبه رهاب الأجانب".

اعترض تيومان قائلاً: "هيا يا إسراء، لا بد أنك لا تستلطفين ذلك الرجل ذا الوجه الشبيه بوجوه النازيين أيضاً".

"لا ينبغي أن تتحدث عنه بهذه الطريقة... إنه ليس سيئاً، ولكن له طرقاً مختلفة خاصة به".

تذمر تيومان قائلاً: "سيكون من الجيد لو أنه يغير طرقه الخاصة. لا يفترض بكل الفريق أن يحذو حذوه".

وبخته إسراء قائلة: "من الأفضل أن تهدئ من روعك. إن المهمة تتم

على أرضنا، ونحن المسؤولون عنها".

فرد تيومان عليها بسخرية: "كما أن الألمان هم الذين يمولونها".

"هذا صحيح أيضاً. الألمان يمولونها، ولكنْ ليس هذا هو السبب الذي يجبرنا على تحمل بيرند. إنه يشكل جزءاً من الفريق. ولا أريد أن يشعر أيّ كان أنه منبوذ من الباقين".

نظر تيومان إلى إسراء بإحباط، ولكنه لم ينبس ببنت شفة. اعتبرت إسراء أن صمتهما دليل على أنهما يتفقان معها، فشعرت أنه لم تعد هناك حاجة لاستكمال نقاشهم وجمعت حاجياتها وهمت بالمغادرة.

إلا أنها قبل أن تصل إلى الباب، التفتت لتواجه الشابين وقالت لهما: "حسناً، بما أنكما لستما بحاجة إليّ، فسأذهب وأتفقد أمره. أراكما على العشاء". وأضافت بنبرة رقيقة لتظهر أنها تحاول أن تتحبب إليهما مرة أخرى: "سيعد لنا خلف طبقاً من الخضار اللذيذة مع الأرز والزبدة والكثير من السلطة".

بينما كانت تعبر الممر بجدرانه المليئة بالصدوع الرفيعة والجبس المتكسر، فكرت في أن تيومان على حق في ما قاله. ففي كل مهمات التنقيب عن الآثار التي اشتركت فيها لم تصادف شخصاً بغيضاً مثل بيرند. فشخصيته الباردة والصعبة، وطموحه المبالغ به، يجعلان من المنصف وصفه بالمنفصل تماماً عن الحياة اليومية. ففي أوقات فراغه، لم يكن ينضم إلى فريق التنقيب، بل كان يلازم غرفته ليعمل أو يذهب في جولة على دراجته في القرى المجاورة. ولكن، مهما حاول أن ينأى بنفسه عن الجميع، فقد وضعت إسراء نصب عينيها مهمة كسب وده واختراق حواجز برودته. على عكس العلماء الآخرين الذين يتوجب عليهم أن يتعاملوا مع موضوع بحثهم وحده، يجب على علماء الآثار أن يتحملوا الضغط الإضافي المترتب على كونهم منظمين محترفين وعلماء نفس قادرين على إقامة العلاقات الجيدة مع الآخرين. وهكذا، لم يعد لديها خيار سوى أن تتعامل مع بيرند أو على الأقل أن تبذل جهدها معه.

وبينما هي في غمرة هذه الأحاسيس، طرقت على باب غرفة خبير الآثار الألماني الذي وجدته موارباً قليلاً. وعندما سمعته يقول "ادخل"، قالت مبتسمة.

"هل لي بدقيقة؟".

رفع بيرند رأسه لينظر نحو الباب. وكان جالساً إلى مكتبه في غرفته شديدة الترتيب، والقلم في يده، وهناك بضع أوراق أمامه.

فأجابها بلغته التركية ذات اللكنة الثقيلة: "تفضلي بالدخول من فضلك".

قالت إسراء وهي لا تزال تقف: "هل تعمل؟".

قال بيرند وهو يرفع نظارته ذات العدستين المستديرتين نحو عينيه مما ركز على حدة لونهما الأزرق: "إنني أكتب رسالة".

"آسفة للمقاطعة، سأعود لاحقاً".

"كلا، من فضلك ادخلي؛ فقد انتهيت من كتابتها". أشار بيرند إلى المقعد المقابل له، وقال: "تفضلي بالجلوس هنا".

بدا عليه أنه نسي كل ما يتعلق بالشجار الذي وقع في الصباح، فجلست إسراء على المقعد الذي أشار إليه، وألقت نظرة خاطفة على الأوراق الموضوعة أمامه، وفكّرت بقلق: "ترى، أيحاول أن يرسل تقريراً إلى المعهد الألماني للآثار؟".

قال لإسراء وكأنه قرأ أفكارها: "إنها رسالة خاصة". واسترخت الخطوط المرتسمة على وجهه الطويل والنحيل، وتحولت النظرة الحادة في عينيه الزرقاوين إلى نظرة أكثر رقة. وأضاف قائلاً: "إنها رسالة لزوجتي فارتوهي في ألمانيا".

وجدت إسراء في الاسم شيئاً من الغرابة، فقالت: "فارتوهي!؟".

شرح بيرند بصوت عذب قائلاً: "إنه يعني الوردة باللغة الأرمنية".

فكرت إسراء: لا بد أنه يحب زوجته حباً جماً. وبعد ذلك، ولسبب ما، خطر ببالها طليقها أورهان.

قال بيرند: "لقد ولد والد زوجتي، واسمه هاتشيك، في تركيا. تعلمت اللغة التركية منه أول الأمر". استغرقت إسراء وقتاً حتى استوعبت ما قاله.

ثم سألته بفضول: "حقاً؟ متى غادروا تركيا؟".

فتلاشى اللمعان من عيني بيرند وقال: "قبل وقت طويل، أثناء الحرب. عانى الأرمن تجربة مريرة في تلك الفترة. فقد عاملهم الأتراك بقسوة؛ فقتلوا رجالهم واغتصبوا نساءهم وهجروا شعباً كاملاً؛ ومن بينهم المسنون والأطفال".

اختفى بيرند الودود اللطيف الذي ظهر قبل لحظة ليحل محله الرجل الألماني النكد المألوف.

قالت إسراء بعد أن شعرت بحاجة للدفاع عن نفسها: "لسوء الحظ، كل البلدان مرّت بتاريخها بأحداث مؤسفة من هذا النوع".

فردّ بيرند عليها عابساً: "ولكن هذا مريع. لقد توفي جد زوجتي في

تركيا، لذا تكبد والدها مشقة كبيرة في الهرب مع والدته إلى فرنسا، ولكنه لم يتمكن من التكيف هناك. فقد ظل يكرر قائلاً: موطني الأصلي، موطني الأصلي . وهو يمطر الأتراك بالشتائم واللعنات".

قالت إسراء محاولة أن تتسم باللطف في وجه كلمات بيرند القاسية: "هذا ليس سهلاً بالطبع، ولكن هذه مسائل مثيرة للجدل إلى حدّ كبير".

فردّ بيرند عليها بثقة: "ليس هناك ما يثير الجدل فيها. إنها إبادة جماعية، والعالم بأجمعه يصفها بالإبادة، ولكن الحكومة التركية وحدها من تنكرها".

حاولت إسراء أن تسيطر على نفسها، فقالت: "كما قلت صباح اليوم، هذه المسألة لم تعد بين أيدينا الآن لنعالجها. لماذا لا نتركها لعلماء التاريخ ليبحثوا في الحقائق، ونعد نحن لحملتنا الخاصة بالتنقيب عن الآثار".

لم يأبه بيرند لتعليق إسراء بل استمر بالكلام: "على الرغم من كل ما تعرضوا له، فهم لا يزالون يحبون هذا البلد. فحتى السنة الماضية، ظلت فارتوهي تصر على مرافقتي إلى هنا. إن والدها أيضاً يشعر بفضول شديد حيال هذه المناطق، فهو يسألني مئات الأسئلة كلما عدت من تركيا".

"ألم تأتِ زوجتك هذا العام؟".

"كلا، لم تأت لأنها حامل".

سألت إسراء ظناً منها أن هذا مدخل إلى التسوية: "من المؤسف أنها لم تأتِ. إلى أي شهر وصلت في حملها؟".

أجابها الألماني: "إنها في الشهر السادس". واكتسب صوته نبرة ناعمة من جديد، وحل محل الفتور في عينيه لمعان لطيف كلون نهر الفرات تحت شمس العصر.

"نتوقع الولادة في مطلع شهر أيلول".

"هل تعرفان إن كان الجنين صبياً أم بنتاً؟".

فقال بيرند: "إنها فتاة. وهذا ما أريده. فأنا أعشق البنات".

"وأنا أيضاً. إنهن محببات وجميلات".

"هل لديك أطفال؟".

أشاحت إسراء بعينيها بسرعة، وقالت: "كلا". وأرادت أن تخبره عن الطفلة التي فقدتها أثناء حملها في الشهر الخامس، ولكنها غيرت رأيها.

بدا واضحاً لبيرند أن إسراء حزينة.

فقال: "لا تحزني. أنت لا تزالين شابة، ويوماً ما ستنجبين أطفالاً".

فكرت إسراء في سرها: "كلا، لن يحدث هذا أبداً". ثم تمتمت وهي

مبتسمة: "دعنا مني الآن. ماذا ستسمي ابنتك؟".

قال بيرند: "ميريني. هذا هو الاسم الذي تريده فارتوهي، فهو اسم جدتها".

"آمل أن تحظى ميريني بحياة سعيدة ومديدة".

"آمل ذلك، شكراً لأمنياتك الطيبة".

أدركت إسراء أن فرصة جيدة قد سنحت لها لكي تتطرق إلى الموضوع الذي أتت لتتحدث عنه، فقالت بصوت واثق ومتواضع في آن معاً: "صباح اليوم، أسأت إليك بعض الشيء. إنني آسفة إن جرحت مشاعرك".

نظر بيرند إليها بعناية، ثم هز رأسه، وقال: "كلا، كلا. ما من داعٍ للاعتذار. هذا عملك. لقد عبّرت عن رأيي وأنت كذلك، لذا ما من مشكلة".

شعرت إسراء بالراحة. فقد ظنت أن خبير الآثار الألماني يريد أن يوجّه لها إهانة بسبب ما حدث في الصباح، وأنه سوف يتصرف بتعال، وذلك ما سيمنعهم من الاستمرار في العمل. ولو أنها كانت تتعامل مع تيموثي، لوجدت التعامل معه أبسط بكثير. فقد كان تيموثي يتمتع بفطرة سليمة وتعليم راقٍ وخبرة ممتازة، فقد بدأ بترجمة الألواح التي تخرج مغطاة بالغبار من أرض بلاد الرافدين قبل أن تخطر ببالها فكرة التخصص بعلم الآثار. ومع ذلك، لم يستغل تيموثي خبرته ليستأثر لنفسه بأي أفضلية على الآخرين. فقد شكّل لمس الألواح، وفك شيفرة كتابتها، والوقوف جنباً إلى جنب وكتفاً بكتف مع بقية أفراد الفريق امتيازاً كافياً بالنسبة إليه. وبالرغم من أن إسراء شعرت أنه يخفي شيئاً ما، إلا أنها لم تشهد أي سلوك سلبي من جانبه. فلولا تباهيه واعتزازه بمعرفته أو خبرته، لكان الجميع في الحملة ربما باستثناء كمال مولعين به. ومع ذلك، فهي لم تستطع أن تنكر أن الشيء نفسه ينطبق على خبير الآثار الألماني. فقد تلقى هو الآخر تعليماً جيداً، وأتقن حقل تدريبه، ولكنه لطالما أبدى عناية شديدة بالتفاصيل، ولم يضع فرصة لإثارة المتاعب وتصيد الأخطاء. لم تكن إسراء واثقة من إخلاصه. فكم مرة قالت لنفسها: "أتمنى لو أننا لم نضم بيرند للفريق؟" . ولكن علماء الآثار الألمان كانوا يتمتعون بنفوذ كبير لا يمكن إنكاره على الجامعات في تركيا. فالأكاديميون الألمان الذين هربوا من هتلر هم الذين أسسوا قسم علم الآثار الحثية في جامعتها، بينما تبنى الأتراك وسائل العمل الألمانية في هذا الميدان. ففي مثل هذا الوضع، لم تجد إسراء من السهل استبعاد شخص مثل بيرند من الفريق. ففكرت في

أن الحل الوحيد بالنسبة إليها هو أن تبذل قصارى جهدها لتحمل بغض شخصيته، والاستمرار بالحملة، وتجنب وقوع أي نـزاع بأية وسيلة ممكنة. ولكن سلوك بيرند في تلك اللحظة فاجأها تماماً. فلم يسعها إلا أن تفكر في أنها أخطأت في تقدير ذلك الألماني، وأن المسافة والبعد بينه وبين زوجته الحبيبة فارتوهي ربما هما اللذان جعلا شخصيته بغيضة إلى هذا الحد. قالت إسراء بامتنان: "يسرني أن هذا هو شعورك".

قال بيرند: "لا يمكن إلا أن يكون هكذا". ولم يشعر بالحاجة إلى أن يدعي أنه لم يجد تصرف إسراء في تلك اللحظة مفعماً بعاطفة زائدة. ثم قال: "إننا نقوم بأصعب الأعمال هنا. ستقع خلافات بكل تأكيد، ولكن الشيء الأهم هو أن يظل الانضباط سيد الموقف. وكما قلت في الصباح أنت المسؤولة عن هذه الحملة".

شعرت إسراء ببعض الازدراء في طريقة قوله لتلك الكلمات، ولكنها آثرت تجاهل ذلك. فهذه هي المرة الأولى التي تجري فيها محادثة إيجابية معه منذ بداية حملة التنقيب عن الآثار.

á á á

اللوح الخامس

لم أر جدي ميتانوا ووالدي آراراس يعاملان بعضهما بطريقة حميمة إطلاقاً. ومع ذلك، قدّم كل واحد منهما تفسيراً مختلفاً لتلك العداوة الدائمة بينهما. فقد قال جدي إن والدي أكثر مكراً وطمعاً وكذباً من تاجر آشوري. ولم يكتفِ بوصف والدي بالبذرة المشؤومة، بل قال إنه أكثر الأوغاد تعليماً على طول ضفتي الفرات.

أكد لي جدي على الجزء الأول مما قاله والدي عنه. فقد شرح جدي ذات يوم قائلاً: "عندما أُخذت توناوي حبيبة قلبـي مني، شعرت أنني سمكة جرفها التيار وأصبحت تائهاً لا فكرة لدي عما يجب أن أفعله. ولم أنس أنني أب فحسب، ولكنني نسيت حتى نفسي. فقد كانت توناوي معشوقة طفولتي التي نشأت معها وكل شيء في حياتي. وعندما ماتت، لم يعد هناك طعم لأي شيء. لم أعد أشعر بالرغبة في رؤية أحد أو التحدث إلى أحد، ولا حتى الملك الطيب كاماناس. وعندما حصلت على الإذن من ملكنا البطل وسيدنا كاماناس، أخذت اثنين من عبيدي المخلصين، وذهبت إلى جزيرة صغيرة في وسط نهر الفرات. فتركني العبدان هناك في الجزيرة وبحوزتي طوف وعادا أدراجهما.

طيلة ثلاثة أيام بلياليها، أخذت أجري في أنحاء الجزيرة كالمجنون، وأعوي من الألم، وأذرف الدموع كامرأة عجوز. وعندما حلت نهاية اليوم الأول، كدت أفقد صوتي. وفي نهاية اليوم الثاني، جفت دموعي. وفي نهاية اليوم الثالث، استنـزفت كل قواي. وفي فجر اليوم الرابع، لم أعد أستطيع رؤية الضوء. وعندما رأيت الضوء مرة أخرى، وجدت نفسي في سريري في البيت. فبحثت يداي عبثاً بين أغطية السرير العطرة الباردة عن جميلتي توناوي، حب قلبـي التي جعلت حياتي حياة مفعمة بالفرح والسعادة. وعندما أوشك خمار الصباح الأسود أن يكتنف قلبـي، حدث شيء غير متوقع. فقد حضر الملك الرحيم كاماناس إلى بيتي. أيمكنك أن تتخيل هذا؟ ذلك الرجل العظيم والملك البطل؛ الملك كاماناس حضر بنفسه إلى بيتي المبني بناء على أمره على الأرض التي منحني إياها بكرمه. فأخذ الصبـي في حضنه وقال: "أصغ إلي. هذا ابنك. انظر كم هو جميل؟ سأسميه على اسم أبـي. سيكون اسمه آراراس". ثم قرّب الطفل مني، فأخذته في حضني وأنا أشعر بالحيرة والخجل، وضممته إلى صدري بحب وألم وهو غير مدرك لمدى براءته ويتمه.

كلما كبر ابني، ازددت حباً له. فبت آخذه إلى كل مكان أذهب إليه وقلبي مفعم بالفخر وأنا أشهد مهاراته وبراعته. وكلما سنحت لي الفرصة، كنت أصطحب ولدي ليمثل في حضرة سيدنا وملكنا الملك كاماناس.

أصبح الملك العظيم كاماناس شديد الولع بآراراس الصغير، لدرجة أنه أغدق عليه بشرف السماح بتعليمه مع ابنه أستاروس. وعندما تلقيت هذا الخبر، غمرني الفرح وتدفقت دموع الفرح من عيني كالشلالات، وظللت لأيام أمشي وأنا منتشٍ بهذا الشرف الذي أغدقه الملك على عائلتنا، ولكن الخيانة الغادرة التي واجهتها أثبتت لي أي خطأ أحمق ارتكبت.

فكلما كبر ابني ونما جسمه، أصبح شبيهاً بي بملامح وجهه وجسده. ومع ذلك، لم ينعكس ذلك على سلوكه. فقد بات محترماً كالكاهن، ومجداً كالعبد، وذكياً ككاتب موهوب. لقد منحه تيشوب كل الصفات الراقية التي يمكن لأب أن يتمناها في ولده. لم يعارضني قطّ مهما وجهت إليه من كلمات قاسية. ولطالما أصغى إلى كل ما أقوله له باحترام، ولكن لم يغب عن ملاحظتي ذلك الظل الأسود القاتم الذي خيم على عينيه والمكر في تصرفاته، وهذا ما بث الخوف في نفسي. فإنني لم أر قط نظرة طفولية في عينيه أو ابتسامة ساذجة ترتسم على شفتيه. وحتى في تلك الأيام، بدت أفعاله وكلماته وابتسامته تحت السيطرة والقياس وكأنها خاصة بكاتب يتبع الملك على الدوام. اعتاد أصدقائي التحدث عن صفات ابني بكل فخر واعتزاز، ولكنني شعرت بالقلق. ولم يمض وقت طويل حتى اكتشفت أنني لم أخطئ في شعوري هذا.

عندما لقي ملكنا القوي كاماناس حتفه بعد أن سقط عن حصانه خلال رحلة صيد للأسود، ابتسم الحظ لابني وللملك الشاب أستاروس الذي لم يكن يخالف كلام ابني بأي حال من الأحوال. وبعد نهاية جنازة الملك البطل التي دامت أربعة عشر يوماً، وقبل أن يستقر رماده في الإناء الذي وضع فيه، بدآ يدبران لمكيدتهما. فقد أقنع ابني آراراس الملك الشاب أستاروس أنه ينبغي عليه التخلص من أعضاء المجلس المسنين. فخلعاني من منصبي، وحاولا أن يشوها سمعتي، ولكنهما لم يتمتعا بالقوة الكافية للقيام بذلك. فأخذا مني فقط الاسم والقوة والسلطة التي منحتني إياها المملكة، ولكنهما عجزا عن مس حريتي ونزاهتي بأي سوء".

وبينما أنا أصغي إلى هذه الحوادث التي يرويها جدي ميتانوا على مسمعي بغضب عارم، رحت أتساءل عن مقدار الحقيقة فيها، ومقدار المبالغة. فقد بدا جدي سريع الغضب وأشبه بكومة قش أضرمت فيها

النيران، ولكن غضبه لطالما بدا قصير الأمد. ومع ذلك، إن اشتغل غضبه، فقد السيطرة على نفسه، ولم يعد يتردد في التفوه بأول ألفاظ تخطر بباله من دون تفكير. ولهذا السبب، أصغيت بانتباه لكلامه عن أبـي وكأن الرجل الماثل أمامي شابٌ سقط ضحية لغضبه، وفكرت في كلماته ملياً لوقت طويل قبل أن أصدقها.

á á á

الفصل السادس

بعد الغداء، جلست إسراء في ظل التعريشة، وحاولت أن تمضي الوقت بالتفكير في كل ما حدث معها اليوم، ولكن أفكارها باتت مشوشة عند نقطة معينة، وهي تتساءل عما قاله شهموز في إفادته. هل اعترف بارتكاب الجريمة ياتُرى؟ وإن ثبت أنه ضالع بها بالفعل، فمن حرضه ودفعه؟ أدركت أنه يستحيل عليها أن تفسر ما جرى من دون معرفة ما أدلى به، لذا لم يعد لديها أي خيار آخر سوى انتظار نتائج الاستجواب، ولكن مضت ساعات ولم تسمع خبراً من أشرف. وكلما طال انتظار إسراء، تضاءل تفاؤلها أكثر فأكثر، ووجدت نفسها تعود للمزاج القلق نفسه الذي سيطر عليها في الصباح.

فكرت على الرغم من الحر: "ليتني ذهبت مع خلف لتوصيل طعام الغداء إلى حارس الموقع سيلو. فربما يمضي الوقت هناك أسرع". في ذلك الوقت، لم يكن هناك شك لديها في أن "خلف" قد وصل إلى الموقع قبل وقت طويل. في الواقع، من المرجح أن سيلو قد انتهى من تناول غدائه، ثم لف سيجارتين من التبغ المهرب وهو يدخنهما الآن مع خلف، وهما متمددان مقابل بعضهما في ظل شجرة التين عند البوابة. تمنت لو أنها كانت تجلس معهما في هذه الأثناء، وتصغي إلى حديثهما عن الحصاد المرتقب لتلك السنة، أو عن تغير المناخ بسبب البحيرات الصناعية المتشكلة جراء بناء السدود على طول نهر الفرات. أخيراً، انسحبت إلى غرفتها، حيث تمددت على سريرها وهي في حالة إحباط، وبذلت جهداً للتركيز على الرواية التاريخية التي حاولت أن تنهيها منذ وقت طويل، ولكنها عجزت عن ذلك. لذا، وضعت الكتاب جانباً، ونهضت مجدداً، ثم توجهت إلى مقدمة البناء نحو غرفة الكمبيوتر.

وجدت "كمال" بمفرده في الغرفة. فقد ذهب تيومان ليأخذ قيلولة على الأرجوحة الشبكية تحت ظل شجرة الجوز. حاولت أن تخفف من حدة الترقب الذي شعرت به أثناء انتظارها، لذا جلست أمام أحد أجهزة الكمبيوتر وبدأت العمل. فأخذت تصنف في لائحة الأواني الخزفية المكتشفة، والقطع والأختام المتعددة، وتمثالين نحاسيين وواحداً فضياً يظهر عليها التأثير الآشوري، وعقداً أرمني الطراز ومزهرية، كل هذا بالإضافة إلى الألواح.

حتى ذلك الوقت، كانوا قد اكتشفوا أربعة وعشرين لوحاً من غرفة المكتبة الصغيرة تحت القصر. فاحتوت عشرة ألواح منها على أجزاء من

ملحمة جلجامش، والألواح الأربعة عشر الأخرى تضمنت كتابات باتاسانا. على عكس النصوص المأخوذة من ملحمة جلجامش، لم تتعرض ألواح باتاسانا سوى لتلف طفيف. فعندما انهار القصر، دفنت الغرفة التي احتفظ فيها الكاتب بالألواح تحت كومة كبيرة من الركام والحجارة، ولكن ألواح باتاسانا كانت أكثر متانة لأنها مشوية بالنار، لذا لم تتفتت عندما تعرضت لضوء الشمس. ومع ذلك، قام فريق التنقيب عن الآثار بنسخ النصوص على الورق، وأخذ صور فوتوغرافية لها. لم يَخلُ اللوح الثالث والرابع والسابع من بعض الصدوع والتشققات، ولكنها ظلت تشكل قطعة واحدة متماسكة.

بينما كانت تسجل معلومات عن المكتشفات الأثرية، ترقبت إسراء رنين هاتفها الجوال، ولكنه لسبب ما لم يرن. ترى، هل يمكن للاستجواب أن يدوم كل هذه المدة؟ ربما انتهى الاستجواب قبل وقت طويل، ولكن النقيب لم يجد حاجة إلى إعلامها بذلك. فكرت للحظة: ربما ينبغي عليّ أن أتصل به بنفسي. ولكنها سرعان ما غيّرت رأيها. ربما لا يزالون يستجوبونه؟ ينبغي عليها أن تدعهم وشأنهم. أياً يكن الأمر، فمن المؤكد أن النقيب سيتصل بها. ولكن، هل من الممكن أن لا يتصل؟ باعتبار أنه حضر ليخبرها عن جريمة القتل عند خيوط الفجر الأولى، فقد وجدت أنه من غير المرجح أن ينتظر ليخبرها أن القاتل قد اعترف بجريمته... تساءلت عن رأي النقيب بها. أكثر من مرة، شعرت بشغف واضح في نظراته إليها، ولكنها وجدت صعوبة في تفسير نظراته المراوغة تفسيراً صحيحاً. فقد كشفت تلك النظرات الخاطفة عن شوق رجل عاش وحده من دون وجود امرأة تشاركه حياته لوقت طويل. نعم، ذلك وجه من العلاقة من المؤكد أنه لا يمكن الاستخفاف به. ومع ذلك، فقد أرادت إسراء ما هو أكثر من ذلك، فهي بدورها لم تدخل في علاقة جادة منذ أن انفصلت عن أورهان. صحيح أنها خرجت لبعض الوقت مع شاب وسيم يدعى هالوك من قسم ما قبل التاريخ في الجامعة، ولكنها اكتشفت أنه شخص متبجح ولم تستطع أن تتحمله أكثر من شهر واحد. إذاً، ما الذي رأته في هذا النقيب؟ لم تعرف الإجابة عن هذا السؤال، فالشيء الوحيد المشترك الذي جمعهما هو أنهما من إسطنبول؛ رغم اختلافهما كل الاختلاف في ما يتعلق بثقافتهما وكيفية نظرتهما إلى الحياة. تذكرت الحديث الذي دار بينهما في حديقة المخفر، وفكرت مرة أخرى كم يبدو من السخف أن يشك النقيب بوقوف المتمردين وراء كل حادثة تقع في المنطقة. ومع ذلك، ما أزعج إسراء فعلاً هو كيف يبدو النقيب صادقاً جداً ويحاول أن يتقرب منها في لحظة، ثم

ينسحب في اللحظة التي تليها. وتمتمت قائلة: "إنه لا يعرف ما يريده".

قال كمال الذي بدا متوتراً بقدر إسراء: "المعذرة؟ هل قلت شيئاً ما؟".

فالتفتت لتنظر إلى كمال الواقف أمام النافذة وقالت: "كنت أكلم نفسي". ثم أضافت بسرعة لتغير الموضوع: "لم يعودوا بعد، أليس كذلك؟".

تذمر كمال بإحباط قائلاً: "أشك في أنهم سيعودون قبل حلول المساء".

عندما تأخر تيموثي وإيلاف عن الحضور لتناول الغداء، فقد كمال كل قدرته على التركيز. في البداية، حاول أن يتابع الرسم، ثم لم يعد قادراً على ذلك. فراح يتجول في أنحاء الغرفة على غير هدى، ثم أصابه الملل من ذلك، فوقف أمام النافذة بانتظار عودة الفتاة التي يحبها. وأمضى ساعة على الأقل وهو على تلك الحال.

قالت إسراء في إيماءة ودية: "لِمَ لا نذهب لنتمشى قليلاً؟ سرعان ما ستخف حدة الشمس".

تنهد كمال وقال: "لقد اتفقنا على الذهاب للسباحة في نهر الفرات. ماذا إن عادت ولم تجدني هنا...".

"ولكنها تأخرت...".

نكّس الشاب رأسه بعجز، وقال: "هذا صحيح. ولكن، يفترض بـي أن أنتظرها".

شعرت إسراء بالانـزعاج من تردد كمال، فقالت وهي تطفئ جهاز الكمبيوتر: "هذا شأنك، ولكنني أشعر بالملل وسأذهب لأتمشى".

عندما وصلت إلى الممر، سمعت صوت أنغام موسيقية عميقة صادرة عن آلة التشيلو ويصاحبها عزف بيانو خافت بالكاد يمكن سماعه. وكان الصوت صادراً من غرفة بيرند. خففت إسراء من سرعة خطواتها وهي تمر بجانب باب غرفته المغلق. وجدت اللحن شجياً وعاطفياً، واستطاعت أن تتذكر الموسيقى، ولكنها عجزت عن تذكر اسم المؤلف. خطر ببالها أن بيرند بلا شك يعيد قراءة الرسالة التي كتبها لزوجته على أنغام الموسيقى وقلبه ممتلئ بالشوق. ألم تتصرف هي أيضاً بتلك الطريقة عندما ذهبت في حملة تنقيب عن الآثار أثناء فترة زواجها من أورهان؟ في ذلك الوقت، أصابتها عدوى آلاف السنين من الوحدة التي توحي بها تلك المدن الأثرية والكآبة الغريبة التي تهيمن عليها. حدث ذلك بشكل خاص خلال وقت فراغها، وفي فترات شح العمل، ناهيك عن تلك الليالي التي تلمع فيها النجوم في السماء كشرارات من حجر الصوان... ولكن ذلك الجزء المتعلق بالصوان

يخص "خلف". الآن، كيف عاد تفكيرها إلى تلك الأيام؟ ما مشكلتها؟ وكأنه لا يوجد مقدار كافٍ من المشاكل يشغل بالهم، حتى تصبح عاطفية وسخيفة. قالت إسراء لنفسها وهي تغادر المدرسة: "اجمعي شتات نفسك يا إسراء".

عندما اقتربت من التعريشة، اكتشفت أن "خلف" عاد من موقع التنقيب عن الآثار. فقد رأته يمسك خرطوماً بيده، ويبلل الأرض الجافة المتشققة، ويسقي زهور القرنفل الأرجوانية والحمراء. فقالت إسراء وهي تستنشق عبير الزهور المنعش: "لا تجهد نفسك بالعمل".

"فكرت في أن أرطب المكان هنا بعض الشيء".

"هذه فكرة حسنة. الرائحة زكية. كيف تسير الأمور في الموقع؟".

فأجاب: "كالعادة". ثم أضاف بعد فترة قصيرة من الصمت: "ولكنني لاحظت اليوم أن العم سيلو لم يبدُ على ما يرام".

"آمل ألا يكون هناك شيء خطير. هل هو مريض؟".

"كلا، ليس مريضاً. الأمر وحسب... لست أدري. لقد اعتاد أن ينظر إلى عيني عندما يكلمني، واليوم كان ينظر إلى قدمي".

سألت إسراء بحذر وهي ترمق الطاهي بنظرة حزم: "ما الذي تريد قوله؟".

"لا شيء. إنني أقول وحسب إنه ينبغي عليك أن تلتزمي الحيطة والحذر حيال العم سيلو هذا. فقد اعتاد وأخوه أن يعملا بالتهريب قبل أن يتم زرع الألغام الأرضية على الحدود. إنهما معتادان على تقاضي الأموال السهلة...".

فقالت إسراء بقسوة: "ما الذي تعنيه بقولك إنهما معتادان على تقاضي الأموال السهلة. لا تتكلم بالألغاز. إن كنت تعرف شيئاً ما، فقله بصراحة".

قال خلف: "لا أعرف شيئاً، والله على ما أقول شهيد، ولم أر العم سيلو يفعل أي شيء سيئ أو يسرق أو ما شابه، ولكنني لاحظت أنه راح يتصرف بغرابة اليوم. فقد سألني عنكم، وهو لم يفعل ذلك من قبل قطّ. وعندما قلت له إن النقيب حضر إلى المدرسة صباح اليوم، شحب وجهه".

"ما المشكلة في هذا؟ إذاً، فقد خاف الرجل علينا، هل من الصعب تصديق هذا؟ بالإضافة لذلك، عندما يأتي ذكر النقيب، ألا يشحب وجهك أنت أيضاً؟ إنني أثق بسيلو. فالحاج عبد الستار هو من أحضره إلى هنا، وقام بعمل رائع حتى الآن، وهو رجل شريف".

فقال خلف متراجعاً قليلاً عن عبارته السابقة: "أظن أنك محقة". ومع ذلك، لم يسعه إلا أن يضيف قائلاً: "ولكن هذا لا يمنع من توخي الحذر".

"لا تقلق. لن يؤذينا. كُفَّ عن هذه المخاوف التي لا أساس لها. أخبرني الآن، ماذا ستعد لنا على العشاء هذا المساء؟".

قال خلف: "سأعد السمك الذي أحضره تيموثي". ثم دمدم بوجه كالح قائلاً: "يقول كمال: لا تستخدم صلصة الطماطم أو الثوم، ولكن هذا السمك لا طعم له من دونهما. إن الطعام الوحيد الذي يعرفه هو السمك البحري".

شعرت إسراء التي شهدت مثل هذه الجدالات من قبل أنها سئمة من تذمر كمال. وكانت قد وجدت فكرة استخدام صلصة الطماطم غريبة بعض الشيء في بداية الأمر، ولكن بعد أن تناولت السمك أدركت كم هو لذيذ، فباتت تتفق مع خلف في رأيه، ولكن "كمال" ظل مصراً على أن يطهوها خلف من دون صلصة الطماطم.

"قم بإعداد أسماكنا بصلصة الطماطم، ودع سمكته جانباً. يمكنه أن يطهو سمكته كما يشاء".

توجه خلف إلى المطبخ وهو مسرور من جوابها. وفي تلك اللحظة، سمعت بداية نشرة الأخبار من جهاز الراديو المتدلي من التعريشة. فأعلن صوت المذيع العميق استشهاد خمسة ضباط أمن ومقتل اثنين وثلاثين إرهابياً في صراع في منطقة فان، وأكد أن العمليات العسكرية ستستمر بلا توقف. باتت إسراء معتادة على هذا النوع من الأخبار، لدرجة أنها لم تعد تحدث أي تأثير فيها على الإطلاق بعد الآن. ومع ذلك، لم يسعها إلا أن تتمتم قائلة: "يا للأسف! كم هذا محزن!". ومشت مبتعدة عن التعريشة.

بدأت الحرارة تنخفض شيئاً فشيئاً، فلم تضع إسراء قبعتها أو نظارتها الشمسية. لطالما اعتبرت هذا الوقت فترتها المفضلة من اليوم. راحت تحدق إلى الأفق بعينين نصف مغمضتين وهي تتأمل وهج الشمس الذي ضعف ثم اختفى متحولاً إلى لون أصفر ذهبي ثم لون عسلي.

لكي تصل إلى النهر، توجب عليها أولاً أن تمشي عبر بستان الرمان إلى طريق تحفّه من جانب واحد أزهار الأرجوان الشوكية ومن الجانب الآخر بعض الأعشاب الجافة. تجولت في البستان بحثاً عن تيومان الذي ذهب للنوم هناك على الأرجوحة الشبكية، فلاحظت وجود أشجار المشمش والخوخ هنا وهناك بين أشجار الرمان. ولم تكن ثمار المشمش قد نضجت بعد، ولكن ثمار الخوخ الناضجة بدأت تتساقط على الأرض. لم تعثر على تيومان

بل على مالكة البستان، الجدة هاتوش، وهي سيدة ظريفة ومحببة على الرغم من وجهها المسن المليء بالتجاعيد. سألت الجدة إسراء بنبرتها المرحبة كالعادة: "عزيزتي، هل أساعدك بشيء؟" فقد ظنت أن إسراء تبحث عنها.

"شكراً جدتي. لقد أتيت لأتمشى في الأنحاء، وأردت أن أعرف إن استيقظ زميلنا تيومان أم لا".

عندما وصل فريق الآثار إلى المنطقة، أبدت الجدة بعض الحذر منه. فقد تملكها الخوف من أن يسرقوا بستانها أو يلحقوا بها الأذى، لذا حاولت أن تبقى بمنأى عنهم. ولكنها عندما رأت أنهم مسالمون تخلت عن حذرها. وفي غضون وقت قصير، أصبحت ودودة معهم، ويعود جزء كبير من ذلك لعدم قدرتها على مقاومة حديث تيومان العذب وسحره، وهو الذي لم يكف مطلقاً عن السؤال عن حالها كلما مر بالبستان. والآن، كلما صادفت أحد أفراد الفريق بدأت تتجاذب معه أطراف الحديث وتتذمر من ابنها الذي يعيش في غازي عنتاب أو من كنتها المجنونة التي تقيم في القرية.

قالت الجدة: "إن ولدي تيومان في الجانب الآخر من البستان". وابتسمت ابتسامة تليق بوجهها عديم الأسنان، ثم قالت: "أرسلته للجلوس تحت شجرة المشمش؛ إذ ليس من الجيد النوم تحت ظل شجرة الجوز، فهذا يسبب المرض".

فقالت إسراء باستهجان ولكن بتعاطف: "سيمرض أياً يكن الأمر إن ظل نائماً طوال هذا الوقت".

"سيكون على ما يرام، فقد أيقظته قبل قليل. تعالي إلى هنا الآن، والتقطي أنفاسك. سأعد لك الشاي".

"شكراً لك. ربما في وقت آخر، فالآخرون ينتظرونني".

فقالت الجدة هاتوش: "كما تشائين. افتحي يديك". وأمسكت بعض حبات الخوخ التي جمعتها في تنورتها وأعطتها لإسراء.

قالت إسراء مبتسمة لهذه المفاجأة: "هذا كثير جداً".

"خذيها الآن ياصغيرتي، خذيها. ممَّ تقلقين؟ لست بلا أسنان مثلي. عندما كنت في سنك، لم أكن أكف عن تناول هذه الفاكهة اللذيذة".

ملأت إسراء مقدمة بلوزتها التي حولتها إلى ما يشبه السلة بحبات الخوخ. لم تعد تستطيع أن تتمشى على ضفة النهر بعد الآن وبحوزتها كل هذا الخوخ، لذا ودعت الجدة هاتوش، وبدأت تعود أدراجها إلى المدرسة، ثم سمعت صوت محرك سيارة. فطار قلبها من السعادة. أيمكن أن يكون

النقيب؟ توقفت بجانب الطريق، وانتظرت. بات صوت المحرك أعلى من قبل، ثم ظهرت سيارة قديمة من طراز لاند روفر من أسفل التلة يقودها مراد، بينما يجلس كل من تيموثي وإيلاف في الخلف. كانت الفتاة تحدث الأمريكي بمرح عن شيء ما وهي تبدو بغاية السعادة، لدرجة أن إسراء لم يسعها إلا أن تتساءل إن كان كمال محقاً في شكوكه حول وقوع إيلاف في غرام تيموثي. شاهد ركاب السيارة إسراء فأوقفوا سيارتهم بجانبها.

سألت إسراء: "أين كنتم؟". وركزت نظرها على مراد وهي تطرح سؤالها بنبرة صوت أعلى من الضروري.

فاندهش مراد من سؤالها، وقال متلعثماً: "كنا مع تيموثي".

تدخلت إيلاف بانفعال وهي غير مدركة أن إسراء مستاءة منهم: "إن القرى ممتعة جداً، وأهلها شغوفون باستقبال الضيوف".

بدا صوتها مفعماً بالحيوية وناعماً ومبتهجاً؛ وكأنها طفلة غير مدركة لمسؤولياتها.

سألت إسراء: "سمعت أنك ستذهبين للسباحة مع كمال".

فظهرت نظرة منـزعجة على وجه إيلاف، وقالت: "لا أشعر برغبة في السباحة على الإطلاق".

شعرت إسراء أن إيلاف تتصرف كطفلة مدللة. وتساءلت عن السبب الذي يجعل هذا يشكل أهمية بالنسبة إليها، ولكنها لم تستطع إلا أن تعبر عن رأيها، فقالت: "ليتك قلت هذا فقط صباح اليوم... لقد قلق الشاب المسكين عليك".

"ما الذي يدعو للقلق!؟ لقد مررنا بالمصورين في المدينة".

"ماذا؟ أذهبتم إلى المدينة؟".

قالت إيلاف وهي غير قادرة على فهم رد فعل إسراء المصعوق: "نعم. ما المشكلة حيال الذهاب إلى المدينة؟".

"الأمر معقد. ليتكم لم تذهبوا".

قال تيموثي وهو منحن إلى الأسفل لينظر إلى إسراء من النافذة: "إن القرية هادئة جداً. والناس الذين تحدثنا إليهم بدوا في غاية اللطف".

قالت إيلاف: "لم يعتبر أحد أننا جلبنا أي مصيبة أو شيئاً من هذا القبيل. أظن أن بيرند محق، فنحن نبالغ كثيراً حيال الأمر برمته".

قالت إسراء بغضب: "هناك شخص تعرض للقتل. كل يوم أتلقى رسائل تهديد على هاتفي المحمول... وبالإضافة لذلك، لست أنا بل النقيب هو من يقول إنه ينبغي علينا ألا نذهب إلى المدينة".

قال تيموثي: "أتعنين السيد أشرف؟ لقد رأيناه أيضاً".

"حقاً! أرأيتموه؟".

"نعم، لقد أوقفنا في طريق العودة لأننا مررنا بالمخفر".

"هل قال أي شيء عن شهموز؟ هل اعترف؟".

"لم يذكر شيئاً عن شهموز، بل قال وحسب إنه سيمر لزيارتنا مساء".

قالت إيلاف: "لقد دعوناه إلى العشاء".

"لهذه الأمسية؟".

فقالت إيلاف وهي ترمش بعينيها الخضراوين ببراءة: "لم يبد أي معارضة في الحضور عندما عرف أننا سنتناول سمك الشبوط على العشاء".

وقفت إسراء بجانب سيارة الجيب لبعض الوقت وهي تشعر أنها مصعوقة قليلاً من هذا الخبر.

فقال مراد: "اصعدي. دعينا ننطلق".

"انطلقوا أنتم. سوف أمشي. فعلى أية حال، المسافة قريبة جداً".

لم يزد مراد في الإلحاح عليها، بل انطلق بسيارة الجيب التي تركت خلفها غمامة رقيقة من الغبار. تراجعت إسراء خطوة إلى الوراء مبتعدة عن الغبار المتصاعد. إذاً، لم يتصل أشرف لأنه قادم للزيارة. ترى، هل ينبغي أن تفسر هذا على أنهم قبضوا على المجرم وتوصلوا لحل للقضية، أم أن الاستجواب تركهم خالِي الوفاض؟ في كلتا الحالتين، أدركت أنها ستعرف حقيقة الأمر في غضون ساعات.

á á á

اللوح السادس

كيف يمكن لطفل مشتت بين جده ووالده أن يفهم أي حقيقة من حقائق الحياة؟ ما الذي يمكنه فعله سوى أن يصغي إلى أحدهما ثم إلى الآخر كخادم تعس مشتت بين متنازعين؟

كلما هم جدي بأن يخبرني عن شجاره مع والدي فقد صوابه، وأخذ يتكلم بلا انقطاع قائلاً: "كيف يمكن لابن منحته الحياة؛ ابن من لحمك ودمك أن تسول له نفسه خداعك؟".

فقد هيمن على والدي من وجهة نظر جدي طموح عارم جعله لا يتردد في استغلال الملك الشاب أستاروس في حيله ليستولي على منصب كبير كتبة القصر.

ظل ميتانوا ممتنعاً عن الزواج لوقت طويل بعد وفاة زوجته توناوي، ولكن ليس بعد أن منحته كوبابا الفرصة لأن يقع في الحب من جديد عندما خطا لتوه عتبة الشيخوخة. فقد وجد ذلك الرجل الذي غزا الشيب شعره، وانحنى ظهره، وبات يجد نفسه منقطع الأنفاس لمجرد صعود درج القصر نفسه مفتوناً بجارية نشيطة وجميلة كمهرة فتية؛ شعرها مجعد، وعيناها كعيني غزالة برية، واسمها ماشتيغا.

لو أراد جدي لمتع نفسه بتلك الفتاة الحسناء كل ليلة، ولكن ذلك التصرف يتعارض مع شخصيته النبيلة. فقد أراد أن يتزوج ماشتيغا زواجاً رسمياً، ولم يكن في القانون الحثي ما يمنع رجلاً حراً من الزواج من جارية، ولكن لسبب ما تغيرت وجهات النظر عندما بات الموضوع يتعلق بكبير كتبة القصر. فقد عمد الكثير من النبلاء في المجلس إلى إدانة جدي لقراره هذا. ومع ذلك، فقد استطاع جدي الحصول على الدعم من ملكنا القوي كاماناس الذي كان لا يزال بكامل صحته وقوته في تلك الفترة، فأيد الملك قرار جدي كأنه سفح عظيم لجبل مكلل بالثلج ونجح في إسكات معارضيه. ومع ذلك، فليس من الممكن معارضة أوامر تيشوب. إذ بعد أن تزوج جدي، سقط الملك كاماناس عن صهوة جواده ولقي حتفه.

بحسب ما رواه لي جدي، فقد استغل والدي هذه الفرصة وبدأ انقلاباً سرياً بهدف عزل جدي من منصبه والحلول محله. وعندما سمع جدي بهذا القرار، لم يبد أي اعتراضات، بل انسحب بهدوء وغيظ وعاد إلى بيته. ولم يعد يتحدث سوى معي أنا من بين أفراد عائلته كلهم. فتجنب أمي، ولم يعد يريد أن يسمع حتى أي ذكر لوالدي. وصار عزاؤه الوحيد

يكمن في زوجته ماشتيغا. وتم عزله عن منصب كاتب القصر؛ ذلك المنصب الذي شغله بكل احترام لسنوات عديدة، ولكن هذا لم يكن ذا أهمية بالنسبة إليه. فقد بات يحظى الآن بعد سنوات مجردة من العواطف بحبيبته الجديدة ماشتيغا. فأصبح كل يوم يكتب قصيدة لتلك الشابة ويتغزل بشعرها المموج كنبات اللبلاب المتمرد، وعينيها الداكنتين كلون العنب، وخديها القرمزيين، وجسدها الرشيق... ماشتيغا، ولا أحد سوى ماشتيغا.

انسحب إلى بيته، وعاش حياته مع المرأة التي كانت جارية عنده قبل أقل من عام ثم أصبحت زوجته، ولكن عندئذ حلت به كارثة ليست في الحسبان. فقد أقدمت زوجته ماشتيغا التي خسر من أجلها مهنته، ومن أجلها كتب ألواحاً وألواحاً من القصائد الشعرية على الهرب مع شاعر آرامي شاب أقام لفترة من الزمن في ضيافته. فاستولت على جدي نوبة غضب عارمة، وثارت ثائرته كالأسد الجريح، فطرد كل الناس من البيت، وألقى بكل القصائد التي كتبها لماشتيغا مع كل حاجياتها الأخرى في نهر الفرات، ثم حبس نفسه في البيت، ولم يعد يقبل دخول أحد أو يسمح حتى لي بالحضور لزيارته. وبعد عدة أيام من الاحتجاز الذاتي، هدأ جدي وخرج من البيت وهو يبدو مجرداً من كل مشاعره السابقة؛ من حماسة وفرح وغضب، ونظر في وجوه الناس بعينين ميتتين كمياه نهر الفرات في أواخر الصيف.

نصحه صديقه المقرب فالفازيتي بأن ينال قسطاً من النوم النظيف فربما يكون لدى تيشوب شيء تريد أن تقوله له. فأخذ جدي بنصيحة فالفازيتي وتمدد على سريره استعداداً لطقوس النوم النظيف. فحضر تيشوب بالفعل وزاره في الحلم، وظهر أمامه فجأة من الظلام وعلى رأسه قبعة من القرون المدببة وبحوزته رمح في يده اليمنى وسيف متدل من حزامه وثلاثة قضبان من البرق في يده اليسرى. وأمر تيشوب جدي أن يبذل المزيد من الاهتمام بحفيده بدلاً من تسميم أيامه بالشوق لامرأة خائنة.

أحدث النوم النظيف تغييراً كاملاً في حال جدي. فاستدعاني إليه وقال لي: "من الآن فصاعداً، أنا من سيتولى العناية بك وسأكون المسؤول عن تعليمك".

أبدى والدي رد فعل يتسم بالحذر على هذا الخبر، فهو لم يكن يثق بجدي ولو قليلاً، حتى إنه توجس من أن يلحق بـي الشر، ولكنني لم أشاطره هذا الرأي. فجدي، على الرغم من كل تصرفاته غير العقلانية، كان

بالكاد قادراً على ارتكاب الشر بحق أعدائه فكيف بحفيده. وعلى أية حال، فقد برهن على تسامحه وحبه للخير عندما عفا عن ماشتيغا وحبيبها بعد أن قبض عليهما بعد عدة أشهر. وعندما منحتني أمي موافقتها بعد موافقة أبـي، بدأت آخذ دروسي من جدي.

منذ ذلك الحين، أصبحت أمضي وقتي مع جدي منذ شروق الشمس وحتى غروبها. فاصطحبني لمقابلة رجال الدين والمغنين والنحاتين وجعلني أشارك في محادثاتهم. وفي تلك الأثناء، أطلعته على الرباعيات الشعرية التي ألفتها. فسر سروراً جماً حين عرف أنني أنظم الشعر. وبعد ذلك، بدأنا نعمل على مراجعة قصائدي. وهكذا، نلت متعة كبيرة من الوقت الذي أمضيته معه، ولكنني تمنيت لو أنه يكف عن التكلم بالسوء عن والدي، فلم يفعل ذلك، بل ظل ينهال عليه بالشتائم واللعنات بلا توقف. وعندما حان يوم أصبح فيه جدي على يقين من أنه أنهى مهمته ومنحني كل التعليم الذي يلزمني، غادر مدينتنا من دون أن يتفوه بكلمة لأحد وانطلق نحو ضفة النهر.

ذات صباح، وصلت إلى بيته المكون من طابقين، ووجدت الأبواب مفتوحة. فلم أعثر على أحد بالداخل، ولكنني وجدت لوحاً تركه لي في الغرفة الكبيرة التي اعتدنا أن نأخذ دروسنا فيها كتب عليه:

"عزيزي باتسانا. ها قد أزف وقتي وحانت نهايتي. لقد سئمت من هذه المدينة ومن هؤلاء الناس. وبعد أن تأكدت أنك أصبحت رجلاً ناضجاً الآن، فإنني أشعر أن مهمتي وصلت إلى نهايتها. لا أريد أن أموت هنا، ولا أريد من الكثير من المخادعين أن يذرفوا دموع النفاق أو يغنوا كلمات المديح المزيف لي في مراسم جنازتي. لن يرضى قلبـي بالسماح لزمرة من الأوغاد أن يدنسوا موتي بحزنهم الكاذب.

إنك شاب صالح ومتعلم تعليماً راقياً، ولكن الشيء الوحيد الذي عليك القيام به الآن هو الانتباه لوالدك، والحرص على ألا تحذو حذوه وتجعله مثلاً أعلى لك. صدقني يا بني، لكي تحظى بالسعادة يكفيك أن تحجم عن فعل ما فعله والدك، وهذه مهمة أيسر وأسهل من تعلم الكتابة المسمارية. ومع ذلك، فأنا لا أزال غير واثق من أنك ستتمكن من فعل ذلك؛ لأنني أظن أحياناً أنني ألمح في عينيك التعبير القاتم نفسه الذي يطل من عيني والدك. آمل ألا يكون هذا أكثر من خدعة، وأتمنى ألا تكون الحقيقة هي ما أخشاه. أريدك أن تتحلى بالذكاء الكافي كي لا تضيع حياتك على المصالح الذاتية للملوك، وأن تعثر على مساع سامية تمنح أيامك قيمة ومعنى. وداعاً

ياحبيبـي. آمل أن يباركك تيشوب وزوجته هيبات وولداهما شاروما وكوبابا بالطيبة والجمال، وأن يمنحوك حياة مديدة سعيدة".

بعد أن انتهيت من قراءة اللوح، وقفت حائراً لا أدري ما أفعل بنفسي. صحيح أن جدي لطالما فاجأني بسلوكه غير المتوقع، ولكن تصرفه هذا صدمني. فقد أصبح متقدماً في السن. فما الذي دفعه لأن يجر نفسه إلى مغامرة طائشة عديمة المعنى في حين أن بوسعه أن يمضي آخر أيامه براحة كرجل محترم له مكانته في المجتمع؟ أخذت اللوح، وغادرت البيت، وأسرعت نحو عبيد جدي في السوق. فقالوا لي إن سيدهم قد أعتقهم وغادر المدينة على الفور. فتوجهت بسرعة إلى القصر، ومثلت أمام والدي، وأخبرته بما بدر من جدي، فلم يصبه شعور بالقلق ولو قليلاً، بل قال: "لا تقلق. سيعود أدراجه". ولكن جدي ذهب ولم يعد.

á á á

الفصل السابع

على الرغم من الموعد الذي قطعه النقيب، إلاّ أنه لم يحضر لتناول العشاء. في ذلك المساء، اجتمع أفراد فريق التنقيب عن الآثار تحت التعريشة كما اعتادوا أن يفعلوا كل مساء، وانتظروا قدومه قرابة ساعة من الزمن. وأعد خلف الطاولة الخشبية الطويلة لثماني أشخاص، وأضاء المكان بمصباح أصفر اللون معلق في قمة التعريشة، وقام بطبخ الأرز بالخضار إلى جانب السمك، وأعد سلطة مكونة بأغلبها من الخس الذي ينمو على ضفتي نهر الفرات، ولكنه انتظر وصول الضيف قبل أن يبدأ بطهي السمك.

قالت إسراء: "أظن أنه يمكننا أن نبدأ بتناول العشاء الآن. لا يبدو أن النقيب سيتمكن من الوصول. لا بد أن شيئاً مهماً على الأرجح قد طرأ عليه".

تذمر كمال بغضب قائلاً: "لو أنه اعتذر عبر الهاتف لكان هذا لطفاً منه، لا سيما أن هناك عدداً كبيراً من الناس بانتظاره...".

فهب تيموثي للدفاع عن النقيب وقال: "أظن أن النقيب مر بيوم حافل. فقد كان في طريقه إلى مكان ما عندما صادفناه اليوم".

ولكن كلمات تيموثي أخفقت في تهدئة كمال.

فردّ الشاب: "حسناً، لا يزال بوسعه أن يتصل ليعتذر". ثم نظر بطرفي عينيه إلى إيلاف وأضاف بنبرة حادة: "ولكن، يبدو أن ترك الآخرين ينتظرون من دون اعتذار أصبح عادة لدينا في هذه الأيام".

خيم صمت مطبق على طاولة الطعام. فعندما عادت إيلاف مع الآخرين من جولتهم، انفرد كمال بإيلاف ووبخها توبيخاً شديداً، ولكن سرعان ما ردت عليه الشابة بحدة قائلة: "يمكنني أن أفعل ما أريده. ليس من شأنك التدخل في حياتي". والآن، بدا كمال مستعداً لإثارة جدال آخر. وعندما أدركت إيلاف ذلك، تجاهلت كلمات صديقها وتوجهت إلى المطبخ بحجة أنها تريد مساعدة خلف.

قال مراد على أمل أن يلطف الجو: "لقد ذهبنا اليوم لمقابلة سيدة عجوز اسمها نديدة المرتدة".

سأل تيومان بفضول: "نديدة المرتدة؟ ولماذا تسمى بالمرتدة؟".

"إن تلك المرأة مسيحية ومسلمة في آن معاً، فهي تؤمن بكل من المسيح ومحمد. وليس لديها كتاب مقدس واحد بل اثنان: الإنجيل والقرآن".

وجد تيومان هذا الكلام في غاية الغرابة، فقال: "هل توجد طائفة

من هذا النوع هنا؟".

شرح تيموثي قائلاً: "إن نديدة في الواقع مسيحية. فوالداها ينتميان للكنيسة الغريغورية".

قال بيرند: "لا بد أنهما أرمنيان إذاً. فزوجتي غريغورية أيضاً".

فأجاب تيموثي وهو يهز رأسه إلى الأعلى والأسفل: "هذا صحيح. فعندما هرب الأرمن بعد الحرب تركوا بناتهم الصغيرات مع جيرانهم".

فكرت إسراء في سرّها: "آه، كلا، سيلقي بيرند علينا الآن إحدى خطبه العصماء". ولكنها لم تقاطع المحادثة. وبدلاً من ذلك، حان دور تيومان للإدلاء بدلوه. فمن الواضح أن الحديث قد أثار اهتمامه، لذا سأل وهو يتكئ بمرفقيه الضخمين على الطاولة: "إذاً، هل كان يوجد أرمن يعيشون في هذه المنطقة؟".

فتذمر مراد قائلاً: "ألم تر المسجد في المدينة، يا تيومان؟".

"نعم، رأيته. ماذا عنه؟".

"سأخبرك، ذلك المسجد كان من قبل كنيسة".

"من أين لي أن أعرف ذلك؟".

فقال الألماني: "لو أنك أبديت انتباهاً لفن العمارة، لعرفت ذلك بنفسك. هل تبدو الأقواس والعوارض بالنسبة إليك شبيهة بتلك الموجودة في المساجد هنا؟".

"هل تعني أن الناس بنوا تلك المئذنة التي ألقي بالحاج عبد الستار من أعلاها في ما بعد؟".

تدخل بيرند قائلاً: "نعم، فهذا من شيم الأتراك. هناك كنيسة ضخمة في غازي عنتاب حولتها الحكومة إلى مسجد. وقد تم تصميم تلك الكنيسة على يد سركيس باليان المعماري المشهور من إسطنبول في العام 1876. وبعد ذلك بسنوات، استخدمتها الحكومة التركية كسجن؛ قبل أن تفرغها وتبني عليها مئذنة ثم تفتحها للعبادة كمسجد".

تلهفت إسراء لتغيير الموضوع، ولكن "مراد" تدخل عندئذ بسؤال لم يفعل سوى تعميق النقاش.

فقال: "لم تنشب أي حروب دينية في بلاد الرافدين القديمة، أليس كذلك؟".

قال بيرند رداً على السؤال بطريقته الفريدة من نوعها: "لم يكن لترحيل الأرمن أية علاقة بالدين. فقد قام زعماء حزب الاتحاد والترقي بنفي الأرمن لكي يتمكنوا من فرض الطابع التركي على الأناضول".

سأل تيموثي بينما تركزت أنظار الجميع على بيرند: "لديك وجهات نظر مميزة. ما الذي ولد اهتمامك بهذا الموضوع؟".

شرح بيرند وقد بدا عليه الاضطراب الآن: "إنني أكتب أطروحة بعنوان: "الدمار الذي جلبته الحضارة". وبالطبع، يجب عليّ أن أحلل جميع المجازر الكبرى التي وقعت في التاريخ كجزء من بحثي".

قال تيموثي: "لا يمكننا أن نعتبر أي مجازر وقعت على وجه الأرض منظمة وواسعة الانتشار كتلك التي ارتكبها هتلر". لم يتضمن صوته أي نبرة تدل على التوبيخ؛ وكذلك تعابير وجهه، فقد تدفقت الكلمات من فمه بشكل طبيعي وتلقائي.

أضاف كمال الذي تطلع قدماً لتوجيه ضربة لتيموثي منذ بداية النقاش: "ولا يمكن لأحد أن ينسى القنبلتين الذريتين اللتين ألقاهما الأمريكان على هيروشيما وناغازاكي. يمكنك بالكاد أن تدعي أن القتل الفوري لمئات الآلاف من الناس أقل وحشية ممّا قام به هتلر".

قالت إسراء محاولة أن تفرض تسوية: "أظن أن كل مجزرة ينبغي أن يتم تحليلها حسب السياق الذي حدثت فيه. فكون إحدى المجازر أسوأ من غيرها لا يعني أنه ينبغي علينا أن نستخف بالمجازر الأخرى".

قال تيموثي: "لا اعتراض على هذا الكلام". ثم التفت ونظر إلى مراد موجهاً دفة الحديث نحو موضوع بلاد الرافدين، وقال: "قبل قليل، طرحت سؤالاً وثيق الصلة بالموضوع. في ذلك الوقت من الماضي عندما سادت عبادة الأوثان، أعني قبل أن يتم مسح الحثيين عن وجه الأرض، لم تنشب أية حرب سببها الدين. في الواقع، إن سيطرت إحدى القبائل على أحد البلاد، استولت على التماثيل الموجودة فيه، وأخذتها إلى معابدها الخاصة".

عندما أوشك بيرند أن يلقي خطابه، قاطعه تيومان قائلاً: "إذاً، ماذا حدث لنديدة المرتدة، ياتيم؟ كنت تخبرنا عنها".

قال تيموثي مبتسماً: "نعم، نديدة المرتدة. إن اسم المرأة الحقيقي هو ناديا. كانت في العاشرة من عمرها عندما رباها الجيران وغيروا اسمها إلى نديدة. ورغم أنهم عملوا على تربيتها تربية إسلامية صحيحة، إلا أن نديدة لم تنس قط الأشياء التي تعلمتها وهي طفلة صغيرة. وهكذا، فبالرغم من كل الأشياء التي تعلمتها عن الإسلام، ظلت تصلي للمسيح سراً. ومرت سنوات وتزوجت وأنجبت أطفالاً. وذات يوم، عثرت كنتها على صليب بجانب القرآن الذي لا يفارق سريرها. لم تكن تلك الكنة مولعة جداً بحماتها، وهذا جعلها تنشر الخبر في أنحاء القرية. وبهذه الطريقة، انكشف

سر نديدة الذي أخفته طوال تلك السنوات. ومنذ ذلك الحين وهم يطلقون عليها اسم نديدة المرتدة".

قال بيرند بعد أن ارتسمت نظرة اتهام في عينيه الزرقاوين: "إذاً، تقول إنهم يقومون بتوجيه الإهانات لها طوال هذا الوقت".

فأجاب تيموثي: "لا أظن أنه يمكننا فعلاً أن نقول إن تلك إهانة. إنهم يدعونها بالمرتدة، ولكن لا ينبغي أن تأخذ هذا الكلام على محمل الجد. فعلى أية حال، تقبلتها القرية على حقيقتها. وباستثناء وجود شخص وقح بين الحين والآخر، لم يعد أحد يتدخل في معتقدها. وظلت تعتقد بكل إخلاص بكل من المسيح ومحمد. "أليسا كلاهما نبيين مرسلين من الله؟ إنني أؤمن بالله وأؤمن بكل منهما"، هذا ما قالته لنا".

قال مراد مشاركاً في المحادثة من جديد: "إنها امرأة محببة جداً. لديها ثمانية أولاد وأربعة وعشرون حفيداً. لا بد أنها تبلغ من العمر ثمانين عاماً على الأقل، ولكنها لا تزال تخضب شعرها بالحناء، ولا تزال عيناها السوداوان المخمليتان تلمعان وتفيضان حيوية".

أصيب كمال بالانـزعاج من حماسة مراد والطريقة الانفعالية التي تحدث بها عن كل هذا، لذا لم يستطع أن يمنع نفسه من تسديد لكمة لفظية للشاب الآخر.

"يبدو أنك اخترت المهنة الخطأ ياصديقي. كان ينبغي عليك أن تصبح عالم اجتماع، وعندئذ يمكنك أن تقضي المزيد من الوقت مع سكان بلادنا الرائعين".

"لا حاجة للتخصص في علم الاجتماع. فعلماء الآثار يحظون بما يكفي من التواصل الاجتماعي من خلال مهنتهم".

كانت هذه هي المرة الأولى منذ بداية مهمة التنقيب عن الآثار التي يعبر فيها مراد عن نفسه بصوت بهذا الامتلاء والحدة؛ وكأنه يتحدى "كمال". لم تغب تلك الحدة عن انتباه إسراء، فنظرت إلى مراد بطرف عينها، ولاحظت خصلات شعره المجعد الملقاة على كتفه والمتدفقة على ظهره وهو يربت على لحيته الكثيفة عديمة الشارب التي تشبه صورة رجل الدين الآشوري وهو يحدق إلى كمال. ففكرت إسراء في سرّها بشعور يشبه الفخر إلى حدٍّ كبير: "إن ذلك الشاب يبدأ بتكوين شخصيته الخاصة أخيراً".

كان مراد أحد أفضل تلاميذها، فهي لم تر فيه الاجتهاد وحب العمل بل الذكاء أيضاً، والأهم من ذلك ولعه بعلم الآثار، ولكنها اعتبرت أنّ عيبه الوحيد هو اهتمامه الزائد بعلم النفس والتخاطر. ومع ذلك، لم تجد إسراء

التي لطالما فكرت في أن أفضل الناس لا يخلون من العيوب، أي خطأ في السماح له بالانضمام إلى مهمة التنقيب عن الآثار.

عندما اقترحت إسراء على مراد بصفتها أستاذته أن ينضم لفريق الحملة، لم يسعه أن يصدق ما سمعته أذناه، وغمرته بهجة عارمة طوال بقية اليوم. ولكنه عندما فكر في الأمر ملياً، أصابه القلق من صعوبة متطلبات المهمة. وخيل إليه أنه سيجد بقية أفراد مهمة التنقيب عن الآثار أكثر ذكاء وخبرة منه، ناهيك عن وجود اثنين من الأجانب بينهم. وهكذا، فقد تصور الوضع برمته على غير حقيقته، ولكن الأسبوعين الفائتين علما الفتى الذكي أن الكمال ليس من صفات البشر. فقد اكتشف أن الجميع -بمن فيهم إسراء التي يكن لها كل الاحترام- يرتكبون الأخطاء، وفي بعض الأوقات يتصرفون بطرق يجدها سخيفة. في موقع التنقيب عن الآثار، هناك نقطتان يجب على المرء الانتباه لهما. الأولى هي إنجاز أفضل عمل ممكن، والثانية هي التكيف مع ظروف المعيشة، والتعاون مع فريق العمل. فأثبتت له الأيام التي أمضاها في مهمة التنقيب أن الجزء الأخير هو الجزء الأصعب. فبالرغم من بذل الجميع قصارى جهدهم، إلا أن العيش المشترك سرعان ما يكشف عن الاختلافات بين الأشخاص بشكل واضح، لذا بدأت الجدالات تحتدم بينهم حتى لأتفه الأسباب؛ بدءاً من اتخاذ قرار حول نوعية طبق العشاء، وحتى الدور في استخدام الحمام. ومع صعوبة وضع حد نهائي للجدالات، ظل أهم شيء في نظر الجميع هو الحرص على ألا تؤذي تلك الجدالات شعور أحد منهم. وعلى الرغم من كل ذلك، فقد وجد مراد حياة التنقيب عن الآثار أكثر متعة مما ظنها في السابق. في الواقع، لقد سحرته وأخذت بلبه. فلمس تراب الأرض والإحساس به؛ ذلك التراب الذي تخترقه تلك الرائحة الفريدة من نوعها، وتلك الألوان الباهتة والدائمة في آن معاً، والخطوط العميقة المتغيرة لتاريخ يعود لآلاف السنين تقود عقل الإنسان وجسده بكامله للاستغراق كلياً في فضول عميق. وحتى لو أراد التحرر من ذلك التأثير الساحر، لوجد هذا ضرباً من المستحيل. وفي النهاية، يقضي عمره وهو يتنقل من موقع أثري إلى آخر وكأنه تحر حقيقي يبحث عن الآثار الضئيلة والمفاتيح المشوهة التي ستقوده إلى الحقيقة المدفونة هناك في مكان ما وراء تلك العصور السحيقة.

رمق كمال "مراد" بنظرة غضب بعد رده الأخير، ولكنه امتنع عن الاسترسال في الموضوع أكثر من ذلك.

وفي النهاية، قام تيموثي بقطع الصمت المحرج الذي خيم على المكان،

فقال بصوت عميق: "أليس هناك أي شراب نتناوله مع السمك؟".

فقالت إسراء وتعابير وجهها تدل على أنها تتوقع من الجميع أن يتفهموا طلبها: "أظن أنه من الأفضل ألا يتناول أحد منا شراباً الليلة. فغداً يوم عمل، ولا أريد أن يعاني أحد من آثاره في الموقع".

قال تيومان مؤكداً على كلام تيموثي: "كأس صغيرة لن تؤذي أحداً".

فردت إسراء: "أعرف ما تعنيه بالكأس الصغيرة". ثم ناشدت الجميع قائلة: "إنني أظن فعلاً أنه ينبغي ألا يشرب أحد منا شيئاً الليلة".

في أي وقت آخر، ربما كان تيومان سيحاول أن يقنع رئيسة الحملة بكلامه المعسول للتجاوب مع طلبه، ولكنه عندما لاحظ أنها بدت في حالة معنوية سيئة، لم يستطع أن يجبر نفسه على خوض جدال مع إسراء وهي في تلك الحالة التي لا يمكن التوقع بها.

فقال بثبات رجل ينحني لقدره: "حسناً، يمكننا أن نتناول شرابنا في وقت آخر. مرروا لي الخبز لأُقطعه".

خرجت إيلاف من المطبخ حاملة كأساً من عصير الليمون، واقتربت من الطاولة ورائحة السمك المقلي تفوح من خلفها. فأخذ تيومان وهو يقوم بتقطيع الخبز يتذمر قائلاً: "ألم يجهز السمك بعد؟".

فقالت الشابة وهي تبتسم كاشفة عن أسنانها اللؤلؤية المثالية: "تحلوا بالصبر ياجماعة. فقد وضعناها للتو في المقلاة".

نظر كمال إلى الشابة، إلا أن إيلاف لم تعره انتباهاً، ووضعت كأسها بلا مبالاة على الطاولة.

فكرت إسراء في سرّها بانـزعاج: "فوق كل مشاكلنا، علينا الآن أن نعالج هذه المعضلة. من المؤكد أن هذا الأحمق "كمال" سيصاب بالإحباط الآن. آمل أن يكون مخطئاً، وألا تكون إيلاف مهتمة بتيموثي إلى هذا الحدّ".

بينما راحت كل تلك الأفكار تدور في رأسها، سمعت صوت سيارة تقترب منهم. فنظر الجميع إلى الطريق، ولم يروا سوى أضواء سيارة تلوح من بعيد.

فسأل تيموثي: "أهذه سيارة الجيب الخاصة بالنقيب؟".

توقفت سيارة الجيب على بعد عشرين متراً فقط إلى الجانب الأيمن من التعريشة. في البداية، ترجل النقيب منها، ثم تبعه رقيب وجنديان.

قال تيومان بنوبة غضب مبالغ بها: "هناك أربعة أشخاص. سيقضى على عشائنا".

رمقت إسراء تيومان بنظرة استهجان، ثم وقفت ومشت نحو السيارة وعلى وجهها تعبير رزين، من دون وجود أي دليل على الألم في نظرة عينيها.

قال النقيب معتذراً: "آسف على التأخر". ولكن أفعاله بدت منطوية على فرح خبيث يشعر به صبـي ذكي حقق لتوه نصراً غير متوقع. فتابع قائلاً بالتعبير نفسه: "ولكنني لم أرغب بالحضور صفر اليدين. لدي شيء لكم في سيارة الجيب".

ارتسم تعبير مندهش على وجه إسراء. إذ لم تكن لديها أية فكرة عما تحدث عنه النقيب.

فقال وهو يصافحها: "تعالي إلى هنا. أظن أن لدينا لوحين لذلك الكاتب الملكي هنا، ما اسمه؟".

تمتمت إسراء وهي تحاول أن تستوعب ما يجري: "أتقصد باتاسانا؟".

"نعم، لوحان من ألواح باتاسانا. أظن أنهما من ألواحه. ولدينا أيضاً قدح مصنوع من الذهب، وتمثال غزال صغير فضي، وتمثال امرأة من البرونـز، وقلادة".

ازداد فضول إسراء وهي تمشي بجوار النقيب إلى سيارة الجيب، وسألته: "أين عثرتم على كل هذه الأشياء؟".

شرح النقيب قائلاً: "في بيت ميميلي الأعرج". بحلول الوقت الذي وصلا فيه إلى باب سيارة الجيب الأوسط المفتوح، قال مشيراً إلى الأغراض الموضوعة على أرضية السيارة: "انظري، ها هي".

في البداية، لفت نظر إسراء تمثال المرأة، ثم الغزال، ثم الكوب، ثم القلادة، وإلى جانبها لوحان، كان أحدهما مكسوراً. أمسكت إسراء باللوح الموضوع في الأعلى، وهو اللوح الذي لا يزال بحالة سليمة، وأخذت تتفحصه في الضوء الخافت للسيارة. بدا اللوحان شبيهين بألواح باتاسانا الطينية بقياس 18 إلى 27 سنتمتراً، وعليهما كتابة من الأمام والخلف في ستة أعمدة على كل جانب، وملخص يحوي محتويات اللوح في الخلف. وعندما نظرت إلى أسفل اللوح، رأت الأختام وعرفت أن النقيب محق بالفعل، فهذان لوحا باتاسانا.

"متى سُرقت هذه الأشياء؟".

شرح النقيب بفخر ظاهر، لأنه منح الشابة مفاجأة حقيقية: "الليلة الماضية. سأخبرك كل شيء بعد قليل، أحضرتها إلى هنا لأريك إياها، ولكن يجب عليّ أن أعيدها إلى المخفر لأنها من الأدلة".

تمتمت إسراء بقلق: "ولكن، يجب علينا أن نترجم اللوحين. إن التقاط صور لهما يفي بالغرض".

"كم سيستغرق الأمر؟".

"سيستغرق يوماً على الأكثر".

"حسناً، ولكن احرصي على ألا يستغرق الأمر وقتاً أطول من ذلك لأن المدعي العام سوف يطلب كل الأدلة".

وافقت إسراء وهي تتنفس الصعداء: "حسناً. سوف أعيدهما لك بنفسي في غضون يوم واحد".

اقترب تيموثي ومراد وتيومان منهما، بعد أن دفعهم الفضول لمعرفة ما يجري، وتوجهت أنظار الثلاثة على الفور إلى اللوح الذي تحمله إسراء.

فشرحت لهم بسخط: "إنهما من ألواح باتاسانا. والأهم من ذلك أنهما سرقا وهما تحت حمايتنا؛ بالإضافة إلى بعض الآثار الأخرى".

سأل النقيب بينما راح أخصائيو الآثار يحدقون إلى المكتشفات الأثرية بحيرة: "أين تريدين أن يضع الجنديان هذين اللوحين؟".

قالت إسراء: "سنحملهما بأنفسنا". لم يستطع النقيب أن يعرف إن قالت هذا لأنها أرادت أن توفر العناء على الجنديين أم لأنها خشيت أن يفسدا المكتشفات الأثرية، ولكنه لم يزد في الإصرار. فقد بادر مراد وتيومان بأخذ اللوحين. في تلك الأثناء، ظلت عينا مراد مثبتتين على كيس في السيارة.

"هل نأخذ هذا الكيس أيضاً؟".

أجابه النقيب: "كلا، هذا ليس لكم. فيه حشيش".

سألت إسراء بدهشة: "حشيش؟".

"نعم، لقد عثرنا عليه في بيت الأعرج أيضاً".

بعد عشر دقائق، جلس النقيب أشرف إلى الطاولة ليخبر الفريق القصة الكاملة. اتضح أن مخاوف تيومان ليست صحيحة؛ فالرقيب والجنديان لم يبقيا لتناول العشاء. أرهف الجميع السمع لكلمات النقيب بمن فيهم خلف الذي أصابه القلق بسبب تأخر موعد العشاء، وتيومان الذي عانى من الجوع.

"عندما بدأنا استجواب شهموز أول الأمر، قال إنه لم يكن يحاول الهرب وإنما فقط يقوم بجولاته المنتظمة بالحافلة. وأكد الرقيب إحسان، وهو الرجل الذي ألقى القبض عليه، على كلامه بقوله إنه لم يجد في تصرفاته ما يدل على أنه يعتزم الهرب. فسألته عن الحاج عبد الستار.

وحالما نطقت باسمه، امتقع وجهه المليء بعلامات الجدري.

فقال: "لم أقتله".

قلت له: "بل قتلته، وهناك شهود على جريمتك".

صاح في وجهي قائلاً: "إنهم يكذبون. أقسم إنهم يكذبون".

فقلت: "إنهم لا يكذبون، لا تحاول الإنكار. نعرف أنك من قتل الحاج عبد الستار".

قال وهو ينحني أمامي متوسلاً: "لم أقتله". ولكن أحد الجنود ظن أنه يحاول مهاجمتي لذا ضربه على رأسه بأخمص بندقيته، فانهار الرجل على الأرض وهو مصدوم بعض الشيء، ولكنه استطاع رغم ذلك أن يعاود الجلوس على ركبتيه. وتوسل غير مبالٍ بالدماء التي راحت تسيل على جبينه: "سأفعل كل ما تطلبه ياسيدي، ولكن لا تفعل بـي هذا من فضلك". وبدا حريصاً على ألا يحاول الاقتراب مني مرة أخرى.

"حسناً، أين كنت الليلة الماضية؟".

فقال متظاهراً بالبراءة: "في البيت".

فقلت له: "من الواضح أن لا نية لديك أن تخبرنا الحقيقة".

"إنني أخبرك الحقيقة ياسيدي. أقسم بالله إنني أقول الحقيقة".

صحت في وجهه قائلاً: "لا تقسم. إنك تنظر إلى وجهي ومع ذلك تكذب. لقد تحدثنا إلى أخيك وأخبرنا أنك بقيت مختفياً طوال الليل إلى أن رُفع أذان الفجر".

شحبت ملامحه لبعض الوقت، ولكنه استجمع شجاعته مرة أخرى وحاول أن يشرح موقفه.

فقال بصوت مرتعد: "لقد خرجت لصيد السمك ياسيدي، ولكنك قمت بمنع صيد السمك، ولهذا السبب لم أخبرك".

فأجبته وأنا أتقدم نحوه مباشرة: "ومن تظن أنك تخدع؟".

حاول شهموز أن يعاود النهوض على قدميه، ولكن الجندي الواقف بجانبه أخفض أخمص بندقيته نحوه وقربه منه قائلاً: "الزم مكانك".

انبطح شهموز على جنبه الأيسر وهو مشلول الحركة من الألم. فانحنيت نحوه وقلت له بصوت هادئ ولكنه حازم: "إنني أحذرك للمرة الأخيرة. نحن نعرف أنك لم تذهب للصيد. لا أحد يعود من الصيد قبل شروق الشمس. أما أنت فقد عدت إلى البيت بعد أذان الفجر مباشرة، والظلام لا يزال حالكاً، ومن دون أن تحضر معك أي سمكة. ولم يكن من الممكن أن تحصل على أي سمك لأنك لم تنتظر السمك ليسبح إلى شبكتك

في نهر الفرات، بل انتظرت الحاج عبد الستار لكي تدفعه من أعلى المئذنة".

رفع شهموز رأسه قليلاً، ونظر بعجز إلى الجنديين الواقفين بجانبه، ثم نظر إلي.

وقال: "حسناً، ياسيدي. سأخبرك كل شيء، ولكن الأمر ليس كما تظن. فأنا لم أقترب من أي مكان قرب المسجد في الليلة الماضية لأنني لم أكن هنا أصلاً".

قلت بغضب: "انظرا! ها هو يعاود الكرة ويكذب من جديد. ناولاني ذلك الحزام".

فقال وهو ينكمش من الخوف: "من فضلك، لا تفعل ياسيدي. أقسم لك هذه المرة إنني أقول الحقيقة. في تلك الليلة، توجهنا إلى الضريح الأسود".

هذه المرة، حان دوري لأشعر بالمفاجأة.

"الضريح الأسود!".

"نعم، ذهبنا للبحث عن الكنوز كما يمكنك أن تخمن".

"أنت تكذب من جديد...".

"أقسم لك إنها الحقيقة ياسيدي. أقسم إنها الحقيقة".

"هل رافقك شخص آخر؟".

سكت شهموز.

قلت وأنا ألوّح بإصبعي بحزم في وجهه: "استمع إلي. إن لم تستطع أن تثبت لي تواجدك عند الضريح الأسود، فسيتوجب عليّ أن أضعك قيد الحجز بتهمة قتل الحاج عبد الستار".

لمعت عيناه المليئتان بالخوف كعيني ابن آوى محاصر في الزاوية. وأخيراً، اعترف. فقال: "لقد رافقني بكر بن ميميلي الأعرج".

"وما الذي عثرتما عليه؟".

فقال بصوت منهك: "كل ما عثرنا عليه موجود في كوخ البستان الذي يملكه ميميلي".

قلت له: "سنتأكد من هذا بأنفسنا. وأين كان سيلو العجوز حارس موقع التنقيب عن الآثار أثناء حفرك وبحثك عن الكنوز؟".

فأجابني: "لقد أنجبت كنة سيلو صبياً، وكان يرغب بالذهاب لرؤية الطفل منذ بضعة أيام، لذا قال له ميميلي: اذهب إلى القرية ياسيلو. وسوف أرسل ابني "بكر" ليحرس الموقع بدلاً منك. أليس هذا ما يقوم به

الأصدقاء؟ سيلو رجل ساذج، ولقد وثق بميميلي. وهكذا، فقد كان في القرية عندما ذهبنا إلى هناك، وليست له أية علاقة بالموضوع".

بعد اعتراف شهموز، قبضنا على ميميلي الأعرج وابنه بكر في المرأب. وفتشنا الكوخ، وصادرنا كل المكتشفات الأثرية التي أخبرنا عنها، بالإضافة لكيس من الحشيش. في البداية، أنكر بكر كل شيء، ولكن لم يتطلب الأمر منا سوى القليل من الضغط حتى اعترف أن كل ما قاله شهموز صحيح".

اعترت الصدمة جميع أفراد الفريق لدى سماعهم القصة التي سردها النقيب على أسماعهم. وعندما انتهت، جلسوا هناك بلا حراك، والدهشة تعقد ألسنتهم. فكان خلف أول من تحرر من حالة الصمت تلك وقال:

"لقد تولد لدي شعور اليوم بأن هناك ما يخفيه العم سيلو. فقد فهم على الأرجح أن هناك خطباً في الموقع عندما وصل صباح اليوم، ولكن الواقعة وقعت وانتهى الأمر. ولم يستطع أن يخبر أحداً لأنه خاف".

قال كمال: "ينبغي أن نطرده. نحن نوظفه ليحرس الموقع وهو يذهب ويتركه مرتعاً للصوص".

تمتمت إسراء بقلق: "والأهم من ذلك أن الموقع قد لا يكون بأمان هذه الليلة؛ إذ ربما خاف العم سيلو فهجره".

فردّ عليها النقيب بثقة: "لم يتركه بنفسه، بل أخذناه لكي نستجوبه. فكلفت رجلين بمهمة حراسة الموقع".

رمقت إسراء النقيب بنظرة امتنان، وقالت: "شكراً لك. سنتولى مسألة الحراسة غداً". ولكنها ظلت تفكر ملياً بموضوع الاستجواب، فقالت: "إذاً، في هذه الحالة لم يقتل شهموز الحاج عبد الستار، أليس كذلك؟".

فأجاب النقيب: "هذا ما يبدو". وبدا على هذا الاستنتاج أنه أطفأ التعبير المرح الذي ارتسم على وجهه منذ وصوله.

اعترض كمال قائلاً: "أظن أنكم مخطئون. ما قلته لنا لا يثبت أن شهموز لم يقتل الحاج عبد الستار. إذ ربما ذهب وقتل الحاج عبد الستار بعد أن أخفى البضائع المسروقة في كوخ البستان".

ردّ النقيب بهدوء: "من الصعب أن نكون واثقين من هذا. هناك فريق تقني سيحضر غداً من غازي عنتاب ويقوم برفع البصمات. وعندئذ فقط سنتمكن من حسم الموضوع".

قال تيومان الذي بات على حافة الموت جوعاً: "إذاً، يمكننا تناول الطعام الآن".

á á á

اللوح السابع

لم نتمكن من معرفة ما جرى لجدي ميتانوا. فقد عاد كل الذين أرسلناهم للبحث عنه صفر اليدين. وحالما فقدنا الأمل في العثور عليه، بدأ والدي آراراس يبدي المزيد من الاهتمام بـي. لا يسعني القول إنه بدا مسروراً لاختفاء ميتانوا، ولكنه أراد أن يستفيد من الفرصة التي سنحت له في غيابه. فبدأ يقضي معظم وقته خارج القصر بصحبتي. لم يستحسن نظمي للشعر، وضغط علي لأنجز المزيد من العمل في كتابة الألواح الرسمية. ففعلت ما طلبه مني، ولكنني واصلت نظم الشعر سراً. غريبٌ أنني لم أغضب من والدي قطّ، بل على العكس بدأت أفهمه أكثر من أي وقت مضى.

اعتاد ميتانوا أن ينعت والدي بالألعوبة بيد الملك. ومع ذلك، فقد عرفت بالتجربة أن ذلك ليس صحيحاً، وأن والدي مجرد موظف مخلص.

في ذلك العام، وخلال موسم الحصاد، سقط ملكنا طريح الفراش. وشيئاً فشيئاً، تحوَّل مرضه الذي بدأ كمجرد تشنجات بسيطة في الساقين إلى ألم مبرح ثم أودى بحياته في غضون أسبوع واحد. تم تقديم القرابين والنذور لتيشوب وزوجته هيبات وابنيهما شاروما وكوبابا، كما تم استدعاء جميع العرافين في بلاد ما بين النهرين ليخبرونا بما يجب فعله بالسحب الشريرة التي خيمت فوق رأس الملك.

نظر العرافون إلى كبد خروف مذبوح، وتفحصوه ليعرفوا إذا كان الجزء السميك من الكبد في الأعلى أم في الأسفل، ثم هزوا رؤوسهم بيأس.

وأطلق العرافون أنثى نسر وذكرها ليطيرا فوق السهل بجوار نهر الفرات، ولكن الطيرين لم يلتقيا في السماء، بل طار كل منهما بالاتجاه المعاكس للآخر.

ووضعوا سمكتي أنقليس في إحدى البرك، ولكن السمكتين أيضاً سبحتا باتجاهين متعاكسين؛ مما أشار إلى أن الوقت قد حان ليفارق ملكنا هذه الحياة.

ثبتت صحة أقوال العرافين. إذ إن جسد الملك أستاروس ذبل في غضون سبعة أيام، ثم غادرت روحه جسده في نهاية اليوم السابع. استمرت طقوس الحداد أربعة عشر يوماً وليلة كما حدث عند وفاة والده الملك كاماناس. وأُحرق جسد الملك بينما عبثت الرياح بألسنة اللهب، ثم وُضع رماده في آنية من الفخار.

حل محل الملك أستاروس سيدنا الجديد بيزيريس. اعتلى بيزيريس العرش وهو لا يزال شاباً صغير السن؛ كما حدث مع أبيه أستاروس. ومع ذلك، لم يكن يشبه الملك الراحل في شيء. فقد كان أستاروس ملكاً تنقصه الثقة بالنفس، وهذا هو السبب الذي جعله يعجز عن اتخاذ أي قرار من دون استشارة مجلس الشيوخ. أما بيزيريس فقد تحلى بأقصى درجات الطموح والقسوة والثقة العالية بالنفس. فبعد مرور الشهر الثالث على حكمه، جعل مجلس الشيوخ يفقد استقراره بشكل كلي. إذ بدأ يتجاهل قرارات المجلس، ويمتنع عن تنفيذ أي من أحكامه. سعى والدي لمعارضته، ولكن الملك هدده بشكل صريح قائلاً: "إما أن تقف إلى جانبي أو سألغي تقليد منصب كبير كتبة القصر؛ المنصب الذي توارثته عائلتك لأجيال عدة". أدرك والدي انحراف أساليب الملك، ولكنه لم يتحل بالثبات الكافي للوقوف في وجهه. لا يسعني القول إنه جبن، ولكنه لم يستطع من الناحية القانونية أن يجابه بيزيريس. ورغم قدرته على تنفيذ خطط دقيقة لا يمكن لأحد أن يتخيلها ضد الحكام الأجانب وحتى أعضاء من مجلس الشيوخ ليحمي مصالح الملك، إلا أنه عجز عن الاحتيال على بيزيريس أو التصدي له.

احتلت ذهن بيزيريس أفكار أكثر خطورة بكثير، ناهيك عن استبداده داخل إدارته نفسها. فقد أراد أن ينظر إليه على أنه إمبراطور حثي من أيام الإمبراطورية الكبرى. وبدأ بكل مكر يحوك خططاً ضد الإمبراطورية الآشورية التي عشنا تحت سلطتها لمدة طويلة؛ متجاهلاً بشكل كلي القوة الضئيلة التي تتمتع بها مملكتنا الصغيرة. حذّر والدي الملك بلباقة من الانسياق وراء هذه الخطط، وتوسل إليه باستمرار لكي يتخلى عن هدفه الخطير، ولكن جهل بيزيريس وصغر سنه جعلاه ينساق وراء طموح عديم الرحمة أعمى عينيه عن رؤية الحقيقة، فلم يبال بتحذيرات والدي المستمرة. وفي نهاية المطاف، انحنى والدي أمام تجاوزات الملك، وبدأ يتعايش معها بإذعان واستسلام. وعلى أية حال، لم يسعه أن يتجاهل أن بيزيريس هو الملك وممثل تيشوب على الأرض، وأن معارضته تعني إثارة غضب تيشوب واستجلاب الشؤم وسوء الطالع.

á á á

الفصل الثامن

أثناء تناول العشاء، فكرت إسراء بسوء الحظ الذي هبط على فريقها، بينما أقبل الجميع بنهم على تناول السمك. فقد التهم تيومان طعامه وهو يتجاذب أطراف الحديث مع مراد، بينما ظل كمال ينظر أمامه بامتعاض، وإيلاف تضحك بصوت مرتفع متكلفة السعادة. أما تيموثي دائم التعطش لتبادل الأحاديث، فقد أمضى وقته في طرح أسئلة على النقيب حول الجيش، أما بيرند فابتسم وهو يصغي إلى كل هذه الثرثرة على الطاولة، في حين وقف خلف على بعد خطوتين فقط من الطاولة، وهو يتلقى كلمات الإطراء على هذه الوجبة الشهية. شعرت إسراء بأشرف يختلس النظرات نحوها وهو يزداد مللاً من كثرة أسئلة الأمريكي، وفكرت بقضية مقتل الحاج عبد الستار، ولكنها فشلت في التوصل إلى أية استنتاجات. لم تعد تظن أن شهموز هو القاتل. ومع ذلك، لم يسعها إلا أن تأمل أن يكون هو الفاعل. فإن اتضح أن شهموز هو القاتل حُلَّت كل مشاكلهم، وأنقذوا من الظل المنذر بالشؤم الذي أتت به هذه الجريمة والذي هبط عليهم وعلى موقع التنقيب عن الآثار ككابوس. ولكن، ما الذي قد يجعل شهموز يرتكب جريمتين من هذا النوع واحدة تلو الأخرى في الليلة نفسها؟ وعلاوة على ذلك، فالطريقة التي ارتكبت بها الجريمة لا تتوافق وشخصية شهموز. فالصعود إلى المئذنة قبيل الفجر، وانتظار الحاج عبد الستار لدفعه، وارتداء عباءة سوداء لإخفاء الهوية... فمن يملك مثل هذه القدرة على التخطيط، لن يمشي في أنحاء المدينة ويعلن قائلاً إنه سيقتل الحاج عبد الستار.

عندما بدأ الجميع يشربون الشاي، قال النقيب: "تبدين مستغرقة بالتفكير. ظننت أنك ستسرين لعثورنا على المسروقات".

سرعان ما جمعت إسراء شتات أفكارها من جديد، وقالت: "إنني ممتنة كل الامتنان لعثوركم عليها. فلو لم تعثروا على اللوحين، لبقيت قصة باتاسانا ناقصة... ولكن...".

توقفت وكأنها لم تستطع أن تعثر على الكلمات المناسبة لإكمال حديثها.

فقال النقيب مشجعاً إياها على المواصلة: "ولكن ماذا؟".

ألقت إسراء نظرة خاطفة بطرف عينها نحو الآخرين الجالسين حول الطاولة، فبدا كل واحد منهم مستغرقاً في عالمه الخاص.

قالت: "أنهِ تناول الشاي، ودعنا نذهب لنتمشى قليلاً".

فهم النقيب أن الشابة لم ترغب بمتابعة حديثها أمام الآخرين. فأنهى كوب الشاي بجرعتين كبيرتين.

قالت إسراء للآخرين: "سنذهب لنتمشى". وعندما رأى خلف أن النقيب نهض ليغادر أسرع نحوهما.

سأله: "ستعود إلى هنا، أليس كذلك؟ فأنا لم أقدم الفاكهة بعد".

أجاب النقيب بابتسامة صادقة: "شكراً لك. كانت الوجبة شهية جداً. وقد أكلت كثيراً. ولا أظن أنني قادر على تناول المزيد".

بعد بضع دقائق، خرج النقيب وإسراء ليتمشيا معاً على طول الطريق الترابـي. وبعد أن قطعا مسافة قصيرة، سألت إسراء: "هلا نتمشى على طول ضفة النهر. القمر بدر اليوم والمكان مضاء".

قال النقيب: "كما تشائين ياسيدة إسراء". وبالرغم من بذله قصارى جهده ليخفي مشاعره، إلا أن نبرة صوته الفرحة كشفت بشكل واضح عن مدى سروره لدعوتها.

ابتسمت إسراء بخبث، وقالت: "أظن أن علينا أن نضع حداً للرسميات الآن".

فقال النقيب بخجل ولكن بسرور واضح: "حسناً".

عندما مرا بجانب بستان الرمان الذي تملكه الجدة هاتوش، قالت إسراء وهي تحني رأسها لتتجنب غصن شجرة متدلياً من السياج: "إنك محق. لقد وجهنا التهمة للشخص الخطأ".

"حسناً، بالكاد يمكننا القول إن ذلك لم يأتِ بأي نفع. فبفضل شكوكك، تمكنا من القبض على أولئك المهربين".

قالت إسراء بتعاسة: "ولكننا لم نقبض على القاتل. أتساءل إن كان علينا أن نستجوب "فياض"".

قال النقيب وهو ينظر بتركيز إلى الطريق الطيني الذي ينيره ضوء القمر الخافت وكأنهما سيجدان ما يبحثان عنه مرمياً في مكان ما أمامهما: "أعرف أنك تشكين بالأصوليين، ولكن شكوكك لا تبدو منطقية بالنسبة إليّ. لا توجد في المنطقة أية منظمات دينية قوية بما يكفي لكي ترتكب جريمة من هذا النوع".

"ماذا عن أولئك المرتبطين بالحلقة الدينية مثل الحاج عابد وفياض؟".

تغيرت ملامح النقيب وقال: "هم! يرتكبون جريمة قتل! أولئك الأشخاص! قد يبدون لك أقوياء وأشداء، ولكن هذه مجرد مظاهر خادعة. فهم مجرد جبناء يخافون من ظلهم. ولولا الحاج عبد الستار، لعانوا من

وقت عصيب حتى في فتح هذه الحلقة الدينية لتعليم القرآن".

توقف النقيب والتفت ليقف بمواجهتها، وسألها: إذاً، هل تظنين أن جريمة قتل الحاج عبد الستار قد تشكل جزءاً من هذه الجهود؟".

توقفت إسراء أيضاً ونظرت إلى النقيب. هب نسيم من نهر الفرات حاملاً معه عبق أزهار الدفلى. وأبرز ضوء القمر الشاحب خطوط وجه النقيب الحادة، فشعرت إسراء بنبضات قلبها تتسارع وهي تنظر إليه، وقالت: "ليس هناك أي دليل على شيء من هذا النوع، ولكن لا بد أنك تعرف شيئاً ما وإلا لما تحدثت بهذه الطريقة".

قال النقيب بنبرة قاسية لا داعي لها: "لا أعرف شيئاً. لِمَ لا نغير الموضوع الآن؟".

انـزعجت إسراء من موقفه، ولكنها لم تلح عليه. فمشيا بصمت على طول الطريق لبعض الوقت، وواصلا المشي إلى أن وصلا إلى النهر الذي يغمره ضوء القمر.

تمتمت إسراء عندما رأت الفرات الممتد أمامهما كشريط فضي بين الضفتين الداكنتين: "يا له من منظر رائع!". وظلت تتأمله، ثم أخرجت علبة سجائر من جيب قميصها وأخذت سيجارة. وبينما هي على وشك أن تعيد العلبة إلى جيبها، التفتت إلى النقيب وكأنها تذكرت فجأة وجوده بجانبها.

"هل تود سيجارة؟".

لم يتظاهر النقيب بالممانعة بل قال: "لن يسر الأطباء من هذا، ولكن ما المشكلة؟ سأشعل سيجارتي الثانية لهذا اليوم".

أشعلت إسراء سيجارتيهما، فتطاير الدخان عديم الشكل في الهواء، وامتزج برائحة أزهار الدفلى.

قالت إسراء وقد تذكرت محادثتهما الصباحية: "بدأت في الصباح تحدثني عن كيفية بدئك التدخين في شيرناك، ولكنك لم تكمل الموضوع".

التفت النقيب ونظر إليها للحظة، ثم قال: "إنها ليست قصة لطيفة جداً".

فأجابت إسراء بلهجة مؤنبة: "كان ينبغي أن تفكر في هذا قبل أن تبدأ بسرد القصة في المقام الأول. ليس من اللطف حقاً أن تترك المرء يتساءل عن النهاية".

لم يشعر النقيب بالإهانة لتأنيبها له. بل على العكس من ذلك، شعر أنها تتعامل معه وكأنهما صديقان قديمان.

فقال لها: "حسناً، سأخبرك. انظري توجد صخرة هناك". وأشار إلى

اليسار حيث وصل نبات القصب إلى نهايته، ثم قال: "هيا، لنجلس هناك".

جلسا بجانب بعضهما بعضاً. كانت الصخرة التي امتصت حرارة الشمس طوال اليوم لا تزال دافئة. وكانت كل حركة يقوم النقيب بها تجعل ذراعه اليمنى تلامس كتف إسراء اليسرى، ولكن أياً منهما لم يفكر في الابتعاد.

بدأ النقيب سرد حكايته قائلاً: "حدث ذلك في الشهر السادس من انتقالي إلى شيرناك، وكنت وقتها برتبة ملازم. في ذلك الوقت، كنا في الجبال نؤدي المهمات العسكرية واحدة تلو الأخرى. وفي تلك الليلة التي أتحدث عنها، استغرقت في النوم قبيل الفجر بوقت قصير. واستيقظت على بعض الأصوات، وكانت عبارة عن حديث يدور بين شخصين يتخلله صمت متقطع. ففتحت عيني، وحاولت أن أتذكر أين أنا. نظرت إلى السماء التي بدأ نور الفجر يبزغ فيها شيئاً فشيئاً، بينما انتشرت بعض الغيوم السوداء في السماء الكئيبة. وفجأة تذكرت أننا في الجبال، وتمكنت بعد جهد من تحريك جسدي الخدر، وجلست على كيس نومي. فرأيت شخصين يتجادلان على بعد بضعة أمتار مني. استطعت بسهولة أن أميز جسد الرقيب رشيد الضخم، ولكنني لم أستطع أن أميز الشخص الذي يتحدث إليه.

صحت عليهما بغضب: "ما الذي يجري هنا؟".

وقف الرقيب رشيد على الفور بوضعية الاستعداد، وقال بصوت عميق وكأنه يملي تقريراً شفوياً: "إن سيتيثان يريد أن يتحدث إليك ياحضرة الملازم. فقلت له إنك نائم، ولكنه لم يصغِ إلي...".

نظرت إلى سيتيثان الذي رأيته واقفاً بجانب رشيد. وبالرغم من أنني لم أستطع أن أميز وجهه، إلا أنني استطعت أن أشعر بالابتسامة الساخرة المرتسمة على شفتيه. اقترب مني متجاهلاً الرقيب كلياً.

وقال: "انهض، ياسيدي. لقد حان الوقت".

وبينما نظر رشيد إليّ محاولاً أن يعرف ما يجري، تابع سيتيثان كلامه قائلاً: "لقد عثرت عليهم. إنهم في مخبئهم؛ بدرخان وآخرون... إنهم على بعد نصف ساعة من هنا".

وعندما تأخرت في الرد عليه، تحولت جرأته المتهورة إلى وقاحة واضحة.

"ألن تأتي؟ ولكنك قطعت وعداً...".

فقلت مقاطعاً كلامه بقسوة وأنا أخرج من كيس النوم: "حسناً، إنني قادم".

سأل رشيد وهو عاجز عن فهم ما يجري: "هل أوقظ بقية المجموعة ياسيدي؟".

فقلت له وأنا أرتدي سترتي: "سأقوم وسيتيثان بالمهمة بمفردنا".

هَمّ رشيد بالاعتراض، فقلت له بحدة: "لا اعتراضات. ستتولى المسؤولية في غيابي، اتفقنا؟".

فأجاب وهو لا يزال واقفاً بوضعية الاستعداد: "نعم، ياسيدي".

بعد خمس دقائق، انطلقنا في طريقنا على طول طريق تحفه من أحد الجانبين جروف صخرية حادة، ومن الجانب الآخر بعض الشجيرات. وعلى الرغم من السترة التي ارتديتها، فقد اخترقت برودة الصباح عظامي، وبدأت بندقيتي تصبح أثقل فأثقل في يدي، نظرت إلى سيتيثان بطرف عيني، فبدا لي منيعاً أمام الظلام والبرد وهو يمشي برشاقة فوق الحجارة الصغيرة كأنه وعل بري. وبعد قليل، أصبح الطريق ضيقاً جداً. لم أكن أريد أن يمشي سيتيثان أمامي، ولكنه لاحظ ترددي، وتولى القيادة من دون التفوه بكلمة واحدة. لم يقل شيئاً، ولكن الابتسامة الكريهة على وجهه عبّرت عن الكثير.

لم يكن سيتيثان جندياً، بل كان أحد الحراس ومطلقي النار في قرية زركول. وقد شارك في معظم الاشتباكات المسلحة التي وقعت في المنطقة، وأنقذ الجنود من الكمائن غير مرة. وبالرغم من عدم تسجيله بشكل رسمي كجندي، فقد أصبحنا نعتبره فرداً من أفراد الجيش. اعتاد أن يتجول في الجبال وحده، وهذا ما جعل القلق الدائم يتملك الجميع من أن يُقتل، ولكنه حتى ذلك اليوم لم يكن قد تعرض حتى لإصابة واحدة.

هذا النضال الداخلي لديه ربما هو ما ولد في داخلي نحوه خوفاً بدلاً من الاحترام. أظن أن هذا الخوف ينبع من حقيقة ما جرى في أول معركة شاركت فيها. إذ إن الخوف تملكني وجعلني أتراجع إلى الوراء، وهذا ما لاحظه سيتيثان. في ذلك اليوم، أتى إليّ مباشرة بعد المعركة، ولم يتردد على الإطلاق في توجيه هذا الكلام لي: "ما هذا ياسيدي؟ لقد تراجعت للوراء في غمرة المعركة، أليس كذلك؟". لقد تعمد إذلالي أمام رجالي، ولكنه لم يكن يقول إلا الحقيقة، فقد جبنت وتراجعت للخلف. لم يوجه لي القادة والجنود الآخرون أي انتقاد لما فعلته. فقد تلقوا بدورهم تدريباً ممتازاً، واشتركوا في الكثير من المناورات، ولكن المناورات تختلف كل الاختلاف عن المعارك الحقيقية. ومهما تلقوا من تدريب جيد، فقد جربوا شعوراً كالذي جربته يومها، وأبدوا رد الفعل نفسه في مواجهتهم؛ أي

ترددوا وتراجعوا إلى الخلف. وأولئك الذين لم يتعرضوا لإطلاق النار، بدؤوا يعتادون على الظروف القاسية ويتعلمون طرق الحروب. وبعد بضع عمليات أخرى، تعلمت أن أتغلب على خوفي، ولكن سيتيثان لم يكف عن التلميح لجبني والعبث معي حتى أمام الآخرين في كل فرصة تسنح له.

بعد شهرين، عدت إلى المخفر من عملية ناجحة. فراح سيتيثان يزعجني مرة أخرى بقوله: "هل عدت من كنس المؤخرة مرة أخرى، ياسيدي؟". فقدت صوابـي، وسددت له لكمة قوية على وجهه، فسقط أرضاً، ولكنني انقضضت عليه، وعانى الجنود من وقت عصيب في إبعادي عنه. استطعت أن ألمح من خلال الحشد وجهه الملطخ بالدم، ولكنني لم أرَ شيئاً من الألم في عينيه. فقد ظل ينظر إلي بتلك الابتسامة المهينة نفسها على شفتيه. في تلك الأمسية، استدعاني النقيب وقال لي إن سيتيثان جاهل، ولكنه مفيد لنا ولا يمكننا الاستغناء عنه، لذا ينبغي عليّ التصالح معه. لم يعجبني ذلك على الإطلاق، ولكنني لم أجد مفراً من إطاعة أوامر رئيسي.

بعد تلك الحادثة بأسبوعين، وجدت سيتيثان متكئاً على جذع شجرة توت مائل في الحديقة خلف المخفر، فمشيت نحوه. وعندما رآني، قام بمجرد رفع حاجبيه ورمقني بتلك النظرة.

سألته: "لِمَ لا يمكننا أن نصبح صديقين ياسيتيثان؟".

فأجابني: "لا يمكننا ذلك وحسب ياسيدي".

سألته: "لِمَ لا؟".

فأجاب بهدوء: "لأنك جبان".

اندفع الدم إلى وجهي. فقد وجد ذلك الرجل في نفسه الجرأة على إهانة شرفي وجهاً لوجه، ولكنني حافظت على هدوئي.

فأتى ردي عليه بارداً على الأقل كرده عليّ، وقلت: "لست جباناً. صحيح أنني ترددت في معركتي الأولى، ولكنك رأيت في العمليات اللاحقة أي نوع من الرجال أنا".

لم ينبس ببنت شفة، بل قام بمجرد دس يده في جيبه، وابتسم تلك الابتسامة الكريهة، وأخرج علبة تبغ فضية ذات غطاء مطرز، في داخلها سجائر عريضة ملفوفة باليد من التبغ المهرب؛ لطالما اعتاد سيتيثان أن يلف السجائر في وقت فراغه. ظننت أنه سيعرض عليّ سيجارة، ولكنه قام بمجرد إشعال سيجارته وبدأ يدخن. وبعد أن سحب نفساً عميقاً وهو يبدو غافلاً عن وجودي على ما يبدو، تابع كلامه.

فقال: "لقد رأيتك وأنت تقاتل، ولكنني لا أستطيع الوثوق بك. ماذا

سيحصل لو تكرر الأمر مرة أخرى؟ ماذا سيحصل لو تخليت عنا في غمار معركة؟".

"لن أتخلى عنكم أبداً، وأنت تعرف ذلك".

فردّ عليّ: "لا أعرف. من أين لي أن أعرف؟".

"حسناً ياسيتيثان. كيف أكسب ثقتك؟".

نظر إلى وجهي، فرأيت للمرة الأولى صدقاً حقيقياً في نظرات عينيه.

وقال: "هناك طريقة، ولكنك لن تقبل بها".

"من قال لك ذلك؟ أخبرني ما هي الطريقة".

"هلا تأتي معي عندما أذهب للبحث عن بدرخان".

"بالطبع سأفعل ذلك. الفريق بأكمله سيذهب".

"لا أريد أن يأتي الآخرون، بل أنت فقط".

"نحن الاثنان فقط! حسناً، ولكن لماذا؟".

"يجب أن أقتل أخي".

"ولكن، ماذا سيحل بنا لو كان برفقة مجموعة كبيرة؟".

"لا تقلق، سأقبض عليه عندما يكون وحده".

ترددت. ترى، هل يمكنني أن أضع ثقتي به؟

سألني بيأس: "لن تأتي معي، أليس كذلك؟".

فقلت: "بل سآتي، ولكن بشرط واحد. يجب أن تخبرني لماذا تريد قتله".

فردّ عليّ: "حسناً". وبدأ يسرد قصته:

"أنا وشقيقي بدرخان توأم نشبه بعضنا بعضاً، وكأننا تفاحة مقسومة إلى نصفين. سجن والدنا بعد أن قتل أحد الأشخاص، وكانت صلة قرابة تجمع والدي بزعيم إحدى القبائل، فأخذنا زعيم القبيلة تحت جناحه ليعتني بنا ويربينا. وجد الزعيم أن بدرخان أشد ذكاء مني لأنه يجيد القراءة، فأرسله إلى المدينة، وقال: "سيذهب بدرخان إلى المدينة ليهتم بأمورنا القانونية، بينما ستبقى أنت هنا وتحمينا". سررنا جميعنا سروراً عظيماً لأن بدرخان سيذهب ليدرس ويصبح محامياً. ولكن، عندما وصل بدرخان إلى المدينة، نسي كل ما يتعلق بالقبيلة، وانضم إلى المتمردين. وأصبح يزدري التقاليد ولا يأبه لها البتة. ولكن يبدو أنه وجد هذا غير كافٍ، فقد عاد إلى هنا، وبدأ يطلق النار على أبناء قبيلته، ولهذا السبب من واجبي أن أقتله".

تفحصت تعابير وجهه وهو يتكلم. فرأيت حاجبيه السميكين يتقوسان

من الغضب، وعينيه تلمعان كقطعتين متوهجتين من الجمر. وجدت كلامه مقنعاً جداً، ولكنني ظننت مع ذلك أنه لا يزال يخفي عني شيئاً ما.

سألته: "أهذا كل ما في الأمر؟".

فأجابني: "ماذا تعني بقولك؟". وحدق إلى وجهي ثم هز رأسه، وقال: "لقد فهمت. أنت لا تريد أن تأتي معي".

"سآتي".

ابتسم كاشفاً عن أسنانه الملطخة بالنيكوتين، وسألني قائلاً: "حقاً؟".

فقلت: "نعم. ولكن، من الآن فصاعداً ستكف عن إزعاجي طوال الوقت".

أجابني: "حسناً، لن أفعل ذلك بعد الآن. لن أضايقك، ولكن لا تتوقع أن نصبح صديقين قبل أن ننهي هذه المسألة".

هذا ما قاله لي سيتيثان. وهكذا، انطلقنا معاً للبحث عن بدرخان. فوصل بنا الطريق الذي اتبعناه إلى بستان بلوط، وهناك بدأنا نمشي جنباً إلى جنب.

قال سيتيثان: "إن وكرهم موجود في الجانب الآخر من هذا البستان".

فقلت بينما تحركت إصبعي بشكل تلقائي نحو زناد بندقيتي: "لنتوخَّ الحذر. إنهم على الأرجح يكلفون أحداً منهم بالمراقبة".

فردّ عليّ وهو يخرج شيئاً من جيبه ويقدمه لي: "لقد فعلوا ذلك، ولكنني توليت أمره". فنظرت إلى يده، ورأيت فيها أذناً كبيرة لا تزال مبللة بالدم.

"متى قتلته؟".

"قبل ساعة".

"ربما لاحظ رفاقه غيابه؟".

فردّ عليّ وهو ينظر إلى الأذن التي يمسكها في يده: "مستحيل. فقد تولى ذلك المسكين الحراسة لتوه".

ازداد الطقس برودة ونحن نتوغل عميقاً داخل بستان البلوط، لدرجة أنني بدأت أرتعش من البرد، ولكن توجب عليّ أن أحافظ على رباطة جأشي، وإلا ظن سيتيثان أنني أرتعش من الخوف. في غضون وقت قصير، وصلنا إلى مدخل الوكر، فوجدناه مغطى بشجيرات كثيفة لدرجة أنه بالكاد يمكن للمرء أن يلاحظ وجوده في الأسفل.

همست له قائلاً: "دعنا نلقي قنبلة، ثم ننقض عليهم عندما يخرجون".

فهمس لي: "ثمة مدخل آخر للوكر. ارمِ أنت القنبلة من خلف الشجيرات، وأنا سأحرس المكان عند المدخل الخلفي".

قلت له بحزم: "مستحيل. ستذهب وتدعوني بالجبان مرة أخرى وتقول إنني هربت من المعركة".

أجابني بجدية: "لن أفعل ذلك. أقسم لك".

فألححت عليه قائلاً: "بل ستفعل ذلك. لا يمكنني الوثوق بك".

"ثق بـي. تعرف أنني من يجب أن يقتل بدرخان. ولن أستفيد شيئاً إن لم أقم بتأدية المهمة بنفسي".

جلت ببصري في أنحاء الوكر المغطى بالشجيرات الكثيفة، وغيرت رأيي وأنا أدرك فجأة مدى الخطورة والسخافة اللتين تنطوي عليهما المناقشة برمتها.

فقلت: "حسناً، سأعد بصمت حتى المائة ثم سألقي بالقنبلة في الوكر".

فقال: "حسناً". وبلمح البصر، توجَّه في طريقه إلى المدخل الآخر للوكر متسللاً كالشبح. فدنوت من الوكر، وأبعدت الشجيرات بلطف، وأخرجت القنبلة من حزامي، وبدأت أعد إلى المائة، ثم سحبت مسمار الأمان، وألقيت القنبلة داخل الوكر، وتراجعت إلى الخلف مبتعداً، وألقيت بنفسي خلف ربوة صغيرة. وحالما تمددت على الأرض، انفجرت القنبلة محدثة صوتاً مدوياً، وتصاعد الدخان من الوكر. وسمعت على الفور صوت بندقية سيتيثان الكلاشينكوف. وسمعت رجلاً مصاباً بطلق ناري يصرخ متألماً، ولكنني واصلت توخي الحذر، وبقيت مختبئاً لبعض الوقت. فخيم صمت رهيب على بستان البلوط. وعندما فكّرت بمناداة سيتيثان، سمعت صوت بندقيته مرة أخرى، ثم صوت مسدس يرد عليه. بدت الأصوات مكتومة، وهذا يعني أن سيتيثان دخل الوكر بلا شك. وعندئذ ساد الهدوء من جديد. واصلت مراقبة مدخل الوكر وأنا أنتظر، متوقعاً خروج سيتيثان وهو يطلق صيحة النصر. ولكن لحظات مرت من دون أن يظهر. وأخيراً، لم أستطع أن أحتمل الانتظار، فزحفت نحو المدخل، وأرهفت السمع لأي صوت يصدر من الداخل، وظننت أنني استطعت أن أسمع صوت شخص يئن، ولكنني فكّرت في سرّي أن ذلك ليس أنيناً بل أشبه بصوت بكاء. دفعني فضولي للانـزلاق عبر المدخل، فاستغربت عندما رأيت الوكر مضاءً، ولكنني عندئذ لاحظت أن القنبلة قد أحدثت ثقباً في السقف، مما أفسح المجال لضوء الصباح المبكر للتسلل عبر الأغصان الجافة في الأعلى. توغلت إلى الداخل وظهري نحو الجدار ويدي على زناد بندقيتي. فوجدت أمامي صخرة تقسم الوكر إلى

نصفين. نظرت إلى القسم الآخر من الوكر من خلال فتحة تتسع لمرور شخص واحد، فرأيت شخصين ممددين على الأرض بلا حراك قرب مدخل الكهف. استطعت أن أتبين شكل سيتيثان هناك في الظلام خلف الصخرة. فقد رأيته راكعاً وهو يبكي أمام رأس شخص افترضت أنه أخوه. استطعت أن أعرف أنه يبكي من الطريقة التي راح جسده يهتز فيها ويرتجف. ففكرت في سرّي: "يبدو أن محاربنا قاسي القلب قد رق أخيراً". اقتربت منه بلطف. وعندما أصبحت على بعد بضع خطوات منه، انتبه لوجودي فهب على قدميه موجهاً مسدسه نحوي. وعندئذ، أدركت أن ذلك ليس سيتيثان، فوجهت بندقيتي نحوه. اعتبرت نفسي ربما في وضع الأفضلية لأنني مسلح ببندقية، ولكنني لم أجد في نفسي القدر الكافي من الثقة في ذلك لأنني سمعت أن بدرخان مصوب بارع كأخيه تماماً. ومع ذلك، فقد بدا التردد واضحاً على عدوي على حد سواء وهو ينظر إلى وجهي بحيرة من دون أن يدري ما يفعل، فحاولت أن أتقدم خطوة للأمام.

فقال لي: "الزم مكانك". لم أجده شبيهاً بسيتيثان من حيث وقفته وشعره المجعد، ولكن صوته بدا شبيهاً بصوت أخيه أيضاً.

قلت له: "انتهى أمركم. أنتم محاصرون".

فأجاب بصوت منهك: "إنني أشك في ذلك لأنني أعرف أن سيتيثان أراد أن يقتلني بنفسه ومن دون مساعدة من أحد".

وجدت في كلامه عين الصواب، وهذا ما صدمني.

"أنت تظن أنك تعرف أخاك جيداً، أليس كذلك؟".

فقال بحزن: "لا أظن ذلك وحسب، بل أنا واثق من أنني أعرفه حق المعرفة. فنحن لسنا متشابهين بالشكل فقط، ولكن بمشاعرنا وأفعالنا أيضاً".

علّقت بصوت ساخر: "صحح كلامي إن أخطأت، ولكن يبدو لي بشكل مؤكد أنك حزين عليه".

فقال: "نعم".

سألته: "لماذا قتلته إذاً؟".

فشرح قائلاً: "المكان مظلم، فلم أستطع أن أميز شكله".

"إذاً، ما كنت لتقتله لو أنك ميزته؟".

فقال بحدة: "صحيح".

قلت بهدف تشتيت انتباهه: "ولكنه أتى بنية قتلك. لقد عاش من أجل اليوم الذي سيقتلك فيه".

فأجابني: "أعرف ذلك. فهذا ما توجب عليه فعله".

"لم يتوجب عليه ذلك، ولكنه كان رجلاً ذا إرادة قوية جداً تصل به إلى حد القضاء على حياة شقيقه حباً ببلده وشعبه".

فخاطبني بصوت تشوبه السخرية: "هل تصدق هذا فعلاً؟".

فرددت عليه: "بالطبع أصدقه. لقد أمضيت أشهراً معه في الجبال، فأخبرني كل شيء".

فقال: "إنني واثق من أنه لم يخبرك كل شيء".

سألته بفضول: "ماذا تعني؟".

"لم يكن لدى سيتيثان خيار سوى أن يقتلني؛ لأنه لولا ذلك لأصبحت عائلتنا منبوذة، ولربّما تعرّض جميع أفرادها للقتل على يد أفراد القبيلة. لدينا سبعة أشقاء آخرين، لذا توجب على سيتيثان أن يقتلني ليحمي أمنا وأبانا وأشقاءنا وشقيقاتنا".

صحت في وجهه وأنا متفاجئ من نفسي لشدة غضبي: "أنت تكذب، لقد قطع عهداً على نفسه أن يقتلك كي لا ينقسم البلد، وكي يبقى الشعب قوياً ومتماسكاً".

"أنا الشخص الذي تتحدث عنه. أنا من نبذ عائلته، وتمرد على قبيلته لكي يصبح الشعب حراً، وتتمكن العائلات من العيش بسلام...".

نظرت بطرف عيني، ورأيت سيتيثان ممدداً على الأرض وهناك بقعتان داكنتان على صدر سترته يتدفق منهما الدم كينبوعين صغيرين.

تابع بدرخان قائلاً: "لم يكن عدوي بل شقيقي. ليته أطلق النار عليّ بدلاً من ذلك".

كررت قائلاً: "أنت تكذب".

فأجاب بهدوء وثقة: "إنني لا أكذب. إن لم يقتلوني اليوم، فسوف يقتلونني غداً. لا يهم بالنسبة إليّ من سيفعل ذلك؛ أخي أم شخص آخر، كلاهما سيان بالنسبة إليّ. ولكن، لو قتلني سيتيثان، لأنقذ هذا عائلتنا وإخوتنا ولظل سيتيثان على قيد الحياة أيضاً".

تذكرت سلوك سيتيثان الغريب، وبدأت الكلمات التي قالها أخوه تبدو منطقية في نظري. نظرت إلى وجه بدرخان، فوجدت فيه صدقاً كالذي رأيته في عيني سيتيثان في اليوم الذي عقدنا فيه اتفاقنا. وخطرت فكرة غريبة ببالي. فكّرت للحظة واحدة أن أجعله يتنكر بشخصية سيتيثان، وبدا على بدرخان أنه يقرأ أفكاري.

فتمتم بتفاؤل قائلاً: "لو أنني فقط أحظى بفرصة جديدة...".

فقاطعته وقلت: "هذا يخطر ببالك الآن فقط، أليس كذلك؟".

"ثمة أشياء عليك أن تختبرها بنفسك لتفهمها".

أنبأني حدس داخلي أنه لا يمكنني الوثوق به، وأنه قد يقتل زعيم القبيلة في اللحظة التي أطلق فيها سراحه، وعندئذ سأصبح من يتحمل مسؤولية ما حدث.

تمتم قائلاً: "إن مت أيضاً فستخسر عائلتي ابنين من أبنائها... يجب علينا أن نوقف سفك الدماء".

صحت في وجهه بيأس: "كف عن هذا، إنني لا أثق بك".

فقال لي بصوت يدل على الاستسلام: "يفترض بك ذلك. يجب علينا أن نثق ببعضنا بعضاً. هيا، خذ مسدسي إن أردت".

قلت: "كلا، كلا، لا يسعني أن أخلي سبيلك".

نظر إلى وجهي بصمت، وبدا على وجهه يأس شخص ينتظر موته الوشيك، فتملكني ارتباك شديد. فلو أخليت سبيله، لما أدرك أحد أنه بدرخان؛ ربما خلا أمه وحدها. ومن المؤكد أنه لن يخبر أحداً بنفسه. حينها أدركت أنني بدأت أخفض ماسورة بندقيتي. لا بد أنني فقدت صوابـي، فما الذي يدفعني لإطلاق سراحه؟ لم أصبحت إرادتي ضعيفة فجأة بعد أشهر طويلة من النـزاعات الدامية؟ في تلك اللحظة، تردد صدى صوت إطلاق نار في الوكر. فتمسكت بإحكام بزناد البندقية، وألقيت بنفسي مباشرة على الأرض، وتمدد جسد بدرخان وهو يرتجف كورقة شجر في مهب العاصفة.

ثم سمعت صوتاً يقول: "لقد أرديته. لقد أرديته". فالتفت واكتشفت أن سيتيثان الذي لم يبق فيه إلا الرمق الأخير، تمكن من إطلاق الرصاص من مسدسه للمرة الأخيرة من المكان الذي تمدد فيه. وقال: "لقد أرديته ياسيدي. لا تنس ذلك. أنا من أرديته". ثم انهار رأسه مرة أخرى على الأرض. تقدمت نحوه ورأيت عينيه تنقلبان داخل محجريهما، فتحسست نبضه ووجدته ساكناً. هذه المرة، تأكدت أنه فارق الحياة. تركته والتفتُّ إلى أخيه، فوجدته ينظر إلي بتعبير مفعم بالسلام، وكأنه اتكأ على الجدار لتوه ليأخذ استراحة. ورأيت صدره ممزقاً من الرصاص. وكلّما فتح فمه، تدفق الدم من جرحه، ولكنه بدا مصمماً على محاولة قول شيء ما. فقربت أذني من فمه.

فقال لي: "قل لهم إن سيتيثان هو من قتلني. افعل ذلك. أخبرهم أن سيتيثان هو الفاعل".

التزمت الصمت. وعندما بدأ جسده يتشنج، نهضت ومضيت في طريقي إلى مدخل الوكر.

وجدت المكان في الخارج مضاء. وعندما شغلت جهاز اللاسلكي، بدأ مطر غزير بالهطول. وبعد أن بلّغت الرقيب "رشيد" بمكان وجودي، عدت إلى الوكر، وأخرجت علبة التبغ التي يحتفظ بها سيتيثان من جيبه. حالفني الحظ عندما وجدت أن الدم لم يمس علبة التبغ. فأشعلت سيجارة وبدأت أدخن. وهكذا، أصبحت مدمناً على السجائر للمرة الثانية في حياتي".

شعرت إسراء بالتأثر لسماع هذه القصة، ولكنها حاولت ألا تظهر شعورها. ومع ذلك، لم يسعها إلا أن تسأل قائلة: "إذاً، هل أنت من سلم جثتي بدرخان وسيتيثان لعائلتهما؟".

"نعم، لقد استقبلوا جثة سيتيثان بأقصى الاحترام، ولكنهم رفضوا استلام جثة بدرخان. فتم دفن سيتيثان بتشريفات عسكرية وقد لف نعشه بالعلم. أما بدرخان فقد دفن في الجبل من دون وجود شيخ ليصلي عليه أو مراسم دفن أو أي شيء من هذا القبيل".

"كم هذا محزن!".

قال النقيب وهو يطلق تنهيدة عميقة: "نعم. لسوء الحظ، هناك آلاف الحالات من هذا النوع، ولكن من يتأثرون بها بشكل مباشر هم وحدهم من يعرفون حقيقتها. هناك أناس كثيرون غير مدركين لماهية الحرب التي تخاض هنا. وأولئك الذين خسروا أبناءهم وأزواجهم وأشقاءهم، وأولئك الذين لا يزالون يقاتلون هم الذين يدركون كل ما يجري؛ أولئك الذين يمشون في أنحاء الجبال والسهول وعلى طول الجداول حيث ينتظرهم كمين في كل كهف غير آبهين بالثلوج والمطر وبرد الشتاء، أولئك الذين ينتهي بهم المطاف مشلولين أو فاقدين عقولهم، وأولئك الذين يصلون سالمين ولكن بقلب مثقل بالأسى، أولئك هم من لا ينسون ما يمرون به من تجارب قاسية. وحتى لو استطاعوا النسيان، فتلك التجارب تظل تتسرب من كل جزء من ذاكرتهم وتذكرهم بذلك الماضي المرير. أما من يشاهدون ما يجري على أجهزة التلفزيون في بيوتهم، ويقرؤون عن ذلك في أعمدة الصحف، ويتحدثون بلا انقطاع عن الحرب من وجهات نظرهم المستريحة، فأولئك لا يمكنهم فهم الأمور على حقيقتها".

كانت إسراء غافلة عن التأنيب الذي انطوت عليه نبرة صوت النقيب.

فقالت: "هذا غريب. فقد لاحظت عندما قصصت علي القصة أنك لم تفرق بين سيتيثان وبدرخان. ومع ذلك، فقد اعتبرت أحدهما إلى جانبك والآخر عدوك".

قال النقيب: "أعطيني سيجارة أخرى". وبعد أن أشعل سيجارته وأخذ

نفسين عميقين، حاول أن يشرح موقفه.

فقال: "أنت محقة. فأنا لم أكره بدرخان، كما أنني لم أكره سيتيثان، بل شعرت بالأسى عليهما معاً".

"يبدو لي أنك تحترمهما معاً، أليس كذلك؟".

"نعم، الاحترام الذي يكنه الصياد لطريدته".

"الصياد!".

"لا تسيئي فهمي. لا أقصد القول إنها معاملة متحيزة. في بعض الأحيان، ربما حتى في معظم الأحيان، تكونين أنت الطريدة. ومهما بدت الأعمال التي نقوم بها قاسية وفظيعة وغير محتملة، فنحن نقف بمواجهة بعضنا، والطرفان يضعان حياتهما على المحك. في بعض الأحيان، اعتدت أن أتكلم مع زعيمهم عبر الجهاز اللاسلكي".

"أتقصد أنك تدعوهم للاستسلام أو ما شابه؟".

"كلا، نحن نتجاذب أطراف الحديث من دون أن نلعن أو نهين أو نهدد بعضنا بعضاً، بل نثرثر عن مباريات كرة القدم أو أشياء من هذا القبيل. قد يبدو هذا هراء في نظرك، ولكنني أستطيع أن أعرف من صوت الرجل أنه يشعر بنوع من القرب مني، فأظن أنني أشعر بألفة نحوه على حدٍّ سواء. في لحظات كتلك، يصبح الإرهابي الذي أطارده ويطاردني أقرب إليّ من أي شخص آخر بعيد عن هذه الحرب".

تمتمت إسراء: "فهمت".

فجأة، التفت النقيب لينظر إلى إسراء. نظر إليها كما ينظر إلى شخص غريب وكأنه لا يعرفها على الإطلاق. فابتسمت إسراء ببراءة وهي عاجزة عن فهم المعنى الذي رأته في عيني النقيب هناك في الظلام. لم يلاحظ النقيب ابتسامتها، بل تمنى أن يسألها: "أحقاً تفهمين؟". وظل السؤال عالقاً على طرف لسانه، ولكنه غير رأيه والتزم الصمت. شعر في أعماقه بتلك البرودة التي لطالما عرفها واعتاد عليها. وأدرك أن يديه ستبدآن بالارتعاش في غضون وقت قصير. فحاول أن يخفي يديه خوفاً من أن تراهما إسراء، وأدرك أن الوقت قد حان ليعود إلى شقته.

سألها وهو بالكاد قادر على السيطرة على صوته: "هلا نعود أدراجنا الآن. فقد تأخر الوقت".

شعرت إسراء بينما أخذ النقيب يقص عليها أحداث قصته أنه عاش في تفكيره كل لحظة بلحظتها وشعر بالألم والخوف والقلق والندم نفسها من جديد. فتدفق في أعماقها شعور يجمع بين التعاطف والشفقة والحب

للنقيب. ولو استطاعت لأخذت هذا الجندي الجالس بجانبها بلباسه الموحد ومسدسه على خصره واحتضنته وكأنه طفل صغير استيقظ من كابوس مرعب، ولخففت عنه وقالت إن كل ما جرى قد طواه الماضي الآن. ولكنها لم تستطع أن تجبر نفسها على فعل شيء سوى الموافقة على كلامه قائلة: "نعم، دعنا نعود الآن". فالنقيب لم يشأ أن يجعلها شريكة له في قلقه ومخاوفه ومتاعبه.

á á á

اللوح الثامن

في الوقت الذي اعتلى فيه بيزيريس العرش، استولت عليّ اهتمامات الشباب المبكرة، وحاولت التعامل مع ذلك التوتر المستمر الذي سيطر على جسدي. وبالرغم من أن والدي حاول أن يعزلني عن أي مواضيع أخرى، ويمسك بعنان رغباتي بيديه بصرامة، فقد باتت النساء يحتللن اهتمامي الوحيد، وهذا جعلني كحصان جامح تجذبه رائحة الأفراس. في الماضي، رأيت بأم عيني العاطفة الكبيرة التي شعر بها جدي ميتانوا نحو زوجته ماشتيغا. فليسامحني، ولكن يجب أن أعترف أنني تأثرت بعمق لرؤية قوام ماشتيغا الفتي الجميل وخطوطه التي تظهرها ملابسها الثمينة. وبالرغم من أنني أدركت كلياً أن أفعالي آثمة، وأنها لن تمضي بلا عقاب، وأنها تدل بشدة على عدم الاحترام، فعندما كنت أستلقي في سريري، لم أستطع أن أمنع نفسي من التفكير بماشتيغا.

ذات ليلة، راودني حلم غريب بأنني ميتانوا. فقد ظل جسدي هو جسدي نفسه، ولكنني أصبحت ميتانوا. رأيت نفسي في غرفة باردة في الطابق السفلي من بيته ذي الطابقين. كنت أتمتم أغنية آرامية وأنا مستلق في السرير الكبير على ظهري حيث اعتاد جدي أن يأخذ قيلولته في منتصف اليوم. وفي تلك اللحظة، لاحظت وجود شخص يراقبني. فالتفت ورأيت عيني ماشتيغا المخططتين بالكحل الأسود تحدقان إلي. فبدأ قلبي يدق، ولكنني استطعت مع ذلك أن أبتسم للمرأة الجميلة. لم ترد لي ماشتيغا الابتسامة بمثلها، بل اقتربت مني بهدوء كالماء المنساب بلطف أو كالنسيم العذب. وجلست إلى جانبي. حاولت أن أنهض لأقترب منها، ولكنها دفعتني إلى الخلف على السرير. بدت واثقة جداً من نفسها؛ وكأنها أمي أو كأنها مولاتي العظيمة كوبابا. إن ما يفاجئ في الأمر هو أنني سررت كل السرور لفعلها هذا. فقد سحرتني بعينيها وبلمساتها. نظرت إليها بطرف عيني وأنا في غاية البهجة، ولكنني شعرت بالخزي من النظر إلى نفسي. رأيت عيني ماشتيغا تنظران إلي والدم يتوهج في خديها الأحمرين. فحاولت أن أجلس مرة أخرى، ولكنها منعتني، بل دفعتني إلى الوراء بلمسة آمرة، وثبتتني على السرير. وعندما فتحت عيني، تنفست الصعداء عندما اكتشفت أن كل ذلك مجرد حلم. جلست في سريري، وتملكني خزي شديد من نفسي، ثم نهضت بسرعة واغتسلت. وفي اليوم التالي، ذهبت إلى المعبد وتوسلت السماح. ومنذ ذلك اليوم فصاعداً، بت أحرص على عدم النظر إلى

ماشتيغا أو التواجد معها في مكان ما وحدنا من دون وجود ضرورة ملحة لذلك، ولكنني لم أستطع أن أمنع نفسي من الاحمرار خجلاً كلما رأيتها. وأدركت الشابة ذلك، فقد رأيتها عدة مرات تنظر إلي بعينيها الكحيلتين. فأبهجني هذا وأخافني في آن معاً. أبهجني لأن امرأة جميلة نظرت إلي باهتمام، وأخافني لأن تلك المرأة ليست إلا زوجة جدي.

بعد أن هربت ماشتيغا، بدأت أبدي اهتماماً أكبر بالنساء والفتيات. فلم أستطع أن أمنع نفسي من التحديق إليهن. وذات يوم، خرجت للسباحة في نهر الفرات مع بيرفا، وهو صديقي وابن جارنا ويكبرني بثلاث سنوات، والذي اعتدت الخروج بصحبته للصيد. فبدأ يحدثني عن الفتيات. حاولت أن أغير الحديث، ولكنه أصر على الاستمرار. فقال لي إنه أصبح من الطبيعي بالنسبة لنا أن نبدأ بالعثور على نساء لنفسينا. فسألته: كيف ذلك؟ فقال لي إنه يدفع لإحدى جاريات عائلته ربع قطعة نقدية مقابل خدماتها، وبهذا الشكل استطاع أن يمضي عدة ليال بصحبة تلك المرأة. فرفضت عرضه. حاول بيرفا أن يقنعني وهو يشيد بجمال تلك المرأة وشبابها، ولكنني لم أستطع أن أجبر نفسي على مغازلة امرأة لا تتورع عن فعل الفعل نفسه مع الجميع مقابل المال، وهي فوق ذلك مجرد جارية. فقال بيرفا: "إذاً، عليك أن تنتظر حلول احتفالات السنة الجديدة". فسألته: "السنة الجديدة؟! ماذا تعني؟". فواصل بيرفا السخرية مني وهو يقول: "أنت فعلاً لا تعرف أي شيء، أليس كذلك؟ في احتفالات السنة الجديدة، تقوم جاريات المعبد بتقديم خدماتهن طوعاً من أجل كوبابا. ويحق للجميع الدخول إلى المعبد والاستمتاع بصحبتهن على حد سواء، ولكنهن يخترن بأنفسهن الشخص الذي يردن الجلوس بصحبته. وأنت شاب قوي ومن أسرة نبيلة... فمن تظن أنهن سيخترن إن لم يخترنك أنت؟".

كنت أعرف أيضاً أن جواري المعبد يقمن بهذا العمل في المناسبات، ولكن لم يخطر ببالي أن يأتي يوم أستفيد فيه من هذه الخدمات، وهذا ربما عائد لتعليمي الصارم. فقد تدربت على استخدام ما تعلمته لخدمة مصالح الملوك. وبحسب ما تعلمته وعرفته طوال حياتي، فإقامة الاحتفالات لا تكون لإشباع رغباتي الخاصة، ولكنني وجدت صعوبة في تفسير هذا للرغبة التي تأججت في صميم أعماقي. وهكذا، فقد استغرقت في يأس رجل غير قادر على كبح جماح نفسه، وأنا أنتظر حلول احتفالات السنة الجديدة بفارغ الصبر.

á á á

الفصل التاسع

راقبت إسراء تطور الأحداث بعجز. وقد وجدت نفسها عاجزة عن كشف حقيقة مقتل الحاج عبد الستار، بالإضافة إلى عجزها عن جعل الرجل الذي أعجبت به يفتح لها قلبه. في تلك الليلة، ظنت أن الجدار السميك الذي يحول بينهما انهار؛ عندما بدأ النقيب يحدثها عن تجاربه الماضية، ولكنه سرعان ما أعاد بناء ذلك الجدار مرة أخرى فجأة، ومن دون حتى أن تسنح لها الفرصة لتدرك ما يجري. ومع ذلك، فالأسوأ من كل شيء هو أنها لم تستطع أن تجبر نفسها على الغضب منه لما فعله. إذ بعد أن شاطرها تلك القصة المأساوية، جردها من آخر سلاح دفاعي بقي لديها، وهو غضبها. فالرجل الذي مر بتلك التجارب القاسية شخص يحتاج إلى أن تقدم له المساعدة لا أن تجعل منه هدفاً لغضبها. ولكن هذا الرجل رفض أن يسمح لها بمساعدته. أرادت إسراء أن تتعرف على النقيب وتتقرب منه، ولكن حتى المعلومات الأولى التي عرفتها عنه لم ينتج عنها سوى طريق مسدود. ربما لم يكن يثق بإسراء بما يكفي. فقد اعتبرها واحدة من الناس الذين يفرضون رأيهم عن الحرب عن بعد مريح من دون أن يجربوا عيش تجاربها القاسية. ولم يكن مخطئاً تماماً في ذلك الصدد. ولكن، هل يجب على المرء أن يتوجه إلى الجبال ويشارك في المعارك حتى يحق له التطرق إلى موضوع الحرب؟ ألم تشعر هي أيضاً بالآثار السلبية لهذه الحرب اللعينة التي كلفت آلاف الأرواح وخيمت على هذه البلاد كغيمة سوداء؟ تمتمت لنفسها بحزم قائلة: "بالطبع لدي كل الحق في التحدث في هذا الموضوع كما يتحدث هو". ومع ذلك، فقد أدركت أن هذا شيء يمكنها أن تشرحه لشخص عادي، لا لرجل يتقلب مزاجه في أية لحظة ويهرب من المحادثة عندما تصل إلى لحظتها الحاسمة.

راحت تلك الأفكار تجول بخاطرها بينما جلست تحت التعريشة. لاحظت أن "خلف" الذي غادر ليوصل النقيب إلى شقته قد ترك مصباح المطبخ مضاء. في وقت آخر، ربما كانت ستطفئه على الفور، ولكنها في تلك اللحظة بالذات شعرت أنها غير قادرة على التحرك قيد أنملة. لم تعد ترى أحداً من أصدقائها بالجوار. فقد ذهب تيموثي ليعمل على ترجمة الألواح، بينما ذهب كمال إلى غرفة إيلاف ليناقش معها علاقتهما، واستغرق كل من مراد وتيومان في نوم عميق. وكان مصباح غرفة بيرند مضاء، حيث يعمل بجد كعادته كل ليلة على أطروحته للماجستير بعنوان "الآثار المدمرة لتطور

الحضارة في بلاد الرافدين". فكرت إسراء: "ينبغي أن أذهب للعمل مع تيموثي". فقد خطر ببالها أن الانغماس بعملها ربما سيمنع عقلها من الاسترسال في هذه المواضيع المعقدة. لطالما تحدث والدها السيد سليم، وهو دكتور في علم الفلسفة عن أسلوب التفكير الصحيح. ولكن، هل توجد فعلاً مثل هذه الطريقة في التفكير؟ ربما يتوفر ذلك فقط عن طريق الكمبيوترات المتقدمة. ففي الحياة اليوم، ومع كل مسألة يتم حلها، تنشأ مشكلة أخرى على الفور، وما هو صحيح يمكن التوصل إليه فقط من خلال عملية تتضمن سلسلة من الأفكار. وهذه العملية يجب أن يتم تكرارها لكل سؤال ومشكلة. والأهم من ذلك هو أن النجاح لا يمكن ضمانه بنسبة مائة بالمائة. لا بد أنّ والد إسراء "سليم" أدرك أن هذا صحيح، ولكنه مع ذلك استمر بالتأكيد على أهمية التفكير الصحيح. فهناك عبارة أخرى اعتاد أن يكررها، وهي: "لا تضعي نفسك في مركز الأحداث ياابنتي. إذ لا يمكنك أن تحلي جميع المشاكل وأن تتواجدي في كل الأماكن في الوقت نفسه". لم يكن والدها من محبـي الأحاديث الفارغة، ولكن هل هناك فعلاً ما يدل على معرفته ما يتحدث عنه؟ فلو أنه تمكن من إتقان التفكير الصحيح بنفسه، فلماذا هجر والدتها ليعيش مع امرأة في عمر ابنته. تمتمت لنفسها قائلة: "ما علاقة هذا بالتفكير الصحيح؟ المسكين وقع في الحب". مع ذلك، فقد اعترف والدها بنفسه أنه لا علاقة للحب بالتفكير الصحيح أو المنطق. أو بالأحرى، للحب منطق خاص به، وهذا المنطق لا علاقة له بالتفكير السليم، فهو منطق تحكمه العواطف التي تعتبر عملية معقدة ومختلفة تشتت العقل وتضلله وتحرفه عن مساره. لقد أحب والدها والدتها ولم يكن يطيق البعد عن إسراء، ولكن كل شيء تغير عندما دخلت نيلغون حياته. تذمرت إسراء لنفسها قائلة: "كل هذا بات من الماضي الآن". ووجدت أنه من الأفضل لها أن تفكر في شؤونها الخاصة، وتحل مشاكلها بدلاً من معاقبة والدها. فأياً يكن الأمر، فهي بدورها انفصلت عن زوجها أورهان، كما أنها أصرت على الانفصال من دون أي اعتبار للتنازلات التي قدمها أورهان أو للجهد الذي بذله في سبيل مصالحتهما. فكّرت في سرّها: "ولكنني لم أنهِ زواجي بسبب حب آخر". فهما لم يستطيعا الاستمرار لمدة أطول، ووصل بها الأمر إلى مرحلة أصبح فيها كل شيء يقوم به أورهان يزعجها، وذلك لأن حبه لها لم يكن صادقاً. أليس عدم الصدق بحد ذاته نوعاً من انعدام الحب؟ ثم تأتي المسألة المتعلقة بالنقيب أشرف...

بينما تدفقت أفكارها نحو عدم الاستقرار كغصن زيتون بري جرفه تيار نهر الفرات، سمعت صوت خلف وهو يترجل من سيارة الفان. ارتسمت ابتسامة دهشة على شفتيه لدى رؤيته رئيسة مهمة التنقيب عن الآثار جالسة هناك تحت التعريشة.

"هل من مشكلة ياسيدة إسراء؟ في مثل هذا الوقت، تكونين عادة في غرفتك".

نظرت إسراء إليه بامتنان، وأعجبت بأسلوبه السلس السهل الذي يمكّنه من العناية بكل أفراد الفريق.

"كلا، أردت الجلوس هنا لبعض الوقت".

"فكرة جيدة. هل أعد لك بعض الشاي؟".

"كلا، شكراً لك".

"إذاً لماذا لا أعد لك بعض القهوة؟".

فقالت إسراء: "حسناً". لم يكن مزاجها في الواقع يسمح لها بتناول القهوة، ولكنها لم ترغب بجرح شعور خلف. فأضافت قائلة: "إذا رغبت بشرب القهوة معي".

تأملت إسراء "خلف" وهو يتوجه إلى المطبخ. كان مدير معهد علم الآثار في غازي عنتاب، وصديق كمال السيد رستم قد نصحاها بتوظيفه. فقد سبق له أن عمل بالطهي وقيادة السيارة وقام بأعمال أخرى في موقع للتنقيب عن الآثار قام بإدارته علماء آثار من أنقرة. وسُرَّ الفريق في أنقرة سروراً كبيراً من عمله. كان خلف طاهياً محترفاً. فقد عمل في أشهر المطاعم في غازي عنتاب، واسمه إمام كاغداش، قبل أن يغادر لأداء الخدمة العسكرية. وحالما أنهى الخدمة، ذهب إلى إسطنبول وتابع مهنته في مطعم يدعى مطعم بدر. وبالإضافة إلى معرفته بمطبخ غازي عنتاب الشهي المكون من الأطباق العربية والكردية والتركية، فقد سنحت له الفرصة أيضاً أن يتعلم طهو أطباق تعود إلى كل المناطق التركية تقريباً. ومع ذلك، فعندما أقدم أحد زملائه، وهو كبير الطهاة كارا نوري من أورفا، على توجيه كلام مسيئ لشرفه، سحب السكين التي يستخدمها لفصل اللحم عن العظام، وسدد لذلك المزعج العجوز ثلاث طعنات في أماكن مختلفة من جسده. خرج من السجن بعد أن أنهى حكماً قضى بسجنه سنة واحدة، ولكنه لم يعد يرغب بالبقاء في إسطنبول بعد ما حدث، بل عاد أدراجه إلى غازي عنتاب. ولسوء الحظ، لم يعثر على ضالته المنشودة في مدينته الأصلية أيضاً لأن الطهاة الذين اعتاد العمل معهم عرفوا بموضوع دخوله إلى السجن

فرفضوا توظيفه؛ ظناً منهم أنه لن يأتي لهم سوى بوجع الرأس. هكذا، انتهى به المطاف وهو يقوم ببعض الأعمال الصغيرة هنا وهناك، ثم بدأ الذهاب إلى مواقع التنقيب عن الآثار في الصيف بفضل السيد رستم. فدفعوا له مبالغ جيدة. والأهم من ذلك، لقد وجد الناس الذين عمل معهم أشخاصاً متفهمين ويعاملونه معاملة حسنة.

سرت إسراء بدورها من خلف. فقد وجدته محترماً ونظيفاً وشريفاً، والأهم من كل ذلك وجدته مجداً في عمله. ورغم لهفته التي تصل في بعض الأحيان إلى حد التدخل في شؤون الآخرين، فهو لم يصرّ قط على تولي أي مهمات في المخيم، ولطالما هب لمساعدة كل من يحتاج إلى العون.

بعد عشر دقائق، عاد خلف وصب القهوة التركية الغنية بالفقاقيع في فنجانين صغيرين. وبينما هو يحضر كوبين من الماء، أخذت إسراء رشفتها الأولى من قهوتها.

وقالت: "سلمت يداك. إنها لذيذة".

أجاب الطاهي الشاب: "ليست كالقهوة التي نعدها في غرفنا، ولكنها تفي بالغرض".

"ماذا تعني بالقهوة التي تعد في غرفكم؟".

"إن تلك الغرف موجودة في قريتي، قرية باراك. أولئك الذين يستطيعون تحمل الكلفة هم وحدهم من يقيمون سهرات الغرف. أما الغرف، فهي عبارة عن أماكن يجتمع فيها الرجال للحديث والتسلية. تتم تسلية الضيوف الذين يصلون إلى القرية في تلك الغرف، كما يتم طهي وجبات جديدة كل يوم، بينما يتحدث الجميع عما يدور في القرية من أحداث".

تمتمت إسراء: "إنه نوع من الاجتماعات أشبه بتلك التي كانت تقام في المدن الرومانية".

لم يفهم خلف ما تقصده إسراء بتلك الاجتماعات، لذا رمقها بنظرة غريبة وتابع سرد قصته.

"يتم اصطحاب الصبية المراهقين إلى هناك أيضاً لتعليمهم التقاليد والسلوك الملائم. لقد تعلمت في تلك الغرف. إن القهوة التي يتم إعدادها في تلك الغرفة أقوى بكثير من هذه، ولها طعم مختلف. شرب فنجان واحد منها ينهي أمرك! فهي تعادل خمسة فناجين من هذه".

"هذا مثير للاهتمام. ينبغي علينا أن نـزور قريتك في وقت ما".

قال خلف بلهفة: "متى شئت ياسيدة إسراء، هذا من دواعي سروري.

ولكن الأشياء التي أخبرتك عنها حدثت قبل عشر سنوات. لا تزال توجد غرف اليوم، ولكنها لم تعد كما كانت في الماضي. فالبيوت تحتوي على أجهزة تلفزيون الآن. وبدلاً من الذهاب إلى الغرف، يجلس القرويون في البيوت ويشاهدون التلفزيون".

فتذمرت إسراء شبه مازحة: "على هذه الحال، ضاعت علينا القهوة".

"كلا. لا يزال هناك أشخاص يعدون القهوة المرة. سنذهب إلى رشيد الكردي، فهو أستاذ في إعدادها".

"صحيح، ياخلف. صباح اليوم أخبرت النقيب أنك كردي، ولكن على حد علمي، سكان قرية باراك من أصل تركماني".

"أنت محقة ياسيدة إسراء. فسكان قرية باراك من التركمان، ولكن هناك الكثير من الاختلاط بين الأعراق. فقد حدث الكثير من الزيجات المختلطة، لذا أصبحوا جميعاً أقارب. التركمان يختلطون بالعرب، والعرب يختلطون بالأكراد، ولكن تقاليد باراك لم تختف".

فكرت إسراء: "كالحثيين قبل آلاف السنين. ألم يختلطوا مع الآراميين وغيرهم؟ إذاً، يبدو أن بعض العادات لم تتغير في هذه المناطق".

تابع خلف حديثه قائلاً: "إن جدي الأكبر شعبان آغا ينحدر من أورفا؛ أي من أصل كردي، ولكنه قتل شخصين في شيفيريك ثم هرب. حدث ذلك في الفترة العثمانية. كان شعبان آغا رجلاً قوياً ومغواراً. في البداية كان جندياً، ثم أصبح ضابطاً عثمانياً. أياً يكن الأمر، لم يكن ليتمكن من العيش هنا لولا أنه ضابط في الجيش. فالجميع ينتمون لقبيلة ولا يتقبلون وجود الغرباء بسهولة، ولكن عندما أصبح ضابطاً عثمانياً تغير كل شيء. فقد أصبحت القبائل تخشاه وتحترمه. تزوج شعبان آغا أربع نساء من باراك وأنجب أطفالاً منهن، واشترى أرضاً من العثمانيين، واستمرت سلالته إلى الآن".

سألته إسراء بعد أن تذكرت شكوك النقيب: "هل انضم أحد من قريتك إلى الانفصاليين؟".

فأجاب خلف بنبرة صوت تدل على الانـزعاج: "هناك واحد منهم". وبدا من الواضح عليه أنه لا يستريح للتحدث بذلك الموضوع، ثم قال: "إنه كمال بن عيوش . لقد ذهب إلى الجبال قبل عامين ثم أعيدت جثته في الشتاء، ولكن جنديين آخرين من قريتنا تعرضا لإطلاق النار ولقيا حتفهما، وهما فريد بن دون المجنون ومحمود بن هاكو". ثم بدا عليه الاستغراق في التفكير، ولكنه عندئذ رفع رأسه ليسألها قائلاً: "هل تظنين

أنت والنقيب أن الانفصاليين هم من يقفون وراء هذه الجريمة؟".

"لا أظن ذلك، ولكنني أتفهم وجهة نظر النقيب. فقد عانى الكثير من التجارب القاسية".

"لقد عانى الكثير، ولكنه يفكّر بطريقة خاطئة. لا يوجد أي انفصاليين أو أي شيء من هذا القبيل هنا. ولو أن وجودهم هنا صحيح لدمروا المخفر، وأطلقوا النار على حراس القرية. ما الذي قد يدفعهم لإلحاق الأذى برجل دين مثل الحاج عبد الستار؟".

"من أين لك أن تعرف؟".

"إن أحد أبناء القبيلة، واسمه محمود، موجود في الجبال الآن. يقولون إنه قائد عسكري. هذا المدعو محمود جمعته علاقة بالحاج عبد الستار عندما كان صغير السن. استغرق في الأمور الدينية لمدة من الزمن قبل أن ينتهي به المطاف في ديار بكر، وهناك تغيرت طباعه، ولكنه ظل يكن احتراماً كبيراً للحاج عبد الستار. قبل أن يغادر إلى الجبال، اعتاد أن يمر بمنـزله كلما حضر إلى هنا، ويقبل يده، ويطلب بركته قبل أن يفعل أي شيء آخر. ما أعنيه هنا هو أنه ليس هناك سبب يدعو الانفصاليين لاستهداف الحاج عبد الستار".

قالت إسراء وهي تتنهد بحيرة: "لا أعرف. حسناً، ماذا عن فياض؟".

"أتعنين "فياض" الذي ضربته؟".

"ربما ليس هو بالتحديد، ولكن أولئك الذين يدعمونه كالحاج عابد على سبيل المثال".

ردّ عليها خلف بازدراء: "لو أن الحاج "عابد" رجل حقيقي، لعمل أولاً على استعادة شرفه المهدور. فشقيقته الكبرى بلقيس التي تعيش في قرية غوفين عشيقة لرشيد آغا منذ سنوات عدة، ورشيد آغا يتردد على بيتها كما يحلو له".

"أليس لبلقيس زوج؟".

"إنه في ألمانيا. وهو لا يتصل بها أو يسأل عما تقوم به، لذا فالمرأة مهجورة كما تلاحظين. لو أن الحاج "عابد" رجل لما ترك أخته تصبح على علاقة برشيد آغا...".

لم ترَ إسراء رشيد آغا من قبل سوى مرة واحدة. بدا أنه في العقد الثالث من العمر، داكن البشرة، وقصير القامة، ومستدير الوجه. ولطالما اعتاد أن ينظر إلى الآخرين من الأعلى إلى الأسفل، وكأنه يقيسهم بعينيه ليعرف إن كانوا أصدقاء أم أعداء.

تابع خلف كلامه قائلاً: "يا سيدة إسراء، هؤلاء الناس غير قادرين على الضلوع بعمل من هذا النوع. فهم ليسوا إلا طماعين جشعين. عندما تقام جنازة فيها وليمة، أو حفل ولادة فيه توزيع للشراب المحلى، تجدينهم يهرعون إليه".

"ولكن "فياض" لم يتردد في قطع كل تلك المسافة إلى هنا ليهددنا".

"لقد دفعه ميميلي الأعرج للقيام بذلك، وإلا ففياض ليس من النوع القادر على القدوم إلى هنا من تلقاء نفسه".

"إذاً، من الذي قتل الحاج عبد الستار؟".

"شهموز، ومن غيره؟".

"لقد سمعت ما قاله النقيب".

"نعم، ولكنني أظن أن الأمر حدث كما قال السيد كمال. أولاً، وضعا القطع الأثرية في البستان، ثم أرسل شهموز "بكر" في طريقه، وتوجه إلى المسجد".

"ألا يعتبر ارتكاب جريمتين في يوم واحد مخاطرة كبيرة؟".

"شهموز لا يهاب المخاطر. وربّما عندما لاحظ أن شيئاً لم يحدث عندما سرق القطع الأثرية، قال لنفسه: "لِمَ لا أذهب وأقضي على الحاج عبد الستار اليوم طالما أن الفرصة سانحة؟".

عندئذ سألته إسراء: "برأيك، بمن يشك سكان القرية؟".

"لو أننا ذهبنا إلى البلدة اليوم لعرفنا كل شيء".

"سمعت أن هناك من يقول إن الجريمة ما كانت لتحدث لو أننا لم نأتِ إلى هنا، ونحفر عند الضريح الأسود".

"أتقصدين عصابة ميميلي الأعرج و"فياض". لا أحد غيرهم يقول ذلك، ولكن السكان لن يصدقوهم لأنهم يعرفون أي نوع من الناس هو ميميلي الأعرج، وكذلك حلقة تدريس القرآن التي يشرف عليها".

"ألا تظن أنهم سيضغطون علينا لوقف مهمة التنقيب عن الآثار؟".

"من قد يفعل ذلك؟ إنهم لا يتمتعون بالشجاعة الكافية. وبالإضافة إلى ذلك، أنتم لا تنبشون الضريح الأسود، بل تنقبون على بعد عشرين متراً منه. وأياً يكن الأمر، فليس لدى أحد أي سبب للاعتراض حتى لو قمتم بحفر الضريح نفسه".

قالت إسراء والصدمة بادية على وجهها: "هل أنت واثق مما تقوله؟".

"بالطبع أنا واثق. كل تلك الأحاديث عن احترام الضريح الأسود والخوف منه مجرد شيء من الماضي. أما الآن، فالجميع مهتمون فقط

بأسرع طريقة لكسب المال. هنا الأرض وفيرة وخصبة، ومن النادر أن تجدي شخصاً لا يملك حقلاً، وهذا هو السبب في أننا نجد صعوبة في العثور على عمال يساعدوننا في التنقيب عن الآثار. فلا أحد يريد أن يتورط في مشاكل مع الحكومة".

"وهل نحن الحكومة؟".

"نعم، أنتم الحكومة. ألستم على علاقة وثيقة بالنقيب أشرف؟ لا تقلقي أبداً. فلا أحد سيمسكم بسوء".

"مع ذلك، ليس هذا ما يقوله النقيب...".

"إن النقيب رجل غريب ياسيدة إسراء. سأبوح لك بسر. لقد بدأ الجنود يطلقون عليه لقب أشرف المجنون".

أدرك خلف الخطأ الذي ارتكبه، فتراجع خطوة إلى الوراء وقال: "لا تغضبي ياسيدة إسراء، فهذه مجرد أقاويل. ليس هذا رأيي، فأنا أنقل لك ما سمعته من الجنود".

قاطع صوت مفاجئ محادثتهما: "انظروا إلى ما لدينا هنا! لم أعرف أن هذا موعد شرب القهوة!".

وقف تيموثي على بعد بضع خطوات منهما، وهو يهز رأسه متظاهراً بالغضب.

فقال خلف وهو ينهض على قدميه: "ظننتك قد خلدت للنوم. من فضلك، دعني أعد لك فنجاناً على الفور".

تقدم الأمريكي من الطاهي الشاب وهو يبدو أطول من خلف، وربت على كتفه بود، وقال: "إنني أمزح. فالقهوة التركية جيدة بعد الغداء، ولكن إن شربتها قبل النوم فلن تتمكن من النوم".

التفت خلف ورمق إسراء بنظرة خجولة، وقال: "إن لم يكن لديك شيء آخر تقولينه لي، فسأذهب وأغسل الصحون".

جعل التعبير الكئيب الذي بدا على وجه خلف إسراء تدرك أنها عاملته بقسوة.

"شكراً لك عزيزي خلف على القهوة اللذيذة. وشكراً لك أيضاً على حديثك الممتع".

لمعت أسنان خلف البيضاء بسعادة في وجهه الملفوح من الشمس. فحمل الفنجانين الفارغين وتوجه إلى المطبخ.

جلس الأمريكي على كرسي مقابل إسراء. ففكرت إسراء في سرّها: "يا له من رجل وسيم!". لم تجد صعوبة في فهم موقف إيلاف، فما يثير

الاستغراب في الأمر هو انجذابها هي للنقيب أشرف وليس لتيموثي. لطالما فكّرت أن الحب نابع من الحاجة للحب، فهي فلم تشعر عند أول لقاء جمعها بتيموثي أنه يحتاج إلى أي كان. ولكن، هل هذا صحيح فعلاً؟ ألا يمكن أن يحتاج الإنسان إلى الآخرين مهما تحلى بالقوة؟ ربما، ولكن تيموثي بكل تأكيد لم يبدُ من هذا النوع. يمكن للمرأة أن تقضي وقتاً ممتعاً مع تيموثي، ولكن من دون الانغماس معه في أي علاقة جادة. ولكن، ماذا عن النقيب أشرف؟ لم تستطع معرفة سبب تعلقها الشديد به. ترى، ما الذي جعل هذا العسكري الذي عانى من تجارب الحرب ومحنها يحدث هذا التأثير المميز فيها، ويثير انفعالاتها الكامنة. لم يكن لديها وقت للحب والرومانسية، فقد أتيحت لها فرصة مدهشة في مهنتها بعد أن اكتشفت شيئاً هاماً في أول مهمة تنقيب عن الآثار تشرف عليها. ويجب أن يشكل هذا الاكتشاف في نظرها أهمية كبيرة؛ أكثر من أي شيء آخر، ولكن انشغالها به لم يمنعها من الاهتمام بالنقيب. رن صوت والدها في أذنيها عندما قال: "لا تضعي نفسك في مركز الأحداث، لا يمكنك أن تحلي كل شيء، ولا يمكنك أن تتواجدي في كل مكان في الوقت نفسه". ربما هذه هي مشكلتها الأساسية. فعلى الرغم من سلوكها الحازم ومظهرها القوي، فقد ظلت تعاني من افتقار عميق للثقة بالنفس، وهذا ما دفعها للسعي لإثبات جدارتها وإقناع الجميع بمدى قوتها وبراعتها في العمل.

قال تيموثي بصوته المفعم بالفضول مقاطعاً تركيز إسراء: "يبدو أن هناك ما يشغل بالك، أليس كذلك؟ ليس من عادتك الجلوس هنا في هذه الساعة من الليل".

"كلا، لا شيء. إنني أستمتع باستنشاق الهواء المنعش ليس إلا".

"ومع ذلك، فقد يصبح الطقس بارداً في بعض الأحيان. احرصي على ألا تصابـي بالبرد".

"تبدو كواحد من السكان الأصليين. فأنت تعرف المنطقة أكثر مما أعرفها أنا؛ بالرغم من أنك أمريكي".

"هناك أستاذ في جامعة ييل، اسمه السيد فايس، اعتاد أن يقول إنه ليس لعلماء الآثار وطن. فشعاره الدائم في الحياة هو: وطنك هو المكان الذي تعمل فيه . لقد عملت في العراق قبل عشر سنوات، وهذا ما جعل منه وطني وقتها، وها أنا أعمل هنا اليوم، وبالتالي فتركيا وطني".

"ومع ذلك، لا بد أن هناك أوقاتاً تفتقد فيها بلدك الأصلي وكل شيء فيه".

"بكل تأكيد. في بعض الليالي، أفكر بنيو هافن، وأفتقد ليالي الصيف تلك التي اعتدت أن أمضيها هناك مع عائلتي. إن ليالي الصيف هناك شديدة الحرارة، فهي تمتاز بالحرارة والرطوبة. في بعض الأحيان، كان نسيم عليل يهب من المحيط على بيتنا المكون من طابقين، ويجعل جرس الرياح الذي علقه والدي على الشرفة يرن رنيناً موسيقياً جميلاً. وفي بعض الليالي، حتى أثناء وجودي هنا، لا أزال أسمع ذلك الرنين العذب".

"ألا تزال عائلتك تعيش في نيو هافن؟".

هز تيموثي رأسه بحزن وقال: "لسوء الحظ، فارق والداي الحياة".

"إنني آسفة".

قال تيموثي وهو يبدو مستغرقاً في تفكير حزين: "وأنا أيضاً. ولكنني عندما أفكر في الأمر ملياً، أدرك أنه ليس من الحكمة أن أشعر بالحزن. فقد عاشا حياة طويلة وسعيدة. كان من الممكن أن يموت والدي في الحرب العالمية الثانية، وأن تسقط والدتي ضحية إحدى الهجمات المتصاعدة من الخارجين على القانون في الشوارع. حمداً لله أن أياً من هذا لم يحدث. فقد عاش والدي ووالدتي في علاقة حب قوية إلى أن بلغت أمي الحادية والسبعين ووالدي الخامسة والسبعين، وماتا معاً في حادث تحطم طائرة. إن الأمنية الوحيدة التي لم يحققاها في حياتهما هي أن يحملا أحفادهما".

"ليس لك أي أطفال، أليس كذلك؟".

فقال تيموثي: "لا". وبعد أن خيم الصمت لفترة وجيزة، غيّر الموضوع مكسباً صوته الآن نبرة جادة، وقال: "لقد تفحصت اللوحين اللذين أحضرهما النقيب".

"هل هما متضرران؟".

"كلا، إنهما مكسوران ومهشمان هنا وهناك، ولكن الكتابة عليهما لا تزال مقروءة. على الأقل، يمكننا أن نعرف ماذا كتب عليهما".

"يسرني سماع ذلك. فقد تملكني خوف شديد من أن تبقى قصة باتاسانا غير مكتملة".

"أشك في أنها ستبقى غير كاملة. فمن المؤكد أن الألواح الباقية ستظهر عما قريب".

"هناك شيء آخر يثير قلقي أيضاً، وهو أن الألواح ليست آمنة بما يكفي في قبو المدرسة".

"هل تخشين أن تتعرض للسرقة؟".

"هذا صحيح. ولكنني في الواقع أخشى أكثر أن تتسبب الظروف المحيطة بها بإتلافها".

"ليس هناك ما تخشينه. فالباب متين ومحكم الإغلاق. وبالإضافة إلى ذلك، أنا أشك في أن هذه الألواح التي صمدت ما يقارب ألفين وسبعمائة سنة ستفسد في غضون أسابيع. ولكن هذا القبو ليس شبيهاً بمكتبتنا في باينيك بالرغم من أنه مظلم تماماً وبارد بما يكفي".

"مكتبة باينيك؟".

سأل تيموثي بصوت يدل على الدهشة كصوت إسراء: "ماذا؟! أتعنين أنك لم تسمعي بها من قبل!؟".

فقالت بصوت قاس وكأنها تتساءل عما يمكن أن يكون ملحاً إلى هذه الدرجة حيال هذه المعلومة: "كلا، لم أسمع بها".

أدرك تيموثي أن الشابة قد شعرت بالإهانة من رد فعله فقال: "أرجو المعذرة. لم أقصد أن أدعي معرفة كل شيء، ولكنّ مكتبة باينيك مشهورة إلى حدٍّ ما، لذا ظننت أنك على الأرجح تعرفينها".

"وأين تقع هذه المكتبة المشهورة؟".

"في جامعتي؛ جامعة ييل. إنها تحتوي على أكثر الكتب والمخطوطات قيمة في العالم، كما أنها أعجوبة من أعاجيب العمارة الحديثة، فهي تتمتع بمظهر متميز بين أبنية الطراز القوطي في كليتي. فهم يستخدمون في النوافذ رخاماً رقيقاً جداً بدلاً من الزجاج لحماية الكتب والوثائق من التعرض للتلف بسبب أشعة الشمس. وبالإضافة لذلك، هناك ألواح خاصة تمنع الرطوبة وتحافظ على درجة الحرارة".

تمتمت إسراء وهي تشعر بالتأثر من الوصف: "هذا مثير".

"سأصطحبك في جولة إن أتيت إلى الولايات المتحدة ذات يوم".

"أود ذلك. فربما تحدث ألواح باتاسانا ضجة كبيرة وتدعونا جامعة ييل للزيارة، لذا لن تضطر لذلك".

قال تيموثي بصوت حالم وكأنه يتخيل ما سيحدث عندئذ: "لِمَ لا؟ من المؤكد أن هذه الألواح ستحدث ضجة. متى سيتم تحديد الموعد النهائي للمؤتمر الصحفي؟".

"لست أدري. إن هذا القرار عائد للمعهد الألماني للآثار. أعتقد أننا سنعرف في غضون يوم أو يومين، ولكن يجب علينا أولاً أن نترجم الألواح".

هز تيموثي رأسه بخجل، ثم قال: "أنت محقة. فقد أهملت العمل بالترجمة بعض الشيء، ولكنني أعدك بأن ألتزم بالعمل وأفك شيفرة هذه

الألواح طوال يوم غد".

á á á

اللوح التاسع

أيها القارئ العنيد، سأخبرك عن خزيي العظيم وفرحتي الكبرى وهما أول ما صادفته في مقتبل شبابـي. سأقص عليك قصة فخ الحب عديم الرحمة الذي يقع فيه الشاب عندما يسقط ضحية رغباته، وكيف بدأت تلك الرغبة القاتلة تزدهر في قلبـي.

بينما شعر الجميع أن ليالي الشتاء الباردة المظلمة ستمتد إلى ما لا نهاية وفقدوا الأمل في وجود أي بصيص أمل بقدوم أيام أفضل، فاجأتنا رياح مثقلة بأمطار العام الجديد، وراحت تقرع بغزارة على بوابة مدينتنا. وحالما سقطت خيوط أشعة الشمس الأولى على عتبة بيتنا، هجرت الغيوم الرمادية المائلة إلى السواد السماء، وأشرقت الشمس بأشعتها الدافئة، وعاد الفرات وفيراً غزيراً، ونبتت المحاصيل، وأزهرت البراعم على الأشجار. وبعد أن استحمت مدينتنا بالأمطار الغزيرة وتطهرت، استعدت للحياة من جديد وكأنها أميرة تنتظر تتويجها.

لم تتم إقامة حفلات السنة الجديدة في المعبد الكبير كالمعتاد بل في معبد صغير من طابق واحد في الحقول خارج بوابة الملك.

عندما باتت احتفالات السنة الجديدة وشيكة، ازددت قلقاً وترقباً لذلك اليوم الموعود. وفي تلك الليلة، لم يغمض لي جفن طوال الليل. ففي اليوم التالي، كنت سأجرب شيئاً جديداً لم أعهده من قبل، وسأقابل امرأة للمرة الأولى في حياتي. تقلبت على سريري طوال الليل إلى أن حل الصباح في نهاية المطاف بعد طول انتظار. عندما رأى والدي أنني استيقظت باكراً وأيقظت الجميع من نومهم، ظن أن عجلتي ناجمة عن بهجتي وانفعالي لقدوم احتفالات السنة الجديدة. استحممنا جميعاً، وارتدينا أبهى حللنا. ففي هذه السنة، كنت سأقف إلى جانب والدي كما اعتدت أن أفعل في السنوات الثلاث المنصرمة.

عندما وصلنا إلى القصر، رأينا الجميع منهمكين بالتحضيرات للاحتفال المرتقب. وكان الملك والملكة قد استيقظا قبل وقت طويل. فانتظر أعضاء مجلس النبلاء، ووالدي وأنا من بينهم، إلى جانب خدم القصر إلى أن يرتدي الملك والملكة ثيابهما الفخمة في الغرف المعدة خصيصاً للاحتفال، ولكن تزيينهما استغرق وقتاً طويلاً جداً.

أخيراً، خرج الملك والملكة من غرفتهما بعد أن ارتديا ملابس تلائمهما بشكل مثالي، وبدآ سيرهما بوجود خادمين وحارس أمامهما وخرجا من القصر

ثم تبعناهما. وعندما خرجا من البوابة، اتخذ الموسيقيون ذوو الملابس الحمراء مواقعهم على جانبيهما. وهكذا، بدأ الموكب الملكي بالسير نحو المعبد. وعندما انطلقنا، بدأ الموسيقيون يعزفون على آلاتهم الموسيقية، وأخذ المنشدون يرقصون ويتلون الصلوات. نظر ملكنا بيزيريس بابتسامة واثقة على وجهه إلى الراقصين وهو يتقدم الهوينا إلى الأمام. أما نحن؛ أفراد الطبقة النبيلة، فقد تبعناه بينما مشى خلفنا خدم القصر حاملين الماشية والخراف والشراب والطعام التي سيتم تقديمها كقرابين. وفي آخر الموكب، مشى عامة الناس. تقدم موكبنا المرح المتنوع عبر بوابة الملك إلى أن وصل إلى ذلك المعبد الصغير في الحقول.

في المعبد، استقبل كبير الكهنة فالفازيتي الملك والملكة أحسن استقبال. وبعد أداء الصلوات الترحيبية، دخل كبير الكهنة إلى المعبد برفقة بعض الكهنة الآخرين والموسيقيين. وفي تلك الأثناء، مشى بقية الناس في الحديقة في موكب أمام الملك والملكة مرة أخرى وهم يرددون الأناشيد. وفي تلك اللحظة، تقدم اثنان من خدم البلاط من الملك والملكة وبحوزتهما إبريقين مليئين بالماء النقي. فغسلا أيديهما بالماء، ثم دخلا المعبد. ودخل خلفهما بعض النبلاء بمن فيهم والدي وأنا. وحالما خطونا داخل المعبد، أشار كبير الكهنة فالفازيتي للكهنة أن يستأنفوا الإنشاد. فانحنى الملك والملكة احتراماً. وبعد ذلك، انحنينا نحن. وبينما اتخذ الملك والملكة مكانيهما على العرش، وقفنا إلى يسارهما ورؤوسنا منكسة بكل احترام.

وحالما تم اختتام الإنشاد، دخل كبير طهاة القصر وبحوزته قربان من اللحم المطهي جيداً. فوضع اللحم في الأماكن المخصصة له في المعبد: على الموقد وعند النافذة وعند قفل البوابة. وبعد ذلك، أخذ الوعاء الذي يبدو على شكل أسد وصب فيه الشراب وقدمه للملك. فلمس الملك الشراب بيده ثم قدم كبير الطهاة الشراب.

الآن، بدأت مرحلة أخرى من الطقوس. فقد نهض الملك والملكة عن العرش، وانحنيا احتراماً. وخرج الموسيقيون والمنشدون من المعبد. في تلك الأثناء، تم إدخال شعار الملك إلى المعبد، وهو عبارة عن عصا ذات طرف منحن ورمح ذهبي. فأخذ الملك العصا ثم جلس والملكة مرة أخرى على العرش، ثم غسلا أيديهما مرة أخرى بعد أن جلسا. وبعد ذلك، تم إدخال الطاولة إلى المعبد وهي مزينة بشتى أصناف الطعام، ثم تمرير رغيف من الخبز من يد إلى يد حتى وصل إلى أول صف خدم القصر. فقام كبير الخدم بتقسيم الرغيف إلى نصفين ثم أعيد تمرير الرغيف المقسوم من يد

إلى يد ثم إدخاله إلى المعبد.

عندئذ، بدأ الموسيقيون يعزفون على آلاتهم الموسيقية من جديد، ولكن هذه المرة من دون غناء أو إنشاد. وتم توزيع الطعام والشراب في الأنحاء. وعندما وقف الملك والملك وشربا النخب، تم طلب الوليمة. فبدت مائدتنا الملكية عامرة بتشكيلة من الطعام والشراب الفاخرين كالفاكهة المجلوبة من ضفتي نهر الفرات ولحم الخرفان والبقر والطيور والسمك وأفخر أنواع الشراب والخبز الأبيض وكل طعام يمكن لأحد أن يتخيله على الإطلاق. وبعد أن تناول الجميع طعامهم وشرابهم حتى التخمة، أشار كبير الكهنة فالفازيتي للجميع أن يقفوا.

تقدم الملك بيزيريس إلى رأس الطاولة ورفع كأسه وقال ما يلي:

"في هذا الاحتفال، أكلنا حتى التخمة وروينا عطشنا إكراماً لتيشوب. ألف شكر لك، أصلي ألا يدعنا نعاني من خسارة أجنحته الحامية المرفرفة فوق بلادنا وأن يحقق لنا الصحة الدائمة ويهزم أعداءنا. أصلي أن تعود مملكة الحثيين لعظمتها ومجدها السابقين، وأن نحكم كل أركان العالم الأربعة، وأن يمتد حكمنا في أنحاء الأرض، وأن يبقى اسمنا على ألسنة كل من يعيشون على ضفتي نهر الفرات، وأن تمتد شهرتنا في كل أنحاء العالم...".

أصغيت بعناية، ورأيت عيني بيزيريس تتقدان بالرغبة، وسمعت صوته يرتعش من فرط الانفعال. لاحظ والدي الشيء نفسه، وطأطأ رأسه بعجز وهو يطلق آهة عميقة مذعناً أمام الطموح النهم لذلك الملك الشاب.

حالما أنهى الملك خطابه، استؤنفت الأناشيد والأغاني مرة أخرى. وبعد أن انتهت الاحتفالات، انحنى عامة الشعب لتقديم احترامهم للملك والملكة ثم تفرقوا في اتجاهات مختلفة. وكان الملك والملك آخر من غادر المعبد. ولسوء الحظ، توجب علي وعلى أبـي العودة معهما تبعاً لتقليد قديم يجبر كل مسؤولي القصر بلا استثناء أن يتبعوا الملك والملكة إلى أن تصل المراسم الاحتفالية إلى نهايتها.

á á á

الفصل العاشر

في صباح ذلك اليوم، استيقظ جميع أفراد فريق التنقيب عن الآثار قبل شروق الشمس. وأضاف صوت أذان الفجر القادم من القرية شعوراً غامضاً على الأجواء. استيقظ خلف قبل الجميع، ثم أعد الشاي، وغلى الماء لإعداد القهوة للأجانب، وحضّر طاولة الفطور. وكان بيرند وتيموثي أول الواصلين. فقد ظهر تيموثي الذي لم يعتزم الذهاب إلى موقع التنقيب عن الآثار وهو لا يزال يرتدي ملابسه نفسها التي ارتداها بالأمس، بينما حضر بيرند وهو يبدو حليق الذقن معتمراً قبعته كاكية اللون. لم يكترث بيرند أدنى اكتراث لسخرية زملائه بقولهم: "هذه هي القبعة نفسها التي اعتمرها هيوغو وينكلر عندما قام بأول حملة تنقيب عن الآثار الحثية عام 906."، فهو لم يكن ليتوجه إلى الموقع من دون اعتمار هذه القبعة التي يعتبرها فعالة في حمايته من حرارة الشمس. وكانت إسراء هي التالية في الوصول بعد تيموثي وبيرند. فابتسم الرجلان الأجنبيان للشابة بأدب. وقبل أن تتسنى الفرصة للثلاثة ببدء أي حدث، ظهر كمال ومراد وإيلاف على حدٍّ سواء، ولكن تيومان لم يحضر.

سألت إسراء: "ألم يستيقظ تيومان بعد؟".

لم يكن كمال ليأبه على الإطلاق، فهو لم يمض سهرة جميلة مع إيلاف على ما يبدو.

فردّ عليها مراد قائلاً: "إنه في المرحاض. فقد توجه إلى هناك حتى قبل أن يغسل وجهه".

ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتي تيموثي وقال: "لا يفاجئني هذا نظراً لكمية الطعام التي التهمها بالأمس".

ابتسم الجالسون حول الطاولة باستثناء كمال وإيلاف. ولاحظت إسراء ذلك. ففكرت: "هذا ما ينقصنا؛ حل مشكلتهما".

"هل يريد أحدكم أن أعد له بيضاً؟".

كان خلف هو من طرح هذا السؤال وهو يقترب من الطاولة وفي يده طبق من الجبن.

فوبخه كمال قائلاً: "ماذا تعني بحديثك عن البيض؟! هذا المكان سيصبح بعد قليل ملتهباً بالحرارة، والبيض لن يتسبب لنا سوى بالحساسية. هل تريدنا أن نمرض؟".

فسارع خلف للدفاع عن نفسه قائلاً: "ولكن السيد بيرند قال إنه لا

يستطيع ببساطة أن يتناول الفطور من دون بيض".

التفت بيرند ببطء ليوجه نظرة واثقة نحو كمال وقال: "هذا صحيح. إنني بحاجة إلى تناول البيض في الصباح وإلا شعرت بالجوع، ولكنني أريد البيض المقلي مع اللحم".

فقال كمال مقطباً جبينه: "بيض ولحم!". وأشار نحو طاولة الطعام وقال: "نوعان من الجبن، وزيتون أسود، وسلطة زيتون خضراء، وزبدة، وعسل، ودبس عنب، وطماطم، وخيار، وفليفلة خضراء... أتريد أن تقول لنا إن كل هذا غير كافٍ لك، يا بيرند؟".

قال بيرند: "لكل بلد عاداته في تناول الفطور. فنحن لا نأكل الجبن والزيتون والأنواع الأخرى التي تأكلونها أنتم".

صاح مراد بصوت يدل على الصدمة: "ألا تأكلون الجبن؟".

"بل نأكله، ولكننا نأكل الجبن السويسري المقطع إلى شرائح ومعه مربى ومعجنات فرنسية. ومع ذلك، فأنا أفضل البيض مع اللحم".

فقال كمال مواصلاً اعتراضاته: "ولكن هذا غير صحي".

أكد بيرند قائلاً: "إنني أجده صحياً جداً. هناك قول روسي يقول: تناول فطورك وحدك، وغداءك مع الأصدقاء، وعشاءك مع الأعداء".

نظر مراد إلى تيموثي وقال له وكأنهما صديقان قديمان: "يا صديقي تيموثي، لماذا لست صعب الإرضاء حيال فطورك؟ حسبما سمعت، رقائق الذرة هي الطعام الوحيد الذي يشبع شهية الأمريكيين".

"معلوماتك غير صحيحة. فنحن نتناول البيض مع اللحم أيضاً، ولكنني آكل أي شيء أجده في هذه الأيام".

مازحه مراد قائلاً: "لا بد أنك عانيت من وقت عصيب في العثور على طلبك في الصحراء العراقية".

"هذا صحيح. ولكن كما ترى، من المستحيل العثور عليه في تركيا أيضاً".

قال كمال بوجه متجهم: "وهذا شيء جيد، وإلا فسوف يقضي معظم أفراد الفريق وقتهم في الحمام كما يحدث مع تيومان".

فقال تيموثي ليضع حداً لهذه المحادثة: "على أية حال، بما أنه ليس هناك أي بيض أو لحم هنا، فإنني أظن أنه ما من مشكلة".

ساهم رده هذا، بالإضافة إلى الكسل الذي استولى على الجميع في تلك الساعة المبكرة من الصباح، في وضع نهاية مؤقتة للحديث إلى أن عاد تيومان من الحمام.

وقال لبيرند: "لديك عجلة مثقوبة. إن المكان خطير هنا، لذا لا أنصحك بالتجول على دراجتك في هذه الأنحاء ليلاً".

فقال بيرند وهو يبدو مذهولاً: "ولكنني لم أذهب في جولة الليلة الماضية!".

فقال تيموثي: "الأمور من هذا النوع تحدث. ففي بعض الأحيان، تفرغ العجلة من الهواء من تلقاء نفسها".

قال مراد مازحاً: "انس أمر الدراجة، وألق نظرة على نفسك ياأخ تيومان. كدنا نظن أنك سقطت في الحمام".

وكان تيومان قد نال كفايته من مزاح هذا الطالب الشاب، ولكنه لم يفصح عن مشاعره، فقال: "أتعلم؟ هذا مجرد إثبات على أنه عندما يكبر الذئب في السن فإنه يصبح مثار سخرية الكلاب". وذلك هو كل ما قاله.

قوبل تعليقه بضحكة صامتة. وعندما أحجم مراد عن إثارة الموقف، وصل الموضوع إلى نهاية مفاجئة.

في تلك الأثناء، ظلت إسراء مستغرقة في التفكير. فمنذ الليلة الفائتة وهي تفكر في ما قاله لها خلف. ترى، هل ذلك الطاهي الشاب محق في ما قاله؟ ترى، هل توقف السكان المحليون المزدهرون اقتصادياً عن الإيمان بالمعتقدات والسفسطات؟ أم إن "خلف" أراد أن يبقي الفريق في المنطقة خوفاً من خسارة وظيفته في حال مغادرتهم؟ توجب عليهم أن يلاحظوا تصرفات العمال المحليين في الموقع لكي يفهموا إن كان خلف محقاً أم لا. ومع ذلك، لم تكن إسراء واثقة حتى من حضور العمال إلى الموقع ذلك اليوم. فإن ظنوا أن مهمة التنقيب عن الآثار مسؤولة عمّا حدث، فلن يرغبوا بأن تكون لهم أية علاقة بهذا الفريق. بالرغم من أنها اعتادت في الأحوال العادية أن تستقل سيارة الجيب إلى الموقع، فقد قررت إسراء هذه المرة أن تستقل سيارة الفان التي تقل العمال. فإن لاحظت أي دليل على القلق بين العمال، فسيتوجب عليها أن تقنعهم ألا علاقة بين التنقيب عن الآثار ووقوع تلك الأحداث المشؤومة.

بعد انتهائهم من وجبة الفطور القصيرة نوعاً ما، جمع تيومان وكمال معدات التنقيب عن الآثار، واحتشد الجميع في سيارة الجيب التي يقودها كمال. أما إيلاف التي لم ترغب بأن تركب معه بالسيارة نفسها، فقد رافقت إسراء في سيارة الفان التي تولى مراد قيادتها. تجاوب كمال مع هذا السلوك غير الاعتيادي من جانب صديقته بتوتر واضح، إلا أنه آثر الصمت، وشغل محرك السيارة، وانطلق في طريقه إلى البلدة الحثية القديمة من دون

أن ينبس ببنت شفة. أما أولئك الذين ركبوا الفان، فقد انتظروا "خلف" الذي أعد لهم الوجبة التي سيتناولونها خلال الصباح ثم انطلقوا حالما تم تحميل كل الطعام وأدوات الأكل.

سرعان ما شقت سيارة الفان طريقها نحو الموقع. لم يحن شروق الشمس بعد، ولكن برودة الجو بدأت تتضاءل، بينما أخذ الضباب الكثيف الذي يغطي نهر الفرات يتبدد، وانـزاحت ستارة الظلام رويداً رويداً. انتظرهم العمال بصبر عند المنعطف كعادتهم كل صباح تحت شجرة الإجاص البري الكبيرة التي تقع خلف الجسر على بعد كيلومتر واحد. تمكن الفريق في بداية الحملة من جمع عشرة عمال من قريتين مختلفتين، وذلك بفضل مساعدة الحاج عبد الستار. وكان أولئك العمال قرويين فقراء بالرغم من امتلاك كل واحد منهم حقلاً صغيراً خاصاً به. ومع ذلك، فقد صرّح أربعة منهم بنيتهم ترك العمل في التنقيب عن الآثار حالما يحين موعد قطف القطن. ففكرت إسراء أن عبء عملهم سيصبح أخف بحلول ذلك الوقت. وعلى أية حال، فقد ظل بوسعهم استخدام عمال مياومين من البلدة إن تطلب الأمر. الآن، بعد وفاة الحاج عبد الستار، توجب عليهم نسيان أمر استخدام العمال من البلدة. فقد باتوا في خطر خسارة كل عمالهم إن صح التعبير.

تأملت إسراء الطريق بتمعن وهي جالسة على المقعد الأمامي إلى جانب مراد. وأخذت نفساً عميقاً من سيجارتها وهي تتساءل ما إذا كانوا سيجدون العمال بانتظارهم كعادتهم تحت شجرة الإجاص. وظل القلق يتملكها إلى أن انعطفت السيارة حول آخر منعطف، وهناك رأت ماهو، رئيس العمال، واقفاً بانتظارهم.

تمتمت إسراء قائلة: "إنهم هنا. لقد كان خلف على حق. فها قد حضروا جميعاً!".

سألت إيلاف بعد أن أربكها رد فعل إسراء حيال رؤية العمال: "لماذا؟ ألم يكونوا يعتزمون الحضور؟!". وظهرت نظرة خالية من التعبير في عينيها الناعستين. وبدلاً من أن تجيبها إسراء، أشارت برأسها نحو مجموعة العمال، وقالت: "إنهم هنا؛ العمال العشرة كلهم".

رأت ماهو واقفاً وبصره مثبت على الطريق بانتظار وصولهم، بينما جلس بقية العمال القرفصاء، واتكأ سيهلي وحده على جذع شجرة الإجاص البرية الثخين. كان جميع من في المجموعة يدخنون، والدخان يتصاعد من سجائرهم ويتسلل عبر أغصان الشجرة الداكنة ثم يختفي في الهواء.

قال مراد: "يبدون أشبه بسرب من الإوز، وماهو هو الزعيم الذي يتقدم خطوة على سربه، ويتفحص المنطقة وكأنه يحاول أن يعرف متى سيتم الحصول على الوجبة التالية".

ضحكت إيلاف بصمت، ولكن إسراء لم تبتسم مجرد ابتسام بل قالت: "هذا تشبيه سيئ. فهؤلاء بشر وليسوا إوزاً".

لم يحاول مراد الدفاع عن نفسه، بل اكتفى بضحكة صغيرة صامتة كما فعلت إيلاف.

بدأ العمال بالتحرك حالما شاهدوا سيارة الفان تلوح من بعيد. فنهض الجالسون وتوجهوا في طريقهم نحو الجسر. وحالما توقفت سيارة الفان على طول جانب الطريق، أخذوا نفساً أخيراً من سجائرهم ثم ألقوا بأعقابها على المجرى المائي الجاف الذي تحفه من الجانبين أزهار الدفلى البيضاء والزهرية. نظر شابان أحدهما داكن البشرة والآخر ذو شعر بني وبشرة أفتح لوناً إلى المرأتين اللتين تستقلان الفان، وبذلا وسعهما لإخفاء الإعجاب المتقد في عيونهما. أما بقية العمال، فرغم الفضول الذي تملكهم لرؤية إيلاف وإسراء في سيارة الفان- وهو مشهد لم يعتادوا رؤيته من قبل- فقد نظروا إليهما باحترام كعادتهم. وحالما انفتح باب سيارة الفان، سارع الجميع بحشر أنفسهم في السيارة بوقت واحد رغم وقوف ماهو في المقدمة.

قال ماهو هو يحاول حشر جسمه الضخم من خلال الباب: "السلام عليكم".

فقالت إسراء: "وعليكم السلام، ياأسطة ماهو". وكانت إسراء قد اعتادت على تبادل التحيات معهم بهذه الطريقة. وحالما اتخذ ماهو مقعده بجانب إسراء، راح بقية العمال يدفعون بعضهم بعضاً بمزاح وهم يتخذون مقاعدهم في مؤخر الفان. وحالما انطلقت السيارة، التفت ماهو إلى رئيسة حملة التنقيب عن الآثار.

فقال لها: "هل من مشكلة ياسيدة إسراء؟ ليس من عادتك الحضور لإيصالنا بنفسك".

حاولت إسراء أن تبدو بمظهر هادئ، فقالت: "آه، كلا، ليست هناك أية مشكلة ياأسطة ماهو، ولكنني اعتدت على ركوب سيارة الجيب كل يوم. ففكرت بأن أستقل سيارة الفان اليوم على سبيل التغيير لا أكثر. ما الأخبار معكم أنتم؟ كيف أحوالكم؟".

قال ماهو بعد أن ارتسم على وجهه المغضن المحروق بالشمس تعبير يدل على الأسى: "كيف تظنين حالنا؟ لقد سمعنا خبر وفاة الحاج عبد

الستار. فأصابنا هذا الخبر جميعاً بحالة حزن شديد".

تنهدت إسراء بعمق، وقالت: "نعم، لقد حزنا جميعنا لسماع هذا الخبر المؤسف. فقد كان رجلاً طيباً بمعنى الكلمة".

فقال أحد العمال: "لقد كان أشبه بالقديسين مثل روبن هود من القصص الخيالية".

وتدخل عامل آخر قائلاً: "لقد شكل مثالاً للرجل الصالح. لم يسمعه أحد قط يملي على أحد ما يقوم به".

فسألت إسراء محاولة أن تفهم رأي العمال بموضوع جريمة القتل: "إذاً، من برأيكم يقف وراء جريمة قتله؟".

فقال ماهو بنبرة تدل على الحزم: "أياً يكن من ارتكب هذا الجرم فهو ليس من هذه الأنحاء. فلا أحد من هذه القرى والأراضي من الممكن أن يقدم على قتل الحاج عبد الستار".

شعرت إسراء أنهم يلقون باللائمة على أفراد الفريق أنفسهم لما حدث. فهمت أن تسألهم عما يعنونه باتهام أحد الغرباء بالإقدام على ارتكاب الجريمة، ولكن سيهلي تدخل قائلاً: "إن من قتله شيطان ملعون. فلا يمكن لأي كائن بشري أن تسول له نفسه ارتكاب عمل من هذا النوع".

تذمر أحد العمال الشباب الآخرين قائلاً: "لو عثرت على المجرم الذي قتل الحاج عبد الستار، فسوف أصرعه بيدي هاتين".

وقال آخر: "إن من يقتله لا يستحق مكافأة أقل من الجنة".

"هذا هو ما قاله الحاج عابد في خطبته الدينية أمس. فقد قال إن القصاص من قاتل الحاج عبد الستار واجب ديني مقدس".

قالت إسراء محاولة أن تكتشف وجهات نظر العمال حيال هذا الجانب للمسألة: "لقد ألقت الشرطة القبض على شهموز".

فقال ماهو: "إن هذا الوغد المدعو شهموز غير قادر على ارتكاب عمل متهور من هذا النوع. لقد ألقوا القبض على الرجل الخطأ. هناك شخص من خارج نطاق هذه المنطقة مسؤول عن هذه الجريمة".

"من هذا الشخص من الخارج الذي يستطيع ارتكاب عمل كهذا؟".

"يقول قاسم إن سوريا تقف وراء هذا العمل".

"من هو قاسم؟".

"قاسم المهرب. إنه يملك مقهى ذا نوافذ زجاجية في السوق. اعتاد أن يعبر الحدود مرتين في اليوم قبل أن يزرعوا تلك الألغام. وقد تخلى عن ذلك النوع من الأعمال بعد أن تمت زراعة الألغام، ولكنه لا يزال يعرف

الجانب الآخر من الحدود حق المعرفة. فلا أحد في مدينة حلب لا يعرفه. فقد كسب احترام الأهالي ومحبتهم على كلا جانبي الحدود".

تمتم أحد القرويين الشبان بصوت مفعم بالرهبة: "إنه رجل معروف بشجاعته وقوته، فهو مغوار حقيقي".

قال أحد العمال مستخدماً العبارة نفسها التي استخدمها لوصف الحاج عبد الستار قبل قليل فقط: "روبن هود. فعندما كان يعمل بالتهريب، اعتاد أن يهب ثلاث ليرات للفقراء والمحتاجين من بين كل خمس ليرات يكسبها".

فقال العامل النحيل المحشور في زاوية المقعد الخلفي: "لا يزال هكذا، فهو يقدم طعام الفطور كل يوم من أيام شهر رمضان".

"لماذا يشك قاسم بالسوريين؟".

تذمر ماهو قائلاً: "لماذا تظنين؟ لأننا قطعنا عنهم الماء. كانت كمية الماء تعادل عشرة أضعاف الماء الذي يتدفق الآن قبل أن يتم بناء السد. إن قطع الماء عنهم يماثل قطع أعناقهم".

تذمرت إسراء رداً على كلامه: "حسناً، لنفترض أنني اتفقت معك بالرأي. الجسر بنته الحكومة، ولكن ما علاقة الحاج عبد الستار بالموضوع؟".

"إنهم لا يميزون بين الدولة والناس، بل يتعاملون معنا بمنطق يقول: لقد ارتكبتم عملاً شريراً في حقنا، لذا سوف ندفع بأقدس الرجال وأرفعهم مكانة في قريتكم من فوق المئذنة لنلقن الآخرين درساً . أعني أنهم أرادوا نوعاً ما تخويف حكومتنا عن طريق ارتكاب هذا العمل".

رغم أنها بالكاد استطاعت أن تجد أي دليل على الحقيقة في أفكارهم الطفولية الساذجة، فلم يسعها إلا أن تجد بعض الراحة في كلامهم لأنه يعني أن لا أحد منهم يظن أن للحادث علاقة بلعنة الضريح الأسود أو أي شيء من هذا القبيل. فقررت ألا تتطرق إلى الموضوع مرة أخرى على الإطلاق إلى أن تحدث سيهلي مرة أخرى مثبتاً عكس ظنونها.

فقد قال بقلق: "في الخطبة الدينية البارحة، قال الحاج عابد إن لهذا الحادث أيضاً ارتباطاً جزئياً بالحفر عند الضريح الأسود. إذ ليس من الصواب إزعاج قبور الأولياء الصالحين".

التفت ماهو ونظر إليه بغضب. في البداية، حاول سيهلي أن يشيح بوجهه، ولكنه في النهاية استسلم وطأطأ رأسه بخجل، فخيم صمت مطبق على جميع ركاب سيارة الفان، ولم يعد أحد ينطق بحرف واحد. وبعد قليل، فهمت إسراء وهي تصغي إلى صوت محرك السيارة وصليل معدات

الحفر أثناء تقدمهم في طريقهم على طول الطريق الترابـي أن العمال سبق لهم أن ناقشوا الموضوع. ولا بد أنهم اتخذوا قراراً بمواصلة عملهم في موقع التنقيب عن الآثار على الرغم من معارضة سيهلي. فتساءلت في سرّها: ترى، هل يوجد عمال آخرون يشاطرونه وجهة نظره هذه؟ وحتى لو وُجد أحد منهم، فمن الواضح أنهم لا يشكلون الأغلبية. في الواقع، حتى سيهلي، رغم تأثير الحاج عابد عليه، لم يبد عليه أنه توصل إلى قرار حاسم حيال الموضوع. فعلى أية حال، ها قد أتى ولم يتخل عن العمل في الموقع. وهكذا، قررت إسراء أن الدفاع هو أفضل وسيلة للهجوم.

فقالت: "أصغوا إلي يارفاق. لا أعرف ما هو رأي الحاج عابد حيال الموضوع، ولكن موت الحاج عبد الستار ليست له أية علاقة بلعنة أو شيء من هذا القبيل. إنكم تشاركون في هذه الحملة للتنقيب عن الآثار وتدركون أننا لم نـزل حجراً واحداً من الضريح الأسود، بل على العكس من ذلك قمنا بتنظيف محيطه واعتنينا به ورأيتم ذلك بأم أعينكم".

فتعالت أصوات العمال موافقين على كلامها داخل سيارة الفان.

"نعم والله، إن هذه هي الحقيقة. حتى إن تيموثي وذلك الألماني ذا العينين الباردتين- وهما من أولئك الذين يدعونهم بالكفار- قاما بطلاء داخل الضريح الأسود بأيديهما".

وقال أحد العمال الآخرين بحماسة: "لم ينل الضريح الأسود هذا القدر من العناية من قبل قط".

قال ماهو: "لقد نسيت أمر السفسطائيين ياسيدة إسراء. إن كلام الحاج عابد مبني على بعض القصص الشعبية التي يتفوه بها الجهلة. ولو أنه أتى إلى الضريح الأسود ونظر إليه بنفسه، لعرف الحقيقة أيضاً".

فقال سيهلي: "ومع ذلك، هذا ليس ما قلته للحاج". ولكنه سرعان ما ندم على كلامه.

التفت ماهو ورمق سيهلي الجالس على بعد صفين خلفه بنظرة غضب.

وقال له باللغة الكردية: "لماذا تحاول أن تثير جدالاً؟ إن لم تكن تريد أن تأتي، فلا تأت إذاً. نحن لم نتوسل إليك كي تأتي معنا أو أي شيء من هذا القبيل. إن أردت، يمكنني أن أوقف سيارة الفان لتترجل منها الآن في الحال".

لم ينبس الشاب بحرف، بل طأطأ رأسه بإذعان، ولكن ظل لدى ماهو كلام كثير يريد التفوه به.

"إن أردت الحضور فتعال إذاً، ولكن التزم الصمت، ولا تقم بتعكير صفو الآخرين. نحن هنا جميعاً لأننا نسعى لنكسب قوتنا. لا يجب على شيخك العزيز الحاج عابد أن يقلق حيال هذا لأنه يقبض راتبه الشهري من الحكومة ثم يقضي وقته في مقر إقامته الخاص. أما نحن، فإن لم نعمل، فسنموت من الجوع. "العمل عبادة" هذا هو ما قاله نبينا الكريم وما أكد عليه ولينا الصالح المدفون في الضريح الأسود. إذاً، أين اللعنة في هذا؟".

رغم أن إسراء لم تفهم من خطاب رئيس العمال سوى عبارة "الضريح الأسود"، فقد تمكنت إلى حد ما أن تدرك طبيعة فحوى ما قاله من الطريقة التي تفوه بها بالكلام. واصل ماهو تذمره باللغة الكردية طوال الطريق إلى موقع التنقيب عن الآثار وهو يتوقف بين الحين والآخر ليلتفت إلى إسراء ويقول لها باللغة التركية: "اعذرينا ياسيدتي، فنحن قوم جاهلون".

أدخلت كلمات ماهو الراحة إلى نفس إسراء. وعندما نظرت من خلال النافذة الأمامية في سيارة الفان التي لمعها خلف في الليلة الفائتة حتى أخذت تلمع وتبرق ورأت الجدران المهدمة للمدينة القديمة، قفز قلبها بانفعال عذب كما اعتاد أن يفعل لدى عودتها إلى وطنها في إسطنبول بعد غيابها عنه في رحلة طويلة.

á á á

اللوح العاشر

حالما انتهت الطقوس ودخل الملك والملكة القصر، بات قلبـي مغموراً بانفعال عذب وجميل. فمثلت أمام والدي وطلبت منه الإذن للمغادرة. وحالما أَذِن لي، توجهت في طريقي مسرعاً نحو المعبد. فمررت بالأسوار الطويلة المزينة بالنقوش النافرة، ثم لفت نظري للحظة نقش جميل. وخطرت شتى أشكال الأفكار المثيرة بذهني، وظهرت أمام عيني سلسلة من الصور المخجلة، وشعرت بوجهي يتوهج بحرارة، فأسرعت بالابتعاد عن ذلك النقش وأنا غاضب من نفسي. وقبل أن أصعد الدرج المؤدي إلى المعبد الذي يحيط به من الجانبين تمثال لأبـي الهول ثنائي الرأس، انحنيت ولامست الأرض بجبهتي. بحلول الوقت الذي وصلت فيه إلى الباب المدهش المؤدي إلى المعبد، وجدت نفسي بدأت ألهث. ومع ذلك، لم تكن لدي أي نية في الانتظار بل دخلت على الفور. فاستولى عليّ شعور بأنني غريب كلياً في ذلك المعبد الذي زرته مرات عدة من قبل؛ وكأنني في مكان لم أعهده في حياتي، وبين أناس مجهولين لم أقابلهم من قبل. اختبأت خلف أحد الأعمدة الكبيرة لكي لا يراني من في المعبد بتلك الحالة، وانتظرت إلى أن خف انفعالي. وفي تلك اللحظة، رأيت تماثيل تيشوب وهيبات وكوبابا تنظر إلي. فخيل إلي أن الحياة دبت في التماثيل عندما تسللت أشعة الشمس من خلال النوافذ، وأضاءت وجوهها وكأنها تحاول أن تقول لي شيئاً ما من خلال نظراتها وهي مغمورة بضوء الشمس الساطع. ربما لم يعجبها ما جئت لفعله. ربما توجب علي أن أنتظر والدي ليعثر لي على زوجة مناسبة لأرضي فضولي المتزايد الذي جعل كل يوم وكل ليلة في حياتي مفعمين بألم الشوق الشديد، ولأهزم هذه الرغبة الملحة التي استنـزفت جسدي. أهذا ما حاول سادتي والمالكون الحقيقيون لكياني أن يقولوه لي بتعابير وجوههم الجامدة؟ ليس هناك قانون في هذه المدينة ينص على أنه يجب على كل الشبان الاستعانة بخدمات جواري المعبد. كلما نظرت إلى وجوه التماثيل، تضاءلت شجاعتي أكثر من ذي قبل. وبينما أنا أفكر أن العودة إلى البيت فكرة أفضل لي، شعرت بيد تلمس كتفي، فالتفت لأجد نفسي وجهاً لوجه أمام كبير الكهنة فالفازيتي وهو لا يزال مرتدياً رداءه الخاص بالطقوس الاحتفالية.

سألني قائلاً: "ماذا تفعل هنا ياباتاسانا؟". فجعل التردد الظاهر على وجهي والنظرة الحائرة في عيني كبير الكهنة يدرك بكل وضوح ما حضرت

إلى هنا للقيام به.

ثم سألني وهو مقطب الوجه: "لقد أتيت لتستمتع بوقتك مع فتيات المعبد، أليس كذلك أيها الشاب؟".

لم أعرف كيف أرد عليه. فأطرقت برأسي لأتجنب النظر في عينيه اللتين يتطاير شرر الغضب منهما. فواصل الكاهن توبيخي:

"إنك تخجل من هذا الطقس، لذا يخزيك أن تتقبل هدية النساء المضحيات بأنفسهن اللواتي يتعبدن بتقديم خدماتهن، أهذا هو الأمر؟".

كلما تحدث أكثر، تمنيت أن تنشق الأرض وتبتلعني من أمامه.

"هذا السلوك الذي تقوم به لا يدل على شيء سوى الجهل، ولكن لأنك لا تزال شاباً فسوف أسامحك. ليس هذا شيئاً يجب الخجل منه، ولا داعي للشعور بالإدانة. إن كوبابا تتمنى منك أيضاً أن تبادل إحدى نساء المعبد الحب. أبعد ذلك الخزي عن وجهك والخوف من قلبك واتبعني ياباتسانا الشاب". ثم بدأ يمشي.

تبعت فالفازيتي بصمت. فمررنا أمام التماثيل، ثم وصلنا إلى نهاية الغرفة وانعطفنا إلى ممر بسقف مرتفع مضاء بمصابيح زيتية معلقة أمام كل غرفة من الغرف. سمعت صوت موسيقى ناعمة من مصدر مجهول، وشممت رائحة البخور العذبة التي تذهب بالمرء إلى عالم الأحلام، ولكنني شعرت أنني ممتلئ بقلق كبير لدرجة جعلتني عاجزاً عن الولوج إلى عالم الأحلام الجميلة هذا. توقف كبير الكهنة أمام الباب الثالث من الأبواب الممتدة على طول الممر.

وقال وهو يشير إلى الباب بيده: "ادخل وانتظر. سيتم اختيارك".

انحنيت احتراماً له من دون أن أتفوه بكلمة، ومن دون حتى أن أنظر إلى وجهه، ثم دخلت الغرفة.

لم أجد أحداً في الغرفة. سمعت صوت الموسيقى يتدفق من الخارج، وشعرت بالهواء في الغرفة يعبق برائحة البخور المحترق. وعندئذ، لاحظت سريراً كبيراً على طول الجدار الأيمن للغرفة مغطى بملاءة مطرزة جميلة بذل المطرزون جهداً كبيراً لتزيينها بصورة نبات القصب النامي على طول نهر الفرات والطيور التي تطير فوق مياه النهر والأسماك التي تسبح في أعماقه. وحالما أصبحت داخل الغرفة، وقفت هناك حائراً لا أدري ماذا أفعل. وعندئذ، سمعت صوت خطوات تقترب من باب الغرفة، فجلست على طرف السرير، وأنا في حالة فزع شديد. وبعد برهة قصيرة، انفتح الباب، ودخلت امرأتان سافرتا الوجه ترتديان ثوبين أبيضين بلون الثلج يغطيان

جسديهما من الرأس وحتى القدم. ابتسمت المرأتان باحترام ورحبتا بـي. نظرتا إلي باسترخاء شديد، حيث تأكد لي أنهما خبيرتان محترفتان من خبيرات المعبد ومدربتان على كل أصناف البهجة والمتعة. وبينما هما تقتربان، لاحظت وجود شخص آخر خلفهما. وبدت المرأة الثالثة مترددة في إظهار نفسها. وعندما ابتعدت المرأتان الواقفتان في المقدمة عن بعضهما، تمكنت من إلقاء نظرة أفضل عليها. ولكن حتى قبل أن أتبين شكلها بوضوح، أدركت مدى جمالها ربما بسبب الرشاقة البادية في خجلها والنور الذي شع منها في الغرفة أو مظهرها الذي يبعث الدفء في أعماق كل من ينظر إليها. نكست رأسها باحترام وخجل، فانسدل شعرها الأسود على ردائها الأبيض الذي يغطي جسدها الأنيق، ثم رفعت رأسها بلطف ووجهت نظراتها نحوي بخجل وتردد كغزالة برية. عندما ألقيت أول نظرة على عينيها الدافئتين اللتين اخترقتاني في الأعماق، عرفت أنني أقف أمام حبـي الأول والأخير والمرأة التي ستغير مجرى حياتي إلى الأبد، فاعتدلت في جلستي وقلبـي مفعم بمزيج من الانفعال والخوف والفرح.

á á á

الفصل الحادي عشر

نهض جنديان واقتربا من إسراء بسعادة. فقد سرهما وصولها أخيراً، بعد أن وقفا للحراسة طوال الليل وهما يرتجفان من الخوف والبرد بين آثار المدينة التي يبدو شكلها كالأشباح المرعبة في الظلام. عندما بدأت الرياح تعصف بقوة مطلقة صوتاً كالعويل وهي تتخلل أغصان أشجار الزيتون البري ذات الرائحة الحلوة عند رأس الضريح الأسود، تراجعا إلى الخلف نحو حطام القصر، وبدآ يصليان ويتضرعان أن يطلع الفجر بسرعة وهما طوال الوقت يصبان اللعنات على قائدهما أشرف المجنون. لحسن الحظ، خفت سرعة الرياح، وانحسر الظلام، وظهرت سيارة الجيب التي تقل خبراء الآثار على طول الطريق الضيق، وتسلل ضوء ساعات الصباح الباكر الرمادي. عندما لمحا سيارة الجيب، نـزل الجنديان المنحدر وهما يظنان أن إنقاذهما بات وشيكاً. ولكن، عندما علما من كمال، الرجل ذي الملامح الصارمة الذي ترجل من سيارة الجيب، أن رئيسة حملة التنقيب عن الآثار تركب سيارة أخرى، عاودا الانتظار وهما يسبان ويشتمان في سرهما. لو كان الأمر عائداً لهما، لانصرفا فوراً من دون أي يلقيا بالاً للسيدة إسراء أو لأي كان، ولكن القائد أمرهما بألا يغادرا الموقع قبل التحدث إلى السيدة إسراء. كان برفقتهما شخص آخر أيضاً، وهو حارس الموقع سيلو. فعندما وصل سيلو إلى الموقع في الوقت نفسه الذي وصلت فيه سيارة الجيب، وقف بدوره بانتظار حضور إسراء وهو يشعر بالإذلال من الإحراج الذي تسبب له به إخفاقه في أداء واجبه. وعندما وصلت سيارة الفان التي تقل إسراء بعد نصف ساعة، لاقى سيلو والجنديان رئيسة الحملة عند باب السيارة. وصل الجنديان إلى السيارة قبل سيلو، فخاطبا السيدة معاً، وعبرا عن رغبتهما بالعودة في الحال إلى المخفر. فاقترحت عليهما إسراء البقاء لتناول الفطور، ولكنهما رفضا ذلك، لذا طلبت من مراد أن يقلهما إلى المخفر. فنفذ الطالب الشاب ما طلب منه رغم أنه لم يبدُ مسروراً تماماً من تلك المهمة، وتوجه لإيصال الجنديين وهما في حالة محطمة بعد تلك الليلة القلقة والمتوترة التي سهرا فيها لحراسة الموقع.

عندما رأى سيلو أن السيدة إسراء انتهت من التحدث مع الجنديين، توجه إليها، وقال لها: "سامحيني من فضلك ياسيدة إسراء".

أصبحت ملامح إسراء جادة وهي تنظر إلى الرجل المسن الواقف أمامها، وقالت: "هذا لا ينفع ياسيلو. نحن نبقيك في الموقع، ونأتمنك على

حراسته، وأنت تدير ظهرك وتتركه مرتعاً للصوص".

فقال سيلو محاولاً أن يبرر موقفه: "أقسم إنه لم يخطر ببالي أي شيء من هذا. إن ذلك الأعرج التعس هو المسؤول عن كل هذه الفوضى. فقد خدعني".

"ماذا إن حضر شخص آخر وخدعك الآن؟".

"لن يحدث شيء من هذا القبيل مرة أخرى. لقد تصرفت بجهل مرة واحدة، ولن أكرر هذا العمل في حياتي".

لم تستطع إسراء تحمل رؤية هذا الرجل الذي يبدو مسناً أكثر من عمره الحقيقي وهو يتوسل إليها أكثر من ذلك.

فقالت باضطراب: "ما قمت به خطأ فادح، ولكنني لن أطردك...".

ابتسم سيلو كاشفاً عن الأسنان القليلة المتبقية في فمه؛ وكلها صفراء وملطخة ببقع التبغ، وقال لها: "باركك الله".

"ولكن، إن تركت الموقع من دون حراسة أو سمحت لأي شخص بالدخول إلى هنا مرة أخرى...".

فقاطعها قائلاً: "أقسم بالله، وأقسم لك بحياة حفيدي المولود الجديد إن هذا لن يتكرر. انسي أمر رجال ميميلي الأعرج. من الآن فصاعداً، لن أسمح حتى لغنم راع أصم بالوصول إلى هذا المكان".

وعندما أوشك على الاستمرار بخطابه، قاطعته إسراء وقالت: "حسناً، ياسيلو. من الآن فصاعداً، توخ المزيد من الحذر".

التزم سيلو الصمت، وارتسمت ابتسامة عرفان بالجميل على شفتيه، بينما توجهت إسراء في طريقها مباشرة نحو المكتبة الأثرية، وهي تفكر في أنهم أضاعوا ما يكفي من الوقت. فقد أرادت أن تكتشف مقدار الضرر الذي ألحقه شهموز ورفيقه بالموقع الأثري. فتقدمت يتبعها بقية أفراد الفريق على طول الأرض الوعرة، وعبر الجدران المهدمة إلى ركام المكتبة، ثم انحنت على أرض القصر المفروشة بالحصى وقطع من الفخار الطيني، وبدأت تتفحص الضرر.

استطاعت أن تعرف أن شهموز وبكر حفرا المربع D 5 الذي بدأ الفريق نفسه التنقيب فيه قبلهما. وبعد أن انتهيا من فعلتهما، قاما بتغطية المنطقة التي حفراها ببراعة. ومع ذلك، ليس من السهل خداع عين خبيرة، لذا تمكن الحفارون الأكثر خبرة من النظرة الأولى من تحديد المكان الذي حفر فيه المهربون لأن التراب في تلك المنطقة بالذات بدا أغمق وأنعم. ومع ذلك، لم يقع الكثير من الضرر على الموقع. فقد هجر اللصان

المكتبة بعد أن فشلا في العثور على أي شيء سوى اللوحين، وتوجها للحفر في أماكن أخرى في الموقع. ولا بد أن تلك المناطق هي التي عثرا فيها على تمثال المرأة، والقلادة، والإناء... تساءلت إسراء عن المكان الذي عثرا فيه على تلك المكتشفات. فكرت: "في المعبد على الأرجح". ولكن تلك الفكرة لم تحدث تأثيراً كبيراً عليها. فألواح باتاسانا شكلت قيمة أكبر في نظرها من كل المعابد غير المكتشفة وكل الكنوز التي لم يمسها أحد في العالم كله.

وقف كمال بجانب إسراء وهي راكعة تتفحص الأرض وقال بذهول: "إن هذين الرجلين أكثر حرصاً منا عندما يتعلق الأمر بالحفر".

أجابت إسراء: "لقد أحسنا صنعاً، فبهذه الطريقة لم يلحقا الكثير من الضرر بالموقع".

"ما لا أفهمه هو كيفية تعلمهما التنقيب عن الآثار بشكل منهجي كما نفعل نحن بالضبط".

فقالت إسراء وهي تنهض على قدميها: "لقد تعلما من خبراء آثار مثلنا، ممن إذاً؟ يقول خلف إن ميميلي الأعرج لديه رجال يعملون كحفارين في المواقع الأثرية، لذا فهم يتعلمون التقنيات الملائمة للتنقيب عن الآثار".

لم يضع ذلك حداً لدهشة كمال، فقال: "يا لهم من قطيع من الثعالب الماكرة!". والتقت عيناه عيني إيلاف وهو يقول هذا، ولكن الشابة لم تبد أي استجابة لكلامه.

قالت إسراء بعد أن لاحظت تزايد احمرار السماء: "أياً يكن الأمر، دعونا نبدأ العمل الآن. بعد قليل، سيصبح هذا المكان ملتهباً بحرارة الشمس". ونظرت إلى بيرند وواصلت كلامها قائلة: "تابعوا التنقيب في المكتبة بينما أقوم وتيومان بتفقد المعبد".

جمع بيرند فريقه الجديد بينما توجه بقية العمال إلى المعبد مع تيومان وإسراء وكمال. وعلى بعد بضعة أمتار، التفتت إسراء نحو إيلاف التي كانت لا تزال واقفة مع بيرند.

وقالت لها: "ألن تأتي معنا؟".

فأجابت الشابة وهي تبذل جهداً لإخراج الكاميرا من حقيبتها: "أريد أن ألتقط بعض الصور من أجل المحاكمة".

"حسناً، ولكن أسرعي قدر المستطاع. فنحن بحاجة أيضاً إلى التقاط صور لكل المواقع الأخرى التي نهبها اللصوص".

فبدأ فريق بيرند العمل، بينما توجهت إسراء والآخرون إلى المعبد.

كانت آثار المدينة القديمة تمتد على منطقة دائرية مساحتها بضعة كيلومترات، يحد المناطق الشرقية والجنوبية لهذه الدائرة نهر الفرات، بينما يحدها من الجهة الشمالية مجرى مائي استخدم في الماضي لجر المياه من النهر، ولكنه تحول في تلك الأثناء إلى مستنقع، أما من الجهة الغربية فهناك طريق أسفلتي يشكل حداً اصطناعياً للمدينة. وعلى عكس الحقول المحيطة، فالمنطقة التي تقع فيها الآثار باتت مغطاة بالأعشاب الجافة. ظلت الأعمدة القديمة والحجارة البازلتية التي نقشت عليها الكتابة الهيروغليفية وبقايا القوس المتهدمة غير المدفونة والحجارة القرميدية التي لا حصر لها وقطع الرخام بين العشب المصفر في مهب الرياح مستمرة بمقاومة عوامل الزمن والاحتفاظ بمهمتها كشاهد على حياة تلك المدينة المندثرة. ومع ذلك، فالدليل الحقيقي الذي كشف بشكل لا مجال لإنكاره عن وجود المدينة هو بقايا القصر، والمكتبة، والمعبد في الحصن القابع فوق هذه التلة المطلة على ضفتي نهر الفرات.

في بداية الحملة، بدأ الفريق العمل بالتنقيب عن الآثار في المكتبة والمعبد، حيث تولى بيرند مسؤولية الحفر في المكتبة، بينما تولى تيومان مسؤولية المعبد. أما كمال فقد قام بمهمة المدير الميداني، في حين قام مراد بمهمة الرجل متعدد المهام الذي يطلب منه تنفيذ شتى أنواع الأعمال، أما إيلاف فدونت الملاحظات عندما لم تكن تلتقط الصور. وأشرفت إسراء على العمل برمته محددة الحاجات الناقصة، وحرصت على أن تظل الحملة في مسارها الصحيح ومتماشية مع الخطة العامة التي وضعت لها. ومع ذلك، فحالما بدؤوا يكتشفون ألواح باتاسانا، ركّزت انتباهها على التنقيب عن الآثار في المكتبة، فقد علمت من كل من الألواح الحثية التي تم اكتشافها في هاتوشا بالإضافة إلى المصادر الآشورية التي تم العثور عليها في مواقع التنقيب عن الآثار في نينوفوا أن مكتبة مهمة قد تم بناؤها في هذه المدينة. ومع ذلك، فهي بصراحة لم تتوقع ولو بعد مليون سنة أن يتم العثور على نصوص كتلك التي كتبها باتاسانا. فلو تمكنوا من الكشف عن كل كتابات باتاسانا، لما اعتبرهم العالم مكتشفي أول وثائق تاريخية غير رسمية على الإطلاق، بل لنظر إليهم أيضاً على أنهم قدموا إسهاماً على قدر كبير من الأهمية لكل من التاريخ وعلم الآثار عن طريق استغلال تلك الفرصة التي تتيح التعرف بالتفصيل على ما حدث في تلك المدينة التي استولى عليها الأشوريون في العام 705 قبل الميلاد حتى أصبحت معروفة بالمستعمرة الحثية. ولهذا السبب، وبينما هي تشق طريقها إلى المعبد

لتتمكن من تحديد الضرر الذي ألحقه اللصوص بتلك المنطقة، ظل تفكيرها معلقاً بألواح باتاسانا التي لم يكشف النقاب عنها بالكامل بعد.

كان الطريق الرئيس المؤدي من القصر إلى المعبد، والذي يمتد لحوالى مائة متر نـزولاً، هو الطريق الذي استخدمه الملوك الحثيون لمواكبهم خلال الطقوس الاحتفالية، ولكن الجدران، والآثار الأخرى التي تحفه من الجانبين والتي كانت في الماضي مزينة بنقوش نافرة فخمة، أصبحت الآن مرتعاً لعبث السحالي الخضراء. حالما وصلت إسراء إلى المعبد بصحبة أفراد الفريق الآخرين، اكتشفوا أنه بعكس ما حصل في المكتبة صَعُب عليهم تحديد الموقع الذي نهب منه اللصوص. فانتهى بهم المطاف بتفحص كل شبر من المعبد الذي لم يتبق منه مكان سليم سوى الدرج. فقد تحطمت كل من جدرانه السميكة، وأعمدته واندثرت تحت الأرض. وبعد ساعة كاملة من البحث، تمكنوا أخيراً من العثور على المكان الذي حفره صائدو الكنوز، وهو موقع غير متوقع على الإطلاق، يقع في أسفل جدار منهار خلف تمثال أبـي الهول بعشرة أمتار في حديقة المعبد.

قام شهموز وبكر بعمل بارع هنا في تغطية آثارهما؛ كما فعلا في المكتبة بعد أن نبشا المسروقات من تحت الأرض. ولو أن أفراد فريق التنقيب عن الآثار لم يعرفوا مسبقاً أن الموقع قد تعرض للنهب، لما لاحظوا أن أحداً قد نبش شيئاً من ذلك المكان بالذات.

ركع كل من إسراء وتيومان على أيديهما وركبهما في المكان الذي حفر فيه اللصوص، ومررا أيديهما على الأرض وكأن ذلك سيكشف لهما نوعاً ما عما يكمن تحتها، وحاولا أن يكتشفا ما حدث بينما وقف كل من كمال وخمسة من أفراد الفريق وإيلاف التي انضمت إليهم لتوها حولهما بصمت بانتظار معرفة ما سيحدث. رفعت إسراء رأسها وهي تقلب التربة بيدها ونظرت إلى تيومان.

وقالت له: "هل تخطر ببالك الأفكار نفسها التي تراودني؟".

"أظن ذلك".

فتذمر كمال الذي وقف هناك وهو لا يدري شيئاً عما يتبادله تيومان وإسراء من حديث.

وقال: "لِمَ لا تشاطراننا الأفكار التي تدور بخلدكما وتسمحان لنا بولوج هذا السر الذي اكتشفتماه".

فقالت إسراء بمرح: "أظن أننا نقف الآن بالضبط فوق الغرفة التي اعتادوا تقديم القرابين والنذور فيها".

ولكن "كمال" الذي ظل عقله مشغولاً بإيلاف وجد هذا التفسير غير كاف.

فقال: "هل تسمحين لي أن أسأل كيف توصلتما إلى هذا الاستنتاج؟".

أجابت إسراء: "هذا بسيط. إن اكتُشفت ثلاثة مكتشفات أثرية في المنطقة نفسها، فهذا يعني أن هناك المزيد لم يكشف عنه بعد".

حالما انتهت إسراء من كلامها، وجهت إيلاف عدسة كاميرتها إلى المكان نفسه الذي أشارا إليه، وشرعت بالتقاط الصور.

فاعترض كمال على كلامها قائلاً: "ولكن، ألا يمكن أن يكون هذا مجرد مسكن لشخص من الأثرياء؟".

"عند أسفل درج المعبد؟!".

فقال تيومان: "إنني أتفق مع إسراء. لا يمكن للمكان الذي تقدم فيه النذور والقرابين أن يبنى في أحد الطوابق العلوية لأنهم اعتادوا إحضار أشياء ثقيلة إلى هذا المكان؛ كالحيوانات التي يصعب حملها مثل الغزلان، بالإضافة إلى جرار كبيرة من الشراب وزيت الزيتون. لذا، يتوجب أن تكون هذه الغرفة في مكان يسهل الوصول إليه".

بدت كلمات صديقه منطقية تماماً، ولكن "كمال" استمر في افتعال المشاكل.

"لا يمكن أن نكون واثقين تماماً ما لم ننقب في هذا المكان".

تذمر تيومان قائلاً: "إذاً، ينبغي علينا أن نترك مركز المعبد ونبدأ بالحفر هنا. أهذا ما تقوله؟".

قالت إسراء وهي تنهض على قدميها وتنفض التراب العالق بيديها: "دعونا لا نستعجل الأمور. لنقم بتقييم الوضع مساء اليوم في الاجتماع حتى نتوصل إلى قرار. ليس من الصواب أن نقوم بتغيير خططنا هكذا من دون دراسة".

فتنفس تيومان الصعداء براحة، وقال: "إنك محقة بكل تأكيد. لا يمكننا أن نغير المكان الذي ننقب فيه هكذا بسبب نـزوة لا داعي لها".

فلم يجد كمال ما يعترض عليه في هذا الكلام.

فقالت إسراء: "حسناً. تعالوا الآن، ولنبدأ العمل. فقد أضعنا ما يكفي من الوقت حتى هذه اللحظة".

بينما جمع تيومان بقية العمال وتوجه إلى المعبد، التفت كمال ونظر إلى إيلاف قبل أن يمشي في أعقابهم. فلاحظت إسراء على وجهه وملامحه تلك النظرة التي مزجت بين الغضب والألم. ظنت إسراء أنه سيستدعي

إيلاف لتذهب بصحبتهم، ولكن الشاب قام بمجرد اللحاق ببقية فريق التنقيب عن الآثار من دون أن ينبس ببنت شفة. لاحظت إيلاف بدورها أن "كمال" واصل المشي خلف الآخرين من دون أن يتوقف، ولكنها لم تبد أي اهتمام بموقفه. فشعرت إسراء بالاستياء نتيجة تصرفات تلك الفتاة.

فسألتها قائلة: "إذاً، إلى متى سيستمر هذا الوضع؟".

أجابت إيلاف ظناً منها أن إسراء تتحدث عن موضوع التقاط الصور الفوتوغرافية: "أكاد أن أنهي".

"ليس هذا ما عنيته بكلامي، بل أعني هذه المشاحنات الغريبة التي تحدث بينك وبين كمال يا إيلاف".

أخفضت إيلاف كاميرتها، ونظرت بطرف عينها إلى كمال الذي بات على بعد مسافة لا بأس بها الآن.

"لقد فقد الرجل صوابه بالكامل. إنه يحب السيطرة بشدة، لدرجة تجعله يشعر بالغيرة من كل شخص أقضي معه بعض الوقت".

"ولكنك لا توفرين جهداً في إثارة غيرته".

فوجئت إيلاف برد فعل إسراء، فنظرت إلى المرأة الأخرى - وهي صديقتها ورئيستها في العمل في آن معاً - بتعبير يدل على الدهشة والمفاجأة.

وقالت محاولة تقديم تفسير لتصرفها: "أنت حقاً لا تعرفين ما حدث".

"ما رأيته الليلة الماضية بدا كافياً بالنسبة إليّ. لقد جعلت الشاب ينتظرك طوال اليوم مع أنك وعدته بأنك ستأتين. لقد انتظرك لساعات طويلة بلا جدوى".

قالت إيلاف وهي منزعجة من تدخل إسراء بالموضوع: "حسناً. إذاً، فقد ارتكبت أمس خطأ واعتذرت عن ارتكابه، ولكنه ظل يتذمر حول الموضوع بلا توقف".

"أتساءل عما ستفعلينه لو كنت مكانه؟".

وجدت إيلاف أن إسراء منحازة لجانب كمال مع أنها ظنت أنها ستنحاز لجانبها في هذا الموضوع.

"إنه يعاملني وكأنني عقار مسجل باسمه أو شيء من هذا القبيل، أو كأنني ملكيته التي يتصرف بها كما يحلو له، ولكنني أحظى بحياتي الخاصة المستقلة".

"لا أقول إنني موافقة على تصرفات كمال، ولكن ينبغي عليك أن تتوخي الحذر".

فأجابت إيلاف بصوت متوتر بدأت نبرته ترتفع شيئاً فشيئاً: "إنني أتوخى الحذر، ولكن هذا لا يبدو كافياً. لا يهم أين أذهب أو أين أنظر أو ما أرتديه، فأنا مذنبة بشيء ما من وجهة نظره. ما الذي يجب عليّ أن أفعله غير ذلك؟".

عندما لاحظت إسراء أن نبرة صوت إيلاف تزداد حدة، خففت من حدتها، وقالت: "لا ينبغي أن تجرحا شعور بعضكما بعضاً. إن هذا لا يسبب سوى الأذى لكما و...". وأوشكت أن تقول: "ولمن حولكما". عندما قاطعتها إيلاف.

فقد صاحت الفتاة بغضب قائلة: "ومهمة التنقيب عن الآثار، أليس كذلك؟".

التقت عينا المرأتين. وللمرة الأولى منذ بداية تعارفهما، نظرت إيلاف إلى إسراء نظرة تحد، وتابعت كلامها قائلة: "إنك لا تفكرين بشيء سوى مهمة التنقيب عن الآثار. لا شيء على الإطلاق. وماذا عن الناس الذين تعيشين معهم وأصدقائك؟ ماذا عن مشاكلهم ومخاوفهم؟".

تسمرت إسراء في مكانها من فرط الدهشة وهي تستمع إلى كلمات الغضب التي تفوهت بها إيلاف.

"لقد اعتدت أن تقولي إن خبير الآثار ينبغي أن يتحلى بصفات عالم النفس أيضاً، ولكنك لا تضيعين وقتك حتى في التحدث إلي وجهاً لوجه. تقولين إننا صديقتان ورفيقتان، ولكن هذه مجرد كلمات كثيرة...".

أتت كلمات الفتاة الشابة مؤذية وحادة كالسكين، والأهم من ذلك أن إسراء وجدت كلامها صحيحاً. فإسراء لم تجلس معها لتصغي إلى شكواها أو تشاطرها مشاكلها. نعم، فقد وجهت لإيلاف النقد، وقدمت لها التعليمات والإرشادات، وهنأتها على نجاحها، ولكن كل ذلك لم تكن له أية علاقة سوى بالعمل. تذكرت اليوم الذي التقت فيه إيلاف للمرة الأولى. فقد جلست الفتاة على كرسي قديم أمام طاولة مكتب إسراء المتواضعة في غرفة مكتبها الصغيرة، وأخبرتها أنها تدرس التصوير الفوتوغرافي، ولكنها مهتمة أيضاً بعلم الآثار، وعبرت لها عن رغبتها في مرافقة فريق التنقيب عن الآثار الذي تترأسه إسراء. وقالت إيلاف إنها قد تخرجت من مدرسة ثانوية جيدة، وإنها تجيد اللغة الإنجليزية بشكل جيد. أما إسراء التي مضى عليها وقت طويل وهي تبحث عن مصور فوتوغرافي يعتمد عليه، فقد أصغت بانتباه لما قالته الشابة الصغيرة. فبدأت إيلاف، بعد أن شجعتها الابتسامة على وجه إسراء، تريها بحماسة ألبوم الصور التي التقطتها من قبل. فلم تجد

إسراء الصور سيئة على الإطلاق. وهكذا، انضمت إيلاف إلى فريق التنقيب عن الآثار. أصبحت إسراء مولعة بإيلاف بعد أول حملة تنقيب اشتركتا فيها معاً، ولكنها اكتشفت أنها لم تقم بما فيه الكفاية لتثبت هذه المودة لإيلاف.

تابعت إيلاف شكواها المتواصلة قائلة: "عندما بدأت أخرج مع كمال، أتيت إليك طلباً للنصيحة. هل تتذكرين هذا؟ طلبت منك أن تخبريني أي نوع من الأشخاص هو. فقلت لي رغبة منك في التخلص من الموضوع بأسرع وقت ممكن: إنه شاب طيب . ولكنني بالنسبة إليك ليست لي أية قيمة كإنسانة...".

فاعترضت إسراء قائلة: "أنت مخطئة في هذا. فأنا أحبك كأختي".

"حسناً، لم ألاحظ أي شيء يدل على عاطفة من هذا النوع من جانبك".

"لأنني أحاول دائماً أن أتعامل مع الجميع بشكل متساوٍ".

فوبختها إيلاف قائلة: "إن المساواة لا تعني التعامل مع الجميع بالطريقة نفسها، بل معاملة الجميع بالاهتمام نفسه، ولكنك لم تتعاملي معنا ولو بعُشر الاهتمام الذي تبذلينه عندما يتعلق الموضوع بالتنقيب عن الآثار...".

وجدت إسراء إيلاف محقة في كلامها، فشعرت بقلبها ينقبض من الداخل بإحباط حزين، ولكنها تذكرت المشاكل الكثيرة التي يتوجب عليها معالجتها لدرجة أنها هي نفسها لم تعد تعرف أي مشكلة ينبغي عليها أن تعالجها قبل غيرها. وبالإضافة لذلك، فهم لم يكونوا يقضون إجازة للاستجمام هناك، لذا من المؤكد أن أهم شيء بالنسبة إليها هو العمل والتنقيب عن الآثار ولا شيء غير ذلك. فكرت: "كلا، ليست لحساسية إيلاف الزائدة أية علاقة بـي، بل أظن أن الفتاة غارقة فعلاً في حب تيم. وبالإضافة إلى ذلك، فالضغط الذي يفرضه كمال عليها يجرحها. لا بد أنني اخترت أسوأ وقت ممكن لفتح الموضوع معها. والآن، فقدت الفتاة المسكينة أعصابها بشكل كامل". فكّرت أنه ينبغي عليها أن تتحلى بالمزيد من التفهم نحو إيلاف. فابتسمت وهي تتقدم خطوة نحو الشابة.

وقالت وهي تضع يدها اليمنى على كتف إيلاف: "أصغي إلي يا إيلاف". فالتفتت إيلاف بسرعة وكأنها تحاول أن تبتعد، ولكن إسراء لم تدعها تهرب منها. وقالت: "ربما أهملتك بعض الشيء، ولكننا نعاني من أوقات عصيبة جداً هنا كما ترين".

لاحظت إسراء أن الفتاة راحت ترتجف. فبعد الكثير من اللحظات المتوترة التي مضت منذ الليلة الفائتة، بدأت إيلاف أخيراً تنفس عن كل ما يعتمل في داخلها وأجهشت بالبكاء. وقفت إسراء صامتة وهي لا تدري ماذا تفعل؛ أتحتضن الفتاة أم تنتظرها لتكف عن البكاء؟ وظلت واقفة بجانبها لبعض الوقت. وبعد لحظات، تقدمت نحو إيلاف ووقفت قبالتها، وجففت بيديها دموعها المتساقطة. في البداية، أشاحت إيلاف بوجهها لتتجنب إسراء ثم عانقتها فجأة، وقالت وهي تنتحب: "إنني مغفلة، أليس كذلك؟". في البداية، استغربت إسراء تصرفها هذا، ثم وجدته محبباً، واحتضنتها بدورها، وكأنها أخت صغيرة لها، وبلغت درجة من التأثر حتى خشيت أن تنفجر هي الأخرى باكية إن فتحت فمها لتقول شيئاً ما.

"ينبغي علينا جميعاً أن نساعد بعضنا بعضاً". هذا كل ما استطاعت قوله وهي تربت على شعر إيلاف بحنان. ظلتا واقفتين على تلك الحال لبعض الوقت إلى أن هدأت الفتاة، فتكلمت إسراء مرة أخرى.

وقالت: "دعينا نستعيد هدوءنا مرة أخرى. إن رآنا أحد بهذا الوضع، فسوف ينفجر ضاحكاً من المنظر الذي نبدو عليه".

تذكرت إسراء وهي تراقب الشابة تصعد درج المعبد كيف جعلها أورهان تعاني من الكثير من الأوقات العصيبة؛ ولا سيما في الفترة التي تلت زواجهما مباشرة. وشعرت أنها المعاناة نفسها التي تمر بها إيلاف. فقد اعتاد أن يحشر أنفه في كل شيء؛ حتى في ما يتعلق بملابسها ويقول: "هذا ضيق جداً، وهذا يكشف الكثير من جسمك". وإن تحدثت إلى زميل من زملائها من الجامعة، قطب جبينه وأصابته نوبة غيرة. لماذا يتصرف الناس بتلك الطريقة؟ أيخافون أن يخسروا من يحبونهم؟ هذا كله جيد ولا بأس به، ولكن ما الذي يمكن للمرء فعله إن عرف أن ذلك الشخص لا يحبه؟ ربما لم تكن إيلاف تحب "كمال". وفي هذه الحالة، الحل الوحيد الذي يمكن لكمال أن يلجأ إليه هو أن يتقبل الوضع الراهن، وينسى أمر حبيبته السابقة. بينما أخذت تلك الأفكار تمر ببالها، شاهدت "مراد" يخرج من جهة القصر وهو يبدو على عجلة من أمره ويمشي بخطوات متسارعة جداً تكاد تصل إلى الجري، فتوجهت إسراء نحوه وقد أصابها الفضول لمعرفة ما يجري.

فصاح الشاب من على بعد بضعة أمتار قائلاً: "إنني أبحث عنك".

"ماذا حدث؟".

"لقد قتل كبير حراس القرية؟".

قالت إسراء: "ماذا؟ ما الذي تتحدث عنه؟".

"لقد تعرض زعيم قبيلة ترك أوغلو للقتل!".

"من؟ رشيد آغا؟".

"نعم، هو بذاته. عند مخرج قرية غوفين. لقد فصل القتلة رأسه عن جسده، ثم وضعوا الرأس في حضنه".

قالت إسراء وهي تشعر بالفزع من هول الوصف: "يا إلهي!". كان رشيد آغا رجلاً ضعيف البنية ومتوسط الطول يبلغ من العمر أربعين عاماً على الأكثر، ولكنه يبدو أكبر من سنه. اعتاد أن يرتدي بذلة رسمية، وهذا ما جعل إسراء تجده أشبه برجل أعمال مهذب من بلدة صغيرة؛ أكثر مما يبدو كأولئك الآغوات الأشرار الذين يثيرون الخوف في نفوس الناس. قيل لها إنه لا يحمل مسدساً، ولكنها كلما قابلته رأت رجاله يحيطون به من كل جانب.

"ألم يكن رجاله معه؟".

"كلا، لقد خرجوا لمطاردة النساء في غوفن، لذا كان بمفرده".

"من قال لك هذا؟".

"الجنود أولاً، ثم الراعي الذي عثر على جثته... لقد ذهب إلى المخفر ليدلي بإفادته، لذا تحدثت إليه على حد سواء. يقول إنه غادر بيته في منتصف الليل ليقود قطعان قرويي غوفن بالإضافة إلى قطعان قريته، فلاحظ وجود طيف غريب على الطريق المؤدي إلى غوفن. وكان القمر بدراً، ولكن الضوء سطع عليه من الخلف فلم يستطع أن يميز ماهية ذلك الشكل المريب. وعندما بدأت الكلاب بالنباح بجنون شعر بوجود خطب ما، فاقترب أكثر، وشاهد جثة مبتورة الرأس. أصابه الذعر وتراجع مبتعداً عن الجثة، وعندئذ لاحظ وجود الرأس في حضنها".

لمعت أحداث ذلك المشهد برمته أمام عيني إسراء: جثة جالسة في منتصف طريق مهجور، وفي حضنها ذلك الرأس بعينيه الحائرتين الجاحظتين منه والبدر يشع في الخلفية، وعلى بعد بضعة أمتار راعٍ يرتعش من الذعر حتى يكاد يفقد صوابه لرؤية ذلك المشهد الفظيع الماثل أمام عينيه.

تابع مراد قائلاً: "ركض الراعي كالمجنون عائداً إلى القرية، وبدأ يدق على الأبواب ويحاول أن يصرخ، ولكن الصدمة عقدت لسانه لدرجة أنه عجز عن التفوه بأي صوت. استيقظ سكان القرية، ولكنهم عجزوا عن تهدئة روع ذلك الراعي المرعوب. فقد استولى عليه الفزع لدرجة أنه ظل يرتعش حتى عندما تحدثت إليه".

"هل شاهد أحداً في المنطقة حيث وقعت الجريمة؟".

"يقول إنه شاهد رجلاً يطير في الظلام".

"ماذا تعني بقولك إنه شاهد رجلاً يطير في الظلام؟".

"هذا هو ما يقوله الراعي: رجلٌ ما هرب من المكان طائراً".

"تعني أنه جرى بسرعة فائقة، أليس كذلك؟".

"كلا، لم يقل إنه جرى بسرعة بل قال إنه طار. إن النقيب يفكر بالطريقة نفسها التي تفكرين فيها. يقول إن الراعي أصيب بحالة ذعر فظن أن الرجل الهارب طار في الجو".

"لا أحد يعرف هوية القاتل بعد بكل تأكيد".

"يظن النقيب أشرف أن الإرهابيين هم الذين ارتكبوا الجريمة. فقد قال لي: اطلب من السيدة إسراء أن تتوخى الحذر".

فهمت إسراء المعنى الحقيقي الكامن وراء تلك الرسالة، وكأن لسان حال النقيب يقول: "أترين!؟ إن كل شيء قلته لك يثبت الآن أنه عين الصواب". فشعرت بشيء من الغضب يتحرك في داخلها، ولكنها تساءلت عن سبب غضبها منه. فربما أثبت النقيب أنه محق في قوله، وربما اتضح أن الإرهابيين هم من يقفون وراء الجرائم.

قال مراد وهو يبدو حائراً الآن أمام صمت إسراء المبهم: "ما الذي يجري هنا؟ في البداية، قتل الحاج عبد الستار. والآن، قتل زعيم القرية السيد رشيد... أتظنين أن الأشخاص أنفسهم هم المسؤولون عن هاتين الجريمتين؟".

قالت إسراء: "لا أدري". ورغم الوقت المبكر من الصباح، بدا صوتها مفعماً بالإنهاك واليأس. ثم قالت: "آمل ألا يكون ذلك صحيحاً، وألا يظن السكان المحليون ذلك، وإلا فسوف يربطون الجريمتين بلعنة الضريح الأسود مرة أخرى".

اكتسبت عينا مراد نظرة غريبة وهو يدنو من إسراء قليلاً، وقال: "قد يكون السكان المحليون على حق. فربما نحن ملعونون بالفعل".

حتى تلك اللحظة، لم تذكر إسراء كلمة واحدة عن افتتان مراد بعالم الخيال والغموض، ولكنها هذه المرة عندما وجدت مهمة التنقيب عن الآثار تصبح في صلب الموضوع، لم تستطع أن تتراجع.

فصاحت في وجهه قائلة: "لا تكن سخيفاً".

"لست سخيفاً. ألم يذكر باتاسانا في ألواحه لعنة هبطت على شواطئ نهر الفرات كستار من الظلام؟ ألم يحذر من أن يلمس أحد الألواح من

دون أن يسترضي تيشوب وعائلته أولاً، وقال إن اللعنة ستحل على كل من يفعل ذلك؟".

لم يكن للربط الذي قام به مراد بين ألواح باتاسانا وجريمتي القتل أي معنى، ومع ذلك دبت القشعريرة في جسد إسراء.

لذا، صرخت قائلة وكأنها تريد الصراخ على نفسها أيضاً لأنها ارتعشت للتفكير بتلك الفكرة: "هل أنت غبـي أو ما شابه؟ إنك تحلل مجريات الأحداث التي تجري اليوم بناء على معتقدات ثقافة عاشت قبل ألفين وسبعمائة سنة...".

فقال مراد: "واليوم أيضاً...". ولكن، سرعان ما قاطعته إسراء على الفور، وقالت لتسكته: "هلاّ تكف عن هذه الثرثرة من فضلك الآن. لدينا ما يكفي من المشاكل لنتعامل معها، ولا يتوجب علينا أن نتعامل مع معتقداتك الخرافية".

"ولكن...".

"لا أريد أن أسمع أي اعتراض. سوف تنسى كل هذا الهراء. وإن لم تنو أن تفعل هذا، يمكنك المغادرة فوراً".

ترددت قليلاً، ثم سألت "مراد" بنظرة عينين مفعمة بالشك: "هل أخبرت أحداً آخر عن جريمة قتل رشيد آغا؟".

فقال الشاب متلعثماً: "كلا. فقد ظننت أنه ينبغي أن تكوني أول من يعرف".

"إنه تصرف صائب. سأخبرهم بنفسي. وإن سمعت عن هذه الأفكار؛ عمّا يسمى باللعنة من أحد آخر ولا سيما العمال، فلن أسمح لك بمرافقتي في أي حملة قادمة للتنقيب عن الآثار على الإطلاق".

عندئذ، استدارت إسراء تاركة "مراد" واقفاً هناك وهو ينظر إليها- إلى معلمته- بعجز، بينما توجهت في طريقها إلى الحصن بخطوات سريعة، وكأن الهرب من مراد سينقذها من كل مشاكلها. لم تكن تريد أن تفكر بمن ارتكب الجريمتين، وبالسبب الذي دفعه لارتكابهما، ولا أن تصل لأي منطق بمجرد الاستنتاج، أو أن توجِّه شكوكها نحو أي شخص. لم تعد تريد أن تجادل نفسها. ومع ذلك، لم يبال عقلها بكل هذا، بل أخذت حتى أكثر الفرضيات استبعاداً تشق طريقها إلى تفكيرها وتستقر فيه وتقض مضجعها. وبعد كل التفكير العميق الذي قامت به، ظنت أنها قد تتوصل إلى نتيجة إيجابية، ولكن المطاف انتهى بها في المكان القديم نفسه؛ ذلك الشك المبهم الذي حير عقلها. خطر ببالها أن أفضل شيء يمكنها القيام به ربما هو

وقف حملة التنقيب عن الآثار. في البداية الحاج عبد الستار، والآن رشيد آغا... لقد بات شبح الموت يكتنف المكان، ويحيط به من كل جانب. فالحاج عبد الستار كان أقرب إليهم من أي شخص آخر في المنطقة. أما القرية التي قتل فيها كبير حراس القرية رشيد آغا، فلم تكن تبعد أكثر من بضعة كيلومترات عن المكان الذي حطوا رحالهم فيه. وربما يحين دورهم بعدهما. السؤال الذي يطرح نفسه هو: هل تستحق المهمة فعلاً المخاطرة بأرواح الناس؟

توقفت حالما وصلت إلى آثار الحصن. بدأت السماء من خلفها تتحول إلى اللون الأحمر، بينما أوشكت الشمس أن تشرق من خلف الغيوم البرتقالية. مشت كل الطريق حتى وصلت إلى أبعد برج من أبراج الحصن؛ حتى ظهرت مياه نهر الفرات الزرقاء. فوجدت مياه النهر تنساب بشكل متعرج كأفعى عملاقة عبر سهول الأرض الملونة.

اتكأت على الجدار المهدم، وجلست على الأرض، ثم أخرجت سيجارة، وأشعلتها وسحبت نفساً منها بعمق. وفكرت وهي تنفث الدخان: "ليست هناك فائدة من الإصرار". ثم أخذت نفساً آخر. أم إنها تبالغ؟ كلا، نعم، فهناك بالفعل نحس من نوع ما يحوم حولهم ويحاصرهم. لقد ارتُكبت جريمتا قتل، وبات أفراد الفريق قلقين، بالإضافة إلى السكان المحليين والنقيب، أما هي فقد باتت أعصابها على حافة الانهيار. راحت نكسة تلو أخرى تصيبهم. كلا، ليس بوسعها أن تخاطر بأي شيء قد يحدث بعد ذلك. فهي ستشعر بتأنيب الضمير طوال حياتها إن حدث أي مكروه لأي فرد من أفراد الفريق. وفكرت أن نهاية العالم لن تحل بالتأكيد إن انتظرت بعض الوقت قبل اكتشاف بقية ألواح باتاسانا.

á á á

اللوح الحادي عشر

أنا باتاسانا، حفيد الرجل الحكيم ميتانوا وابن الكاتب آراراس. أنا، باتاسانا قليل الخبرة في القدر والأمل والحب الذي كسر صدفة الطفولة فقط ليغرق عقله في دوامة الشباب الجنونية.

إن اسم الفتاة ذات الشعر الأسود والثوب الأبيض والعينين اللتين تشبهان عيني الغزلان التي قابلتها في غرفة كوبابا هو أشمونيكال؛ هذا ما عرفته لاحقاً.

خصرها نحيل، وقامتها طويلة ونحيلة، وبشرتها بيضاء كالعاج، وصوتها عذب كصوت العندليب؛ هذا ما عرفته لاحقاً.

كما أنها متواضعة ودافئة وناعمة، وشفتاها عذبتان وعيناها متألقتان؛ هذا ما عرفته لاحقاً.

عرضتني للخزي والبهجة، وأغرقتني في الأسى، وضحت بحياتها لأجلي، وهجرتني لأنغمس في خوفي وألمي؛ هذا ما عرفته لاحقاً.

جعلت مني وغداً وجباناً وخائناً ورجلاً ماكراً ومخادعاً؛ هذا ما عرفته لاحقاً.

لم أعرف أن قدري قد خُبّئ في عيني أشمونيكال البنيتين الداكنتين؛ عيني أجمل فتاة تعيش على ضفتي نهر الفرات، ولكن هذا ما عرفته لاحقاً.

لقد أريد لي أن أواجه قدري: هذا ما عرفته لاحقاً.

بدأت أتعلم منذ اللحظة الأولى التي قابلت فيها أشمونيكال في المعبد. عندما لاحظت خادمتا المعبد وهما تمشيان نحوي أنني عجزت عن إبعاد نظري عن أشمونيكال، التفتتا ونظرتا إليها أيضاً. وعندما لاحظتا النظرات المراوغة التي وجهتها أشمونيكال نحوي من خلف رموشها الطويلة، غادرتا الغرفة وهما تبتسمان بخبث. لم يدع هذا أي عقبة بيني وبين أشمونيكال سوى المسافة التي فصلت بيننا ما لم نتحدث ونكسر الصمت المطبق الذي خيم علينا. ومع ذلك، بدا ذلك الصمت أشبه بهاوية سحيقة، ازدادت اتساعاً شيئاً فشيئاً. وفي تلك اللحظة، أثبتت الفتاة أنها أكثر شجاعة مني، فتمكنت من أن تقول رغم صوتها المتهدج: "أنا أشمونيكال خادمة كوبابا، اخترتك كشريك لنبجل كوبابا في حضورها". ولكنها كلما تحدثت أكثر، ازدادت ثقتها بنفسها. فقالت وهي تتقدم نحوي: "إنني الأصغر سناً من بين خادمات المعبد، ولم يلمسني أحد من قبل. وها أنا أقدم خدماتي لك

وحدك. أرجوك وأتوسل إليك أن تنضم إلي في مباركة هذا اليوم". لمست بأصابعها النحيلة والطويلة يدي اللتين ضممتهما أمام صدري، فحولتني الرهبة التي شعرت بها لرؤية الجمال الماثل أمامي مجتمعة مع خجلي إلى أحمق شديد الحمق. وشعرت أن الدم قد تجمد في عروقي وأنا أقف بلا حراك كتمثال أبـي الهول أمام بوابة المعبد. وتبادر لذهني أن كوبابا هي من تقف أمامي وليس فتاة من بني البشر. فلم أعد أستطيع أن أتخيل نفسي في أي رؤيا من رؤى الحب التي لطالما تخيلتها في أحلامي؛ حتى أشدها براءة ونقاء. لم يمض وقت طويل حتى أدركت أشمونيكال أنني خجول بقدر خجلها. وعندما لاحظت مدى خجلي، باتت أكثر استرخاء واطمئناناً. إذ ربما تملكها الخوف من أن تقابل شخصاً يلحق بها الأذى أو يهينها لأنها عديمة الخبرة والحيلة، ولكنها وجدت أمامها شخصاً بدرجة خجلها نفسها وربما أكثر منها. فطردت عنها خوفها وتوترها، وهذا ما توجب عليها فعله لأنها هي التي ستدير الطقوس الاحتفالية وتتحمل مسؤوليتها كاملة أمام كوبابا. فحتى لو شعرت بالخوف والانفعال، فقد أدركت أنها ملزمة بالاستمرار بتأدية واجبها حتى نهايته بنجاح. ولو أنني أردت الهرب، لاستطعت أن أسرع خارجاً من المعبد وأنجو بجلدي، ولكن لم يعد هناك من مهرب لها هي، ولم تكن لديها أية نية بالهرب، ولا سيما بعد أن أدركت توتري وخوفي؛ لأنها أصبحت الآن أكثر ثقة بنفسها. ذهبت لتجلس على السرير، وطلبت مني أن أتبعها. فأخافني تصرفها حتى أكثر من ذي قبل، وخشيت أن يصيبني الارتباك. تخيلتها أمامي بكامل جمالها المثالي، وتخيلت كتفي المدببتين وذراعي الضعيفتين، وكل هذا لا يليق بحسناء مثلها، ولكن مع ذلك لم يسعني إلا أن أتبعها إلى حيث أشارت لي. جلست على السرير، واستدعتني لأجلس بجانبها، ففعلت ما أمرتني به. جلسنا جنباً لجنب. فأخذت بيدي بين يديها، وأدارت وجهها نحو وجهي، ولكنني أبعدت نظري عنها وأنا عاجز عن النظر إليها؛ وكأنني أواجه شخصاً مصاباً بالجذام. تأملت عيناي ثوبها الحريري الأبيض الناصع، فشعرت بلعابـي يجف وبيديّ تصبحان رطبتين من العرق. تمنيت ألا تلاحظ يدي المتعرقتين. أبعدت أشمونيكال أصابعها الطويلة عن يدي وكأنها سمعت أمنيتي. حاولت أن تلاطفني متظاهرة بأنها خبيرة، ولكن أفعالها دلت على قلة خبرتها؛ لدرجة أنني رغم قلة خبرتي استطعت أن ألاحظ ذلك بكل وضوح. ومع ذلك، استمرت بالتقرب إلي، ولكنني لم أستطع حتى أن أرمقها بنظرة امتنان ناهيك عن أن ألاطفها. وعندئذ، حدث شيء لا أعرف كيف حدث، ولكن

عيوننا التقت. أردت أن أشيح بنظري، ولكنني لم أستطع ذلك. فقد هزني أنين صادر من بئر عميقة في داخلي. وفي تلك الأثناء، جلست أشمونيكال وهي غافلة عن الحالة التي أعاني منها وهي تبتسم لي في محاولة منها للتخفيف من توتري. فمنحتني ابتسامتها قدراً ضئيلاً من الشجاعة، واستطعت أن أرد لها الابتسامة بمثلها. مدت أشمونيكال يديها نحو يدي مرة أخرى، وبينما هي تفعل ذلك، مسحت العرق عن يدي بسرعة بثوبي. فأمسكت بيدي اليمنى ووضعتها على خدها. شعرت بخدها يتوهج بحرارة متقدة. وأخيراً، تمكنت من أن أحرك أصابعي حتى مررتها على وجهها. وعندما شعرت أشمونيكال بذلك، دفعت بيدي على وجهها بقوة أكبر واخترقتني نظرات عينيها. ولم يتبق أي أثر من خجلها السابق، وتألق وجهها بالإصرار الذي تتمتع به أنثى تعرف ما تريده. وبينما هي تقدم لي أكثر كنوز العالم نفاسة، أخفضت رأسي؛ أنا ذلك الرجل الذي يخزي كل الرجال. وفي تلك اللحظة، أدركت مدى عجزي وقلة حيلتي والكارثة الكبرى التي حلت بي. فتنهدت بخوف وخجل، وفكرت بالوقوف والهرب من ذلك المكان في تلك اللحظة، ولكن كبريائي لم تسمح لي بذلك. فكبير الكهنة فالفازيتي هو من أحضرني إلى هنا. وبالإضافة لذلك، فقد عجزت عن ترك أشمونيكال الجميلة هنا بهذه الطريقة. وهكذا، توجب عليّ الانتظار حتى النهاية. استلقت أشمونيكال بجانبي وهناك تعبير خجول مرسوم على وجهها. ها قد جلست تلك الفتاة الأكثر جمالاً على ضفتي نهر الفرات بانتظاري هناك كوردة متفتحة تنتظر من يقطفها، ولكن كل ما استطعت فعله هو التحديق إليها بعجز كفارس سيفه مكسور. حاولت أشمونيكال أن تفهم الحالة التي أعاني منها، ولكنني أردت أن أبتعد عنها وأنا كلي خجل وإحراج. فمنعتني أشمونيكال من الابتعاد.

وقالت: "لا تشعر بالخوف. اقترب مني، واجعلني أشعر بدفئك وحنانك".

فحاولت وأنا أشعر بخزي قائد خسر المعركة لتوه أن أفعل ما طلبته مني، ولكن بلا أية فائدة. فقد أدركت أنني قد حُرمت من مغازلة هذه الفتاة الجميلة في ذلك اليوم. جلست أشمونيكال إلى جانبي مرة أخرى بعد أن مسحت قطرات العرق التي سالت على جبهتي.

وقالت: "أنت حبيبي، وأول رجل في حياتي".

عندما قالت هذا، بدأت أبكي بهدوء، ثم ارتفع نحيبي أكثر فأكثر. فطوقتني أشمونيكال بذراعيها لتخفف عني، ومسحت دموعي بيديها، وربتت

على شعري، وهدأت من روعي إلى أن هدأت، واستغرقت في النوم بجوارها ثم استغرقت هي في النوم بجواري.

ولكن، عندما استيقظت من النوم، لم أجدها بجانبـي. فقد هجرتني وخلفتني وحدي مع عجزي وخزيي وخوفي.

á á á

الفصل الثاني عشر

احتفظت إسراء بمخاوفها، ولم تقل شيئاً عندما أخذوا استراحة قصيرة في فترة الصباح لكي يتمكن العمال من تناول فطورهم، وفي الظهر عندما انتهى يوم العمل. فقد أرادت على الأقل لهذا اليوم من أيام مهمة التنقيب عن الآثار أن يمضي من دون انقطاع. وبالإضافة إلى ذلك، من المؤكد أنها لم تكن تريد للعمال أن يسمعوا هذا الخبر منها، ولا سيما بعد المحادثة التي أجرتها معهم صباح ذلك اليوم. فقد شعرت أنها غير قادرة على خوض مناقشة أخرى من هذا النوع مع سيهلي أو أي عامل آخر. فأمضت يومها وهي تذرع المكان جيئة وذهاباً بين المكتبة والمعبد متظاهرة بالعمل، ولكنها في الحقيقة، كانت تفكر إن كان يتوجب عليها إيقاف الحملة أم لا. راحت تنظر إلى كل حجر وكل أثر في المدينة القديمة بعينين ملؤهما الأسى؛ وكأنها تراها للمرة الأخيرة. وحتى إنّ الألواح الثلاثة التي تم الكشف عنها في المكتبة فشلت في بعث البهجة في نفسها؛ بالرغم من أنها تمنت من كل قلبها أن تشاطر بيرند مشاعره التي عبر عنها وهو ينفض التراب عن الكتابة المسمارية المنقوشة على الألواح قائلاً: "إن ظللنا مستمرين على هذا النحو، فسوف نكتشف كل ألواح باتاسانا في غضون فترة بسيطة جداً". ولكن الأحداث التي خيمت عليهم كالسحب السوداء، ألقت بظلالها الكئيبة على قلبها، وطغت على فرحتها. إذ شعرت أن أول حملة تنقيب عن الآثار تترأسها على وشك أن يتم هجرها من دون إكمالها، وأن ألواح باتاسانا- وهي ربما أهم مُكتَشَف أثري تم كشف النقاب عنه منذ عقود- ستفشل في أن ترى ضوء النهار بعد أن أصبحوا قاب قوسين أو أدنى من اكتشافها بالكامل. شكل هذا الوضع في نظرها ظلماً كبيراً. كلا، بل ضربة حظ عاثر كبيرة أصابتهم. فقد توجب عليهم أيضاً إلغاء المؤتمر الصحفي المزمع عقده، وهذا ما سيثير غضب الألمان. إذاً، ماذا إن غضبوا!؟ على أية حال، فألواح باتاسانا ليست أكثر أهمية من أرواح البشر. خطر ببالها فجأة أنها قد لا ترى أشرف مرة أخرى. في الواقع، هي لم تفكر بهذا من قبل. فكرت: "حباً بالله، انظروا إلى ما يشغل بالي الآن! ماذا إن لم أره مرة أخرى؟ كأن ذلك الرجل يعني لي أي شيء!". وحاولت أن تطرد من مخيلتها صورة ذلك الرجل الأسمر، ولكنها عجزت عن ذلك، وتذكرت تلك الحادثة التي رواها لها النقيب في الأمس، وكيف أسرع بالابتعاد وكأنه يهرب منها. فهدأت من روعها وهي تشعر بالإحباط، وقالت

لعامل شاب منهمك بالحفر: "خفف من سرعتك. أتسمع ذلك الصوت الأجوف؟ ربما يوجد شيء ما هناك".

احمر وجه العامل حتى أصبح بلون قرمزي. فأن توبخه امرأة في وضح النهار، فذلك يعتبر تعذيباً بالنسبة إليه، ولكنه نظر إلى العمال الآخرين بطرف عينه ووجد أن أحداً لم ينتبه، لذا تنفس الصعداء، وبدأ يهوي بمعوله على الأرض متوخياً المزيد من الحرص. وبالإضافة لذلك، لم تبق إسراء واقفة هناك لوقت طويل، بل توجهت نحو العمال الآخرين الذين يحفرون في الجزء المنخفض من المكتبة.

لاحظ مراد وحده مدى التوتر الذي سيطر على إسراء، ولكنه أمضى وقته وهو راكع على ركبتيه بجانب بيرند، وشغل نفسه بمساعدته بتنظيف الألواح بهدوء محاولاً أن يبقى غير ملحوظ قدر المستطاع بعد التوبيخ الذي تلقاه في وقت مبكر من اليوم.

توقفوا عن العمل عندما بدأت أشعة الشمس الحارة تسطع عليهم بشكل عمودي. هذه المرة، لم تستقل إسراء سيارة الفان، بل توجهت بدلاً من ذلك إلى سيارة الجيب التي ركب فيها كل من تيومان وبيرند بالإضافة إلى كمال خلف المقود بينما راقبتهم إيلاف من بعيد كقطة خجولة. أما مراد، فقد ركب مع العمال في سيارة الفان مرة أخرى. والآن، بعد أن جلست إسراء بمفردها مع أصدقائها وهم يشقون طريقهم في السيارة على طول طريق تحفه حقول القطن والذرة، لم تخبرهم عن جريمة قتل رشيد آغا بل حدثت نفسها: "سأخبرهم حالما نصل إلى المدرسة". والسبب الذي دفعها لعدم الاستعجال في إطلاع أصدقائها على خبر الجريمة هو أنها رغم اعتقادها أنه يجب عليها أن تنهي مهمة التنقيب عن الآثار لم تتخل عن الأمل في أن تستكمل المهمة حتى نهايتها. وبينما هم يقتربون من المدرسة، غيرت رأيها مرة أخرى، وقررت أن تتحدث إلى تيم قبل أن تقابل بقية الفريق. فخبرة ذلك الرجل التي لا تقل عن عشر سنوات شجعتها على الامتناع عن إنهاء المهمة قبل أن تستشيره أولاً وتستفيد من رأيه ونصيحته.

عندما وصلوا إلى المدرسة، وجدوا "خلف" يثرثر مع أحد فتيان القرية تحت التعريشة. وحالما رآهم خلف، نهض بسرعة وانطلق ليقابلهم قبل أن تتسنى لهم حتى الفرصة لركن السيارة في الظل. فوجئت إسراء لرؤية إيلاف تتوجه نحو الصبي تحت التعريشة.

قالت الفتاة: "مرحباً ياحنفي".

فقال الصبي ذو العينين الكحيلتين اللامعتين: "مرحباً، هل حصلت على

الصور أم ليس بعد؟".

ربتت إيلاف على رأس الصبي الحليق، وقالت: "ستصبح جاهزة اليوم. هل أتيت لأخذ الصور؟".

"كلا، بل أحضرت جدتي إلى هنا".

"آه! جدتك هنا؟".

"نعم، إنها هنا".

"أين هي؟".

فقال وهو يشير برأسه نحو مبنى المدرسة: "في الداخل".

"هيا بنا. لنلق التحية عليها أيضاً".

عندما رأت إسراء إيلاف تتوجه نحو المدرسة مع الصبي الصغير، حولت أنظارها بتساؤل نحو خلف الذي مد يده ليأخذ منها حقيبتها.

فقال خلف ليشرح لها وهو يأخذ الحقيبة: "إنه حفيد نديدة المرتدة؛ الخالة نديدة. لقد أتت لمقابلة تيم، وأحضرت معها دلواً من اللبن الرائب وسلة مليئة بالتوت الأسود".

"ما الذي تريده من تيم؟".

"لا شيء. إن تلك المسكينة تظن أن مساحة أمريكا صغيرة كمساحة هذه البلدة. أتعرفين شقيقها الأكبر الذي هرب إلى أمريكا خلال هجرة الأرمن؟".

ولكن إسراء لم تتذكره.

فقال خلف: "لقد تحدث عنها تيموثي بالأمس. إنها ابنة القس كركور الذي قُتل منذ زمن بعيد. أما الأخ الكبير ديكران، فقد هرب مع أمه ونادِيا، وهي لا تزال فتاة صغيرة في ذلك الوقت، ولكن الفتاة الصغيرة لم تستطع أن تمشي بسبب صغر سنها، لذا تركها أخوها مع جيرانهم الأتراك ثم هرب مع أمه إلى أمريكا".

"حسناً، نعم، أتذكر الآن".

"بعد سنوات، تلقت نديدة من أخيها رسالة مكتوباً عليها عنوانه، لذا طلبت من ابنها أن يجلس لتملي عليه رسالة لأخيها، ولكن الرسائل توقفت عن الوصول من أمريكا بعد ذلك. طوال خمسين عاماً، وهو كلام يسهل قوله لا عيشه، لم تتلق رسالة واحدة من أخيها. وهكذا، فقد عثرت تلك السيدة الغريبة على صديقنا تيم. والآن، تريد أن تطلب مساعدته لأنها تظن أنه يعرف أخباراً عن أخيها".

هزت إسراء رأسها وهي تضحك، وقالت: "يا إلهي! وكيف يفترض بتيم

أن يعثر على أخيها؟ كم مضى عليهما وهما يتحدثان؟".

قال خلف: "مضى عليهما ساعة تقريباً". ثم أضاف بعد أن اكتسب صوته نبرة توحي بالقلق: "لم تسمعي الخبر الحقيقي بعد".

عندما أدركت ما أراد الطاهي أن يخبرها إيّاه قالت: "انتظر دقيقة". فهي لم تود أن يسمع تيومان وبيرند ما أراد قوله. فقد اقترب الرجلان حاملين الألواح التي تم العثور عليها بكل عناية ودقة.

سأل بيرند: "هل نضع هذه الألواح في القبو أم في غرفة تيم؟".

وصل كمال ليعرض عليهما مساعدته.

فقالت إسراء وهي تخرج المفتاح من جيبها: "في القبو. إليكم المفتاح". ثم سلمته لكمال لأنه لم يكن يحمل شيئاً آخر بيديه.

أخذ كمال المفتاح وانطلق ليسبق الآخرين. فراقبت إسراء الرجال الثلاثة وهم ينطلقون مسرعين متلهفين للتخلص من حملهم الثقيل في القبو، ثم أخذ حمام ساخن لتخليص أنفسهم من الغبار الذي يغطي أجسادهم، ثم الفتت إلى خلف مرة أخرى.

وقالت: "إذاً، أخبرني، ما هو الخبر الذي تحدثت عنه؟".

"ماذا يمكن أن يكون؟ لقد استعاد الحاج عابد شرفه أخيراً. صباح اليوم، قطع رأس رشيد آغا وسلمه له".

"كيف تعرف أن الحاج "عابد" هو من قتل كبير حراس القرية؟".

"من يمكن أن يفعل ذلك غيره؟ إن العبث مع قبيلة ترك أوغلو خطير بقدر العبث مع الموت نفسه. وفي هذه الأنحاء، إن تلطيخ شرف شخص ما هو أفضل طريقة لاستجلاب المرء هلاكه بيديه. وشرف من لطخ رشيد آغا؟ إنه شرف الحاج عابد. كما أن هناك مسائل عالقة بينهما تعود إلى زمن بعيد أيضاً، لذا...".

"ولكنك لطالما تحدثت عن مدى جبن الحاج عابد؟".

"لست وحدي من قال هذا بل الجميع. حتى إن أخاه يقول إنه رجل جبان رعديد، ولكنني أظن أن اعتقادنا ثبت أنه ليس في محله. وبالإضافة إلى ذلك، يقال دائماً إنه يجب الحذر من المياه بطيئة الجريان، ومن الرجل الذي يمشي وبصره مثبت على الأرض. وهكذا، فبينما راح يمشي في الأنحاء بمظهره ذاك الذي يشبه مظهر الفأر، شغل نفسه بالتخطيط والابتكار لجريمة قتل ذلك الرجل. إن هذا الرجل يستحق الاحترام لما فعله".

"هل تدرك أنك تقوم بالثناء على مجرم قاتل؟".

قال خلف بحزم: "لقد كان رشيد آغا مجرماً أخطر منه لأنه سبب

المعاناة لعدد لا حصر له من الناس، واستولى على أراضيهم ونسائهم. إن قمت بجمع كل الناس الذين قتلهم هو ورجاله، لأصبحت لديك مقبرة كبيرة. لقد قام الوغد بإطعام شابين لا يتجاوزان الثامنة عشرة من عمرهما للكلاب لأنهما انضما للمقاتلين قبل خمس سنوات، وألقى بأحد الرجال المساكين من ماردين في مطحنة الحبوب حتى سحقه. إن الناس الذين ماتوا على يديه أبرياء. فقد اعتاد أن يقتل الأبرياء ليقول إنه قضى على الإرهابيين لكي تبقي عليه الحكومة في منصبه ككبير حراس للقرية".

لم ترغب إسراء أن تصدق ما سمعته من خلف. فسألته محاولة أن تغير الموضوع: "هل ألقوا القبض على الحاج عابد؟".

"لست أدري. لو أن القرار عائد لي، لاعتقلته على الفور. إن أردت، يمكننا أن نتصل بالنقيب...".

"لقد أخبرناه ذات مرة، ولكن ثبت أننا مخطئون...".

اختفى مزاج خلف الحسن على الفور، وسأل بصوت متألم: "لم تقولين هذا ياسيدة إسراء؟ ألم يصبح شهموز وبكر قيد الاعتقال؟".

"نعم، لقد تم اعتقالهما، ولكن بتهمة سرقة تحف أثرية وليس بتهمة جريمة قتل الحاج عبد الستار".

فقال خلف بإصرار: "لقد قتلا الحاج عبد الستار، كما أن الحاج "عابد" هو من قتل رشيد آغا. سيتضح أن كل ما قلته لك صحيح ولو بعد حين. وسترين".

رمقته إسراء بنظرة سريعة قبل أن تغادر، وقالت: "آمل أن يتضح أن كلامك صحيح. إن سأل أحد عني، فأنا مع تيم. هناك أمور نريد أن نتحدث بشأنها".

"يكاد العشاء يصبح جاهزاً. لقد أعددت لكم طبق الفريك، وإلى جانبه الطماطم والسماق الحامض. وفوق كل ذلك، هناك توت نديدة المرتدة الحلو كالعسل لتختموا به وجبتكم".

ابتسمت إسراء وهزت رأسها. فالتحدث إلى هذا الشاب الفضولي القادم من قرية باراك والذي لطالما وجدته على علم بكل مستجدات الأخبار على ضفتي نهر الفرات لم يفشل قط في رفع روحها المعنوية والتخفيف عنها. فمهما امتلأ رأسها بأفكار قلقة ومتضاربة عن مستقبل مهمة التنقيب عن الآثار، تمكن خلف من رسم البسمة على وجهها مرة أخرى. توجهت إلى غرفة تيموثي بعد أن خفت حدة قلقها بعض الشيء وصار قلبها أكثر بهجة.

عندما وصلت إلى غرفة تيموثي، وجدت نديدة تهم بالمغادرة. فقد رأت تيموثي وإيلاف و"حنفي" والمرأة المسنة واقفين قرب الباب. كانت المرأة تغطي رأسها بوشاح أسود مزركش بأشكال زهور يدوية الصنع تظهر من تحته بعض خصلات شعرها المخضب بالحناء، وترتدي فستاناً سماوي اللون من القطن الخام، وتنتعل حذاء أسود بسيطاً تكاد أصابع قدميها تخرج منه. وجدت إسراء قوامها منحنياً بعض الشيء بفعل الزمن، ولكنها بدت بالمجمل بصحة جيدة. ورأت وجهها داكن اللون ومليئاً بالتجاعيد، ولكن عينيها ظلتا تشعان بالحيوية؛ بالضبط كما وصفهما مراد. لاحظت نديدة دخول إسراء إلى الغرفة، ولكن عندما التقت عيونهما، أشاحت المرأة المسنة بوجهها وابتسمت بخجل.

قالت إسراء عندما دخلت الغرفة: "أهلاً وسهلاً بك".

أجابت نديدة: "شكراً لك يا ابنتي. آمل أنك على خير ما يرام".

"شكراً لك. نحن نبذل أقصى ما بوسعنا لنكون بأحسن حال".

قالت: "ليبارككم الله". ثم التفتت إلى الشاب الأمريكي، وقالت: "ينبغي أن أذهب الآن. سأمر بعد بضعة أيام لأرى إن تلقيت أي أخبار".

تقدمت إسراء نحو مقعد المدرسة الذي اعتاد تيموثي أن يستخدمه مكتباً له، بينما رافقت إيلاف السيدة العجوز وحفيدها إلى الخارج.

"كيف تجري الأمور؟ هل ستتمكن من العثور على أخيها الأصغر؟".

فصحح تيموثي معلوماتها قائلاً: "تقصدين أخاها الأكبر". وكان يمسك بيده رسالة تكاد تتمزق من شدة القدم. وأضاف: "لقد وصلتها هذه الرسالة من نيويورك قبل خمسين عاماً. قد يكون المنـزل المدون عنوانه على الظرف قد هدم قبل وقت طويل، ولكن السيدة المسكينة شديدة اللهفة للتوصل إلى أي معلومات عنه. لدي بعض الأصدقاء المقربين في تلك المنطقة. سأتصل بهم، وأطلب منهم أن يبحثوا عن العنوان. قد يتسنى لهم العثور على شيء مهم رغم أنني أشك بذلك".

نظرت إسراء إلى الرسالة التي أمسكها تيموثي بيده، فوجدتها ممزقة ومطوية مرات ومرات. وبدا الحبر الأسود عليها باهتاً ومتحولاً إلى لون مائل للبني. أخذت الرسالة من يده وهي تخشى أن تتقطع إلى أجزاء صغيرة بين يديها.

وقالت وهي غير قادرة على إخفاء دهشتها: "خمسون عاماً! يا للعجب! كيف تمكنت من الاحتفاظ بها طوال تلك المدة؟".

"تقول إنها احتفظت بها في مصحفها، ولكنني أراهن أنها تحتفظ بها

في إنجيلها".

"لو كان ذلك صحيحاً لقالت لك. فلا بد أنها خمنت على الأرجح أنك مسيحي".

"أشك بذلك. فربما لم ترغب بقول ذلك لأنها شعرت بالريبة مني لأنني أعمل معكم".

أعادت إسراء الرسالة للرجل الأمريكي، وسألته قائلة: "هل قمت بأعمال صالحة كثيرة من هذا النوع أثناء عملك في العراق؟". وظهر على وجهها تعبير يجمع بين الغيرة والإعجاب.

أجاب تيموثي قائلاً: "أثناء وجودي في العراق لم أصادف أحداً لديه أقارب في أمريكا". أخذ الرسالة بعناية وكأن حمايتها واجبه، ووضعها في دفتره الموضوع على المكتب.

وجدت إسراء العناية الشديدة التي تعامل بها مع الرسالة مبالغاً بها، ولكنها لم تعلق على الموضوع.

قالت متوجهة إلى صلب الموضوع مباشرة: "لقد أتيت إلى هنا لأتحدث عن مهمة التنقيب عن الآثار. هل سمعت الأخبار؟".

"التي تتحدث عن مقتل زعيم حراس القرية؟".

قالت إسراء: "نعم... إنها الجريمة الثانية التي تقع خلال يومين. ماذا سنفعل، يا تيم؟ لقد بدأت فعلاً أصاب بالفزع".

أصغى الأمريكي إلى مديرة حملة التنقيب عن الآثار وهناك تعبير هادئ مرتسم على وجهه، ثم أشار إلى الكرسي الفارغ لتجلس عليه إسراء.

"هيا، اجلسي هنا ودعينا نتحدث".

واصلت إسراء التعبير عن مخاوفها وهي تجلس على كرسيها.

"إنني لا أعرف بالفعل ما يجب عليّ فعله. أخشى أن يتعرض أحد أفراد الفريق للأذى. إن القاتل أو القتلة مستمرون بالدوران حولنا. أتساءل إن كان ينبغي علينا أن نوقف حملة التنقيب عن الآثار بشكل نهائي".

قال تيموثي: "هناك أشياء مريعة تحدث". وأخذ يمرر يده اليمنى عبر شعر لحيته نحاسية اللون؛ كما اعتاد أن يفعل عندما يناقش أموراً هامة. ثم قال: "لقد أصبت بقلق شديد أيضاً عندما سمعت بالحادث للمرة الأولى، ولكنني بدأت أفكر في أن هاتين الجريمتين ليست لهما أية علاقة بنا. في الواقع، ليس من المؤكد حتى أن هاتين الجريمتين مرتبطتان ببعضهما بعضاً فعلاً على الإطلاق. يقول خلف إن للجريمة علاقة بالشرف، فربما يكون ذلك هو السبب وربما لا".

شعرت إسراء بالراحة عندما وجدت أن تيموثي لا يأخذ الحادثة على محمل الجد فوق اللازم، ولكن لم يسعها مع ذلك إلا أن تواصل تساؤلاتها.

فقالت: "ماذا عن الإشاعات؟ أي إن السكان المحليين يظنون أننا المسؤولون عن جريمتي القتل؟".

"أظن أننا نبالغ بتقدير موضوع الإشاعات برمته. ليس هناك أحد في البلدة يتحدث عن أي لعنة؛ باستثناء بعض المتعصبين وبعض لصوص الأضرحة القديمة. إذاً، لماذا ينبغي علينا أن نلغي المهمة؟".

"للسبب الذي أخبرتك عنه... إنني أخشى أن يصيب مكروه أحد أفراد الفريق".

"لا أحد يتمتع بالشجاعة الكافية لمهاجمتنا، فهم يعرفون أن النقيب يهتم بأمرنا ويعتني بنا".

فقالت بقلق: "ولكن هذا لا يعني أي شيء بالنسبة إلى الانفصاليين. فقد سبق لهم أن قتلوا معلمين واختطفوا مهندسين".

"ولكن الانفصاليين ليس لهم نشاط في هذه المنطقة على الإطلاق".

"ولكن النقيب يقول إنهم يقومون ببعض العمليات السرية هنا، وأنهم مدعومون من قبيلة جينشيلي على وجه التحديد. إن ابن هذه القبيلة الأصغر "محمود" في الجبال الآن. ويقول النقيب أيضاً إن "مسلم"، وهو زعيم القبيلة، متعاطف مع الانفصاليين؛ وهذا على الأقل يجعله على استعداد لمساعدتهم وتحريضهم".

أسند تيموثي ظهره على كرسيه وهز رأسه، ثم قال: "إن النقيب لا يتمتع بنظرة موضوعية حيال ما يجري، وهذا ما يحدث عندما يشارك المرء بشكل نشط في الحرب لوقت طويل. من الأفضل لك ألا تأخذي أفكاره على محمل الجد فوق اللازم".

قالت إسراء وكأنها شعرت ببعض الإهانة: "ألا تظن أنك تتحدث عنه ببعض الإجحاف؟ لقد قدم لنا النقيب مساعدة هائلة. ولولا مساعدته، لما تمكنا من استكمال مهمتنا للتنقيب عن الآثار في هذه المنطقة حتى الآن".

شرح الشاب ما قصده بكلامه قائلاً: "لقد أسأت فهمي. إنني أيضاً معجب كثيراً بالنقيب. وليس لدي أي شك في أنه جندي مخلص لوطنه، ولكنه يعاني من مرض ما يسمى متلازمة الحرب، وهذا الشعور يجعل الإنسان غاضباً ومتشككاً".

قالت إسراء وهي تبتسم ابتسامة فضولية: "تبدو مثل شخص يتحدث بناء على خبرة طويلة".

فقال الأمريكي: "لأنني حضرت الحرب. فقد كنت ضابطاً بحرياً في حرب فيتنام".

تسمرت ابتسامة إسراء على وجهها، وقالت: "أنت تمزح، صحيح؟".

"لماذا؟ ألا أبدو لك من النوع الذي قد يشارك في الحرب؟".

تجولت عينا إسراء على جسد تيموثي الرياضي مفتول العضلات.

وقالت وهي تهز رأسها: "كلا، كلا. ليس هذا ما قصدته، بل أعني ما الشأن الذي قد يدفع شخصاً مثلك للمشاركة في أي حرب؛ ناهيك عن حرب تبعد آلاف الأميال عن بلدك الأصلي؟".

"ما قلته صحيح. فقد حاربت في فيتنام في غمرة الصراع، وبقيت هناك إلى أن هزمت الولايات المتحدة".

حلّت محل تعبير الدهشة على وجه إسراء نظرة شك. فلطالما فكرت بين الحين والآخر أن هناك حلقة مفقودة أو خطأ ما أو شيئاً مخفياً خلف معرفة تيموثي العميقة والقدر الكبير من الخبرة الذي يملكه وشخصيته الناضجة. فقد وجدت من غير الطبيعي بالنسبة لشخص أن يتحلى بتلك البراعة ويتصرف بشكل مثالي في كل المواقف. ومن ناحية أخرى، لم يكن هناك أي سبب يدعوها للشك به، ولكن ها هي تكتشف الآن للمرة الأولى أن الزميل الذي تثق به أكثر من غيره قد خاض غمار إحدى الحروب.

قالت له شبه مازحة: "أنت لا تعمل لصالح وكالة الاستخبارات المركزية، أليس كذلك؟".

فانفجر الأمريكي ضاحكاً، ثم قال حالما كف عن الضحك: "لقد أصبت كبد الحقيقة. أنت الآن حالياً تتحدثين مع شخص ليس أقل من أخصائي وكالة الاستخبارات المركزية للشرق الأوسط تيموثي هيرلي. إنني أجري بعض الاستخبارات لنشاطاتنا السرية، ولكنني أستخدم التنقيب عن الآثار كغطاء لنشاطاتي".

قالت إسراء: "لا تستخف بسؤالي". وكانت تحاول أن تخفي شكها بأسلوبها المبطن بالمزاح. ثم أضافت: "لا تنس أن أول من نقب عن الآثار في هذه المنطقة هو الجاسوس الإنكليزي الشهير لورنس".

قال تيموثي متمادياً بالمزحة أكثر فأكثر: "بالطبع، نعم، أنت محقة. إن لورنس بحد ذاته هو المثال الذي أحذو حذوه في هذا المجال. إنني من أشد المعجبين به. في الواقع، إن اسمي الرمزي في الوكالة هو لورنس، ولكن اسمي ليس لورنس العرب بل لورنس باراك".

الآن، بدأت إسراء تضحك أيضاً.

فقال تيموثي حالما هدأ ضحكه: "إن جنون الشك معدٍ. كل ذلك يجري مع النقيب، والآن أصابتك العدوى".

"بصراحة، هل قاتلت في فيتنام فعلاً؟".

"قلت لك للتو إنني فعلت ذلك".

"لماذا قاتلت؟".

لم تعد تبتسم بعد الآن، بل راحت تنظر إلى زميلها بعينين مفعمتين بالتساؤلات.

"لقد درست في جامعة ييل بمنحة دراسية عسكرية. وكان والدي يعمل بمنصب كبير عمال في مصنع أجهزة تلفزيون، لذا يمكنك أن تخمني أن دخله لم يكن يكفي ليلحقني بجامعة ييل. ومع ذلك، فقد استطعت أن أبدأ الدراسة في الكلية حالما حصلت على المنحة الدراسية. إن الذين يدرسون بالمنحة الدراسية العسكرية يسددون أقساطهم من خلال الخدمة في الجيش".

"إذاً، لم تنضم إلى الجيش لأنك أردت ذلك؟".

بدا تيموثي مستغرقاً في التفكير. وبعد أن تأمل في جواب السؤال لبعض الوقت، أجاب قائلاً: "في الواقع، لقد أردت أن أذهب إلى الحرب. فقد كنت في ريعان شبابي. ومع ذلك، لم أكن شاباً مقداماً له هدف في الحياة، بل أردت التباهي وحسب. وفي تلك الأيام، اندلعت الاحتجاجات المضادة للحرب في فيتنام، ولكنني لم أنضم إليها؛ ربما بسبب الخجل أو ربما لأنني لم أعجب بأولئك الشبان المنظمين لها. فقد اعتبرتهم مجرد شبان من ذوي الشعر الطويل وعديمي المسؤولية الذين لا يفعلون سوى تدخين الممنوعات طوال الوقت. وهكذا، فقد أتى قراري بالمشاركة بالحرب بملء إرادتي بمثابة رد فعل ضدهم لأثبت وطنيتي. قد يبدو هذا في نظرك عملاً يدل على الجهل أو الحماقة، ولكن إن فكرت به من ناحية سعي شاب للبحث عن هويته من دون وجود الكثير من الخيارات ليختار من بينها، فربما ستتفهمين موقفي بشكل أفضل. وعلى أية حال، لم ينته الأمر نهاية جيدة بالطبع...".

بدا تيموثي مستغرقاً في تفكير أعمق من ذي قبل.

سألت إسراء: "لم تدفعك ظروف الحرب لقتل أحد، أليس كذلك؟". حاولت أن تفهم ما مر به تيموثي من تجارب وما تملكه من مشاعر، والأهم من ذلك أنها حاولت أن تكتشف ما يكمن بالفعل وراء تلك

الشخصية المثالية التي يتمتع بها بشكل ظاهري.

بدا على تيموثي أنه لم يسمع السؤال. فقد ظل تعبير وجهه يدل على الجدية ولم تتغير النظرة المرتسمة في عينيه.

فألحت عليه إسراء قائلة: "لا بد أن ذلك مريع".

أومأ تيموثي برأسه إلى الأعلى والأسفل وكأنه يريد أن يؤكد على صحة الكلام الذي قالته لتوها.

"ولكنني تعلمت الكثير من الدروس؛ بالرغم من أن سعرها باهظ جداً، ولكن الحرب من أفضل المدارس في العالم".

"ليت المدارس من ذلك النوع ليست موجودة على الإطلاق".

فقال تيموثي عائداً من أعماق تفكيره: "هذا مستحيل. هل يمكنك أن تتخيلي التاريخ بدون حرب؟ علم الاجتماع أو الاقتصاد أو علم النفس؟ أو حتى الطب؟ إن الفترة التي حقق فيها الطب أعظم تقدّم هي الفترة التي استخدم فيها النازيون اليهود كفئران تجارب. إن الحرب أحد أشكال الوجود البشري. هذا صحيح من الناحية الاجتماعية والشخصية على حد سواء. ليست هناك لعبة أفضل منها عندما يتعلق الأمر باستخراج الشر الكامن من نفوسنا، ولهذا لم تتخل البشرية عن تلك اللعبة قط، ولست أدري إن كانت ستفعل ذلك على الإطلاق".

نظرت إسراء إلى زميلها وهي مندهشة من جوابه، وقالت: "يبدو لي أنك تدافع عن الحرب".

"إطلاقاً. إنني لا أدافع عن الحرب، بل أحاول أن أفهم تلك المخلوقات الغامضة التي تدعى البشر".

قالت إسراء متلعثمة: "البشر؟! ولكن مصالح الدول والبلدان والطبقات هي التي تسبب الحروب. كيف يبدو من الصواب أن نلوم الإنسان العادي على اندلاع الحروب؟".

"أنت محقة بشأن الجزء الأول. إن الحروب تندلع وتستمر من أجل استمرارية مصالح الطبقات والحكومات، ولكن في النهاية، الناس العاديون هم الذين يسددون طعنات السكاكين ويضغطون على أزندة المسدسات ويلقون بالقنابل ويقودون الدبابات، وأعني بهذا الناس العاديين الذين يرتدون الزي العسكري الموحد. حتى هذه اللحظة، جنود قليلون هم الذين اعترضوا على هذه الأوامر على مر الزمان. كم مرة في التاريخ قال جنود الجيشين المتحاربين: "هذا يكفي. لا نريد أن نقاتل بعد الآن". وألقوا أسلحتهم وتخلوا عنها؟ ولكن، يمكنني أن أعطيك آلاف الأمثلة عن أناس يستمتعون بالقتل

ويجعلون منه مهنة لهم".

اعترضت إسراء قائلة: "حسناً، هذا كلام جيد ومقبول، ولكن تخليهم عن سلاحهم يعتبر جريمة. في الواقع، من الممكن أن يتعرضوا لعقوبة الإعدام لكونهم خائنين لأمتهم".

"أليس من المحتمل موتهم في الحرب على أية حال؟ ألن يكون لموتهم معنى أكبر لو ماتوا في سبيل قضية عادلة؛ أي من أجل إحلال السلام؟".

قالت إسراء عندما لم يعد لديها سبيل تتجه إليه في هذا النقاش: "هذه مسألة تتعلق بإحياء الوعي العام. لو يكون من الممكن وجود ثقافة قوية تؤمن بالسلام...".

"هذا هو بالضبط ما أريد الوصول إليه. إن السلام ليس ملازماً لطبيعة البشر. فالبشر لا يبذلون العناء والاهتمام نفسه بعدم القتل كما يفعلون عندما يقتلون. فالتزويد بالسلام يتطلب تدفقاً للوعي من الخارج".

قالت إسراء رداً على كلامه: "أليس الأمر ينطبق على الحرب على حد سواء؟ فالحكومات لا يمكنها أن تقوم بمخاطرة إعلان الحروب ما لم تهيّئ الشعوب مقدماً لذلك".

"ربما، ولكن ما تم إثباته بمرور الوقت مرة أخرى هو أن الحرب شيء سيئ ومريع. كيف يمكن للبشر أن ينجروا بكل سهولة لمصدر دمار له عواقب قاسية بذلك الشكل... وإن تم جرهم إليها، إذاً يجب علينا تقصي مصدر هذه النـزعة داخل العقل البشري بقدر ما نبحث في السياسات الوحشية التي تتبعها الدول ومصالح الطبقات الجشعة من المجتمع".

مهما بلغت درجة اختلافها مع زميلها بالرأي، فلم يسع إسراء إلا أن تشعر أنها مسحورة بآرائه. فقالت: "هذا مثير للاهتمام". ولم تقل هذا الكلام لمجرد التفوه بأي عبارة والسلام، ولكن لأن تيموثي فاجأها فعلاً بكلامه. إذ لطالما اعتبرته شخصاً ذا وجهة نظر إيجابية حيال الحياة. ليست هي وحدها، بل جميع من شارك في حملة التنقيب عن الآثار تولد لديهم هذا الاعتقاد؛ لأن هذا هو ما دلتهم عليه أفعاله وتصرفاته. ومع ذلك، فما قاله لها الآن دل على حقيقة مغايرة تماماً.

"أنت لا تعتقد أن البشر صالحون، أليس كذلك؟".

فأجاب تيموثي قائلاً: "هل تظنين ذلك؟ انظري إلى السنوات الأخيرة من التاريخ، إلى خمسة آلاف سنة مضت. إنها مليئة بالدمار والمجازر والحروب".

"ولكنه أيضاً تاريخ حافل بالمدن العظيمة والاكتشافات العلمية والأعمال الفنية الخالدة. قد لا يكون البشر صالحين مائة بالمائة، هذا صحيح، ولكنهم ليسوا مخلوقات شريرة بالكامل أيضاً. أظن أن هناك قدراً متعادلاً من الصفتين في آن معاً".

"إنني أظن أن الشر يفوق الخير. فالشر يبدو دائماً أكثر جاذبية من الخير".

تفوه تيموثي بهذه الكلمات بحزم، وكأنه يريد أن يؤكد لها أنها حقائق ثابتة من وجهة نظره؛ مما جعل إسراء تشعر أن الوقت قد حان لوضع حد لهذه المحادثة.

قالت: "على أية حال. لست أدري كيف فتحنا هذا الموضوع، ولكنني أظن أنه ينبغي علينا العودة لمواضيع العمل الآن. إذاً، ما رأيك؟ هل ينبغي علينا أن نتحدث إلى النقيب حول موضوع مهمة التنقيب عن الآثار؟".

تنهد تيموثي بينما امتدت يداه للعبث بلحيته مرة أخرى، وقال: "إن أردت رأيي، فأنا لا أظن أنه ينبغي علينا أن نفتح الموضوع معه. لنطلب منه وحسب أن يهتم بنا، فذلك يكفي حسب اعتقادي".

"وماذا سنفعل إن طلب منا أن نوقف مهمة التنقيب عن الآثار لأنه عاجز عن حمايتنا؟".

قال تيموثي بلمعان شقي في عينيه: "لا أظن أنه سيفعل ذلك، فهو يزداد اهتماماً بآرائك".

احمر وجه إسراء. إذاً، فقد لاحظ تيموثي القرب المتزايد بينها وبين النقيب.

فقالت إسراء في محاولة منها للتخفيف من أهمية الأمر: "إنه قلق من أن يحدث أي مكروه لنا، وهو ليس مخطئاً تماماً في حدسه".

"أظن أنه يبالغ. وحتى لو كان ما يقوله صحيحاً، فمن واجبه حمايتنا".

ظلت إسراء تشعر بعدم الاطمئنان، فقالت: "إذاً، أنت تقول إنه ينبغي علينا الاستمرار في حملة التنقيب عن الآثار مهما حدث، أليس كذلك؟".

نظر الرجل الأمريكي إليها وكأنه بالكاد يستطيع أن يصدق ما سمعته أذناه.

وقال لها بصوت متمرد وربما حتى غاضب: "لست أفهمك. إن موقفك يدل على أنك مستعدة للهرب في أية لحظة، وهذا يدهشني حتى أكثر من

جريمتي القتل بحد ذاتهما".

"ولكنني أتحمل أيضاً مسؤولية سلامة بقية أعضاء الفريق".

"أتظنين أن الآخرين قد يودون منك أن تنهي حملة التنقيب عن الآثار؟".

"إن "مراد" يود ذلك".

"ولكنه مجرد شاب صغير في السن. أما بيرند وكمال وإيلاف وحتى تيومان، فكلهم فخورون بالعمل في هذه المهمة. ألا ترين مشاعر الانفعال في عيونهم كلما اكتشفنا لوحاً جديداً من الألواح الأثرية؟".

"في الواقع، إنك محق. فقد اكتشفنا ثلاثة ألواح إضافية اليوم، بعضها مكسور، ولكنها ليست في حالة سيئة جداً حيث يتعذر فك شيفرة الكتابة التي عليها".

"الآن، هذا بالضبط ما أريد سماعه منك. إن حالفنا المزيد من الحظ، فسرعان ما سنعثر على كل ألواح باتاسانا". والتزم الصمت، ثم تابع وهو يبتسم لإسراء: "إنك منهمكة بتلك المشاكل التي ليست لها أية علاقة بنا. تلك المشكلات موجودة قبل مجيئنا إلى هنا، وستبقى هنا حتى بعد أن نغادر، ولكن لا يمكنك العثور على ألواح باتاسانا في أي مكان. إن تمكنا من إماطة اللثام عنها بالكامل فسيتمكن العالم كله من معرفة باتاسانا، وستتسنى له الفرصة لقراءة الوثائق الأولى غير الرسمية التي كتبها البشر على الإطلاق. وأنت- من يفترض أنك مديرة الحملة- منهمكة بالتفكير بقضية جريمتي القتل، وقلقة حول مواضيع هي من مسؤولية الشرطة، بدلاً من أن تفكري في كيفيّة إعلانك عن هذا الحدث الاستثنائي للعالم. ألا تظنين أن الوقت قد حان لتركزي على التنقيب عن الآثار وحده دون غيره؟".

á á á

اللوح الثاني عشر

عندما قابلت أشمونيكال في غرفة المعبد، ظننت أن الوقت قد حان لأغسل روحي في نهر الجنون وأشبع حواسي في ذلك المطبخ وأروي ظمئي من تلك المياه، ولكنني أخطأت الظن. فالحب إثبات وسر وقضية، فهمت هذا كله عندما استيقظت ووجدت نفسي على سرير غرفة المعبد واكتشفت أن أشمونيكال لم تعد موجودة معي. بحثت في كل أنحاء الغرفة بعينين متوترتين كعيني حمل فقد أمه، ولكنني لم أعثر عليها في أي مكان. نهضت ووضعت ملابسي المطرزة على جسدي الهزيل، وخرجت من الغرفة على أمل العثور عليها في الممر وكأنه يحق لي أن أفعل هذا، ولكنني لم أجدها هناك. ساد الصمت في المكان بعد أن توقفت الموسيقى عن العزف، ورأيت اللهب في المشاعل على طول الممر يرتعش فيما هي توشك أن تنطفئ. وقفت بجرأة أمام الأبواب على طول الممر، وأصغيت إلى الأصوات الصادرة من الداخل، ولكنني لم أسمع أي أصوات. فأدركت أن الجميع قد غادروا، وأن أحداً لم يعد موجوداً في المعبد باستثنائي وخزيي الذي لا يفارقني. كانت التماثيل لا تزال هناك بالتأكيد، وهي ترى وتسمع كل شيء؛ فهي التي تقرر كل حركة نتحركها وكل خطوة نخطوها في حياتنا. اتجهت في طريقي بخوف نحو القاعة الكبرى. وعندما وصلت إلى نهاية الممر، سمعت صوت همس، فبعث ذلك الصوت بعض الراحة في نفسي. وعندما وصلت إلى القاعة التي باتت الآن مضاءة بنور شمس الغروب الضعيف الباهت، رأيت الكاهن فالفازيتي وكاهناً آخر يتعرض للتوبيخ على يده، ففكرت للحظة: "ماذا إن سألت فالفازيتي عن أشمونيكال؟". ولكن، عندما رأيت عيني كبير الكهنة تنظران إلي، بث ذلك الرعب في نفسي، فألقيت التحية عليه، وتابعت طريقي إلى الخارج. ولكن بعد أن خطوت بضع خطوات، استوقفني صوت فالفازيتي العميق وهو يقول: "انتظر، ياباتاسانا".

تسمرت في مكاني بينما مشى فالفازيتي نحوي. فانتظرته وأنا أشعر بالخزي والحيرة والفضول لما سيقوله لي. ربما أخبرت أشمونيكال الجميع عما دار بيننا. كلا، لقد بدت نبيلة جداً حيث لا يمكن أن يصدر عنها تصرف من هذا القبيل. ولكن، ماذا إن فعلت هذا؟ ماذا إن قامت حال خروجها من الغرفة بالذهاب وإخبار كل خادمات المعبد عن قلة حيلتي؟ قررت ألا أسامحها إن أقدمت على تصرف من هذا النوع. تقدم كبير الكهنة ووقف أمامي مباشرة، وقال: "لقد أهنت التماثيل". دمرتني كلماته. إذاً، الفتاة التي

أحببتها ورفعتها إلى مقام عالٍ هزأت بـي بكل قسوة وذهبت بطيش وأخبرت الأخريات عمّا بدر مني. بينما راحت تلك الأفكار تدور برأسي، سمعت فالفازيتي يواصل كلامه.

فقد أضاف قائلاً: "عندما أتيت إلى هنا، بدا عليك الشعور بالخزي من فكرة مقابلة جواري المعبد؛ أولئك النساء المباركات. يبدو أنك أحسن حالاً الآن، وأن طقوس العبادة التي أديتها قد أبهجتك وأدخلت السرور إلى قلبك، ولكن هذا لا يعني أنك سومحت. يجب عليك غداً أن تحضر قرباناً لكوبابا وتتوسل إليها لتسامحك وتغفر لك. هذه هي الطريقة الوحيدة التي ستنال بها الغفران".

أدركت أنني اتهمت أشمونيكال من دون وجه حق، فهي لم تكشف عن السر لأحد. فقد ظن كبير كهنة المعبد بالإضافة إلى خادمات المعبد والجميع أن كل شيء سار بيننا كما ينبغي. وبينما أنا أخبر فالفازيتي أنني سأحضر القرابين في وقت مبكر من صباح الغد، فكرت بيني وبين نفسي بأشمونيكال، وأدركت أنني محق على أية حال بأن أقع في حبها. فها قد عثرت في النهاية على حبيبة قلبـي. ولكن، من هي أشمونيكال في الحقيقة؟ شعرت للحظة أنني فقدت السيطرة على نفسي مرة أخرى، وباغتتني الرغبة في طرح هذا السؤال على كبير الكهنة. وبينما أنا على وشك أن أطرح السؤال، تقدم كاهن شاب منا، وأخبر فالفازيتي أن القيّمين المسؤولين عن المعبد قد وصلوا، لذا أجلت سؤالي عن أشمونيكال واستأذنته بالانصراف. فعلى أية حال، كنت قد اعتزمت أن أعود إلى المعبد في صباح الغد لأحضر القرابين الثمينة، وبتلك الطريقة أجعل كبير الكهنة أكثر تجاوباً مع طلبـي. وإن لم يخبرني كبير الكهنة عن أشمونيكال، فقد قررت أن أعثر عليها بطريقة ما وأتزوجها. فمن سيرفض أن يزوج ابنته لابن اليد اليمنى لملك البلاد وكبير كتبة القصر المستقبلي؟ بينما كنت أتقدم من باب المعبد وتلك الأفكار تدور في رأسي، خطرت لي فكرة مفاجئة وأثقلت على قلبـي وخيمت كغيمة مظلمة منذرة بالشؤم على أفقي. ماذا إن تكرر ما حدث معي ومع أشمونيكال مرة أخرى بعد زواجنا؟ ظللت أصارع هذه الفكرة التي لا تبشر بالخير وأنا أنـزل الدرج. فقلت وأنا أخفف عن نفسي: "في هذه الحالة، لا أظن أن شجاعتي ستستيقظ في داخلي مرة أخرى وأنا في غرفتي في بيتي وعلى سريري". توجب عليّ أن أتخلص من الأفكار السيئة التي ملأت رأسي. فقد استولى عليّ في ذلك اليوم توتر وارتباك شديدان، وهذا ما جعل قواي تخذلني، وهذا كل شيء. قال لي عقلي إن هذا هو

ما حدث في الواقع، ولكنني عجزت عن التخلص من الشعور بالقلق الذي راح ينهشني من الداخل. ماذا إن أخفقت مرة أخرى؟ كلا، لن أخفق. عندما نعيش في غرفة تجمع بيننا نحن الاثنين، فسيتغير كل شيء وسأثبت لها حبي وإخلاصي. غداً، نعم غداً، سأكتشف هوية أشمونيكال والمكان الذي تعيش فيه والأسرة التي تنتمي إليها. ولكن، من أين لي أن أعرف أن هذه المعلومات ستكون منبع مأساتي؟ لو أنني تمكنت في ذلك اليوم من أن أعرف أن الحب سيقودني إلى كارثة كبرى ودمار هائل يحل بسكان هذه المدينة، ولو أنني فهمت أن عجزي عن التعبير عن حبي إشارة، فلربما فكرت بالسعي وراء أشمونيكال مرة أخرى. ولكن، هل هذا صحيح؟ هل كنت سأمتنع عن البحث عنها فعلاً؟ لست أدري؟ فالشوق الجارف الذي شعرت به نحوها تشبث بي، وتغلغل في أعماقي؛ لدرجة أنني رغم معرفتي الكاملة للكوارث الوشيكة التي ستحل بي، كنت سأبحث عنها، وأعثر عليها، ولن أتردد في أن أرتكب معها كل تلك الآثام... وسأقذف بيديّ الاثنتين بكل الأطفال ذوي الوجوه المستديرة كالقمر والنساء الجميلات والمسنين ذوي الظهور المنحنية والمحاربين البواسل في النار وأعيش متأبطاً ذراع الموت.

á á á

الفصل الثالث عشر

كيف يمكن للمرء أن يستمتع بقطف ثمار نجاحه عندما تخيم على أيامه غمامة سوداء حاملة أخبار الموت والدمار؟ عندما يتعرض شخصان للقتل ولا يفصل بين الجريمتين سوى يوم واحد، كيف يمكن لمن يعيش وسط هذه الأحداث أن يبقى منيعاً أمام تأثير مأساة من هذا النوع؟ تلك هي الأفكار التي أخذت تدور برأس إسراء وهي مستلقية على سريرها بعد أن انسحبت إلى غرفتها عقب تناول العشاء على الفور. فتحت نافذتها على مصراعيها، فدخل منها نسيم دافئ حاملاً عطر العشب الجاف والزهور التي لفحتها الشمس ومتسللاً إلى غرفتها، ولكنها لم تشعر أنها في حالة تسمح لها بالاستمتاع بهذه العطور الجميلة. مسحت قطرات العرق التي تجمعت على جبينها بيدها، وانقلبت على جنبها بإحباط شديد. فكرت في أن نيل قسط من النوم سيقدم لها فائدة كبرى، ولكن كلا، فعقلها مشغول بقضيّة جريمتي القتل، ولم يسمح لها بأية راحة على الإطلاق. ومع ذلك، فكلمات تيموثي التي قالها قبل تناول طعام العشاء، بالإضافة إلى رد الفعل الهادئ الذي أبداه بقية أفراد الفريق لدى سماعهم خبر مقتل رشيد آغا، وحقيقة أن أياً منهم لم يعتقد باستثناء مراد وكمال أن للحادثة أية علاقة بمهمة التنقيب عن الآثار، ساهمت كلّها في تهدئة مخاوفها. في الحقيقة، بدأت تلوم نفسها وتشعر بالخزي لأنها تركت الفزع يحكم قبضته عليها؛ لدرجة جعلتها تفكر في إيقاف مهمة التنقيب عن الآثار. ولكن، حالما باتت وحيدة في غرفتها، بدأت الشكوك تنهش أعماقها، والهواجس تنتابها من جديد وهي تفكر في أنه لا بد من وجود معنى وراء هاتين الجريمتين المتتاليتين. ربما لم تكن للجريمتين أية علاقة بالتنقيب عن الآثار، ولكن من المؤكد أن الجريمتين بحد ذاتهما مرتبطتان ببعضهما بعضاً. ومع ذلك، فهي لم تعثر على أي قواسم مشتركة تجمع بين الحادثتين على الإطلاق. فالحاج عبد الستار ورشيد آغا لم يلتقيا من قبل، ولم تربط بينهما أية صلة. فقد كان الحاج عبد الستار رجلاً مسالماً وجديراً بالثقة والاحترام، بينما كان رشيد آغا رجلاً شريراً وجلفاً وغير جدير بالثقة. وفوق ذلك، لم تجد إسراء أي وجه شبه بين الطريقتين اللتين قتل بهما الرجلان. فالشيء الوحيد الذي جمع بين الجريمتين هو أن الغموض اكتنفهما، وهي صفة نادرة الوجود في هذه المنطقة. إذ إن معظم الجرائم التي تم ارتكابها على هذه الأراضي طوال آلاف السنين الماضية تم تنفيذها وفقاً لعقلية الثأر "العين بالعين والسن

بالسن"، ولهذا السبب تم ارتكابها على الملأ وبشكل علني. فإن اعتبر المجرم جريمة القتل وسيلة لاستعادة شرفه المهدور أو تلقين أعدائه درساً قاسياً، فمن الأفضل بالنسبة إليه أن يسمع بها عدد كبير من الناس، وأن يشهد عليها عدد أكبر. وكلما ازداد انتشار الكلام عن خبر الجريمة، نالت العائلة أو القبيلة احتراماً أكبر لأنها أقدمت على تنفيذها، وباتت محاطة بهالة من الخوف والرعب لأنها استعادت شرفها الملوث بالعار بشجاعة أفرادها وبسالتهم. أما حقيقة تعرض الشخص الذي يرتكب الجريمة للسجن لعدة سنوات طويلة أو للقتل بالمقابل على يد الأعداء، فهي ليست لها أهمية بالمقارنة مع الاحترام الاجتماعي الذي يناله من جراء ارتكابه جريمته. ومع ذلك، فجريمتا قتل الحاج عبد الستار ورشيد آغا أحاطت بهما هالة من الغموض التام. فقد اختفى القتلة عن الأنظار بدلاً من الاعتراف بالأسباب التي دفعتهم لارتكاب جريمتهم، وهذه بالضبط هي النقطة التي حيرت إسراء وجعلتها تشك في أن هناك علاقة بين الجريمتين ومهمة التنقيب عن الآثار. تمتمت بينها وبين نفسها وهي تتقلب مرة أخرى بإحباط على سريرها الرطب: "إن المشكلة الحقيقية هنا ربما هي أنا". فقد لا تكون للجريمتين أية علاقة بالمهمة أو حتى ببعضهما بعضاً. وقد لا يكون لتخميناتها أي أساس من الصحة، ولكن القلق الذي قض مضجعها لم ينشأ من فراغ. فأياً يكن الأمر، فقد تلقت مكالمات تهديد هاتفية تحذرها وتأمرها بالابتعاد عن الضريح الأسود، ولكنها توقفت في الآونة الأخيرة. وبالإضافة لذلك، فقد تعرض الموقع للسلب والنهب. وقد قال النقيب أشرف أكثر من مرة إن الانفصاليين يتطلعون لاقتناص فرصة للانقضاض عليهم، والأهم من كل شيء هو أن شخصين تعرضا للقتل. كان أكثر ما شغل بالها بصفتها رئيسة حملة التنقيب عن الآثار هو سلامة أصدقائها، وما الذي قد يكون طبيعياً أكثر من ذلك؟ لو أن أياً من هذا كله لم يحدث، لركزت بالطبع كل اهتمامها على ألواح باتاسانا بدلاً من أن تضني نفسها بالتفكير في هاتين الجريمتين. أم إنها لن تفعل ذلك؟ طرحت هذا السؤال على نفسها، وكأنها غير واثقة في ما إذا كان بوسعها أن تمنح نفسها إجابة صادقة أم لا. وتمتمت لنفسها قائلة: "صدقاً، ألن تقلقي؟". تذكرت ذلك الإحساس بالذعر الذي هيمن عليها عندما تلقت الخبر السعيد بتعيينها رئيسة للحملة. فقد ظلت تنتظر الحصول على تلك الفرصة لسنوات عديدة. وأياً يكن الأمر، فهي لم تتردد بتحمل المسؤولية في كل المهمات التي شاركت فيها، ولطالما وجدت نفسها تفكر نيابة عن كل أفراد فريق الآثار

على حد سواء. وأخيراً، حانت الآن الفرصة التي لطالما انتظرتها، ولكنها شعرت بالخوف. لم يكن احتمال فشلها في هذه المهمة أكبر من احتمال فشل أي رئيس حملة آثار آخر. إذ لم تنقصها المعرفة اللازمة أو الخبرة المطلوبة لتولي مهمة من هذا النوع، ولكن ذلك لم يمنع من أن يتملكها الخوف من تولي مسؤولية الحملة، وهي الأولى التي تتولى رئاستها. وهكذا، فقد لجأت للاتصال بأبيها. في البداية، تفاجأ السيد سالم لسماع صوت ابنته المفعم بالتردد، وظن أن مكروهاً قد لحق بها، ولكنه امتلأ بهجة لسماع هذا الخبر السعيد. وقال: "هذه فتاتي! لطالما تحليت بالقوة وعرفت ما تريدينه وتمتعت بقوة الإرادة والتصميم. إنك تجعلينني أفتخر بك على الدوام. يجب علينا أن نحتفل بهذه المناسبة السعيدة. سنخرج معاً غداً لتناول العشاء في مضيق البوسفور. لنتناول السمك!". لم تتصل إسراء بوالدها لتسمع منه رداً من هذا النوع. فقد أرادت أن تخبره عن مخاوفها، وأن تعبر له عن حاجتها لمساعدته ودعمه، ولكنها شعرت بإحراج شديد لكي تشرح له مشكلتها بعد أن أطنب في إغداق المديح عليها وعلى نجاحها. لذا اكتفت بمجرد شكره لا أكثر ولا أقل. ومع ذلك، شعرت بالدموع تتدفق من عينيها بعد أن أنهت المكالمة. لقد أحست بهذا الشعور نفسه عندما وقع والدها في حب نيلجون، وأعلن عن نيته الانتقال من البيت. ورغم أن والدة إسراء- التي لم تستطع أن تجبر نفسها على الانفصال عن الرجل الذي شاطرته حياتها لسنوات عديدة- قد امتنعت عن القول للسيد سليم بكل جرأة إنها لا تقوى على السماح له بالرحيل، فهي لم تستطع أن تقاوم اختلاق المشاكل وإطالة أمد الأزمة قدر المستطاع. وعلى الرغم من أن إسراء أرادت لوالدها أن يبقى بقدر ما أرادت والدتها ذلك، وربما حتى أكثر، فقد بذلت ما بوسعها لئلا تفصح عن مشاعرها بالنسبة إلى ذلك الموضوع. في الواقع، لقد دعمت والدها بكل ما أوتيت من قوة، وانتقدت رد فعل والدتها. فلطالما جمعت بينها وبين والدها علاقة قوية ووثيقة. إذ إنهما انسجما معاً بشكل مدهش خلال سنوات طفولتها، ثم أصبحا بمثابة صديقين حميمين حالما بدأت مرحلة المراهقة. فقد كان والدها رجلاً وسيماً وحكيماً ومتسامحاً ويتمتع بحس فكاهة بارع. ولم يكن يعاني من أي شيء يشبه أوهام أمها، وقلقها، ومخاوفها المستمرة. ورغم اتهامات والدتها المستمرة له بعدم تحمل المسؤولية، فقد أدركت أن والدها أراد أن يعيش حياته فقط بأسلوب مختلف عن أسلوب والدتها. بالنسبة لإسراء، ليس والدها أكثر من أستاذ في الحياة. فقد اعتادا مناقشة مواضيع الفلسفة

لساعات، ثم وضع لفاحيهما والتوجه لحضور مباراة كرة قدم أو لمشاهدة فيلم في السينما. كلا، لم يعاملها معاملة الابن بدلاً من معاملة الابنة، ولكنه لم يعاملها المعاملة التي اعتادت الفتيات أن يتلقينها من آبائهن. من ناحية أخرى، تعمدت أمها اتباع أسلوب تقليدي في تربيتها لابنتها. جعلها خروجها مع والدها تشعر أنها أكثر نضجاً وتطوراً من غيرها من الفتيات، وهذا الاختلاف هو ما أسعدها وجعلها- رغم اضطرابها الشديد لسماعها خبر عزمه على الانتقال من المنـزل- تؤثر أن تدعم والدها في قراره عندما وقع في حب امرأة أخرى. لم تكن كغيرها من الفتيات أو كصديقاتها. ورغم أنها غضبت غضباً شديداً من والدها في أعماقها، إلا أنها في الظاهر طلبت من أمها أن تتحلى بالمزيد من المنطق، وألا تجعل من العملية أكثر عناء من اللازم. وفي سبيل أن تتحلى بالنضج والعقلانية، قابلت نيلجون وعاملتها بلطف رغم أنها شعرت بغيرة جنونية من تلك المرأة التي لا تكبرها سوى بسبع سنوات لأنها ستأخذ والدها منها. فرد والدها على تصرفها الناضج بأن راح يطري عليها ويمدحها لتميزها ويقول أشياء مثل: "إن إسراء مختلفة عن غيرها من الفتيات، فهي تتحلى بالذكاء والنضج والمهارات والشجاعة والثقة الكاملة في نفسها".

تمتمت لنفسها قائلة: "هل أتحلى بالثقة بالنفس بالفعل؟ في الواقع، إنني ربما أفتقر للثقة بالنفس منذ بداية حياتي، ولكنني تظاهرت بها لأن والدي أراد ذلك. فقد حاولت أن أتحلى بتلك الصفة لكي يحبني والدي ويصبح متيماً بـي ويقدرني. إذاً، لماذا لم يدرك والدي ذلك؟ أم إنه عندما قال لي: "إنك تضعين نفسك في مركز العالم". أراد في الحقيقة أن يشير إلى قلة ثقتي بنفسي؟ حقاًا! أيمكن أن يكون الأمر هكذا؟ أيعقل أن قلة ثقتي بنفسي هي السبب الكامن وراء عدوانيتي ورغبتي بالتدخل في كل شيء؟ ربما ينبع شكي المستمر وجهدي المتواصل لوضع كل شيء تحت سيطرتي من هجر والدي لي ولأمي. هذه هي الطريقة الوحيدة التي تساعدني على الشعور بالأمان. كلا، إنني الآن أبالغ، بل حتى أجحف في حق نفسي. إن المشاكل التي نواجهها في مهمة التنقيب عن الآثار مثيرة للقلق بكل تأكيد، وأي شخص في مكاني سيشعر بالتوتر والانـزعاج... ربما لم يكن بيرند ليشعر بالانـزعاج. ليست هناك أية حادثة سيئة قد تثير تينك العينين الزرقاوين الباردتين. آه، هيا، يمكنني أن أتخيل بالضبط كيف سيظل بارد الدم لو أن زوجته فارتوهي ترافقنا هنا في حملة التنقيب عن الآثار...".

جلست إسراء الآن على سريرها وهي بحالة انفعال كاملة، فهي لم

تجد أية فائدة من إجهاد عقلها بتلك الأفكار عديمة المعنى. فهناك عمل يجب إنجازه، والعمل وحده هو ما يتوجب عليها أن تركز عليه. تحول بصرها إلى الهاتف الممدد بجانب كومة من المجلات فوق طاولة السرير. فأمسكت به، وطلبت رقم المخفر. ميز الشرطي الذي رد على المكالمة صوتها على الفور، وبدا مبتهجاً للرد على مكالمتها. أيمكن أن يكون رجال الشرطة قد أحسوا بأن هناك ما يجري بينها وبين النقيب؟ فكرت في سرّها وقد احمرت خجلاً: "حتى لو لم يشعروا بذلك بالفعل، فلن يتطلب الأمر من مجتمعهم الصغير المفتقر لوجود النساء وقتاً طويلاً على الإطلاق ليقرروا أننا مناسبان لبعضنا بعضاً". ثم قالت للجندي على الجانب الآخر من الخط: "هل يمكن أن توصلني بالنقيب؟".

"في الحال، ياسيدي".

وجدت إسراء زلة لسان الجندي الصغيرة ممتعة. لم تمر سوى لحظات قصيرة قبل أن تسمع صوت النقيب.

"مرحباً، إسراء".

"مرحباً، أشرف. كيف حالك؟".

فقال النقيب: "إنني بخير. كيف حالك أنت؟". فوجئت إسراء لدى سماعها نبرة سعادة واضحة في صوته.

فقالت: "إنني قلقة بعض الشيء. فقد قتلوا "رشيد" آغا. بدأت أظن أننا بالفعل لم نعد بأمان هنا".

"لا تقلقي. فكل شيء يسير على ما يرام".

لم تزد نبرة صوت النقيب الموحية بالثقة بالنفس سوى من إحساس إسراء بالدهشة والعجب.

"ماذا تعني بقولك إن كل شيء يسير على ما يرام! لقد وقعت جريمتا قتل خلال ثلاثة أيام فقط!".

"ثقي بـي، فنحن نسيطر سيطرة كاملة على الوضع".

والآن، تحولت دهشة إسراء إلى فضول.

فقالت على أمل أن يتطوع النقيب بتقديم الشرح: "يبدو لي أن هناك بعض التطورات الجديدة، أليس كذلك؟".

"نعم، يجب علينا وحسب أن نتحلى بالصبر".

"إن التحلي بالصبر سهل، ولكن قد يقع مكروه لنا لا قدر الله".

"ثقي بـي. لن يتمكن أحد من إلحاق الأذى بكم".

"ماذا؟ هل تعني أنكم ألقيتم القبض على مرتكبـي جريمتي القتل أو

ما شابه، ياحضرة النقيب؟".

فقال وهو يزداد قلقاً بشكل واضح: "من فضلك، لا تطرحي علي المزيد من الأسئلة، ولكنني أعدك أنه لن يتوجب عليك أن تشعري بالقلق حيال أي شيء اعتباراً من بعد غد".

عندما وصل الحديث إلى هذه المرحلة، بات من الواضح لإسراء أنها لن تتمكن من الحصول على أية معلومات من النقيب.

فقالت وصوتها يعكس ترددها في تصديق كلامه: "آمل ذلك".

"بل ستكونين كذلك. سأودعك الآن وأتحدث إليك في الغد".

قالت إسراء: "إلى اللقاء". ولكنها أضافت قبل أن تنهي المكالمة قائلة: "توخَّ الحذر".

"لا تقلقي. أصبحت منيعاً كلياً أمام أي ألم إضافي".

ففكرت إسراء: "ما الذي يعنيه بهذا الكلام؟". ولكنها لم تعن شيئاً فعلاً بقولها له أن يتوخى الحذر، أمّا النقيب فبدا جاداً في كلامه، فقد تحدث وكأنه شخص ذاهب إلى ساحة المعركة. فكرت إسراء بمرح: "أعتقد أنهم عثروا على القاتل". وظنت أن هذا سيضع نهاية لكل ما يقلقها ويخيفها. تملكتها رغبة عارمة بأن تزف ذلك الخبر لأصدقائها، ولكنها بعد أن فكرت بالأمر ملياً لبضع ثوان قررت أن تعدل عن الفكرة. فماذا إن أخطأ النقيب في ظنه وانتهى بهم المطاف خاوي الوفاض كما حدث معهم عندما أُلقِيَ القبض على شهموز؟ وجدت أنه من الأفضل لها ألا تقول شيئاً لأحد. فإن أثبت النقيب أنه محق في ظنه، فسيخبر الجميع بنفسه في اليوم التالي. وإن ثبت أنه مخطئ، فمن الأفضل لها ألا ترفع آمال الجميع من دون سبب وجيه لذلك.

في تلك اللحظة، سمعت صوت دق على الباب. فاستجمعت شتات نفسها بسرعة، ونهضت على قدميها. وعندما فتحت الباب، وجدت "كمال" واقفاً أمامها بقامته الطويلة النحيلة.

"هل يمكنني التحدث إليك لدقيقة؟".

فقالت: "تفضل بالدخول". وعرفت على الفور سبب مجيئه.

دخل كمال الغرفة متوجهاً نحو الطاولة في الوسط، وكتفاه منحنيتان وهو يجر قدميه جراً.

قال وهو يجلس على أحد الكراسي الفارغة: "ما الذي سأفعله مع هذه الفتاة؟".

"أي فتاة؟".

رمق كمال إسراء بنظرة عتاب، وقال: "إنني مستعد للمغادرة في الحال إن لم ترغبي بالإصغاء إلي".

فقالت وهي تتوجه لتقف بجانب صديقها: "إنني آسفة. إنني لا أحاول أن أجرح شعورك، ولكنك بالفعل تتعامل مع الأمور بجدية أكثر من اللازم".

"أتعامل بجدية أكثر من اللازم؟! ولكنني مغرم بها. إنها تعني لي كل شيء".

فكرت إسراء وهي تجلس على الكرسي بجانب كمال قائلة: "لقد فقد هذا الرجل صوابه بالكامل".

قالت إسراء وقد اكتسب صوتها نبرة قاسية بعض الشيء: "إذاً، ينبغي عليك أن تتحلى بالمزيد من التفهم نحوها. إذ لا يمكنك أن تفوز بعواطفها من خلال كبت أنفاسها".

"أتظنين أنني أخنقها؟".

"إنك تراقبها وتقحم نفسك في شؤونها بشكل مستمر".

"لأنني أحبها".

"من الممكن للمبالغة في إغداق الحب على الآخرين أن تخنقهم. إن إيلاف تتمتع برغباتها ومشاعرها الخاصة ككل شخص آخر. ولا يمكنها أن تعيش وفقاً لرغباتك وأمنياتك أنت. اتركها وشأنها. دعها تتعرف على نفسها، واحترم رغباتها".

هز كمال رأسه خائب الأمل، وقال: "لا أظن أن أحداً يكن لها الاحترام أكثر مني، ولكنها لم تظهر لي أي احترام أو أي اعتبار لرغباتي".

رفع كمال رأسه، فشعرت إسراء براحة غامرة لأنها وجدت أنه لم يجهش بالبكاء.

قال لها بامتنان: "إنك صديقة مخلصة فعلاً، وامرأة قوية أيضاً. أتمنى لو أنني أتحلى بالقدر الذي تتحلين به من القوة".

ارتسمت ابتسامة حزن على شفتي إسراء، وقالت: "أنت مخطئ في ظنك. فأنا لست قوية كما أبدو لك. فلو أنني أمر بالمشاكل نفسها التي تمر بها الآن، لأصبت بالكثير من الارتباك والحيرة".

"ولكن، حتى لو أصبت بالحيرة لبعض الوقت، فستتمكنين من استجماع شتات تفكيرك وشجاعتك مرة أخرى، وستعاودين الوقوف على قدميك، ولكنني لست مثلك".

فكرت إسراء في سرّها: "إن الناس لديهم فكرة خاطئة عني". فقد

خدعتهم جميعاً عندما تظاهرت بكل تلك الشجاعة والحزم والحكمة، ولكنها لم تعتبر نفسها كذلك. فمن هي بالفعل؟ أهي جبانة تفتقر للثقة بالنفس؟ لقد باتت بحيرة من أمرها الآن. عندما رفعت رأسها، وجدت "كمال" يتأملها بعينيه البنيتين، فربتت على كتفه بلطف، وعبثت بشعره البني الفاتح.

"لا تشغل بالك. فكل هذه المشاكل ستمضي بسلام".

"أشك في ذلك. يمكنني أن أشعر بما يجري. فكل شيء يسير نحو نهاية سيئة للغاية؛ وهي أنني سأخسر إيلاف، أو ربما خسرتها وانتهى الأمر".

"هذا ما تظنه في الوقت الحاضر، ولكننا نعاني من أوقات عصيبة هنا، وهذا له تأثير سلبـي على مزاجك على حدٍّ سواء". وتوقفت عن الكلام لحظة، ثم أضافت بتفاؤل قائلة: "ثق بـي. سرعان ما ستتولد لديك أفكار أكثر سعادة مما مضى". قالت هذا وهي تأمل أن يكون قد تم القبض على القتلة في الغد.

á á á

اللوح الثالث عشر

بينما أنا في طريق العودة إلى البيت، حاولت أن أكبح تشاؤمي. ففي اليوم التالي، كنت سأعود إلى المعبد محملاً بالقرابين وسأحاول أن أقتفي أثر أشمونيكال.

انتظرت عودة والدي إلى البيت بلهفة. وحالما وصل إلى البيت، ذهبت ووقفت بين يديه وقلت له إنني رأيت كوبابا في أحلامي وهي تستدعيني إلى المعبد. فتأملني والدي من الأعلى إلى الأسفل، ثم تمتم قائلاً: "إنها ترغب بهدية".

كم كنت ممتناً لأن والدي صدق كلماتي.

فأضاف قائلاً: "إن كانت كوبابا ترغب بالحصول على هدية، إذاً يجب علينا أن نقدم لها أكثر الهدايا نفاسة".

عندما استيقظت في صباح اليوم التالي، وجدت زجاجة من أفخر أنواع الشراب وخبزاً أبيض جيد الخبز وقدراً من العسل وحملاً سميناً بانتظاري. فقد فسر والدي الحلم الذي وصفته له على أنه إشارة تتعلق بمصيري، وخشي أن أثير غضب كوبابا أو أستجلب لعناتها علي، لذا تصرف بسخاء كبير. وبالمختصر، وصلت كذبتي إلى مبتغاها. كان من المستحيل ألا أنال رضا فالفازيتي بتلك الهدايا الثمينة. وضعت الهدايا التي قررت أن أقدمها في عربة يجرها بغل، وانطلقت نحو المعبد مصطحباً اثنين من عبيدنا. وعندما وصلت إلى المعبد، دخلت إلى الغرفة الكبيرة التي تقدم فيها القرابين والنذور، وطلبت نقش اسمي على الألواح التي تستخدم لحفظ السجلات، وسلمت الهدايا للموظفين المسؤولين عن الموضوع. وبعد ذلك، أرسلت العبدين إلى البيت مع العربة والبغل، وتوجهت إلى الطابق العلوي لأقابل فالفازيتي. وبعد أن دخلت القاعة وقدمت احترامي، دخلت الغرفة التي يجلس فيها كبير الكهنة، فابتسم فالفازيتي بلطف عندما رآني أتقدم نحوه.

وقال لي: "أيها الشاب باتاسانا حفيد ميتانوا الحكيم وابن آراراس النبيل، أحسنت صنعاً بأن حضرت إلى المعبد، وجعلت هذا الأمر مهمتك الأولى هذا الصباح. بهذه الطريقة، كسبت حب كوبابا وثقتها؛ عندما أظهرت لها أنك تخشاها وتوقرها. آمل أنك لم تنس أن تحضر لها الهدايا أيضاً".

عندما قال هذا الكلام، سلمته الألواح التي تلقيتها من الموظفين وقلت له: "لم أنس ذلك، ياكبير الكهنة الموقر".

تظاهر فالفازيتي بعدم الاكتراث بذلك، وألقى نظرة خاطفة على الألواح ليعد الهدايا التي أحضرتها، ثم قال: "ستُسامح ياباتاسانا، ولكن احرص على ألا ترتكب الخطأ نفسه مرة أخرى، وألا تكرر الذنب نفسه الذي ارتكبته".

فأجبته قائلاً: "أعدك ألا أرتكب الذنب نفسه مرة أخرى أيها العظيم فالفازيتي".

سر فالفازيتي سروراً جماً من كلامي، فتقدم نحوي ولمس رأسي بيده.

وقال: "إن هذه بشارة خير من أجلك ياباتاسانا. فإن انحنيت بهذه الطريقة وتقربت بهذا الشكل واستجلبت الرضى بالهدايا القيمة، قُدمت لك الحماية وبُعث السرور في نفسك مقابل أعمالك الحسنة".

منحتني كلمات فالفازيتي المهذبة الراقية جرعة من الشجاعة، فأدركت أنه لا يمكن أن يكون هناك وقت أفضل من تلك اللحظة بالذات لأسأله فيها عن أشمونيكال.

فقلت وأنا ألقي بنفسي عند قدميه: "أيها العظيم، من فضلك سامحني، ولكن لدي طلب منك. عندما كنت هنا بالأمس، قابلت المرأة التي أريد أن أرتبط بها مدى الحياة. وكنت أنت، أيها العظيم، من جعل هذا اللقاء ممكناً؛ فاتحدنا معاً. إنني أود أن أعرف من هي تلك المرأة لأتخذها زوجة لي؛ لو منحتني الإذن بذلك، ياسيدي".

أمسك فالفازيتي بيدي، ورفعني لأقف على قدمي. وعندئذ، لاحظت نظرة الغم التي ظهرت على وجه ذلك الكاهن العجوز.

"آه، ياولدي المسكين. من الأفضل أن نتظاهر بأنك لم تطرح عليّ هذا السؤال، وأننا لم نجر هذه المحادثة على الإطلاق".

عندما سمعت هذا الرد منه، أصررت على سماع رد على طلبي.

"من فضلك أيها العظيم، أتوسل إليك، لا تطردني بهذه الطريقة. أرجوك أن تخبرني بما حدث".

اقترب فالفازيتي مني مرة أخرى، وأمسكني بحزم من كتفي، وقال: "أيها الشاب باتاسانا. لقد وقعت في حب أكثر امرأة يستحيل عليك الوصول إليها، فهي الآن ملك للملك بيزيريس".

عندما سمعت هذه الكلمات من فالفازيتي، بدأ قلبي يخفق بشدة من الرعب كقلب ذلك الراعي الشاب الذي جرفته مياه نهر الفرات في العام الفائت. عندما لجأ ذلك الراعي لمقاومة التيار، تمسك بالشجيرات النامية على الضفة، لذا قمت بمحاولة أخيرة وتمتمت قائلاً: "ولكن بيزيريس

لديه ملكة".

هز فالفازيتي رأسه بعجز، وقال: "لم يأخذ بيزيريس أشمونيكال لتصبح ملكة، بل سوف يستفيد منها في خدمات متنوعة وسيضمها إلى حريمه".

عانيت من وقت عصيب في استيعاب ما يجري، ثم قلت: "حسناً، إذاً لماذا حضرت أشمونيكال إلى المعبد أمس لتؤدي الطقوس معي؟".

"لأن أشمونيكال لم تكن تريد بيزيريس، ولكنها أدركت كل الإدراك أنها لن تتمكن من ممانعة أوامر الملك، لهذا السبب لجأت تلك الفتاة المسكينة لحماية كوبابا، وأرادت أن تمنح نفسها لرجل اختارته لها وليس لملك لا تحبه ولا تريده، ولهذا السبب التقيتما يوم أمس. صباح اليوم، دخلت أشمونيكال القصر لتصبح إحدى المحظيات في حريم الملك".

شعرت بكل كلمة سمعتها من الكاهن وكأنها طعنة خنجر قاسية تعجل بمصيري القاتم المحتوم. فقد انتهى المطاف بأشمونيكال المسكينة بين يدي أحمق عديم الفائدة على شاكلتي، وهكذا لم تتمكن من منح نفسها لكوبابا. بينما مرت كل تلك الأفكار برأسي، استغل فالفازيتي فترة الصمت ليواصل تحذيراته.

فقال: "أصغ إلي. إنني أحبك كما أحب ابني. لقد كان جدك ميتانوا رجلاً مزعجاً، ولكنني لطالما اعتبرته صديقاً من أعز أصدقائي حتى وفاته. أما والدك آراراس، فلم أقابل خلال سنوات عديدة موظفاً حكومياً مثله يتمتع بذلك القدر من الفضيلة والحكمة. أنت تنتمي لسلالتهما ونسبهما، لذا يجب عليك أن تطفئ النار التي أشعلتها أشمونيكال في داخلك، وأن تنحني للقدر المرسوم لك. لا تنس أن الملك هو ممثل تيشوب وعائلته على الأرض ومحبوبهم. ومعارضة الملك تعني التمرد على تيشوب وعائلته...".

كان فالفازيتي محقاً في كلامه. فإن رغب ملكنا بأشمونيكال، توجب علي أن أطيع هذا الأمر وأنسى حبي الأول لأشمونيكال التي أجدها نبيلة وجميلة وطاهرة. وهكذا، تحملت آلامي ومعاناتي بمفردي من دون أن أفصح عن حبي لأحد على وجه الأرض.

á á á

الفصل الرابع عشر

وجدت نفسها وحيدة فجأة. ومرت لحظة وجيزة عجزت فيها عن تذكر مكان وجودها. فقد شعرت أنها سقطت في خواء شاسع لا حدود له. انتابها هذا الشعور نفسه في الأيام الأولى التي مرت بعد انفصالها عن أورهان. فقد ظلت لأيام عديدة عاجزة عن الاعتياد على الفكرة، ولكنها هي التي اختارت الانفصال. ومع ذلك، مرت سنوات على وقوع الطلاق بينهما، فما الذي دهاها الآن بعد مرور كل تلك المدة الطويلة؟ جلست على سريرها وهي تشعر بالإحباط. وتذكرت حديثها مع كمال، وكيف تسللت عائدة إلى السرير حالما غادر صديقها الغرفة. نظرت من النافذة، ورأت شعاع شمس فترة العصر الناعم يتسلل إلى الغرفة من خلال قطعة القماش الرخيصة التي وضعت كستارة. لا بد أنها استغرقت في النوم لوقت طويل، ولم يأتِ أحد لإيقاظها. فتملكها بعض الانـزعاج لاستغراقها في النوم طوال هذا الوقت؛ لأنها أرادت أن تعمل على مراجعة بعض الملاحظات المتعلقة بالآثار. نهضت من السرير وهي تتثاءب، ونظرت إلى وجهها في المرآة المعلقة على الجدار. بدت مرهقة، وأضفت عليها خصلات الشعر العالقة على جبهتها المبللة بالعرق مظهراً مشوشاً. لم يعجبها ما شاهدته في المرآة، ولكنها لم تزعج نفسها بذلك. فنسقت خصلات شعرها بيديها، ثم توجهت خارجة من الغرفة.

استقبلت إسراء رائحة الباذنجان المحشي الشهية، والقادمة من الغرفة التي اعتاد خلف استخدامها كمطبخ. فبعد تلقيه طلباً خاصاً من الجميع، قرر خلف أن يعد لتلك الليلة طبق الباذنجان المحشي والكبسة باللحم بدلاً من الطعام المحلي، وإلى جانبهما الخيار المفروم باللبن الرائب الذي تُضاف إليه كمية وافرة من النعاع المجفف والقليل من الثوم المهروس.

خشيت إسراء أن تسترسل في محادثة طويلة مع الطاهي الثرثار، فلوحت له بسرعة قائلة: "سلمت يداك". ثم توجهت بسرعة إلى غرفة الصف التي يمكث فيها كل من تيومان والآخرين. صادفت بيرند وهي تدخل من باب المدرسة، فقال الألماني مبتسماً: "كنت في طريقي لمقابلتك الآن. لقد اتصل السيد كرينشر قبل قليل. يريدون عقد المؤتمر الصحفي يوم الأربعاء القادم. إنه يتساءل إن كان الموعد يناسبك".

أصيبت إسراء بالهلع، وقالت: "يوم الأربعاء! في هذا الوقت المبكر؟".

قال الألماني وهو يعبر بشكل واضح عن استحسانه لهذا التاريخ

بالذات: "لا تزال هناك أربعة أيام قبل يوم الأربعاء".

فقالت إسراء: "لست أدري". فقد خشيت أن يباغتها الموعد وهي على غير استعداد، فقالت: "لنتحدث مع الآخرين".

"حسناً، لنسألهم أيضاً. ولكن، هناك شيء آخر يجب أن تعرفيه".

نظرت إسراء إلى وجه بيرند وهي تخشى أن تسمع منه مشكلة أخرى يجب التعامل معها.

"ما هو؟".

"لنتمشَ قليلاً ونتحدث إن كان لديك متسع من الوقت".

"كنت ذاهبة لألقي نظرة في غرفة الكمبيوتر. فأنا لم أمر عليهم عصر اليوم".

"لقد ذهبوا جميعاً للسباحة. لم يبق سوى تيم، وهو يعمل على فك شيفرة الألواح كما وعدك".

"هل ذهبت إيلاف وكمال معهم أيضاً؟".

"نعم، لقد ذهب الجميع".

سرت إسراء لسماع هذا الخبر، وابتسمت بعفوية.

فسأل بيرند بأدب: "ربما تودين أن تذهبي للسباحة؟".

فكرت إسراء للحظة وجيزة وقالت: "لِمَ لا؟". ولكنها غيرت رأيها.

"كلا، انسَ الموضوع. لست في حالة تسمح لي بالسباحة الآن. دعني ألقي التحية على تيم ثم يمكننا الخروج معاً".

دخلا غرفة الأمريكي، فوجدا تيم يقوم بإعداد نسخ نظيفة من ترجمة الألواح. نهض على قدميه حالما رآهما، وطلب منهما الدخول، ثم التفت لينظر إلى إسراء.

وقال لها: "إنني أبذل ما بوسعي لأنجز ترجمة الألواح بحلول الموعد المحدد كما وعدتك".

"هل هناك أية معلومات جديدة؟".

"كلا، ليست هناك معلومات جديدة، ولكن من الصحيح بشكل مؤكد أن هذه أقدم وثائق تاريخية غير رسمية تم اكتشافها على الإطلاق. فكل كلمة وكل سطر أترجمه يثبتان أن هذا صحيح".

تمتمت إسراء قائلة: "ممتاز".

"لِمَ لا تجلسان؟".

"لا نريد أن نـزعجك، ولكننا مررنا بك لمجرد إلقاء التحية. لقد اتصل البروفسور كرينشر من المعهد الألماني للآثار. إنهم يتساءلون إن كنا نريد أن

نعقد المؤتمر الصحفي يوم الأربعاء القادم".

تغيرت ملامح بيرند، فقد استاء لأن إسراء أخبرت تيموثي عن المؤتمر من دون أن تسمع أولاً ما أراد أن يقوله لها.

قال تيموثي: "لا مانع لدي".

فوجئت إسراء بجواب الأمريكي لأنها ظنت أنه سيجد ذلك الموعد مبكراً جداً.

"يبدو لي الموعد مبكراً بعض الشيء".

قال تيموثي معبراً بوضوح عن عدم اتفاقه مع إسراء في هذا الصدد: "لا تزال أمامنا أربعة أيام حتى حلول ذلك الموعد. في كل الأحوال، ألم نقل إننا سنعقد المؤتمر في الأسبوع المقبل على الأكثر؟".

فقال بيرند متدخلاً في المحادثة ومسروراً من كلمات تيموثي: "نعم، هذا صحيح. فالمعهد هو الذي يتحمل الحجم الأكبر من المسؤولية، والمسؤولون فيه يقولون إنهم مستعدون لعقد المؤتمر في هذا الموعد".

قالت إسراء وهي تتجه نحو الباب: "سوف نناقش هذا الموضوع في الاجتماع مساء اليوم. دعنا الآن نتركك لكي تتسنى لك العودة لمواصلة عملك".

فقال لهما تيموثي مودعاً: "سأراكما أثناء تناول العشاء".

بعد أن غادرا المدرسة، لم يتوجها إلى التعريشة، بل تمشيا على طول الطريق الذي تحفه أشجار الحور من الجانبين والمؤدي إلى القرية المجاورة. وكانت حرارة اليوم قد بدأت تخف قليلاً، مما أفسح المجال لبرودة ساعات المساء المنعشة.

استهل بيرند الحديث قائلاً: "كما تعلمين، لقد عانى فرع المعهد في إسطنبول من وقت عصيب للحصول على تمويل لهذه المهمة للتنقيب عن الآثار. فالأساتذة هناك في ألمانيا لم تكن لديهم آمال كبيرة في الحصول على أية مكتشفات أثرية مهمة في هذا الموقع بعد أن تم التنقيب فيه عدة مرات من قبل. ونشأت لديهم نـزعة عامة لتحويل المصادر إلى مواقع تنقيب أكثر أهمية من هذا الموقع للتنقيب فيها".

تولد لدى إسراء انطباع من مجرى الحديث، وهو أن الألماني يسعى لمدح نفسه، لذا سارعت بمقاطعته قائلة: "ولكنهم في نهاية المطاف منحونا التمويل اللازم".

"هذا صحيح، ولكن بفضل السيد كرينشر. ولو أنه لم يبذل قصارى جهده لإقناعهم، لما تمكنا من الحصول على قرش واحد".

هزت إسراء رأسها موافقة على كلامه، وقالت: "أنت محق. فنحن مدينون بالكثير للسيد كرينشر".

"لقد مدنا الرجل بيد المساعدة، لذا ينبغي علينا بدورنا أن نرد له الجميل".

توقفت إسراء للحظة، ورفعت رأسها لتنظر إلى زميلها الألماني الذي بدا أطول قامة منها بخمسة عشر سنتمتراً على الأقل.

فشرح بيرند قائلاً: "إن الجدل في مقر المعهد مستمر حتى الآن. فهناك من يظن أن مبلغاً كبيراً من المال- أكثر ممّا يلزم- قد تم استثماره في هذه الحملة، لذا هم يفكرون بمناقشة هذه المسألة مرة أخرى في اجتماعهم التالي بعد خمسة عشر يوماً من الآن".

سرت إسراء لأن المحادثة ذهبت في مجرى مختلف عن الذي ظنت أنها ستذهب فيه.

فقالت: "فهمت قصدك. إنك تعني أن هذا هو السبب الذي جعل البروفسور يرغب بعقد هذا المؤتمر الصحفي في أسرع وقت ممكن، أي لكي يسكت أفواه المعارضين".

"نعم، هذا بالضبط ما عنيته".

"في هذه الحالة، ليس لدينا خيار سوى عقد المؤتمر الصحفي يوم الأربعاء".

"هذا صحيح".

"حسناً إذاً، إنني أتفق معك. لا أحد يريد أن يرى التمويل ينقطع عنا".

فقال بيرند: "ولكن سيكون من الأفضل ألا يعرف بقية أفراد فريق التنقيب عن الآثار بشأن هذا الانقسام الحاصل داخل المعهد".

قالت إسراء وهي تغمز بيرند بعينها مداعبة: "لا تقلق على الإطلاق. لن يعرف أحد شيئاً، ولكن يجب علينا أن نبدأ الاستعداد للمؤتمر الصحفي على الفور".

"لا أظن أن التحضيرات ستستغرق وقتاً طويلاً. فتيموثي لديه الكثير من الخبرة في هذا المجال، وسوف يرشدنا للمضي قدماً فيه".

"أنت محق. لدى تيموثي الكثير من العمل ليتولى مسؤوليته. لذا، دعنا نناقش هذا الأمر أيضاً في الاجتماع مساء اليوم".

تمشيا على طول الطريق في ظل أشجار الحور إلى أن بات بوسعهما رؤية مسجد القرية.

قالت إسراء بعد أن رأت أنهما اقتربا من القرية: "لنعد إلى المدرسة إن أردت ذلك. فربما عاد الشبان من السباحة الآن".

لم يبد بيرند أي اعتراض، لذا التفتا إلى الوراء، وحثا الخطى عائدين إلى المدرسة. خيمت فترة صمت أخرى عليهما. لم يبد على الألماني أنه يمانع بذلك، لذا راح يثب على طول الطريق على أطراف أصابع قدميه، ولكن الصمت أزعج إسراء.

فقالت: "أريد أن أطرح عليك سؤالاً". فقد تملكها الفضول حيال هذا الأمر منذ أن شاهدت بيرند يكتب رسالته في اليوم الفائت. في الواقع، ترددت للحظة متسائلة إن كانت تقحم نفسها في حياته الخاصة بطرح هذا السؤال عليه، ولكنها أصبحت تعرف حق المعرفة كم يستمتع بيرند بالتحدث عن زوجته، لذا قررت أنه من الأفضل أن تلطف الأجواء بينهما ببعض الثرثرة بدلاً من أن يواصلا المشي بصمت.

سألته قائلة: "لماذا تتكبد عناء كتابة الرسائل لزوجتك رغم أنه يمكنك التحدث إليها عبر الهاتف بكل بساطة؟".

تلونت وجنتا بيرند بحمرة خجل خفيفة لم تغب عن ملاحظة إسراء.

فقالت بأدب: "إنني آسفة. ليس عليك أن تجيب عن هذا السؤال إن لم تشعر برغبة بذلك، ولكنني أشعر بالفضول ليس إلا".

قال بيرند: "ليس هناك سبب يمنعني من الإجابة عن سؤالك". لم تر إسراء في وجهه أي دليل على شعوره بالإهانة أو شيء من هذا القبيل. قال: "في الواقع، نحن نتحدث عبر الهاتف أيضاً، ولكنني أستطيع أن أعبر عما أريد قوله بشكل أفضل في الرسائل. وفارتوهي تحب أن نتواصل بهذه الطريقة".

"هل تكتب لك الرسائل أيضاً؟".

"لسوء الحظ هي لا تكتب لأنها تكره الكتابة. لذا تتصل بـي هاتفياً عندما تتلقى رسالة مني".

فانفجرت إسراء ضاحكة، وقالت: "أهذا هو الوقت الذي تتحدثان فيه عبر الهاتف إذاً؟".

انضم إليها بيرند ضاحكاً، وقال: "نعم، هذا ما أعنيه. إننا نتحدث عبر الهاتف عندما تتصل بـي، ولكن أحاديثنا تكون، إن صح التعبير... إنها...".

"فاترة؟".

"نعم، إنها فاترة... لا يسعني أن أقول ما أريد قوله... إن الخطأ خطئي أنا على الأرجح. فالناس الآخرون يجرون محادثات رائعة جداً عبر

الهاتف".

"لا أظن أن ثمة أي خطأ في هذا. إنني أود أن يقوم الرجل الذي أحبه بكتابة رسائل لي أيضاً، ولكن هناك القليل من حالات الحب التي تشبه حالتكما. أعتقد أن زوجتك امرأة محظوظة جداً".

بدا احمرار وجه بيرند الآن أشد وضوحاً من ذي قبل.

"هذا ما تقوله زوجتي أيضاً، ولكنني أظن أنني أنا سعيد الحظ في هذه الحالة".

التفت ونظر إلى زميلته، ثم واصل الكلام بانفعال وكأنه يخشى ألا تصدق كلامه، وقال: "لقد أذهلتني بجمالها في المرة الأولى التي رأيتها فيها وهي جالسة في حديقة جامعة هايدلبرغ. وجدتها في غاية الجمال حينها؛ بشعرها الأسود المجعد وبشرتها الداكنة وعينيها السوداوين اللامعتين. ولكنني لم أدرك يومها أنها المرأة التي أبحث عنها".

"المرأة التي تبحث عنها!".

"تعرفين كيف يقولون إن كل شخص يبحث عن شخص آخر شبيه به أو شيء من هذا القبيل. أعني شخصاً تتفقين معه في معظم الأشياء، أو يجعلك حضوره تشعرين أنك بسلام؛ شخصاً تعرفين أنك ستحبينه بلا حدود للأبد".

تساءلت إسراء قائلة: "ترى، هل يوجد شيء من هذا النوع على أرض الواقع فعلاً؟".

تابع الألماني كلامه قائلاً: "اتضح لي أن فارتوهي هي تلك المرأة، أعني نصفي الآخر".

"هل زوجتك مختصة في علم الآثار أيضاً؟".

"نعم، لقد ارتدنا الجامعة نفسها، ولكنها من فرنسا. كما قلت لك، في البداية جذبني مظهرها كفتاة جميلة داكنة البشرة، ولكنني تعرفت عليها أكثر فأكثر إلى أن أدركت أنني لا أستطيع العيش بدونها".

حدّقت إسراء ببيرند بعينين غير مصدقتين، وسألته: "منذ متى وأنتما تعرفان بعضكما بعضاً؟". هذه المرة، لم تطرح عليه السؤال لمجرد الثرثرة والتسلية، ولكن من باب الفضول الحقيقي.

فقال الألماني وعيناه تشعان بسعادة وكأنه يسترجع ذكريات جميلة: "منذ سبع سنوات. ونحن متزوجان منذ ثلاث سنوات".

"سامحني على جرأتي في طرح مثل هذا السؤال، ولكن سبع سنوات وقت طويل. ألم تشعر بالملل منها؟".

فقال بيرند وهو يهز رأسه: "بالتأكيد لا. من المستحيل أن أشعر بالملل وأنا معها".

"ربما لأنكما بعيدان عن بعضكما في أغلب الأوقات عندما تذهبان في مهمات التنقيب عن الآثار".

"هذه هي المرة الأولى التي نفترق فيها. فنحن نذهب في حملات التنقيب عن الآثار معاً".

تأملت إسراء زميلها برهبة، وقالت: "أنتما تنتميان لفصيلة منقرضة من العشاق. فقد بدأت أشعر بالملل خلال السنة الثانية التي مرت على زواجي".

"إذاً، أنت لم تعثري على الشخص المناسب لك".

"لأكون صريحة معك، لا أظن أن هناك شيئاً من هذا القبيل. فقد كنت مغرمة بأورهان، أعني طليقي، ولكن بمرور الوقت ذوى سحر الحب وبهت".

أمسكت عن الكلام، فقد أوشكت أن تقول: "إنني على الأغلب لست مستعدة للزواج". ولكنها غيرت رأيها. عندما أخبرت أورهان في ذلك الوقت أنها تريد الطلاق، اتهمها بأنها غير ناضجة وعديمة المسؤولية، وقال إن سبب ذلك هو أنها أرادت أن تحذو حذو والدها. لم تسهم ملاحظات أورهان الاتهامية حول والد إسراء سوى بإشعال شجار عنيف آخر بينهما. فلم يعودا يتكلمان مع بعضهما بعضاً لأيام، ولكن ذلك ربما شكل فائدة لهما لأنه ساعد أورهان على الاعتياد على فكرة الطلاق. فقد كان أورهان مثل بيرند، أي اعتاد أن يقول لها: "إنني أشعر أنني كامل عندما أتواجد برفقتك". أو "أشعر أنني مجرد نصف إنسان بدونك". لقد تعلمت إسراء عن جذور هذه الفكرة الأفلاطونية من والدها. إذ يتحدث الفيلسوف أفلاطون في كتاب له بعنوان "الوليمة"- وهو مبني على محاضرة ألقاها معلمه أرسطو- كيف أن نوعاً من البشر خلق على شكل مخلوق له أربع أذرع وأربع سيقان ورأسان، وكيف أن زيوس شعر بالغيرة من هذا المخلوق المثالي الكامل فعمد إلى قسمه إلى نصفين، وهذا هو السبب الذي يجعل الناس يقضون حياتهم في البحث عن نصفهم الآخر؛ وفقاً للأسطورة. لا يهم إن كان الشخص الذي يتحدث عن هذا النوع من الحب مفكراً وفيلسوفاً مثل سقراط وأفلاطون أو عاشقاً مخلصاً كبيرند وأورهان، فإسراء لم تستطع أن تتفهم تلك الفكرة. فكيف يمكن لشخص أن يجد نفسه في شخص آخر؟ أو يختصر العثور على نفسه في مجرد شخص واحد؟ ماذا عن مجالات

الحياة الأخرى كعلم الآثار والأصدقاء والعائلة...؟ وإمكانية إقامة علاقات في هذا العالم؟ والتنوع الكبير المتاح للناس ليدركوا طاقاتهم الكبيرة الكامنة في داخلهم...؟ لقد تحدث أولئك الناس عن كائنين يتحدان في كيان كامل واحد وانسجام مثالي. نعم، من الممكن لهذا أن يحدث في بعض اللحظات المحددة؛ فقد يشعر العاشقان بالمشاعر نفسها في الوقت نفسه، وبالفرحة نفسها، والحزن والانفعال نفسيهما وهما في حالة غزل أو تفكير أو نقاش أو عمل أو استماع إلى الموسيقى، ولكن دوام هذه المشاعر لا يمكن أن يحدث إلا من خلال نوع من أنواع المعجزات، أو إن نجح الشخصان في خداع نفسيهما للتصديق أن ذلك صحيح وحقيقي. إن عيش شخصين في حالة انسجام كامل لا يعني سوى تدمير جمال ذلك الانسجام وتفريغه من معناه. بالنسبة لإسراء، ما يصفه بيرند وأورهان بأنه "انسجام بعيد المدى" يعني لحظات مملة لا نهاية لها، حيث يخضع كل من الاثنين للنوع نفسه من التفكير والسلوك كالآخر.

خلافاً لقول أورهان، لم تشاطر إسراء والدها رأيه في هذا الصدد. فقد قال والدها إنه مغرم بنيلجون، ولكنه أضمر المشاعر نفسها لوالدتها من قبل، لذا فالحب الذي بدأ يضمره لنيلجون سيبهت ويختفي بدوره؛ بالضبط كما ذبل حبه لوالدتها بمرور الوقت. ترى، هل توجب عليه فعلاً أن يهجر زوجته التي لم يعد يكنّ لها أي حب بعد الآن، ولكنه ظل يحترمها وينسجم معها ومع ابنته التي لطالما ادعى أنه يحبها حباً شديداً من أجل عاطفة عابرة من ذلك النوع؟ اتضح لإسراء في ما بعد أنها كانت محقة في ظنها. فالحبيبة التي أطنب والدها في مدحها ورفعها إلى مراتب الملائكة طوال السنوات الأولى التي قضياها معاً، تحولت بمرور الوقت إلى مصدر سخرية مستمر. ورغم أنها عرفت منذ البداية أن الأمور ستؤول إلى هذا المصير، فقد امتنعت عن قول ذلك لوالدها، ولم تفعل هذا الآن على حد سواء.

قال بيرند: "يبدو لي أنك في مكان آخر. بِمَ تفكرين؟".

قالت إسراء وهناك ابتسامة سخرية مرسومة على وجهها: "أفكر بأنني لست شخصاً كاملاً. لا أظن أن لدي القدرة على حب شخص ما لوقت طويل. فأنا غير قادرة على الارتباط بشخص ما بتلك الطريقة الأفلاطونية المثالية".

عندما قالت هذا الكلام، توقعت من بيرند أن يقدم لها رداً مهذباً مثل: "آه، كلا ياعزيزتي. كيف يمكنك أن تفكري بهذه الطريقة؟". ولكن

بيرند لم يظهر أي تردد في إظهار أفكاره الحقيقية حول الموضوع.

"لا يمكنني القول إن كنت شخصاً كاملاً أم لا. ولكن، من المؤكد أنك غير سعيدة الحظ لأنك عاجزة عن العثور على الحب الحقيقي".

فكرت إسراء بينها وبين نفسها: "لماذا ينبغي أن أعتبر سيئة الحظ؟ لِمَ لا يكونون هم أصحاب الحظ السيئ؟". فقد وجدت خياراتهم شديدة التقيد، وبعيدة كل البعد عن السعادة الحقيقية. فأين يكمن الجمال في أن يضع المرء حبيبه في مركز حياته ثم يدعه يدمرها عندما يرحل، أو حتى في ما يفعله كمال مع إيلاف بتحويل حياتها إلى سجن؟ ومع ذلك، فهي لم تفصح عن هذه الأفكار لبيرند.

وبدلاً من ذلك، أجابت ببساطة: "ما الذي يمكنني فعله، هكذا خلقني ربـي".

"ستتغيرين أيضاً حالما تعثرين على الشخص المناسب".

والآن، وجد هذا الشاب في نفسه الشجاعة الكافية ليحاول التخفيف عنها!

فقالت إسراء التي قررت أن تحول المحادثة إلى لعبة: "حسناً إذاً، إلى أي حد تحب زوجتك؟".

"كثيراً. لدرجة أنني مستعد لفعل أي شيء من أجلها".

جعل تعبير وجه بيرند الحازم وهو يقدم لها هذا التأكيد الطفولي إسراء تضحك.

"إن ما تقوله فضفاض جداً لدرجة تجعله بلا معنى. على سبيل المثال، ماذا إن طلبت منك أن تتخلى عن مهنتك؟".

"لن تفعل ذلك".

"لنفترض أنها فعلت".

"لن تطلب مني ذلك مطلقاً. ولكن، حتى لو فعلت، فأنا مستعد عندئذ للتخلي عن مهنتي. ليس هناك أي شيء لست على استعداد للقيام به من أجلها".

"حقاً؟".

"بالطبع! ذات مرة، شاركت في مظاهرة احتجاج على مذبحة إبادة الأرمن من أجلها. إنني أخشى الشرطة كثيراً في العادة، ولكن عندما هاجمت الشرطة ثلاث نساء من بينهن فارتوهي، انقضضت عليهم، ودار بيننا اشتباك خطير إلى حد ما. فأخذوني إلى المخفر، وكدت أن أتعرض للطرد من الكلية، ولكنني لم أندم قطّ على ما فعلته لأنه جعلني أصبح بطلاً في نظرها،

فبدأت تحبني أكثر من ذي قبل بعد ذلك اليوم".

عندما لاحظت إسراء التعبير الجاد الذي بدا في عيني بيرند الزرقاوين، أدركت أنه يقول لها الحقيقة، ولكن لم يسعها إلا أن تعبر عن تحفظها على كلامه.

"إن كون المرء هدفاً لحب من هذا النوع أمر رائع، ولكنه مخيف أيضاً".

"ما المخيف في الأمر؟".

"ماذا سيحصل إن قررت فارتوهي ذات يوم أن تتركك؟".

"لن تفعل هذا. ستظل تحبني طالما أنا أحبها".

"هيا الآن. حتى التوائم السيامية لا تلازم بعضها بعضاً لهذه الدرجة".

"ليست لهذا أية علاقة بالانسجام الجسدي، بل له علاقة بالروح".

قالت إسراء وهي تحدق به بنظرة خالية من التعبير: "هذا صحيح على الأرجح، ولكنني يجب أن أعترف أنني عاجزة وحسب عن فهمه".

"هذا يفاجئني كثيراً في الواقع. فالنساء بشكل عام لا يفكرن مثلك. فالحب من الناحية الرومانسية هو من الكلمات السحرية في حياتهن".

"أنت محق. فالحب يحتل أهمية كبيرة في حياة النساء، والبعض منهن يعتقدن به فعلاً إلى أن ينتهي بهن المطاف وهن يجنين من الألم منه أكثر مما يجنين من السعادة. والبعض الآخر يستخدمنه للتحكم بالرجال على هواهن... على أية حال، هذا موضوع آخر... في الواقع، ينبغي أن أقول لك إن وجهة نظرك في هذا الصدد قد فاجأتني أيضاً".

"لماذا؟".

قالت إسراء محولة الموضوع إلى دعابة الآن: "لم أتوقع هذا القدر الكبير من الحب من الألمان. هل أنت واثق من أنه ليس لك جد فرنسي أو ما شابه؟ أو لاتيني ربما؟ أو قد يكون أحد أقاربك من بين المهاجرين من البرازيل؟".

فانضم بيرند إليها ضاحكاً.

ثم قال وهو يمازحها موبخاً بعض الشيء: "من الواضح أنك لم تقرئي كتاب غوتيه "آلام الشاب فيرتر". فقد كان غوتيه أيضاً عاشقاً رائعاً، فهو ينظر إلى الحب على أنه نهر الجنون الذي ينظف الروح ويطهرها".

á á á

اللوح الرابع عشر

بعد أن خسرت أشمونيكال في اللحظة التي عثرت عليها فيها، رحت أتجول في الأنحاء على غير هدى. فخلفت وراء ظهري المعبد، وكلمات فالفازيتي، وكذلك أشمونيكال. أدركت الآن أنه ينبغي عليّ أن أدعها وراء ظهري، وأن أمحو صورتها وعطرها ورنين صوتها من ذاكرتي وأنسى كل ما يتعلق بها.

دخلت إلى السوق وتجولت بين البائعين والعبيد والمتسوقين كشبح حقيقي، ثم اتجهت نحو سور المدينة ومنه إلى بوابة الماء. خرجت من البوابة ومشيت نحو نهر الفرات. رأيت مياه النهر القديم تتدفق وهي تبدو طينية بلون الدماء. فمشيت على طول النهر وأنا أشعر أن قدمي تحملان جسدي وتمضيان به إلى حيث تريدان. رحت أحث الخطى إلى أن وصلت إلى ذلك المكان مقابل الجزيرة الصغيرة حيث اختبأ جدي ميتانوا لثلاثة أيام وليال بعد وفاة زوجته توناوي، ثم سقطت راكعاً على ركبتي مقابل الجزيرة الصغيرة وأجهشت بالبكاء. لطالما علموني أنه من غير اللائق أن يبكي الرجل، ولكن ألمي وغضبي العظيمين جعلاني لا أكترث لأي شيء. فرحت أبكي ما شاء لي البكاء. فقد شعرت بالغضب من الملك ومن أشمونيكال رغم أنه لا ذنب لها في ما جرى. والأهم من كل ذلك هو أنني غضبت من نفسي. بكيت إلى أن استعدت وعيي وطهرت نفسي من غضبي، وإلى أن تبدد الحزن الأسود من قلبي. وبعد لحظات، وجدت نفسي أتأمل تلك الجزيرة الصغيرة، فرأيتها واقفة هناك في منتصف النهر وكأنها تدعوني لأبعد نفسي عن قدري. ربما يتوجب عليّ أن أفعل ما فعله جدي، وأن أعيش في تلك الجزيرة لبضعة أيام، ولكن هذا سيفتضح سر حبي. وتيشوب وعائلته وحدهم يعرفون ما سيكون عليه مصيري إن عرف الملك بيزيريس أنني عاشق لحبيبته الصغيرة أشمونيكال. وبينما أنا أتفجع وأندب حبي المفقود، فكرت بغضب الملك بيزيريس. كم تقت لوجود جدي ميتانوا إلى جانبي في تلك اللحظة. من المؤكد أنه كان سينصحني في ما يجب علي فعله، وسيبث في قلبي بعض الشجاعة. ومع ذلك، فأنا العاشق الجبان الأحمق المثير للشفقة باتاسانا عجزت عن فعل أي شيء سوى البكاء بصمت وتهدئة العاصفة الهوجاء في قلبي بدموعي. وقررت أن هذا الحب يجب يبقى سراً بيني وبين كبير الكهنة. كنت أثق به، وأعرف أنه لن يكشف سري للملك. ورغم أنه لم يخفق قطّ في إظهار احترامه وتقديره

خلال مراسم الاحتفال، إلا أنني ظننت أنه لا يضمر للملك الكثير من المودة. أما بالنسبة إلى أشمونيكال، فقد بت مدركاً تماماً أنها نسيت أمري منذ اللحظة التي شهدت فيها بأم عينيها مقدار فشلي وعجزي. جلست على ضفة نهر الفرات إلى أن خيم الظلام حولي، وعادت الذئاب إلى جحورها والطيور إلى أعشاشها. وبعدت أن كفكفت دموعي المنهمرة من عيني، توجهت عائداً إلى المدينة.

شكل ضوء المصابيح الخافت غطاء كافياً لعيني المتورمتين من البكاء، لذا لم تلاحظ أمي حالتي المزرية. أما بالنسبة إلى والدي، فالسحب المنذرة بالشؤم التي خيمت عليه وأثقلت على صدره أعمت بصره حتى كاد لا يرى أرنبة أنفه ناهيك عن أن يلاحظ أحزان ولده الشاب.

á á á

الفصل الخامس عشر

كان الظلام قد حل عندما جلس أفراد فريق التنقيب عن الآثار ليتناولوا عشاءهم على أنغام غناء الجداجد المتكرر الرتيب.

قال تيومان وهو يتناول الباذنجان المحشي باللحم المفروم بشهية كبيرة: "آه، نعم، هذه هي الوجبة التي انتظرتها منذ أيام. كم أحب هذا الطبق!".

فكان مراد- الذي تلاشى تأثير التوبيخ الذي تلقاه من إسراء في الصباح من ذهنه- أول من بدأ في مضايقة تيومان.

"هيا الآن ياتيومان، قبل يومين فقط قلت عن طبق الحلوى إنه طبقك المفضل".

فسارع تيومان وهو من سكان مدينة إزمير الأصليين للدفاع عن نفسه: "إياك والتطرق إلى هذا الموضوع، ياصديقي". لم يكن مراد يعرف متى يتوقف عن المزاح، وغالباً ما أثارت إغاظته أعصاب صديقه. أضاف تيومان: "إنني أحب طبق الحلوى على حد سواء، ولكن هذا الطبق ينتمي لفئة مختلفة كلياً عن ذلك. هل تعرف ما الذي أخشاه أكثر من كل شيء؟ أن يفرض الأطباء علي حمية خالية من الباذنجان عندما أتقدم في السن".

"في أمريكا، يستخدمون الباذنجان علفاً للجياد". وهذه المرة كان تيموثي من جرب حظه في إثارة غضب خبير الآثار الآخر.

ولكن "خلف" اقترب في تلك اللحظة من الطاولة وفي يده قدر مليئة بالأرز واللحم ورد على كلمات الأمريكي.

فقال: "آه، لا تقل هذا ياتيم. إن الباذنجان هو ملك الخضروات. لا أظن بالفعل أنه من المناسب أن تحط من قدره بهذا الشكل. في بلدتي الأصلية التي أتيت منها، نعد خمسة عشر طبقاً مختلفاً من الباذنجان".

لم يصدق مراد كلمات الطاهي، وقال: "وكأن هذه الكلمات ليست كلها من باب الدجل والترهات ياخلف! أيعقل أن تتمكن من إعداد خمسة عشر طبقاً من الباذنجان!".

فأجاب خلف وهو يضع قدر الأرز على الطاولة: "ما الذي قد يجعلني أختلق شيئاً كهذا...". ووضع يديه على خصره ونظر إلى مراد وقال: "إن لم تصدقني، فسوف أعددها لك ويمكنها أن تحصي عددها بنفسك...". وراح خلف يسرد على مسامعهم أسماء أطباق متنوعة تطهى باستخدام الباذنجان، ومن بينها طبق اسمه "الضيف اليهودي"، ثم سأل قائلاً: "هل

أصبح عددها خمسة عشر؟".

"نعم، هذا صحيح. ولكن ما لا أفهمه بالفعل هو هذا الطبق المسمى "بالضيف اليهودي"؟".

"ما الذي لا يمكن فهمه هنا، إنه طبق باذنجان بالطبع".

قال: "لا تؤاخذني ياخلف، ولكن اسم الضيف اليهودي لا يبدو مقنعاً لي".

فقال خلف: "حسناً، إن لم تصدقني، فسوف أعلمك الوصفة التي يطهى بها هذا الطبق". وراح يسرد الوصفة:

"أولاً، تقوم بتقطيع الباذنجان، ثم تحمر البصل ولحم البقر المفروم في مقلاة، وتضيف معجون الطماطم إلى الخليط، وبعدها الباذنجان المقطع، وتطهوها لبعض الوقت، ثم تضيف بعض جريش القمح، ثم تطهوها كما نطهو الأرز باللحم. هكذا نطهو طبق الضيف اليهودي".

لم يستطع مراد أن يأتي برد على هذا الكلام، ولكن تيومان، الذي هم بابتلاع لقمة أخرى من وجبته الشهية، استطاع ذلك.

فقال: "لا أعرف شيئاً عن طبق الضيف اليهودي، ولكنني لم أستطع أن أعيش من دون طبق الباذنجان المحشي هذا منذ المرة الأولى التي تذوقته فيها. وعندما تطهوه أمي، فإنه يكون شهياً جداً لدرجة تجعل المرء يلعق أصابعه".

رد عليه خلف بسرعة قائلاً: "ماذا؟ هل طبق الباذنجان المحشي الذي أعده أنا ليس جيداً بالنسبة لك؟".

قال تيومان قبل أن يرفع شوكته ويحشر لقمة أخرى في فمه: "كلا، ياأخي. من قال شيئاً من هذا القبيل. إن طعامك شهي أيضاً".

فعلق كمال الذي لم تجمعه علاقة طيبة بالطاهي من قبل: "إنه ممتاز بالفعل. سلمت يداك ياخلف".

كانت تلك بالفعل المرة الأولى التي يوجه فيها ذلك الشاب أي كلام لطيف لخلف منذ بداية مهمة التنقيب عن الآثار، لذا قام خلف بمجرد النظر إليه بعينيه غير مصدق ما سمعته أذناه، ولكنه لم ينس أن يرد عليه قائلاً: "صحة طيبة".

لم يغب رد فعل كمال عن ملاحظة إسراء أيضاً. ترى، هل قدم حديثهما الصغير فائدة لذلك الشاب؟ لم تكن وحدها من ظنت ذلك. فقد لاحظت إيلاف عصر ذلك اليوم أن "كمال" لم يعد يتصرف معها بصرامة، إلا أنها شعرت بالقلق من الشكل الذي سيأتي عليه رد فعله عندما

يذهبون للسباحة معاً. فقد ظنت أنه سيرمقها بواحدة من تلك النظرات الحادة ولسان حاله يقول: "لماذا ارتديت ملابس السباحة هذه؟". ولكن "كمال" تصرف بشكل مختلف عما توقعته، وراح يتبادل الدعابات مع مراد وتيومان من دون أن يلقي أي انتباه لها. ففكرت الشابة: "آمل أنه قرر أن يتركني وشأني من الآن وصاعداً". وراحت ترسل النظرات إلى تيموثي بطرف عينها. لاحظ كمال الطريقة التي نظرت بها إيلاف إلى تيموثي، ولكنه آثر أن يتجاهلها.

سأل تيموثي: "كيف وجدتم المياه؟".

فأجاب مراد على الفور قائلاً: "رائعة. حسناً، ولكن المشكلة الوحيدة هي أن الأخ تيومان لم يتمكن بعد من تعلم طريقة السباحة المحلية".

وكان خلف قد علمهم كيف يسبحون بالاعتماد على طريقة خاصة شائعة في قريته. فقد اعتاد الأطفال هناك على السباحة بتلك الطريقة حيث يسحبون أيديهم نحو بطونهم ويضربون سطح الماء بأقدامهم بسرعة مما يشكل تياراً من الفقاعات كتلك التي تحدثها السفن ذات المجاذيف، ولكن رغم كل الجهود التي بذلها خلف، لم يتمكن أفراد حملة التنقيب عن الآثار من تعلم تلك الطريقة الفريدة من نوعها.

قال تيومان وهو يمد يده نحو طبق الأرز باللحم: "انظروا إلى أنفسكم. على الأقل، استطعت أنا السباحة بضعة أمتار. أما أنت وكمال، فلم تستطيعا حتى البقاء على سطح الماء".

فقال بيرند ملتفتاً نحو إيلاف: "ألم تحاولي أنت؟".

قالت الشابة: "كلا، فأنا لست سباحة ماهرة. لا بد أنني سأغرق على الأرجح إن جربت تلك الحركة الصعبة".

قال خلف مؤيداً كلامها وهو واقف إلى جانب الطاولة: "وأنا أيضاً لا أظن أنه ينبغي عليك تجربتها. فالفتيات لا يجدن تلك الحركة".

عندما رأت إسراء أفراد فريقها يتجاذبون معاً هذا الحديث الودود، وضعها هذا في مزاج حسن جداً، فتدخلت في المحادثة قائلة: "ولكنني أجيد هذا النوع من السباحة جيداً جداً".

"سامحيني على قولي هذا، ولكنك لست مختلفة عن السيد تيومان. إذ إنك تستطيعين المضي لمتر واحد إن حالفك الحظ، ثم تعودين للسباحة بالطريقة العادية مرة أخرى".

فتدخل تيومان قائلاً: "أنت تمازحني بشأن هذا الآن، ولكن الخالة هاتوش رأت إيلاف وإسراء وهما تسبحان، فتذمرت لي قائلة شيئاً مثل:

ياولدي تيومان، أليس من الخطأ أن تسبح هاتان الفتاتان بهذه الملابس العارية؟".

قالت إسراء بعد أن خفض سماع ذلك من روحها المعنوية: "آه، يارجل. ينبغي أن نتوخى المزيد من الحذر".

حاول خلف أن يخفف عنها كعادته، فقال: "الآن، لا داعي للانسياق وراء هذا الكلام. أظن أنها تحاول أن تعرف كيف سيكون رد فعلكم. لديها جهاز تلفزيون في البيت تتابع فيه المسلسلات البرازيلية الدرامية كل يوم".

كررت إسراء قائلة: "ومع ذلك، من الأفضل أن نبقى بعيدتين عن الأنظار عندما نذهب للسباحة". ثم استولت الجدية على إسراء، بينما خيم الصمت على جميع الجالسين حول الطاولة. لبعض الوقت، لم يعد يسمع سوى صوت صليل الشوك والملاعق على الصحون. فتابعت إسراء كلامها فقط بعد أن أخذ خلف قدر الطعام الفارغة ليعيدها إلى المطبخ.

فقالت: "هناك موضوعان نريد أن نناقشهما هذه الأمسية".

اكتسب صوتها نبرة رزينة وهادئة، وتلك النبرة تدل على بداية الاجتماع. باستثناء أيام العطلات، اعتادوا عقد اجتماعاتهم في الأمسيات؛ إما أثناء العشاء أو بعده، ويقومون خلال الاجتماع بتقييم عمل اليوم، ويتحدثون عن العمل الذي يجب إنجازه في اليوم التالي.

تابعت إسراء كلامها وهي تنظر إلى كل واحد من أصدقائها وهم ينهون تناول عشائهم: "إن الموضوع الأول بالتحديد موضوع هام. فكما تعلمون، طلب منا المعهد الألماني للآثار أن نعقد مؤتمرنا الصحفي لنعلن فيه عن اكتشاف ألواح باتاسانا الأثرية. ولقي هذا الطلب رداً إيجابياً من كل من الجامعة ومنا نحن العاملين في التنقيب عن الآثار على حد سواء. وهكذا، سوف يتم عقد المؤتمر الصحفي يوم الأربعاء المقبل".

"أليس هذا مبكراً جداً؟".

وكان كمال هو من عبر عن اعتراضه على موعد المؤتمر.

فقال بيرند: "لا أظن أنه مبكر. فنحن لن نتحدث عن كل واحد من الألواح التي اكتشفناها على حدة، بل سنقدم للصحفيين بعض الألواح ونشرح لهم أهميتها".

أيدت إسراء بيرند في رأيه، وقالت: "لا يمكننا بكل بساطة أن نؤجل موعد المؤتمر. فليس لدينا خيار آخر سوى الاستعداد ليوم الأربعاء".

خيم الصمت على جميع الجالسين حول الطاولة مما دل على موافقتهم جميعاً.

تابعت إسراء كلامها قائلة: "سنقوم أنا وبيرند وتيم بالتحدث إلى الصحفيين خلال المؤتمر. إنني أريد بشكل خاص من تيم وبيرند أن يتحدثا؛ لأن هذا المؤتمر الصحفي مؤتمر دولي، وسيحضره صحفيون من أنحاء العالم. وبهذه الطريقة، سنتمكن من التأكيد على طبيعة حملتنا الدولية، ومن الرد على الأسئلة المطروحة من قبل الصحفيين بالإنكليزية والألمانية".

قال تيومان: "هذا قرار ملائم تماماً. أين سيتم عقد المؤتمر الصحفي؟".

تدخل مراد باستعجاله المعهود، وقال: "دعونا نعقد المؤتمر هنا في الموقع في مركز المعبد".

نظر تيموثي إلى مراد وابتسم بتفهم قائلاً: "أعرف أنك تريد أن تثير إعجابهم، ولكنني لا أظن بالفعل أنه ينبغي علينا أن نفعل ذلك. فقد تعلمت من خبرتي السابقة أن الصحفيين خلال المؤتمرات الصحفية التي تعقد في الهواء الطلق سرعان ما يفقدون تركيزهم ويبدؤون بالاهتمام بالآثار أكثر من المتحدثين أنفسهم، لذا ينبغي على المؤتمر الصحفي بالفعل أن يعقد في غرفة مغلقة".

قال بيرند: "لقد تم تحديد الموقع الذي سينعقد فيه المؤتمر الصحفي سلفاً، وهو فندق ذو خمس نجوم في مدينة غازي عنتاب. لديهم هناك مكيفات هواء وكل وسائل الراحة الأخرى. ففي هذا الطقس الحار، هذه هي الطريقة الوحيدة التي تساعد على إبقاء الصحفيين في قاعة الاجتماع".

"أنت محق. ولكن، ألن يود الصحفيون الذهاب في جولة في أنحاء الموقع؟".

"تم التفكير بهذا الموضوع على حد سواء، لذا سوف يستقل الجميع حافلات مستأجرة إلى هناك بعد المؤتمر الصحفي، ثم سيذهبون في جولة في أنحاء الموقع لكي يتمكن الصحفيون من الحصول على فرصتهم لتصوير الموقع".

قالت إسراء وهي مستغرقة في التفكير: "ينبغي علينا أن نكون مضيفين مثاليين. أتساءل إن كان العمدة مستعداً لمدنا بيد المساعدة؟".

"بالطبع سيفعل". أتى هذا الرد من خلف الذي عاد لتوه من المطبخ. فقد قال: "سيكون العمدة أديب مسروراً للغاية لمساعدتنا إن طلبنا منه ذلك".

"هل أنت واثق من هذا؟ عندما أتينا إلى هنا أول الأمر، قال إن هناك نقصاً في الموارد، وإنه لن يتمكن من مساعدتنا بأي شيء".

"السبب في هذا هو خشيته من أن تلقوا بمسؤولية كل العمل على

المجلس البلدي. أما الآن، فقد تنفس الصعداء بعد أن عرف أنكم لا تنوون القيام بأي عمل من هذا القبيل. إنه يخبر كل من يعرفهم كم أنت امرأة استثنائية وعصرية. وبالإضافة لذلك، فالصحافة ستأتي إلى هنا. ومن المؤكد أن السيد "أديب" لن يدع فرصة من هذا النوع تمضي من دون أن يستغلها لمصلحته".

هزت إسراء رأسها بدهشة وقالت: "حسناً إذاً. هذا مناسب تماماً. سوف أذهب وأتحدث إلى السيد أديب".

سأل تيومان: "بالمناسبة، لأي حزب سياسي ينتمي هذا المدعو أديب على أية حال؟". وكأن لتلك المسألة علاقة بالموضوع المطروح في تلك اللحظة.

ارتسمت ابتسامة خبيثة على وجه خلف العريض، وقال: "ليس له حزب معين، فهو ينحاز للحزب الذي يتولى السلطة أياً يكن. أعني أنه ينصب خيمته حيث يهطل المطر".

قالت إسراء لتقاطع نقاشاً وجدته عديم المعنى بالنسبة لها: "ما علاقتنا بالحزب الذي ينتمي إليه الرجل؟ بالانتقال إلى موضوعنا الآخر، اليوم اكتشفنا مكاناً في منطقة المعبد نعتقد أنها غرفة تقديم القرابين. لقد عثر اللصوص على تماثيل في تلك المنطقة، لذا نريد أن نركز التنقيب عليها لبعض الوقت".

قال بيرند: "هذا يبدو منطقياً تماماً. قد نعثر على بعض المكتشفات المثيرة للاهتمام هناك".

ومع ذلك، فقد انـزعج تيومان من هذا القرار. إذ وجد أن القليل من الاهتمام تم بذله للتنقيب في المعبد منذ اكتشاف ألواح باتاسانا.

فقال: "أعتقد أنه ينبغي علينا أن نستمر بالتنقيب داخل المعبد. دعونا لا نغير موقع التنقيب بسبب بعض المكتشفات القليلة".

لم يدرك كمال السبب الذي دفع صديقه للإصرار لهذا الحد.

فسأل قائلاً: "بعد أن اكتشف اللصوص بعض المكتشفات الهامة في تلك المنطقة، لِمَ لا ينبغي علينا أن نركز انتباهنا على ذلك الموقع بالذات لبعض الوقت؟".

قال تيومان: "إنك تتحدث وكأنك لم تشارك في حملة تنقيب عن الآثار من قبل. إن بدأنا التنقيب في غرفة القرابين الآن، فالله وحده يعلم إلى متى سيستمر هذا العمل".

فقال مراد بشكل طبيعي تماماً: "ولكن التنقيب في المعبد من الممكن

له أن يستمر لأشهر على حد سواء".

شكلت كلمات مراد القشة التي قصمت ظهر البعير.

فانفجر تيومان في وجهه قائلاً: "بالطبع يجب عليك أن تدلي بدلوك في الموضوع. فأنت أشبه بالفتى الغر الذي يريد أن يتصرف منذ الآن وكأنه خبير في كل شيء".

ما كان مراد لينـزعج إلى هذا الحد لو أن شخصاً آخر غير تيومان هو من تفوه بهذه الكلمات، ولكنه لطالما اعتبر تيومان من بين أفراد الفريق الذين ينسجم معهم أكثر من غيرهم. لم يعرف مراد كيف يرد أو ماذا يقول، فرمق تيومان بنظرة تعبر عن شعوره المجروح، ثم نهض فجأة ومضى مبتعداً.

فقالت إيلاف وهي تنهض لتلحق بمراد: "انظر إلى ما فعلته".

خيم غطاء من الصمت المطبق على كل الجالسين حول الطاولة. وشعرت إسراء أكثر من غيرها بمحنة مراد. فصباح ذلك اليوم بالذات تحدثت إليه بقسوة، والآن قبل أن تسنح الفرصة لزوال تأثير كلامها من نفسه، قام تيومان بالدوس على كرامة الفتى بالكامل. هناك قدر معين من التوبيخ يمكن للمرء أن يتقبله في يوم واحد. وعندما أوشكت إسراء أن تلتفت وتقول لتيومان إنه تصرف بقسوة كبيرة مع مراد، سمعوا جميعاً صوت إيلاف وهي تصرخ بأعلى صوتها:

"آه، هناك شيء ما لسعني في قدمي!".

رمق الجميع الشابة التي لم تكد تقطع بضعة أمتار مبتعدة عن الطاولة بنظرة صدمة. لم يتمكنوا من أن يتبينوا بالضبط ما جرى لها. فهب كمال بسرعة للتصرف.

وسألها وهو يقفز مبتعداً عن الطاولة: "ماذا جرى؟".

ورأى إيلاف تمسك بقدمها اليمنى وتقفز في مكانها قائلة: "إن إبهام قدمي يلتهب. إنه حار جداً...".

لحق الآخرون بكمال بسرعة.

"هل رأيت الشيء الذي لسعك؟".

فقالت الفتاة: "لست أدري. لم أره".

بينما تجمع الجميع حولها، استندت إيلاف على كمال وهي تئن قائلة: "قدمي تحترق". كان خلف آخر من لحق بالمجموعة، فبدأ يتفحص المنطقة بالضوء الكشاف وعثر على الشيء الذي لسع قدم إيلاف، وهو عقرب أصفر اللون، ثم رآه يهرب بسرعة بين الأعشاب.

صاح قائلاً: "إنه عقرب أصفر اللون، وهو نوع شديد السمية".

بدأ المتفرجون الفضوليون يتجمعون حول العقرب المرعوب وهو يحاول أن ينجو بنفسه، ولكن قدم خلف اليمنى سرعان ما داسته بكل قوة. وحالما تأكد من أن العقرب قد سحق بالكامل، رفع قدمه ليكشف عن جسمه المشوه المبتور.

قال خلف: "انظروا، إن ذيله لا يزال يتحرك". ثم بدأ يخبط العقرب من جديد. وحالما تمكن من تنفيذ عملية إعدام العقرب بشكل ناجح، مشى نحو إيلاف والضوء الكشاف في يده. فبدت البقعة الحمراء على إبهام قدمها ظاهرة حتى في ضوء المصباح الضعيف الخافت.

أعلن خلف وكأنه طبيب متمرس على الفور ما يتوجب عليهم فعله، وقال: "يجب علينا أن نجرح المكان الذي لسعه العقرب ونمتص السم منه".

فقالت إسراء مستخفة بكلام خلف على الفور: "لا تكن سخيفاً. يجب أن نسعفها إلى المستشفى على الفور".

قال تيم: "إن "خلف" محق".

فقال كمال مؤنباً: "كلا، بل سننقلها إلى المستشفى". وبهذا تأججت العداوة القديمة بين الرجلين مرة أخرى. أضاف كمال: "سنحضر سيارة الجيب إلى هنا على الفور". ثم التفت إلى إيلاف وسألها: "هل أنت قادرة على المشي أم أحملك إلى السيارة؟".

هزت إيلاف رأسها لتشير إلى أنها لا تزال قادرة على المشي. ومع ذلك، شعر تيموثي بالقلق من الوضع.

فسأل قائلاً: "هل آتي معكم؟".

قال كمال وهو يقاطعه بحدة: "لا حاجة لذلك. سأصطحبها بنفسي".

أصر تيموثي قائلاً: "ولكن مدير المستشفى الأمريكي صديق لي".

صاح كمال: "قلت لك إنه لا حاجة لذلك".

فقال تيموثي وهو يمسك بكمال من ياقة قميصه: "لا تصرخ علي". ورفع الشاب بيديه القويتين عن الأرض، ففوجئ كمال الذي لم يتوقع منه رد فعل من هذا النوع. ولم يكن ذلك شعوره وحده. فقد بدأ الجميع، بمن فيهم إيلاف نفسها التي نسيت ألمها فجأة، ينظرون إلى تيموثي. وعندما رأى الجميع ينظرون إليه بهذا الشكل، أفلت تيموثي ياقة كمال من يده وكأنها حبة بطاطا ساخنة.

وتمتم قائلاً: "إنني آسف جداً. أظن أنني فقدت أعصابـي وحسب".

فقال كمال بغضب: "حسناً، سأرد عليك الرد المناسب لو لم يتوجب

علي أن أنقل إيلاف إلى المستشفى".

قال تيموثي معتذراً مرة أخرى: "إنني آسف. لم أقصد أن أفعل هذا".

أتى رد فعل تيموثي صادماً حتى في نظر إسراء على حد سواء. فما الذي دهى هذا الرجل الذي لطالما أظهر سلوكاً موزوناً ورزيناً؟ على أية حال، ظنت أن الوقت غير مناسب للتفكير بذلك الأمر. فقد توجب عليهم نقل إيلاف إلى المستشفى على الفور. تقدمت نحو كمال وإيلاف وهما يتوجهان في طريقهما نحو سيارة الجيب.

"إنني قادمة معكما. فلا يمكنكما أن تتوليا كل هذا بنفسيكما".

لم يعترض كمال، فيما مشى تيموثي إلى جانب إسراء وهي تشق طريقها نحو سيارة الجيب، وقال بصوت مفعم بالخجل: "خذوها إلى المستشفى الأمريكي. فأنا أعرف مديره. أعطوه اسمي وسوف يساعدكم".

بدا من الواضح وضوح الشمس أنه شعر بالندم على تصرفه السابق. فلا بد أنه فقد أعصابه للحظة وجيزة. لمست إسراء يد تيموثي بامتنان، وقالت: "شكراً لك".

في البداية، ساعدا إيلاف على ركوب سيارة الجيب. فتمكنت بصعوبة بالغة مع بعض المساعدة من إسراء من التمدد على المقعد الخلفي. تغيّرت ملامحها من فرط الألم وهي تمسك بقدمها اليمنى بكلتا يديها وتنتحب مرة تلو الأخرى قائلة: "إنها تؤلمني كثيراً".

صاحت إسراء مخاطبة الآخرين من خلال نافذة السيارة، بينما شغل كمال المحرك: "سنعلمكم بما يجري حالما نتمكن من ذلك".

اختفت سيارة الجيب بسرعة في الظلام، بينما نظر الآخرون إليها بقلق بالغ.

تذمرت إيلاف قائلة: "إن النار تشتعل في قدمي، ولكن ربما ستبرد قليلاً إن مددتها من النافذة".

فقالت إسراء: "لا أظن أن هذه فكرة جيدة".

"من فضلك، إنها تؤلمني بشدة".

لم يعد كمال يحتمل أكثر من ذلك، فقال: "مديها من النافذة. فقد يساعدك هذا".

"حسناً، هيا، مدي قدمك للخارج، ولكن ليس كثيراً. فقد تعلق بشيء لا سمح الله".

مدت الشابة قدمها بلهفة خارج النافذة وكأن هذا سيريحها من كل آلامها.

وعندما شعرت بلمسة الرياح، تمتمت قائلة: "هذا أفضل".

بينما حاولت إسراء العثور على شيء طري لتضعه تحت قدم إيلاف شق صوت سلسلة طلقات نارية سكون الليل.

قال كمال: "ما هذا؟".

فأجابت إسراء بعد أن أسندت قدم إيلاف بيدها: "إطلاق نار. هناك ربما حفل زفاف أو شيء من هذا القبيل".

قال كمال: "لا يبدو لي كحفل زفاف. إنه أشبه بصوت معركة".

تذكرت إسراء كلمات النقيب التي قالها في وقت مبكر من ذلك اليوم: "لا تقلقي، فأنا الآن منيع أمام أي ألم". أيمكن أن يكون قد حاصر المجرمين؟

تمتمت إسراء: "أنت محق. يبدو أشبه بنـزاع مسلح. دعنا لا نعلق في وسطه".

قال كمال: "أشك بذلك. لو أنه قريب من هنا، لقاموا بإغلاق الطريق من قبل. ومن المؤكد أننا كنا سنلاحظ ذلك".

ومع ذلك، واصل كمال قيادة السيارة وزاد سرعتها. فشقت السيارة الطريق الأسفلتي في ضوء القمر المشرق، ومرت بالأشجار والحقول الفارغة، بينما ظهرت بين الحين والآخر لمحة من النهر. أصبح صوت إطلاق النار أقرب الآن. فخطر ببال إسراء أن المعركة تجري في قرية غوفين القريبة، وفكرت: "إنها القرية التي وقعت فيها جريمة قتل رشيد آغا". وكانت القرية تبعد خمسمائة متر عن الجانب الآخر من الطريق الأسفلتي. وعندما ابتعدوا عن القرية، خفت صوت الرصاص.

إذاً، اتضح لها الآن معنى كلام النقيب عندما قال إنهم سيعرفون كل شيء في اليوم التالي. فلا بد أنه تحدث عن الهجوم الذي يحدث الليلة. ولا بد أنهم يقومون بذلك الهجوم على أمل القبض على المجرم خلال اقتحام القرية. ولكن، ربما لم يخطر ببالهم أن المجرم سيبدي مقاومة من أي نوع. شعرت إسراء بإحساس غريب من الرعب يباغتها. ماذا إن تعرض أشرف لإطلاق النار خلال الهجوم؟ ولكن كلا، فهو جندي متمرس، ومن المؤكد أن شيئاً من هذا القبيل لن يحدث له.

كأن صوت إطلاق النار أنسى إيلاف ألمها، فقد أخذت تحدق من النافذة، وارتسم تعبير الصدمة على وجهها وهي تحاول أن تكتشف ما يجري. ولكن حالما انقضت الصدمة، شعرت من جديد بذلك الإحساس الحارق والملتهب ينتشر من قدمها إلى كامل جسدها. حاولت إسراء أن

تخفف عنها وهي في الوقت نفسه عاجزة عن الكف عن القلق والتساؤل في سرّها: "ماذا إن تعرض أشرف للقتل؟". ولكن كلا، ما هي إمكانية حدوث ذلك؟ من يدري عدد النـزاعات المسلحة التي شارك فيها من قبل؟ بالإضافة لذلك، لا بد أن رجال الشرطة قد حاصروا المجرم مسبقاً، وأنهم لن يقدموا على مهاجمة القرية ما لم يتخذوا كل الاحتياطات اللازمة. ومع ذلك، رغم هذه الأفكار المهدئة التي راودتها، عجزت عن تهدئة مخاوفها. وهكذا، بينما هي تنظر إلى الشابة المتألمة وتصغي إلى أنينها وعقلها مشغول بأشرف، انتظرت توقف إطلاق النار. ولكن الصوت لم يتوقف، كما لم يكف ذلك الشعور بالقلق عن النهش في أعماقها بأنيابه بلا هوادة.

á á á

اللوح الخامس عشر

أثار الملك بيزيريس قلق والدي، فهو لم يجده شبيهاً بالملوك الذين سبقوه. فهو لم يكن جباناً أو مفتقراً للثقة بالنفس كالملك أستاروس، ولا شجاعاً وحكيماً كالملك كاماناس، بل كان طموحاً وماكراً ووقحاً. وسرعان ما حولته هذه الصفات إلى حاكم المدينة الشرعي الوحيد، ولكن هذه المدينة وهذه المملكة الصغيرة لم تعد تكفيه، وباتت النشاطات اليومية للأعداد المتزايدة من الآراميين الذين ينحدرون من السلالة السامية بالضبط مثل الآشوريين تشكل مصدر قلق له. فقد تملكه هاجس مخيف من فكرة أن الآشوريين سيسلمون في أحد هذه الأيام مفاتيح المدينة للآراميين. وراوده حلم تأسيس مملكة الحثيين الكبرى مرة ثانية. ومع ذلك، لا يمكن سوى للأحمق وحده أن يصدق أن الإمبراطورية الآشورية- التي نعيش تحت حكمها- من الممكن أن تسمح بحدوث شيء من هذا القبيل، ناهيك عن الصعوبة التامة في تجميع الممالك الحثية التي أصبحت الآن مقسمة إلى ولايات ومدن صغيرة. ومع ذلك، فالملك بيزيريس الذي أعماه طموحه المجنون، عجز عن رؤية تلك الحقائق الواضحة. ولأنه اعتبر نفسه مالك كل العلم والمعرفة، لم يلقِ بالاً لتحذيرات والدي المتواصلة. فقد استشعر والدي الكارثة المحدقة بنا، ولكنه لم يستطع بسبب عجزه عن التعامل مع طموح الملك الشاب أن يفعل شيئاً سوى أن يتلوى في مكانه بصمت وعجز.

ظن بيزيريس أن التاريخ بسيط وسهل كلعبة الشطرنج التي تعلمها أسلافنا من المصريين، لهذا السبب تمسك بقوة باعتقاده المزيف أنه يستطيع أن يعيد تأسيس الإمبراطورية الكبرى بأعمال المكر الصغيرة التي يقوم بها. في لعبة الشطرنج، الحجارة بحد ذاتها عديمة الحركة، فهي تتحرك إلى المربع الذي تدفعها إليه من دون إرادة منها، ولكن الملوك الذين يحيطون بنا لم ينقصهم القدر نفسه من الذكاء الذي يتمتع به بيزيريس، وكذلك التصميم والخبرة الكافية لحماية مصالحهم ومصالح بلادهم.

ظن بيزيريس أن تيشوب وزوجته هيبات وابنهما شاروما وابنتهما كوبابا يقفون إلى جانبنا بسبب الأحلام التي راودته عنهم، وبسبب ما أخبره به قراء الطالع. ومع ذلك، فقد كان لدى الآشوريين آشور وشمس وعشتار. ولكن بيزيريس- الذي أسكرته أحلامه العذبة- نسي كل هذه الحقائق، وبدأ ينفذ خطوة خطوة الخطة التي رسمها في ذهنه.

تمت كتابة الرسائل والاتفاقيات بسرية تامة. فقد كتبت الرسائل الأولى

إلى صغار ملوك الحثيين، والهدف من هذا كان محاولة تقييم مدى استجابة هذه الممالك التي تخضع بشكل فعلي للاحتلال الآشوري، ولكن الردود التي تلقيناها أتت متسمة بالحذر الشديد. فقد ذبح الآشوريون جنودهم كحملان القرابين، وتعرض الكبار والصغار منهم للسلخ أحياء، وعلقت رؤوسهم على رؤوس الرماح، وأحرقت مدنهم عن بكرة أبيها، ولهذا السبب لم تكن لدى أولئك الملوك النية في إلقاء أنفسهم في الجحيم من دون داعٍ.

ومع ذلك، رفض بيزيريس أن يعي مدى التردد في هذه الردود، وظل مصراً على العمل بعناد أعمى ليحقق حلمه الأكبر. فقرر أن يرسل رسالتين إلى الملك ميداس ملك الفريجيين، والملك ساردور ملك الأورارتيين. ومع ذلك، لم يرسل تينك الرسالتين إلى هذين الملكين اللذين يكنان عداء شديداً للآشوريين عن طريق الرسل العاديين بل شخصياً عن طريق والدي. فقد أمر بيزيريس والدي أن يأخذ معه هدايا مكونة من وعاءين ذهبيين منقوشين، وطبق الشمس المصنوع من الذهب، وثور ذهبـي، وأيل فضي، وهدايا نفيسة أخرى ليحاول أن يكتشف ما يضمره ذانك الملكان من نوايا.

وفي تلك الأثناء، لم ينس الملك بيزيريس أمر الإمبراطورية الآشورية. فمن أجل أن يعطي انطباعاً بأن كل شيء هادئ ومستقر في مملكتنا، ولكي يمنع الشكوك من أن تخامر ملكهم تيغلات بيليسير وتدفعه لشن هجوم غير متوقع علينا، دفع كل الضرائب في وقتها المحدد، وقدم هدايا ثمينة جداً للآشوريين. ومع ذلك، لم يكن ذلك كافياً على الإطلاق. فقد أصبح من المستحيل إنقاذ مدينتنا الصغيرة من السقوط ضحية لطغيان غضب الملك تيغلات بيليسير.

أما أنا، من استولى علي تشوش الذهن بسبب حبـي لأشمونيكال، فلم أكتشف كل ما حدث إلا بعد مرور وقت طويل على ذلك.

á á á

الفصل السادس عشر

عجزت إسراء عن تخمين ما جرى في تلك الليلة، وظل تفكيرها مشغولاً بالقرية وبما حدث فيها من إطلاق نار واشتباكات مسلحة. خطر ببالها أن تتصل بمخفر الشرطة لتسألهم عما يجري. ولكن، ما الذي من الممكن أن يخبروها به في تلك اللحظة؟ وبالإضافة لذلك، لم تجد أنه من الملائم أن تجري اتصالها بينما تجلس إيلاف إلى جانبها وهي تتلوى هكذا من فرط الألم. وبحلول الوقت الذي شقت فيه سيارة الجيب طريقها في شوارع مدينة غازي عنتاب الضيقة الجرداء نحو المبنى الحجري للمستشفى الأمريكي، ازدادت تشنجات إيلاف سوءاً بدرجة كبيرة. من حسن الحظ أن تيموثي تمتع بالفطنة الكافية لكي يسارع بالذهاب والاتصال بكبير أطباء المستشفى؛ الدكتور ديفيد. فقابلتهم مجموعة أمام الباب، ونقلت إيلاف على الفور إلى غرفة الطوارئ. كان الوقت متأخراً؛ أي حوالى العاشرة ليلاً. ومع ذلك، لم يتردد ديفيد في الحضور كل الطريق إلى المستشفى ثم الدخول مباشرة للكشف على المريضة. وعندما رأى وجه كل من إسراء وكمال شاحباً من فرط الخوف، اقترب منهما وهناك ابتسامة تفاؤل على وجهه.

وقال: "لا شيء يستدعي الخوف. إن سم العقارب في تركيا ليس مميتاً في الأحوال العادية، ولكنه يعتبر خطيراً فقط في حال كان جسد المصاب حساساً ضده، لذا فقد أعطيتها حقنة مضادة للتحسس قبل أن أعلق لها المصل. وهكذا، كما تلاحظان، كل شيء تحت السيطرة".

أنّت إيلاف على الرغم من كلمات ديفيد المهدئة قائلة: "أشعر أنني بحال مريعة".

نظر صديقاها إلى ديفيد بعيون مليئة بالترقب.

ففكّر الطبيب في سرّه: "أيمكن أن يكون هذا رد فعل حساسية متأخراً؟". ثم ابتسم عندما لاحظ القلق في عيون صديقي المريضة.

"لا تصابا بالهلع الآن. إن حياة المريضة ليست في خطر على الإطلاق، ولكن من الأفضل إبقاؤها تحت الملاحظة لبعض الوقت. دعاها تبيت هنا طوال الليل وربما ليلة الغد أيضاً".

قالت إسراء: "من فضلك، افعل كل ما يجب عليك فعله أيها الطبيب. افعل كل ما يتطلبه الأمر".

"لا تقلقي، لقد فعلنا كل ما بوسعنا حتى هذه اللحظة، ولكن يجب علينا أن ننتظر إلى أن يزول مفعول المواد السامة التي دخلت جسمها،

وهذا يستغرق بضع ساعات. سوف تنتظران هنا، أليس كذلك؟".

فقال كمال: "نعم، إذ ليس من الممكن أن نتركها وحدها وهي بهذه الحالة".

"في هذه الحالة، لننقلكم جميعاً إلى غرفة ذات ثلاثة أسرة لكي تبقيا مع المريضة".

لمعت عينا إسراء من فرط الامتنان، وقالت: "هذا سيكون رائعاً. شكراً جزيلاً لمساعدتك لنا".

"لا شكر على واجب. إنني أقوم بعملي ليس إلا".

بدت عينا ديفيد الزرقاوان شبيهتين بعيني بيرند، إلا أنهما افتقرتا إلى البرودة التي اتسمت بهما عينا الأخير. ورغم أنه كان في عمر تيموثي نفسه، إلا أن شعره بدأ بالتساقط مبكراً مما جعل جبهته العريضة تظهر بشكل بارز. وساهم اجتماع كل من لحيته الخفيفة التي ناسبت وجهه النحيل، ونظارته ذات الإطار الذهبـي، وعينيه المفعمتين بالحكمة في إضفاء مظهر المفكرين على وجهه.

"إنني آسفة. فقد شغلنا القلق على صديقتنا فلم تسنح لنا الفرصة لنعرفك بأنفسنا". ثم مدت يدها وقالت: "أنا...".

ولكن الطبيب أكمل جملتها نيابة عنها قائلاً: "لا بد أنك إسراء. لقد حدثني تيم عنك. ولكن، لأتوخى الصراحة معك، فأنا في الحقيقة لم أتوقع أن أرى امرأة تتمتع بهذا القدر من الحسن والجمال".

اكتسب وجه إسراء مسحة وردية بعض الشيء، وقالت: "شكراً لك. لقد حدثنا تيم عنك أيضاً".

قال خبير الآثار الشاب باحترام: "وأنا كمال". ولكنه في الوقت نفسه فكّر في سرّه: "آه، صحيح! إنه صديق تيموثي، لذا من المؤكد أنه لن يضيع فرصة التودد إلى إسراء".

قال ديفيد بحرارة: "يسرني لقاؤكما. من فضلكما، تفضلا بالدخول معي إلى مكتبـي. دعاني أقدم لكما شيئاً لتشرباه".

لم يتحمس كمال على الإطلاق لدعوة الطبيب.

فقال: "سأبقى أنا هنا في حال احتاجت إيلاف إلى أي شيء".

فلم يلح الطبيب عليه بل قال: "إذاً، يبدو لي أن الشاب لا يريد أن يترك المريضة. في هذه الحالة، هلا نذهب نحن".

لم يكن هناك الكثير يحدث في الممر. فقد وقف مريضان يتجاذبان أطراف الحديث عند باب غرفة أحدهما، بينما قامت إحدى الممرضات

بجولتها الدورية حاملة صينية أدوية، وراحت تدخل إلى الغرف واحدة تلو الأخرى ثم تخرج منها.

قال الطبيب: "ما أخبار تيم في هذه الأيام؟ لم تسنح لنا الفرصة للتحدث عبر الهاتف. لقد بدا في حالة هلع شديدة وهو يطلب مني أن آتي إلى المستشفى على الفور. مضى وقت طويل منذ رأيته آخر مرة. هل أموره بحال جيدة؟".

فأجابت إسراء وهي مشغولة البال بأن عليها الاتصال بفريق الآثار لتطلعهم على آخر المستجدات في حالة إيلاف: "نعم، إنه على ما يرام". مع ذلك، سرعان ما دافعت عن تيموثي قائلة: "إنه مشغول للغاية في هذه الأيام؛ فهو يعمل على فك شيفرة الألواح الأثرية التي اكتشفناها وترجمتها".

"لا بد أنه في غاية الانشغال، وإلا لما امتنع عن الاتصال بـي طيلة هذا الوقت. في الواقع، ينبغي أن أشعر بالغضب منك لأنك سرقت صديقي مني بهذه الطريقة".

"يمكنكما أن تجتمعا يوم الأربعاء المقبل. فسوف يخف حمل عملنا بعض الشيء بحلول ذلك الوقت".

صعدا على الدرج الحجري إلى الطابق الثاني، وبدا مكتب ديفيد أشبه بغرفة متواضعة ولكنها كبيرة الحجم بجانب الدرج.

أشار الأمريكي إلى كرسي قبل أن يتابع المشي ويجلس خلف مكتبه وقال: "من فضلك، تفضلي بالجلوس".

عندما جلست إسراء على الكرسي الذي أشار إليه الطبيب، بدأ هاتفها المحمول بالرنين. فردت عليه على الفور.

"مرحباً... أهذا أنت يا تيم؟ نحن في المستشفى. لقد قدم لنا الدكتور ديفيد الكثير من المساعدة، فليباركه الله. إيلاف؟ إنها أفضل حالاً الآن، ولكنها ستمضي الليلة في المستشفى وربما ستبقى ليلة الغد أيضاً. كلا، ليس هناك ما يدعو للقلق. سوف نقضي الليلة هنا معها. آه... أردت أن أسألك... بينما نحن في طريقنا إلى هنا، سمعنا صوت إطلاق نار... نعم... هل تعرف ما جرى؟ حقاً؟ وأنا أيضاً يكاد الفضول يقتلني. حسناً، سوف أتصل هاتفياً بالنقيب في وقت لاحق. ربما يمكنه أن يخبرنا بما يجري... هل يمكنني أن أطلب منك الذهاب إلى موقع التنقيب عن الآثار غداً؟ في الواقع، الجميع يعرفون ما عليهم فعله، ولكن من الأفضل أن تتواجد إلى جانبهم. شكراً لك. سأتصل بك مرة أخرى غداً. بلغ تحياتي للآخرين. إلى اللقاء الآن. حسناً، سأخبره".

قالت إسراء وهي تعيد الهاتف إلى حقيبتها: "إن تيموثي يرسل لك تحياته".

ظهرت نظرة فضول على وجه ديفيد، فقال: "ما الذي يجري؟ هل نشبت معركة أو ما شابه؟".

"سمعنا صوت إطلاق نار ونحن في طريقنا إلى هنا، ولكننا لم نستطع أن نكتشف ما يجري بالفعل".

"لقد وقعت جريمتا قتل خلال اليومين الماضيين. رأيت ذلك في الأخبار، ومنذ ذلك الحين وأنا أتساءل عن المسؤول عن هاتين الجريمتين".

"وكذلك نحن".

"قال لي والدي إن سلسلة جرائم مماثلة ارتكبت قبل ثمانية وسبعين عاماً".

دبت الحيوية فجأة في عيني إسراء المنهكتين، وقالت: "ماذا تعني؟".

"هناك سلسلة من جرائم القتل مثل هذه الجرائم بالضبط، ارتكبت بالطريقة نفسها وفي هذه المنطقة بالذات أيضاً".

"إن كان والدك يتحدث حقيقة عن حوادث وقعت قبل ثمانية وسبعين عاماً، فلا بد أنه طاعن في السن الآن".

"إن والدي نيكولاس يبلغ من العمر خمسة وتسعين عاماً، ولكنه لا يزال يتمتع بذاكرة ممتازة. لقد شغل منصب كبير الأطباء في المستشفى قبل أن أشغل أنا الآن هذا المنصب".

"إذاً، من الذي ارتكب جرائم القتل قبل ثمانية وسبعين عاماً؟".

"لسوء الحظ، توجب علي أن أسرع بالحضور إلى المستشفى قبل أن تتسنى لنا الفرصة لمناقشة التفاصيل".

"ولكن، من الممكن لهذا أن يكون على قدر كبير من الأهمية".

قال ديفيد محاولاً أن يفهم ما أرادت الوصول إليه: "إذاً، هل تظنين أنه من الممكن وجود صلة بين هاتين الجريمتين وبين الجرائم التي ارتكبت قبل ثمانية وسبعين عاماً؟".

"ربما. هل يمكنني أن أتحدث إلى والدك؟".

"بالطبع. سوف يسره هذا غاية السرور. ذات يوم، حضر فرد آخر من أفراد فريقكم للتنقيب عن الآثار، واسمه بيرند...". ولكنه تردد قليلاً وهو غير واثق من صحة الاسم، ثم قال: "إن اسمه بيرند، أليس كذلك؟ الألماني؟".

راحت إسراء تحدق الآن بشكل مباشر بالطبيب وهي تشعر بالفضول

لمعرفة ما يريد قوله، ثم قالت: "نعم، إن اسمه بيرند".

"حسناً، لقد حضر إلى هنا. فقد سمع عن والدي من تيم. وقد طرح على والدي أسئلة عن الحوادث التي وقعت للأرمن في مطلع القرن الماضي...".

فكرت إسراء في سرّها: "لقد فقد بيرند صوابه بسبب قضية الأرمن. أينما يذهب، فهذا كل ما يتحدث عنه. سوف يعرض هذا الأحمق نفسه لمشكلة كبيرة ذات يوم بسبب هذا الموضوع".

تابع ديفيد كلامه قائلاً: "وهكذا، فقد أخبره والدي كل ما يعرفه عن الموضوع. وبعد ذلك، راح والدي يتجول في الأنحاء وهناك ابتسامة كبيرة مرسومة على وجهه لأسبوع كامل. عندما يكون المرء متقدماً في السن، فإن معرفته بأنه يشكل خدمة للآخرين تعطي دفعاً كبيراً لروحه المعنوية. إن أبدى ممانعة حيال الموضوع، فإنني واثق من أنني أستطيع إقناعه، ولكنني أشك حقاً بأنه سيمانع. إذ إنني على يقين من أن والدي سيسر كل السرور لتجاذب أطراف الحديث مع سيدة جميلة مثلك".

قالت إسراء: "شكراً لك". ومع ذلك، لم يستطع ديفيد أن يحدد إن كانت تشكره على المجاملة أم لمحاولته ترتيب موعد بينها وبين والده.

"حسناً، انظري كيف انشغلنا بالحديث لدرجة جعلتني أنسى أن أسألك عما تودين أن تشربيه. إن هذا تصرف ممنوع منعاً باتاً هنا في غازي عنتاب. إذ ينبغي أن يعامل الضيف معاملة الملوك هنا".

"شكراً لك. أود أن أشرب شيئاً بارداً".

"ماذا عن بعض الشاي المثلج؟ إن الناس في هذه المناطق لا يستسيغونه كثيراً، ولكنني أظن أنه أفضل طريقة للانتعاش".

قالت إسراء: "هذا يبدو جيداً". بعد أن طلب ديفيد الشاي، تمتمت إسراء وكأنها طفلة مذنبة تطلب المغفرة: "آمل أنك لا تمانع سؤالي، ولكنْ هل يمكنني أن أدخن سيجارة هنا؟".

"يمكنك التدخين هنا، ولكن ليس في الممر. لا تقلقي ياعزيزتي، فأنا أدخن غليوناً بعد الوجبات بنفسي. إن تلك اللعنة الهندية عادة سيئة يصعب التخلص منها".

عندما لاحظ نظرة عدم الفهم على وجه إسراء، سأل الطبيب: "أتعنين أنك لم تسمعي بتلك الأسطورة من قبل؟ عندما استولينا على أراضيهم، لعننا الهنود بلعنة التبغ، وظلت اللعنة تلازمنا منذ ذلك الحين".

ضحكت إسراء وهي تشعل سيجارتها، ثم سألته بعد أن أخذت نفساً

منها: "ألا تشعر بالملل هنا؟".

"لماذا ينبغي علي أن أشعر بالملل؟ لقد ولدت هنا. هذه المدينة هي التي هيأتني للحياة. فقد لعبت ومرحت في الشوارع هنا، وذهبت للغطس في الجداول؛ من دون علم والدي بالطبع، وسلحت نفسي بنقافة تحت حزامي، وذهبت لصيد العصافير في الحقول، واستكشفت آثار الحصن القديم والكهوف تحت الأرض المحيطة بالمدينة، واختبرت شجاعتي باحثاً عن شتى أنواع المغامرات هنا... وعندما كبرت، ذهبت إلى الولايات المتحدة، إلى هيوستن بالتحديد، لأدرس الطب. فرأيت عواصم أوروبا وأمريكا وزرت بلدات قديمة، وتعرفت على حضارات مختلفة، ولكن غازي عنتاب ظلت تحتل مكاناً فريداً من نوعه في قلبي؛ كتلك البهجة النقية الخجولة التي يشعر بها المرء حيال حبه الأول. إنه شيء من المستحيل أن يتكرر أو تعاد تجربته مرة أخرى. إذاً، كما ترين الآن، عدت إلى هنا".

وجدت خطبة ديفيد الشاعرية مضحكة بعض الشيء، ولكنها لم تظهر له ذلك.

"وماذا عن والدك؟ ألا يفتقد الولايات المتحدة على الإطلاق؟".

"لقد ولد والدي هنا، وشغل منصب كبير الأطباء هنا قبلي، ومن قبله جدي كريستيان. وهكذا، فقد عاشت عائلتنا لثلاثة أجيال في هذه المدينة. وتوفي كل من جدتي وأمي وأخي ودفنوا هنا".

نفضت إسراء رماد سيجارتها في منفضة السجائر الرخامية الموضوعة على الطاولة الصغيرة.

وقالت بصوت متفاجئ: "لم أعرف أن المستشفى قديم إلى هذا الحد؟".

شرح ديفيد قائلاً: "قد لا يكون قديماً لدرجة تجعله من ضمن نطاق اختصاصك في علم الآثار، ولكنه قديم إلى حد كبير. فقد تم تأسيسه عام 1878 على يد البعثات التبشيرية الأمريكية التي أتت إلى المدينة".

"الاسم على باب المستشفى...".

"أتعنين عيزرا سميث؟ بعد أن أنهى دراساته في جامعة ييل، حضر إلى غازي عنتاب، وهو من بين الأطباء الأوائل الذين وصلوا إلى هذه المدينة".

"لقد تخرج من جامعة ييل! أتقصد الجامعة نفسها التي تخرج منها صديقنا تيم؟".

"نعم، ولكنني أظن أن عيزرا سميث درس في عام 1847. من سوء

الحظ، فقد أصيب بمرض خطير وهو التيفوئيد ربما، أو ذات الرئة وفارق الحياة، فأطلقوا اسمه على المستشفى تخليداً لذكراه".

أوشكت إسراء أن تطرح عليه سؤالاً آخر عندما سمعت صوت أحد يدق على الباب. ثم دخلت إحدى الممرضات وبحوزتها كوبان من الشاي المثلج، ثم سألت قبل أن تضعهما على الطاولة أمامهما: "هل هناك شيء آخر يمكنني فعله لكما؟".

"لدينا ضيف يرافق المريضة التي تقيم في الغرفة رقم سبعة. لِمَ لا تذهبين وتلقين نظرة لتري إن كان بحاجة لأي شيء؟".

حالما غادرت الممرضة، طرحت عليه إسراء سؤالها.

فقالت: "سامحني لجهلي، ولكن لم شعر الأمريكان بالحاجة لتأسيس مستشفى هنا في هذه المنطقة؟".

شرح ديفيد بعد أن أخذ رشفة من شرابه: "لنشر المذهب البروتستانتي. في وقت مبكر من القرن الماضي، انطلق بعض رجال الدين من أمريكا لنشر البروتستانتية في أنحاء العالم كجزء مما سموه "الصحوة الكبرى". ووضعوا نصب أعينهم هدف نشر مذهبهم عن طريق تأسيس علاقات مع الناس وفتح مؤسسات خيرية وإنشاء مراكز صحية وتعليمية، وذلك هو الهدف الرئيس من وراء تأسيس هذا المستشفى".

"ولكنكم لا تقومون الآن بأي أعمال تبشيرية، أليس كذلك؟".

فقال الطبيب وهو يهز رأسه: "كلا، كلا، إننا نقدم وحسب العناية الصحية. بيني وبينك، أنا لست رجلاً متديناً كثيراً، ولكنني لا أصل إلى حدود تيموثي".

"ألا يؤمن تيموثي بأي معتقدات دينية؟".

"كلا، بالطبع لا. ألم يخبرك بذلك؟ أظن أنكما في غمرة حديثكما عن الأمور الحثية القديمة لم يسنح لكما الوقت الكافي للتحدث عن ديانتيكما الفعليتين".

قالت إسراء وهي تطفئ عقب سيجارتها بمنفضة السجائر الرخامية: "أظن ذلك". ثم هزت رأسها وقالت: "لأقول لك الحقيقة، أنا أيضاً متفاجئة من موقف تيموثي".

"لماذا؟ هل يبدو لك من النوع المتدين؟".

"كلا، ليس كذلك على الإطلاق. لا أعرف، ولكنني أجد هذا غريباً بعض الشيء ليس إلا".

"أنت على حق، فهذا غريب بالفعل، ولكن تيموثي ربما من أكثر

المخلصين لهذه الفكرة. هناك ربما بعض المتدينين المخلصين لعقيدتهم مثله تماماً، لست أدري. كان جدي كريستيان هكذا أيضاً، لذا أنا أرى الكثير من الشبه بين جدي وتيموثي، ولكن صدق جدي وطيبة قلبه ينبعان من سعيه وراء مصلحته الشخصية لأنه فكر بنيل الثواب في العالم الآخر. ورغم أنه لم يعترف بهذا لأحد، فلطالما ساورته الشكوك حيال كل شخص لا ينتمي للمذهب البروتستانتي. ومع ذلك، فإنني لم أشهد موقفاً من هذا القبيل من جانب تيم. فحقيقة اختياره طريق الصدق والاستقامة في حياته رغم عدم إيمانه تجعل سلوكه حتى أكثر قيمة".

قالت إسراء وهي تأخذ رشفة من فنجان الشاي المثلج: "إن والدي يفكر بالطريقة نفسها. فقد اعتاد أن يقول إن الخطوات الأولى نحو مستوى أعلى من الحضارة ستتم عندما يقوم الناس بالأعمال الصالحة من دون الخوف من عذاب الجحيم".

"كلام رائع! حسب ما أرى، إن تيموثي من بين القليلين الذين بدؤوا بناء هذه الحضارة".

وجدت إسراء عبارته هذه مبالغاً بها بعض الشيء، ولكنها لم تعترض عليها.

تمتمت قائلة: "يبدو لي أنك شديد الإعجاب به".

"قد لا تصدقين هذا، ولكنني لم أقابل شخصاً مثله في حياتي؛ رغم أنني بكل تأكيد شاهدت حصتي العادلة من العالم. فقد عشت في أمريكا ومكثت في باريس لعامين وتعرفت على عدد كبير من الناس، ولكنني لم أقابل شخصاً مثل تيموثي. إنه أكاديمي في الصميم، ورجل اجتماعي إلى حد كبير؛ لدرجة تجعله يمضي ساعات وساعات وهو يتحدث إلى شخص ما؛ حتى عمال المزارع في مقهى إحدى القرى".

فكرت إسراء بنديدة التي تناهز الثمانين، وكيف أصبح تيموثي صديقاً لها أيضاً.

تابع ديفيد قائلاً: "هذا هو الشيء الذي يثير إعجابي فيه. إذ لديه شيء يقوله حول كل شيء، ولكنه ليس مغروراً".

قالت إسراء: "أن يكون لديك شيء تقوله حيال كل شيء لا يعتبر دائماً صفة عظيمة". فقد أصابها الملل من المديح الذي أغدقه الطبيب على تيم، وربما شعرت بالغيرة من زميلها رغم أنها لم تعترف بذلك. وأضافت قائلة: "إن الشخص الذي يعرف شيئاً حول كل شيء لا يمكن أن يحصل على معرفة عميقة عن أي شيء".

"وهذا هو الشيء المدهش في الأمر، فتيم ليس من هذا النوع على الإطلاق. لست أعرف ما السبب الحقيقي وراء ذلك؛ ربما لأنه زار أماكن كثيرة في العالم أو لأنه كثير المطالعة، ولكن تيم لديه معرفة عميقة حول الأشياء التي يتحدث عنها. يمكنه حتى أن يشرح لك ما يبدو أنها موضوعات أكاديمية مجردة بمصطلحات شديدة البساطة، ولكنه يفعل ذلك من دون أن يحول بساطتها إلى شيء سطحي. لطالما وجدت عمقاً في كل ما يتحدث عنه ويناقشه. وبالإضافة لكل ذلك، فهو صديق مخلص جداً؛ صديق شعرت بغيابه واشتقت لحضوره أكثر من غيره في الآونة الأخيرة".

أدركت إسراء بدورها أن تيم خبير آثار موهوب وباحث مجد وشخص صالح، ولكن التفسير الوحيد الذي استطاعت العثور عليه لمدح الطبيب له ورفعه إلى أعالي السماء هو شعور الطبيب بالوحدة هنا في هذه المدينة الجنوبية النائية. وفكرت أن تيموثي لا شك يبدو له استثنائياً إلى هذا الحد لأنه ليس لديه أحد آخر يتحدث إليه في هذه الأنحاء.

قالت إسراء مازحة: "إنه ربما باقٍ في أنحاء هذه المناطق بسبب الصداقة التي تجمع بينه وبينك".

"أشك بذلك فعلاً. إنه يعمل على تأليف كتاب، وهذا هو سبب بقائه هنا، ولكنه بالفعل يحب هذا المكان، بل هو متعلق تعلقاً كبيراً بهذه المنطقة. في العام الماضي، أوقف الإرهابيون تيموثي وملازماً في الجيش بينما هما في طريقهما إلى قرية عثمانية واختطفوهما".

فتحت إسراء عينيها على وسعهما من فرط الدهشة، وقالت: "هل أنت جاد؟ لم أسمع بشيء من هذا القبيل من قبل".

"إن تيم لا يحب التحدث عن الحوادث المؤسفة من هذا النوع".

"إذاً، ما الذي حدث له؟".

"لقد أطلقوا النار على الملازم وقتلوه، ولكنهم أطلقوا سراح تيم. ومع ذلك، فقد مرت أيام قبل أن يتمكن أخيراً من تجاوز تلك المحنة القاسية. رأيته يبكي بحرقة كطفل صغير، فاقترحت عليه أن يستشير طبيباً نفسياً، ولكنه رفض ذلك".

حاولت إسراء أن تتخيل صورة تيموثي وهو يبكي، ولكنها عجزت عن ذلك. استمر ديفيد بالكلام.

فقال "إنه يعشق هذا البلد وشعبه، لذا ربما يؤلمه أكثر من أي واحد منا أن يراهم وهم يقتلون بعضهم بعضاً بهذا الشكل".

قالت إسراء بعد أن تمكنت أخيراً من التغلب على صدمة الاعتراف

السابق: "إن القرويين في هذه المنطقة مولعون جداً به. في المنطقة التي ننقب فيها عن الآثار، يعرفه القرويون أكثر مما يعرفون أي واحد منا".

"بالطبع هم مولعون به، فهو لا يقوم بأبحاثه الخاصة وحسب، بل يعمل على خدمة السكان المحليين أيضاً. قبل عامين، قام بإجراء استقصاءات صحية على القرويين، فعمل موظفونا على تلك الحملة لشهر كامل".

"ثمة شيء في نبرة صوتك ينبئني بأنك لست مسروراً جداً من هذا النشاط".

قال ديفيد: "أن تعملي مجّاناً وتهرعي من قرية إلى أخرى بهذا الشكل، من قد يسره هذا!". ثم بدأ يضحك وقال: "آه، لا تأخذي كلامي على محمل الجد. لقد ساهم هذا العمل في تقديم الكثير من النفع للجميع، فشعرنا بالسرور الذي يأتي من جراء مساعدة الآخرين".

"والأهم من ذلك أنكم فعلتم واجبكم في مساعدة الغير من دون أن تحاولوا تحويلهم إلى المذهب البروتستانتي".

"نعم، لقد فعلنا ذلك حباً في عمل الخير فقط لا غير".

لاحظ ديفيد أن إسراء راحت تلقي نظرات خاطفة إلى ساعتها، فقال: "إن شعرت بالتعب، فدعيني لا أؤخرك وقتاً طويلاً هنا".

"أظن أنه ينبغي علي أن أذهب لأتفقد حال إيلاف".

وكانت نية إسراء الحقيقية في الواقع هي أن تحظى ببعض الخصوصية لتتصل بالنقيب أشرف. فخلال محادثتها مع الطبيب، ظل القلق الذي شعرت به حيال النقيب ينهش أعماقها ويثير أعصابها.

قالت وهي تنهض على قدميها: "شكراً لك على هذا الحديث الرائع".

"هذا من دواعي سروري".

قبل أن تصل إلى الباب، تلكأت إسراء قليلاً لتتذكر الطبيب قائلة: "لا تنس أن تتحدث إلى والدك، هلا تفعل".

"لا تقلقي. فأول شيء سأقوم به عندما أعود إلى البيت هو مفاتحة والدي بهذا الشأن".

رافقها ديفيد إلى خارج الغرفة ثم إلى القاعة، وسألها قائلاً: "هل ستتمكنين من العثور على الغرفة أم أرافقك؟".

"من فضلك لا تزعج نفسك. يمكنني العثور عليها بنفسي. أتمنى لك أمسية سعيدة".

تركت إسراء الطبيب وتوجهت في طريقها نازلة الدرج، ثم مشت بسرعة إلى النافذة المفتوحة في آخر الممر، وأخرجت هاتفها المحمول وطلبت

رقم مخفر الشرطة. في الجانب الآخر، رد عليها الجندي نفسه الذي رد عليها عصر ذلك اليوم، فميز صوت إسراء في الحال، وقال لها إن النقيب ليس موجوداً، وإن أحداً لا يعرف بالضبط متى من المتوقع أن يعود. ففكرت إسراء في سرّها إنه لا يريد أن يفصح عن أية معلومات، ولكنها أصرت على معرفة ما يجري.

قالت: "لقد سمعنا صوت إطلاق نار؟ ما الذي يجري؟".

ولكنه قال إنه لا يعرف شيئاً. وفي تلك اللحظة، قاطع شخص آخر المكالمة. وبعد أن أبقى الجندي إسراء بالانتظار لبضع ثوان، طلب منها أن تتحدث إلى الرقيب.

"مرحباً ياسيدة إسراء. الرقيب إحسان يتكلم إليك. كيف يمكنني مساعدتك؟".

بدا صوت الرجل حيوياً وودوداً، ففكرت إسراء أنه لن يتكلم بنبرة الصوت الهادئة تلك لو أن هناك إصابات وقعت بين جنوده.

"مرحباً يارقيب إحسان. لقد سمعنا صوت إطلاق نار، لذا تساءلنا وحسب...".

فاختصر الرقيب الحديث قائلاً بسرعة: "ليس هناك ما يدعو للقلق".

"لم يصب أحد من رجالك أو ما شابه، أليس كذلك؟".

قال الرقيب إحسان: "كلا، الحمد لله. الجميع بصحة جيدة وعافية. سيدلي نقيبنا بتصريح رسمي غداً".

"كيف حال النقيب؟".

"إنه بأفضل حال. كل شيء على ما يرام".

"هل يمكنني التحدث إليه؟".

"إنه خارج المخفر، ولست أدري متى نتوقع عودته".

بدا صوت الرقيب مقنعاً تماماً، وهكذا لم تجد إسراء أي داع للاسترسال في الحديث أكثر من ذلك.

"حسناً إذاً، هل يمكنك أن تعلمه أنني اتصلت به؟".

تملك إسراء شعور عظيم بالراحة عندما أنهت المكالمة. إذاً، فقد تأكدت أن النقيب على ما يرام، ولكن راحتها لم تدم لوقت طويل. فهي لم تسأل إن انتهى الاشتباك المسلح أم لا. ففكرت في سرّها: "ربما لا يزال مستمراً...". وتملكها قلق عميق من تلك الإمكانية. في الواقع، لقد تحدث الرقيب وكأن النـزاع انتهى بالفعل، ولكنها لم تستطع أن تتحلى بثقة تامة. فالحديث هنا عن نـزاع مسلح لا عن مباراة كرة قدم! نظرت من النافذة، ووجدت

الظلام حالكاً في الخارج. لم يكن هذا أول نـزاع يخوضه النقيب؛ فالرجل حارب لأشهر هناك في الجبال. ولا بد أنه يعرف أكثر مما تعرف هي، ويدرك تمام الإدراك كيف يتخذ الاحتياطات اللازمة لحماية نفسه. أخذت إسراء تمعن التفكير بتلك الأفكار لتخفف عن نفسها، ولكن من دون جدوى. فحالما بدأ ذلك القلق الذي تعرفه حق المعرفة ينشب براثنه الضارية في أعماقها، لم يعد هناك مجال لإيقافه ووضع حد له. وبالكاد استطاعت أن تذهب إلى غرفة إيلاف وتوقظ كمال لتتحدث لبعض الوقت وهي في تلك الحالة من التشوش الذهني.

á á á

اللوح السادس عشر

بعد أن كنت مسحوراً بأشمونيكال، صرت أبذل كل ما بوسعي لكي أتجنب أي لقاء يجمعني بها. فلم أبتعد عن القصر وحسب، بل حرصت على تجنب سلوك أي طريق قد أصادفها فيه. ومع ذلك، فالرحلات التي توجب على والدي القيام بها إلى الممالك الأخرى جعلت حضوري في القصر إلزامياً. فقد طلب مني والدي أن أذهب إلى القصر، وأؤدي عمله نيابة عنه مع مساعده لايماس. كان لايماس رجلاً صالحاً، ولكنه ساذج بعض الشيء، فاعتبر والدي أن شاباً موهوباً ومجداً في عمله مثلي يمكنه أن يشكل تتمة مثالية لمساعده الخاص، ولكن والدي لم يدرك طبيعة علاقتي بأشمونيكال. لذا، توجب علي أن أتصرف بناء على رغبات والدي.

أصبحت أذهب كل يوم إلى القصر وفي داخلي شبكة معقدة من المشاعر المتضاربة. فقد شعرت أنني شديد اللهفة لرؤية أشمونيكال، ولكن من ناحية أخرى تملكني الخوف من رؤيتها، وكأنني طفل صغير يخشى رؤية العفاريت في الظلام لدرجة تكاد تفقده صوابه. وبينما أنا أقدم المساعدة للايماس طيب القلب ولكن عديم الخبرة، تعلق تفكيري بذلك القسم من القصر حيث تقيم حريم بيزريس. كان ثمة درج حجري يقود إلى ذلك القسم الموجود في أعلى طابق من القصر، وهو قسم مؤلف من غرفتين كبيرتين تطلان على نهر الفرات. ورغم أنني امتنعت حتى عن النظر إلى جهة الدرج المؤدي إلى ذلك القسم، فقد استطعت أن أشعر بوجود أشمونيكال هناك، وانتظرت اللحظة التي سأصادفها فيها بقلب مفعم بالخوف واللهفة والفرح.

وفي اليوم السابع على انطلاق والدي في رحلته، حضر أحد حراس بيزيريس إلي وأنا أعمل في مكتبة القصر، وقال إن الملك يريد رؤيتي. فتملكني القلق حيال سماع هذا الكلام، وتساءلت عن السبب الذي قد يدفع الملك لطلب مقابلتي. ترى، هل عرف أنني الرجل الذي قابلته أشمونيكال في المعبد يوم الاحتفال؟ ذلك مستحيل. ولكن، ماذا إن زرع جواسيس في أنحاء المعبد كافة؟ كلا، لا يمكن أن يتمتع بالشجاعة الكافية لزرع الجواسيس في المعبد. فرغم أنه الملك، إلا أنه لا يجرؤ على خرق خصوصية العبادة التي تتم هناك. بينما أخذت تلك الأسئلة تدور برأسي، توجهت في طريقي للمثول أمام الملك.

وجدت بيزيريس جالساً بجانب النافذة، وبجانبه امرأة وجهها يقابل

النافذة. دنوت من الملك بكل احترام، فنظر إلي بينما انحنيت أمامه مطأطئاً رأسي بشكل منخفض جداً.

قال بيزيريس بصوت مفعم بالتعاطف لم أسمعه من قبل في كلامه: "استقم أيها الشاب باتاسانا. لدينا مهمة نريد أن نكلفك بها. سمعنا أنك تهتم بشؤون المكتبة منذ أن غادر والدك آراراس كما أمرناه".

نهضت على قدمي ولكن بصري ظل مركزاً على الأرض.

وقلت: "نعم يا مولاي. شكراً لك. إنني أهتم بشؤون مكتبة القصر إلى جانب مساعد الكاتب لايماس".

صاح قائلاً: "لا تحدثني عن عديم الموهبة المدعو لايماس. وانظر إلي عندما تحدثني".

عندما قال هذا، رفعت رأسي، ورأيت إلى جانب وجه بيزيريس القبيح الوجه الأثيري لحب قلبي وحياتي، أشمونيكال، فأبعدت بصري عنها في الحال، وعاودت النظر إلى الأرض مرة أخرى.

فقال بيزيريس بنبرة ساخرة: "إذاً، يبدو لي أن لايماس لم يوفر جهداً طوال هذا الوقت في تشويش عقلك على حد سواء. ارفع رأسك وانظر إلي".

أذعنت لأمر الملك بعجز، ولكنني حاولت أن أمنع نفسي من النظر إلى أشمونيكال. فركزت انتباهي بالكامل على بيزيريس.

تمتمت بصوت مختلج: "نعم، يا مولاي. إنني بانتظار سماع أوامرك".

ابتسم بيزيريس، فانفرجت شفتاه عديمتا الشكل على عرض وجهه كاشفة عن أسنانه الصغيرة المليئة بالفراغات.

فقال بصوت شديد الثقة بالنفس: "هذا هو ما أريده. أريدك أن تصبح كاتباً موهوباً ومتفهماً مثل أبيك. كن كأبيك رجلاً ذكياً يمكنني الاعتماد عليه لتنفيذ أوامري بحذافيرها".

فقلت لأرضي غرور الملك: "شكراً لك يا مولاي. بفضلك سأصبح كاتباً بكل المواصفات التي ترغب بها". ولا يمكنني أن أصف الخزي الذي شعرت به في تلك اللحظة. فقد عرضت نفسي للخزي أمام المرأة التي أحبها، ووضعت نفسي في موقف بغاية الإحراج، ولكنني كبحت شعوري بالخجل على الفور. فقد كنت واقفاً في حضرة الملك، وتوجب عليّ أن أبذل أي تضحية يمكنني تقديمها؛ بما في ذلك حياتي بناء على أوامره، فهو ممثل تيشوب وعائلته على الأرض وحامي الشعب والبلاد. وبالإضافة لذلك، إلى أي مدى قد تصل أهمية حب شاب مثلي لم يرتق لمنصب كاتب القصر بعد؟

استجمعت شتات نفسي وكررت كلامي.

فقلت: "نعم ياسيدي. إنني هنا لأفعل ما تأمرني به".

غمرت وجه بيزريس مربع الشكل عاطفة عميقة، وفاض تعبير عذب من عينيه المحمرتين. فأخبرني بأعذب نبرة استطاع أن يحصل عليها من صوته العميق ما أراده مني.

فقال: "إن أشمونيكال هي حبيبتي، ولكنها ليست كبقية النساء في القصر. إن والدها معلم، لذا فقد نشأت على قراءة الأساطير والقصص والشعر والقصائد والأغاني. نحن لا نريدها أن تشعر بالملل هنا، لذا يجب عليك أن تريها لائحة بكلّ الأساطير والملاحم والقصائد والأغاني الموجودة في مكتبتنا. كل ما عليك فعله هو أن تحرص على حصولها على اللوح الذي تختاره كلما أرادت ذلك. إنني أكلفك بهذه المهمة، ولكن مهما فعلت، لا تدع لايماس يتدخل بهذه المسألة".

تمكنت بعد مشقة كبيرة من استجماع أفكاري التي شعرت أنها باتت خليطاً من الدهشة والانفعال والفرح والخوف وأجبته ورأسي منكس أمامه: "كما ترغب يابيزيريس العظيم. سوف أنفذ أوامرك دونما خلل. وسوف تحظى أشمونيكال الموقرة بحرية استخدام الألواح في المكتبة كما تشاء وترغب".

قال بيزيريس: "هذا هو فتاي الشاب باتاسانا. لقد سمعت أخباراً سارة كثيرة عنك. وإن أثبت لي أن ما سمعته صحيح، وإن نفذت المهمات بشكل مثالي كما أمرتك، فهناك مستقبل ممتاز بانتظارك".

وبعد ذلك، التفت لينظر إلى أشمونيكال وعيناه مفعمتان بالحب.

وقال: "هناك مستقبل ممتاز بانتظارنا جميعاً. وسوف يعيدنا المستقبل إلى الوفرة والرخاء والقوة التي فقدناها قبل عصور مضت".

بينما واصل بيزيريس الكلام، تخيلته للحظة واحدة بجسده القصير والسمين وهو يطارح أشمونيكال الحب. فتغيّرت ملامح وجهي على الفور إلى الاشمئزاز، ولكن لحسن الحظ تمكنت من استعادة انتباهي وتصنع تعبير يدل على الاحترام والطاعة والتواضع قبل أن يلاحظ بيزيريس ذلك. وعندما أوشكت أن أطلب الإذن بالانصراف، رن في أذني صوت أشمونيكال مالئاً الغرفة بالفرح والسعادة.

"أود أن أحضر إلى المكتبة في وقت مبكر من صباح الغد لأنظر إلى الألواح. هل ستكون متواجداً في الصباح؟".

سألتها: "غداً صباحاً؟". وصمتُ وأنا أحاول أن أخفي مفاجأتي: "بالطبع".

ثم قلت وأنا أستجمع شجاعتي: "في أي وقت تشائين يا مولاتي".

فقال بيزيريس بنبرة آمرة: "لقد سمعتها. انتظر أشمونيكال في المكتبة غداً صباحاً".

قلت: "أمرك، مولاي". وحنيت رأسي باحترام، ولكن قلبي الذي شعر باقتراب الكارثة بدأ يدق بسرعة من فرط الخوف. وقبل أن تتسنى الفرصة لدقات قلبي المتسارعة أن تنتشر إلى بقية جسدي، طلبت الإذن بالانصراف، وأسرعت خارجاً من الغرفة. وبينما أنا أنزل الدرج، بدأ إحساس مشؤوم عديم الرحمة يثقل على قلبي.

á á á

الفصل السابع عشر

استيقظت إسراء مكروبةً بعد ليلة قلقة قضتها نصف نائمة ونصف مستيقظة، فجلست على سريرها بإحباط. أما إيلاف التي قضت ليلتها وهي تئن من فرط الألم فقد تمكنت أخيراً من الاستغراق في النوم. وكذلك كمال الذي قاوم النعاس ليسهر على راحة إيلاف، استسلم أخيراً للنوم قرابة الفجر. نهضت إسراء بصمت لئلا تزعج صديقيها، ودخلت الحمام، وغسلت وجهها وجففته، ثم أخذت هاتفها المحمول وخرجت به إلى الممر.

لم تجد الممر هادئاً كما كان عليه في الليل. فقد استولت عليه حركة طفيفة بحلول ساعة الفطور، وراحت الممرضات يمشين ببطء على طول القاعات حاملات صينيات الطعام التي يقدمنها للمرضى أو لمن يعتنون بهم. توجب عليها أن تنـزل إلى الحديقة لكي تتكلم براحتها، ووجدت زاوية هادئة خلف الباب، وطلبت رقم مخفر الشرطة. رن صوت الجندي المناوب في أذنها. وعندما ميز صوتها على أنها المتصلة، لم يضيع وقتاً في الشكليات.

فقال: "سوف أوصلك بالنقيب على الفور".

إذاً، لم يكن هناك ما يستدعي خوفها.

"مرحباً يا إسراء".

سرى إحساس من الراحة في أطراف جسدها حالما سمعت صوت النقيب.

فقالت: "نعم، هذه أنا. كيف حالك؟ هل أنت بخير؟".

أجاب النقيب: "إنني بخير تماماً، بل في حال رائعة في الواقع". وبدا صوته متعباً ولكنه مفعم بالثقة بالنفس، ثم قال: "الحمد لله، لم يتعرض أي من رجالنا للقتل أو الإصابة... قالوا لي إنك اتصلت ليلة البارحة أيضاً".

"نعم، هذا صحيح. لِمَ لم تعاود الاتصال بـي؟".

"لقد عدت إلى المخفر حوالى الساعة الثالثة، لذا لم أود أن أزعجك في ذلك الوقت المتأخر".

أوشكت أن تقول له: "أتمنى لو أنك اتصلت. فقد أمضيت الليلة بطولها وأنا أفكر بك". ولكنها غيرت رأيها وعدلت عن الفكرة.

فقالت: "لقد أصابني القلق عندما سمعت صوت إطلاق النار".

"فكرت بأن أمر بموقع التنقيب عن الآثار صباح اليوم لأطلعك على كل ما جرى".

"ولكنني لست في الموقع في الوقت الحالي، بل في المستشفى في غازي

عنتاب".

"أتقولين إنك في المستشفى؟".

تملكتها بهجة خفية عندما سمعت نبرة القلق في صوته.

فقالت: "إنني بخير، ولكن عقرباً لسع إيلاف".

"آمل أنها على خير ما يرام".

"إن حالتها تتحسن. هلا تخبرني من فضلك بما جرى. إنني أتوق لمعرفة ذلك".

"أفضل ألا أخبرك بهذا عبر الهاتف. مع ذلك، في الوقت الحالي يكفي القول إن كل شيء على ما يرام. يمكنك أن تواصلي مهمة التنقيب عن الآثار بسلام الآن".

"إذاً، أتعني أنك قبضت على مرتكبـي جريمتي القتل؟".

"نعم، لن يزعجوك بعد الآن".

"هل اعترفوا بجريمتيهم؟".

"لقد ألقينا القبض عليهم جثثاً هامدة".

خيمت فترة وجيزة من الصمت.

فقالت إسراء: "هل أنت واثق من أنهم القتلة؟".

ساد الصمت مرة أخرى قبل أن يرد النقيب بصوت مرتبك قائلاً: "ليس من الملائم تماماً مناقشة هذا الموضوع هنا عبر الهاتف. متى ستعودين إلى الموقع؟".

"لست واثقة من هذا، على الأرجح عصر هذا اليوم".

"مري بـي وأنت في طريقك، وسوف أزودك بكل التفاصيل".

تمنت إسراء أن تعرف التفاصيل كلها في تلك اللحظة على الفور، ولكنها أدركت أنه من غير المجدي أن تلح على النقيب أكثر من ذلك.

"حسناً، أراك عصر اليوم إذاً".

إذاً، لقد قلقت من دون سبب. إذ اكتشفت أن النقيب بأفضل حال ولا خطر عليه. ومع ذلك، لم تستطع أن تشعر براحة تامة، فهي لم تجد كلماته مطمئنة إلى حد كبير. فكرت مراراً بنظريته التي تقول إن الانفصاليين هم الذين يقفون وراء جريمتي القتل، ولكنها لم تقتنع بها قناعة تامة ولم تجدها منطقية. قد يبدو دافعهم لقتل زعيم القرية رشيد آغا منطقياً بما فيه الكفاية، ولكنها لم تستطع أن تجد سبباً يدفعهم لقتل الحاج عبد الستار. وبالإضافة لذلك، لو أن الانفصاليين هم الذين ارتكبوا الجريمتين، لأعلنوا مسؤوليتهم عن ذلك؛ إذ ليس هناك سبب يدعوهم لإخفاء

جريمتهم. ولو افترضنا أنهم قتلوا رشيد آغا في اليوم الفائت فقط، فمن المؤكد أنهم كانوا سيعلنون عن مقتل الحاج عبد الستار على الأقل بحلول ذلك الوقت؟ شعرت برأسها مليئاً بتساؤلات كثيرة وهي تمشي عائدة إلى المستشفى حتى كادت أن تصطدم بديفيد.

فقال لها الطبيب بمرح: "صباح الخير. كنت أبحث عنك للتو. لم تتناولي فطورك بعد، أليس كذلك؟".

"كلا، لماذا تسأل؟".

"سوف نذهب معاً إلى بيتي. فقد دعانا والدي لتناول الفطور معه".

"هذا لطيف جداً، ولكن صديقي لا يزالان نائمين".

"ستخبرهما الممرضات عن مكاننا عندما يستيقظان".

لم تستطع إسراء أن تتخذ قرارها. فقد أرادت في الواقع أن تتحدث إلى والد ديفيد، ولكن إيلاف لم تتحسن صحتها بشكل جيد بعد، ولم تستطع أن تجبر نفسها على تركها وحدها وهي لا تزال في تلك الحالة.

فقالت: "ولكن إيلاف...".

"ليس هناك ما يدعو للقلق. فتأثير السم في دمها يتراجع بمرور كل يوم".

قالت إسراء: "حسناً، إذاً دعنا نذهب. سيخبرونهما أننا ذهبنا، أليس كذلك؟".

فرسم ديفيد ابتسامته الواثقة والملهمة على وجهه وقال: "لا تقلقي على الإطلاق. سأذهب وأخبر رئيسة الممرضات الآن، وسأعود في الحال".

بدأ هاتف إسراء يرن حالما انصرف الطبيب، فردت على الهاتف، ووجدت أن المتصل هو تيومان الذي كان يتصل ليسأل عن حال إيلاف، لذا زودته بآخر المستجدات. قال لها إن كل شيء على ما يرام في الموقع، وإن تيم رافقهم إلى هناك، وإنه عندما حان وقت الاستراحة التي يتناول فيها العمال فطورهم، استغل الفرصة ليتصل بها. وأخبرها أيضاً أن العمال على ما يرام، وأن الجميع قد حضروا باستثناء سيهلي. لم يعرف أحد سبب غيابه، ولكن الآخرين عملوا بكل جد ونشاط ثم طلبوا الإذن بالانصراف من العمل مبكرين بعض الشيء في ذلك اليوم من أجل حضور جنازة الحاج عبد الستار. فكان تيومان ومراد سيوصلان العمال إلى القرية، وسيحضران الجنازة نيابة عن فريق التنقيب عن الآثار. آه نعم، كما أنه تصالح مع مراد واعتذر له. لم ترغب إسراء بالتحدث عن الموضوع. فطلبت منه أن يبلغ تحياتها للآخرين وأنهت الاتصال.

فكرت إسراء أن شيئاً من القلق سيفيد تيومان، إذ يتوجب عليه أن يتعلم توخي الحرص في الطريقة التي يتعامل بها مع أصدقائه في المرات المقبلة.

في الواقع، فوجئت إسراء من الطريقة التي تصرف بها تيومان في الليلة الفائتة، لأنه اعتاد أن يكون سهل المعشر ولين الطباع. فهو لم يكن شاباً شديد التدقيق أو له تطلعات كبيرة في حياته أو في مهنته. فقد أراد أن يصبح مهندساً معمارياً، ولكن بسبب كسله في المدرسة الثانوية- وهذا الطبع الكسول لم يتغير فيه- لم يعمل بجد كبير ليصل إلى ذلك المبتغى، ووجد فكرة إعادة امتحانات الجامعة مرة أخرى فكرة شديدة الوطأة عليه، لذا اكتفى بدراسة علم الآثار. وكان الأكل والشرب والنوم وتبادل الأحاديث كل ما يستمتع به في الحياة. وباختصار، كان شخصاً خالياً من الهموم. ومع ذلك، فقد السيطرة على أعصابه في الليلة الفائتة فجأة دونما سبب واضح. ربما تجاوز مراد حدوده معه فوق اللازم. فكرت إسراء في سرّها: "مهما حدث، فليس له الحق في التصرف بتلك الطريقة". وهكذا، ظنت خلال مكالمتها الهاتفية مع تيومان أن الوقت لم يحن بعد لتظهر له أنها سامحته على تصرفه.

مرت سيارة ديفيد من طراز غولف فولجزفاجن عبر الشوارع المرصوفة بالحجارة السوداء، مروراً بالأبواب المموهة بالزنك والحجارة الصغيرة لتلك البيوت الفخمة التي تشكل النسيج القديم للمدينة، ثم دخلت إلى جادة عريضة تبدو أشبه بأي جادة قبيحة أخرى يمكن للمرء أن يجدها في إسطنبول أو أي مكان آخر في تركيا؛ والتي تمتاز بصفوف المتاجر، وحشود المارة الذين يمشون على طول الأرصفة كلٌّ إلى وجهته الخاصة، وضجيجها المتنافر من أصوات الدراجات النارية وأبواق السيارات. لحسن الحظ، لم تستغرق الرحلة وقتاً طويلاً. فقد دخلت سيارة الفولجزفاجن جادة أخرى لها أرصفة عريضة تحفها أشجار التوت على الجانبين؛ فتذكرت إسراء أنها شاهدت هذا الشارع من قبل في زيارتها الأولى للمدينة. فكان انطباعها الأول عن مدينة غازي عنتاب إيجابياً. وعندئذ، وصل هذا الشارع إلى نهايته، وحلت محله أرصفة ومجموعات مزدحمة من أبنية الشقق. لحسن الحظ، لم يدم بقاؤهما في هذا المكان لوقت طويل أيضاً، إذ سرعان ما أحاطت بهما الأشجار الخضراء المتفتحة وبعض البيوت المتناثرة هناك وهناك بين الأشجار النامية في كل مكان.

تملّك إسراء شعور مريب بالقلق، فقالت: "هل سنغادر المدينة؟".

فابتسم ديفيد ببراءة وقال: "لا تقلقي. لن أقوم باختطافك. إن والدي يعيش في بيت ريفي في منطقة ساريجولوك، لذا سوف نتوجه إلى هناك".

سألت إسراء مازحة: "أين تقع هذه المنطقة المدعوة ساريجولوك؟ هل أنت واثق من أنك لا تعتزم اختطافي؟".

فقال: "إنني واثق من ذلك". وبعد برهة قصيرة، أشار أمامه بيده وقال: "هذه هي ساريجولوك. وها هو بيتنا".

قالت إسراء عندما رأت المبنى الحجري: "هذا جميل. يبدو البيت قديماً".

"إنه قديم جداً. لم يكن هناك أحد يعيش في هذه المنطقة عندما تم بناء هذا المنـزل، ولكن مؤخراً تم بناء الكثير من البيوت في أنحاء المكان".

كان المنـزل الحجري ذو الطابقين مبنياً في وسط حديقة محاطة بسور. شاهدت إسراء طاولة فطور أمام المنـزل تحت شجرة جوز ضخمة ترتقي عالياً في السماء وسط بستان من الزهور الملونة، كما رأت رجلين مسنين جالسين بجوار الطاولة وامرأة في منتصف العمر تحمل صينية مليئة بأصناف طعام الفطور، وجميعهم ينظرون باتجاهها.

شرح ديفيد قائلاً: "الرجل ذو النظارة هو والدي".

"هل يعيش هنا بمفرده؟".

"إن المرأة الواقفة هناك، واسمها السيدة غولوسوم باكا، تعتني به. أما زوجتي وأولادي فيمرون إلى هنا بين الحين والآخر". وتوقف قليلاً ثم رمق إسراء بنظرة غزل وقال: "ولكنهم في إجازة الآن. إذاً، كما ترين، إنني أصبح أعزب خلال فصل الصيف".

سألت إسراء لتظهر عدم اهتمامها بتلميحاته: "ومن الرجل الآخر؟".

"إنه السيد صاقب آمكا صديق والدي. إنه شخصية معروفة هنا في غازي عنتاب، فهو من المحاربين القدامى في حرب الاستقلال ومدرس متقاعد...".

اقتربت سيارة الفولجزفاجن من البيت وتوقفت في ظل شجرة الأكاسيا. قال ديفيد وهو يطفئ المحرك: "لم أعرف أنه قادم. والآن، سوف يتجادلان مع بعضهما بعضاً بعناد كالتيوس".

"ألا يتفقان معاً؟!".

"على الإطلاق! إنهما متضادان كالثلج والنار. لم يعتد والدي على الانصياع لأساليب صاقب في المشاحنة. فكلما تقدم في السن، بات يمعن في استفزازه أكثر فأكثر. وكلما التقى ذانك الرجلان اندلعت مشاجرة بينهما،

ولكنهما لا يزالان عاجزين عن الاستغناء عن بعضهما بعضاً. إن معرفتهما تعود إلى وقت طويل من الماضي؛ فقد درسا معاً في المدرسة الثانوية الأمريكية، ولم يعد أي من أصدقائهما على قيد الحياة الآن. وإن مات أحدهما، فسيصبح الثاني بغاية الوحدة. ومع ذلك، فقد كان الوضع سيبدو أفضل لو أن "صاقب" لم يأت اليوم".

"ربما فكر وحسب أن صديقه يشعر بالوحدة في البيت وهو يجلس بمفرده هكذا".

هز ديفيد رأسه رداً على كلامها.

مرا بجانب الحديقة، وتقدما من الطاولة التي يخيم عليها ظل داكن عابق بروائح الزهور وتزينها أطباق الفطور الوافرة الشهية. نهض الرجلان ليرحبا بالضيفة، فتقدم نيكولاس الذي لمعت عيناه الزرقاوان في وجهه المجعد نحو إسراء ومد يده ليصافحها.

"مرحباً، أنا نيكولاس؛ طبيب متقاعد".

قدمت إسراء نفسها على حد سواء وهي تمسك بيدها يد الرجل ذات العروق الأرجوانية البارزة.

ثم قال بابتسامة خبث تكشف عن أسنانه الاصطناعية: "وهذا صديقي القديم صاقب".

عندئذ فقط لاحظت إسراء أن "صاقب" اتكأ على عصا ليتمكن من الوقوف.

قال الرجل المسن: "أستاذ التاريخ المتقاعد صاقب". وشدد على كل كلمة وكأنه يريد أن يملأ الفراغات التي تركها صديقه وهو يمد يده المرتعشة ليصافح المرأة.

بدت فروة رأسه البيضاء كثيفة الشعر كما كانت في أيام شبابه، ولكن عينيه البنيتين في وجهه الأسمر المرصع ببقع داكنة صغيرة بدتا كما لو أنهما تحولتا إلى اللون الرمادي؛ وكأن ستارة قد أسدلت عليهما. عندما شعرت إسراء أن الرجل اقترب منها بشكل غير مريح بعض الشيء، تراجعت خطوة إلى الوراء.

فقال الرجل في سبيل تفسير موقفه: "اعذريني على اقترابـي منك فوق اللازم". على عكس جسده المتهالك، بدا صوته عميقاً وحيوياً. تابع كلامه قائلاً: "لقد كسر حفيد ابني نظارتي، فصار يجب علي أن أقترب من الناس لأراهم بوضوح. آمل أنني لم أزعجك". أشار برأسه نحو نيكولاس وأضاف قائلاً: "إنني لا أتفق كثيراً مع هذا الرجل، ولكن عندما قال لي عبر

الهاتف إنه سيتحدث مع السيدة إسراء عن الأيام الخوالي، لم أستطع أن أمنع نفسي، لذا أتيت إلى هنا".

اعترض ديفيد قائلاً: "من الجيد أن نراك هنا. إذ يمكنك أن تزوّدنا بالمعلومات عن أي شيء قد ينساه والدي".

أشار نيكولاس لضيفته بيد مرتعشة نحو كرسي مقابله وقال: "تفضلي بالجلوس من فضلك".

وبينما هي تجلس، التقت عينا إسراء عيني غولوسوم باكا.

فقالت غولوسوم بخجل: "أهلاً بك".

بسبب إلحاح غولوسوم، بدؤوا مباشرة بتناول الفطور. وكانت قد زينت المائدة بتشكيلة كبيرة من الطعام الممتاز؛ من العسل، إلى المربى المنـزلي، إلى جبن غازي عنتاب السميك، إلى سلطة الزيتون وسلطة الفاصولياء. نظر الصديقان المسنان إلى الطعام على طبقيهما بتوق، ولكنهما لم يستطيعا الإفراط في تناوله. وسرعان ما بدآ بطرح الأسئلة المعتادة: في أي منطقة من إسطنبول تعيشين؟ أين درست؟ منذ متى وأنت تعملين كخبيرة في علم الآثار؟ لكم من الوقت سيدوم التنقيب عن الآثار على ضفتي نهر الفرات؟ فردت إسراء على الأسئلة ردوداً قصيرة ومحددة وهي تتناول فطورها، وهكذا أمضوا فترة تناول وجبتهم.

تمكنوا من فتح الحديث الذي أتت إسراء من أجله بعد أن جمعت غولوسوم بقايا وجبة الفطور وأحضرت كوبين من الشاي مع الليمون للرجلين المسنين بينما شرب ديفيد والضيفة قهوة تركية من دون سكر.

قالت إسراء: "لقد أخبرتَ السيد ديفيد أن جرائم قتل مماثلة للجريمتين اللتين ارتكبتا مؤخراً قد وقعت قبل ثمانية وسبعين عاماً أيضاً". توجهت أبصار الجميع نحو الطبيب المسن، فأضافت إسراء قائلة: "هل أنت واثق من ذلك؟".

قال نيكولاس: "بالطبع أنا واثق من ذلك. ومن المؤكد أن "صاقب" يتذكرها بدوره. حدث هذا قبل ثمانية وسبعين عاماً. وإن لم أكن مخطئاً، فهذا يوافق عام 1921".

فسأل صاقب وهو ينظر إليه بعينين مضيقتين: "أتقصد في عام 1339؟".

"كلا، بل في عام 1340 حسب التقويم الهجري".

"وقعت تلك الأحداث أثناء حصار غازي عنتاب. أرجو ألا يرينا الله أياماً كتلك الأيام العصيبة. آه، يا لتلك الأيام!".

فحذر نيكولاس صديقه قائلاً: "إنني أتحدث عن فترة ما بعد الحصار".

"حسناً، حسناً. تعني بعد أن تم كسر الحصار وتمكن نقيب قوات غازي عنتاب السيد أوزديمير من اختراق القوات الفرنسية والخروج من المدينة...".

فقال نيكولاس مصححاً كلام صديقه مرة أخرى: "كلا، كلا، أعني بعد ذلك. إنني أتحدث عن فترة ما بعد اتخاذ القرار في مؤتمر لندن بانسحاب الفرنسيين من غازي عنتاب".

والآن ثار غضب صاقب. فقال: "فهمت، ياعزيزي. إنك تتحدث عن الوقت الذي بدأ فيه الأرمن بالهرب".

"ها نحن ذا... هذه هي المرحلة التي أشير إليها. بدأ معظم الأرمن يخشون التعرض للنفي كذلك الذي حصل لهم في عام 1915، لذا باعوا كل ممتلكاتهم وشدوا رحالهم إلى سوريا".

فقال صاقب: "بالطبع فعلوا ذلك. فقد توجب عليهم أن يفكروا بما يمكن أن يحدث لهم عندما استقبلوا القوات الفرنسية ملوحين لها بالأعلام، ومرتدين ملابسهم الموحدة، وممتطين صهوات جيادهم لمجرد النكاية بأهل بلدهم".

قال نيكولاس: "من أين لهم أن يعرفوا؟ لقد ظنوا أن الفرنسيين قادمون لإنقاذهم... على أية حال، على أية حال، لنواصل حديثنا...". ثم تنحنح وقال: "أين وصلنا؟ آه، نعم، بدأ الأرمن يهجرون المدينة، ولكن بعض العائلات في البلدة التي تنقبون فيها عن الآثار ومحيطها لم ترحل. هناك خمس عائلات أو ست بقيت هناك وحدها في عام 1915. وقد ظنّ أفرادها أن أي مكروه لن يقع لهم هذه المرة أيضاً فقرروا البقاء، ومن بينهم كاهن الكنيسة كريكور، وأوهانيس آغا الذي كان يملك معظم الأراضي حول ما يسمى الآن بقرية غوفين، والنحاس غارو. وبعد مضي أسبوع واحد على انسحاب الفرنسيين، قتل المجرمون هؤلاء الرجال الثلاثة بلا رحمة. فقد دفعوا بالكاهن كريكور من أعلى برج الكنيسة التي أصبحت الآن مئذنة المسجد الحالي. أما أوهانيس آغا فقد قتلوه على الطريق إلى القرية بأن قطعوا رأسه ووضعوه في حضنه، بينما شنقوا النحاس غارو من عارضة في سقف متجره".

تمتمت إسراء: "هذا غريب. فالجريمتان الأوليان تشبهان بالضبط جريمتي قتل الحاج عبد الستار ورشيد آغا. إذاً، ألم يعتقل أحد أولئك المجرمين قط؟".

"يعتقل! في تلك الأيام كنا في حالة حرب. وأصبح الناس ينظرون إلى الأرمن على أنهم العدو. فمن سيعتقلون؟".

تدخل صاقب قائلاً: "من يمكنه أن يعرف المذنب من البريء في غمرة الحرب الدائرة؟".

"هيا، ياصاقب. كان المذنب واضحاً. لطالما تحدث السكان المحليون عن مجموعة ثار غضبها فذبحت كل أولئك الرجال أمام أعين الجميع. رأى الجميع أن الكردي إستنديار- جد رشيد ترك أوغلو؛ الرجل الذي قتل بالأمس- هو الذي قاد تلك المجموعة. فعلى أية حال، أليس إستنديار آغا هو من استولى على أرض أوهانيس آغا ليستأثر باللقب لنفسه؟".

دافع الرجل المسن صاقب عن وجهة نظره قائلاً: "لا أعرف أياً من تلك الأشياء، ولكن الحياة أخذ وعطاء، والمرء يحصد نتاج أعماله. لم يكن أي من ذلك ليحدث لو أن الأرمن اهتموا بشؤونهم وحسب".

لم تبد إسراء اهتماماً كبيراً بما قاله صاقب.

فقالت: "ماذا حدث لعائلات الرجال الذين قتلوا؟".

"لا أعرف شيئاً عن عائلتي أوهانيس آغا والنحاس غارو، ولكن عائلة الكاهن كريكور هربت إلى بيروت. كان لدى الرجل ابن شاب وابنة طفلة. وعندما أدرك الشاب أن أخته الصغيرة ستؤخر هروبهم، سلمها لأحد الجيران الطيبين وهرب إلى بيروت مع أمه، ومن هناك إلى فرنسا...".

تدخل ديفيد قائلاً: "لماذا تسألين عن عائلاتهم؟ هل تظنين أن أحداً منهم هو من ارتكب جريمتي القتل الأخيرتين؟".

قال صاقب وكأن أحداً طلب رأيه: "لا تزعجوا أنفسكم جميعاً بكل هذا بعد الآن. إن الإرهابيين هم المسؤولون عن هذه الجرائم. أولئك المجرمون يحاولون تقسيم البلاد. كل يوم قنبلة موقوتة وكل يوم شهيد. أولئك الأوغاد الملعونون! كأن شعبنا عانى أقل مما عانى الأرمن!".

فقال نيكولاس الذي لم يرغب أن تبقى لصديقه اليد العليا: "ولكن الأرمن عانوا الكثير على أيديكم، أليس كذلك؟ أولاً هم، ثم أنتم. أنتم تتبادلون الأدوار في شد الخناق على بعضكم بعضاً".

بدا ديفيد مستاء من كلمات والده، لذا التفت إلى إسراء ليترقب رد فعلها، ولكن تفكير الشابة ظل عالقاً في أوجه الشبه بين الجرائم التي ارتكبت قبل ثمانية وسبعين عاماً والجريمتين اللتين ارتكبتا في الأيام القليلة الفائتة.

قال صاقب وهو يشد قبضته على مقبض عكازه: "إن أي شخص

يصغي إلى كلامك يظن أنك تقول الحقيقة، ولكنهم في الواقع هم الذين بدؤوا بتدمير الصداقة بيننا والأخوة التي جمعتنا. لطالما تقبلنا وجودهم وعشنا معهم جنباً إلى جنب كالإخوة، ولم نتدخل في لغتهم ولا في دينهم. وكان أكبر مبنى ديني في غازي عنتاب هو كنيسة الأم مريم، أليس كذلك؟".

"ولكنكم بعد ذلك قمتم بنفيهم من البلاد بكل قسوة ووحشية".

فقال صاقب الآن وهو يستشيط غضباً: "بسببكم أنتم. لقد حرضتمونا على ذلك عندما طلبتم منهم أن ينشئوا دولتهم المستقلة. وهكذا، وقع أولئك الحمقى في الفخ وبدؤوا يمارسون الألاعيب من وراء ظهورنا".

قال نيكولاس وموقفه الآن يتسم بالعدائية العذبة نفسها التي يمتاز بها مشجع فريق كرة قدم خلال مباراة فريقه المفضل: "لا تقحم الأمريكان في هذا الموضوع. إن البريطانيين والروس والفرنسيين هم الذين يقفون وراء هذه المؤامرة. نحن لم نحرض أحداً على فعل شيء".

ضرب صاقب بعكازه على الأرض بعنف، وقال: "تلك كذبة! أنتم متورطون في كل هذا أيضاً".

ثم التفت إلى إسراء وتابع كلامه: "إنه يكذب ياعزيزتي. أي شأن يدفع هؤلاء الأشخاص للعيش هنا على بعد مئات الأميال من أمريكا؟".

تملك الفضول إسراء حيال هذه الفكرة أيضاً.

قال الرجل المسن لديفيد: "أرجو المعذرة، إنني لا أشير إليك. فأنت واحد منا الآن. من فضلك لا تشعر بالإهانة من كلماتي". ثم التفت إلى إسراء مرة أخرى.

"في مطلع القرن الماضي، أسس البروتستانت مؤسسة تسمى الهيئة الأمريكية".

فقال نيكولاس وهو مستمتع تماماً بالقلق الذي تملك صديقه: "تقصد الهيئة الأمريكية لمفوضي المهمات الخارجية".

فرد صاقب عليه قائلاً: "حسناً، حسناً، لا تقاطعني. كما يمكنك على الأرجح أن تستنتجي، فقد خطط أولئك الناس لنشر مذهبهم في البلاد الأجنبية مثل بلادنا. وحالما أسسوا هيئتهم تلك، جعلوا من غازي عنتاب جزءاً من برنامجهم وكأننا طلبنا منهم الحضور إلى هنا أو شيئاً من هذا القبيل".

قال نيكولاس وكأنه يحاول أن يثبت أن ذاكرته لا تزال قوية كعادتها: "لم يتم ضمها حالما تأسست الهيئة. فقد تأسست الهيئة في عام 1810،

بينما تم ضم غازي عنتاب للبرنامج في عام 1819".

"حسناً، حسناً، لقد فهمنا ما تقصده، الآن التزم الصمت... على أية حال، ياعزيزتي، كما يمكنك أن تستنتجي، بدأ أولئك الرجال يتواطؤون سراً مع الأعداء. وعندما أشار الشاعر المعروف محمد عاكف إلى "الوحش ذي السن الواحدة"، كانت السن الجيدة الوحيدة المتبقية للإمبرياليين والتي تحدث عنها هي أمريكا. وهكذا، فعندما ضمنت إمبراطوريتنا العثمانية الخائنة لأمريكا وضع أفضل بلد ذي امتياز، بدأ أولئك الرجال يسرحون ويمرحون كما يحلو لهم في بلادنا".

"إذاً، فقد سرحنا ومرحنا. وما السوء الذي نشأ من ذلك؟ فقد فتحنا مدرسة وأسسنا مستشفى وقمنا بالأعمال الخيرية".

"هذا صحيح، ولكن لماذا تفتحون المدارس والمستشفيات؟ لكي تقسموا البلد وتحتلوا أراضينا العثمانية".

قال نيكولاس: "لقد أصبحت فعلاً رجلاً عجوزاً كثير النكد ياصاقب".

"لا بد أن الجهة المذنبة تعرف بشكل أكيد كيف تلقي اللوم على غيرها. هيا، قلها بصراحة، وانعتني بالرجل العجوز الخرف. ولكن، مهما قلت وفعلت لا يمكنك أن تمنعني من الكشف عن خططكم الاحتيالية".

بدا على صاقب أن مراجل غضبه قد ثارت بالفعل الآن. فبدأت إسراء تلوم نفسها لأنها افتعلت هذا الجدال بين الصديقين. فقد سبق لها أن عرفت كل ما احتاجت لمعرفته، لذا بدأت تفكر بالنجاة بجلدها في أقرب فرصة ممكنة، ولكن السيد صاقب لم ينته من الكلام بعد، وقال: "يا فتاتي اللطيفة، هل سمعت من قبل بمسلمين يعتنقون الدين المسيحي جملة واحدة؟".

"لا أعرف، لا أظن ذلك".

"لم تسمعي، ولا يمكن أن تسمعي بذلك. ولكن، بالنسبة لكاثوليكي يتحول إلى بروتستانتي، أو العكس، أو إلى بروتستانتي جريجوري، فهذا ليس أمراً غير مسبوق. فمهما اختلفت مذاهبهم ومشاربهم فهم جميعاً في نهاية المطاف يجتمعون تحت راية الدين المسيحي. ما أعنيه هو القول إن هدفهم لم يكن تحويل المسلمين إلى مسيحيين، بل تحويل الأرمن الجريجوريين إلى بروتستانت، لهذا السبب دعموا جهود الأرمن في تأسيس دولة مستقلة لهم".

تذمر نيكولاس قائلاً: "الآن، لا تقم باختلاق القصص".

"إنني لا أختلق شيئاً. ألم تفتحوا مدارس في غازي عنتاب ومرعش

لتعلموا الأرمن؟".

شرح نيكولاس قائلاً: "لم يتم فتح هذه المدارس ياسيدة إسراء لتعليم الأرمن فقط، بل لتعليم الجميع. هذا الرجل نسي كل شيء عن الماضي لأنه بات متقدماً كثيراً في السن، فهو نفسه درس في إحدى تلك المدارس التي يتحدث عنها".

"كلا، لم أنس ذلك، وأنت محق. فقد درست فعلاً في إحدى تلك المدارس. ولكن، كم عدد الطلاب المسلمين الذين درسوا فيها؟ معظم الطلاب الذين التحقوا بمدارسكم من الأرمن".

"ما ذنب إدارة المدرسة إن امتنع المسلمون عن إلحاق أطفالهم بتلك المدارس؟".

"لا ذنب لها في ذلك. لقد سرهم هذا التصرف بكل تأكيد. لماذا؟ لأنه من الصعب خداع أطفال المسلمين، ولكن من السهل خداع الأرمن، فهم مسيحيون في الأصل. ولكنكم لم تتمكنوا من تدبير ذلك على حد سواء. فعلى الرغم من كل المال الذي أنفقتموه وكل ذلك التعليم الذي قدمتموه، تمكنتم من تحويل ربع الأرمن فقط إلى بروتستانت. كلا؟ في المدرسة، كان لدينا صديق أرمني في المدرسة من الطائفة الجريجورية اسمه ماسيس. لقد ألحقوا ذلك الصبي بالمدرسة ظناً منهم أنه سيصبح بروتستانتياً، ولكنه لم يعتنق ذلك المذهب. وكان معظم الأرمن أذكياء مثل ماسيس، فلم يغيروا مذهبهم. ماسيس...".

توقف الرجل المسن عن الكلام فجأة، فظنت إسراء أنه يحاول أن يتذكر شيئاً ما، ولكن "صاقب" التفت عندئذ إلى صديقه وكأنه نسي كل شيء عن الجدال الذي نشأ بينهما.

"حقاً يانيكولاس، حتى بعد مرور كل تلك السنين الطويلة، ما زالت أحياناً تراودني أحلام عن ماسيس. ماذا حدث لذلك الفتى ياترى؟ لم تسمع أي خبر منه أيضاً، أليس كذلك؟".

انطفأ الوميض المبهج في عيني نيكولاس فجأة لدى سماعه اسم ماسيس. وعندما أدرك صاقب ذلك، التفت ليواجه ضيفتهم.

فقال بحزن: "لو أن الأرمن جميعاً مثل ماسيس، لانسجمنا مع بعضنا وعشنا بتناغم منذ ذلك الحين".

"إذاً، كان ماسيس صديقك؟".

"كلمة صديق لا تعبر عن علاقتي به. فقد كان بمثابة أخ لي من أبي وأمي. كنت وهذا الرجل وماسيس أثناء دراستنا الثانوية أشبه بثلاث

حبات بازلاء في قرن واحد؛ كأولئك الفرسان الثلاثة من الرواية المعروفة، ولا ينقصنا سوى دارتانيان".

عندما أشار صاقب برأسه نحو نيكولاس أثناء حديثه، التفتت إسراء لتنظر إلى الرجل الجالس مقابلها، وعندئذ فقط أدركت أنه لم يتبق شيء من تعبير وجهه البهيج بعد الآن، كما أن تعبيراً كئيباً خيم على وجه ديفيد على حد سواء، ولكن ربما ليس بالدرجة نفسها. تابع صاقب كلامه من دون أن يعي التأثير الذي أحدثه على صديقه وابنه.

"كان ماسيس يكبرنا بعدة أعوام، ولطالما اعتبرناه بمثابة أخ أكبر لنا، ولا سيما عندما اعتاد أن يحمينا من بقية الأولاد الكبار. وفي الحقيقة، لقد كان محارباً عظيماً بالإضافة إلى فطنته وذكائه الحاد".

"ماذا جرى له؟".

فقال صاقب: "لقد اختفى. لم نعثر عليه على الإطلاق لا حياً ولا ميتاً. عندما تم احتلال غازي عنتاب، انتهى المطاف بكل واحد منا في معسكر مختلف. فقد انضم ماسيس للقوات الأرمنية المؤيدة للفرنسيين، بينما انسحب نيكولاس إلى مستشفى أبيه وراقب الحرب من بعيد. أما أنا، فقد انضممت إلى حركة المقاومة. ولأنني كنت سريعاً جداً بالتنقل على قدمي وأنا شاب صغير في السن، فقد أصبحت المراسل الخاص للسيد أوزديمير، ورحت أتردد جيئة وذهاباً لنقل رسائل مشفرة إلى النقيب صلاح الدين في الفيلق الثاني متسللاً؛ فيما كان الحصار الذي فرضته القوات الفرنسية على المدينة مطبقاً عليها. كان العدو يتمتع بأفضلية كبرى علينا من ناحية السلاح، وكذلك عدد الرجال، فتضور سكان المدينة جوعاً لأشهر، وأصبحوا يعدون الخبز من بذور المشمش، والحساء من العشب المجفف، ويتشاجرون على جيف الجياد. تبادل السيد أوزديمير والسيد صلاح الدين الرسائل مرات عديدة. فألقى الأرمن الذين يخدمون في الجيش الفرنسي القبض علي وأنا أغادر المدينة في مهمتي الخامسة مرتدياً ملابس مدنية. حاولت أن أقنعهم أنني لست جندياً ففتشوني، ولكنهم فشلوا في العثور على الرسالة المكتوبة بالرموز، غير أنهم ظلوا يشكون بأمري. فبدأ جنديان منهم يضربانني بأخمص بندقيتيهما ليجبراني على الكلام، ثم بدآ يضربانني بلا رحمة على عظام الكاحل والركبتين والمرفقين، فانهرت على الأرض. وعندما بدأت لتوي أفكر بأن كل شيء قد انتهى وبأنني على وشك أن ألقى حتفي هناك، سمعت صوتاً يقول: "توقفا!". وذلك هو ماسيس. فقد قال: "دعاه وشأنه. لا بأس به. أنا أكفله". لقد أدرك في الواقع أنني التحقت بقوات المقاومة،

ومع ذلك، وفي تلك اللحظة، أثبتت الصداقة- صداقتنا- أنها أقوى من العداوة بين القوتين المتنازعتين. نهضت على قدمي وعانقته بحرارة، فحذرني قائلاً: "يجدر بك أن تهرب من هنا". بقيت معه لبضع دقائق لآخذ استراحة قصيرة ثم توجهت إلى الفيلق الثاني. وهكذا، لم يقم ماسيس بإنقاذ حياتي وحسب، بل ساعدني أيضاً على أداء واجبي".

ظلت إسراء تنظر إلى نيكولاس وهي تصغي إلى قصة صاقب. عندما قام صديقه بإغداق كل ذلك الثناء الجزيل على ماسيس، بدا وجه نيكولاس أشد كآبة، وتلاشت الحيوية من عينيه. ففكرت إسراء بأنه من الأجدر بها أن تستغل هذا الهدوء البسيط في المحادثة لتنجو بجلدها.

فقالت: "شكراً لكم على الفطور والمحادثة، ولكن ينبغي علي فعلاً أن أغادر الآن".

قال نيكولاس: "أليس الوقت مبكراً؟". ولكنه لم يلح عليها أكثر من ذلك.

أما صاقب، فقد بدت عليه خيبة الأمل، وقال: "لا يزال هناك الكثير أريد أن أحدثك به".

فابتسمت إسراء وقالت: "ربما في المرة القادمة".

قال ديفيد متظاهراً بدعمها: "دعونا لا نضغط على ضيفتنا كثيراً ياسيد صاقب. إنني أعدك بأن أحضرها إلى هنا مرة أخرى".

نهض كل من نيكولاس وصاقب على أقدامهما باحترام، بينما استأذنت إسراء للمغادرة. ومع ذلك، لم يعد نيكولاس يبدو الرجل نفسه الذي رحب بها بكل بهجة لدى وصولها وبدا شديد اللهفة للكلام معها.

á á á

اللوح السابع عشر

لم يطرأ أي تغيير عليّ أو على أشمونيكال. تلك هي الفكرة الأولى التي خطرت ببالي عندما رأيتها جالسة بجانب بيزيريس. فقد وجدتها كما رأيتها لأول مرة في المعبد؛ جميلة لدرجة تخلب الألباب، وواثقة من نفسها لدرجة مخيفة.

في صباح اليوم التالي، جلست على مقعد خشبي في المكتبة بانتظار حضور أشمونيكال؛ أول امرأة أحببتها ومال إليها قلبي في حياتي، تلك التي لها اسم أخشى أن ألفظه حتى بيني وبين نفسي. لم أستطع أن أحدد إن كان خوفي من رؤيتها أعظم أم سعادتي بلقائها. كل ما عرفته هو أن رؤيتها أدخلت السرور إلى قلبي، وأخافتني في آن معاً. لم أعرف شيئاً إلى جانب ذلك، ولم أكن أريد أن أعرف. في الأمس، وحالما خلفت الملك بيزيريس وأشمونيكال وراء ظهري، توجهت إلى المكتبة وبحثت عن الأساطير، ورتبتها على الرف، وكتبت عناوينها على الألواح. فإن أتت أشمونيكال، تمكنت من البحث عن اللوح الذي تريده ومعرفة الألواح التي تحتويها المكتبة بكل سهولة.

بينما أنا جالس بانتظارها، تساءلت إن كانت ستأتي بمفردها أم سيرافقها أحد الموظفين. تمنيت أن تأتي برفقة موظف أو برفقة إحدى جواري الملك الأخريات. فبتلك الطريقة، كان بوسعي أن أتحدث معها براحة أكبر وأؤدي الواجب الذي كلفني الملك به بدقة تامة. ولكن لم يتوجب علي أن أتساءل على هذه الحال لوقت طويل لأن أشمونيكال ظهرت أخيراً عند باب المكتبة وهي تبدو ساطعة ومضيئة ومبكرة كنجمة الصباح.

عندما رأيتها عند الباب، استولى على عقلي وجسدي انفعال لا يمكن كبحه؛ بالضبط كما حدث معي عندما رأيتها أول مرة في المعبد. كانت ترتدي ثوباً عسلي اللون له نقش زهور، وتزين عنقها الطويل بعقد من الفضة. نظرت إلي وهناك تعبير عذب مرسوم في عينيها البنيتين اللتين جعلتا بشرتها القمحية تبدو أغمق لوناً.

أطرقت برأسي لأتجنب النظر إلى عينيها، وقلت لها بصوت فاتر خال من العاطفة: "أهلاً بك ياسيدتي المحترمة. مرحباً بك ياسيدة أشمونيكال الموقرة".

فردت علي بصوت دافئ ومخلص ومفعم بالحب: "شكراً لك ياباتاسانا. كم من الجميل أن ألتقيك مرة أخرى بعد مرور كل تلك الأشهر".

رفعت رأسي بحركة عفوية، وفي تلك اللحظة لفتتني النار المتأججة في عينيها البنيتين. لم يعد لتلك الفتاة الخجولة التي قابلتها في المعبد أي وجود، بل حلت محلها امرأة عيناها ممتلئتان بمعان شتى. في تلك اللحظة، أدركت أنه لا فائدة من الإنكار. فأشمونيكال باتت قدري المحتوم، والهرب منها مستحيل. ومع ذلك، فقد تظاهرت بالمقاومة.

قلت لها وأنا أشير إلى الألواح التي كتبتها في اليوم الفائت: "لقد أعددت لك لائحة. عناوين كل الأساطير والملاحم والأغاني والقصائد في مكتبتنا مكتوبة هنا. يمكنك أن تختاري كما تشائين من هذه اللائحة".

اقتربت أشمونيكال مني وكأنها غافلة عن الكلام الذي تفوهت به لتوي، وسألتني قائلة: "لماذا تتصرف وكأنك لا تعرفني يا باتاسانا؟".

كانت الفتاة الواقفة بجانبي هي الفتاة نفسها التي أثارت جنوني عندما استيقظت ولم أجدها بجانبي، والحبيبة التي توسلت إلى كبير كهنة المعبد فالفازيتي كي يخبرني عن أصلها وعائلتها. ها قد أتت إلي بنفسها، وسعت لنيل فرصتها في التودد إلي من جديد لنكمل معاً المهمة التي لم نكملها في تلك الليلة قبل وقت طويل. لاحت ذكرى تلك الليلة أمام عيني بقوة، وتخيلت أشمونيكال بكامل فتنتها وجمالها كما رأيتها في ذلك الحين، ولكنني طردت تلك الصورة من ذهني على الفور.

أجبتها قائلاً: "إنني أعرفك. فأنت أشمونيكال الموقرة حبيبة ملكنا العظيم بيزيريس. أما أنا فخادمٌ واجبه إطاعة أوامرك وأوامر ملكنا".

قالت: "أنت لست خادماً لي، بل أنت أول رجل قابلته في حياتي قبل بيزيريس".

نظرت حولي بزاوية عيني لأتأكد من عدم وجود أحد قد يسمع محادثتنا، ثم همست لها قائلاً: "من فضلك، لا تتحدثي معي بهذه الطريقة، فسوف تستجلبين اللعنة علينا نحن الاثنين معاً".

"كلا، لقد ربط قدري بقدرك. بيزيريس هو من انتهك أوامر تيشوب وعائلته، ذلك هو الرجل الذي لا يشبع والذي يريد أن يصبح المالك الوحيد لكل شيء على وجه هذه الأرض، وبسبب هذا فهو الرجل الوحيد الذي سيُلعن".

حذرتها قائلاً: "ينبغي ألا تتحدثي عن ملكنا بهذه الطريقة. إنه يحبك".

قالت: "بل لا يحب سوى نفسه. إنه يحب عشر نساء غيري، وسرعان ما سيعثر على امرأة أصغر سناً وأكثر جمالاً مني ويضمها إلى حريمه، ويجعلها حبيبته. وبالإضافة لذلك، حتى لو كان يحبني فعلاً، فأنا لا أحبه.

إنه قوي ولكنه بشع، ونبيل ولكنه وقح. إنه لا ينظر إلي بعذوبة كما تفعل أنت، ولا يبتسم بجمال كما تبتسم أنت، وليس هناك لحن جميل في صوته كما في صوتك".

بينما أنا أصغي لكلمات أشمونيكال التي حولت وجهي إلى لون أحمر قان، لمحت لايماس يقترب من الباب، فغيرت الموضوع على الفور، وقلت بصوت مرتفع لكي يتمكن لايماس من سماع ما أقوله بوضوح.

"سيدتي الموقرة أشمونيكال، إن رغبت، فدعيني أعطيك هذا اللوح لتأخذيه معك لكي يتسنى لك أن تطلعي على اللائحة وتقومي باختياراتك كما تشائين".

لاحظت أشمونيكال بدورها وجود لايماس فقالت: "أريد الحصول على القصيدة التي كتبها الشاعر السومري لودينغيرا لأمه".

قلت وأنا أمد يدي نحو الرف الذي وضع عليه اللوح الذي كتبت عليه قصيدة ذلك الشاعر: "بالطبع". وخطرت فكرة ببالي لذا التفت إلى أشمونيكال، وقلت لها: "من فضلك، سامحيني على سؤالي، ولكن هذه القصيدة مكتوبة باللغة الأكادية. أتساءل إن كنت تتقنين اللغة الأكادية؟".

ظهر لمعان غريب في عينيها وتعبير مصطنع على وجهها، وقالت: "أعرفها نوعاً ما".

فقلت لها وأنا أحني رأسي احتراماً: "إذاً، لسوء الحظ لن تستطيعي قراءتها. يجب أن تتوفر لديك معرفة ممتازة باللغة الأكادية لتفهمي شعر هذا الشاعر".

في تلك اللحظة، تدخل لايماس الذي وصل لتوه إلينا الآن بكل احترام، وقال: "انظر إلى ما تفكر فيه ياباتاسانا. لم لا تترجم القصيدة وحسب للسيدة أشمونيكال الموقرة؟ أياً يكن الأمر، إنك تحفظ تلك القصيدة عن ظهر قلب، أليس كذلك؟".

فصحت عليه وأنا أرتد بعيداً وكأنني لمست ناراً بيدي المجردتين: "لا أستطيع ذلك. فلدي أعمال أخرى يجب علي القيام بها".

رمقتني أشمونيكال بعينيها الجميلتين المضيقتين وقالت لي: "إذاً، سوف أخبر ملكنا ليعثر على شخص آخر يترجم القصيدة لي".

وكان امتناعي عن ترجمة القصيدة يعني عصياني لأوامر الملك بيزيريس.

فقلت لها محاولاً أن أصلح الموقف: "كلا، كلا، لا حاجة إلى ذلك. سأترجمها في غضون الأيام القليلة القادمة".

قالت أشمونيكال الواثقة بنفسها وهي تنظر إلى عيني بشكل مباشر: "أود الجلوس معك أثناء ترجمتك لها. فهذه الطريقة ستساعدني على تحسين لغتي الأكادية".

فتدخل لايماس المتطفل مرة أخرى قائلاً: "يا له من شرف عظيم لنا يا سيدتي!".

التفتُّ إلى أشمونيكال وأنا ألعن الكاتب عديم الموهبة في سرّي، وقلت: "طالما أن ملكنا بيزيريس يسمح بذلك، فيشرفني كثيراً أن أقدم لك خدماتي".

فقالت أشمونيكال وأجمل ابتسامة في العالم تزين شفتيها: "لا تقلق أيها الكاتب باتاسانا. سأحصل على الإذن في الحال. كن مستعداً للترجمة غداً".

وعندئذ، غادرت المكتبة وأخذت بقية الألواح معها. وقف لايماس العجوز محدقاً إليها وهي تغادر.

وقال: "إنها فتاة لا مثيل لها في العالم، كأنها برعم عشب يخترق الصخور، والنيران التي تذيب الجليد، والرياح التي تحرك البحر. كم هذا رائع من أجل ملكنا! من ينظر إلى هذه الفتاة يرى حدائق أشد وفرة من نهر الفرات، ومن يسمع صوتها يعثر على السلام في داخله وكأنه يسمع صوت موسيقى، وبوجودها تتحول حتى أكثر الأوقات مللاً وتفاهة إلى أعذب اللحظات التي تمر بسرعة فائقة حتى تكاد لا تشعر بها".

بينما نظر لايماس برهبة نحو الباب الذي خرجت منه أشمونيكال لتوها، لم يسعني إلا أن أتساءل إن كان سيتكلم عنها بالطريقة نفسها إن عرف ما جرى بيننا.

á á á

الفصل الثامن عشر

قال ديفيد لإسراء: "لقد عرفت بكل ما جرى بعد مضي وقت طويل جداً". بعد أن غادرا الحديقة بسيارة الفولجزفاجن، توجها في طريقهما على طول الطريق الذي تحفه أشجار التوت من الجانبين، وقد خفّف ديفيد من سرعة السيارة بشكل ملحوظ. ولا بد أن كل من نظر إليهما من المارة، ظن أنهما خارجان في جولة جميلة للترويح عن النفس. ومع ذلك، فقد راح الطبيب يخبر ضيفته عن الحادثة المريرة التي وقعت قبل وقت طويل فتركت أباه ممتلئاً بهذا القدر من المرارة والحسرة.

إذ حالما غادرا الحديقة، سألت إسراء ديفيد عن سبب شعور نيكولاس بالانـزعاج.

فقال ديفيد: "إنها قصة حزينة". وبدا وجهه مثقلاً بالأسى كوجه أبيه. ثم قال: "يعتبر والدي هذا حدثاً مخزياً للعائلة بأكملها، ولهذا السبب فهو يخفي السر عن صاقب أمكا".

على الرغم من أن كلامه زاد من فضولها، إلا أن إسراء أدركت أن الموضوع دقيق لذا ظنت أنه ليس من الصواب بالنسبة لها أن تلح عليه. فقالت: "لننس أنني طرحت هذا السؤال عليك". فالتزم ديفيد الصمت بضع ثوان، ثم تابع كلامه.

وبدأ بسرد قصته بشكل عفوي: "في الليلة الماضية، ذكرت لك الفرق بين والدي وبين تيم. ورغم أنني لم أعبر عن الموضوع بكلمات كثيرة، إلا أن نموذج ماسيس هو ما يخطر ببالي على الدوام. فكما قال صاقب أمكا، فقد جمعت بين أولئك الثلاثة صداقة حميمة جداً قبل اندلاع الحرب. يقولون إن صاقب وماسيس لم يكونا يفارقان بيت جدي. ورغم أن كعكات جدتي الشهية لعبت دوراً في ذلك، فالمجلات الأمريكية وكل تلك المقتنيات القادمة من العالم الجديد شكلت جزءاً كبيراً من هذه الجاذبية التي تمتع بها بيت جدي. لم تعارض عائلتنا ماسيس وصاقب الصداقة بينهما وبين والدي بسبب علاقات حسن الجوار والمودة التي سادت بينهم في الحي وفي الأسواق. ولكن، بعد أن اندلعت الحرب العالمية الأولى، باتت الحياة اليومية مسممة وقاسية. فقرر حزب "الاتحاد والترقي" الذي عانى من هزائم متلاحقة في ذلك الوقت، أن يبعد الأرمن بالاستعانة بجماعات حزب "التاشناك" التي تعاونت مع الروس وأثارت الشغب خلف الجبهة وهاجمت المسلمين ونفذت العديد من المجازر، لذا فقد أُمِرَت تلك الجماعات بإزاحة الأرمن من

المناطق التي يعيشون فيها ونفيهم منها بشكل كامل. ووقعت مجازر وإعدامات جماعية أثناء تنفيذ تلك الأوامر، فلقي مئات الآلاف من الأرمن رجالاً ونساء وأطفالاً حتفهم، وفرقت هذه الجرائم الدموية بين أولئك الناس الذين عاشوا معاً بإخاء وسلام لأكثر من 600 سنة.

"تمكن ماسيس وعائلته من البقاء في المدينة في تلك الأيام بمساعدة محافظ حلب؛ لأن غازي عنتاب كانت تشكل جزءاً من حلب في ذلك الوقت من الماضي. ولكن عندما انتهت الحرب بهزيمة العثمانيين تم احتلال غازي عنتاب على يد الإنكليز ثم الفرنسيين، فعاد الأرمن الذين أجبروا على الهجرة إلى أجزاء متعددة من الإمبراطورية إلى مدينتهم. ومع ذلك، حالما عادوا، بدؤوا يتعاونون مع قوات الاحتلال ويعذبون السكان المحليين بهدف الانتقام منهم. وإن استطاع السكان تحمل وجود القوات الأجنبية على مضض، فهم لم يتقبلوا حقيقة انضمام الأرمن إلى قواتها، لذا حملوا السلاح وقرروا المقاومة ضدهم. وهكذا، استمرت المقاومة في غازي عنتاب طيلة أحد عشر شهراً لا أقل من ذلك. ولم تستسلم المدينة المحاصرة إلى أن بات سكانها على شفير الموت جوعاً. فأجبرت هذه المقاومة التي استمرت بدون أي مساعدة حقيقية من الخارج الفرنسيين على الحفاظ على قواتهم الهامة في المدينة، فشكل هذا الوضع راحة لجيش الاستقلال الوطني الذي حارب ضد الاحتلال. سقط الناس ضحايا؛ ليس أمام الجنود الفرنسيين ولكن أمام الجوع، وفي نهاية المطاف توجب عليهم هجر المدينة. فشكل هذا أسعد خبر بالنسبة للأرمن لأنهم ظنوا أنهم سيتمكنون من تأسيس دولتهم الخاصة كما وعدهم الروس والبريطانيون والفرنسيون، ولكن الأمور لم تنته على النحو الذي تمنوه وخططوا له. فبعد مرور أقل من عشرة أشهر على سقوط غازي عنتاب، توجب على الفرنسيين إنهاء الاحتلال بسبب انعقاد مؤتمر لندن، لذا سحبوا قواتهم. أما الأرمن الذين وضعوا كل ثقتهم بهم فقد شاهدوا أحلامهم تتبعثر، وتوجب عليهم الهرب من مدينتهم مرة أخرى مع أطفالهم؛ بالضبط كما فعلوا في عام 1915.

كما قال صاقب أمكا، إن ماسيس كان من أكثر المحاربين الأرمن شهرة خلال الحرب. فقد شكل فائدة عظيمة لهم خلال حصار المدينة، محتلاً مكانه في الخطوط الأمامية في المعارك الضارية التي وقعت حول مسجد شينارلي. ورغم أن الفرصة سنحت له في ما بعد للهرب، إلا أنه آثر البقاء وأصبح عضواً في اللجنة التي نظمت الهجرة. ولكن، عندما واجهت اللجنة تأجيلاً في تنفيذ خططها، تم قطع الطريق المؤدي إلى حلب، لذا توجب

على ماسيس وأصدقائه الاختباء في المدينة. وبعد ذلك، تم القبض على أصدقاء ماسيس واحداً تلو الآخر، إلى أن توجب على ماسيس بعد أن أصابه اليأس من العثور على مكان يذهب إليه اللجوءُ إلى بيت والدي ليخبئه لديه. فاستقبله والدي وخبأه في قبو كبير تحت البيت كانوا يستخدمونه كقبو، ثم أخبر جدي عن الوضع عندما عاد من المستشفى مساء ذلك اليوم. في البداية، غضب جدي لأن والدي استقبل صديقه في البيت، ولكن بعد أن فكر بالموضوع لبعض الوقت، قرر أن ينـزل إلى القبو ويتحدث إلى ماسيس. وبعد أن أمضى نصف ساعة في الأسفل، صعد جدي إلى الأعلى وهو في ثورة غضب شديد.

وقال: "يجب على هذا الرجل أن يغادر البيت في الحال".

وعندما سأله والدي عما جرى، قال له: "إن هذا الرجل ساذج وأحمق كبير. فقد طلبت منه أن يعتنق المذهب البروتستانتي لكي ننقذه، ولكنه قال لي إنه يفضل الموت على فعل أي شيء من هذا القبيل".

بدأ والدي يتوسل إلى جدي، وقال له إن ماسيس سيتمكن بمرور الوقت من العثور على الطريق الصحيح، وسيتحول إلى مذهب البروتستانت. وطلبت منه جدتي أيضاً السماح لماسيس بالبقاء، ولكن جدي لم يتزحزح عن موقفه. وبينما هم يتجادلون، سمعوا صوت دوي طلقة رصاص صادرة من القبو.

صاح والدي وجرى مسرعاً إلى القبو، وهناك عثر على جثة ماسيس ممددة على الأرض وغارقة في بركة من الدماء وهناك عيار ناري في جبهته وبجانبه مسدسه والدخان يتصاعد من فوهته. نـزل جدي الدرج راكضاً ليلحق بأبـي، ووجده واقفاً بجانب جثة ماسيس وهو في حالة فزع، فسدد لطمتين قويتين لوجهه.

وقال: "استجمع قوتك الآن. سنقع في مشكلة كبيرة إن عثر أحدهم على جثته هنا. هيا، دعنا ندفنه في مقبرتنا".

وعندما حان منتصف الليل، أخذا جثة ماسيس ودفناها في المقبرة الأمريكية. لم ينصب جدي شاهدة على القبر أو يضع شيئاً من هذا القبيل لكي لا تصبح واضحة. وبعد وفاة جدي بوقت طويل، وضع والدي شاهدة من الرخام على قبر ماسيس، ولكن بسبب الخزي الذي شعر به حيال تلك الحادثة المأساوية، لم يحفر اسم ماسيس على الشاهدة، وأخفى هذا السر لسنوات حتى عن أقرب الناس له. وذات يوم، سألته عن اسم الشخص المدفون في ذلك القبر، فقال لي: "إنه عمك". على حد علمي، لم يكن لي

أي أعمام. فذهبت إلى جدتي وذكرت لها ذلك القبر، فتمتمت ببعض الكلام غير المفهوم. وحالما كبرت وبدأت أستقل وأعتمد على نفسي في الحياة، سألت والدي عن القبر مرة أخرى. وعندئذ، جلس معي وقص علي القصة كلها. وهكذا، فقد أدركت أن ماسيس هو من يرقد في ذلك القبر عديم الاسم".

قالت إسراء: "يا لها من قصة حزينة! الآن، توضح لي السبب الذي جعل والدك ينـزعج فجأة إلى هذا الحد".

"إن أفعال جدي هي التي وجدتها مثيرة للفضول أكثر من كل شيء. فقد توفي وأنا في السابعة من عمري، وبلغ سن التقاعد وأنا لا أزال صبياً صغيراً. وأمضى معظم وقته وهو يلعب معي في الحديقة ليلاً ونهاراً وكأنه طفل صغير. كنا نلعب الغميضة، وننـزل إلى القبو حيث أطلق ماسيس على نفسه النار وانتحر ونختبئ هناك. اعتاد أن يصدر ضجة لكي أتمكن من العثور عليه، فكنت أنـزل إلى هناك وأقبض عليه. إنني أتذكر جدي كألطف رجل قابلته في حياتي. وأولئك الذين عرفوه في حياته، أحبوه كما أحببته أنا. وحتى اليوم، الجميع يمدحه ويتحدث عن مزاياه. ومع ذلك، فقد دفع شاباً في مثل سن ابنه إلى حافة الموت ببساطة لأنه لم يشاطره معتقداته نفسها".

أخذ ديفيد نفساً عميقاً، والتفت لينظر إلى ضيفته بعينيه الزرقاوين الفاتحتين، وسأل قائلاً: "كيف يمكن لشخص صالح مثله أن يرتكب عملاً شريراً كذلك العمل؟! إنني لا أفهم ذلك وحسب".

قالت إسراء بصوت عاطفي ولكنه واثق في الوقت نفسه: "إنه المعتقد، فهو أحياناً يعمي بصر الإنسان عن كل شيء آخر، ويمنعه من تحمل أي شخص آخر يخالفه الرأي، ويجعله يعتبر الموت وإبادة كل ما يختلف عنه تصرفاً طبيعياً أو حتى في الواقع ضرورياً".

هز ديفيد رأسه بعجز وركز انتباهه على الطريق الممتد أمامه.

ثم تابع كلامه قائلاً: "أظن أنك محقة في كلامك. مهما كلف الأمر، لا يبدو أنه من الممكن للبشرية أن تخلص نفسها من التعطش للقتل والتدمير والإبادة. لقد انتهى المطاف بعائلتنا وهي تدفع ثمناً باهظاً بسبب موت ماسيس. إذ اختفى بموته ذلك الجو المرح الذي لطالما ساد في بيتنا. وتفاقمت حدة التوتر بين جدي ووالدي، وكلاهما مدركان لسببه، ولكنهما لم يتحدثا عنه قط. أما جدتي، فقد ساءها ذلك الوضع أكثر منا جميعاً. إذ عاشت تلك المرأة المسكينة وهي عالقة بين زوجها وابنها. وحاولت مراراً أن

تساعد والدي على نسيان الماضي، ولكن كما رأيت بنفسك، لم يستطع والدي أن ينسى حكاية موت صديقه حتى الآن".

لاحظت إسراء ارتعاشاً في صوت ديفيد. وبدا لها أن الرجل الذي ظل يمزح ويمرح وهما ذاهبان إلى الحديقة ويبتسم لها بتغزل قد اختفى، وحل محله رجل أحزنته أحداث الماضي لأنه شعر أنه يتحمل جزءاً من المسؤولية عنها.

قالت إسراء: "إنني آسفة. لو عرفت أن هذا ما سيحدث، لما فتحت هذا الموضوع أو طرحت عليك ذلك السؤال".

فقال ديفيد: "لقد أخبرتك بالقصة لأنني شعرت أنني أريد ذلك". وظل نظره مركزاً على الطريق، بينما سبحت أفكاره في مكان آخر. ثم قال: "أنت أول شخص من خارج العائلة يعرف تفاصيل ما جرى. لا أعرف لم أخبرتك، ولكنني أظن أن هناك عبئاً ثقيلاً يشعر به المرء من جراء الاحتفاظ بسر دفين، ويمكنه أن يتحمل هذا العبء لوقت معين".

ثم التفت لينظر إلى ضيفته مرة أخرى، وقال: "ومع ذلك، فإنني أقدر صنيعك إن لم تخبري أحداً بالموضوع".

"لا تقلق. فلا أحد آخر سيعرف بالأمر".

تمتم ديفيد قائلاً: "شكراً لك".

التزم كلاهما الصمت. وراحت أفكار كثيرة تدور برأس إسراء، أبرزها وجه الشبه بين الجرائم التي ارتكبت قبل ثمانية وسبعين عاماً والطريقة التي قتل بها الحاج عبد الستار ورشيد آغا. ترى، هل الانفصاليون هم الذين يقفون وراء هذه الجرائم كما قال صاقب أمكا؟ إن ثبت أن ذلك صحيح - أي إن الانفصاليين هم المسؤولون فعلاً عن الجريمتين - فقد حلت المشكلة؛ لأنه وفقاً لكلام النقيب، فقد تم القبض على المجرمين جثثاً هامدة. ولكن، ماذا إن ثبت أن كلام صاقب خطأ، وأن الانفصاليين ليسوا القتلة بل هناك شخص آخر يسعى وراء الانتقام لما حدث قبل ثمانية وسبعين عاماً؟ ولكن، من قد يكون ذلك الشخص؟ لا بد أنه شخص من عائلة أولئك القتلى أو أحد المقربين منهم، أي شخص مثل بيرند... شعرت أنه لا ينبغي عليها التفكير بأفكار من ذلك النوع عن زميلها، ولكنها بدأت تشك بذلك الألماني حالما قال لها ديفيد إنه ناقش تلك الحوادث مع أبيه. ألم يتحدث نيكولاس عن الابن الأصغر للكاهن كريكور الذي ألقي به من برج الكنيسة وكيف أخذ أمه إلى بيروت لينقذها؟ ألم يهرب والد زوجة بيرند من تركيا إلى فرنسا؟ أيمكن أن تكون تلك مجرد مصادفة؟ بذلت إسراء ما بوسعها

لتكبح تلك الأفكار خشية من النتائج التي قد توصلها إليها. وحاولت أن تقنع نفسها أنه ليس من الممكن لبيرند أن يقتل أحداً، ولكنها عندما تذكرت مرة أخرى الحديث الذي دار بينهما في اليوم الفائت، لم تعد على يقين تام من تلك الفكرة. ألم يقل إنه مستعد لفعل أي شيء من أجل زوجته؛ حتى التخلي عن مهنته؟ ولكن التخلي عن مهنته شيء بسيط مقارنة بقتل رجلين بريئين... ألم يقل إنه خاطر بالتشاجر مع الشرطة من أجل فارتوهي رغم عدم وجود أي علاقة بينه وبين القضية المطروحة في الاحتجاجات؟ تذكرت عيني الرجل الألماني وتلك البرودة الحديدية التي تخترق من ينظر إليهما حتى الصميم. فكرت في سرّها قائلة: "كلا، لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً". محاولة أن تبعد نفسها عن تلك الفكرة مرة أخرى. وبالإضافة لذلك، فحتى لو وصل غرام بيرند بزوجته لحد يدفعه لارتكاب فعلة شنيعة من هذا النوع، فهل ستوافق زوجته فارتوهي على ارتكابه لها؟ هل تحب أن يكون زوجها قاتلاً؟ من المؤكد أنها لا تريد ذلك. ولكن، ماذا إن ارتكب بيرند جرائمه من دون أن تعرف زوجته بذلك لكي يثبت قوة حبه لها؟ لا بد أنه قرر أن يقول لها لدى عودته إلى ألمانيا، "لقد انتقمت لجدك كريكور". ولكن، هل يعقل أن يفعل شيئاً من هذا القبيل؟! لم لا يعقل ذلك؟ ألم تر بنفسها ما فعله الحب بكمال؟ لم لا يعقل لشخص مثل بيرند، وهو شخص غريب الأطوار بما فيه الكفاية، أن يرتكب أعمالاً جنونية من هذا النوع؟ ترى، ما الذي فعله ذلك الرجل في وقت ارتكاب الجريمتين؟ ماذا يمكن أن يفعل سوى النوم في سريره كبقية أفراد فريق التنقيب عن الآثار. أم إنه لم يخلد للنوم حقيقة؟ حاولت أن تتذكر ما حدث في ليلتي وقوع الجريمتين. لم يجد أحد بيرند في غرفته في الليلة التي قتل فيها الحاج عبد الستار. في الواقع، توجب عليهم التأخر في بداية الاجتماع بسبب انتظارهم له، ممّا أدى إلى نشوب جدال بينه وبين تيموثي. تذكرت أنه قال إنه ذهب ليتمشى على طول نهر الفرات. وماذا عن الليلة التي قتل فيها حارس القرية رشيد آغا؟ أجهدت نفسها لتتذكر شيئاً ما، وفجأة تذكرت المناقشة القصيرة التي جرت بينها وبين تيومان صباح ذلك اليوم. فقد قال تيومان إنه وجد عجلة دراجة بيرند مثقوبة، بينما ظهر تعبير غريب على وجه بيرند عندما هب ليدافع عن نفسه قائلاً: "ولكنني لم أركب دراجتي ليلة أمس". ما الذي جعله ينـزعج إلى ذلك الحد؟ هل يعقل أنه ركب دراجته تلك الليلة ليذهب إلى قرية غوفن ويقتل حارس القرية "رشيد"؟ تملكتها قشعريرة وهي تتذكر كيف وصف الراعي الذي

اكتشف الجثة مسرح الجريمة. ألم يقل الراعي إنه شاهد رجلاً يطير في السماء؟ ربما شاهد الراعي خيال جسد الرجل بينما ظلت الدراجة بحد ذاتها غير مرئية في ضوء القمر فظن أنه يطير في السماء...

فكرت في سرّها: "يا لها من كومة من الترهات!". وحاولت أن تستعيد اتزانها من جديد. فها هي الآن تتهم زميلها بتلك التهمة من دون أي دليل ملموس على الإطلاق، والأهم من ذلك أنه تم القبض على القتلة. لا بد أنها فعلت ذلك بسبب كراهية لا شعورية تكنها لذلك الرجل. فقد جعلها بيرند تعاني الكثير لأنه لم يتم تعيينه رئيساً لحملة التنقيب عن الآثار. كلا، كلا، ليست لأفكارها أية علاقة بالوضع؛ إذ لطالما تولد لديها ميل للشك بكل شيء تقريباً لدرجة جنون الارتياب. ألم تتهم زوجها السابق أورهان مرة بإقامة علاقة مع صديقتها المقربة سيفيم عندما حضرا معاً ندوة في برلين؟ ومع ذلك، لم تكن سيفيم تشعر بأي اهتمام تجاه أورهان، ولكن إسراء أدركت أيضاً أن الكراهية قد تشكل أحياناً مصدراً للانجذاب بين الناس. وبالإضافة لذلك، فقد مكثا معاً لأسبوع كامل في الفندق نفسه في بلد أجنبـي. إذاً، هل يبدو من المستحيل بمساعدة بعض الشراب والموسيقى أن ينتهي المطاف بهما وهما يمضيان الليلة معاً في الغرفة نفسها؟ بدأت تلك الفكرة معها كدعابة صغيرة تضحك بها على نفسها، ولكنها سرعان ما بدأت تصدقها إلى أن أصبحت في نهاية المطاف تؤلف سيناريوهات متنوعة في ذهنها. وفي نهاية اليوم السابع، باتت واثقة بشكل قطعي من أن زوجها أقام علاقة مع سيفيم. فاستجوبت أورهان حالما عادا إلى الديار، ثم بدأ الموضوع يخرج عن السيطرة، فسمعت سيفيم بما جرى، وحضرت لتوبخ إسراء وتعبر لها عن غضبها من موقفها. ولم يحدث إلا بعد أن فطرت قلبَيْ شخصين تحبهما كل الحب أن أدركت إسراء في نهاية المطاف أنها أساءت الظن منذ البداية، لذا بذلت كل ما بوسعها لتكسب صفحهما وغفرانهما. والآن، ماذا إن أساءت الظن في شكها ببيرند على حد سواء؟

تمتمت لنفسها قائلة: "كلا، كلا".

سمعها ديفيد تقول هذا، وقال: "أرجو المعذرة، هل قلت شيئاً؟".

"آسفة، أظن أنني كنت أتحدث إلى نفسي بصوت مرتفع".

لم يتفوها بكلمة واحدة طوال الطريق إلى المستشفى. وحالما دخلا إلى المبنى، دعا ديفيد إسراء إلى مكتبه لتناول فنجان من الشاي، ولكنها رفضت بأدب متذرّعة بأن الوقت قد حان لكي تعود إلى موقع التنقيب عن الآثار.

وقالت إنها تريد أن تصطحب إيلاف معها على حد سواء إن تحسنت صحتها، فقال الطبيب إنه ينصحها بالبقاء في المستشفى لليلة أخرى. فلم تلح إسراء كثيراً، بل صافحت ديفيد بأدب قبل أن تغادر المستشفى.

وقالت له: "شكراً لك على كل شيء. أتمنى أن تمر علينا في الموقع في وقت ما. وسوف نتبادل حديثاً طويلاً وممتعاً عندما تأتي".

بذل الطبيب ما بوسعه ليرسم تعبيراً مرحاً على وجهه، رغم أنه بدا من الواضح أنه أجبر نفسه على ذلك.

وقال: "شكراً لك. لن أهمل هذه الدعوة اللطيفة".

عندما تركت إسراء الطبيب لتدخل إلى الغرفة التي يقيم فيها صديقاها، وجدت "كمال" ومدير متحف غازي عنتاب للآثار "رستم" يتهامسان في ما بينهما بينما غطت إيلاف في نوم عميق على سريرها. نهضا حالما شاهدا إسراء تدخل إلى الغرفة، وصافح رستم إسراء. في الواقع، لم تكن معجبة به، وكان رستم يدرك ذلك، ولهذا السبب لم يعمد إلى إطالة الحديث بينه وبينها بشكل لا داعي له. فبعد أن تبادلا بضع مجاملات قصيرة، طلب الإذن بالانصراف وغادر، ولكنه كان صديقاً مقرباً من كمال. فقد عملا معاً في مشروع متحف الهواء الطلق في يسيميك. بعد أن غادر رستم، عاود كمال الجلوس إلى جوار إيلاف، وبدأ يراقب تنفس الفتاة بقلق وكأن صدرها سيتوقف عن الصعود والهبوط إن أشاح بوجهه عنها ولو للحظة واحدة.

وقال: "لا تبدو إيلاف على خير ما يرام. إنني قلق جداً عليها".

ألقت إسراء نظرة عن كثب إلى الفتاة، ووجدت أنها لم تعد تبدو شاحبة كالسابق، فقالت: "إنها بخير. أظن أنك أنت من يحتاج إلى العناية. فوجهك أشد شحوباً من وجهها".

"إنني على ما يرام. فالشيء الوحيد الذي يهمني هو أن تتحسن صحتها".

"يقول الطبيب إن إيلاف لا تزال بحاجة لبعض الراحة ويريد أن يبقيها في المستشفى لليلة أخرى، رغم أنني كنت أريد أن أعيدها إلى الموقع. ما الذي ستفعله أنت؟".

طأطأ كمال رأسه وكأنه حزين للورطة التي هو فيها، وتمتم بمرارة قائلاً: "هذا هو الجزء الأكثر إثارة للاهتمام في موسم التنقيب عن الآثار... كم مرة في حياة خبير الآثار يصادف مكتشفاً أثرياً بمثل أهمية ألواح باتاسانا؟ ربما يحدث هذا مرة واحدة فقط، وربما لا يحدث أبداً، ولكنني

لا أستطيع أن أترك إيلاف وحدها. فوجودي معها يسعدني؛ حتى لو لم ترغب هي بوجودي إلى جانبها".

á á á

اللوح الثامن عشر

لقد أسعدتني أشمونيكال. فقد أدخلت إلى قلبي مشاعر لا يقوى أحد آخر على أن يشعرني بها، وتلك هي الحقيقة الوحيدة التي لا يمكن أن تتغير في حياتي؛ بالرغم من كل مخاوفي وقلقي وتحفظاتي. ملأت أشمونيكال قلبي بنعمة لا يسع لساني وصفها، فأدركت هذه الحقيقة التي لا يمكن إنكارها عندما صادفنا بعضنا بعضاً مرة أخرى، وعندما عاودت أشمونيكال الدخول في حياتي كنار متأججة أو عاصفة هوجاء تكتسح كل ما يقف في طريقها. كابدت العذاب لأبقى بعيداً عنها، فاخترعت طرقاً لتمضي الوقت معي، وأوجدت وسائل لتحقق خططها، وفي نهاية المطاف نالت مرادها. فأثبتت لي مرة أخرى أنها لا تتمتع بجمال خارق يليق بابنة تيشوب، بل بذكائها وشجاعتها على حد سواء. لو أن جدي ميتانوا كان على قيد الحياة لهنأني على وقوعي في حب فتاة مثلها، وتمنى لي أن أعيش هذا الحب وأستمتع به رغم أنف الملك. ومع ذلك، فلو عرف والدي آراراس بالأمر، لوبخني أشد توبيخ لاشتهائي إحدى نساء الملك، وحذرني من التورط في عمل متهور من هذا النوع، ولما تورع عن إمطار اللعنات عليّ إن أصررت على الاستمرار في حب أشمونيكال، وربما يسلّمني للملك بيزيريس بيديه.

أما بالنسبة إليّ، فلم أعد أعرف ماذا أفعل. فقد سقطت بين يدي أشمونيكال كعصفور مكسور الجناحين. لم تعد هناك فائدة من منع نفسي، فقد استولت عليّ قبل وقت طويل، وأصبحت جزءاً لا يتجزأ من نفسي؛ كالدماء التي تجري في عروقي. ومهما أجبرتني خشيتي من غضب بيزيريس والتدريب الذي تلقيته على التصرف بشكل مسؤول، فقد أدركت أنني عاجز عن مقاومتها، وأصبحت أفكر فيها. فقد سكنت عقلي، ولم تعد تبارحه حتى عندما آكل، وأمشي، وأشاهد نهر الفرات، وأتحدث إلى أمي، وأغني، وأقرأ الألواح، وأكتبها، وأنام، وأحلم في يقظتي وفي نومي.

نفذت أشمونيكال وعدها، وأتت إلى المكتبة في صباح اليوم التالي. فلم أعد أنكمش من النظر إليها، وإن توخيت الصراحة أكثر، لم أستطع أن أبعد نظري عنها. فلاحظت هي هذا على الفور. وعندما فعلت ذلك، تملكني الخوف من جديد وأشحت بوجهي عنها.

قالت وهي تقترب مني وهناك ابتسامة ثقة على وجهها: "صباح الخير أيها الكاتب باتاسانا".

وبينما هي تقترب مني، تنشقت عبير الزهور البرية التي تتفتح على

ضفتي الفرات في فصل الربيع. فأجبتها وأنا أملأ رئتي بهذا العبير الجميل: "صباح الخير ياأشمونيكال الموقرة".

"لقد تحدثت إلى الملك، وقال لي إنه بوسعنا أن نقوم معاً بترجمة القصيدة التي ألفها الشاعر لودينغيرا لأمه".

عندما لاحظت ترددي، تابعت بلهجة ساخرة قائلة: "هل ينبغي عليّ أن أحضر لك لوحاً عليه ختم الملك لأثبت لك أنني حصلت على الإذن؟".

أجبتها قائلاً: "لا تقولي هذا. إنني أثق ثقة كاملة بكلامك".

غيرت أشمونيكال الموضوع وهي تتفحص المكتبة بعينيها الجميلتين، ثم قالت: "هل نبدأ العمل؟".

فاستجمعت شتات أفكاري في الحال، وقلت وأنا أريها اللوح الذي كتبت عليه قصيدة لودينغيرا: "تفضلي ياأشمونيكال الموقرة. لنجلس هنا".

توجهنا إلى الطاولة معاً، فسبقتني ببضع خطوات. وهكذا، تأملتها ببصري من دون خوف أو تحفظ. وحالما جلسنا مقابل بعضنا بعضاً عند الطاولة، نظرت أشمونيكال إلى اللوح، وقالت: "لقد قال لايماس إنك تحفظ القصيدة عن ظهر قلب. قبل أن نبدأ بالترجمة، هلاّ تتلو القصيدة على مسمعي؟".

كانت هذه هي المرة الأولى التي نجلس فيها قريبين من بعضنا بعضاً إلى هذا الحد منذ الليلة التي اجتمعنا فيها في غرفة المعبد.

"كما تشائين أيتها الموقرة أشمونيكال".

فقالت: "إذاً، إنني أصغي ياباتاسانا الموقر". وشددت بسخرية على كلمة موقر، فتظاهرت بأنني غافل عن تهكمها، وبدأت أتلو القصيدة التي ألفها الشاعر السومري، وهي قصيدة لطالما كنت مولعاً بها.

"إلى أمي العزيزة،
يا مبعوث الملك،
إنني أرسلك إلى نيبور، فانقل معك رسالتي هذه.
لقد قطعت رحلة طويلة،
وأمي الآن غارقة في الحزن، فلا تستطيع النوم،
تلك التي من مسكنها طردت كل كلمات الحزن،
تسأل كل المسافرين عني.
أوصل لها تحياتي، وضع رسالتي في يدها!
إن لم تكن تعرف أمي، فدعني أحدثك عنها.

اسمها شاتيشتار.
وجهها متألق وكأنها عروس حلوة.
مبجلة هي منذ شبابها.
تلك من تدير بكل حماسة عظيمة بيت حميها،
من تخدم زوجها،
من تعرف كيف تعتني بإينانا،
من تحرص للانصياع لكلام الملك،
وهي محبوبة وتعيش بالحب،
إنها حمل وديع وقشدة طازجة وعسل حلو،
إنها الزبدة التي تتدفق من القلب.

دعني أصف لك أمي وصفاً ثانياً.
أمي ضوء ساطع في الأفق وحيوي في الجبال،
هي نجمة الصباح،
هي حجر عقيق ثمين وحجر كريم من مارهاسي،
وجوهرة مدهشة للأمير،
وحجر عقيق يولد الفرح،
وخاتم مطعم بالقصدير وسوار من حديد،
وتمثال عاج مبهر،
إنها طيف من مرمر،
يرتقي على أساس من الحجر الأزرق.

دعني أصف لك أمي وصفاً ثالثاً.
أمي هي المطر في موسمه،
هي الماء الذي نحتاج إليه للبذرة الأولى،
وحديقة مزدهرة مليئة بأشهى الفاكهة،
وشجرة صنوبر مزخرفة بالكيزان،
وحصاد الشهر الأول من السنة الجديدة،
وجدول ماء يروي الحقول،
إنها الأحلى والأشهى من كل تمر نخيل ديلمام.

دعني أصف لك أمي وصفاً رابعاً.

أمي احتفال وتضحية مبهجة،
وأميرة الأميرات وأغنية الخصب والوفرة،
وقلب محب ومحبوب ومليء بفرحة لا تنتهي.
إنها الخبر الجميل عن سجين يعود إلى أمه.

دعني أصف لك أمي وصفاً خامساً.
أمي مَرْكبة من خشب الصنوبر،
ومِحفَّة من خشب البقس،
وثوب معطر جميل،
إنها إكليل من الزهور.

سوف تميز أمي
حسب الوصف الذي وصفته لك،
... فتلك المرأة العظيمة التي ستراها هي أمي.
بلِّغها ببهجة هذا الخبر،
فهي تنتظر بلهفة خبراً مني،
وقل لها: "إن ابنك الحبيب لودينغيرا يبلغك تحياته!" .

عندما انتهت القصيدة، نظرت إلى أشمونيكال فوجدتها تبكي. لم أرها تبكي من قبل، فملأت رؤية دموعها قلبـي ألماً وحزناً.

سألتها: "ما الذي حدث؟ لماذا تبكين؟".

واصلت النحيب ولم تجب عن سؤالي. فنسيت كل ما يتعلق بالملك بيزيريس، ونسيت من نحن وما يمكن أن يحدث لنا إن أمسك بنا أحد، وحاولت أن ألمس يدها، ولكنها أبعدتها عني. لم أتوقع هذا منها، لذا وقفت هناك عاجزاً أمامها. ظلت أشمونيكال تذرف الدموع لبعض الوقت، ثم هدأت قليلاً، والتفتت نحوي بعينيها الكحيلتين اللتين فشلت حتى دموعها في تشويه جمالهما ونظرت إلى وجهي.

وقالت: "سامحني. فقد تذكرت أمي".

فسألتها قائلاً: "أين أمك؟".

"إنها بعيدة جداً جداً. إنها تعيش مع والدي الذي لم يتردد في بيعي لبيزيريس مقابل حقل وفير على نهر الفرات وثلاثة عبيد".

سألتها وأنا مصعوق: "أحقاً باعك والدك لبيزيريس؟".

قالت أشمونيكال: "لست أدينه لعمله هذا. فقد أصبح كبيراً في السن، ولم يعد يستطيع العمل بالتدريس، وأراد أن يمضي آخر أيام حياته براحة وطمأنينة. وظنّ أنني سأعيش حياة وفرة ورخاء في قصر الملك. ولكن، كم أشتاق لأمي".

مدت يدها لتمسك بيدي، وتابعت كلامها قائلة: "وأنت ألقيت القصيدة بأسلوب غاية في الجمال، فتأثرت لسماع إلقائك؛ وإلا، فمن النادر لي أن أبكي".

تحرك شعور غريب في داخلي عندما لمست يدي.

فقلت: "أعرف ذلك. فأنت لست ممن يستسلمون للدموع لأنك فتاة شجاعة جداً".

تأملت أشمونيكال وجهي بعمق وقالت: "أنت مغرم بي ياباتاسانا، أليس كذلك؟".

سحبت يدي من يدها بخوف.

فسألتني قائلة: "هل أنت خائف من الملك؟".

أجبتها قائلاً: "إنني أخشاه وأوقره في الوقت نفسه".

مدت أشمونيكال يدها لتمسك بيدي مرة أخرى، ولكنني هذه المرة لم أسحب يدي. نظرت مباشرة إلى عيني، وسألتني: "هل الاحترام الذي تكنه للملك أعظم من الحب الذي تشعر به نحوي؟".

حاولت أن أسحب يدي مرة أخرى، ولكنها لم تسمح لي بذلك.

وقالت: "أخبرني ياباتاسانا، وإن قلت لي إن هذا صحيح، فسوف أفلت يدك وأغادر هذا المكان بلا رجعة".

لم أستطع أن أقول شيئاً، ولكنها بحلول هذا الوقت أدركت أنني لست قادراً على الإجابة. فوقفت، ومشت نحوي، وجلست بجانبي، ولمست شعري بلطف كما فعلت ونحن في المعبد. نظرتُ إلى باب المكتبة وتمتمت بقلق: "قد يرانا أحد...".

فقالت: "لنذهب إلى مكتب والدك".

اكتشفت أنها تعرف كل شيء. إذ بالفعل كانت هناك غرفة صغيرة خلف المكتبة يستخدمها والدي كمكتب له. فإن ذهبنا إلى هناك وأقفلنا الباب خلفنا، فلن يتمكن أحد من الدخول.

"ولكن، ماذا عن بيزيريس...".

قالت: "إنه ليس جديراً بالاحترام، فهو ليس رجلاً حقيقياً ولا ملكاً صالحاً".

فقلت بقلق: "ماذا إن حضر إلى المكتبة؟".

قالت: "لن يحضر لأنه خرج لصيد الغزلان صباح اليوم".

لم أعد أستطيع أن أقاوم الإغراء في كلمات أشمونيكال ومظهرها الساحر الذي أبهرني كثيراً، فمشينا إلى الغرفة الصغيرة التي يكتب والدي فيها ألواحه السرية، وجلسنا جنباً إلى جنب في الغرفة. وبسبب التجربة الفاشلة التي مررنا بها في المعبد، فقد خشيت أن ألمسها، لذا حاولت أن أحافظ على مسافة بيني وبينها، فبدت مدركة للتوتر الذي سيطر عليّ.

قالت وهي تنظر إلي بعينيها الكبيرتين الكحيلتين: "سوف نتبادل الحديث لا غير. سنظل نتحدث بلا كلل أو ملل إلى أن نتعلم ألا نخاف من بعضنا بعضاً. سأقرأ لك القصائد وأروي لك قصصاً من الألواح إلى أن تتعلم ألا تخشاني. سأحدثك بلا توقف، إلى أن تدرك أن التحدث بحدّ ذاته نوع من الغزل، وإلى أن يصحو في أعماقك ذلك التوق الذي سيثبت لك أن الحديث لم يعد كافياً بعد الآن".

á á á

الفصل التاسع عشر

لم يفعل ما أخبره نيكولاس لإسراء شيئاً سوى زيادة حيرة عقلها المشوش أصلاً، محولاً كل أحداث اليومين الماضيين إلى لغز محير حقيقي. وبينما هي تمضي في طريقها على طول الشارع الأسفلتي الذي تحيط به حدائق أشجار الفستق، شعرت أنها لا تزال غير واثقة مما تريد أن تفعله. ورغم أن الشك قد خامرها حول بيرند، إلا أنها شعرت بالخزي من شكوكها لأنها لا تملك أي دليل ملموس واحد يمكنها أن تتهمه به، ومع ذلك فقد وجدت أن هناك أشياء كثيرة تشير إلى أنه المشتبه به. ترى، هل وقوع الجريمتين في ليلتين متتاليتين صدفة بحتة؟ أم إن طبيعة الجريمتين وترتيبهما بالتحديد هو ما يشكل القطع الأساسية في اللغز الذي سيكشف عن الهوية الحقيقية للقاتل؟ لم تستطع أن تكون واثقة من ذلك، وهكذا فقد ظلت أفكارها تدور في حلقة مفرغة لا تنتهي إلا حيث تبدأ من جديد.

ماذا إن أطلعت النقيب على شكوكها؟ أدركت أنه لن يصدقها. وبالإضافة لذلك، فعلى حد علمه، فقد تم القبض على القتلة وهذا يحل القضية. ولكن إسراء رغم كل شيء لم تقتنع بأن الانفصاليين هم الذين يقفون وراء الجرائم. ربما أخطأت الظن، وربما قامت بمجرد تضييع وقتها من خلال شكها بزميلها الألماني، وربما تمكن النقيب من الحصول على وثائق تثبت وقوف الانفصاليين وراء الجريمتين. تمتمت لنفسها من دون قناعة: "لو أن... ومع ذلك، من الأفضل أن أتريث إلى أن أكتشف كل التفاصيل لما حدث". فعلى أية حال، من المؤكد أن النقيب أشد خبرة منها عندما يتعلق الأمر بمواضيع من هذا النوع؛ لأنه أمضى سنوات وهو يحارب في الجبال، ويعرف الانفصاليين أكثر مما تعرفهم. وفي الوقت نفسه، هذا لم يمنع من تحيزه ضدهم لأنه اعتاد أن يشك بهم في كل حادثة تقع في تلك الأنحاء. وكأنها هي نفسها ليست متحيزة! ألم يخامرها على الفور شك حول ابن أخ الحاج عبد الستار فياض مما دفعها للادعاء أن المتطرفين الدينيين هم الذين يقفون وراء الجرائم قبل وقت طويل على معرفتها لحقيقة ما جرى؟

راحت كل تلك الأفكار تدور برأسها وهي تترجل من سيارة الجيب وتمشي نحو مخفر الشرطة. من بين الجنديين الواقفين أمام الباب، حياها ذلك الجندي القادم من أنقرة بتعبير خجول على وجهه، وقال قبل أن تتسنى لها حتى الفرصة للتكلم: "إن النقيب ينتظر حضورك". وأشار إلى المبنى الداخلي المبني على سفح تلة بين مخفر الشرطة والنهر.

"هل هو نائم أو ما شابه؟ لا أريد أن أزعجه؟".

"كلا، إن النقيب ليس نائماً. فقد أمرنا أن ندعوك إلى المقر الداخلي عندما تصلين لأن الجو في حديقته أكثر برودة".

شكلت كلمة "برودة" وحدها أكثر من سبب كافٍ لرسم ابتسامة سعادة على وجه إسراء. فالعثور على ركن بارد في تلك الحرارة الجهنمية بدا بالنسبة لها امتيازاً حقيقياً. أرشدها الجندي القادم من أنقرة إلى الطريق متوجهاً نحو الدرج الأنيق المبني من حجارة كبيرة يدوية الصنع تم جمعها من ضفتي نهر الفرات.

وجدت حديقة المقر الداخلي أنيقة ومشذبة بعناية كحديقة مخفر الشرطة. وعلى شاكلة مخفر الشرطة، شاهدت جنديين واقفين للحراسة عند الباب الحديدي الذي يدل على المدخل. خلف حجرة الحارس إلى اليسار، نمت شجرة زيزفون ضخمة ابتلعت مساحة الحديقة كاملة بظلها، مخيمة على كل الأشجار الأخرى في الوسط؛ على شجرة الرمان والتوت والأكاسيا وعشرات أشجار الحور. ومع ذلك، لم تكن ظلال الأشجار وحدها ما منح الحديقة جوها الجذاب في هذه الحرارة. فالرطوبة القادمة من نهر الفرات الذي يتدفق على بعد عشرين متراً في الأسفل كسرت الحرارة، محولة المكان إلى واحة حقيقية وسط الصحراء.

وجدت النقيب جالساً خلف طاولة تحت شجرة الخوخ وهو يتأمل بصمت مياه الفرات الخضراء. ففكرت إسراء في سرّها: "إنه ينتظرني". وجعلت هذه الفكرة بحد ذاتها رعشة من الانفعال تسري في جسدها. تعرف الحارس المناوب على إسراء، وحياها تحية الصباح وهي تدخل عبر الباب الحديدي. وعندئذ، التفت النقيب لينظر إليهما.

ألقى عليها التحية وهناك ابتسامة واهنة مرسومة على شفتيه: "مرحباً".

ردت إسراء بأدب على تحية النقيب، ثم صافحته عندما مد يده.

قال أشرف: "تعالي واجلسي هنا".

جلست إسراء على الكرسي مقابل النقيب وهي تتأمل ببصرها المبنى الداخلي خلف الأشجار، وقالت: "إنه ليس كبيراً كثيراً. كم عائلة تعيش هنا؟".

ألقى أشرف نظرة نحو المبنى، وقال: "كانت عائلتي ستعيش فيه لو أنها أتت إلى هنا". سمح لهذه الجملة أن تهرب من بين شفتيه، ولكنه لم يجد نفسه في مزاج يسمح له بمواصلة الحديث عن ذلك أكثر، فقال: "أما الآن، فأنا أعيش فيه وحدي".

ولكن إسراء لم تتركه يفلت من المصيدة بهذه السهولة.

فسألته قائلة: "إذاً، هل رفضت زوجتك الحضور إلى هنا؟".

بدا التوتر على النقيب، وبدلاً من أن يجيب عن السؤال، التفت إلى الجندي الواقف بجانب الطاولة وأذن له بالانصراف.

قدم الجندي تحية سريعة وتوجه إلى الباب.

قال أشرف وهو يستدير ليواجه إسراء مرة أخرى: "ماذا تودين أن تشربـي؟".

فقالت إسراء: "هل يصعب عليك إلى هذا الحد التحدث عن نفسك؟ كلما بدأنا بالتحدث عنك، غيرت الموضوع على الفور".

فاجأ سؤالها النقيب وهو على غير استعداد، فهو لم يتوقع أن ترد عليه إسراء بهذه الطريقة. ولهذا، بذل جهداً للعثور على الإجابة الصحيحة، ولكن المطاف انتهى به وهو يرد عليها قائلاً: "وكأنك تتحدثين عن نفسك أكثر مني!". محاولاً أن يتهرب من الرد بشكل مباشر، ولكن إسراء ظلت مصممة.

"أي سؤال طرحته علي تركته دونما إجابة؟".

نظر أشرف إلى عيني إسراء الجريئتين، وقال: "أنت محقة. فأنا ربما لم أسألك لأنني لا أهتم كثيراً بالتدخل بحياة الناس الخاصة".

قالت إسراء: "الناس!؟". ووجهت إلى الرجل نظرة توبيخ بعينيها العسليتين، ثم قالت: "لطالما اعتبرت أننا صديقان".

هز النقيب رأسه بكآبة وقال: "أرجو المعذرة. إنني أتفوه بالترهات. فقد أمضيت ليلة عصيبة".

قالت إسراء: "أعرف أنك مررت بليلة عصيبة، ولكنك كنت هكذا قبل تلك الليلة أيضاً".

تنهد النقيب ونكس رأسه. وعندما بدأت إسراء تتساءل إن كانت قد بدأت تتجاوز حدودها معه، رفع النقيب رأسه أخيراً، وقال: "نعم، لدي ابنة اسمها غولين. إنها في المدرسة الابتدائية، وتعيش مع أمها في إسطنبول".

"ألا تذهب أبداً لرؤيتها؟".

"لا يمكنني الذهاب في أغلب الأحيان. فأنا منفصل إلى حد ما عن زوجتي. لم نصبح مطلقين بشكل رسمي بعد، ولكن، كما تعلمين... نحن... كيف يمكنني قول ذلك... نحن بعيدان عن بعضنا إلى حد ما، فأصبح من الصعب علي الآن أن أذهب إلى إسطنبول وأدخل إلى ذلك المنـزل مرة أخرى".

قالت إسراء: "ولكن، لا ينبغي عليك أن تهمل ابنتك". ولكنها ندمت على الفور لتفوهها بشيء عديم المعنى بهذا الشكل، فقد أجبرت أشرف على الكلام، وعلمت منه أنه ليس على علاقة طيبة بزوجته. إذاً، ما الذي سيحدث الآن؟ هل توجب عليها أن تذكره بأنها أيضاً مطلقة من زوجها؟ ولكن، إن فعلت ذلك، فهل سيدل مضمون كلامها على أنهما كرجل وامرأة ناضجين قد يكون من الممكن لهما أن يدخلا في علاقة مع بعضهما بعضاً؟ كيف يمكنها أن تتفق مع شخص لا تعرفه حق المعرفة مثل النقيب أشرف في حين أنها فشلت في التوافق مع شخص مثل أورهان؛ وهو رجل معتدل الطباع وينتمي للخلفية المهنية نفسها التي تنتمي لها؟ فعلى أية حال، كلما تعرفت على النقيب أكثر، باتت تدرك أنهما بالتأكيد ليسا مخلوقين لبعضهما.

تابع أشرف قائلاً: "إنني أتحدث إليها عبر الهاتف، وهي ترسل لي البطاقات البريدية في الأعياد، وبعض الرسومات التي رسمتها بنفسها عن البوسفور وبرج العذراء وجسر غالاتا وقصر سارايبورنو والأكاديمية العسكرية في كولاي... هناك جزء مختلف من إسطنبول في كل بطاقة بريدية".

نظرت إسراء بفضول إلى العينين الداكنتين بجفونهما المثقلة بالتعب للرجل الجالس أمامها، وعلقت قائلة: "إذاً، هي موهوبة".

قال: "نعم، هذا صحيح". ثم أضاف بخجل قائلاً: "أنا أيضاً لم أكن سيئاً في الرسم".

"ربما كنت ستصبح فناناً مهماً لو لم تصبح جندياً".

"ربما، ولكنني مسرور لكوني جندياً".

فتحت إسراء عينيها بدهشة، وقالت: "حقاً!؟".

"نعم، حقاً. لماذا أنت مندهشة؟".

قالت إسراء: "ليس هناك سبب". ثم فكرت أنه من الأفضل لو تغير الموضوع.

فسألته قائلة: "إذاً، ما هي المرطبات التي لديك لتقدمها لي؟".

"كولا وصودا وشاي وصعتر...".

"صعتر! ما هو هذا المشروب؟".

"أتعنين أنك لم تسمعي بالصعتر من قبل؟ الجميع في الأنحاء يعرفون الصعتر. إنه نوع من الأعشاب العطرية".

"هذا مثير للاهتمام. حسناً، إن كنت تنصحني به، فسأجرّبه".

استدعى النقيب أحد الجنديين الواقفين للحراسة عند الباب وأعطاه طلبهما. وحالما انصرف الجندي، سألت إسراء قائلة: "حسناً، ألم يحن الوقت

لتخبرني بما حدث في الليلة الماضية؟".

بدأ النقيب كلامه قائلاً: "تلقينا مكالمة صباح الأمس من متصل مجهول. قال لنا المتصل إن ابن قبيلة جينشيلي الأصغر "محمود" كان يقيم في بيت أقاربه في قرية غوفيلي مع صديقه طوال الأيام الخمسة الماضية. فبدأنا نراقب البيت البارحة، ولكننا لم نتمكن من التوصل لأية نتيجة، فلم يبق لدينا خيار سوى اقتحام البيت، وهو بالضبط ما فعلناه الليلة الماضية. أطلقوا الرصاص علينا، لذا نشب بيننا اشتباك مسلح، فألقينا القبض على محمود وصديقه ميتين. وكما قلت لك من قبل، فإننا لم نفقد أحداً من رجالنا".

قالت إسراء: "كان الله معكم". ولكن نظرة التساؤل تلك لم تفارق عينيها، فقالت: "إذاً، كيف تعرف أنهما مسؤولان عن جريمتي قتل الحاج عبد الستار ورشيد؟".

قال النقيب: "من الوثائق التي عثرنا عليها في البيت. لقد حضروا إلى هذه المنطقة لكي يجمعوا بعض الرجال من أجل الحركة الانفصالية. فبعد أن لحقت بهم الهزيمة في الجبال، بدأ الانفصاليون ينقلون اهتمامهم للمدن والبلدات ويحاولون لفت الانتباه لأعمال الانفصاليين ليثبتوا أن الدولة ضعيفة. إن هذا مذكور بشكل واضح وصريح في النشرات التي عثرنا عليها، ولهذا السبب قتلوا الحاج عبد الستار وكبير حراس القرية "رشيد" ليلفتوا انتباه الناس".

"هل تذكر الوثائق التي عثرتم عليها أنهم قتلوا الحاج عبد الستار وكبير حراس القرية "رشيد"؟".

قال النقيب: "إنها لا تذكر هذا بعبارات صريحة بالطبع". ظهر تعبير متوتر في عينيه المتعبتين ثم قال: "ولكن، لا يجب عليك أن تكوني عبقرية لتكتشفي الحقيقة".

ففكرت إسراء في سرّها: "هذا هو بالضبط ما فكرت فيه، فهو لا يملك دليلاً ملموساً على الإطلاق". ومع ذلك، فقد أرادت أن تكون واثقة من أنها لم تخطئ في تلك الناحية بالذات.

فقالت: "هل تطابق بصمات الأصابع التي عثرتم عليها على جثتي الحاج عبد الستار وكبير حراس القرية رشيد بصمات أصابع الإرهابيين؟".

رمقها النقيب بنظرة لسان حالها يقول: "ما علاقة هذا بأي شيء؟". ولكنه واصل الإجابة عن أسئلتها رغم ذلك.

فقال "لم نجد أي بصمات أصابع على جثة الحاج عبد الستار. ويقول

تقرير تشريح جثته إن هناك كدمات على عنقه، ولكن تهشم الجمجمة في الواقع هو سبب وفاته. ونظن أن تحطم الجمجمة سببه سقوطه من أعلى المئذنة. أما جثة رشيد، فسوف يتم تشريحها اليوم".

شعرت إسراء بلهجة توتر في صوت النقيب، ولكنها لم تلق بالاً لذلك.

"لا أعرف، ولكن يبدو لي أن الرجلين اللذين ألقيتم القبض عليهما قد يكونان هنا لأسباب أخرى".

"مثل ماذا؟".

"لقد قلت بنفسك إنهما حضرا إلى هنا ليقوما ببعض العمل الإقليمي لمصلحة الانفصاليين، ولكن قتل الحاج عبد الستار ورشيد غير ضروري لذلك".

قال النقيب: "كان ينبغي أن تصبحي مدعية عامة. إنني واثق من أنك عندئذ لن تتركي حجراً من دون أن تبحثي تحته، ولن تتركي أي قضية من دون حل، وستعلمين الأغبياء أمثالي كيف يقبضون على القتلة".

عندما لاحظت شرارة الغضب في عيني أشرف الداكنتين، أدركت إسراء أنها قد تجاوزت حدودها كثيراً.

فقالت بصوت ناعم: "إنني آسفة. لم يخطر ببالي قط أن أستخف بالعمل الذي تقومون به. أعرف أنك وجنودك صارعتم الموت الليلة الماضية".

لم يبد على النقيب أنه سيهدأ عما قريب، فقال: "ما الذي يهم في أي من هذا؟ المهم هنا هو أنك تجلسين في مقرك المريح وتخرجين بلائحة بأخطائنا".

"هذا ليس منصفاً تماماً. أعني، حسناً، ربما لم أكن في مسرح الصراع، ولكنني قلقت عليك كثيراً ليلة أمس، وانتظرت مكالمتك لساعات...".

انطفأت الشرارة في عيني النقيب ببطء.

تابعت إسراء وهي تبتسم قائلة: "ولكن، لا يسعني منع نفسي. هكذا هي طبيعتي. وهناك دائماً ذلك الصوت في رأسي الذي يلح علي بالأسئلة من دون كلل إلى أن يحصل على إجابة شافية".

تذمر النقيب قائلاً: "ولكن الاتهامات التي لا أساس لها لن توصلك إلى أية نتيجة". وبدا واثقاً من نفسه كمعلم يلقي درساً، ثم قال: "ما حدث أبسط بكثير من كل السيناريوهات التي تؤلفينها في رأسك".

أجابت مبتسمة: "قد تكون محقاً في ظنك، ولكنني عرفت شيئاً صباح اليوم أراهن على أنه سيذهلك كما أذهلني".

"آه نعم! ما هو ذلك؟".

"يقول مدير المستشفى الأمريكي السابق نيكولاس إن جرائم شبيهة

بجريمتي قتل الحاج عبد الستار ورشيد قد ارتكبت قبل ثمانية وسبعين عاماً، كما أن هناك نحاساً قتل في ذلك الوقت من الماضي".

لم يتمكن النقيب من أن يستوعب على الفور ما قيل له، فسأل قائلاً: "من قتل من؟ ولماذا؟".

"قبل ثمانية وسبعين عاماً، وفي هذه المنطقة نفسها بالضبط، قتل الكاهن كريكور بالطريقة نفسها التي قتل بها الحاج عبد الستار. فقد تم الدفع به من أعلى برج الجرس في الكنيسة، وعثر على أوهانيس آغا- الذي كان يمتلك معظم أراضي قرية غوفين- مقتولاً مثل رشيد؛ أي مقطوع الرأس ورأسه في حضنه. والإضافة الوحيدة على هذا الكلام هي جريمة قتل النحاس غارو".

"من روى لك هذه القصة؟".

"قلت لك. إنه المدير السابق للمستشفى الأمريكي واسمه نيكولاس. فقد كان يعيش في غازي عنتاب عندما وقعت تلك الجرائم".

"كم يبلغ عمر هذا الرجل؟".

"فوق التسعين".

"ألا يحتمل أن يكون مصاباً بالخرف؟".

"كلا، إن عقله في أفضل حال، فهو يتذكر كل ما حدث قبل ثمانية وسبعين عاماً، والتواريخ، وكل شيء كما لو أنها حدثت أمس".

فكر النقيب متأملاً في ما قالته لبعض الوقت، فظنت إسراء أنه على وشك أن يعترف بأنه مخطئ عندما بدأ كلامه مرة أخرى.

فقال مدافعاً عن نظريته من جديد: "ما قاله نيكولاس يدعم أفكاري على حد سواء. كما تعرفين، الانفصاليون لم يكونوا أقوياء في هذه المنطقة من قبل، لذا فهم يستغلون كل فرصة يمكنهم الحصول عليها لنيل موطئ قدم فيها. وهكذا، فقد عملوا على إلحاق محمود ابن قبيلة جينشيلي في حزبهم من أجل تحقيق هذا الهدف؛ أي اختراق قبيلة جينشيلي وتكوين أساس لنفسهم هنا، ولكنهم أخفقوا في هذا. إن المعلومات التي قدمها نيكولاس تظهر أن الانفصاليين جربوا استراتيجية جديدة هذه المرة. فقريتا غوفين وموسور قريتان أرمنيتان. قد لا يعتبرون أنفسهم من الأرمن، ولكن جذورهم أرمنية في حقيقة الأمر. في عام 1915، اختاروا أن يعتنقوا الإسلام جملة واحدة، وأن يتخلّوا عن دينهم القديم. ولم يعد أحد يقحم أنفه في شؤونهم. فظلوا يعيشون كمواطنين محترمين في هذه البلاد. ومع ذلك، يريد الانفصاليون أن يظهروا أنهم نالوا انتقامهم عن الأحداث المنسية التي وقعت

قبل ثمانية وسبعين عاماً عن طريق تكرار الجرائم نفسها، وهكذا يقومون بتحريض أهالي هذه القرى على الثورة. وبهذه الطريقة، يمكنهم نيل التعاطف من أولئك المواطنين والحصول على موطئ قدم في مناطق جديدة على حد سواء".

عندما توقف النقيب عن الكلام، اقترب الجندي منهما وهو يحمل صينية عليها كوبا شاي فيهما شراب أصفر يتصاعد منه البخار، ومرطبان صغير من السكر.

رأى النقيب الجندي وهو يقترب، ولكنه واصل الكلام.

فقال: "هل يمكنك أن تتخيلي مدى المكر الذي يتصف به أولئك الناس؟ إنهم مستعدون للوصول إلى حد استغلال حدث وقع هنا قبل ثمانية وسبعين عاماً لمجرد الحصول على مكان للنفوذ في هذه المنطقة...".

تقدم الجندي من الطاولة، ولكنه توقف على بعد مسافة قصيرة. فهو لم يجرؤ على مقاطعة حديث النقيب، لذا قام بمجرد الوقوف والانتظار. تحول بصر إسراء نحو الجندي، فخاطبه النقيب أخيراً.

"هل أحضرت لنا ما طلبناه؟ ضع الصينية هنا".

اقترب الجندي بأدب، ووضع الكوبين واحداً تلو الآخر على الطاولة. وفي تلك اللحظة، زلّت قدمه، ففقد توازنه وسكب محتويات كوب الصعتر المغلي على حضن إسراء. فصاحت الشابة بأعلى صوتها، وقفزت على قدميها، بينما غطت بقعة داكنة جزءاً من كنـزتها الخضراء الفاتحة وأعلى سروالها الكتاني الفاتح. وقفز النقيب على قدميه بدوره.

صاح النقيب على الجندي قائلاً: "انظر إلى ما فعلته. ألا يمكنك أن تتوخى الحذر أكثر من ذلك؟".

ظل الجندي الشاب واقفاً باستعداد، وهو يتلقى التأنيب الشفوي من رئيسه بصمت مطبق. تقدم النقيب من إسراء وسألها بقلق: "هل أحرقك الشراب بشدة؟".

أخذت إسراء تشد الكنـزة والبنطال لتبعدهما عن لمس جسمها، فالتفت النقيب إلى الجندي مرة أخرى، وصاح قائلاً: "أحضر بعض الماء. بسرعة!". ثم نظر إلى إسراء، وسرعان ما غير رأيه وقال: "أظن أنه من الأفضل أن ندخل إلى البيت".

قالت إسراء: "لا يوجد أي شيء. إنني بخير". ولكن وجهها راح يتلوى من الألم مناقضاً مظهرها الشجاع.

"دعينا ندخل إلى البيت، وهناك يمكنك أن تضعي بعض الماء البارد

ليخفف الألم".

لم تقاوم إسراء عرضه، لذا دخلا إلى مدخل المبنى الداخلي. وقف الجندي وهو غير واثق مما يجب عليه أن يفعله، وحدق بهما بعينين ملؤهما الخوف.

كانت شقة النقيب تقع في الطابق الأرضي. بدت مرتبة تماماً، ولكن إسراء لم تكن في حالة تسمح لها بملاحظة ذلك.

أشار أشرف إلى الباب نصف المفتوح، وقال بسرعة: "الحمام هناك. ادخلي وسوف أحضر لك منشفة نظيفة".

حالما دخلت إسراء إلى الحمام، خلعت كنـزتها وبنطالها، ودخلت خلف ستارة الحمام وفتحت صنبور الماء. فبدأ الماء يتدفق على المنطقة المحمرة على الجانب الأيمن لبطنها وساقها. أتت المياه دافئة في البداية، ثم تحولت إلى باردة تدريجياً. وكلما ازداد الماء برودة خفّ ألم إسراء. وفجأة، انتبهت إلى أنها تركت الباب موارباً قليلاً، لذا أغلقت صنبور الماء وأسرعت لتغلقه. لم تر النقيب في أي مكان، فاقتربت من الباب والماء يسيل على جسمها. وبينما هي تغلق الباب، سمعت صوت النقيب.

"أحضرت لك منشفة نظيفة وبعض الملابس الجافة. سأضعها بجانب الباب".

استطاعت أن تعرف من الصوت أنه علق الأشياء على مقبض الباب. فانتظرت لبضع لحظات، ثم فتحت الباب وأخذت المنشفة والملابس، ثم توارت خلف الستارة مجدداً، وفتحت صنبور المياه مرة أخرى وهي حريصة على ألا تبلل شعرها، وبقيت هناك إلى أن خف الألم إلى حد كبير.

عندما خرجت من حوض الاستحمام، وجدت موضع الحرق لا يزال يلسعها، ولكنه لم يعد يؤلمها كالسابق. فأخذت المنشفة وبدأت تجفف نفسها أمام المغسلة. وحالما أصبحت جافة، نظرت إلى بطنها وساقها فوجدتهما لا يزالان أحمرين، ولكن لم يظهر هناك أي تورم. ففكرت في سرّها: "لقد حالفني الحظ هذه المرة". نظرت إلى البنطال والكنـزة اللذين رمت بهما فوق الغسالة. وفكرت بأن عليها أن تتصرف وتغسلهما، فبللت الأماكن التي انسكب عليها الصعتر على أمل أن تجف حالما تعلقها على الشرفة. وأخذت البيجامة القطنية الرقيقة التي أعطاها إياها أشرف، وارتدتها ثم ارتدت قميصه الزهري الجاف. شمت نفحة من رائحة زكية خفيفة مألوفة ليست صادرة من البيجامة ولا من القميص. كلا، ليست رائحة مسحوق غسيل؛ بل إنها أشبه برائحة مرهم حلاقة. وأخيراً، تذكرت أن ذلك

هو العطر الذي اعتاد أورهان أن يستخدمه. إذاً، فقد اتضح لها أن أشرف يستخدم العطر نفسه. نظرت إلى وجهها في المرآة، وتملكها شعور غريب. فها هي الآن في حمام رجل غريب تشعر بانجذاب نحوه، وهي ترتدي ملابسه. تذكرت كيف اعتادت أن ترتدي بيجامة أورهان في أوقاتهما الخاصة وتنظر إليه بفخر وهو يتأمل ملابسه عليها بإعجاب. نظرت إلى وجهها في المرآة مرة أخرى، ولاحظت ذلك اللون القرمزي الباهت الذي اكتسبته وجنتاها، واللمعان الغريب في عينيها. فتمتمت لنفسها في تلك اللحظة موبخة: "كفي عن هذا الهراء ياإسراء". ووجدت أن تفكيرها بأفكار من هذا النوع لن يفعل شيئاً سوى زيادة الأمور تعقيداً، ولكنها وجدت أنه من الصعب أن تكبح هذا الشعور المتنامي في داخلها. لمست قماش القميص الكبير الناعم الذي انسدل على جسدها، وفكرت بيدي النقيب الداكنتين وأصابعه الطويلة، وبدأ الدفء في وجنتيها ينتشر إلى سائر جسدها. سرعان ما استجمعت شتات نفسها مرة أخرى. ما الذي فكرت به؟ كيف سمحت لنفسها أن تفكر بهذه الطريقة؟ وصاحت لنفسها: "كلا، كلا". فهي لم تتعرف على أشرف بشكل جيد بعد. وبالإضافة لذلك، هناك الكثير من المشاكل التي تقلقها... التفتت إلى الصنبور مرة أخرى، وبدأت تغسل وجهها وكأن الماء سيغسل المشاعر التواقة التي بدأت تشتعل في داخلها. حاولت أن تبعد أي أفكار عن عقلها وهي تجفف وجهها، ثم أخذت ملابسها المبللة وخرجت من الحمام ومشت نحو غرفة المعيشة. وفجأة، وجدت نفسها وجهاً لوجه مع النقيب. شعرت أنها قريبة منه لدرجة أنهما كادا يصطدمان. ورغم أنها صادفت تينك العينين الداكنتين مرات عديدة من قبل، إلا أنها للمرة الأولى رأت فيهما تعبيراً لم تستطع أن تميزه. فأسقطت الملابس من يدها على الأرض، وأحاطته بذراعيها. شمت إسراء مرة أخرى رائحة عطر النقيب المختلطة برائحة عرقه، وبدأ قلبها يخفق بانفعال وكأنها مراهقة صغيرة متهورة لا تدري ماذا تفعل.

á á á

اللوح التاسع عشر

ربتُّ على يدها بحنان، ونظرت إلى وجهها وعينيها بحب، ولكنني حاولت أن أنأى بنفسي عنها؛ لأنني خشيت من أن يدفعني تهوري لمغازلتها، وأن أثبت فشلي مرة أخرى. بدت أشمونيكال مدركة لكل ما يعتمل في صدري من مشاعر، فحاولت أن تجعلني أسترخي بكلماتها العذبة، ونظراتها المشجعة، ولمساتها الصغيرة، ولكن ذلك لم يكن سهلاً. واصلنا الحديث مع بعضنا بعضاً بلا توقف، ونحن نلامس بعضنا بعضاً بالقصص الخيالية والأساطير والقصائد. تبادلنا الحب؛ ليس بجسدينا بل بكلماتنا. هذه الغرفة الصغيرة في المكتبة التي أكتب فيها هذه الألواح الآن هي الشاهد الوحيد على حبنا الغريب.

كان جدي ميتانوا أول من أحضرني إلى هذه الغرفة. في تلك الأيام، علمني جدي ميتانوا الذي كان كبير كتبة القصر في تلك الأيام، كيف أمزج الطين لأصنع الألواح، وأكتب بالكتابة المسمارية. وبعد أن تم عزل جدي من منصبه في وقت لاحق، أتيت إلى هنا مع والدي آراراس. كثيرةٌ هي الأوقات التي عملت فيها هنا حتى غروب الشمس، وأنا أساعد والدي على كتابة الألواح! في هذه الغرفة الصغيرة، كتبت نصوصاً للملوك، ورتبت لاتفاقيات سرية، ولكن لم يخطر ببال جدي ميتانوا أو ببال والدي آراراس أو ببالي أنا أن الغرفة نفسها ستشهد يوماً ما على قصة حب سرية. إن الإنسان إنسان، ولهذا السبب لا يمكنه أن يفكر بكل شيء أو يعرف كل شيء قبل وقوعه. وهكذا، فالأمر الذي لم نفكر به ولم نتوقعه ولم يخطر ببالي أو ببال أشمونيكال هو أن هذه الغرفة الصغيرة ستصبح ملاذ حبنا الوحيد.

أصبحت أشمونيكال تأتي إلى المكتبة كل يوم تقريباً، ثم نسرع معاً إلى الغرفة الصغيرة كلما تمكنا من الهرب من لايماس. ولو استمر الوضع على تلك الحال، لعلم الملك بيزيريس سريعاً بقصة حبنا، ولكن ذات يوم، رآنا كبير الكهنة فالفازيتي خلال إحدى زياراته ليسترجع نصاً من المكتبة.

أدرك فالفازيتي حالما رآنا ما يجري بيننا، وذلك بسبب علمه المسبق بقصتنا. وفي تلك الليلة، قطع كل المسافة إلى بيتنا ليسألني إن كنت على علاقة بأشمونيكال. فقلت له إن هذا غير صحيح. فلم يصدقني، ولكنه لم يقل ذلك في وجهي مباشرة بل قام بمجرد تحذيري بالكلمات التالية:

"يا ابن آراراس، إنك تقول لي إنك لست على علاقة غرامية بتلك الفتاة التي هي إحدى أفراد عائلة ملكنا، ولكن ما رأيته يدل على العكس.

ومع ذلك، فأنا أريد أن أصدقك لأنك في المستقبل ستصبح من بين الناس الذين سيحددون مصير هذه البلاد. سوف يصبح كل من عقلك وخبرتك ومعرفتك تحت أمر الملك ليستغلها لإسعاد الناس. إنني لست جاهلاً بشؤون الحب، فأنا أعرف ذلك الإحساس الحارق الجارف وكيف يمكنه أن يدفع الرجل للجنون. ولكن الحب يشبه بزوغ الشمس في رائعة النهار شتاء، أو زخة مطر حلوة مفاجئة وسط حرارة الصيف. وبالرغم من أنه يملك جمالاً جنونياً وعاطفة جارفة تأخذ بالأنفاس، فهو ليس إلا عاطفة مؤقتة. فكما تكون حياة شمس الشتاء قصيرة وكما ينتهي مطر الصيف بعد أن يروي الأرض، فالحب أيضاً يصل إلى نهايته فجأة. وهكذا، فمن غير المنطقي أن تغضب آلهتك وملكك من أجل هذه العاطفة العابرة. كن على طبيعتك وابتعد عن هذه العاطفة المريضة. ولا تسمح لفتاة شابة أن تحرضك على أعمال غير مسؤولة. وأثبت أنك مختلف عن أي حصان بري تشتعل فيه الرغبة لمجرد رؤية فرس جميلة. لا تلق بظل قاتم على عائلتك وتلطخ شرف والدك آراراس".

في بداية الأمر، أدخلت كلمات فالفازيتي الرعب إلى قلبـي، ولكن عندما فكرت في أشمونيكال تلاشى الخوف من قلبـي في الحال. فنظرت إلى عيني الكاهن، وواصلت الكذب ظناً مني أنني نجحت في خداعه، ولكن فالفازيتي بخبرته الطويلة لم يصدقني. وعندما عاد والدي من رحلاته بعد شهر، أخبره فالفازيتي كل شيء عن ما جرى. فواجهني والدي المسكين، إلى جانب كل ما يحمله من أعباء وضغط الشؤون الحكومية، واستجوبني وهو يلهث كحيوان جريح. فأجبت على كل سؤال من أسئلته بكذبة منكراً الحب الذي شعرت به نحو أشمونيكال وكل الأحاسيس التي عشناها معاً. فلم يعرف والدي إن كان يجدر به أن يصدقني أم لا، ولكنه اتخذ قراره ألا يترك الموضوع للحظ والمصادفة. فإلى جانب كل مشاكل الدولة التي أرهقت كاهله، لم تكن تنقصه سوى مشاكلي العاطفية لتزيد من عبء متاعبه. فمنعني من الدخول إلى القصر. ومن ذلك الوقت وصاعداً، قرر أن يعلم أشمونيكال اللغة الأكادية بنفسه. وهكذا، أصبح من المحال لي أن أقابل أشمونيكال حبـي الأول والوحيد، وحبيبة قلبـي، والفتاة الأكثر جمالاً وذكاءً في هذا البلد. فبدأت وأنا أستمطر اللعنات على والدي أفكر في طرق تمكنني من الوصول إلى أشمونيكال، وأسعى إلى وسيلة تساعدنا على مقابلة بعضنا بعضاً مرة أخرى، ولكنّ مساعي كلها باءت بالفشل. فقد منع والدي حبنا بكل قسوة. فلم يكن في مزاج يسمح له بتحمل أي ثرثرة بسيطة قد

تلقي بظلالها على سمعة الملك وشرفه؛ ولا سيما في الوقت الذي تورطت فيه بلادنا في لعبة خطيرة مع ملوك البلاد المجاورة...

ولكن جهود والدي آراراس ذهبت أدراج الرياح لأن جسدينا اجتمعا في تلك الغرفة الصغيرة في المكتبة كي لا نفترق مرة أخرى إلى الأبد؛ بفضل تيشوب وعائلته.

á á á

الفصل العشرون

شعرت إسراء براحة تامة، وهذا ما بدا غريباً بعض الشيء نظراً للظروف المحيطة بها. فوجودها برفقة رجل لطالما بعث في نفسها شعوراً بالقلق والغرابة وبأنها في وضع غير مريح، ولكنها الآن تجلس برفقة أشرف من دون أن تشعر بأي قلق أو خزي، بل تملكها بدلاً من ذلك شعور من الاسترخاء والسعادة. لا بد أن هذا بالضبط هو ما تحدثت عنه صديقتها سيفيم عندما اعتادت أن تقول: "لا شيء يفيد المرأة أكثر من الجلوس برفقة من تحب". عندما التفتت إلى أشرف ورأته ينظر إليها من تحت رموشه الطويلة، مدت يدها وربتت بحب على شعره القصير.

قال أشرف: "انظري إلى نفسك، إنك تتصرفين وكأننا عاشقان منذ نصف قرن".

انكمشت إسراء من كلامه بسرعة، وقالت وشرر الغضب يتطاير من عينيها: "ماذا تعني بهذا الكلام؟".

مد النقيب يده إليها وقال: "انتظري، لا تستائي إلى هذا الحد. فأنا أحبك أكثر عندما تكونين أكثر استرخاء".

قالت إسراء بعد أن استعادت مزاجها الجيد: "لست غاضبة، ولكنني لا أريدك أن تكوّن فكرة خاطئة عني".

نظر النقيب إلى عينيها وقال: "لماذا أنا؟".

ابتعدت إسراء عنه، وسألته قائلة: "أي سؤال هو هذا الذي تطرحه علي؟".

قال: "إنني أشعر بالفضول وحسب. ما الخطأ في هذا؟".

فانفرجت شفتا إسراء عن ابتسامة شقية، وقالت مازحة: "ربما حدث هذا بسبب الأخ ممدوح".

تذمر أشرف قائلاً: "ومن هو الأخ ممدوح بالله عليك؟".

قالت وهي مستمرة بحياكة قصتها: "إن الأخ ممدوح صديقي من أيام الطفولة. كنت في السابعة أو الثامنة وهو في العشرين أو نحو ذلك. وكان طالباً في الأكاديمية البحرية وابن جيراننا الذين يقطنون بجانبنا. لطالما أعجبت بزيه الموحد".

"ولكن زيهم أبيض اللون!".

"أعرف هذا. ولكن، ما الفرق بين الأبيض أو الخاكي؟ كلها أزياء موحدة، أليست كذلك؟".

بدا على أشرف أنه استاء من كلامها، فقال: "أتعنين أنك معجبة بـي لمجرد أنني أذكرك بشخص آخر؟".

قالت: "إنني أمزح وحسب. لا أعرف لماذا اخترتك أنت. هناك شيء ما يجذبني إليك، ولكنني لا أستطيع أن أحدد ما هو بالضبط".

سر أشرف من هذا الجواب، ولكنه رمقها بنظرة تساؤل وقال: "هل تدركين أنك أنت أيضاً لم تخبريني أي شيء عنك؟".

"ما الذي تريد أن تعرفه؟".

"زوجك، لماذا تركته؟".

فقالت: "لم يكن مخلصاً لي". خرجت الكلمات من فمها قبل أن تسنح لها الفرصة للتفكير بها قبل أن تقولها، ثم قالت: "لطالما قال لي باستمرار إنه يحبني، لذا فقد افترضت أنه شغوف بـي". والتزمت الصمت وعيناها مركزتان على الجدار المقابل.

فقال النقيب وهو يلمس كتف إسراء ليشير لها بأنه ينبغي عليها إكمال حديثها: "ولكن...".

قالت حالما استعادت السيطرة على أفكارها: "ولكنه لم يكن يحبني، بل قام بمجرد التظاهر بذلك".

"كيف يمكنك أن تكوني واثقة إلى هذا الحد؟".

قالت إسراء: "لقد أصبحت حاملاً". لاحظ أشرف أن عينيها امتلأتا بالدموع رغم أن نبرة صوتها لم تتغير على الإطلاق. تابعت قائلة: "كلانا أردنا أن ننجب الطفل، ولكن أورهان تحمس للموضوع حماسة شديدة؛ وكأنه يريد الطفل أكثر مما أريده أنا. كان متيماً بـي. فكلما أردت أن أحمل شيئاً ثقيلاً قليلاً فقط، أسرع على الفور ليحمله عني. وبذل كل عناية ممكنة ليجعلني أتناول طعاماً جيداً وصحياً. وأصبح يحضر لي وجباتي بنفسه ويتوسل إلي كي أمتنع عن التدخين. شعرت بسلوكه يثير أعصابـي في بعض الأحيان، ولكنني سأكذب إن قلت إنه لم يعجبني في معظم الأحيان.

هناك أوقات خامرني الشك فيها في مشاعره، وجعلني أتخيل أن هناك شيئاً مزيفاً حيال سلوكه، ولكن شكي لم يدم لوقت طويل. فتلك كانت طريقة أورهان، أي إنه استمتع بالعناية بـي وتدليلي، أو بالأحرى هذا ما ظننته. خلال الشهر الخامس من حملي، توجب على أورهان السفر إلى أنقرة لحضور مؤتمر دولي. شكل ذلك المؤتمر خطوة هامة بالنسبة إليه في مهنته؛ بسبب حضور علماء آثار مشهورين من أنحاء العالم كافة. فأمضى عدة أشهر وهو يحضر الكلمة التي سيلقيها فيه. كان المؤتمر سيدوم ثلاثة أيام،

وسيلقي أورهان كلمته في اليوم الأول منها. تحمست لفكرة المؤتمر كما تحمس هو له، وتملكني الفضول لمعرفة رد فعل الآخرين على كلمته. في تلك الليلة، اتصل بـي وهو في أقصى درجات البهجة والسعادة بعد أن تلقى الكثير من التصفيق والثناء من الحضور، فسررت كل السرور لنجاحه، ولم أستطع أن أجلس ساكنة، لذا قررت أن أذهب إلى الحاجة بهيجة التي تعيش على بعد شارع واحد منا لأزف لها الخبر السعيد. وبينما أنا أنـزل الدرج في غمرة بهجتي وانفعالي، انـزلقت قدمي وتعثرت وتدحرجت على كل الدرج حتى الطابق التالي. وعندما فتحت عيني، وجدت نفسي في المستشفى وأمي جالسة أمامي. سألتها عما جرى، فقالت لي إنني بخير. ومع ذلك، لم يمنعني هذا من رؤية عينيها الممتلئتين بالدموع. ففكرت بالطفل على الفور وأدركت أنني فقدته. شعرت بتلك الفجوة الفارغة في داخلي وكأن قطعة مني قد انتزعت أو سرقت. أردت أن أبكي ولكنني صمدت، وسألت عن أورهان.

قالت أمي: "لقد أخبرناه بما جرى". ثم قالت لي إنها تحدثت بنفسها مع صهرها، وإنه شعر بحزن شديد حيال الحادث.

فسألتها: "متى سيأتي؟".

فقالت: "إن مؤتمره على قدر كبير من الأهمية. عندما سمع أنك على ما يرام، قرر أن يبقى إلى أن ينتهي المؤتمر. سيعود في غضون يومين".

سرعان ما بدأت أضحك بشكل هستيري، فظنت أمي أنني فقدت عقلي وأسرعت لاستدعاء الأطباء، ولكنني كنت بخير. فقد كنت أبدد توتري العصبـي ليس إلا، وبحلول الوقت الذي عادت فيه أمي مع الأطباء وجدوني أبكي. فأعطاني الأطباء حقنة لتهدئني، وأخبروا أمي أن رد فعلي طبيعي. فقد قالوا إن الأمهات الحوامل اللواتي يجهضن أطفالهن يتعرضن للاكتئاب مثل ما حدث معي. اتصل بـي أورهان مساء ذلك اليوم، فطلبت من أمي أن تخبره أنني نائمة. ولم أتحدث إليه إلى أن عاد من أنقرة. ففهم أنني مستاءة منه. وحالما عاد، بدأ يتوسل إليّ طلباً للمغفرة بكل تلك الكلمات المعسولة المحببة مثل "حبيبتي، وحياتي". وكلما حاول أن يستعيد قلبـي أكثر، ازددت نفوراً منه. وبدأت كل كلمة منه وكل رد فعل يثيران أعصابـي أكثر فأكثر. في المستشفى، لم أفقد طفلي وحسب، بل فقدت أيضاً حبـي لأورهان. وبعد ستة أشهر، تركته".

التزمت إسراء الصمت لبضع لحظات قبل أن ترفع بصرها وتنظر إلى النقيب.

ثم قالت بابتسامة مرة: "إذاً، هذا ما جرى".

سأل النقيب: "ألم تفكري قط بأن تمنحيه فرصة أخرى؟".

"كلا، فقد اكتشفت أن كل ما عشناه في الماضي مجرد زيف وخداع، والجزء الأسوأ من كل شيء هو أن أورهان خدع نفسه كما خدعني. فالرجل لم يكن يحبني، ولكن لسبب ما، لم يرغب بأن يتقبل هذه الحقيقة؛ وكأن العالم سيصل إلى نهايته إن تقبل حقيقة عدم حبه لي".

"ربما أحبك بالفعل، ولكن في تلك اللحظة بالذات طغت أهمية العمل على كل شيء آخر".

"بينما ترقد زوجته المحبوبة في المستشفى!! وبعد أن فقدت الطفل الذي شغف به حباً حتى قبل أن يولد!؟".

لم يجب النقيب عن سؤالها. فظلا صامتين لبعض الوقت.

قالت إسراء: "لو أنه لم يخنقني إلى هذا الحد، لربما سامحته. أحياناً يرتكب الناس أخطاء كبيرة، ولكن أورهان لم يخلص لي، ولم يعترف بمشاعره الحقيقية لي أو حتى لنفسه. وبدلاً من ذلك، فضل أن يلعب دور الزوج الطيب. لم يعد هناك ما يمكنني فعله له، لذا أسديت جميلاً لنفسي وله أيضاً عندما تركته".

قال النقيب: "فهمت. يبدو أنك قمت بالعمل الصواب".

"أنا واثقة من أنني قمت بالصواب".

نظر النقيب إليها برهبة، وقال: "من الرائع أنك واثقة من نفسك إلى هذا الحد".

قالت إسراء وهي تضع خدها على راحة يده: "هذا غير صحيح. في الواقع، أنا...".

فقاطعها النقيب قائلاً: "كلا، بل أنت أقوى امرأة قابلتها في حياتي، وأكثرهن ثقة في نفسها".

ابتلعت إسراء لعابها، ولم تعد قادرة على حبس دموعها أكثر من ذلك، فأجهشت بالبكاء. ربت أشرف بحب على شعرها البني الفاتح المتمرد إلى أن توقفت عن البكاء. قرَّب وجهه منها وبدأ يكفكف بيديه دموعها التي بللت وجهها الملتهب.

نظرت إسراء إلى النافذة، وقالت بصوت مثقل بالنعاس: "آه، لقد تأخر الوقت. ينبغي علي الذهاب".

بدت على أشرف خيبة الأمل، فقال: "هل ستغادرين الآن؟! ظننت أننا سنتناول العشاء معاً؟".

فقالت: "من الأفضل أن أذهب". رغم أنها في الواقع لم تشعر برغبة في الذهاب.

"هل يتوقعون حضورك في موقع التنقيب عن الآثار؟".

"إنهم لا يتوقعون ذلك، ولكن...".

"ولكن؟".

"لقد تغيبت عن العمل طوال اليوم".

"ما المشكلة إن وصلت متأخرة بضع ساعات؟".

لم تكن نهاية العالم ستحل إن عادت متأخرة بضع ساعات. ولكن لسبب ما- لم تدركه حتى هي نفسها- فقد همت بالخروج. نظرت إلى النقيب بعينين متوسلتين لسان حالهما يقول: "من فضلك افهمني". شعر النقيب برغبة ملحة في أن يستوقفها ويحثها على البقاء، ولكنه امتنع عن ذلك، وقام بمجرد الجلوس هناك في مكانه وتعبير وجهه متجهم. غادرت إسراء الغرفة، وذهبت لتحضر الملابس التي تركتها في غرفة المعيشة. فوجدتها شبه جافة، والأهم من ذلك هو أن الصعتر المغلي لم يترك أي بقع عليها. ارتدت ملابسها وعادت إلى النقيب فوجدته بالوضعية نفسها التي تركته عليها وتعبير وجهه يدل على الكآبة. فأدركت أنه من المحال أن تذهب وتتركه. ومع ذلك، لم تستعجل في إطلاعه على تغييرها رأيها، بل تقدمت منه وهي تبتسم وجلست إلى جانبه.

وقالت: "ما الخطب؟".

فقال أشرف: "ماذا تظنين؟ إنك راحلة".

"وهل هذا هو السبب في أنك غاضب؟".

"نعم. ألن تغضبي لو كنت مكاني؟".

قالت إسراء: "نعم. حسناً، سأبقى. ولكن، كيف ستشرح للجندي المناوب في الخارج سبب وجودي في بيتك؟".

قال: "لقد غادر الجنديان موقعهما منذ وقت طويل. ومن المفترض أن يكون هناك جنديان آخران مكانهما".

"حسناً، سأبقى، ولكنني لا أريد الجلوس والتحدث أكثر من ذلك. فسوف أموت من الجوع. لم آكل شيئاً منذ وجبة الفطور".

فاستقام النقيب في جلسته على الفور وقال: "دعيني أطلب بعض الطعام من البلدة".

"كلا، كلا، لا أريدك أن تفعل ذلك. هل طعام الجنود سيئ حقاً إلى هذه الدرجة؟".

"ليس سيئاً، ولكن ألا تودين شيئاً أفضل من ذلك؟".

قاطعته إسراء قائلة: "حسناً، اتفقنا. سوف نتناول طعامنا من المقصف. متى سيكون جاهزاً؟".

نظر النقيب إلى ساعته ووجدها تشير إلى الخامسة وعشرين دقيقة.

"أظن أن العشاء جاهز منذ الآن. لنتصل ونطلب ما نريده".

بعد ساعة، جلسا معاً إلى طاولة في الشرفة في ظل شجرة الزيزفون ليتناولا طعام الجنود، وهو عبارة عن كرات اللحم والسلطة وطبق الخوخ المطبوخ.

قالت له: "إنني أحب وجبة كرات اللحم. لم أتناولها منذ وقت طويل".

ظل أشرف يراقب وجه إسراء بتعبير سعيد ولكنه شارد الذهن. وعندما التقت عينا إسراء عينيه، توقف عن الأكل، وابتسم وانحنى إلى الأمام ليلمس يدها.

وقال: "لا أصدق أنك هنا. قد تجدين هذا كلاماً غريباً، ولكن يتملكني نوع من الخوف في داخلي ولا أعرف سبباً له".

فاجأ تصرف النقيب إسراء، فقالت: "ماذا تعني بأنك تشعر بالخوف؟".

لم يعرف بالضبط كيف يفسر لها ما قاله. فقد بدا شعوره شبيهاً بالخوف الذي شعر به عندما سقط طريح الفراش في المستشفى؛ خوف جعله في حالة فوضى روحية وعقلية. وكما عجز عن شرح ذلك الشعور لطبيبه النفسي، فقد عجز الآن بالضبط عن شرحه لإسراء مع أنه أراد من صميمه أن يشرح لها، ولكن هذا لم يمنعه من المحاولة.

"لدي شعور ينبئني بأن هناك نـزاعاً سينشب، أو أن خبراً ما سيصل إلينا، وأننا سنصبح غريبين عن بعضنا بعضاً...".

ولكن تفسيره لم يفعل شيئاً سوى زيادة حيرة إسراء.

فواصل النقيب كلامه قائلاً: "لهذا السبب لم أرغب في أن ترحلي؛ لأننا قد لا نتمكن من رؤية بعضنا بعضاً مرة أخرى".

"لماذا قد لا نرى بعضنا بعضاً مرة أخرى؟ فكلانا هنا".

ترك النقيب يدها وقال: "لست أدري. فالحياة مليئة بالمفاجآت. يحدث شيء غير متوقع كل يوم. ودائماً يكون هناك ضجيج حيال شيء ما".

أشاح بوجهه عنها، وظل لبعض الوقت يحدق برغيف الخبز الموضوع على الطاولة أمامه وهو مستغرق في التفكير. فكفت إسراء عن الأكل بدورها وهي حائرة. أيعقل أن النقيب يعرف تطورات أخرى عن الجريمتين

ويخفيها عنها؟ ترى، هل تعمد التحدث بهذا الأسلوب المراوغ كوسيلة للتغطية على شيء آخر لا يريد الإفصاح عنه؟

سألته قائلة: "نحن نمر بأوقات عصيبة بالفعل في هذه الأيام، ولكن كل شيء انتهى الآن، أليس كذلك؟". ولكن ما أرادت قوله فعلاً هو: "هل هناك شيء لا تخبرني به؟".

قال النقيب: "أنت محقة". ثم تحدث وكأنه استفاق من سبات طويل: "لقد انتهى كل شيء الآن".

التزمت إسراء الصمت وهي تتفحص ملامح وجهه بعناية.

فسأل أشرف: "لماذا لا تأكلين؟ ظننتك قلت إنك تحبين كرات اللحم؟".

قالت إسراء: "إنني آكل". ولكنها ظنت أن أشرف أراد أن يغير الموضوع. وأخيراً، لم تعد قادرة على تحمل التوتر أكثر من ذلك، فطرحت عليه سؤالها بشكل مباشر قائلة: "هل تخفي عني شيئاً ما؟".

"كلا، بالطبع لا. لم قد أخفي عنك شيئاً؟".

"إنك تتصرف ببعض الغرابة".

"أنت محقة. فقد تهت في التفكير بعض الشيء هنا. ولكن، ليس الأمر كما تظنين. فلا علاقة له بالجرائم".

لم تصدقه إسراء، ولكنها لم تعترض على كلامه. وبدلاً من ذلك، واصلت تناول وجبتها بصمت. والتزم أشرف الصمت على حد سواء. فاعتبرت إسراء صمته دليلاً على شعوره بالذنب.

وفجأة، وضعت شوكتها على الطاولة وقالت: "هلا أعترف لك بشيء...". ثم نظرت إليه بغضب من بين أجفان نصف مطبقة، بينما استولى التوتر على ملامح وجهها وكأنها تريد أن توحي له بأنها جاهزة لخوض معركة ما: "إنني لا أعتقد أن الانفصاليين هم الذين يقفون وراء الجريمتين".

لم يقل أشرف أي شيء، بل نظر إليها بابتسامة مرّة على شفتيه.

بدأت إسراء تشعر بالانـزعاج من كل تصرف يقوم به، وكل إيماءة في وجهه.

فصاحت في وجهه بغضب قائلة: "ما الذي يضحكك؟".

"هذا هو بالضبط ما أخشاه. انظري، لقد دخلت تانك الجريمتان اللعينتان بيننا مرة أخرى".

قالت إسراء: "هذا الموضوع أكثر أهمية من علاقتنا. نحن نتحدث عن أرواح أبرياء. وإن لم يتم القبض على مرتكبـي الجرائم، فهذا يعني أن حياتنا جميعاً في خطر".

قال النقيب محاولاً أن يقنعها: "ولكن، تم القبض على المجرمين. ولا يمكنهم أن يؤذوا أحداً بعد الآن".

"هل تصدق ما تقوله الآن؟".

فقال: "نعم، لأن هذه هي الحقيقة".

"لا أظن ذلك. لا يرتكب الانفصاليون جرائمهم بهذه الطريقة".

"لو عرفتهم حق المعرفة، لعرفت ما يفعلونه".

"ما علاقة هذا بمعرفة الانفصاليين؟".

فقال النقيب: "هناك علاقة كبيرة. أنت تستخفين بالانفصاليين. بالنسبة لك، هم أشخاص شبه جاهلين ومغرر بهم يتبعون قضية من المقدر لها الهزيمة. ولا تظنين أنهم أذكياء بما يكفي لكي ينفذوا سلسلة من الجرائم المخطط لها بدقة كبيرة لكي يكسبوا تأييد القرى الأرمنية كما قلت لك".

عندما لاحظ نظرة الشك في عيني إسراء، تابع كلامه قائلاً: "هناك دول كبرى تدعمهم: ألمانيا وبريطانيا واليونان وسوريا وإيران، وحتى أمريكا التي تتظاهر بأنها حليفتنا تدعمهم سراً. ولديهم قوات مدربة بشكل ممتاز".

قالت إسراء من دون تردد: "لا أعرف أي نوع من القوات لديهم، ولكنني لا أظن أنهم يرتكبون جرائم من هذا النوع. فأنا أيضاً أقرأ الصحف وأشاهد الأخبار، ولم أسمع قط بانفصاليين يرتكبون جرائم من هذا النوع".

نظر النقيب إليها بعجز، فهو لم يكن يريد أن يجادلها لأنه لا يتمتع بالقوة للقيام بذلك، ولكنه أدرك أيضاً ألا خيار لديه سوى مواصلة الحديث. شعر أن حلقه أصبح جافاً، فمد يده ليأخذ الكأس التي أمامه، ولكنه لاحظ أن يديه أخذتا بالارتجاف، فأمسك الكأس بإحكام ليثبت يده، ثم أخذ جرعة كبيرة.

وقال لها بصدق: "لا تضعي الكثير من ثقتك بالأخبار التي تسمعينها وتقرئينها في الصحف. سوف أخبرك أمراً ما؛ ليس خبراً في الصحف، بل إنه شيء حدث معي في الواقع. إنها الحادثة التي تجنبت إخبارك بها في تلك الليلة".

"لِمَ لم تخبرني بها في تلك الليلة؟".

"لأنّ تذكرها والتفكير بها يؤلمانني، فلم أرغب في عيشها مرة أخرى".

"ولكن، ألن تعيشها مرة أخرى اليوم؟".

فقال: "ولكن، أي خيار آخر أملكه اليوم؟ ليست هناك طريقة أخرى لإقناعك".

أثرت هذه الكلمات التي قالها أشرف ورأسه منكس بإسراء، وشعرت أن غضبها خفت قليلاً، ولكنها لم تظهر له ذلك. وبدلاً من ذلك، قامت بمجرد النظر إليه وكأنها تقول: "إنني أصغي إليك". أدركت أكثر من أي وقت مضى أنهما مختلفان كل الاختلاف، وأنهما ينظران إلى جريمتي القتل من منظورين متباعدين كل البعد، وأنهما لن يستطيعا بناء حياة مشتركة. ومع ذلك، فوجوده منحها راحة غير مألوفة، وسعادة غير معتادة لم تعهدها من قبل في نفسها.

á á á

اللوح العشرون

عاد والدي من رحلته بأخبار تسر الملك بيزيريس. فقد أعلن الملكان الأوارتي ساردور والفريجي ميداس اللذان ذهب للتفاوض معهما أنهما مستعدان لمساعدة بيزيريس في معركته ضد أعدائهما القدامى: الآشوريين. ومع ذلك، فقد اختار والدي كلماته بعناية عندما أطلع بيزيريس على خبر استعداد الملكين لمنحه دعمهما. فحذره قائلاً: "ينبغي علينا أن نتوخى الحذر الشديد مما يقوله الملكان". ومع ذلك، فقد طار صواب بيزيريس لدى سماعه هذه الأخبار. وعلى الرغم من التحذيرات التي سمعها من أبـي ومن كبار النبلاء على حد سواء، فقد بدأ يرسل مراسلين إلى ملوك الحثيين ليزف لهم الأخبار السعيدة بأن تحررهم من طغيان الآشوريين بات قاب قوسين أو أدنى.

ومع ذلك، في تلك الأثناء، أقدم ملك الآشوريين الطاغية تيغلاث بيليسير على اغتيال شقيقه الأكبر في القصر، ونجح في قمع ثورة محلية اندلعت في مملكته، وأعاد النظام مرة أخرى قبل أن يؤسس لأقوى جيش في التاريخ الآشوري، واعتلى عربة الحرب السريعة التي تجرها ثلاثة جياد، وانطلق في حملة لإعادة تلك الممالك التي ثارت عليه إلى سلطته.

لم تسهم حتى أخبار الحملة التي شنها تيغلاث بيليسير بما يكفي في إخافة بيزيريس. فقد وضع بيزيريس ثقته بالملك ميداس الفريجي وملك أوراتيا ساردور. أما الممالك الأخرى، فعندما عرفت أن الملك الآشوري سيشن حربه، بدأت تتجمع كقطيع من الغزلان التي شمت رائحة أسد مفترس يهدد حياتها. وتجمعت الممالك الصغيرة حول الملك الأوارتي ساردور ظناً منها أنها بتلك الطريقة تستطيع ردع الملك تيغلاث بيليسير. وعلى رأس هذه الممالك، أتت مملكة بيزيريس الذي دعم الملك الأوارتي ساردور بكل ما أوتي من قوة.

وعندئذ، وصلت اللحظة التي لا مفر منها، والتحم الجيشان الأوارتي والآشوري في ساحة المعركة. فالتهم الأسد الآشوري الأوارتيين. ولاذ ساردور بالفرار آخذاً معه من بقي من جيشه، وبهذا الشكل انهارت دعامة من الدعائم الموثوقة التي ارتكز عليها بيزيريس. وفي تلك الأثناء، فضّل الملك الفريجي ميداس مراقبة الحرب من مسافة آمنة على مرتفعات جبال الأناضول.

للمرة الأولى، أدرك بيزيريس الخطأ الذي وقع فيه. فقد علم الملك

الآشوري تيغلاث بيليسير أن بلادنا تحالفت مع الأورارتيين، فهبط شبح الخوف الأسود على وجه بيزيريس العريض كالموت المحقق، وانسحب إلى قصره وبدأ يفكر بما يجب عليه أن يفعله.

حل خبر هزيمة الأورارتيين على مدينتنا ككارثة منذرة بالشؤم. وعبرت أخبار الموت ضفتي الفرات من تلك المناطق التي مر بها تيغلاث بيليسير في طريقه إلى أرباد. فقد أخذ الجيش الآشوري يحرق ويدمر وينهب المناطق التي يهزمها، ويقتلع عيون سكان تلك المناطق، ويقطع أيديهم، ويرسلهم إلى المنفى من مدنهم وقراهم وبيوتهم. فلم تعد تفصل بيننا وبين وصول الجيش الآشوري ليقرع أبواب مدينتنا سوى أيام معدودة. انتظر الناس وهم يرتعشون من الخوف ملكنا بيزيريس ليظهر أمامهم ويلقي عليهم بعض الكلمات المخففة، ولكن الأيام مضت ولم يخرج الملك من قصره.

من بين أولئك الذين اعتبروا هذا الوضع غريباً جداً والدي آراراس. صحيح أن بيزيريس منذ توليه الحكم اعتاد بشكل طبيعي أن يتخذ قراراته بمفرده من دون التشاور مع أحد، ولكنْ في وضع ملح مثل هذا يتعلق بمصير المدينة وكل أهلها، من المؤكد أن الشيء الطبيعي أن يفعله هو أن يجمع مجلس النبلاء أو على الأقل أن يأخذ برأي أقرب مستشاريه، ولكن بيزيريس لم يفعل أياً من هذه الأمور، بل فكر وقرر بمفرده من دون أي استشارة.

بعد بضعة أيام، استدعى والدي للمثول بين يديه. وقال له إن هناك معاهدة سرية مكتوبة يحتاج إليها للتغلب على تيغلاث بيليسير. وشرح له أنه يقترح أن يدفع ضعف الضريبة المدفوعة من قبل بلادنا. ومع ذلك، فقد قرر أن أكثر رجاله الموثوقين، وهو والدي، هو من سيوصل الرسالة بنفسه إلى تيغلاث بيليسير.

بعد يومين، انطلق والدي بصحبة اثني عشر حارساً من حراس القصر لمقابلة الملك تيغلاث بيليسير الذي يقود الجيش الآشوري لدى حصاره لمدينة أرباد، وبحوزته لوحان يحويان نص المعاهدة، بالإضافة إلى بعض الهدايا الثمينة. لسبب غير معروف، أمر بيزيريس والدي ألا يقرأ اللوحين، ولكن لم تكن هناك وسيلة تمكنه من فعل ذلك لأن اللوحين ظلا بحماية حراس قصر بيزيريس.

قبل أن يغادر والدي إلى وجهته، ودعنا وكأنه يودعنا الوداع الأخير. فأدخل سلوكه هذا الخوف إلى نفسي. سألته عما يجري، فامتلأت عينا

والدي بالدموع، وقال لي هذا الكلام:

"كما يجلب نهر الفرات الوفرة والخصب للأرض، وتمنح سنابل القمح الحبوب، وتمنح أشجار المشمس الثمار، وتعطينا الخراف اللحم والحليب، فالملك يحكم هذه البلاد، ويحارب الجنود في المعارك، ويكتب الكتبة المعاهدات ويقدمون النصيحة للملك. لكل شيء واجبه الذي يقوم به. ولكن في بعض الأحيان، يفيض نهر الفرات فيجلب لنا الموت بدلاً من الخير والوفرة، ويحدث قحط وجدب؛ حيث لا تنتج السنابل القمح ولا تمنح الحبوب ولا تعود ثمار المشمس لتنمو على أشجار المشمس، وتنتشر الأمراض فتموت الخراف ولا يعود حليبها صالحاً للشرب، ويأتي وقت لا يعود فيه الملك قادراً على حكم البلاد، ولا يعود الجنود قادرين على القتال. قد تحدث هذه الأمور، ولكن لا يمكن للكاتب أن يستخدم هذا كذريعة ليدير ظهره لواجبه، لأن الكاتب هو قلم تيشوب. ليس الملك هو من يمنح الكاتب واجبه بل تيشوب. يجب عليه أن يفعل ما يؤمر به حتى لو كان هذا يعني في نهاية المطاف الموت أو الخيانة، فهذا هو دَينه الذي يجب عليه أن يؤديه لتيشوب وعائلته. يجب عليه أن يؤدي دينه عندما تقتضي الضرورة ذلك".

في ذلك اليوم، لم أفهم ما تحدث والدي عنه. ومضى وقت طويل إلى أن سقط لايماس على فراش موته ووخز الضمير يعذبه. عندئذ فقط أطلعني على الحقيقة التي عجزت عن فهمها بنفسي عندما حدثت.

انضم والدي بثقة إلى الموكب الذي انطلق ليوصل اللوحين إلى الملك تيغلات بيليسير، وهامته شامخة، وعيناه تشعان بكرامة، وثقة أكثر من أي وقت مضى.

بعد شهر واحد، استدعاني بيزيريس إلى قصره، فرأيت على محياه تعبيراً يدل على الحزن. ألقى عليّ التحية بكل ود وأخذ بيدي بين يديه وهو يقول لي ما يلي:

"لدي أخبار محزنة لك أيها الشاب باتاسانا. يؤسفني القول إن ملك الآشوريين الطاغية تيغلات بيليسير قد قتل مستشاري وكبير كتبة قصري ووالدك آراراس، وأرسل لي رسالة مفادها أنه قضى على حياة آراراس عقاباً له على مغادرته لمدينتنا وحده، ونيته من هذا هي إخافتي عن طريق التخلص من أقرب رجالي إلي. إن وفاة والدك خسارة عظيمة، ولكن حتى عند موته، فعل ذلك لأجل مصلحة مملكته. حتى عند موته، حمى بلادنا من السلب والنهب والقسوة التي نفذها الآشوريون البرابرة. إنني أكن

احتراماً كبيراً لذلك الرجل النبيل، وآمرك بصفتك نجله الفاضل أن تأخذ منصب والدك ككبير كتبة للقصر".

دمرني سماع خبر وفاة والدي غير المتوقع. وأصبح عقلي في حالة صدمة، واعتصر الألم قلبـي، بينما أخذ جسدي يرتجف من الرأس حتى القدم من فرط الغضب. تذكرت النظرة التي رأيتها على وجه والدي قبل أن يغادرنا، ورنت كلماته في أذني، ولكنني لم أعرف كيف أفسر هذه الأحداث. فحبست دموعي، وأصغيت إلى بيزيريس، ثم طلبت منه الإذن بالانصراف، وأسرعت إلى البيت لأنني ظننت أنه ينبغي علي أن أكون أول من يخبر أمي. انهارت أمي على الأرض، وانتحبت وبدأت تمزق شعرها وعينيها بأظافرها. فمنعتها وقلت لها إنه يجب عليها أن تتقبل خبر موته بنضج أكبر؛ لأنها زوجة كبير كتبة القصر آراراس؛ ذلك الرجل الفاضل ومستشار الملك. تمكنت من حبس دموعي وأنا أقول لها كل هذا الكلام لأنني أدركت أنني منذ ذلك الوقت فصاعداً أصبحت كبير كتبة قصر الملك بيزيريس العظيم ومستشاره المقرب. فتوجب علي أن أتحلى بالهدوء والقوة لكي أثبت جدارتي بهذا اللقب الجليل.

á á á

الفصل الحادي والعشرون

عندما بدأ النقيب سرد قصته، بدا تعبير وجهه متسماً بالهدوء، ولكن صوته مفعم بالتوتر؛ وكأن ما يقوله لإسراء حدث لتوه بالأمس.

"عندما أكملت سنتي الثانية في الخدمة في الجنوب الشرقي، أصبحت متأكداً من شيء واحد فقط، وهو أنه لكي أتمكن من هزيمة الإرهابيين، يتوجب علي أن أصبح مثلهم، وأعني بهذا ألا أعيش في جيش منظم أو أستجيب عندما يقع هجوم أو أشن غارة عندما يصلني تقرير ما، بل أعني التصرف بالضبط كما يتصرفون، وتشكيل جماعة من المحاربين تعيش في الجبال وتتنقل بشكل مستمر من مكان لآخر، وهذا هو ما علمني إياه سيتيثان. فسر نجاحه يكمن في حقيقة أنه تعلم العيش في ظل أصعب الظروف في الجبال والمحاربة كالإرهابيين. ويجب علي أن أعترف أنني أردت القيام بالأمور بهذه الطريقة ليس لأحقق النجاح وحسب، بل لأسباب أخلاقية على حد سواء. فقد حضرت جنائز بعض الجنود الذين استشهدوا، وسمعت أقاربهم يلوموننا على وضع أولادهم عند الخطوط الأمامية في حين لم يتعرض القادة لأي خطر. أعترف أن كلماتهم ليست بعيدة كل البعد عن الحقيقة، وأنها أحدثت تأثيراً كبيراً علي؛ إذ لطالما تعلمت أن القوات المسلحة تشكل كياناً واحداً من أعلى الضباط وحتى أدنى الجنود رتبة، وأنه يجب على كل من الجنود والضباط أن يبذلوا التضحيات. وفي الواقع، ينبغي على القادة أن يستعدوا لبذل تضحيات أكبر من غيرهم. ولو لم يكن ذلك صحيحاً، لانهار جيش مصطفى كمال منذ وقت طويل. لطالما آمنت بهذا المبدأ ونفذته في كل لحظة من لحظات خدمتي واعتبرته أهم مبدأ يثبت شرفي كجندي...".

أمسك أشرف لحظة عن الكلام، ونظر إلى عيني إسراء وكأنه يخشى ألا تصدقه، ثم أضاف: "ربما أكون قد خسرت عائلتي وصحتي النفسية بسبب هذا، ولكنني حافظت على احترامي لنفسي...".

التزم الصمت مرة أخرى، وتنهد بعمق وكأنه يكابد ليأخذ أنفاسه.

"على أية حال، دعيني لا أخرج عن السياق هنا. على الرغم من الخلافات الكثيرة التي فصلت بيني وبين سيتيثان في البداية، إلا أنه أصبح معلمي. فقد علمني ذلك الكردي أشياء لم يكن من الممكن لي أن أتعلمها في المدرسة الثانوية العسكرية أو المدرسة الحربية أو الأكاديمية أو خلال المناورات. وتوجب علي أن أتبع طريقته لأحمي نفسي وجنودي وأهزم

أعدائي، ولكن باختلاف واحد، فقد قاتل هو وحده بينما توجب علي أن أتعلم القتال إلى جانب فريقي. عرضت على العقيد رضوان، الذي لقي حتفه لاحقاً خلال اشتباك عسكري، تلك الفكرة التي خطرت ببالي. فوافق على اقتراحي. إذ بعد أن دامت تلك الحرب مدة طويلة، وهذا ما أدى في الواقع إلى تولي سلطة أقل صرامة من سابقتها، تبين لنا أن التأسيس لوحدات متحركة مثل الإرهابيين هو الشيء المناسب للقيام به.

حالما غادرت مقرّ العقيد رضوان، بدأت أفكر بالجنود الذين سيشاركون معي في هذا الفريق. فقررت أن أهم ما يجب أن يتوفر في أفراد الفريق هو الوحدة النفسية، لذا وجدت أنه من الأفضل لي أن أشكل فريقاً يضم عدداً من الرجال الشجعان اليقظين والموهوبين في فنون الحرب، والأهم من ذلك الرجال الذين يمكنني العمل معهم بانسجام وسلاسة. وفي غضون وقت قصير، كتبت لائحتي، وشكلت فريقاً من عشرين شخصاً من أفضل الجنود تحت قيادتنا. وفي البداية، قابلت كل واحد منهم على حدة، وشرحت له الظروف، وأخبرته أن الاشتراك في الفريق طوعي وأن من يريد البقاء في المقر يمكنه ذلك. قرر اثنان منهم عدم المشاركة، فاحترمت قرارهما وجمعت بقية أفراد الفريق الثمانية عشر وعقدنا أول اجتماع لنا. وبعد مهمة تدريب قصيرة، توجهنا إلى جبل الجودي.

رغم صعوبة الأيام الأولى التي مرت علينا، إلا أننا بدأنا نعتاد تدريجياً على ظروف معيشتنا الجديدة. وبعد مضي أسبوع واحد، عثرنا على مجموعة من الإرهابيين مكونة من عشرة أشخاص. فلم يرونا، ولكننا استطعنا بسهولة أن نرصد كل تحركاتهم من خلف الصخور حيث نصبنا مخيمنا الأساسي. لا يسعني أن أعبر لك كم يبدو شعور التفوق مرضياً؛ لأن العكس غالباً ما يكون صحيحاً في الأحوال العادية. فقد اعتادوا أن يختبئوا ويتبعونا خلسة ثم يبدؤوا بإطلاق النار علينا عندما يجدون الفرصة مناسبة. أما نحن، فكنا ننبطح على الأرض بحثاً عن مخبأ ونسقط ضحية للعدو لأن شدة الصدمة تمنعنا من التصرف السليم. ومع ذلك، فقد تبادلنا الأدوار في ذلك اليوم. والأفضل من ذلك، هو أننا تمكنا من مراقبتهم في الليل على حد سواء بفضل كاميراتنا الحرارية ومناظيرنا ذات الرؤية الليلية. عندما دخلوا حقلاً مكشوفاً لا يفسح لهم مجالاً للهرب، دعوناهم للاستسلام، فاستجابوا على الفور بفتح النار علينا. ولأن منطقة النـزاع كانت تحت سيطرة أسلحتنا، فقد تمكنا من القبض على ستة منهم أمواتاً وأربعة جرحى. ولم يتعرض سوى رجل واحد من رجالنا للإصابة في كتفه، فشكلت هذه المعركة أول

نجاح كبير نحققه.

"يتمتع معظم الإرهابيين بخبرة واسعة بسبب تواجدهم الدائم في غمرة النـزاع، ويتصفون بدقة التصويب لدرجة تمكنهم من إصابة بعوضة تطير في الجو، ويتحلون بصمود الماعز البري وبإيمان راسخ في قضيتهم كمحاربـي فجر الإسلام. وهكذا، فقد شكل خبر انتصارنا سبباً للاحتفال في المقر. فخلال السنوات الماضية، لم ينهزم الانفصاليون ولو مرة واحدة في الجبال، بل سادت حالة من التقلب بين قوتنا وقوتهم. فكنا نحن نسيطر على الجبال ثم يستعيدون هم السيطرة من جديد، وهكذا دواليك. وفي ظل تلك الظروف، وجدنا أن أصغر انتصار نحققه يشكل أهمية كبرى. وعندما عدنا إلى المقر، رحب بـي العقيد رضوان وكأنني بطل من الأبطال، فلم يعد الآخرون يشككون بقدرات فريقنا، لذا سمح لنا بالمزيد من حرية التحرك. وهكذا، أثبتت الشهور التي تلت مرة تلو أخرى كم كنت محقاً في رأيي. فقد دخلنا في اشتباكات لا حصر لها، وعادة ما انتهى المطاف بنا ونحن نقبض على الإرهابيين وهم في عداد الموتى. وفي نهاية الأشهر الستة الأولى، ورغم أن العديد من رجالي سقطوا جرحى، فقد لقي جندي واحد حتفه، وذلك لأنه خطى على لغم أرضي. أصبح الإرهابيون محرومين من القدرة على التجول بحرية في جبل الجودي الذي كانوا يسيطرون عليه من قبل. وأدركوا أنه بات يتوجب عليهم أن يتوخوا المزيد من الحذر الآن. ورغم أن الإرهابيين تعرضوا لعدد من الهزائم الكبيرة على أيدينا خلال هذا الوقت، إلاّ أننا لم نتمكن حتى تلك اللحظة من القبض على مجموعة كافا الحداد، وهو اسم بطل قصة خيالية ذائعة الصيت في تلك المنطقة. تلقينا تقارير عن أفراد تلك المجموعة عدة مرات، وكدنا أن نوقع بهم ذات مرة، ولكنهم تمكنوا في اللحظة الأخيرة من التوقف قبل الدخول في المنطقة التي نحاصرها ولاذوا بالفرار. لم نستطع أن ندرك وحسب كيف استطاعوا أن يشعروا بالفخ الذي نصبناه لهم، ولكن ذات يوم رن جهاز اللاسلكي الخاص بـي على التردد الذي اعتدنا التواصل به مع المقر، فشغلته بحكم العادة وسمعت صوتاً غريباً تماماً علي...

قال لي الصوت بلهجة إسطنبولية نقية: "مرحباً، يانقيب. جيمشيد يتحدث إليك؛ قائد مجموعة كافا الحداد".

لأقول لك الحقيقة، أصابني الذهول، ولكنني سرعان ما استجمعت قواي العقلية.

فقلت: "مرحباً، ياجيمشيد. ما الأخبار؟ هل قررت الاستسلام أو ما

شابه؟".

فأطلق الرجل ضحكة مزعجة مفعمة بالثقة بالنفس، وقال: "كلا، إنني أتصل لأرحب بك ليس إلا. كما تعلم، فأنت في جبالنا".

أجبته قائلاً: "إن هذه الجبال جزء من الوطن. وإن كنت تعتبر نفسك ابن هذه البلاد، إذاً ينبغي عليك أن تستسلم".

"إنك تدرك جيداً جداً أنني لن أستسلم. أما بالنسبة لهذه الجبال، فهي ليست جزءاً من وطنكم أنتم، بل من وطننا نحن. وأريد أن أطلعك على سر صغير: الناس هنا لا يستلطفون الغرباء كثيراً، لذا توخ الحذر".

بدت نواياه واضحة وضوح الشمس.

فقلت له بسخرية: "كنت على وشك أن أقول لك الشيء نفسه. فهذه الجبال لا تتحمل وجود الخونة الذين يتعاونون مع دول الجوار ضد بلادهم، لذا أظن أنك أنت من يجب عليه توخي الحذر".

ولكن كلماتي لم تغضبه ولو قليلاً، بل قال بهدوء: "كما تحب، ولكنني حذرتك".

قلت له عندما ظننت أنه على وشك أن يغلق جهاز اللاسلكي: "انتظر لحظة. أنت لا تتحدث بلكنة غريبة. لا يمكن أن تكون كردياً".

فقال: "إنني كردي، ولكنني لا أجيد اللغة الكردية. فقد تقبلتني الجمهورية التركية بالضبط كما فعلت بك أنت".

استطاع الرجل أن يصدمني مرة أخرى، فتذمرت قائلاً: "لا تكن سخيفاً. إنني لست من أصل كردي".

فقال لي: "ألم يولد والدك في منطقة فان، يانقيب أشرف؟ إنك كردي مقبول في تركيا مثلي تماماً".

"لقد ولد والدي في فان، ولكننا لسنا أكراداً. لقد كان جدي جندياً في فان. فأنجبت جدتي والدي أثناء وجوده في الخدمة هناك. وهكذا، فالمعلومات التي وصلتك خاطئة". قلت هذا الكلام ثم أطفأت جهاز اللاسلكي، ولكن عندئذ بدأ الشك يتلاعب بـي. فقد كان جيمشيد يعرف كل شيء عني؛ اسمي وحتى مكان ولادة والدي. فكيف تمكن من الحصول على كل تلك المعلومات؟ في البداية، شككت بأفراد فريقي، ولكنني أدركت أنه من المستحيل أن يعرفوا المكان الذي ولد فيه والدي. وبعد ذلك، خطر ببالي أن الإرهابيين لديهم بلا شك رجال في المقر، أو أن لساني ربما قد زل في مكان ما، لذا توجب علي توخي المزيد من الحذر في المستقبل. فقررت منذ ذلك الوقت فصاعداً ألا أعلم المقر بأي من الكمائن التي

نخطط لها، أو حتى الاتجاه الذي نتجه إليه. ورغم أنني اعتبرت أنه من غير المحتمل أن يتواجد بالفعل أي خونة بين رجال فريقي، فقد قررت أن أتصرف بحذر شديد وأنا بينهم على حد سواء. توجب علي أن أبقى على حذر في كل الأوقات؛ حتى أثناء نومي. أما النقطة الأخرى التي توجب علي أن أستوضحها، فهي الهوية الحقيقية لجيمشيد. فقد صممت أن أعرف من هو ذلك الوغد المتعجرف الذي يتحدث هذه اللغة التركية النقية.

حالما عدت إلى المقر، ذهبت لمقابلة صديقي ضابط المخابرات جيفات. وسألته عن جيمشيد، فقال لي إنه يعرفه لأن المخبرين قدموا معلومات مفصلة عنه. فاسمه الحقيقي هو محمد سيريكان. وكان جده من بين القادة الذين تزعمهم الشيخ سعيد خلال ثورات شهري شباط ونيسان من عام 1925. وحالما قمعت الدولة تلك الثورات، نفذت حكم الإعدام بحق جده بالإضافة إلى الشيخ سعيد، ثم عمدت إلى إبعاد عائلته إلى مدينة قونية حيث وُلد محمد في ما بعد. فالتحق هناك بالمدرسة الابتدائية والإعدادية، وكان تلميذاً ناجحاً جداً لدرجة أنه أصبح رئيس صفه في المدرسة الثانوية، وبدأ يدرس علم النفس في جامعة البوسفور، ولكنه تخلى عن الدراسة في السنة الثالثة ليلتحق بالإرهابيين في الجبال. وكان شاباً ذكياً وشجاعاً ويؤمن بقضيته إيماناً قوياً لا يتزعزع.

عندما عدت إلى الجودي، وجدت تردد جهازهم اللاسلكي، واتصلت بجيمشيد مرة أخرى. فقال لي بالنبرة الساخرة المتعجرفة نفسها عندما سمع صوتي: "أووووه، النقيب أشرف!".

فقلت: "أحسنت يامحمد. فقد ميزت صوتي".

فساد صمت قصير.

ثم قال لي من دون أن تبدو عليه الهزيمة: "ويبدو أنك ميزتني أيضاً".

""ولكننا لم نلتق بشكل رسمي بعد، أليس كذلك؟ إنني لا أطيق الانتظار حقيقةً لأقابلك وجهاً لوجه".

عاد على الفور لأسلوبه الساخر، فقال: "لا تقلق أيها النقيب. سيحدث هذا أيضاً، ولكنني آمل ألا ينتهي بك المطاف وأنت حزين أو مستاء عندما نلتقي".

"سنرى ما سيجري فعلاً عندما يحين الوقت لذلك".

"تكررت محادثاتنا على جهاز اللاسلكي عدة مرات، ولكننا لم نتمكن من أن نلتقي بشكل مباشر قط. حاولنا عدة مرات أن ننصب له كميناً،

ولكنه لم يظهر قط في الأماكن التي توقعنا وجوده فيها، وكأنه يستطيع أن يشم رائحة الكمين أو يشعر بالخدعة المعدة له من على بعد كيلومترات. وهكذا استمر الحال لبضعة شهور إلى أن حان الأسبوع الأخير من شهر نيسان. فذهبنا إلى المقر، وبقينا هناك إلى مطلع شهر أيار قبل أن ننطلق إلى جبل الجودي مرة أخرى. كانت توجد قرية حراسة على سفح الجبل اعتدنا أن نمر بها لنحصل على مواردنا، ويتزعمها آغا اسمه حامد. كان حامد رجلاً عذب الحديث، ومتزوجاً من أربع زوجات، ويتميز بصف أمامي من الأسنان الملبسة كلياً بالذهب. كلما مررنا بقرية حامد، ذبح خروفاً للترحيب بنا. فقد جمعته علاقة طيبة بجميع من في المقر، ولكنه بات مولعاً بأفراد فريقنا أكثر من غيرهم من الجنود. في الواقع، لقد جعلني مسؤولاً عن أحد أحفاده. وكان حامد آغا شغوفاً بشكل خاص بمسابح الصلاة، وكلما خرج أحد أفراد فريقنا في إجازة إلى مدينته، ألح عليه كي يحضر له بعض المسابح للصلاة. وهكذا، عندما عاد زميلي الرقيب رشيد من إجازته في مدينة إيروزوم، أحضر لحامد سبحة جميلة مصنوعة من حجارة الكهرمان الأسود. فأصبح الرجل المسن حامد آغا منتشياً من فرط السعادة وكأنه طفل صغير، وراح يغدق المديح والإطراء على رشيد لأنه منحه هذه السبحة الجميلة.

في ذلك الوقت، غادرنا مقرنا ومررنا كعادتنا بالقرية، حيث استقبلنا حامد آغا هناك لنبيت الليلة عنده.

وفي الليلة التالية، انطلقنا مرة أخرى بعد أن لطخنا جباهنا وعظام خدودنا وأطراف ذقوننا بالطلاء الأسود، أي في الأماكن التي من الممكن أن تلمع في الظلام. وتسلقنا بصمت المنحدر الصخري وأنا أفكر بجيمشيد وكيف يمكنني أن أقبض على ذلك الرجل. كانت ليلة دافئة من ليالي الربيع، والبدر يشع في السماء كزهرة فضية في أوج تفتحها. هبت نسائم عطرة من أعلى الجبال، فأخذنا نتقدم بحذر وهناك مسافة متر واحد تفصل كل واحد منا عن الآخر. في المقدمة، مشى يورغو من بويوكادا وأوروش من إزميت وهناك مسافة عشرين متراً تفصل بيني وبينهما.

كما يبدو واضحاً من اسمه، إن يورغو من أصل يوناني. وأثناء وجوده في معسكر التدريب، اعتاد الجنود الآخرون أن يوجهوا الإهانات إليه ويلقبوه باليوناني، وهذا ما أغضبه، لذا صار يأخذ موقعه عند مقدمة الخطوط الأمامية خلال النـزاعات ليثبت جدارته وشجاعته. فلم يغب هذا عن انتباهي، واعتبرت إضافته إلى الفريق خياراً طبيعياً. كان يورغو عازف غيتار

مدهشاً، ولكن الأهم من ذلك هو تمتعه بسمع مرهف يساعده على تمييز مجموعة كبيرة من الأصوات في الطبيعة. وكان أوروش جندياً يقظاً جداً أيضاً، ولهذا السبب لطالما كلفناه بقيادة الفريق في الليل.

وصلنا إلى شِعب بوينوز حوالى منتصف الليل، وهو عبارة عن ممر جبلي يقع على الجانب الآخر من تلة صغيرة إلى يميننا، ولكن قبل أن نصل إلى التلة بحوالى مئة متر، لاحظت شخصاً يقترب مني. وكان ذلك أوروش.

حالما وصل إلى جانبي، قال لي هامساً: "يقول يورغو إن هناك مشكلة ياسيدي". أمرت فريقي بالكف عن التقدم، فجلس الجنود القرفصاء بصمت خلف الصخور. أما أنا، فقد اقتربت من يورغو بحذر، ووجدته منبطحاً خلف إحدى الصخور وهو يراقب ذلك البروز الصخري الذي نسميه شِعب بوينوز.

همست قائلاً: "ماذا يجري، يا يورغو؟".

فقال لي من دون أن يبعد نظره عن الشعب: "ثمة حركة هناك ياسيدي. فقد سمعت أصواتاً".

قلت وأنا أرهف السمع: "أي نوع من الأصوات؟".

"همسات أو أصوات أشبه باحتكاك القماش بالصخور".

سألته: "هل أنت واثق من ذلك؟".

فقال: "لم أكن متأكداً في البداية". ثم أشار إلى صخرة منخفضة تقع على بعد عشر أمتار وقال: "ولكنني زحفت إلى تلك الصخرة هناك، وسمعت الأصوات نفسها مرة أخرى. إنني واثق من وجود أشخاص هناك".

بدا شعب بوينوز مكاناً مثالياً لنصب كمين. فإن تمكن المرء من تأمين التلال، فلا يمكن لأي شخص يمر من الشعب أن ينجو بحياته. وعلاوة على ذلك، في ليلة يشع فيها البدر كتلك الليلة تصبح الأهداف واضحة وكأنها في وضح النهار، ولكن مسافة لا تقل عن أربعين متراً كانت تفصل بيننا وبين الشعب. ولم تكن لدي أية فكرة عن كيفية تمكنه من سماع الأصوات من على بعد تلك المسافة البعيدة. نظرت إلى الشعب ولم أر سوى الصخور الساكنة التي تلمع تحت ضوء القمر.

قلت: "لننظر باستخدام المنظار الحراري". والمنظار الحراري يمكنه بالطبع أن يكتشف حرارة الجسم ويظهر الأجسام الحية. فنظرنا وتأكدنا من وجود حركة بالفعل.

قلت: "قد تكون مجرد حيوانات برية".

فأصر يورغو قائلاً: "ولكنني سمعت صوت همس، ياسيدي".

ولم يكن هناك سبب يدفعنا لتعريض أنفسنا للخطر".

فسألت قائلاً: "حسناً، لنقل إنّ هناك إرهابيين مختبئين في تلك المنطقة. هل تظن أنه من المحتمل أنهم رأوك؟".

فقال: "أشك بذلك. فقد توخيت الحذر الشديد".

تسللت ويورغو بحذر من بين الصخور عائدين إلى موقعنا. تملك القلق الرقيب "رشيد" وهو ينتظر عودتنا، فحضر لينضم إلينا.

وقال عندما سمع شكوكنا: "دعونا نستكشف المكان بسلاح "البازوكا"، وعندئذ فقط سنقطع الشك باليقين".

لم أتفق معه في رأيه. فلو أنهم خططوا لنصب كمين لنا، إذاً من المرجح أنه من صنع جيمشيد. ولا بد أنه سمع أننا غادرنا المقر وانتظرنا بلهفة لبياغتنا في الطريق. خطر ببالي أن نتحرك نحو اليسار حيث يوجد جرف أكثر انحداراً، ونتسلق لخمس ساعات أو ست إلى تلة مشجرة تطل على شعب بوينوز، ونحضر لهم مفاجأة بغيضة، ونجعلهم يقعون في الفخ نفسه الذي نصبوه لنا. بالطبع، لم يغب عن بالي احتمال أن يصاب جيمشيد بالملل وينطلق في تلك الأثناء، ولكن الشك خامرني في أن جندياً ذا تصميم وإرادة كبيرين مثله قد يصيبه نفاد الصبر بهذه السرعة. وبالإضافة لذلك، وجدت الأمر يستحق المجازفة.

سأل الرقيب رشيد: "ماذا إن اتضح أننا مخطئون؟".

وجدته محقاً في قلقه. فقد كان كل واحد منا يحمل خمسة وعشرين كيلوغراماً من المؤن على ظهره بالإضافة إلى الأسلحة.

فقلت وأنا مبتسم: "إن ثبت أننا مخطئون، فسنكون قد حصلنا على تمرين مفيد جداً بعد أن قضينا الكثير من الوقت في التكاسل في أنحاء المقر".

"إذاً، دعنا نبلغهم في المقر".

ولكنني كنت قد صممت من قبل على ألا أبلغهم بأي تحرك من تحركاتنا. وفي الوقت نفسه، لم يكن بوسعي تثبيط الروح المعنوية لجنودي إن أخبرتهم بوجود مخبر في المقر.

فقلت: "سنخبرهم حالما نصبح متأكدين. لا أريدهم أن يسخروا من فريقنا".

أحدثت كلمة "فريق" المفعول الذي أردته لها. فلم يكن أحد منا يريد أن يتسبب في تحويل الفريق إلى هدف للسخرية في المقر، لذا

انسحبنا وبدأنا تسلقنا الشاق على الجرف المنحدر. وبعد مسافة قصيرة، وجدنا أن البازوكتين قد أصبحتا عبئاً ثقيلاً علينا. فلم يكد الجنود الذين يحملونها يقطعون خمسين متراً حتى أصبحوا غارقين في عرقهم. فخبأنا البازوكتين بين بعض الشجيرات، وواصلنا الصعود. والآن، لم يعد لدينا خيار سوى الاعتماد على أسلحة G3 و G1 التي نحملها. سمحت للجنود بأخذ استراحة قصيرة مرة واحدة كل ساعة، ولولا ذلك ما كانت هناك وسيلة لتساعدنا على الاستمرار في سيرنا. ومع ذلك، بحلول شروق الشمس، شعرنا أننا مستنـزفو القوى بشكل كامل، ولكن مجرد التفكير بالقبض على جيمشيد ووضع نهاية لجماعة كافا الحداد جعلني أنسى كل ما يتعلق بالحرارة والتعب.

بدأت الشمس تميل إلى المغيب مساء ذلك اليوم قبل أن نتمكن من الوصول إلى قمة التلة المغطاة بالحجارة الكبيرة والصغيرة. وخارت قوى رجالي بشكل كامل، فانهاروا بين الصخور لينالوا قسطاً من الراحة. أما بالنسبة لي، فقد فاق فضولي الإعياء الذي أنهك جسدي، فحبست أنفاسي وزحفت إلى قمة التلة. ورأيت شِعب بوينوز على بعد عشرة أمتار إلى الأسفل، ولكنني لم أر أحداً هناك. وعندما بدأ الشك يخامرني في أننا أخطأنا في التقدير، رأيت شيئاً يلمع تحت ضوء الشمس الغاربة. فتقدمت خطوة حذرة إلى الأمام، وأدركت أنها ماسورة بندقية كلاشينكوف، وهذا ما أكد لي أنهم مختبئون بلا شك في الكهوف التي تقع بالأسفل. لم يتحركوا خلال النهار ليتجنبوا اكتشافهم من قبل الطائرات المروحية التي تحوم فوق المنطقة. وبدلاً من ذلك، انتظروا حلول الظلام. التفت إلى رجالي وأشرت لهم بصمت أن الإرهابيين بالأسفل، وأنه يجب علينا الانتظار حتى حلول الظلام لنقوم بالتحرك. فانتعشت وجوه الجنود المنهكة في الحال، وبدأنا نستعد بهدوء من أجل المعركة. لم نستطع أن نعرف عدد الرجال الذين من المحتمل وجودهم هناك بالأسفل، ولكننا سمعنا أن جماعة كافا الحداد يتراوح عددها بين خمسة وعشرين وأربعين رجلاً من الرجال الأشداء، في حين أن عددنا نحن لم يتجاوز سبعة عشر رجلاً. وهكذا، فقد تلخص هدفنا في قتل سبعة عشر فرداً منهم بضربتنا الأولى على أمل أن نقضي عليهم بالجولة الثانية من الضربات مستغلين عنصر المفاجأة، وذلك لأنهم لم يكونوا يتوقعون أن يصادفونا في هذا المكان. وبعد ساعتين من الانتظار المفعم بالتوتر، وعندما اكتسب كل شيء من حولنا لوناً رمادياً ثم استسلم لظلام الغسق، توجهنا في طريقنا إلى قمة التلة. كان البدر يشع على الجانب الآخر من الجبل،

ولكن ضوءه لم يشع باتجاهنا بعد. فشكل هذا ميزة لصالحنا على حد سواء، ومنحنا اليد العليا على العدو لأننا تمكنا من رؤيتهم والعكس غير صحيح. نظرنا إلى الأسفل بمناظيرنا المخصصة للرؤية الليلية، ووجدنا منظراً مثيراً للإعجاب لدرجة أصابتنا جميعاً بالقشعريرة. فقد رأينا القناصة، ويبلغ عددهم أربعة وعشرين رجلاً بقدر ما استطعنا أن نخمن، منتشرين بانتظارنا على طول الشعب وهم يراقبون الطريق في الأسفل بصبر شديد. فأمرت رجالي أن يختاروا أهدافهم، وأن يصوب كل واحد منهم على شخص مختلف عن الآخرين، وأن ينتظروا إشارتي قبل أن يفتحوا النار عليهم. وكان هدفي أنا تحديد مكان جيمشيد وشل حركته بالضربة الأولى قبل أن يتمكن من الهرب، ولكنني وجدت صعوبة في تحديد مكانه بين مجموعة الرجال في الأسفل وهم جميعاً صامتون. وعندئذ، رأيت رجلاً واقفاً في نهاية الشعب ذهب بعض الأشخاص ليطرحوا عليه سؤالاً، ثم عادوا إلى مواقعهم. فصوبت بندقيتي على ركبة الرجل على أمل أن يكون جيمشيد. حدد رجالي أهدافهم بعناية لأنهم يعرفون تماماً الأهمية البالغة للضربة الأولى. نظرنا إلى بعضنا بعضاً للمرة الأخيرة. وعندما أعطيتهم الإشارة، صدرت ضجة ضخمة بسبب إطلاق النار. فرأيت أولئك الرجال الواقفين تحت يسقطون على الأرض ثم يتلوون من الألم. أطلقت النار على الرجل الذي ظننت أنه جيمشيد، وبدأت أصوب على شخص آخر. وفجأة، حدث شيء غير متوقع. فقد تعرض الجندي حسين الواقف أمامي لإطلاق نار وسقط على الأرض. وعندما رفعت رأسي، رأيت بندقية تمطرنا بالرصاص من أعلى التلة التالية، وهكذا فقد تبين لي أنهم أخذوا احتياطاتهم وأرسلوا أحدهم إلى هناك.

صحت على رجالي وأنا أنبطح على الأرض: "انتبهوا إلى التلة المقابلة". ولكنهم استغرقوا وقتاً ليدركوا حقيقة ما يجري. فسمعت أحد جنودي الآخرين يتعرض لإطلاق نار. وعندما سكنت بنادقنا عن إطلاق النار، توقفت البندقية على التلة المجاورة على حد سواء. في البداية، لم أدرك السبب، ثم فهمت أنه لم يتمكن من رؤيتنا، لذا صوب باتجاه مصدر صوت بنادقنا. بدأت أتفحص التلة بالمنظار الليلي. وفي تلك الأثناء، سمعت صوت الإرهابيين وهم ينتحبون من الألم في الأسفل. عندما توقفت أسلحتنا، سمعت شخصاً من الشعب يصيح باللغة الكردية قائلاً شيئاً ما للشخص الواقف على التلة. لم أفهم ما قاله، ولكنني توقعت أنه سأله عن عددنا. وعندئذ، تحرك مطلق النار على التلة. وفي تلك اللحظة، ميزت كتفه اليسرى، فسددت بندقيتي وفكرت أنه سيحاول أن يحصي عدد جنودي، وكنت محقاً في ذلك.

فقد أخرج طرف وجهه بحذر من خلف الصخور، ولكن الرجل المسكين لم يستطع على ما يبدو أن يرى شيئاً في الظلام لأنني رأيته يمد نفسه أكثر بقليل. وعندما فعل ذلك، استطعت أن أحصل على هدف واضح ومثالي، لذا ضغطت على الزناد ورأيت الرجل يسقط ميتاً. وعندها، بات بوسعنا أن نعالج جراحنا. فقال لي الرقيب رشيد، الذي قام بالتدخل الأول، إن عبد القادر و"حسين" تعرضا لجروح، وإن حالة حسين خطيرة. فأمرته أن يطلب المساعدة من المقر على أمل أن ينجو حسين. وأخذت المنظار الليلي، وبدأت أبحث بين الإرهابيين. وعندما نظرت إلى الأسفل، اكتشفت أن خمسة عشر منهم تعرضوا للإصابة، وأن الآخرين مفقودون.

قال الرقيب رشيد إنه يفضل أن ننتظر إلى أن تصل القوات القادمة من المقر، أو على الأقل إلى أن يصل رجال كبير حراس القرية حامد، ولكنني لم أرغب بتضييع تلك الفرصة، ورفضت أن أسمح لجماعة كافا الحداد بأن تعيد تنظيم صفوفها من جديد. وبالإضافة لذلك، فقد ظننت أنني أطلقت النار على جيمشيد وأنه لن يستطيع الابتعاد مسافة كبيرة بركبة مهشمة. فتركت رجلين مع الرقيب رشيد للعناية بالجريحين، وأخذت بقية الرجال معي، ونـزلنا المنحدر الصخري بهدوء نحو شعب بوينوز. شكلت مناظيرنا الليلية أفضلية كبرى بالنسبة لنا، ولكن إن أبقى المرء هذه المناظير على عينيه لمدة طويلة، أصبح بصره كله مشوشاً. وهكذا، لم تكن المناظير الليلية تشكل مساعدة لمدة طويلة. فكان الشيء الوحيد الذي يجب على الطرفين فعله في الظلام هو الالتزام بالصمت المطبق واليقظة التامة والاستعداد لكل شيء. وهكذا، تقدمنا في طريقنا بحذر نـزولاً في المنحدر ونحن نبذل قصارى جهدنا طوال الوقت لنتجاهل الألم الذي سببته لنا الشجيرات الشوكية التي نبتت هناك في التراب الطري بفعل المطر وخدشت وجوهنا وأيدينا. وعندما وصلنا إلى الأسفل، لم نقترب من جثث القتلى، بل توجهنا نحو الصخرة الضخمة التي نحتتها الرياح والمطر على شكل درج طبيعي يؤدي إلى طريق في الأسفل. تقدمنا ببطء شديد لدرجة أننا استغرقنا عشر دقائق لمجرد التقدم بضعة أمتار. وفجأة، سمعنا أصواتاً صادرة من الأسفل، وصوت رجل يصيح من الألم. فرأيت يورغو يطلق النار في الاتجاه الذي صدر منه الصوت، فصرخ أحدهم متألماً، وفي الوقت نفسه بدأ الرصاص ينهال علينا، فانبطح الجميع على الأرض. استمر إطلاق النار لبضع دقائق ثم توقف. لحسن الحظ، لم يتعرض أحد منا للإصابة. أشرت إلى الجنديين الأقرب إلى الشعب أن يلقيا بالقنابل اليدوية التي بحوزتهما على

المكان الذي صدر منه الرصاص، فسمعنا صوت سلسلة انفجارات تصم الآذان. ظننت أن الإرهابيين سيبدؤون بإطلاق النار بعد إلقاء القنابل اليدوية عليهم، ولكن لم يحدث أي رد. إذاً، هل يعني هذا أنهم حاولوا خداعنا؟ أم إنهم أرادوا الهرب منا؟ بعد الانتظار لبعض الوقت، أشرت إلى الجنود الذين ألقوا القنابل أن يفتحوا النار. وبينما هم يطلقون الرصاص، تسللت برفقة يورغو وأوروش من بين الصخور كثلاث سحالٍ كبيرة. واصل الجنود إطلاق الرصاص إلى أن انتهت الذخيرة من أمشاطهم. فسادت فترة صمت أخرى، وهذه المرة بدأنا نحن الثلاثة بإطلاق النار. فاستغل رجالي الفرصة وأتوا بسرعة للانضمام إلينا، وحلت فترة سكون أخرى حالما توقفنا عن إطلاق النار.

قال يورغو: "أظن أنهم هربوا، ياسيدي".

قلت: "دعنا لا نستعجل الأمور". فأنا لم أرغب بالتصرف بتهور لئلا يدفعني غبائي للوقوع في كمين ما، لذا قمنا بمجرد الانتظار لحوالى نصف ساعة. وأصبح الصوت الوحيد الذي من الممكن سماعه هو صوت أنين الرياح وهي تمر عبر الشجيرات. وفي تلك الأثناء، ارتقى البدر من وراء الجبال، وغمر كل شيء في الأنحاء بضوء فضي، لذا توجب علينا الآن أن نتوخى المزيد من الحذر. فأمرت رجالي أن يتسللوا في طريقهم عبر الصخور ويتقدموا للأمام. وبعد قليل، تمكنا من رؤية الطريق، فوجدنا المنطقة مهجورة بالكامل. وفجأة، لاحظت وجود قدم بين الصخور، فأمرت الفريق أن يتوقف. وجدت القدم ساكنة بلا حراك، فأشرت نحو القدم لعثمان، وهو من أبرع مطلقي النار من بين جنودي، وطلبت منه أن يطلق النار عليها بالمسدس. فأطلق عثمان النار على أخمص القدم، فقفزت ثم سقطت على الأرض مرة أخرى، ولكن هذا هو كل شيء. فصاحب القدم لم يبد أي رد فعل آخر على الإطلاق، لذا أدركت أنه الشخص نفسه الذي أطلق عليه يورغو النار قبل قليل وهذا يعني أنه أرداه قتيلاً. واصلنا التقدم من دون أن نتخلى عن حذرنا، فرأينا الرجل جالساً هناك ببساطة متكئاً على إحدى الصخور وعيناه محدقتان أمامه. نظرت إلى ركبته، ولكنها بدت سليمة. فأدركت أنه ليس الرجل نفسه الذي أطلقت عليه النار. وهكذا، تبين لي أنهم أخذوا الرجل الذي أطلقت عليه النار ولاذوا بالفرار، وتلك إشارة جيدة لأنها تعني أنهم لن يتمكنوا من التقدم بسرعة كبيرة. لم نلمس جثة الرجل الميت. إذ ربما نصبوا لنا فخاً بجانبها. أمرت ثلاثة رجال بالنـزول إلى الطريق في الأسفل، يفصل بين كل واحد منهم عن الآخر متر واحد، بينما

بقينا نحن للحراسة في الأعلى. فبدا لنا المكان خالياً تماماً، لذا تبعنا بقية الفريق. ومع ذلك، فقد حافظنا على يقظتنا وتقدمنا بحذر شديد. تشبثنا بالصخور على يمين الشعب ويساره واقتفينا آثار الأقدام. وجدنا صعوبة في فهم أي شيء من تلك الآثار، ولكن بقع الدماء التي بدت كل واحدة منها كبركة الطين هناك في ضوء القمر وضحت الكثير بكل تأكيد. فذلك بلا شك دم الرجل الذي أطلقت عليه النار في ركبته. قادتنا آثار الدماء إلى سفح التلة في الاتجاه الذي سلكناه بعد أن غادرنا القرية. من الواضح أنه لم يكن من الممكن للإرهابيين أن يقطعوا مسافة طويلة بوجود رجل جريح معهم. فلو تصرفنا بخفة وسرعة، لتمكنا من اللحاق بهم، ولكننا اكتشفنا أن هناك فرصة كبيرة في أن نتعرض لكمين، ولا سيما في ذلك الضوء الساطع. فتوجب علينا أن نتوخى الحذر الشديد، وهذا يعني أن نبطئ من سرعتنا. ظلت آثار الدماء على الأرض ترشدنا إلى الاتجاه كأدق بوصلة على الأرض، ولله الحمد، ولكن بعد ساعة من الزمن، اختفت الآثار. فبحثنا في كل مكان؛ بين الصخور، وفي الكهوف، وخلف الأشجار، وبين الشجيرات، ولكن لم تعد هناك أي آثار دماء أو أي محاربين جرحى يمكن العثور عليهم. توقعنا أن الرجل قد مات فدفنوه هناك، ولكن لم يكن من الممكن أن يفعلوا هذا خلال هذه المدة القصيرة. وبالإضافة لذلك، لو كان ذلك صحيحاً لوجدنا كومة تراب مرتفعة عن الأرض أو دليلاً على وجود حفرة. بدأت المسألة برمتها تتعب أعصابي، فأمرت جنودي أن ينتشروا ويفتشوا المنطقة شبراً شبراً. وفي تلك الأثناء، بدأت أدور في دوائر صغيرة حول المنطقة التي رأيت فيها آخر أثر من آثار الدم. وبينما نحن ندقق النظر في المكان بهذا الشكل سمعنا أصواتاً من الأسفل، لذا اتخذنا مواقعنا على الفور. وبعد قليل، خرج حامد آغا ورجاله من الظلام. شعروا بالبهجة لرؤيتنا، وسألونا إن خسرنا أي رجال أو تعرضنا لأي إصابات. فسألتهم إن صادفوا أحداً وهم في طريقهم إلينا.

فقال حامد آغا مطرقاً بخجل: "كلا، من المؤكد أننا لم نر أحداً". وهكذا، فلا بد أن الرجال قد اختبؤوا في مكان ما حولنا. طلبنا من حراس القرية المشاركة معنا في البحث. وبعد ساعة من الزمن، وصلت قوات الدعم من المقر. فأرسلت جريحينا إلى المستشفى برفقة الرقيب رشيد ورجل آخر من الفريق، بينما تابعنا نحن بحثنا. سرعان ما أشرقت الشمس، ثم حل الظهر، ثم العصر وهناك حوالى مئة شخص يمشطون المنطقة تمشيطاً دقيقاً، ولكننا خرجنا صفر اليدين وكأن الأرض قد انشقت وابتلعت عصابة

كافا الحداد. بدأ جهاز اللاسلكي يرن مرة أخرى، فشغلته وسمعت صوت العقيد رضوان.

قال العقيد: "كف عن البحث الآن ياأشرف. من الواضح أن الرجال قد لاذوا بالفرار. دعهم يذهبون فقد سبق أن قتلت ستة عشر واحداً منهم. لا بد أنهم سيعانون من وقت عصيب ليستعيدوا قوتهم بعد هذه الخسارة الفادحة".

أدركت أنه على حق في كلامه، ولكن هذا لم يمنعني من الشعور بالغضب. فبعد أن ظننت أنني أحكمت قبضتي عليه، تركت جيمشيد الملعون يتسرب من بين أصابعي كما يتسرب الماء وينجو بجلده.

قلت بلهجة توسل: "سيدي، إنني أطلب منك أن تسمح لي بيوم واحد فقط. سألقي القبض عليهم. إنهم هناك في مكان ما. يمكنني أن أشعر بوجودهم".

فقال: "إنني آسف ياأشرف، لقد تلقينا تقريراً بوقوع هجوم على مخفر الشرطة في بلدة طاش، لذا يجب علي أن أسحب الجنود والحراس الذين أرسلتهم إليك".

"خذهم. لدي ما يكفي من الرجال، ولكننا لم ننم منذ ليلة البارحة، لذا أرجو أن تترك لنا أربعة من الحراس ليحرسونا أثناء النوم...".

"يمكنني فقط أن أترك المجندين، ولكنني أحذرك، فهم لم يشاركوا في اشتباك مسلح من قبل. وإن رأوا رصاصاً حسبوه شهباً في السماء".

قلت له: "سوف أكلفهم بالحراسة فقط، هذا كل ما في الأمر. إننا بحاجة لهم لكي يتسنى لنا نيل قسط من الراحة، وهذا كل ما نريده".

وافق العقيد على طلبـي أخيراً، فانسحب الجنود والحراس القادمون من المقر، وأتى حامد ليتحدث إلي قبل أن يغادر.

فقال وهو يضع يده على كتفي: "توخَّ الحذر. لا أريدك أن تصاب بأذى برصاص ذلك الوغد".

""لا تقلق. هذه المرة سأقبض عليه".

انسحبت مع رجالي الاثني عشر والمجندين الأربعة إلى شعب بوينوز حيث نصب الإرهابيون كمينهم. شعرنا بجفوننا مثقلة بالنعاس من فرط التعب وقلة النوم، فاستدعيت المجندين الأربعة وحذرتهم واحداً واحداً:

"سننام نحن على قمة الشعب. وسيقف اثنان منكم في الطريق السفلي، أحدهما إلى اليمين والآخر إلى اليسار، بينما يقف الاثنان الآخران للحراسة عند الصخرة التي على شكل درج. احرصوا على أن تظلوا مختفين

عن الأنظار في ظل الصخور. وعندما تسمعون صوتاً ما، استخدموا مناظيركم الليلية لتعرفوا ما يجري. وإن ساورتكم الشكوك، أطلقوا رصاصة واحدة في الجو وسنهرع لمساعدتكم على الفور".

صاح المجندون بلهفة: "نعم، ياسيدي".

فقلت لهم: "ولا تصرخوا بهذا الصوت المرتفع. لا مزيد من الكلام من الآن فصاعداً".

عثرت ورجالي البالغ عددهم اثني عشر رجلاً على ركن هادئ بين الصخور، حيث أردينا الإرهابيين في الليلة الفائتة قبل أن نتمدد لننال بعض الراحة. وكنا خائري القوى لدرجة أننا استغرقنا في النوم حالما لامست رؤوسنا الأرض.

استيقظت عندما نكزني أحدهم، ففتحت عيني ورأيت رجلاً نحيلاً وطويلاً يقف أمامي، فظننت أنه أحد الحراس.

ففركت عينيّ وقلت: "هل حان الوقت؟".

فقال لي صوت ساخر مألوف: "نعم، حان الوقت. وأخيراً، ها نحن نلتقي، أيها النقيب".

لم يستغرق الأمر مني وقتاً طويلاً لأدرك أن ذلك هو جيمشيد. إذاً، فالرجل الذي أطلقت عليه النار لم يكن هو! نظرت حولي بفزع، ورأيت سبعة رجال واقفين فوق رأسي باعتداد وبنادقهم مسددة نحونا بشكل مباشر. مددت يدي لأصل إلى بندقيتي، ولكنني لم أجدها في المكان الذي وضعتها فيه. تحسست خصري بحثاً عن مسدسي، ولكنهم أخذوه مني على حد سواء. بدؤوا يركلون جنودي واحداً تلو آخر ليوقظوهم. وعندما استيقظ الشبان، أصابتهم الصدمة نفسها التي أصابتني قبل بضع دقائق، فراحوا ينظرون حولهم بعيون مفتوحة على وسعها وهم يتساءلون في سرّهم عما يجري.

سألت قائلاً: "ماذا حدث للحراس؟".

قال جيمشيد وهو يهز رأسه من جانب إلى آخر: "من المؤسف أنك لم تعلمهم أن الاستماع إلى سماعات الأذنين في الجبال ليس فكرة حسنة. لقد دفعوا ثمناً غالياً من أجل حبهم لسماع الموسيقى".

قلت بصوت منخفض كالفحيح: "هل قتلتهم، أيها الوغد؟".

فقال: "نعم، بالضبط كما قتلت ستة عشر رجلاً من رفاقي في الليلة الماضية، ولكن دعنا من هذا. فلا بد أنك خضت الكثير من النـزاعات لتدرك أن حالات الموت تعتبر طبيعية في الحروب. ما أتساءل عنه هو

كيف تشعر في هذه اللحظة؟".

في تلك اللحظة فقط خطر ببالي أنه ينبغي علي أن أشعر بالخوف، ولكن الشيء الغريب في الموضوع هو أنني لم أشعر بأي خوف. فقد خضت وجيمشيد تلك المنافسة وذلك السباق في ما بيننا. فحولت الحرب شجاعتنا وموهبتنا ويقظتنا وذكاءنا إلى نوع من النـزاع الشخصي. وعندما فكرت أنني سأنتصر عليه، أصبح يحتل موقعاً أعلى مني، وذلك الشعور هو ما مزقني إلى أشلاء في داخلي، وطغى على كل شعور آخر، وأنساني إمكانية موتي في أية لحظة.

قلت وأنا أنظر إلى عينيه بشكل مباشر: "دعني أقول لك في حال كنت تتساءل، إنني أشعر بالغثيان والاشمئزاز لمجرد أني لم أمسحك من على وجه الأرض بعد".

اقترب مني، فظننت أنه سيطلق النار علي وهيأت نفسي لذلك، ولكنه لم يفعل، بل اقترب مني وركع بجانبـي، وسألني قائلاً: "لماذا تريد إلى هذا الحد أن تلقي القبض علي؟". وفي تلك اللحظة فقط، لاحظت السبحة التي في يده.

فقلت وبصري مركز على السبحة: "وكأنك أنت أيضاً لم تكن تريد القبض علي؟". ومع ذلك، فقد ألقى جسد جيمشيد بظله على السبحة، فلم أستطع أن أميزها بشكل واضح.

بدأ الرجل يضحك، وعندئذ قرب اليد التي تحمل السبحة من فمه، فرأيت أنها السبحة نفسها التي أحضرها النقيب رشيد لحامد آغا من إيرزوروم، وهذا ما حطمني. فتذكرت كلمات حامد التي قالها لي قبل أن يتركنا وابتسمت بمرارة.

تابع جيمشيد كلامه ظناً منه أن ابتسامتي لها علاقة بالموضوع الذي نناقشه: "أنت محق أيها النقيب. فقد كدت أن أموت أنا أيضاً لأقبض عليك. أظن أن هذا له علاقة بالوجود، وبإثبات المرء لنفسه؛ بالضبط كلعبة ملك القلعة التي اعتدنا أن نلعبها ونحن أطفال. إنها لعبة مثيرة للاهتمام. في البداية، يبني اللاعبون تلاً من الرمال، ثم يقف أحدهم على قمته ويصيح قائلاً: "هذه قلعتي". وبعدها يحاول الأطفال الآخرون أن يدفعوه عنها ويصعدوا عليها بأنفسهم. يبقى الولد الأقوى على قمة التلة، ثم يصيح كما صاح الصديق الذي هزمه قائلاً: "هذه قلعتي". إذاً، ما نلعبه الآن هو نوع من الألعاب مثل لعبة "ملك الجبال". غير أنها نسخة أكثر قسوة ودموية...".

فتحديته قائلاً: "إنني لا ألعب، بل أحاول أن أردع المجرمين أعداء الدولة من أمثالك عن أعمالهم".

فقال لي بصوت يوحي بالملل: "هيا، أيها النقيب. إن رجلاً مثيراً للاهتمام مثلك لا ينبغي أن يتحدث بهذه الطريقة النمطية المكررة".

استغربت من أنه اعتبرني رجلاً مثيراً للاهتمام، وتلك هي المرة الأولى التي أدركت فيها أنه يحترمني، والأغرب من ذلك كله أنني أيضاً في أعماقي شعرت باحترام نحوه، ولكنني حاولت ألا أظهر ذلك.

قلت له بنبرة صوت تدل على الإخلاص: "هذه ليست عبارات مكررة، بل مبادئ وقيم لن أتردد في التضحية بحياتي في سبيلها".

فقال: "حسناً إذاً، يمكنك أن تستمر على طريقتك". واقترب قليلاً، ثم قال: "ولكنني رغم ذلك لا أصدقك. على أية حال... هل تؤمن بالخرافات، أيها النقيب؟".

فقلت: "كلا".

قال لي: "أما أنا فأؤمن بها. على سبيل المثال، إن فريقك يتألف من ثلاثة عشر رجلاً بمن فيهم أنت، ولكنني أعرف أنني لن أستفيد شيئاً من قتلكم جميعاً لأن العدد ثلاثة عشر عدد مشؤوم وينبغي توخي الحذر منه".

أدركت تمام الإدراك أنه لا يؤمن بالخرافات كما يدعي، ولكنني انتظرت بفضول لأرى إلى أين سيصل بكلامه هذا.

"إذاً، في هذه الحالة، يجب علي أن أقتل منكم اثني عشر رجلاً فقط".

بينما هو يتكلم، جلت ببصري على جنودي المحتجزين، فوجدت معظمهم لا يزالون واقفين بوضعية الاستعداد، ولاحظت فقط أن أوروش راح يرتعش. تمنيت أن أساعده وأقوي من عزيمته، ولكن لم يكن بوسعي أن أفعل شيئاً.

تابع جيمشيد قائلاً: "ولكن، لدي شيء آخر يقلقني، وهو أنني لا أحب أن أخلط الأمور. فعلى سبيل المثال، عندما آكل الفاكهة بعد العشاء، فإنني إما آكل المشمش أو الخوخ أو البطيخ ولا أخلط بين عدة أنواع على الإطلاق".

بدأت تلك الكلمات التي لا معنى لها تثير أعصابي، فصحت عليه بغضب قائلاً: "اختصر هذا الهراء". وتعمدت فعل ذلك لأبث شيئاً من الشجاعة في قلوب رجالي.

"ما أحاول قوله هنا هو أنني أود فعلاً أن أقتلك، ولكن لدي هنا مجندين بالإضافة إليك أنت، أي قائدهم. وهكذا، لا يسعني أن أخلط الأمور بقتلكم جميعاً، أي أنت والجنود. فإما أن أقتلك أنت أو أقتل الجنود".

فصحت قائلاً: "إذاً، اقتلني أنا". واندهشت من مدى شجاعتي. فرمقني جيمشيد بنظرة إعجاب طويلة، وقال: "إنني معجب بشجاعتك، ولكنك مجرد رجل واحد، بينما هم اثنا عشر جندياً متمرساً".

شعرت برجالي يصابون بالتوتر. وعندئذ فقط أدركت أن هذه المحادثة تتحول بشكل تدريجي إلى نوع من أنواع التعذيب. فقد أراد جيمشيد أن يقتل كل واحد منا، وهذا مؤكد، ولكن كانت لديه أيضاً كل النية في الاستمتاع بوقته بتعذيبنا قبل أن يضغط على الزناد. توجب علي أن أضع حداً لذلك بطريقة أو بأخرى. فقفزت على قدمي بدون سابق إنذار، وهاجمت جيمشيد، ولكنه تراجع بسرعة إلى الخلف. فسقطت على وجهي على الأرض، وفي اللحظة نفسها شعرت بضربة قوية تصيب رأسي.

وعندما استعدت وعيي، استولى علي صداع رهيب كاد يشق رأسي إلى نصفين، وسمعت صوت أزيز ذباب بجانب أذني. حاولت أن أرفع رأسي، ولكنني شعرت بوجود سائل دبق يكاد يجعل وجهي يلتصق بالصخرة التي تمددت عليها. فأدركت بعد قليل أن السائل عبارة عن دم يسيل من جرح في رأسي. فجلست ببطء، ورأيت سرباً من الذباب يطير مبتعداً عن جسمي، ثم استقرت تلك الذبابات السمينة على بعد بضعة أمتار مني وأجنحتها تلمع في ضوء الشمس. نظرت باتجاه الذباب، وفي تلك اللحظة رأيت جنودي غارقين في برك من الدماء في المكان نفسه الذي قتلنا فيه خمسة عشر إرهابياً في الليلة الفائتة. نهضت مسرعاً على أمل أن يكون بعضهم ربما لا يزالون على قيد الحياة، وتوجهت نحوهم لأتفقدهم، ولكنني وجدتهم جميعاً موتى. لقد قتل جيمشيد وجماعته الجنود جميعهم. رأيت أياديهم مربوطة خلف ظهورهم، وكل واحد منهم مصاب برصاصة في مؤخر عنقه تحت رأسه تماماً. بدأت أضرب قبضة يدي على الصخرة بغضب، ولكنني سرعان ما أصبت بانهيار من فرط التعب. هدأت من روعي، ونهضت مرة أخرى باحثاً عن جهاز اللاسلكي، ولكنني لم أتمكن من العثور عليه في أي مكان. فقد استولوا عليه بالإضافة إلى أسلحتنا. ومع ذلك، فقد تمكنت من العثور على بعض الماء في مطراتنا. فاستخدمت الماء لأغسل وجهي والجرح الذي في رأسي. اتكأت على الصخور لأسند نفسي، ثم اتجهت

في طريقي نـزولاً وأنا أشعر أنني بحال يرثى لها. فقد خسرت الكثير من الدماء، ولكن الغضب الذي احتدم في داخلي أبقاني واقفاً على قدمي. ومع ذلك، فبعد أن قطعت خمسمائة متر، خيم السواد على عيني وسقطت فاقداً وعيي.

عندما صحوت مرة أخرى، وجدت نفسي في مضافة حامد آغا، وهناك رجلان آخران في الغرفة. فقد استطعت أن أسمع صوتيهما. وعندما فتحت عيني، رأيت العقيد "رضوان" و"حامد" جالسين جنباً إلى جنب على نمارق مفروشة على الأرض. وجدت طعم دم جاف في فمي. وكنت قد شعرت بذلك الطعم في فمي منذ استعدت وعيي ووجدت نفسي ممدداً هناك على الصخور، وظل ملازماً لي حتى خلال الفترة التي غبت فيها عن الوعي.

قال حامد وأسنانه الذهبية تلمع في ابتسامة عريضة وقحة: "إذاً، ها قد عدت إلى وعيك أخيراً، أيها الشاب". بدت لمعة ابتسامته لعقلي المخدر أشبه بماسورة بندقية تبرق في الشمس. وفي تلك اللحظة، وبينما أنا أنظر إلى عيني حامد المتذبذبتين وهما تتجنبان النظر إلي، تذكرت كل شيء.

سمعت العقيد رضوان يقول: "آمل أنك تشعر بحال أفضل الآن ياأشرف". ورأيت وجهه مفعماً بالحزن، واستطعت أن أشعر أنه غاضب مني بعض الشيء بسبب ما حدث معي ومع الجنود.

لم أرد على كلامهما، بل قمت بمجرد الاتكاء على يدي ومحاولة دفع نفسي لأنهض عن السرير.

فقال العقيد: "ليست فكرة جيدة أن تنهض الآن".

وقال حامد: "يجب أن تنال قسطاً من الراحة، ياولدي". تردد صدى صوتيهما في أذني كالأزيز الحاد الذي صدر عن أسراب الذباب التي حامت فوق جثث الجنود القتلى. وكلما تحدثا أكثر، ازداد صوت الأزيز ارتفاعاً في أذني، وأصبح طعم الدم في فمي غير محتمل.

مشيت نحو العقيد، ومددت يدي نحوه، فمد يده بدوره ظناً منه أنني أريد الإمساك بيده، ولكنني بدلاً من ذلك نـزعت مسدسه بسرعة من حزامه. ولم يستغرق مني الأمر سوى بضع ثوان لأزيل مسمار الأمان وأضع الطلقات في المشط ثم أفرغها كلها في رأس حامد. قفز العقيد وهو في حالة صدمة وبدأ يصرخ برعب: "ما الذي فعلته ياأشرف؟!". وظن أنني فقدت صوابـي، وأردت أن أقتله هو أيضاً، ولكنني أدرت المسدس وسلمته إليه.

قلت: "إنه مسؤول عن مقتل جنودي. حامد آغا هو الخائن بيننا. قم

بتفتيش بيته، وأراهن بأنك ستعثر على إرهابـي مصاب بطلق ناري في ركبته. اعثر عليه وهو سيخبرك كل شيء".

فقدت وعيي مرة أخرى بينما أنا أنظر إلى وجه العقيد الذي تلوت ملامحه بتعبير من الرعب وعدم التصديق.

"عندما استعدت وعيي هذه المرة، ووجدت نفسي في المستشفى بعد أن أمضيت يومين وليلتين وأنا أهذي في نومي قائلاً: "حامد سيقتل جنودي. لا تدعوا جيمشيد ينجو بجلده". حضر العقيد لمقابلتي بعد الظهر. وقال لي إنهم عثروا على الإرهابـي الجريح في غرفة نوم زوجات حامد آغا فحققوا معه بشيء من القسوة، واعترف بتعاون حامد مع الانفصاليين. وأضاف العقيد بصوت حزين إنه لا يزال عليهم فتح تحقيق بخصوصي لأنني أطلقت النار على حامد من دون التحقيق معه أو استجوابه على الإطلاق، ولكن ذلك لم يشكل أية أهمية البتة بالنسبة لي. فقد ظل ذهني مشغولاً بجيمشيد، وقررت أن أبحث عنه وأنتقم لجنودي حتى لو تم فصلي من الخدمة. فقد أدركت أنني لن أعيش بسلام طالما بقي هو على قيد الحياة، ولكن ذلك لم يحدث لأن جيمشيد وستة من رجاله ألقي القبض عليهم أمواتاً بعد أن قتلتهم مروحية من طراز كوبرا على جبل الجودي قبل أن يحين وقت خروجي من المستشفى. وعندما سمعت نبأ موته، شعرت بنوع من الخواء في داخلي؛ وكأنني خسرت هدفي في الحياة ورغبتي بالعيش، وظل صدى صوته يرن في أذني:

"إذاً، ما نلعبه نوع من الألعاب كلعبة "ملك الجبال"، غير أنها نسخة أشد قسوة ودموية".

وفي ذلك الوقت، عرفت السبب الذي جعلني أشعر بهذا النوع من الخواء في أعماقي، وهو أنني خسرت رفيقي في اللعب. وهذا هو السبب الذي جعله يمتنع عن قتلي، فهو لم يرغب بخسارة رفيقه في اللعب على حد سواء. ظللت أفكر به إلى أن سمحوا لي بالخروج من المستشفى...

أعلنت المحكمة براءتي من التهمة الموجهة إلي، ولكنني بدأت أتصرف تصرفات غريبة. فقد عجزت عن النوم، وأصبحت أسهر وأمشي في الأنحاء لأيام إلى أن أنهار من فرط الإرهاق، ثم أعيش كل اللحظات التي حدثت معي في شعب بوينوز مرة أخرى. فتم إدخالي إلى المستشفى من جديد؛ ولكن هذه المرة إلى قسم الطب النفسي، فأعطوني بعض الحبوب والعلاجات لكي أتمكن من الحصول على بعض النوم، وحثوني على الكلام والإفصاح عما في نفسي. فقدم لي الكلام فائدة كبيرة. بقيت في المستشفى حوالى شهر من

الزمن، إلى أن قال لي الأطباء إنني أصبحت في حالة طبيعية، ولكن رؤسائي قالوا إن وجودي في الخطوط الأمامية لم يعد مجدياً بعد الآن. واقترحوا نقلي إلى إسطنبول، ولكنني لم أوافق على ذلك، لذا انتهى بـي المطاف هنا؛ ليس في الخطوط الأمامية تماماً ولكن قريباً من جبهة الحرب".

سألت إسراء متحدثة للمرة الأولى منذ أن بدأ النقيب بسرد قصته: "وماذا عن زوجتك؟ ماذا فعلت؟".

فقال أشرف: "لقد برهن زواجي كزواجك أنت على أنه سوء حظ كبير. وساهمت ولادة ابنتي غولين في زيادة الحظ سوءاً. فقد حزنت زوجتي كثيراً لسماع نبأ نقلي إلى شيرناك. طلبتُ منها أن تأتي معي، ولكنها قالت إنها لا تستطيع أن تعرض نفسها وتعرض ابنتنا لكل هذا الخطر، فوافقتها الرأي وغادرت إلى شيرناك بمفردي. وأصبحت أذهب لرؤيتهما كلما سنحت الفرصة لذلك، ولكن النـزاع حمي في المنطقة في ما بعد، ولم يعد بوسعي الذهاب للزيارة. فبدأت زوجتي تبكي عبر الهاتف وتطلب مني أن أوسّط بعض الأشخاص ليساعدوا في نقلي إلى إسطنبول، ولكنني رفضت أن أذهب إلى رئيسي وأطلب منه طلباً من هذا النوع. فقد كان جدي جندياً جديراً بالاحترام، ولطالما أردت أن أتخذه مثلاً أعلى لي عندما التحقت بالقوات المسلحة. لذا، رفضت أن أتصرف بأنانية في الوقت الذي يستشهد فيه الكثير من فتيان بلادنا دفاعاً عن وطنهم. لم أستطع فعل ذلك حتى لو رغبت به، ولكن زوجتي لم تدرك الحقيقة. وعندما تعرضت للإصابة، حضرت إلى المستشفى لرؤيتي، وبدأت تلقي علي المحاضرات وتقول: "أترى؟ لقد قلت لك. كدت أن تتعرض للقتل. حالما تخرج من المستشفى، اطلب نقلك إلى إسطنبول". وعندما قالت هذا، تذكرت كيف مزق المجندون الشهداء دفاتر الفجر التي أعطيت لهم. إن الفجر هو اللقب الذي يطلقه الجنود على اليوم الذي يتم تسريحهم فيه من الخدمة العسكرية. وكل جندي لديه دفتر فجر يضع فيه إشارة على كل يوم يمر من أيام خدمته. والجميع يعرف جيداً جداً اليوم الذي سيرى فيه طلوع الفجر. وعندما أسست مجموعتي في بداية الأمر، أتى المجندون إلي وقالوا: "لقد قررنا، ياسيدي، أن نمزق دفاتر الفجر". وعندما سألتهم عن السبب، قالوا إنها تسبب لهم الارتباك.

وهكذا، عندما تذكرت كيف مزق جنودي دفاترهم، بدأت كلمات زوجتي تثير أعصابـي. فطلبت من طبيبـي ألا يسمح لها بمقابلتي بعد الآن. وبمعنى آخر، ساهمت في طردها من المستشفى بأسلوب مهذب. ففهمت

قصدي بالطبع، ولم تعد علاقتنا جيدة منذ ذلك الحين. إنني أرسل لها المال كل شهر، وأذهب لرؤية ابنتي فقط لا غير. من ناحية عملية، لقد انتهى زواجنا إلى الأبد. في بعض الأحيان، يجب علي أن أعترف أنها ليست بالفعل امرأة سيئة. أعني أن الشيء الوحيد الذي تريده المرأة المسكينة هو أن تبقي زوجها إلى جانبها وأن تحظى بحياة سعيدة، ولكن ليس بيدي حيلة. فالظروف في حياتي هي ما منعني من أن أصبح ذلك النوع من الرجال...".

التزم أشرف الصمت، وأخذ نفسين عميقين من سيجارته. فمدت إسراء يدها وأمسكت بيده.

"لقد مررت بالكثير من التجارب المرعبة... ولكنك صمدت في وجهها بشجاعة. أي شخص آخر في مكانك كان سيفقد صوابه".

ركز أشرف بصره على عيني إسراء اللتين لم يستطع أن يميزهما بشكل واضح في الظلام.

"لم أقص عليك هذه القصص لكي تعرفي الظروف التي مررت بها، بل لتدركي أن الانفصاليين خطرون وماكرون. لديهم اتصالات مع السكان لا ينبغي الاستخفاف بها أبداً. ولديهم قادة موهوبون، وقوات مستعدة للموت وللقتل، وقادرة على ارتكاب شتى أنواع الأعمال القذرة لتصل إلى أهدافها. وإن تولد لديهم الاعتقاد بأن هناك إمكانية لوجود دعم قوي في القرى الأرمنية السابقة، فلن يترددوا في الانتقام للجرائم التي ارتكبت قبل ثمانية وسبعين عاماً إن اعتقدوا أن هذا يدعم قضيتهم".

لم تعرف إسراء ماذا يجب أن تقول. فقد وجدت ما قاله لها مدهشاً، ولكن من المؤكد أنه لم يضع حداً لشكوكها، والأسوأ من كل ذلك هو أنها لم تستطع أن تتحلى بالشجاعة الكافية لتقول لأشرف إن ما قاله لها لم يثبت أي شيء بشكل قطعي. فتابعت التربيت على اليد القوية لذلك الجندي ذي الروح الجريحة وهي تشعر في أعماقها بكل ألمه ومعاناته.

á á á

اللوح الحادي والعشرون

شاركني جميع من في المدينة ألمي ومأساتي. فلم يجعلني موت أبي كبير كتبة القصر، ولكنه أضفى عليّ شهرة غير مستحقة بين النبلاء والناس. فقد أصبح من يمشي في الشارع يتعرف عليّ على أنني ابن آراراس الرجل الذي أنقذ مدينته من خلال تضحيته بحياته. وأصبح كل من يراني يأتي إليّ، ويمدح والدي وفضائله، وينصحني بالتحلي بالشجاعة والحكمة اللتين تحلى بهما الراحل. وهكذا، بدأت أؤدي واجباتي ككاتب في القصر متحلياً بصفات والدي الكريمة بما فيها الحماسة والشرف.

في اليوم الأول لي ككاتب للقصر، استدعاني الملك بيزيريس لأمثل بين يديه. فتحدث إليّ بينما جلست الملكة تستمع.

وقال: "ليس احترامنا لوالدك السبب الوحيد الذي دفعنا لتعيينك كبيراً لكتبة القصر. وليس السبب هو نسبك وانتماءك لعائلة عمل أسلافها كتبة للقصر على مدى أجيال عديدة. بل إن السبب الذي يجعلنا نريد وجودك بيننا في قصرنا بشكل دائم هو أنك أحد أفضل شبان البلد تعليماً وثقافة وتدريباً. إن مدح الشبان عادة يفسدهم ويضلل طريقهم، ولكننا نعرفك حق المعرفة. فأنت تتحلى بالاستقامة الأخلاقية بالإضافة إلى العلم والمعرفة. كل من عملوا على تنشئتك ساهموا في منحك العلم بشكل سليم وصحيح. وإلى جانب المعرفة التي نقلوها إليك، علموك كيف تستخدم تلك المعرفة. وهكذا، فإننا مسرورون كل السرور لوجودك بيننا".

بعد هذا الخطاب، باشرت العمل في منصبي الجديد ككاتب في القصر؛ المنصب الذي استعددت له منذ نعومة أظفاري عندما تدربت على يد جدي ميتانوا ثم والدي آراراس. علمني والدي أن عمل المرء ككاتب يتطلب منه بذل الكثير من التضحيات. فقد قال لي ذات مرة: "لكي تؤدي واجبك على أكمل وجه، يجب عليك أن تتخلى عن كل شيء يثبط من عزيمتك". تولد لدي خوف كبير عندما بدأت عملي ككاتب، والسبب الأوّل هو مساعد والدي لايماس الذي توقعت منه أن يحاول إضعاف مكانتي بسبب غيرته، وثانيهما هو علاقتي بأشمونيكال.

أما سبب خوفي الأول، فقد تلاشى من تلقاء نفسه. إذ لم يتظاهر لايماس أو يبدي أي دليل على شعوره بالإهانة. وبدلاً من ذلك، فقد تنحى جانباً، وسمح لي بعرض علمي وخبرتي ومواهبي، وقدّم لي الكثير من الدعم. في الحقيقة، لقد تصرف بتهذيب واحترام أكثر من اللازم. وكان هناك بلا

شك سبب وجيه لهذا السلوك من جانبه، ولكنني أنا، باتاسانا الساذج، فسرت سلوكه على أنه دليل على الاحترام الذي يكنه لايماس لذكرى والدي الراحل.

أما بالنسبة إلى سبب خوفي الثاني والعاطفة التي لم يعد بوسعي العيش من دونها وحبي الأول وحبيبتي الأولى وقرة عيني أشمونيكال، فلم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً حتى وصل إليها خبر عودتي إلى القصر. ذات صباح، وجدتها جالسة على مقعد في المكتبة تقرأ أسطورة تيليبينو. فنظرت إلي بعينيها السوداوين الثاقبتين. كلا، لم تكن نظرة إدانة. صحيحٌ أن نظرة عينيها لم تخلُ من اللوم، إلا أنني وجدت فيهما توقاً وعاطفة ولهفة أكثر من كل شيء. جعلتني تلك النظرة أنسى واجبي وهويتي ومكاني. فجلست إلى جانبها على الفور. كان الوقت لا يزال مبكراً، ولم يكن ثمة أحد آخر في المكتبة. فلمست شعري، ونظرت إليّ بعناية وحب وعاطفة، وكأنها تحاول أن تحفظ كل خط وكل تعريجة وكل لون في ملامحي، وكأنها لن ترى وجهي مرة أخرى. وفجأة، ابتعدت عني وقالت لي بلهجة مفعمة بالخوف: "لقد تغيرت".

فهمت أشمونيكال نيتي، وشعرت بالكلمات التي أوشكت على قولها، وهي: "يجب علينا أن ننهي هذه العلاقة. لا يسعني أن أخون الملك، ولا أن ألوث الشرف الذي منحني إياه والدي كأنه خرق بالية". ولكنني تظاهرت بأنني لم أفهم شيئاً.

فقلت: "لقد حدث الكثير".

أشرقت عيناها الداكنتان الكبيرتان كمياه بركة ساكنة، وقالت: "إنني شديدة الحزن لموت والدك".

فقلت لها: "إنه قدره، ولا يمكن عمل أي شيء لمنعه".

أوحت لي تصرفاتها بأنها تقبلت ما أردت قوله لها قبل أن أقوله وكأنها تنحني لقدرها، ولكنها لم تستطع أن تبعد عينيها المفعمتين بالحب والتوق عن وجهي؛ وبدت مثل غزال أصابته رمية سهم من صياد ماهر ويقوم بمحاولة أخيرة للوقوف والتشبث بالحياة. هكذا تصرفت أشمونيكال في تلك اللحظة وهي توجه لي كلامها وتهز رأسها من جانب لآخر.

فقد قالت لي وهي تتأوه بعمق: "لقد تغيرت كثيراً، يا باتاسانا. فقد وجهك براءته وانطفأ النور الذي لطالما اتقد في عينيك. أنت تنظر إليّ الآن وكأنك خروف ميت. هل انطفأت النار التي في روحك؟ أم إنها متوارية في مكان ما خلف هذا الوجه الأبيض الشاحب الذي يبدو أشبه بتمثال من

عمل نحات عديم الموهبة؟

لقد كبرت في السن ياباتاسانا. فالخطوط التي على وجهك ازدادت عمقاً، وباتت شفتاك اللتان لطالما تلهفتا للابتسام الآن تخجلان من الشعور بالفرح. تبدو كمن يحمل عبء العالم كله على كتفيه. وحل محل خجلك الجميل العذب فتور لا ينتهي. وبات جسدك المفعم بالحيوية هزيلاً كجسد مهر مريض، وبطيئاً كسلحفاة عجوز.

لقد نسيتني ياباتاسانا. ولم يعد وجودي يبعث أي بهجة في نفسك. إنك تنظر إليّ الآن وكأنك تنظر إلى لوح من الألواح. ولم يعد صوتي يختلف بالنسبة إليك عن صوت أية امرأة أخرى في القصر. لقد نـزعتني من قلبك كما ينتزع قروي الأعشاب الضارة من حقله ويقتلعها من جذورها".

أردت أن أخبر أشمونيكال الباكية أن ذلك ليس صحيحاً، وأنني لا أزال أحبها بجنون من كل قلبـي وروحي، وأنني أتلوى من شدة الحزن والألم. أردت أن أخاطبها بتلك الكلمات التي قالها والدي قبل رحيله: "كما يجلب نهر الفرات الوفرة والخصب لأرضنا، وتمنح سنابل القمح الحبوب، وتمنح شجرة المشمس حبات المشمش، وتعطينا الخراف اللحم والحليب، فالملك يحكم هذه البلاد والجنود يقاتلون، لذا أنا أيضاً لدي واجب علي أن أؤديه. وهكذا، فأنا حفيد ميتانوا وابن آراراس؛ باتاسانا، لا يمكنني التخلي عن واجبـي من أجل الحب، ولكنك ستظلين في قلبـي كجرح لا يمكن أن يندمل، وكالشوق المؤلم المتنامي الذي يشعر به مسافر عاجز عن الوصول إلى وطنه، والأمل الذي لا يذوي لسجين يحلم بنيل حريته، ولكن من المحتم عليه الموت حسرة وألماً". ولكنني لم أستطع أن أتفوه بهذه الكلمات. وأصغيت إلى أشمونيكال بصمت، بينما سمحت لألم أشد عمقاً من حزنها وألمها أن يمزق قلبـي إلى أشلاء متناثرة.

لقد تخليت عن تلك النعمة الأثيرية والسعادة التي كادت أن تصبح من نصيبـي إكراماً للمهنة التي زاولها أسلافي منذ أجيال، ومن أجل حماية شرف الملك، ومن أجل البلد. خنت نفسي وخنت لحظات شبابـي؛ تلك اللحظات الثمينة التي من المحال استعادتها. فعلت ما لا ينبغي عليّ فعله. وانتهيت حيث لا ينبغي عليّ أن أنتهي. وفي سرداب الظلام، حبست رياح حديقتي المعطرة، ونـزعت من قلبـي ذلك الفرح الرائع، وتركت جسدي قاحلاً وجافاً ككوب شراب فارغ. أدركت فداحة الخيانة التي ارتكبتها، لهذا السبب وبينما كنت أنظر إلى عيني أشمونيكال المفعمتين بالحزن، استطعت

أن أتفوه بكلمة واحدة فقط من بين شفتي المرتعشتين.

"سامحيني".

تلك هي الكلمة الوحيدة التي استطعت قولها.

"سامحيني".

لم تتفوه أشمونيكال بحرف واحد، بل تركتني وحدي مع يأسي وواجبي وخيانتي لذاتي ورحلت بهدوء. لم أصادفها مرة أخرى قبل مضي عامين كاملين؛ حيث توسلت إليها وأنا راكع تحت قدميها في الغرفة الصغيرة نفسها في المكتبة.

á á á

الفصل الثاني والعشرون

اجتمع أفراد فريق التنقيب عن الآثار في الغرفة الصغيرة في المكتبة. وراح بيرند يلامس بحنان القطع المفتتة من الحجارة المتناثرة فوق التراب، وقال: "لا شك بذلك. هذه هي بقايا الجدار الذي أخفى المكان الذي اتخذه باتاسانا مخبأ لألواحه".

كان موقع التنقيب عن الآثار مقسماً إلى شبكة مربعات بعرض خمسة أمتار وطول خمسة أمتار، وفي أحد هذه المربعات، وهو المربع D5 ، والذي صادف موقعه في الزاوية اليمنى من الغرفة الصغيرة التي كتب فيها باتاسانا ألواحه، عثروا على دليل على وجود جدارين متهدمين.

فقال مراد وهو يمسح العرق عن جبينه: "أتعني أن هذا هو المكان الذي خبأ فيه باتاسانا ألواحه؟".

فقال تيموثي رداً على سؤال طالب الآثار الشاب: "بكل تأكيد. يمكننا أن نفهم من الألواح الأولى مدى خوف باتاسانا لأنه كتب كلاماً يتضمن معلومات على قدر كبير من الخطورة في ظل الظروف التي كانت سائدة في تلك الفترة. ولا بد أن باتاسانا عمل على بناء هذا القسم السري في المكتبة لأنه خشي من أن يفتضح أحد أمر ألواحه... وهذا يفسر أيضاً السبب في أننا عثرنا على الألواح جملة واحدة".

أضافت إسراء: "وهذا هو السبب الذي جعل الألواح منيعة أمام التحلل أيضاً. فلا بد أن هذه الجدران قد حمت الألواح ليس فقط من الناس بل أيضاً من الحرائق والزلازل".

ركعت إسراء على ركبتيها وهي تعتمر قبعتها وتمسك نظارتها بيدها بجانب الرجال الثلاثة الذين كانوا يتفحصون بقايا الجدار الرقيق. وكانت قد عادت إلى الموقع في وقت متأخر من الليلة الفائتة، فوجدت الجميع نائمين باستثناء خلف. في الواقع، سرت لذلك؛ لأنه أراحها من التعرض لنظرات اللوم من زملائها والرد على أسئلتهم الفضولية بأكاذيب تافهة. ورغم أنها شعرت بالفضول لكي تكتشف أي معلومات ربما يعرفها خلف عن الجرائم التي تم ارتكابها قبل ثمانية وسبعين عاماً، إلا أنها شعرت بإرهاق شديد لدرجة أنها لم تجد في نفسها القوة الكافية لتطرح عليه أي سؤال. فهي لم تتمكن من نيل كفايتها من النوم في المستشفى في الليلة الفائتة، وزادت سهرتها مع أشرف من تعبها وإرهاقها، فغلبها النوم بسرعة حالما تمددت على سريرها. وعانت إسراء التي لطالما اعتادت على الاستيقاظ قبل الآخرين،

من وقت عصيب في الاستيقاظ صباحاً. فلم تشعر بأي رغبة في النهوض من نومها، ولكن بعد أن دق خلف على بابها عدة مرات، ونادها بصوته العميق مرتين قائلاً: "الفطور جاهز ياسيدة إسراء". لم يعد لديها أي خيار آخر، لذا أجبرت نفسها على النهوض من السرير. وغسلت وجهها، وعدّلت هندامها بعض الشيء قبل أن تتوجه لتناول فطورها، ولكنها شعرت أن النعاس لا يزال يثقل جفنيها. وعندما وصلت إلى طاولة الفطور ووجدت الفريق بكامله ينتظرها، شعرت بقلبها يمتلئ بشعور غريب يتراوح بين الخزي والتوق. وفي تلك اللحظة، أدركت أنها على الرغم من كل الجدالات التافهة التي دارت بينهم بدأت تشكل رابطة حقيقية مع هؤلاء الناس على مدى الأسابيع الطويلة التي أمضوها معاً في الموقع.

حالما جلست إسراء لتنضم إليهم، بدؤوا يطرحون عليها أسئلة عن النـزاع الذي دار في الليلة الفائتة، وتملكهم الفضول لسماع ما قاله النقيب حول الموضوع. فلخصت لهم إسراء المحادثة التي دارت بينها وبين النقيب، ولكن ما أثار استغرابها هو أن أحداً منهم لم يبد أي تعليق باستثناء تيومان.

فقد قال بصوت متمرد: "آمل أن يكون النقيب محقاً في كلامه. فقد نلنا كفايتنا من هذه الجرائم اليومية".

غيَّر بيرند الموضوع، وسألها عن صحة إيلاف. فحكت لهم إسراء عن الوضع في المستشفى، وقالت إنها تحدثت إلى كمال آخر مرة عبر الهاتف في الليلة الفائتة، فقال لها إن حالة إيلاف تحسنت، وإن ديفيد سمح لها بالخروج من المستشفى صباح ذلك اليوم. عندما أصبحت إيلاف موضوع الحديث، وجدت إسراء نفسها توجِّه بصرها إلى تيموثي، ولكن بدا على الأمريكي عدم الاكتراث بالموضوع. لم تستطع أن تحدد إن كان يدّعي عدم الاكتراث، أم إن كان قد قرر ألا يتابع علاقته المقربة مع إيلاف ليتجنب المزيد من المشاكل بين أفراد الفريق. تمنت إسراء أن يكون الاحتمال الأخير هو الصحيح، بينما واصلت طرح أسئلتها عن كيفية سير عملية التنقيب عن الآثار في اليوم الفائت. فأخبرها تيموثي أنهم لم يحظوا بيوم وفير الإنتاج. فقد اكتشفوا لوحاً واحداً فقط، ولكنه بدا مختلفاً عن البقية. فقد وجدوا على خلفية اللوح ملخصاً عن كتابات باتاسانا، وهذا يدل على أنه اللوح الأخير. وكانوا حتى الآن قد اكتشفوا عشرين لوحاً، وهذا يعني وجود ثمانية ألواح لم يكشف النقاب عنها بعد. لم يسع بيرند إلا أن يدلي بدلوه في الموضوع، فأشار إلى أن أهمية اكتشاف اللوح الأخير، وقال إنه لا ينبغي

الاستخفاف به على الإطلاق. فرغم أنهم لم يكتشفوا الألواح الثمانية المتبقية بعد، إلاّ أن فرص العثور على كامل كتابات باتاسانا تبقى مرتفعة. وكانت تلك هي المرة الأولى التي ترى فيها إسراء زميلها الألماني شغوفاً إلى هذا الحد. وبينما هي تصغي إليه، بدأت تفكر بأنها أخطأت في حقه. فكيف يمكن لشخص مخلص لمهنته إلى هذا الحد أن يكون مسؤولاً عن جريمتين مروعتين بهذا الشكل؟ ولكن، ماذا عن المعلومات التي عرفتها من نيكولاس في اليوم الفائت؟ في الواقع، ما عرفته لا يشير بإصبع الاتهام إلى بيرند. فكيف يمكنها أن تتهم أي رجل بالقتل لمجرد حساسيته حيال مسألة مذبحة الأرمن؟ بينما دارت تلك الأفكار برأسها، استمر بيرند بزف الأخبار المفرحة. فقد اتصل البروفسور كرينشر عدة مرات خلال اليوم الفائت ليقول إن مجموعة من حوالى ثلاثين صحفياً، بمن فيهم مراسلون من الصحف الكبرى ووكالات الأنباء المهمة- مثل سي إن إن وبـي بـي سي ورويترز- أكدوا مشاركتهم في المؤتمر الصحفي، وإن فريقاً من ثلاثة أشخاص يقوده مساعد كرينشر السيد جوتشيم سيصل إلى غازي عنتاب بالطائرة في تلك الليلة ليبدأ بالتحضيرات الأولية للمؤتمر. في الواقع، تمت دعوة أستاذة إسراء السيدة بيهايس للمشاركة في الفريق على حد سواء، ولكن تلك المرأة المسكينة اضطرت للدخول إلى المستشفى بسبب إصابتها بنـزيف في المعدة، وهذا يعني أن إسراء ستكون الممثلة الوحيدة لجامعتها. حزنت إسراء لدى سماعها خبر مرض أستاذتها، ولكنها سرت حين وجدت أن التحضيرات للمؤتمر بدأت تتخذ خطوات متسارعة. وأدركت أن الوقت لم يعد لصالحهم، لذا توجب عليهم التصرف على جناح السرعة. لذا، قررت إسراء أن تجلس مع بيرند وتيموثي في أقرب فرصة، ليقوموا معاً بتوزيع المهام من أجل المؤتمر الصحفي. كما قررت التحدث إلى العمدة السيد أديب ليحرص على توفير أفضل إقامة ممكنة للصحفيين القادمين في جولة سياحية في المدينة القديمة. ومع ذلك، لم يسعها إلا أن تتساءل عما حدث في جنازة الحاج عبد الستار. وكان تيومان ومراد قد حضرا الجنازة، وأخبرا إسراء بكل ما جرى، وقالا إن عدداً كبيراً من الناس قد احتشد في الجنازة، وذلك بسبب محبة أهالي المنطقة للحاج عبد الستار، لذا حضر الجميع لتقديم التعازي وتشييع الحاج إلى مثواه الأخير. ورافق أفراد من عائلتي ترك أوغلو وجينشيلي التابوت طوال الطريق إلى المقبرة، إلا أنهم حاولوا الحفاظ على مسافة بينهم خلال فترة الجنازة. ومع ذلك، فما شعرت إسراء بالفضول حوله هو كيفية تصرف أولئك الحاضرين في الجنازة حيال وجود تيومان ومراد، ولكن

لم يحدث أي شيء سيئ من تلك الناحية على حد سواء. فقد عاملهم الجميع معاملة حسنة، بمن فيهم ابنا الحاج عبد الستار اللذان صافحاهما وشكراهما على حضورهما. ومع ذلك، فالحاج عابد وفياض وحدهما مشيا خلف الرجلين طوال الوقت وهما ينظران إليهما بعين الغضب، ولكنهما لم يزعجاهما بالكلام أو بأي أسلوب آخر.

أدخلت تلك الأخبار الجيدة بعض الراحة على نفس إسراء في ما يتعلق بالجريمتين. فقد وجدت أن كل شيء بدأ يعود إلى نصابه، وأدركت أن الأمور ليست سيئة بقدر ما خشيت، ولكن حالما تدخل الفكرة إلى رأسها فإنها لا تفارقه. فربما كان أشرف محقاً طوال الوقت، وربما يكون محمود وصديقه اللذين ارتكبا الجريمتين، أو ربما... بينما راحت تلك الأفكار تدور برأسها، حاولت إسراء أن تسترخي وهم في طريقهم إلى موقع التنقيب عن الآثار.

كشفت بضع ساعات من العمل في المكتبة ليس عن وجود جدار رقيق في الزاوية اليمنى من الغرفة الصغيرة وحسب، بل عن وجود جدارين اثنين؛ مما أثبت بالدليل القاطع وجود الحجرة السرية. وهكذا، ظهرت ألواح باتاسانا من هذه الحجرة السرية المدفونة تحت المكتبة المنهارة. ومع ذلك، لم يدرك أفراد الفريق هذا إلى أن اكتشفوا الجدارين الرقيقين. فأجاب اكتشافهما عن سؤال ظل يحير فريق التنقيب عن الآثار لأيام عديدة. إذ إنّ الاعتقاد السائد هو أن هذه المدينة الأثرية تمت السيطرة عليها على يد الآشوريين في عام 719 قبل الميلاد، وأن حكام المدينة الجدد عملوا على نفي جميع السكان الحثيين الذين عاشوا هناك لقرون، ثم واصلوا إضفاء الطابع الآشوري على المدينة؛ وهذا يعني أن ألفين وسبعمائة سنة قد مرت على الأقل على كتابة الألواح، ولكن السؤال الذي لم يستطع أفراد الفريق العثور على إجابة فعلية له هو السبب الذي منع من اكتشاف ألواح باتاسانا حتى تلك اللحظة. بعد الحثيين، تم احتلال هذا الموقع من قبل حضارات عديدة ومتنوعة من الآشوريين وحتى الرومان. إذاً، لماذا لم يتمكن أي منهم من العثور على ألواح باتاسانا؟ وهكذا، زوّدهما الجداران اللذان يخفيان الحجرة بالإجابة عن هذا السؤال بحد ذاته.

صاح مراد بانفعال قائلاً: "يا للروعة! هذا يعني أننا أول من يلمس هذه الألواح بعد باتاسانا نفسه!".

قالت إسراء وهناك ابتسامة فخر مرسومة على وجهها: "هذا صحيح. ولكن، هل كان باتاسانا سيكتب هذه الألواح لو عرف كم سيمضي من

الوقت قبل أن يقرأها أحد؟ هذا ما لا أعرفه".

قال تيموثي وهناك نظرة حالمة في عينيه الداكنتين: "نعم، كان سيفعل ذلك. لقد عاش ذلك الرجل مأساة كبرى، فحثته روح الشاعر في داخله على مشاطرة تجاربه مع الآخرين، وهذا بطريقة ما سمح له بالتغلب على تجاربه القاسية، وعزل نفسه عن كل ما عانى منه من آلام. يمكننا أن نسمّي هذا نوعاً من المواجهة؛ المواجهة مع نفسه ومع مخاوفه وخزيه وأخطائه، ولكنه في الوقت نفسه نوع من تصفية الحسابات مع الملوك القساة والآلهة الظالمة التي كانت أقوى منه بكثير، وذلك النوعُ من المواجهة المباشرة وتصفية الحسابات الشجاعة هو التصرف الذي ظن أنه سيمنح روحه السلام والطمأنينة. إنني أظن أن باتاسانا كان سيكتب هذه الألواح حتى لو علِم علْم اليقين أن أحداً لن يقرأها. فالحياة لم تترك له خياراً آخر".

حدق مراد بتيموثي وعلى وجهه تعبير يدل على الدهشة؛ وكأنه رأى لتوه أغرب شيء على الإطلاق...

وتمتم برهبة قائلاً: "إنك تفهمه جيداً بالفعل".

لم يستطع خبير الآثار الأمريكي أن يمنع نفسه من التساؤل قائلاً: "ما المشكلة يامراد؟ تبدو وكأنك رأيت الشيطان بحد ذاته".

تحرك الشاب حركة مفاجئة وكأن أحداً ما أيقظه بوقاحة من نومه، وقال وهو يبتسم ابتسامة بريئة: "آه، كلا، لا شيء. فقد ظهر باتاسانا للتو أمام عيني وهذا كل شيء".

أجاب تيموثي بتعبير خبيث على وجهه: "هيا، اعترف إذاً. لا بد أنك تظن أن باتاسانا قد استولى على روحي".

"لماذا قد يخطر ببالك شيء من هذا النوع، ياتيم؟". وراح ينظر إلى إسراء بطرف عينه خشية إثارة غضب مديرة الحملة، ثم قال: "لم أفكر بشيء من هذا القبيل".

سمحت إسراء لنفسها بابتسامة، فشجع هذا الشاب وجعله يحاول تجربة حظه.

"حسناً، في الواقع، لم أفكر أن باتاسانا قد استولى على روحك، ولكن هناك ذلك الشيء الذي يدعونه التناسخ...".

قالت إسراء: "لا سبيل لإصلاح هذا الفتى. فلولا القليل من الخجل، لأطلق على تيم اسم باتاسانا".

ارتسمت ابتسامة جدية على وجه تيموثي، وقال: "هذا شرف لي. إن

ألواح هذا الرجل لا تزال قادرة على أن تحرك اهتمام العالم بعد مرور أكثر من ألفين وسبعمائة سنة على كتابتها. أما نحن، فسوف نموت ويطوينا النسيان".

فانفجر الأربعة في ضحك مدوٍّ.

وقالت إسراء بعد أن لكمت "مراد" على كتفه لكمة ودية: "كف عن الثرثرة الآن. واذهب وأخبرهم أن وقت العمل قد حان". وأشارت برأسها إلى العمال الذين جلسوا للاستراحة والتدخين تحت شجرة التين الكبيرة.

تمتمت إسراء بينما شق مراد طريقه نحو شجرة التين: "إنه أحياناً لا يطاق".

قال تيموثي: "لا يزال يافعاً جداً. ذات يوم، سيفهم العالم بشكل أفضل". ورمق "مراد" بنظرة تعاطف وهو يمشي مبتعداً عنهم.

قال بيرند: "أشك بهذا". وكان قد تابع المحادثة بصمت حتى تلك اللحظة، ثم قال: "لا يبدو على مراد أنه سيتغير في القريب العاجل. ولكن ليس مراد وحده؛ ففي ألمانيا هناك شباب كثر مثله مهتمون بما يسمونه بالبعد الرابع".

فقال تيموثي: "حسناً، إنهم ليسوا بعيدين عن الواقع. فهل ذنبهم أن واقع العالم في يومنا هذا ممل ورتيب؟".

قالت إسراء: "لست أكترث لمعرفة صاحب الذنب في هذا الأمر. ولكن، إن راح أحد أفراد فريقي للتنقيب عن الآثار يعبث بعقول الآخرين بأحاديث عن الأشباح والأرواح ولعنات القبور، فسوف يجد نفسه مصروفاً من هذه المهمة في الحال".

بدأ تيموثي يضحك، والتفت إلى بيرند وقال: "أتفق معك. فلا شيء على وجه الأرض أهم من مهمة التنقيب عن الآثار".

ارتسم تعبير شديد العذوبة على وجه الرجل الأمريكي؛ لدرجة أن إسراء لم تستطع أن تمنع نفسها من الابتسام.

وقالت: "فسرا الكلام كما تشاءان أيها السيدان. ولكن، أمامنا يومان فقط على موعد المؤتمر الصحفي، وليست لدينا ثانية واحدة لنضيعها بالحديث عن عالم الأرواح".

رغم أن نبرة المزاح في حديث إسراء لم تغب عن ملاحظتهما، إلا أنهما واصلا العمل بكل طاقتهما في موقع التنقيب عن الآثار. وبحلول وقت الاستراحة، كانوا قد اكتشفوا خمسة ألواح أخرى؛ ثلاثة منها مكسورة في مواضع مختلفة، وهذا ما قربهم من كشف لغز كبير كتبة قصر الحثيين. إذ

لم تبق سوى ثلاثة ألواح ويصبح النص كله كاملاً.

عادوا إلى المدرسة متعبين ولكنهم سعداء، فلم يجدوا أحداً هناك سوى خلف المشغول بتحضير الغداء. ولم يكن كمال وإيلاف قد عادا بعد. فذهبت إسراء إلى الطاهي، ووجدته بانتظارها كما اعتاد أن يفعل كل يوم لكي يقدم لها تقريراً شفوياً.

"مرحباً ياخلف، كيف الأحوال؟".

بدا الطاهي الشاب مبتسماً كعادته، وقال: "على خير ما يرام. أعددت لكم طبق الفول الرائع مع اللبن بالثوم. إنها وجبة شهية جداً. كما أعددت لكم الأرز مع سلطة الراعي إلى جانبه. وهناك بطيخ حلو للتحلية".

قالت إسراء وهي تشعر بمعدتها الخاوية تقرقر من فرط الجوع: "عظيم جداً. متى سيصبح جاهزاً؟".

"سأعد المائدة في غضون أقل من ساعة واحدة".

سرت إسراء بأنها ستحظى ببعض الوقت قبل بدء وجبة الطعام لتتاح لها فرصة الاتصال بالعمدة. لذا، طلبت رقم هاتف البلدية قبل أن تدخل إلى الحمام، فردت عليها فتاة لها صوت خجول، غير أنها لم تستطع أن تتحدث بأدب رغم محاولتها، وقالت إن العمدة خارج مكتبه وسيعود في العصر. أخذت إسراء منشفتها وهمت بأن تتوجه إلى الخارج، ولكنها سمعت صوت هاتفها يرن. وعندما سمعت صوت أشرف، انتابها ذلك الشعور الغريب نفسه. ففكرت في سرها: "لا سمح الله أن تكوني مغرمة بذلك الرجل!". سألها عن حالها، وقال إنه لم يرغب بالاتصال بها في الصباح لئلا يقاطع عملها، ثم أخبرها أنه متوجه إلى غازي عنتاب في تلك اللحظة ليقدم تقريره حول الهجوم الذي شنه قبل يومين، وسألها عن موعد لقائهما مرة أخرى. ومع أن إسراء تشوقت لمقابلته، إلا أنها قالت إنها شديدة الانشغال في تلك الأيام. ومع ذلك، فقد دعته للحضور وتناول العشاء معهم في المدرسة مساء ذلك اليوم، فرحب النقيب بتلك الفرصة. أخبرته إسراء عن موعد المؤتمر الصحفي، وقالت له إنها اتصلت بالعمدة لتطلب مساعدته. وكان أشرف على علاقة ممتازة بالعمدة، لذا عرض عليها أن يتصل بالعمدة بنفسه إن رغبت بذلك، فسرت إسراء لقبول عرضه.

انتهوا من تناول الغداء في غضون وقت قصير، فطلبت إسراء من خلف أن يحضر لهم الشاي إلى غرفة الكمبيوتر حيث ذهبوا لعقد اجتماعهم. احتلت الكلمات التي سيلقيها كل من إسراء وتيموثي وبيرند في المؤتمر الصحفي البند الأول على جدول أعمال الاجتماع. فتم اتخاذ قرار

بإلقاء كلمة من صفحتين تكتبها إسراء، بينما يترجمها تيموثي إلى اللغة الإنكليزية، وتتضمن معلومات عن المدينة القديمة مع التركيز على فترة باتاسانا. واتفقوا على أن يصوروا نسخاً من النص في مبنى البلدية، ثم يوزعوا النسخ على كل الصحفيين. وقرر بيرند أن يقدم شرحاً عاماً للعلاقات بين الممالك المتعددة التي حكمت في تلك الفترة الزمنية. أما تيموثي بصفته مترجم الألواح، فقد توجب عليه في تلك الأثناء أن يركز على الأهمية التاريخية والأثرية لألواح باتاسانا. فيما توجب على بقية أفراد فريق التنقيب عن الآثار، تقديم شتى أنواع المساعدة خلال جولة الصحفيين السياحية في الموقع، وتزويد الضيوف بالمعلومات، والحرص على الحفاظ على المخطط، وعلى عدم تدخل أحد بالمناطق التي لا يزال يتوجب عليهم التنقيب فيها.

اقترح مراد عليهم أن يكبروا صور الموقع ويعلقوها في الغرفة التي سيقام المؤتمر الصحفي فيها. فقال بيرند إن المعهد الألماني للآثار قد قام بتكبير الصور، وإن الفريق الذي يقوده جوتشيم سيحضرها معه. وكان المؤتمر سيعقد في الساعة الحادية عشرة، بينما سيحضر الصحفيون بطائرة الساعة 7:15 من إسطنبول. وفي صباح الاجتماع، توجب على الجميع أن يستيقظوا في وقت مبكر كأي يوم آخر من أيام العمل، ويعملوا على إنهاء التحضيرات وتفقد كل شيء بشكل نهائي، ثم التوجه إلى غازي عنتاب. وربما كان شخص أو اثنان منهم سيذهبان إلى هناك في المساء. وكانوا سيتخذون قراراً نهائياً بهذا الشأن بعد التحدث مع جوتشيم.

سمعوا صوت دق على الباب خلال الاجتماع، فالتفت الجميع ونظروا إلى الباب بترقب. ظهر وجه كمال الصارم عند الباب، ثم ظهرت إيلاف من خلفه وهي تبدو متجهمة الملامح وعيناها محمرتان. ففكرت إسراء في سرّها: "لقد كانت تبكي". أومأ كمال برأسه بتحية باردة إلى الجميع، ثم توجه ليس إلى المقاعد حيث يعقد الاجتماع بل إلى سريره. أما إيلاف التي ارتفعت معنوياتها لدى رؤيتها أصدقائها، فقد بدأت تعانق الجميع. وتألقت عيناها الخضراوان عندما رأت الأمريكي يقترب نحوها، ولكن تيموثي شعر بوجود شيء غريب. لذا، بدلاً من أن يعانقها، اكتفى بمصافحتها، فتألمت إيلاف لتصرفه هذا، ولكنها حاولت ألا تظهر ذلك. جلس كمال على حافة سريره، وراح يراقبهم من بعيد بنظرات فاترة. فمشت إسراء نحوه متظاهرة بأنها لا تلاحظ ما يجري.

"أهلاً بعودتك. كيف مضت الأمور؟".

"بشكل سيئ".

"لماذا؟ ما الذي حدث؟".

فقال: "ماذا تظنين؟ انظري إليها. إن مجرد رؤيته تجعلها في غاية البهجة والسعادة".

"ألا تظن أنك تبالغ بعض الشيء؟".

"على الإطلاق. لقد تحدثنا في المستشفى، فاعترفت لي أنها معجبة بذلك الرجل المسن القذر".

بعد فترة صمت قصيرة، قالت له إسراء: "انس الموضوع. ليس هناك ما يستحق أن تغضب نفسك إلى هذا الحد من أجله".

أجاب كمال بآهة عميقة قائلاً: "لا أستطيع. إنني غير قادر وحسب أن أمنع نفسي من التفكير والقلق. ربما إن رحلت من هنا...".

قالت إسراء: "لا أظن أن هذه فكرة جيدة. إن المشكلة في داخلك، وستأخذها معك أينما ذهبت وأينما حللت. يجب عليك أن تبقى هنا وتعمل على حلها وتخطيها".

فقال كمال: "لا أستطيع الاحتمال". ولفظ كلماته بصوت مرتفع جداً، لدرجة أن بقية أفراد الفريق المجتمعين حول إيلاف التفتوا لينظروا إليه. فأخفض صوته وكرر كلامه:

"لا أستطيع أن أحتمل رؤية إيلاف وهي تطير من البهجة والسرور بحضوره".

بث الغضب الذي شع من عينيه الرعب في نفس إسراء، فقالت له: "هيا بنا، لنذهب ونتمشَّ". وظنت أن الابتعاد قليلاً قد يساعده على الهدوء.

قال كمال: "كلا، إنني بخير هنا".

"هل أنت واثق من هذا؟".

"نعم. لا أريدهم أن يظنوا أنني مثير للشفقة إلى هذا الحد".

فحثته قائلة: "في هذه الحالة، استعد هدوءك، ولا تجلس هنا بمفردك طوال الوقت. تعال وانضم إلى أصدقائك".

"حسناً، حسناً، لا تقلقي بشأني".

اقترب تيومان ومراد من مكان جلوسهما.

فقال تيومان مازحاً: "ما كل هذا الصراخ يارجل؟ لقد ضربك الطبيب في المستشفى وتريد الآن أن ترد الضربة لنا، أليس كذلك؟".

أجبر كمال نفسه على الابتسام، وقال وهو يلكم تيومان برفق على بطنه: "دعني وشأني وانظر إلى نفسك. ستتحول إلى برميل عما قريب".

فابتسم تيومان ابتسامة ساخرة، وقال: "إن تمتع خبير الآثار ببطن كبير أمر مقبول تماماً. إذ يجب عليك أن تدخر طاقتك لتستخدمها في الأيام الصعبة".

"من يسمعك يظن أنك مشغول بحرق الطاقة. أراهن أنك أمضيت اليوم برمته وأنت نائم في ظل أي عمود من أعمدة المعبد...".

تنفست إسراء الصعداء، فقد بدأ كمال يعود إلى طبيعته.

وقالت: "ما زلنا نتحدث عمّا سنفعله في المؤتمر الصحفي". واستدعت الجميع للعودة والجلوس على مقاعدهم مرة أخرى. فجلس كمال في زاوية بعيدة عن الجميع، ولا سيما إيلاف والأمريكي. أما إيلاف، فقد آثرت أن تجلس مقابل تيم بشكل مباشر لكي تزعجه. فلم يشعر تيموثي بالراحة من هذا الموقف، ولكنه بدا متلهفاً لإصلاح الوضع لذا جلس بلا حراك. قدمت إسراء على الفور ملخصاً لما كانوا يناقشونه من قبل لكي تمنع حدوث أي مشاكل. وبعد ذلك، تابعوا نقاشهم، وانتقلوا إلى البند الثاني من جدول الأعمال، ثم انتهى الاجتماع عندما دخل خلف إليهم وبحوزته صينية مليئة بكؤوس الشاي الساخنة وراح يوزعها على الجميع.

لم تلاحظ إيلاف الكأس التي وضعها خلف أمامها وهي مشغولة بالنظر إلى تيموثي.

وقالت: "إنني ممتنة كثيراً لديفيد، فقد قدم لنا مساعدة كبيرة. كما أنه يكن لك الكثير من المحبة".

فقال تيموثي: "إنه رجل صالح. لقد قدم لي أنا أيضاً الكثير من المساعدة".

بدأت عينا كمال الغاضبتان تنظران إليهما شزراً وهما يتحدثان.

ففكرت إسراء في سرّها: "يا إلهي! الآن من المؤكد أن شجاراً سيندلع".

بدت إيلاف غافلة عن العاصفة القادمة، أو إنها لم تكترث لها بالفعل.

فقد قالت: "لقد قال إنه سيأتي لزيارتنا عما قريب؛ فقد دعته إسراء للحضور".

تلوى تيموثي بعدم ارتياح على مقعده، وقال: "هذا سيكون عظيماً. فأنا لم أره منذ وقت طويل".

فتمتم كمال من الركن الذي جلس فيه بصوت لاذع: "يمكنكم الخروج أنتم الأربعة معاً في موعد مزدوج". وهز رأسه وواصل الحديث مع نفسه قائلاً: "هؤلاء الرجال يميلون إلى نسائنا كثيراً".

هبت رياح باردة على الجالسين حول طاولة الاجتماع، فلم يتكلم أي

من تيموثي أو إسراء، ولكن إيلاف أصرت على الكلام وكأنها لم تسمع شيئاً مما قاله صديقها السابق.

"إذاً، أنت تعرف ديفيد منذ وقت طويل؟".

أجاب تيموثي وقد بدا من الواضح عليه أنه غير مسرور من الوضع الذي وجد نفسه فيه في تلك اللحظة: "لمدة طويلة بالفعل".

"لقد أحدثت انطباعاً كبيراً عليه، فهو لا يكف عن مدحك".

تدخل كمال مرة أخرى قائلاً: "إن تيموثي يحدث انطباعاً كبيراً علينا جميعاً، ألا يعرف ذلك؟ نحن منبهرون به".

لم يستطع تيموثي أن يتجاهل هذه السخرية اللاذعة الذي شعر أنها موجهة بشكل مباشر إليه.

"شكراً لك ياكمال، ولكنك تبالغ بعض الشيء".

فقال كمال: "لست أبالغ على الإطلاق". ثم وضع كأس الشاي على المقعد، والتفت بكامل جسمه ليواجه الأمريكي، وقال: "لقد أحدثت انطباعاً مهماً علينا جميعاً في غضون فترة قصيرة جداً. في الواقع، بعضنا واقعون في هواك".

صاحت إيلاف: "كف عن هذا الهراء".

"لماذا؟ ألم تقولي هذا بنفسك؟ ألم تقولي إنك معجبة بتيم؟".

فقالت إسراء وهي تلعن "كمال" بينها وبين نفسها: "من فضلكم، ياشباب".

قال كمال الذي بات الآن يتنفس بصعوبة بسبب نوبته العاطفية: "من فضلك ياإسراء، لا تتدخلي في هذا. لقد خانتني إيلاف مع هذا الرجل أمام عيني...".

اندهش تيموثي للحظة، ولكنه سرعان ما سيطر على نفسه مرة أخرى وقال:

"إنك مخطئ. فأنا لست على علاقة من أي نوع مع إيلاف. وهذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها بإعجابها بـي". والتفت ليواجه إيلاف، وقال بنظرة دهشة على وجهه: "إن كان هذا صحيحاً فهو شرف لي، ولكنه ليس شيئاً أود أن أسعى إليه".

تحول وجه الشابة إلى لون أحمر كالدم، ثم بدأت شفتاها ترتعشان، وتمتمت بتلعثم قائلة: "إنه... إنه يختلق هذا...". ولم تستطع أن تكمل كلامها من فرط الانفعال، لذا غطت وجهها بيديها والدموع تسيل على خديها وهرعت خارجة من الغرفة.

قال تيموثي: "إن هذا أمر عديم المعنى. لماذا نجرح شعور بعضنا بعضاً بهذا الشكل؟!".

فقال كمال: "ما زلت تتمتع ببرودة الأعصاب الكافية لكي تستمر بالحديث، في حين أن كل ما يجري هو خطؤك أنت".

حافظ تيموثي على هدوئه بكل صلابة، وقال: "إنك مخطئ. لم تختلف معاملتي لإيلاف عن معاملتي للآخرين جميعهم".

"كلا، بل لقد جعلتها تقع في حبك".

هز تيموثي رأسه وعلى وجهه تعبير شخص مجروح ومهان بسبب تعرضه لسوء الفهم، وقال: "أنت لا تعرفني على الإطلاق. فأنا لست رجلاً مثالياً أو من بين البشر النموذجيين، ولكنني أيضاً لست من الوضاعة بما يكفي لكي أنكر حبي لامرأة لو أنني مغرم بها بالفعل". وتوقف قليلاً ثم قال: "ولكنني لست مغرماً. ومن الجيد أنني لست كذلك؛ لأن الحب أمر مريع. إنه شعور شرير بما يكفي لكي يجعل شخصاً مهذباً مثلك يتصرف بوقاحة كما تفعل الآن. وكما قلت لك للتو، الشؤون العاطفية لم تعد بالفعل تهمني بعد الآن".

فظهر وميض حاقد في عيني كمال وقال: "لماذا؟ هل سئمت من العبث مع كلّ أولئك الفتيات الشابات اللاتي عرفتهن؟".

فارتسمت ابتسامة قاسية على شفتي تيموثي وقال: "كلا". وبدا صوته مفعماً بالسخرية ثم قال: "بل لأن زوجتي هربت مع خبير آثار بلجيكي شاب".

تسارعت نبضات قلب إسراء، فقد ظنت عند هذه المرحلة أن تيم لن يعود قادراً على كبح جماح غضبه بعد الآن، وسينفجر في أية لحظة. ولكن الرجل الأمريكي تابع سرد كلماته بصوت صادق وكأنه يجري حديثاً ودياً مع أحد أصدقائه المقربين.

"لهذا السبب أفهمك كل الفهم؛ لأنني تعرضت لهذا الموقف البشع على حد سواء. فأن تتركك فتاة تحبها وتثق بها من أجل شخص آخر، فهذا أسوأ شعور يمكن للمرء أن يعانيه، ولكنك بعد فترة من الزمن تعتاد على ذلك. وبعد أن تنهمر دموعك أنهاراً وتحتسي الشراب وتنغمس في رثائك الذاتي، ستعيد التفكير بالأمر برمته".

وفجأة، بدأ تيموثي يضحك، وتابع قائلاً: "إن النتيجة التي توصلت إليها هي أن هذه البلاد تتحمل ذنباً كبيراً في ما يتعلق بالحب".

فبدأ الجميع باستثناء كمال الذي بدا غير مكترث على الإطلاق،

يصغون إلى تيم بانتباه كبير.

"صدقوني، فأنا لا أمزح. فقد بدأ كل شيء على هذه الأراضي نفسها قبل تسعة آلاف عام...

وفكرة الحب وهم كبير، فهي في الحقيقة من صنع الرجال، وهذه هي معضلة الرجل. إذ إنه من ناحية يؤسس عائلة لكي تصبح لديه امرأة خاصة به، بينما من ناحية أخرى يتوق لزوجة جاره. تذكروا قصة خطف باريس لهيلين في ملحمة الإلياذة، أو عشق الفرسان في العصور الوسطى. ومع ذلك، فقد أصبح الوضع برمته أسوأ بكثير بالنسبة للنساء؛ لأن النساء اللواتي كان لهن عشاق متعددون خلال الفترة الأمومية وجدت كل واحدة منهن نفسها في ما بعد وقد أصبحت حبيسة البيت ومملوكة لرجل واحد فقط. فأن تحب يعني أن تبالغ برسم سمات شخص ما لا يمكنك الوصول إليه، وأن تتخيله شخصاً مثالياً وتصبح مرتبطاً به بشغف كبير. وكلما زادت العقبات في سبيل الوصول إلى ذلك الشخص، زادت الهلوسة العاطفية المرتبطة به. إن الحب في اعتقادي هو النسخة المعاصرة من تلك الرغبة البدائية للمبالغة في صفات المحبوب".

عندما بدأ تيموثي خطبته أول الأمر، لم تدرك إسراء ما يرمي إليه من كلامه، ولكنها عندما لاحظت أن جميع الجالسين حول الطاولة أرهفوا السمع لكل كلمة تفوه بها، أدركت أنه أراد أن يخفف من حدة النقاش، ويعيد الأمور إلى سلاستها الطبيعية. فهنأته بصمت على جهوده الناجحة قبل أن تتابع وتدلي بدلوها في الحديث.

فقالت: "ولكن ما قلته للتو يفسر الأمور من وجهة نظر الرجل فقط". ولم تكن نيتها انتقاد كلام تيموثي، بل توجيه المحادثة في اتجاه آخر. فسألت قائلة: "هل تعني أن النساء غير قادرات على الوقوع في الحب؟".

"بالطبع هن قادرات على ذلك. فليس الرجال وحدهم من اخترع فكرة الحب، بل مخيلة البشرية بأكملها هي التي فعلت ذلك. وفي نهاية المطاف، لا يهم إن كان الرجال هم من يقعون في حب النساء أم النساء من يقعن في حب الرجال، فأنا أعتقد أنهم جميعاً استمرارية للوهم البدائي القديم نفسه".

أما بيرند الذي أصغى إلى الكلام بعناية كبيرة منذ أن سمع كلمة "حب"، فلم يستطع منع نفسه من التدخل.

فقال: "قد تكون محقاً في كلامك. ولكن، حتى لو اعتبرناها عادة قديمة تطورت على مدى آلاف السنين من الطرق البدائية في التفكير، وحتى

لو لم نعتبرها أكثر من هلوسة حمقاء، وحتى لو منحت الإنسان ألماً أكثر من السعادة، فحياة نعيشها بدون حب في رأيي حياة بائسة".

فقال تيموثي: "صحيح. إن أي شخص يموت وهو لم يتذوق طعم الحب يعيش حياة غير مكتملة، أتفق معك، ولكنّ كلامك ليس صحيحاً بالنسبة لي. فأنا أؤمن بذلك المثل التركي القائل: "لا نريد حلوى دمشق ولا رؤية وجه عربـي". وهذا هو ما أقوله الآن: كلا، شكراً! فالأمر لا يستحق كل ذلك".

عندما بدا أن غضب الجميع قد هدأ ووجدوا أنفسهم مسترسلين في محادثة أكثر متعة بكثير، تدخل كمال مرة أخرى، فقال: "إنني لا أصدقك. فأنت تقول كل هذا الكلام لمجرد إنقاذ نفسك. ولكنني سأحرص على أن يرى الجميع عاجلاً أم آجلاً أي كاذب أنت".

حالما أنهى كمال جملته، خرج من الغرفة من دون أن تتسنى الفرصة لأحد كي يرد عليه، وخبط الباب خلفه، بينما نظر تيموثي إليه بعجز.

á á á

اللوح الثاني والعشرون

نجحت أخيراً في تولي منصب كبير كتبة القصر، ولكنني عجزت عن محو ذكرى عيني أشمونيكال وهما تنظران إليّ نظرات ملؤها اليأس، وهذا جزء من السبب الذي دفعني للانغماس بعملي بحماسة كبيرة؛ لكي أخفف من أثر غياب أشمونيكال، والأكثر من ذلك لكي أثبت مدى براعتي في عملي.

في تلك الأيام، لم نكن قد تحررنا بعد من لعنة الآشوريين. فقد راح الجيش الآشوري يحرق المنطقة بأكملها، ويسويها بالأرض، ويثور غضباً علينا كحريق ضخم يبتلع كل ما يصادفه في طريقه. فبعد مملكة سامال، دحر مملكتي غورغوم وكاشكا. وحالما انتهى منهما، حضر ليقرع بواباتنا بكل ما فيه من وحدات حراسة وعربات حربية وجنود مشاة.

عمدت مملكة الآشوريين إلى فرض زيادة كبيرة على عبئنا الضريبي، فقبلنا من دون اعتراض. ولكن تيغلاث بيليسير لم يجد ذلك كافياً، فقد قرر أن يبقي جيشه في أراضينا، وفرض على مملكتنا إدارة سماها بإدارة المناطق الخارجية. وألزمنا بأن نمنحه جنوداً للقتال في جيشه في حالة نشوب الحرب إن طلب منا ذلك.

حققنا السلام مرة أخرى بهذه المعاهدة المخزية. إنني أدعوها مخزية، ولكن النبلاء فقط هم من يشعرون بالخزي من هذه المعاهدة. أما عامة الناس والعبيد، فقد احتفلوا بالسلام احتفالاً دام ثلاثة أيام بلياليها، لأنهم في الحقيقة هم الذين يموتون عندما تحترق بيوتهم، وهم من يتضورون جوعاً ومن يتم نفيهم في زمن الحرب. قد يكون العمل في الحقول على ضفتي نهر الفرات، ونحت الصخر لبناء المباني والعناية بالبيوت مهمتين متعبتين، ولكن هذا الكد والتعب يظل في نظرهم أفضل من الحرب. وهكذا، بات الناس والعبيد ينظرون إلى بيزيريس على أنه "الملك الرحيم".

ذهب قسم كبير من منتجاتنا، وأسمن مواشينا وخرافنا، وأفخر أنواع شرابنا إلى مملكة الآشوريين، ولكن هذا لا يهم، فعلى الأقل ساد السلام في مملكتنا، وهذا أسعد أفراد الشعب بمن فيهم العبيد والنساء. وماذا عني أنا، باتاسانا كبير كتبة القصر، هل أصبحت سعيداً يا ترى؟

طيلة أشهر عديدة، تجنبت طرح هذا السؤال على نفسي. وبالرغم من أنني فشلت في الاعتياد على غياب أشمونيكال، إلا أنني تابعت تنفيذ واجباتي إلى حد الكمال. ولم تذهب جهودي عبثاً. فبالرغم من أنني كنت

أصغر أعضاء مجلس النبلاء سناً، إلا أن الجميع شهدوا لي برجاحة العقل، والحكمة، والرأي السديد. فعينني الملك بيزيريس مستشاره الخاص؛ بالضبط كما فعل مع والدي. وكان كل عمل يقوم به يدل على أنه يكن لي الكثير من التقدير ويضع ثقته بـي. وبالمقابل، فقد وضعت بدوري ثقتي به، وآمنت بقدراته، وانبهرت بشخصيته، ولكن كل هذا تغير عندما سقط لايماس مساعد والدي السابق ومساعدي محتضراً على فراش الموت.

تغيب لايماس عن القصر عدة أيام لأنه لم يكن يشعر أنه على ما يرام، وقال إنه يريد أن ينال قسطاً من الراحة، ولكن الراحة لم تشف لايماس، بل ازدادت حالته سوءاً بمرور الوقت. وفي اليوم الذي سبق وفاته، استدعاني إلى بيته، فقبلت دعوته على الفور، ودخلت من حديقة بيته الصغيرة إلى غرفته الخاصة، فاستقبلني ابنه عند الباب.

وقال: "إن والدي بانتظارك. يقول إنه يخشى أن يموت قبل أن تسنح له الفرصة للتحدث إليك".

فوجئت من كلامه، وتساءلت عن هذا الموضوع الخطير الذي دفع لايماس لاستدعائي إلى بيته ليقوله لي. دخلت إلى الغرفة والفضول يتملكني، ووجدت جسد لايماس المسن الضخم قد ذوى وذبل، وبدا على وشك التلاشي وسط سريره الكبير. أما وجهه، فقد بدا في شحوب الأموات. ركع الابن على الأرض، وهمس في أذن أبيه ليعلمه بوصولي، فنظر لايماس إلي بعينين نصف مغمضتين، ثم استجمع كل قوته واستدعاني للمثول بين يديه، فركعت إلى جانبه. أشار لايماس بيده ليأمر أقاربه بمغادرة الغرفة، لذا غادروا وتركونا وحدنا. وهكذا، استجمع الرجل أنفاسه وبدأ يتكلم ببطء.

"لقد ارتكبت إثماً يا باتاسانا".

استطعت بالكاد سماع صوته، فانحنيت لأقرب أذني من فمه.

تابع قائلاً: "لقد ارتكبت عملاً بمنتهى الوضاعة في حق أبيك. لقد خنت أباك؛ الرجل الذي لطالما ساعدني، والصديق المخلص الذي ساندني طوال سنوات عمري الطويلة. وألحقت ضرراً كبيراً بحقك وحق عائلتك".

حاولت أن أعترض على كلامه، فأمرني بالسكوت وقال: "لا تقاطعني. لم يبق لدي متسع من الوقت. أتتذكر المعاهدة التي أخذها أبوك إلى الملك الآشوري تيغلاث بيليسير؟ أنا كتبتها بيدي. هل تعرف سبب ذلك؟ لأن بيزيريس يتحدث في ذلك اللوح عن إخلاصه للملك الآشوري، ويقول إن الدليل على ذلك هو أنه يسلمه كبير كتبته الذي اكتشف أنه يعمل جاسوساً لصالح مملكتي الفريجيين والأورارتيين. ليس تيغلاث بييلسير هو من

قتل أباك، بل حراس بيزيريس هم الذين ارتكبوا تلك الفعلة وهم في طريقهم إلى تيغلاث بيليسير، ثم قدموا رأس أبيك إلى الملك الآشوري ثمناً لإنقاذ حياة بيزيريس".

ثار غضبـي لدى سماعي كلماته، فصحت على لايماس قائلاً: "أنت تكذب!". وبدأت أهزه رغم أن الرجل المسكين كان على فراش الموت. فهز لايماس رأسه بحزن.

وقال: "ليتني كنت كذلك. كم تألمت طويلاً وأنا أتحمل وخزات الضمير هذه، لقد هدد بيزيريس بقطع لساني إن قلت الحقيقة لأحد، فخشيت على نفسي، لذا أخفيت السر عن الجميع حتى هذا اليوم، ولكنني الآن أحتضر. ولا أريد أن أموت وأنا أتحمل وزر هذا الذنب".

تذكرت الكلمات التي قالها لي والدي وهو يودعني قبل رحيله، ثم فهمت أن لايماس قد قال لي الحقيقة، فبدأت الدموع التي حبستها منذ سمعت خبر وفاة والدي تنهمر على وجهي من الألم والغضب الذي شعرت به لأنني تعرضت للخيانة. تفوه لايماس المسن بكلماته الأخيرة وأنا أبكي.

"أياً يكن ما ستفعله، لا تدع بيزيريس يعرف هذا الكلام وإلا سوف يقتلك. إن رجلاً بمثل ذكائك لن يكون من عدم الحكمة حيث يختار ملكاً ليناصبه العداء. ينبغي أن تواصل حياتك وأنت مطيع لبيزيريس ومخلص له كما لطالما فعلت".

عندما غادرت بيت لايماس، قادتني قدماي من دون تفكير إلى القصر، وكأنني خروف يتجه إلى حظيرته بحكم العادة. وعندما وصلت إلى القصر، رفعت رأسي ونظرت إليه متأملاً. ترى، هل أنتمي لمالكي هذا القصر؛ القصر نفسه الذي تسبب في نفي جدي وتفريقي عن المرأة التي أحبها وقتل والدي؟ فأخبرني تعليمي الذي تلقيته وكل ما حفظته الإجابة عن هذا السؤال: "نعم، أنت تنتمي لعائلة تيشوب وممثلها على الأرض؛ الملك بيزيريس". ولكن الألم الذي اعتصر قلبـي، والغضب الذي أنهك جسدي، والنار التي أحرقت عيني قالت كلها: "كلا، أنت تنتمي لجدك ميتانوا ووالدك آراراس وحبيبتك أشمونيكال".

ها قد وجدت نفسي، أنا باتاسانا كبير كتبة القصر المثالي، مرة أخرى محشوراً في خانة ضيقة بين عقلي وقلبـي.

á á á

الفصل الثالث والعشرون

أرادت إسراء أن تكتب نصاً مثالياً لإلقائه في المؤتمر الصحفي، ولكنها لم تعرف من أين تبدأ بالضبط. جلست في غرفة الصف لتعمل وحدها. فقد آثر كل من بيرند وتيموثي العمل في غرفته الخاصة. أما إيلاف التي لم ترغب في التحدث مع أحد فقد ذهبت لتتمشى بمفردها، بينما ذهب كل من تيومان وكمال ومراد إلى المقهى الوحيد في البلدة الذي يحوي تلفازاً لكي تتسنى لهم مشاهدة مباراة كرة القدم. لم تكن إسراء من معجبي مباريات كرة القدم على الإطلاق، ولكنها هذه المرة شجعت طلب الشباب للذهاب لأنها ظنت أن هذا قد يساعد في تهدئة كمال.

جلست أمام جهاز الكمبيوتر محاولة أن تعثر على الكلمات المناسبة لتبدأ بها كلمتها. ورغم أنها حضرت وثائق لمؤتمرين من مؤتمرات نتائج وزارة الثقافة والآثار، غير أنها أرادت لهذه الكلمة أن تكون مختلفة كل الاختلاف عن غيرها، وأكثر تأثيراً وشمولاً من أي كلام كتبته من قبل. وهكذا، فقد سعت بجهود مضنية لاختيار الكلمات المناسبة لتعكس الأفكار التي تدور برأسها، ولكنها رغم كل جهودها المبذولة لم تستطع ببساطة أن تجد بداية ملائمة. اعتادت أن تعاني من مشاكل في كتابة مواضيع الإنشاء في المدرسة الثانوية على حد سواء، وحينها اقترح عليها أبوها أن تبدأ بجملة تختصر بطريقة ما محتوى الموضوع، وبهذا الشكل تتدفق بقية المقالة من قلبها حالما تكون قد عثرت على الجملة الافتتاحية. في البداية، لم تعتقد بصحة هذه الطريقة، ولكنها غيرت رأيها حالما جربتها واكتشفت نجاحها. ومع ذلك، فمعضلة العثور على هذه الجملة الأولى ظلت قائمة. فكرت بترجمة تيموثي للألواح، والتي حفظها كلها على جهاز الكمبيوتر. ففتحت المجلد الذي يحتوي على ترجمة النصوص، وبعد أن قرأتها لبعض الوقت عثرت أخيراً على ضالتها المنشودة في كلمات باتاسانا نفسه:

"عندما نظر جدي إلى نهر الفرات، رأى في لمعان مياهه سر سعادتنا الداخلية. أما والدي، فقد رأى في الفرات القوة التي تجعلنا نقهر أعداءنا، ورأى الزيتون والحمص والقمح والمشمش والعنب. ولو سأل أحد جدي: "ما هو نهر الفرات؟". لأجاب: "خلال النهار، هو النور الذي يشع في عينَي الحبيب. وفي الليل، هو السواد الحالك في تموجات شعره". ولو سأل أحدهم والدي عن ذلك، فمن المؤكد أنه سيتلقى الجواب التالي: "الفرات مجرى مائي وفير بالماء يجب علينا أن نحميه من أعدائنا".

نعم، لقد قررت أن تبدأ كلمتي بهذه الفقرة: "يتدفق بصمت إلى الخليج العربي منذ آلاف السنين، ويمنح الخصب والوفرة للبشر؛ هذا النهر العظيم الذي يسميه الحثيون نهر مالا هو مصدر كل الحضارة التي ازدهرت في هذه البلاد في الماضي والحاضر". وقررت أن تبني النص الذي ستكتبه حول موضوع هذا النهر.

وبدأت بلهفة تكبس الأزرار، فأثبت والدها أنه محق مرة أخرى؛ لأنها حالما وضعت المقدمة انسابت الكلمات بشكل عفوي وتلقائي. قرأت ما كتبته بصوت مرتفع، وحذفت بعض الفقرات التي لم تعجبها، ثم أعادت كتابتها، وفكرت بالكلمات المناسبة هنا وهناك، إلى أن انتهت من كتابة النص بكامله في غضون بضع ساعات. وبعد أن انتهت من طباعة التصحيحات الأخيرة وبدأت بطباعة الوثيقة على الطابعة، انفتح الباب ودخل كل من تيومان ومراد وكمال؛ السكان الحقيقيين لهذه الغرفة، فاستقبلتهم إسراء بتحية مرحة.

وقالت: "آه، ها قد عاد مشجعو كرة القدم".

ولكن أصدقاءها لم يظهروا أي ذرة من الشعور بالسعادة.

فقد قال تيومان وهو يجر قدميه متوجهاً نحو سريره: "لقد عدنا". وبدا مراد محطماً مثله تماماً.

سألت إسراء: "ما خطبكم، يا شباب؟!".

انتحب مراد قائلاً: "أولئك الأوغاد. لقد هزموا فريقنا هزيمة منكرة".

فانفجرت إسراء ضاحكة، وقالت: "يا إلهي! إذاً، فقد خسرتم مباراتكم أيها الشباب، أليس كذلك؟".

قال تيومان: "هيا، لا تضحكي يا إسراء".

"وما المشكلة الكبيرة في ذلك؟ إنها مجرد مباراة ودية".

فقال مراد وملامحه تتلوى وكأنه يعاني من ألم يعتصر جسده: "حسناً، قد يكون هذا صحيحاً، ولكن الجزء الأصعب هو مشاهدة لاعب فريقنا السابق يسجل هدفاً في شباكنا. لو أنه لم يسجل ذلك الهدف، لانتهت المباراة بنتيجة تعادل 2-2".

همس تيومان: "ذلك الوغد عديم الفائدة. إنه يصيبني بالغثيان".

"آه، كلا، كلا، لا نريد لأحد أن يصاب بالغثيان إلى ما بعد المؤتمر الصحفي!".

لم يلق تيومان بالاً لكلام إسراء، بل ألقى نفسه في سريره، بينما حذا مراد حذوه.

انتحبت إسراء قائلة: "حسناً. والآن، من سيقرأ مسودة كلمتي؟".

فقال كمال: "أنا سأقرؤها". وجدت إسراء أنه استعاد هدوءه، فهو لم يبدُ منـزعجاً من نتيجة المباراة كصديقيه. اقترب من الطابعة التي بدأت النسخة الأخيرة من الأوراق تخرج منها، وقال: "أهذه هي الكلمة التي تنوين إلقاءها في المؤتمر الصحفي؟".

فقالت إسراء: "نعم". وكانت مسرورة لأن صديقها أبدى اهتماماً بما كتبته.

"إنني أرحب أيضاً بأي انتقاد توجهه لمحتوى النص".

نظر كمال إلى الأوراق، ثم جلس على المقعد، وقال بخجل قبل أن يبدأ بالقراءة: "إنني آسف حيال ما حدث في وقت مبكر من اليوم. وأعتذر حيال تصرفي بهذا الشكل في موقع التنقيب عن الآثار. آمل أن تسامحيني".

قالت إسراء: "إنني أفكر بك وحسب. فأنت تؤذي نفسك... هل هناك بالفعل ما يستحق كل هذا العناء؟".

فقال كمال الذي توتر لدى سماعه كلماتها: "لا أريد مناقشة الموضوع. دعينا نهتم بالمسألة التي بين أيدينا الآن".

عندما لاحظت إسراء أن الأمور بدأت تعود إلى نصابها مع كمال، لم تلح عليه أكثر من ذلك، وقالت:

"حسناً، سأخرج لأتمشى وأستنشق بعض الهواء النقي بينما تقرأ أنت هذه الأوراق. فقد حبست نفسي في هذه الغرفة طيلة فترة العصر".

كانت الشمس تميل إلى الغروب من جهة الحديقة الخلفية. شاهدت إسراء قطع اللحم، وشرائح الطماطم والفلفل الأخضر مصفوفة في المقالي على الطاولة تحت التعريشة. ووجدت "خلف" يترنم بإحدى تلك الأغاني الشعبية الحزينة التي اشتهرت بها القبائل التركمانية التي هاجرت من خراسان وهو يعمل في الوقت نفسه على غرس قطع من اللحم في أسياخ طويلة. بدا مستمتعاً بوقته؛ لدرجة أن إسراء لم تستطع أن تمنع نفسها من الوقوف والتفرج عليه وهو يعمل لبضع دقائق. وكان من الممكن أن تظل على هذا الحال لو أن "خلف" لم يشعر أخيراً بنظراتها إليه ويرفع رأسه ليراها.

تذمر خلف قائلاً: "عيب عليك ياسيدة إسراء. كان ينبغي عليك أن تعلميني بوجودك".

فقالت إسراء: "لم أستطع أن أجبر نفسي على مقاطعتك". وأشارت نحو الأطعمة المتنوعة المعروضة على الطاولة، ثم سألت: "أهذا هو العشاء؟".

ارتسمت ابتسامة استرخاء على شفتي الطاهي مشيراً إلى أنه لم يشعر بالإهانة ولو قليلاً.

"بالطبع. سيحضر النقيب هذه الليلة لتناول العشاء، لذا فكرت بأن نعد له طبق الكباب المشوي مع الطماطم المهروسة".

بدت إسراء متفاجئة من كلامه، وقالت: "هل هذا صحيح؟ ظننت أنك قلت سابقاً إنك لا تهتم إلى هذا الحد بالنقيب، وإن الجميع يظنون أنه مجنون وإلى ما هنالك...".

"حسناً، ربما قلت إنه رجل مجنون، ولكنني لم أقل إنه رجل سيئ. إن الرجال الأذكياء هم من ينبغي أن يخشاهم المرء في حقيقة الأمر. إن من نسميه بالفعل رجلاً مجنوناً مجرد شخص مكتئب لأنه محاط باللصوص وجالبي النحس. إن رجلاً مسكيناً مثله يفقد الأمل وحسب لأنه ليس لديه خيار آخر، ولكن غضبه لا يلحق الأذى بأحد. وإن فعل ذلك، فهو لا يؤذي أحداً سوى نفسه. على سبيل المثال، السيد كمال ليس كذلك، فهو الآن قادر على إلحاق الأذى بأي شخص".

فقالت إسراء وهي تجلس محاولة أن تُبرِّئ صديقها: "إنه عاشق. والحب نوع من الجنون أيضاً كما تعلم".

"إنه ليس مجنوناً ولكنه طائش وحسب".

ضحكت إسراء لدى سماعها هذا التحليل، بينما استمر الطاهي بالكلام.

"لو كان مجنوناً، لحاول أن يخفي مشاعره المجروحة عن الآخرين، ولما حوَّل نفسه والفتاة المسكينة والرجل الآخر إلى مغفلين أمام الجميع. إنني معجب شخصياً بتصرف تيم. فهو رجل حقيقي. إن نظرت إلى بنيته القوية لعرفت أنه يستطيع بلكمة قوية واحدة أن يصرع "كمال" أرضاً، ولكن الرجل عانى الكثير في حياته، وعرف بالضبط كيف يحافظ على هدوئه، وتمكن من تسوية المسألة بطريقة سلمية...".

أصبح السيخ في يده الآن مليئاً بقطع اللحم، لذا وضعه على المقلاة مع الطماطم، وأخذ سيخاً آخر وتابع عمله.

وقال: "انسي أمر كمال ياسيدة إسراء. لم يعجبني هذا الشاب منذ البداية، والآن فقدت كل احترامي له. لقد قالت الفتاة بكل صراحة إنها غير مهتمة به. ما الذي يريد سماعه أكثر من ذلك؟ مهما وجدت الأمر صعباً أو معقداً، فسوف يأتي وقت تقولين فيه "وداعاً"، وهذا هو الشيء الصواب والتصرف الرجولي الصحيح الذي كان يجب أن يقوم به. حتى في هذه المناطق وفي هذه الأيام، يزوج الناس بناتهم لرجال من اختيارهن...".

أرادت إسراء أن تقاطع حديث خلف قبل أن يتحول إلى خطاب مطول، فمدت يدها نحو أسياخ اللحم وقالت: "دعني أساعدك".

"توخي الحذر. لا تجرحي نفسك".

فقالت إسراء وعيناها تلمعان لمعة تدل على الشك: "هيا الآن، إنني أعرف القليل عن تحضير الكباب المشوي".

ارتسمت ابتسامة طفولية على شفتي خلف، وقال: "حسناً إذاً، أدخلي هذه الطماطم في السيخ".

أمسكت إسراء السيخ وكأنها طاهي كباب متمرس، وبدأت تدخل حبات الطماطم في السيخ واحدة تلو الأخرى، فيما استعاد خلف هدوءه. خشيت إسراء أن يعود لفتح موضوع كمال مرة أخرى، فاستغلت الفرصة لتغيير الموضوع.

"سمعت أن هناك قرى أرمنية في هذه المنطقة. هل هذا صحيح؟".

رمشت عينا خلف اللتان يعلوهما حاجبان متصلان بنظرة شك، وسألها بدلاً من أن يجيب عن سؤالها: "لقد تبين أن "محمود" وصديقه بريئان، أليس كذلك؟". وتابع كلامه وكأنه يعرف الإجابة مسبقاً: "لقد قلت لك هذا...".

بدأ تصرفه الذي يوحي بأنه يعرف كل شيء يثير أعصاب إسراء.

"كيف توصلت إلى نتيجة أن "محمود" وصديقه بريئان؟ لقد طرحت عليك سؤالاً ليس إلا".

نظر إليها خلف بفضول؛ فحتى غضبها لم يكفِ لإزالة شكوكه.

وقال: "أخبريني الحقيقة ياسيدة إسراء. هل هما بالفعل من قتل الحاج عبد الستار و"رشيد" آغا؟".

"إن النقيب يظن أن هذا صحيح، ولكن على أية حال، توقف عن لعب لعبة التخمين الآن، وأجب عن سؤالي".

ورغم أنه لم يجد إجابة إسراء مرضية لفضوله، إلا أنه أجاب عن سؤالها، وقال:

"هناك قريتان أرمنيتان. وقرية الحاج عابد، غوفين، إحداهما".

أصبحت إسراء فجأة كلها آذان صاغية، وقالت وهي غير واثقة من أنها سمعت "خلف" جيداً في المرة الأولى: "انتظر لحظة... انتظر... أتعني القول إن الحاج "عابد" من أصل أرمني؟!".

"نعم، بالطبع، إنه أرمني سابق ككل سكان تلك القرية".

أصيبت إسراء بارتباك شديد، فسألته قائلة: "حسناً، إذاً كيف أصبح

شيخاً؟".

قال خلف: "وما الذي يمنعه من ذلك؟ إنهم جميعاً مسلمون الآن. لا أحد منهم يقول إنه أرمني أو مسيحي، ولهذا السبب أرسل والد الحاج عابد ابنه إلى مدرسة ليتعلم على يد أحد الشيوخ".

ظهر تعبير مندهش على وجه إسراء، وقالت: "كم هذا مثير للاهتمام! إذاً، كيف تتكيف القريتان الأرمنيتان مع بقية القرى المحيطة بها؟".

"بشكل جيد في الواقع. ليست هناك أية مشاكل بينهم. هناك بعض السكان الذين يتفوهون بكلام سلبي عنهم، ولكنني لم أشهد أي سلوك سيئ من جانبهم أو أي شيء من هذا القبيل. كل ما يمكنني قوله هو أنهم أناس شرفاء".

ظلت أفكار إسراء عالقة عند الحاج عابد. إذاً، ذلك الرجل من سلالة أرمنية! لقد تم ارتكاب الجريمة الأولى في المسجد الذي يعمل فيه، والجريمة الثانية في قريته... أيمكن أن يكون القاتل؟ أيعقل أن يدعي أنه مسلم تقي بينما يسعى وراء الأخذ بثأر أسلافه؟ بدأت إسراء تتوغل عميقاً داخل الموضوع.

فقالت لخلف: "لقد ارتكبت جرائم شبيهة بجريمتي قتل الحاج عبد الستار ورشيد ترك أوغلو قبل ثمانية وسبعين عاماً".

ظهر لمعان غريب في عيني خلف، وتخلّى عن وضع اللحم في الأسياخ ونظر إلى إسراء بفضول.

وقال: "لم أسمع بهذا من قبل، ولكن يمكنني أن أكتشفه. من هم أولئك الرجال؟".

"الكاهن كريكور دفعه أحدهم من أعلى برج الجرس في الكنيسة التي تحولت الآن إلى مسجد. أما أوهانيس آغا فقد قطع رأسه على الطريق المؤدي إلى القرية ووضع الرأس في حضنه. والنحاس غارو شنق من عارضة في سقف متجره".

قال خلف بدهشة: "يا إلهي! إن الجريمتين الأوليين متشابهتان جدًّا مع الجريمتين اللتين وقعتا مؤخراً".

"هل سمعت بأولئك الناس من قبل؟".

فقال خلف: "حسناً، أنت نفسك تعرفين الكاهن كريكور".

"أحقاً أعرفه؟".

"هل تتذكرين نديدة المرتدة التي أتت لزيارتنا...".

"ما علاقة نديدة المرتدة بأي من هذه القصص؟".

"علاقة كبيرة! نديدة- التي أطلق عليها من قبل اسم ناديا- هي ابنة الكاهن كريكور".

قالت إسراء: "أنت محق. الآن تذكرت. وماذا عن أوهانيس وغارو؟".

"لقد سمعت عن أوهانيس آغا. فقد كان جد رشيد آغا، واسمه اسفنديار الكردي، رجل عصابة في ذلك الوقت. عندما تأكد الجميع أن الفرنسيين سينسحبون من غازي عنتاب، أصبح اسفنديار من أشد مؤيدي القوات الدولية، وبدأ يزعج الأرمن، فقتل أوهانيس آغا، ثم استولى على أراضيه، ولكنني لم أسمع شيئاً عن غارو".

"هناك شيء آخر يشغل بالي. هل هناك أية علاقة بين الحاج عابد والكاهن كريكور؟".

"لست أدري شيئاً حول هذا الموضوع، ولكنني أعرف أن سلالة الحاج عابد تعود إلى أوهانيس آغا".

أحدث هذا الخبر الأخير لمعاناً في عيني إسراء، فقالت: "إذاً، هناك سببان وجيهان يدفعان الحاج "عابد" لأن يناصب "رشيد" آغا العداء". ورغم أنها نظرت إلى خلف خلال حديثها، فقد أرادت أن تقنع نفسها أكثر من أن تقنعه هو، ثم قالت: "لم يجعل رشيد آغا من أخته عشيقة له وحسب، بل استولى أيضاً على ممتلكات أسلافه".

ابتسم خلف فخراً لأنه أثبت أن كلامه صحيح، ثم قال: "وأخيراً، توصلت إلى الكلام الذي أردت أن أقوله منذ وقت طويل. فلا يمكن أن يكون العكس هو الصحيح. ولا يمكن أن يكون محمود أو أولئك الرجال هم الذين قتلوا "رشيد" آغا. إنني أؤكد لك أن المسؤول عن هذه الجرائم ليس إلا الحاج "عابد"".

ولكن إسراء لم تصبح واثقة كل الثقة بعد، فقالت: "حسناً، ولكن هل هناك سبب يدعو الحاج "عابد" لقتل الحاج عبد الستار؟".

فابتسم خلف ابتسامة عريضة، وقال: "كلا. لا يمكن أن يكون عابد من يقف وراء هذه الجريمة. فالمسؤول عن قتل الحاج عبد الستار هو شهموز...".

التزم خلف الصمت فجأة لأنه لاحظ تيموثي وبيرند يقتربان منهما. وكان خبيرا الآثار الأجنبيان يناقشان الفوارق بين السريانيين، وهم من المجتمعات المتحدرة من الآشوريين والحرّانيين، وهم مجموعة ظلت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بتقاليدها القديمة. وعندما وجدا "خلف" يحضر العشاء، تركا التاريخ وراء ظهريهما وعادا إلى الحاضر على الفور.

قال تيموثي وهو يلعق شفتيه بشهية: "يا للروعة! شيش كباب!". وبدا من الواضح عليه أنه تعافى من تأثير مناقشة الصباح.

فأضاف قائلاً: "سلمت يداك يا خلف. لقد أعددت أخيراً الوجبة التي لطالما انتظرتها".

"لو أنني أعرف أنك تحبها إلى هذا الحد لأعددتها في وقت أبكر".

فاعترض بيرند قائلاً: "لن تجعلها حارة جداً، أليس كذلك؟". وراح يراقب "خلف" وهو يدخل السيخ في اللحم بعناية شديدة، ثم قال: "لقد تناولت هذه الوجبة في أضنة ذات مرة، فأشعلت جسدي بأكمله وكأنه ملتهب بالنيران".

فقال خلف: "هذا ليس كباب أضنة يا سيد بيرند. إن كباب أضنة يعد من اللحم المفروم، بينما يعد هذا الكباب من اللحم المقطع".

احمر وجه الرجل الألماني قليلاً وقال: "أرى أنه ليس كباباً معداً من لحم البقر المفروم، ولكنني أقول فقط إنه من الأفضل ألا تجعله حاراً جداً".

"وهذا هو بالضبط ما أقوله لك، أي إن هذا الكباب لن يكون حاراً جداً".

راحت إسراء تتأمل بيرند خلسة منذ انضم الرجلان الأجنبيان إليهما. فقد منحتها إضافة الحاج عابد إلى لائحة المشتبه بهم في ارتكاب جريمتي القتل إحساساً بالراحة، ولكنها لم تتخل بشكل كلي عن إمكانية تورط بيرند، وتساءلت إن عاش أهل زوجة بيرند في تلك المنطقة في الماضي. وعندما وجدت الفرصة سانحة لها لكي تكتشف الجواب عن هذا السؤال، استغلتها في الحال.

فقالت: "أتعرف، يا بيرند؟ أردت أن أسألك عن المكان الذي عاش فيه أهل زوجتك من تركيا".

أجاب بيرند ببراءة تامة وهو غير مدرك للهدف من السؤال: "لقد عاشوا في سيسيليا أو ربما هاتاي".

إذاً، فهم لم يعيشوا في المنطقة نفسها. وسُرَّت إسراء لأنها عرفت ذلك.

تابع الألماني قائلاً: "إن والد زوجتي مولع أيضاً باللحم المشوي. يقولون إن جميع الجنوبيين لديهم ولع بهذا الطعام".

اعترض تيموثي قائلاً: "ليس الجنوبيون وحدهم. انظر إلى إسراء. إنها من إسطنبول، ولكنها تقوم بإعداد أسياخ اللحم ببراعة وكأنها خبيرة في الكباب... ألا تبدو شهية... لقد بدأ لعابي يسيل منذ الآن". وأشار إلى

المشواة أمام المطبخ وسأل الطاهي: "هل نشعلها؟".

فقال خلف: "لا يزال الوقت مبكراً. ستكون النار جاهزة في غمضة عين. دعونا ننتظر إلى أن يصل الجميع إلى هنا ثم نشعلها".

استغرق الأمر ساعتين كاملتين إلى أن اجتمع الجميع أخيراً لتناول وجبتهم. فجلس الجميع باستثناء إيلاف في أماكنهم المعتادة حول الطاولة، بينما جلس كمال غارقاً في المكان نفسه الذي جلس فيه عصر ذلك اليوم، وأصغى بصمت للأحاديث التي راحت تدور حوله. وكان النقيب آخر الواصلين؛ فقد حضر حاملاً طرداً في يده بعد أن غيّر ملابسه العسكرية وارتدى قميصاً رسمياً أبيض وبنطالاً من قماش الكتان بلون البيج، فرحبت إسراء به بنفسها عند وصوله.

ساد توتر لطيف بينهما الآن. ولو أنهما كانا وحدهما، لربما ألقيا التحية على بعضهما بعضاً بشكل مختلف، ولكن توجب عليهما الآن أن يكتفيا بالنظرات المليئة بالشوق واللمسات العابرة.

قال أشرف وهو يسلم الطرد لإسراء: "هذه مثلجات بالفستق. لقد أحضرتها كل الطريق من غازي عنتاب، ولكن يفضل أن تضعوها في الثلاجة على الفور قبل أن تذوب".

أما خلف الذي كان يتنصت على محادثتهما، فلم يسعه إلا أن يتدخل قائلاً: "إنها فكرة ممتازة أيها النقيب. فالمثلجات تحلية لذيذة جداً بعد الكباب".

ذهبت إسراء لتضع المثلجات في الثلاجة قبل أن يقترب أشرف من الطاولة ويبدأ بمصافحة جميع أفراد الفريق.

فقال له مراد مازحاً: "كم تبدو أنيقاً! إنها المرة الأولى التي نراك فيها بهذا المظهر".

لم يقصد الشاب بملاحظته أن تتضمن أي معنى غير مرغوب به، ولكن احمراراً خفيفاً استولى على وجه النقيب الأسمر على أية حال، وقال:

"إنني لا أرتدي لباسي الموحد طوال الوقت. فأنا أحب أن أرتدي الملابس المدنية بعد ساعات العمل".

حان الآن دور تيموثي ليهب للدفاع عن النقيب، فقال: "في الواقع، إن الملابس الموحدة مريحة جداً، فهي تنقذك من عناء التفكير بما تريد أن ترتديه كل صباح عندما تخرج من البيت".

فقال تيومان: "آه، هيا يا تيم. لا تؤاخذني لما سأقوله أيها النقيب، ولكن الملابس الموحدة تجعل المرء يبدو مملاً وعادياً، وتمحو كل صفاته

الشخصية ومزيته الفريدة".

أصبح الجو حول الطاولة جاداً جداً فجأة، وتساءل الجميع عما سيكون عليه جواب النقيب، ولكن قبل أن يفعل ذلك، تدخل مراد ليدلو بدلوه أيضاً.

"ومع ذلك، فهناك صفات لا تملك الملابس الموحدة القدرة على إلغائها على الإطلاق".

فالتفت تيومان ليواجه الطالب الشاب، وسأله قائلاً: "مثل ماذا؟".

"مثل الأكل. لنأخذك أنت على سبيل المثال. ستظلُّ مستهلك الطعام رقم واحد في هذه المهمة للتنقيب عن الآثار حتى لو كنت ترتدي ملابس موحدة".

بدأ الجميع ينضمون إلى مراد في الضحك.

فقال تيومان بسخرية: "ها ها. ألم تسأم بعد من هذه الدعابات التي تتحدث عن الأكل؟ مرِّن عقلك قليلاً وجد شيئاً آخر لتؤلف الدعابات عليه لكي نضحك جميعاً معاً".

بينما أخذ جميع من يجلسون إلى الطاولة يمزحون، شغل خلف نفسه بصف كل أسياخ الطماطم على لهب نيران المشواة التي يشبه لونها لون حبات الرمان. وحوَّل صوت الطقطقة الصادر من المشواة انتباه الجميع بسرعة إلى الكباب.

في تلك الأثناء، انحنى النقيب نحو إسراء، وهمس في أذنها ليسأل عن سبب عدم انضمام إيلاف إليهم على العشاء.

فقالت: "لست أدري". وبدأت هي الأخرى تشعر بالقلق من غياب الفتاة. فقالت: "ليست على طبيعتها بعد، لذا ربما خلدت للنوم. لنرسل "مراد" ليستدعيها".

ولكن "مراد" عاد من غرفة إيلاف وحده. فقد قالت له إنها لا تشعر أنها على ما يرام، ولن تنضم إليهم لتناول العشاء. فلم يظهر كمال ولا تيموثي أي رد فعل. في البداية، شعرت إسراء بالاستياء من الفتاة لدرجة أنها أرادت أن تذهب إليها وتوبخها، ولكنها بعد ذلك غيرت رأيها. فقد وجدت أن الوضع أفضل بهذه الطريقة. وفكرت أنهم إن أمضوا ليلة بعيدين عن بعضهم بعضاً فسيساعدهم هذا على استعادة هدوئهم.

قال لهم أشرف إنه تحدث مع العمدة، وأخبرهم أن السيد "أديب"- عندما سمع أن الصحافة التركية والأجنبية ستحضر المؤتمر- عبّر عن سعادته الكبيرة لتقديم المساعدة لهم، وقال إن كل معدات البلدية ستكون تحت

أمر فريق التنقيب عن الآثار من أجل المؤتمر الصحفي، وكذلك العاملين فيها.

وبينما هم يتجاذبون أطراف الحديث، خرجت الطماطم من المشواة وحلت أسياخ اللحم محلها. وبعد دقائق، ملأت رائحة رائعة الجو.

تذمر تيومان الذي ظل يتململ على مقعده وكأن الرائحة تسبب له الألم، وقال: "ما رأيكم أن نحتسي القليل من الشراب هذه الليلة فقط؟ لا يمكن تناول اللحم بدون شراب، هذا غير ممكن على الإطلاق".

تشجع تيومان عندما لاحظ أن إسراء لم تسارع بمقاطعته. فالتفت إلى أشرف وحثه قائلاً: "ما رأيك أيها النقيب؟ هل نحتسي القليل من الشراب الليلة؟".

فقال أشرف وهو غير مدرك لاعتراضات إسراء السابقة على احتساء أفراد الفريق الشراب: "بالطبع. لو عرفت ذلك، لأحضرت لكم معي شراباً ممتازاً. فلدي زجاجتان في البراد".

اعتدل تيومان على كرسيه، وقال: "لا بأس على الإطلاق، أيها النقيب. لدينا ما يكفي منه هنا". ثم سأل وهو ينظر حوله إلى بقية الجالسين حول الطاولة: "الجميع يريدون أن يحتسوا القليل من الشراب، أليس كذلك؟".

فقال بيرند: "إنني أفضل الشراب الأحمر".

فقال: "حسناً، شراب أحمر لبيرند". ثم التفت إلى مراد، وقال: "هيا الآن ياصديقي مراد، دعنا نحضر الشراب بنفسينا".

لم يسع إسراء إلا أن تهز رأسها، بينما توجه الشابان نحو المطبخ. في الواقع، لقد تاقت هي أيضاً لاحتساء كأس من الشراب، فهم لم يحتسوا الشراب منذ وقت طويل. وبالإضافة لذلك، فقد ظنت أن هذا قد يساعد على تلطيف الأجواء المتوترة بين كمال وتيموثي. وفي غضون دقائق، صُفت الكؤوس على الطاولة، وامتلأت بالمشروب، وعبقت للحظات رائحة اليانسون بقوة في أنحاء المكان، وطغت على رائحة اللحم الصادرة من المشواة.

قالت إسراء وهي تمد يدها إلى كأسها: "لقد كان والدي يعتقد أن الرشفة الأولى قبل الوجبة هي رشفة الحظ. إذاً، ماذا تقولون؟ هلا نفعل".

فبدأ الجميع يرفعون كؤوسهم، ولكن تيموثي قاطعهم قائلاً: "بما أن تيومان هو القوة الدافعة التي جعلتنا جميعاً نشرب الليلة، فأنا أقترح أن يقدم هو النخب".

فقال خبير الآثار السمين: "حسناً". ولم يدع التردد، بل نهض على

الفور ورفع كأسه، وقال: "لتكن صعوبة العثور على الكلمات المناسبة هنا أكبر متاعبنا...".

وراح يفكر بما يريد قوله عندما بدأ مراد يشد قميصه وهو يقول: "هيا، يارجل. يكاد الشراب يصبح ساخناً".

"اصبر قليلاً ياصديقي. الآن، أريد أن أرفع كأسي تحية لرجلين منحانا هبة هذا العشاء الرائع؛ إلى معلمين بارعين ولدا كلاهما على هذه الأرض رغم أن ألفين وسبعمائة سنة تفصل بينها، أولهما هو باتاسانا؛ وهو رجلٌ نادر الوجود بين كتبة القصور المتملقين؛ رجل سجّل في ألواحه كلمات الحقيقة، أو على الأقل الحقيقة من وجهة نظره هو. والثاني هو معلم الطبخ الذي ظل لأيام عديدة يحضِّر لنا بكل براعة أشهى الأطباق المتنوعة لمتعة بطوننا. وهكذا، فإنني أرفع كأسي لهذين الرجلين العظيمين".

وفي تلك اللحظة، مسح خلف العرق المتجمع على جبينه بيده، ولكنه عندما سمع كلمات الثناء تلك انفرجت شفتاه عن ابتسامة كبيرة، كاشفة عن صفين من الأسنان البيضاء كاللآلئ. فظنت إسراء أنه سيتصرف بتواضع شديد حيال المسألة برمتها، ولكن الطاهي أثبت عكس اعتقادها.

فقال من دون أن ينوي ترك الموضوع يمضي بسلام بتلك السهولة: "إن التفوه بالكلمات سهل جداً، ولكنني لم أر أحداً هنا يقدم لي كأس شراب، ويطلب مني أن أروي عطشي أيضاً".

فصاح تيومان متظاهراً بالغضب، ثم التفت إلى مراد وقال: "ماذا؟ ألم تعط "خلف" كأس شراب ياصديقي؟".

"لم تطلب مني ذلك".

"هل يجب علي أن أطلب منك كل شيء؟ أحضر كأس شراب لطاهينا العظيم على الفور".

انطلقت عاصفة من الضحك مع صوت صليل الكؤوس، بينما ارتشف الجميع شرابهم بكل سعادة، وتناولوا الوجبة التي سماها خلف "كباب اللحم المقطع مع الطماطم المهروسة" ووجدوها شهية جداً؛ ليس تيومان وحده، بل حتى بيرند رغم أنه مد يده إلى اللحم في البداية بحذر شديد خشية أن يكون كثير التوابل. ولكنه سرعان ما أخذ يتناول بشهية قطعة تلو الأخرى من اللحم الطري والصلصة التي يسيل لها اللعاب. تفحصت إسراء المتحلقين حول الطاولة بأكملها بطرف عينها، ووجدت أن الجميع يبدو عليهم أنهم في مزاج جيد، لذا فكرت أنهم وضعوا الجدال الذي دار بينهم عصر ذلك اليوم وراء ظهورهم أخيراً. ورغم أن "كمال" بدا متحفظاً بعض

الشيء، إلا أنه اشترك مع أصدقائه في مزاحهم، وأصغى إليهم، وعلق على دعاباتهم، حتى إنه توقف عن النظر بغضب إلى تيموثي. ولو استمرت الأمور على هذا النحو، لأمضوا أمسية في غاية السرور والمتعة، ولكن الأمور لم تبق على ذلك الحال. فسرعان ما اندلع شجار آخر أفسد عليهم عشاءهم الاحتفالي.

فقد قال الألماني وهو يجمع سبابته مع إبهامه كالإيطالي: "الآن، هذا لذيذ جداً". وكان بيرند قد شرب بمفرده زجاجة شراب أحمر كاملة مع طعامه، ثم قال: "لماذا لا تعد لنا طبق الكفتة المشوية أيضاً؟".

فقال خلف: "سأفعل ذلك يابيرند". وبدا خلف الآن في مزاج مسترخ بفضل المديح الذي تلقاه؛ لدرجة أنه خاطب خبير الآثار الألماني من دون تكليف، وقال: "بما أنك أصبحت تعرف القليل عن الكباب الآن، فإن قلت إن الوقت قد حان لعمل الكفتة، فعندئذ سوف نعد لك الكفتة".

فأساء بيرند فهم صراحة خلف وظنها سخرية، وقال: "هذه ليست المرة الأولى التي أتناول فيها الكباب. فقد تناولته أيضاً في أضنة وفي ديار بكر أيضاً".

فقال خلف وكأنه يعطي الألماني نصيحة: "أحسنت صنعاً. وأراهن أنك خلال ذهابك وإيابك في تركيا تعرفت على الكفتة أيضاً".

بدأت نبرة صوت بيرند تتخذ أسلوباً قاسياً، وقال: "لم أتعرف على الكفتة منك. إن الأرمن هم الذين علموني عن الكفتة".

تغيرت ملامح خلف وقال: "هيا يابيرند، إن الأرمن لا يعرفون شيئاً في ما يتعلق بالكفتة".

فقال بيرند: "ولم لا يعرفون؟". وبدا أن الوميض في عينيه الذي أحدثه الشراب قد اختفى. ثم قال: "ماذا؟ هل أنت المالك الشرعي الوحيد لطبق الكفتة؟ هل هي من اختراعك أو ما شابه؟".

قاطعته إسراء قائلة: "بالطبع ليست كذلك". وشعرت أن المحادثة تتجه في اتجاه خاطئ منذ أن أتت كلمة "أرمن" على لسان بيرند. وقالت: "جميع من يملكون المهارة يمكنهم إعدادها".

فقال خلف: "كلا، ليس الجميع. ليس هناك شيء بسيط حيال طبق الكفتة. يجب على المرء أن يعرف بالضبط كيف يعدها".

قالت إسراء وهي تنظر بغضب إلى خلف: "كفى ياخلف. لقد رأيت أشخاصاً إنكليزاً يجيدون إعداد الكفتة".

ولكن الطاهي لم يكن في حالة تسمح له بفهم أي من نظرات إسراء

القاسية أو قصدها من كلامها.

فقال: "أنت مخطئة حيال هذا ياسيدة إسراء. إن أسلافنا هم الذين اخترعوا الكفتة. ولهذا السبب، نحن أفضل من كل الذين يعدونها".

صاح بيرند: "هذا خطأ كبير! إن تاريخ الكفتة يعود إلى آلاف السنين. يمكننا أن نرى أن رسومات الكفتة الأولى قد اكتشفت في قراطيب، وهي رسومات تعود إلى القرن الثامن قبل الميلاد، وهذا يعني ألفاً وثمانمائة سنة كاملة قبل وصول الأتراك إلى الأناضول. هل فهمت هذا؟".

فقال خلف: "إنني في الواقع لست ذكياً بما فيه الكفاية لأفهم هذا الكلام ياصديقي بيرند". وبحلول هذا الوقت، بدا على خلف أنه تخلى عن كل آداب الحوار المهذب، فقال: "على حد علمي، الأرمن لا يمكنهم أن يعدوا طبق كفتة جيداً".

رمق بيرند "خلف" بنظرة حقد. وعندما رأت إسراء شرارات الغضب في عيني زميلها الألماني أدركت أن الأوان قد فات. ومما زاد الأمور سوءاً أن "خلف" بدا غير مدرك على الإطلاق لحساسية الموضوع المطروح.

قال الألماني: "ولماذا لا ينبغي عليهم أن يتمكنوا من إعداد الكفتة بشكل جيد؟ لقد عاشوا هنا قبل أن تطأ قدمك هذه البلاد بوقت طويل، وأسسوا لحضارة مهمة، وبنوا مدناً عظيمة، بينما انشغلتم أنتم باحتلال البلاد الأخرى والاستيلاء على أراضي الناس. والآن تقول إنهم غير قادرين على طهي الكفتة؟".

طقطق خلف بلسانه ورفع رأسه متحدياً، وقال: "كلا، لا يمكنهم ذلك".

ازداد قلق إسراء مع تطور المحادثة أكثر فأكثر. فصاحت: "هذا يكفي ياخلف!". ولكن الطاهي الذي بدأ يشعر بتأثير الشراب الذي استهلكه عليه لم يتوقف.

وقال: "آه الآن ياسيدة إسراء. لماذا تقولين هذا؟ إنني أتبادل حديثاً ودياً وحسب هنا مع صديقي بيرند". ووضع يده اليمنى على صدره والتفت إلى الألماني وقال: "حسناً، أنت محق. لقد عاش الأرمن هنا على هذه الأرض، ولديهم أطباق ممتازة يعدونها بأسلوبهم الخاص، ولكن لا يمكنهم أن يعدوا الكفتة".

تلوت ملامح وجه بيرند في تقطيبة اشمئزاز وقال: "إنكم تسخرون منهم حتى في ما يتعلق بالطعام. كلكم منحازون ضدهم حتى النخاع".

"آه، لا تقل هذا ياصديقي بيرند. نحن نعيش هنا جنباً إلى جنب مع الأرمن. ولدينا قرى أرمنية هنا".

"ها، قرى أرمنية! إن الناس في هذه القرى لا يسمون أنفسهم أرمن بعد الآن لأنهم يخشون أن يقعوا ضحية المجازر نفسها التي ارتكبت في حق أسلافهم قبل سنين عديدة".

لم يعد الجو المسالم سائداً حول مائدة العشاء، والآن توجهت أبصار الجميع إلى بيرند وخلف. ومع ذلك، لم يُلق بيرند أي اهتمام للانتباه الذي جذبه وهو مستمر بتوبيخ الطاهي بصوت مرتفع. وأخيراً، فهم خلف المشكلة التي ورط نفسه فيها، ولكن بحلول ذلك الوقت فات الأوان على التراجع. فقد استشاط بيرند غضباً، لدرجة أنه بدا على وشك أن يبدأ بضرب الناس في أية لحظة. وكان خلف مستعداً للعراك، ولكنه خشي من أن يرتكب أي خطأ في حالته غير المستقرة تلك. وبينما هو يفكر في أن عليه الاعتذار لبيرند ربما، انضم النقيب إلى الجدال.

فقال: "أظن أنك تلقيت معلومات خاطئة عن بعض الأحداث التاريخية".

وكان صوته متوتراً ولكنه ثابت.

فانتقلت عينا بيرند من خلف لتركزا على النقيب.

وقال من دون حتى أن يفكر للحظة واحدة: "في الواقع، أنت من تلقيت معلومات خاطئة". ولم تجعله حقيقة أن أشرف ضيفهم وأنه ساعدهم مرات عدة يخفض من نبرة صوته ولو قليلاً، فقال: "لقد كان قادتكم يضللونكم ويعمون أبصاركم لسنوات، ويحاولون أن يخفوا حقيقة أنهم ارتكبوا أول مجزرة في التاريخ".

انتشر لون أحمر طفيف على وجه أشرف الداكن، ولكنه قال وهو يركز على كل كلمة يلفظها: "لقد لعب الشراب برأسك، لذا فأنت تخلط بين الأتراك والألمان".

لم يتوقع بيرند سماع هذا الرد؛ ممّا زاد من حدة غضبه. وعندما أوشك أن يفتح فمه ليقول شيئاً، تدخل تيموثي.

فقال: "من فضلك يا بيرند، هدئ من روعك. هذا ليس وقتاً مناسباً لمناقشة هذه الأمور".

سأل خبير الآثار الألماني قائلاً: "لماذا ليس مناسباً!؟". وتحول وجهه إلى لون أحمر كالدم بحلول هذا الوقت، ثم قال: "إنني رجل حر، ويمكنني أن أتحدث عما أريده في الوقت الذي أريده". والتفت إلى أشرف ليتابع النقاش قائلاً: "إنني لا أخلط ياسيدي بين الأتراك والألمان. نعم، نحن الألمان ارتكبنا فظائع يندى لها الجبين، وينبغي علينا الشعور بالخزي منها، ولن تنسى

البشرية كلها المجازر التي قمنا بها، ولكننا تحملنا مسؤوليتنا عنها. فلماذا إذاً لا تتحملون أنتم مسؤولية أفعالكم؟".

بدا النقيب على وشك فقدان السيطرة على أعصابه، ولكنه تمكن من المحافظة على هدوئه بفضل تحذيرات إسراء المستمرة وهي تخبط قدمه من تحت الطاولة.

"انظر ياسيد بيرند، أنت تستمر بالقول "أنتم، أنتم"، ولكنني جندي أخدم في الجمهورية التركية، في حين أن الأحداث التي تتكلم عنها حدثت خلال الوقت الذي حكمت فيه الحكومة العثمانية. أعني أن الحكومة العثمانية دمرت، ثم حلت الجمهورية التركية محل الحكومة ونظام الدولة الذي تسبب بتلك الأحداث".

فقال بيرند وهو يلهث: "وأنا أيضاً أعرف أن الحكومة الجديدة دمرت القديمة، ولكن الحكومة الجديدة لم تعترف بفكرة وقوع المجازر على الإطلاق".

صاح النقيب بغضب: "ولن يحدث هذا أبداً؛ لأن الناس لم يتعرضوا للإبادة بشكل مدبر ومنظم جماعياً كما فعلتم أنتم خلال الحرب العالمية الثانية، ولكنهم أجبروا على الهجرة".

هز بيرند رأسه بازدراء، وقال: "وهل هذا هو السبب الذي جعل آلاف الناس يموتون؟".

"كان هناك عدد كبير من الناس، فوقعت بعض الأحداث المؤسفة خلال الهجرة...".

فقاطعه بيرند وقال: "هذا كله محض هراء. لقد تم التخطيط لتلك المجزرة على أيدي قادة حزب "الاتحاد والترقي" أنفسهم، وتم تنفيذها بقيادة منظمة "التشكيلات المحسوسة" لأن قادة حزب "الاتحاد والترقي" فشلوا في التأسيس لهويتهم القومية، ولم يحتملوا وجود أمة مسيحية قد تدمر الوحدة التي يسعون لتشكيلها في الأناضول... وذلك هو السبب...".

فقال النقيب: "أنت مخطئ". والآن لم يعد يكترث لإسراء ولركلاتها المستمرة له من تحت الطاولة، فأضاف قائلاً: "لقد تم تضليلك بالمعلومات في كل شيء. خلال تلك الفترة، حارب العثمانيون الروس في الشرق، فبدأ الأرمن يثيرون المتاعب ويدعمون القوات الروسية، أي عدو العثمانيين، وأعني بهذا أنهم أحدثوا خرقاً في مقدمة الجيش من الخلف. وبالنسبة لأي مقدمة، فخرقها من الخلف يعني الموت لأي جيش. وفوق ذلك، الأرمن مسؤولون عن تعرض 90000 جندي للتجمد حتى الموت في ساركاميش لأنهم

هم الذين بلغوا الروس عنهم. وفي ظل ظروف من ذلك النوع، ما التصرف الطبيعي بالنسبة للقوات العثمانية أكثر من تعزيز موقعها خلف المقدمة؟".

"ألهذا السبب قتلتم مئات آلاف الأرمن؟".

زمجر النقيب قائلاً: "لماذا تصر على عدم الفهم؟ لم يرغب أحد بحدوث هذه الأمور، ولكنها حدثت لأن الناس علقوا في غمرة الأحداث التي وقعت في تلك اللحظة. إن المسؤولين الفعليين عن الأحداث التي حدثت في ذلك الوقت هم الروس والبريطانيون والفرنسيون والأمريكان الذين حرضوا الأرمن على تأسيس دولتهم المستقلة بهدف تقسيم أراضي الدولة العثمانية. ولولا تحريضاتهم، لبقي الناس الذين عاشوا بحب وسلام لستمائة سنة يعيشون مع بعضهم بعضاً على ذلك النحو".

فتح بيرند عينيه على وسعهما من فرط الغضب، وقال: "إنني لا أظن ذلك بالفعل أيها النقيب. فكلما طلب الأرمن منكم حتى أبسط الحقوق، أغرقتموهم بالدم والنار".

فقال أشرف بنبرة توبيخ صريحة: "إنك شديد الانحياز لهم. لقد ظننتك رجلاً أكثر حكمة من ذلك".

والآن، بدأ الجدال يتخذ منحى شخصياً، فدب الهلع في نفس إسراء، وراحت تفكر بطريقة تساعدها في وضع حد لكل هذا عندما رن هاتف بيرند فجأة وأنقذها من موقفها الصعب. ارتبك بيرند من هذه المقاطعة غير المتوقعة، فتوقف برهة، ثم رد أخيراً على الهاتف. تحدث بالألمانية مع المتصل، وهذا في البداية زاد من مخاوف إسراء أكثر من ذي قبل لأنها ظنت أن فارتوهي هي المتصلة، وأن غضب بيرند سيتأجج حتى أكثر بعد التحدث إلى زوجته. ومع ذلك، فقد أثبت رعبها أنه لا أساس له لأن فارتوهي لم تكن المتصلة، بل جوتشيم من المعهد الألماني للآثار. فقد وصل إلى غازي عنتاب مع مرافقيه، ولكن مشكلة ما واجهتهم بالفندق على ما يبدو، لذا اتصلوا ببيرند طلباً للمساعدة.

قالت إسراء لبيرند: "لا يمكنك الذهاب وحدك وأنت في هذه الحالة. دع "مراد" يذهب معك". بينما راحت بينها وبين نفسها تثني على جوتشيم لأنه أنقذها من ورطتها.

ومع ذلك، لم يكترث بيرند لكلامها، وقال وهو ينهض: "ليس هناك أي خطب بـي. إنني على ما يرام. ليس الشراب هو ما أزعجني، بل بعض الأمم التي من المعروف أنها ارتكبت جرائم إبادة جماعية".

وبالطبع، سارع أشرف بالرد عليه، فقال: "لذا من الأفضل أن تكف

عن النظر إلى نفسك في المرآة وإلا فمن المؤكد أنك ستفقد صوابك في غضون وقت قصير".

قال بيرند: "كنت على وشك أن أقترح عليك أن تلقي نظرة فاحصة على تاريخك". ونهض عن كرسيه، ولكنه أخذ يترنح وكأنه على وشك أن ينهار على الأرض في أية لحظة، ثم قال: "ألقِ نظرة فاحصة على تاريخك وسوف تتمكن من حل المشكلة الكردية على حد سواء، ولكن إن لم تفعل ذلك فصدقني أنكم ستعانون من مشاكل كثيرة في المستقبل". ومد يده قبل أن تسنح الفرصة للنقيب ليرد على كلامه.

وقال: "إلى اللقاء. سوف نكمل نقاشنا في وقت آخر".

صافح أشرف اليد الممتدة إليه رغم أنه شعر بالاستياء لأنه لم يحظ بالفرصة المناسبة للتعبير عن أفكاره ومشاعره بالرد. وبينما مشى بيرند متعثراً، نهض تيموثي بدوره ليلحق به.

وقال: "سأذهب برفقته. لا يمكنه قيادة السيارة وهو في حالته هذه".

تمتم النقيب بينما مشى الرجلان مبتعدين: "إن هذا الرجل مهووس بالأرمن لدرجة الجنون. يبدو لي أشبه بإرهابي أرمني وليس خبير آثار".

تذمر كمال قائلاً: "إنهم جميعاً مجانين. لن أنضم إلى مهمة تنقيب مع أمثالهم مرة أخرى".

توجب على إسراء مجدداً أن تتولى مهمة تهدئة الجميع، فقالت: "وكأنه لا توجد أية مشاكل تنشأ في الفرق التي تضم أفراداً أتراكاً دون غيرهم".

"هناك مشاكل، ولكن على الأقل لن يكون هناك أحد يهين بلادنا".

قالت إسراء: "سأتحدث إلى بيرند عندما يعود. لنغلق هذا الموضوع في أسرع وقت ممكن".

تمتم تيومان بعد أن أخذ جرعة من شرابه: "لن أسهر بانتظاره لو كنت مكانك. فالله وحده يعلم متى سيعود".

á á á

اللوح الثالث والعشرون

لم أستطع تحمل العودة إلى القصر ولا رؤية وجه بيزيريس. فمشيت إلى نهر الفرات، ورحت أتمشى بجانب العبيد الذين يعملون بالحصاد في حرارة الصيف، واقتربت من النهر، ثم جلست تحت شجرة تين قديمة، وبدأت أفكر في السنوات السابقة التي عشتها. شعرت أن غضبي قد هدأ، ولكن الألم أحرق قلبي كالشمس التي تجفف العشب الأخضر الساطع على الأرض.

أدركت أن كل ما قاله لي لاموس صحيح. فقد تلقيت من التعليم والتدريب أكثر مما تلقاه أي رجل آخر في هذا البلد، وتحليت بالمعرفة والإخلاص والجد والاجتهاد والطاعة. وما الفائدة التي جنيتها من كل هذا؟ لقد كان جدي يحمل الصفات نفسها وكذلك أبي، ولكن ما الذي استفاداه منها؟ قال والدي إن الكتبة هم قلم بيتشوب وعائلته، ومع ذلك فنحن سواء أكنا أذكياء أم أغبياء، شجعاناً أم جبناء، حكماء أم جهلة، نحن لا نفعل سوى التحرك كقطع الشطرنج الكثيرة في هذه الألعاب الدموية التي يلعبها الملوك بين بعضهم بعضاً. ولكن، أليس الملوك أنفسهم ألعاباً يلهو بها تيشوب وعائلته على حد سواء؟ ألم يكافئ تيشوب الملوك أو يعاقبهم بناء على أهوائه أيضاً؟ وفي نهاية المطاف، هو وعائلته يقررون من ينتصر في الحروب ومن ينهزم فيها؟

في تلك الحالة، هو وعائلته هم المذنبون وليس الملوك. أليس هؤلاء أسيادنا الحقيقيين في كل الأحوال؟ أليسوا مدركين لكل أعمالنا سواء أكانت خيرة أم شريرة؟ والأهم من كل ذلك، أليس الملوك الذين يشنون تلك الحروب الدموية هم ممثليهم على هذه الأرض؟ ألم يقل الكهنة ذلك بأنفسهم؟ ألم يذكر هذا في الألواح؟ ألم ينبهونا أن نخشى دوماً غضبهم؟ إنهم مريعون وقساة كأمثالهم لدى الآشوريين والأورارتيين والفريجيين وكل البلاد التي أعرفها... يمكنهم أن يمطرونا بوابل من الصواعق ويحرقونا بنيران أبدية ويدمرونا بالأمراض والجوع. إنهم أقوياء، وغضبهم يبعث الخوف في النفوس. ولكن، أيمكن أن يكون هناك خوف أعظم من الخوف في الحرب؟ أيمكن لغضبهم أن يكون أشد تدميراً من غرق الهلال الخصيب في الدماء؟ هناك محاربون صغار خنقوا بلا رحمة، ونساء اغتصبن، وأطفال وشيوخ أخرجوا من ديارهم، وأناس من ألسنة مختلفة ينتحبون للسموات العالية... أيمكن أن يكون هناك غضب أعظم وعقوبة أشد من هذا؟

ما الذي يجنونه من معاناة الناس وموتهم وشللهم ونفيهم من ديارهم؟ فإن مات خدمهم، فمن أين لهم بمن يبني لهم المعابد الفخمة، ويهديهم أثمن الهدايا، ويقيم لهم الطقوس، ويتوسل إليهم؟

هل يعقل أن يكون البشر هم المسؤولين عن كل هذه الوحشية والقتل؟ إن الملوك، ممثلي تيشوب وعائلته، هم الذين يصدرون أوامر القتل والسيطرة والتدمير. ولكن من يُبيدون الآخرين، ويقطعون الأيدي والأرجل، ويفقؤون العيون، ويحرقون البيوت هم العبيد. ليس بإمكانهم تنفيذ هذه الوحشية والإجرام لو أنهم لا يملكون غريزة قوية للقتل، وحافزاً للتدمير، وشهوة للإبادة. هل يعقل أن تكون الوحشية طبيعة متأصلة في داخلنا جميعاً ملوكاً ونبلاء وقادة وعبيداً؟

بينما أنا جالس تحت شجرة التين على ضفة نهر الفرات، رحت أطرح تلك الأسئلة الآثمة واحداً تلو الآخر على نفسي، ولكنني عجزت عن إيجاد إجابة عن أي سؤال منها. فقد زاد كل سؤال منها من ارتباكي، وزاد كل جواب خطر ببالي من إحساسي بالخوف. اضطربت هذه الفوضى كلها داخل عقلي، حتى سمعت لها صوتاً كصوت أنين ذئب جريح.

عندما رفعت رأسي، رأيت أحد أطفال العبيد يقدم لي إبريقاً من الماء. وقف أمامي بجسده الأسود الداكن كزيتونة بين سنابل القمح الشقراء. وبدت قدماه مشققتين ومليئتين بالمسامير بالرغم من صغر سنه، كما بدت العظام بارزة من جسده النحيل بعد أن فشلت ملابسه الممزقة في إخفائها. راح يكرر كلامه بصوته مضنى محاولاً أن يجعلني أسمعه.

"هل تريد بعض الماء، ياسيدي؟".

ابتسمت للعبد الصغير الذي فشل إرهاقه في محو عزيمته، وأخذت الإبريق من يده وقربته مني، وأرجعت رأسي إلى الوراء، وبدأت أشرب، فبللت برودة المياه العذبة الحلوة شفتي وملأت فمي. وشعرت لفترة قصيرة أن حرارة ذلك اليوم المتوهجة، والحزن الأسود الذي سكن قلبي أصبحا من مخلفات الماضي. وانتشرت مياه السماء في عروقي، وأنحاء جسدي، وغسلته، وطهرت روحي. وتملكني شعور بالتقدير لمدى جمال التنفس واللمس والتذوق والشم والرؤية والتفكير؛ على الرغم من كل الاستبداد والطغيان اللذين يمارسهما الملوك والبشر. لقد أعادت لي المياه التي شربتها من الإبريق الذي سلمني إياه الطفل العبد حبي للحياة وقوتي للمقاومة. هناك علامات كثيرة على هذه الأرض ترينا أننا يجب أن نعيش: كنظرة حب، ولمسة عطف، وهمسة صادقة، وابتسامة عذبة، والطعم الذي تتركه الفاكهة

الطازجة في الفم، والزهور الرقيقة، والبراعم في أكثر الأراضي جفافاً. فإن لم ننظر إلا لقسوة العالم واستبداده والاستياء منه، فنحن لا نفعل سوى ظلم أنفسنا. همست شفتاي من تلقاء نفسيهما: "أشمونيكال... أشمونيكال...". وفجأة، أدركت شدة شوقي إليها. فشكرت الطفل، وأنا أعيد له الإبريق فأخذه بصمت وابتعد. وعندئذ، نهضت ومشيت إلى الفرات. وعندما وصلت إلى حافة الماء، ركعت وغسلت وجهي، فمحوت آثار الدموع التي ذرفتها حزناً على والدي. وشعرت ببرودة المياه تسيل على وجهي، ورأيت انعكاس صورتي في المياه الراكدة لنهر الفرات. فتمتمت قائلاً: "الكاتب باتاسانا". ثم هززت رأسي وقلت: "من الآن فصاعداً، لن يعود هناك باتاسانا الكاتب بل باتاسانا العاشق". سيظل الجميع يدعونني بالكاتب باتاسانا، ولكنني في الواقع سأصبح باتاسانا العاشق. وإن فشلت في تغيير قدر قومي وبلدي، فإنني لن أفشل في تغيير مجرى حياتي.

á á á

الفصل الرابع والعشرون

رأته واقفاً على الطريق. ورغم أنه أدار لها ظهره، إلا أن إسراء استطاعت أن تعرف أنه بيرند بسبب شعره الأشقر القصير وكتفيه العريضتين وطول قامته. فكرت بأن تناديه، ولكن قبل أن تتسنى لها الفرصة للقيام بذلك، غادر زميلها الشارع ودخل إلى بستان الحور المجاور. إلى أين يمكن أن يكون ذاهباً؟ انطلقت في أعقابه، فغادرت الطريق الترابـي الذي يؤدي إلى القرية، واتجهت في طريقها إلى بستان الحور على حد سواء. وفجأة، وجدت نفسها محاطة بالظلام. فقد فشلت أشعة الشمس رغم محاولاتها في اختراق المظلة التي شكلتها الأوراق الصغيرة الكثيفة التي توجت أشجار الحور الباسقة. ظلت إسراء تراقب الخبير الألماني بحرص لئلا تفقده في ظلام تلك الظلال الكثيفة. وعندما رأت بيرند يتوقف عن المشي، توقفت بدورها. لم تعد هناك مسافة طويلة بينهما، فرأت بيرند يلتفت إلى الوراء فجأة، لذا ألقت بنفسها بسرعة خلف إحدى الأشجار القريبة. بقيت في وضعيتها تلك لبعض الوقت قبل أن تمد رأسها بحذر لتلقي نظرة على زميلها، ولكنه اختفى. خرجت من خلف الشجرة، وبدأت تتفحص المنطقة ببصرها. كلا، لم يعد من الممكن رؤية بيرند في أي مكان. ومع ذلك، فكرت أنه لا يسعه أن يبتعد مسافة طويلة؛ فكثافة الأشجار ووعورة الطريق جعلتا من الشاق عليه أن يمضي بسرعة كبيرة. بدأت تشق طريقها عبر البستان وهي تتفحص محيطها بعناية في كل خطوة تخطوها. فقطعت نحو خمسين متراً تقريباً، ولكنها لم تجد أي أثر لزميلها. وكلما توغلت في البستان، ازدادت حلكة الظلام إلى أن أصبح شديد الظلمة؛ وكأنه ليلة من أحلك الليالي. ربما ضل طريقه؟ كلا، هذا مستحيل. فعلى أية حال، هذا بستان صغير يمتد على مسافة خمسمائة متر من جانب إلى آخر. تقدمت إلى الأمام وهذه الأفكار تدور برأسها، ولكن بدا على البستان أنه يمتد إلى ما لا نهاية. وبات المكان حالك الظلمة ورائحة العشب الجاف عابقة في الجو. أصبحت تتقدم الآن ببطء أكثر لأنها لم تعد قادرة على رؤية طريقها بوضوح. وفجأة، زلّت قدمها، فظنت أنها تعثرت بجذع شجرة ساقط على الأرض، ولكنها بعد نظرة فاحصة أكثر أدركت أنه ليس جذع شجرة على الإطلاق بل جسد إنسان: "يا إلهي! بيرند؟". ركعت على الأرض بقلق بجانب الشبح المتمدد أرضاً على بطنه.

وقالت وهي تحاول أن تقلب جسم الرجل الثقيل: "بيرند؟ ماذا جرى

لك يابيرند؟". شعرت بوجود شيء على يدها، فنظرت ورأت أنه سائل داكن اللون.

"هل أنت مصاب؟".

ظل الرجل ساكناً كالجثة الهامدة، فلم تسمع سوى صدى صوتها يتردد في أنحاء البستان. وأخيراً، نجحت في قلب الرجل، فصاحت حين رأت وجهه: "آه، ياإلهي! إنه أشرف!".

فقال لها صوت مألوف: "نعم، إنه أشرف. وجثتا بيرند وتيم هنا أيضاً".

التفتت إسراء إلى الجهة التي صدر منها الصوت وهي مرعوبة، ورأت رجلاً واقفاً على بعد بضعة أمتار منها، ولكن شدة الظلمة الحالكة منعتها من أن تتبين شكله وتتعرف على هويته.

"من أنت؟".

فقال الرجل وهو يمشي مقترباً منها: "عيب عليك ياسيدة إسراء. ألا تميزين الرجل الذي يعد لك الوجبات الشهية وتثرثرين معه كل يوم؟".

"خلف! هل هذا أنت؟".

تردد صدى صوت خلف الوقح في أنحاء البستان وهو يقول: "هذا أنا. من سيكون سواي إذاً؟".

"ولكن، لماذا ارتكبت عملاً سيئاً بهذا الشكل؟".

"لقد فعلته إكراماً لأحد أبناء بلدي".

"أبناء بلدك!؟".

"آه، هيا. لا تقولي لي إنك ما زلت لا تفهمين ما أعنيه. إنني أتحدث عن باتاسانا. فقد تعديت على خصوصيته، واستوليت على ما لا يخصك".

وفجأة، أفسحت أشجار الحور الطريق لمرور أشعة الشمس من خلالها وكأن هناك من أمرها بذلك. وسطع الضوء على وجهي إسراء وخلف؛ مما سمح لإسراء برؤية وجه الرجل الذي تتحدث إليه، ولكنه لم يكن "خلف" بل كان ذلك الرجل الذي هرب من أعماق التاريخ معتمراً قبعة غريبة ومرتدياً رداء طويلاً مطرّزاً ومتقلداً سيفه العريض بيده.

قالت إسراء متلعثمة: "باتاسانا!". وأصبح صوتها أجش من فرط الخوف: "أنت باتاسانا".

فقال باتاسانا متحدثاً بلهجة خلف التركية: "لقد حذرتك، ولكنك لم تفعلي ما أمرتك به في ألواحي، لذا سوف تدفعين الثمن".

رأت إسراء الرجل يستل سيفه، ولكنها أصيبت بحالة صدمة ودهشة

لدرجة أنها عجزت عن الكلام أو الحركة. ولم يعد بوسعها سوى النظر بصمت؛ وكأنها استسلمت لقدرها. رفع الرجل سيفه، فرأت إسراء السيف المرفوع في السماء يشق ضوء الشمس إلى نصفين. فسقط ضوء الشمس المشطور على الأرض وأبهر بصرها، ثم اختفى في ظلمة الأرض وتبعه السيف. حدث كل هذا برمشة عين واحدة رمشتها إسراء بعينيها قبل أن تفتحهما وترى ضوء الصباح الرمادي الشاحب يتسرب عبر النافذة. جلست على سريرها وهي غارقة في عرقها، وشعرت بصداع شديد يكاد يشق رأسها، وبضربات قلبها متسارعة بجنون. فأسندت ظهرها على الجدار، وأخذت بضعة أنفاس عميقة.

حالما أدركت أن ما شاهدته مجرد كابوس، ضحكت وفكرت في سرّها: "هذا هو ما يناله المرء بعد الإفراط في تناول كباب خلف". ولكن الضحك زاد من الألم الذي شعرت به في رأسها. حاولت أن تنهض من السرير، ولكنها لاحظت أن قدميها أخذتا ترتجفان. فتذمرت بينها وبين نفسها قائلة: "إنه مجرد كابوس حباً بالله". وخطت بقدميها الحافيتين بإصرار على الأرض، ثم قالت: "ولكن، ياله من كابوس!". وكأن أحداث الليلة الماضية البغيضة لم تكن كافية، فتوجب عليها الآن أن تتعامل مع هذا الكابوس المزعج.

تشكل إحساس غريب بالوحدة بين الأتراك بعد مغادرة بيرند وتيموثي. ومع ذلك، لم يخطر ببال إسراء أن تيومان الذي بذل كل الوسائل الممكنة ليتهرب من أداء الخدمة العسكرية قد يشاطر أشرف الأفكار نفسها. والأمر نفسه ينطبق إلى حد ما على كمال. وماذا عن خلف الذي لطالما شعر بالخجل من النقيب بسبب أصوله الكردية وحاول ألا يظهرها؟ فحتى هو بدأ يتحدث بطريقة مزعجة عن الأجانب. لقد بدوا جميعاً واثقين كل الثقة من صواب رأيهم، لدرجة أن إسراء نفسها بصفتها مديرة المهمة ربما كانت ستشاطرهم نفس المشاعر نفسها لولا أنها أدركت خطورة تشكل هذا النوع من الشقاقات بين أفراد الفريق الواحد. ومع ذلك، فقد أجبرها واجبها على التحلي بمسؤولية أكبر، لذا قالت لأصدقائها إنهم تسرعوا بالشعور بالإساءة حيال الأفراد الأجانب في الفريق. ورغم الشكوك التي ساورتها حول بيرند، إلا أنها بذلت ما بوسعها لتدافع عنه مما أثار غضب أشرف، وهذا بالتأكيد لم يكن في نيتها؛ مما تسبب في نشوء صدع بينهما.

فقد وصل الأمر بالنقيب لحد توبيخها أمام الفريق بأكمله، فقال: "إنك مستعدة لتحمل كل إهانات ذلك الرجل الوقحة لمجرد أنه أجنبي، ولكنك تشككين بكل ما أقوله أنا لك لمجرد أنني أرتدي زياً عسكرياً".

بينما حاولت إسراء أن تستعيد ثقة النقيب بها، بدأ كمال بإطلاق المزيد من الاتهامات، فقال: "وذلك الرجل المدعو تيموثي واحد منهم أيضاً. انظروا إلى الجهد الذي بذله لمساعدة تلك المرأة الأرمنية في العثور على أخيها".

وجدت هذا الكلام يتجاوز الحدود، فصاحت: "والآن، أنت تتفوه بالترهات! إنك على وشك أن تعلن أن الرجل متآمر أرمني لمجرد أنه يحاول أن يساعد تلك المرأة المسكينة".

قضى هذا الجدال الأخير على كل ما تبقى من متعة نشاطات الأمسية، مما جعل الصمت يخيم على الجالسين حول الطاولة لبعض الوقت. فطلب تيومان من خلف أن يغني لهم أغنية على أمل تلطيف الأجواء، فاستجاب الطاهي وغنى أغنيتين شعبيتين من قريته الأصلية باراك. وحاول كل من تيومان وإسراء الانضمام إليه في الغناء، ولكنهما لم يشعرا برغبة حقيقية في ذلك، وهكذا أتت نهاية الأغنيتين الشعبيتين سريعة. بدأ أشرف يلين بعض اللين قرابة نهاية الأمسية؛ حتى إنه همس في أذن إسراء مقترحاً عليها أن يتمشيا معاً على طول نهر الفرات. عندما اتصلت به إسراء في ذلك اليوم لتدعوه للعشاء في الأمسية، خطر ببالها أنهما سيجلسان معاً على الصخرة نفسها التي جلسا عليها من قبل، وسيتأملان النهر المتدفق من أمامهما، ولكن بعد كل ما جرى تلك الليلة، لم تعد تتمتع بمزاج يسمح لها بتأمل مياه النهر المتألقة أو ضوء القمر الساحر. فتذرّعت بالألم في رأسها ورفضت عرض النقيب، ثم شعرت بالحزن لدى رؤيتها دلائل خيبة الأمل على وجهه لأنها رفضت عرضه. ولكنها كانت امرأة ناضجة تعرف بما فيه الكفاية متى ترفض فعل الأشياء التي لا تريد أن تفعلها.

بعد أن ودعت أشرف تلك الليلة، تمددت إسراء على سريرها، وفكرت أنها تصرفت نحوه بإجحاف. ترى، هل أصبحت امرأة قاسية وعديمة الروح؟ كلا، ليس بالفعل، ولكنها لم تتمكن من إجبار نفسها على الخروج لتتمشى في منتصف الليل مع أشرف بوجود الكثير من العمل لتقوم به، ولا سيما أمام الفريق. فقد أحدثت قصص الحب ما يكفي من المشاكل في موقع التنقيب عن الآثار، لذا من المؤكد أنها لم ترغب بأن تصبح بنفسها واحدة من مفتعلي المشاكل بالإضافة إلى الآخرين، ولا سيما بوجود تينك الجريمتين اللتين ما زالتا تشغلان بالها... فكرت بأنها قامت بالعمل الصواب، ولكن هذا لم يشعرها بأي تحسن. فلم تكن هذه هي الأسباب الحقيقية التي جعلتها ترفض الخروج مع أشرف في نـزهة، ولكنها لم تشعر برغبة بذلك

وحسب. ولو أنها أرادت أن تخرج معه فعلاً، لعثرت على طريقة ما وخرجت معه، ولكن الحقيقة هي أنها ببساطة لم تشعر بأي دافع يدفعها لذلك. أم إنها سئمت منه منذ الآن؟ أبهذه السرعة؟ آه، كلا، هيا... ولكنها أدركت جيداً أن علاقتهما ليس لها مستقبل. في كل لقاء جمع بينهما، اتضح لها أكثر فأكثر كم هما مختلفان عن بعضهما بعضاً. ومع ذلك، لم تتردد في زيارته في بيته، والأكثر من ذلك أنها استمتعت بملاطفته لها. قالت لنفسها بصوت مشوش: "حباً بالله! لا فائدة من التفكير بهذا الموضوع، فسوف تمضي العلاقة في الطريق المقدر لها وانتهى الأمر".

وصلت إلى الفطور متأخرة كما حدث في صباح اليوم الفائت. وعندما وصلت إلى الطاولة، وجدت "خلف" يشرع بصب كؤوس الشاي. ألقت تحية الصباح على الجميع وعيناها لا تزالان نصف مغمضتين. جلس كل من بيرند وتيموثي مقابلها. أما إيلاف، فقد جلست على الجانب الآخر من الطاولة بعد أن قررت هذه المرة أن تحافظ على مسافة بعيدة بينها وبين الأمريكي.

نظر تيموثي إلى إسراء وهناك تعبير قلق على وجهه، وقال: "لا تبدين على ما يرام. يبدو أنك واصلت الشرب بعد أن غادرنا؟".

فقالت وهناك ابتسامة على وجهها: "لقد بالغنا بعض الشيء. تعرف كيف هو الأمر، فحالما تبدأ، لا تعرف بالضبط متى يجب أن تتوقف".

فقال بيرند: "اشربي القهوة بدلاً من الشاي". وبدا قلقه صادقاً وكأنه نسي كلياً الجدال الذي دار في الليلة الفائتة، ثم قال: "خذي قرصي أسبرين بعد الفطور وسوف تصبحين على ما خير ما يرام".

شعرت إسراء أنها لا تزال غاضبة من بيرند، ولكنها لم تكن في مزاج يسمح لها بمناقشته الآن.

فقالت: "أنت محق". وأشارت إلى كأس الشاي التي أمامها والتفتت إلى خلف قائلة: "هلا تأخذ هذه الكأس وتحضر لي فنجاناً من القهوة الثقيلة من فضلك".

لم تشعر برغبة في تناول أي طعام، ولكنها أخذت القليل من الجبن وشريحتين من الطماطم ووضعتها على طبقها.

قال خلف: "تناولي بعض سلطة الزيتون. سيساعد الطعام الحامض على تهدئة معدتك".

سألت إسراء بيرند وهي تمد يدها إلى سلطة الزيتون: "ماذا قال لك جوتشيم؟".

"لا شيء مهم. فقد طرأت مشكلة في الفندق. إن لغة جوتشيم التركية ليست جيدة، لذا حصل سوء تفاهم. كانوا سيعطوننا قاعة الاجتماعات الصغيرة، فتحدثنا إليهم واهتممنا بالموضوع. وسوف يبدؤون بالتحضيرات صباح اليوم".

"على ذكر التحضيرات، لقد كتبت النص الذي سيتم توزيعه على الصحفيين. وقد قام كمال بقراءة مسودته، لذا فهو جاهز لكي تتم ترجمته الآن".

قال بيرند: "ممتاز! سأترجمه إلى اللغة الألمانية حالما أعود".

سأل تيموثي: "هل النص مع كمال؟".

فقالت إسراء: "نعم". وبدا من الواضح لها أن الأمريكي لا يريد التحدث إلى كمال بنفسه، فأضافت قائلة: "لا تقلق، سأحضره لك".

قال مراد: "إن تمكنت من العثور عليه، وهنا المشكلة. فأنا لم أجده في سريره عندما استيقظت صباح اليوم".

انفتحت عينا إسراء نصف المغمضتين على وسعهما من المفاجأة. ما الذي يقوله هذا الرجل!؟

فردد تيومان مرة أخرى: "هذا صحيح. لم أجد "كمال" في غرفته. هل أرسلته إلى مكان ما؟".

قالت إسراء: "لم أرسله إلى أي مكان. لا بد أنه في مكان ما هنا".

"ليس في أي مكان هنا. لقد قطعت كل المسافة حتى حديقة الجدة هاتوش ظناً مني أنه ذهب إلى هناك ليتمشى، ولكنني لم أجده هناك أيضاً".

شعرت إسراء برأسها على وشك الانفجار، فهي لم ترغب بالتفكير بكمال الآن.

وقالت وهي تشعر أن الكلام أصبح بمثابة تعذيب: "إذاً، فقد ذهب ليتمشى عند النهر. لا تقلق. سيعود حالاً".

ولكن "كمال" لم يعد، ولم يتمكن أحد من العثور عليه في أي مكان خلال وجبة الفطور، أو حتى عندما ركب أفراد الفريق في سيارة الفان ليذهبوا إلى الموقع. فأرسلت إسراء إيلاف مع مراد في الفان ليقلا العمال، وطلبت من تيومان أن يذهب إلى النهر ليبحث عن كمال، وتفقدت غرفة كمال بنفسها مع بيرند. فوجدت سريره غير مرتب، وهذا يعني أنه أوى إلى فراشه في الليلة الفائتة. ولكن، لم يكن من عادة كمال وهو المهووس بالنظافة والترتيب أن يترك سريره في تلك الحالة. للمرة الأولى، بدأ قلق

عميق يتملك إسراء، وأخذ صداعها الذي خفت حدته بعض الشيء بفعل الأسبرين يتفاقم من جديد.

سأل بيرند: "أيمكن أن يكون قد ترك مهمة التنقيب عن الآثار؟ ربما لم يعد يريد البقاء هنا بعد ما حدث بينه وبين إيلاف".

ولكن، هل يمكن أن يرحل هكذا من دون أن يعلم أحداً؟ أيعقل حقاً أن يفعل هذا من دون أن يُعلِم أحداً على الإطلاق؟ صحيح أنه قال لها إنه يريد المغادرة، ولكن إسراء لم تسمح له بذلك. هل يعقل أن يتصرف كمال بهذه الطريقة؟ ركعت على الأرض لتبحث تحت سريره، ورفعت طرف غطاء السرير فوجدت أن حقيبته البنية لا تزال موجودة في مكانها.

فقالت بصوت مليء بالفرح وكأنها عثرت على كمال نفسه وليس فقط على حقيبته: "إذاً، لم يرحل! لا بد أنه شعر بالانـزعاج من جراء احتسائه الشراب ليلة أمس كما حدث لنا جميعاً، فذهب إلى ضفة النهر ليحاول استعادة نشاطه".

عندما عادوا إلى التعريشة، عرفوا أن تيومان عاد صفر اليدين. فلسوء الحظ، لم يجد "كمال" عند ضفة الفرات أيضاً. وهكذا، عاد القلق يساورهم جميعاً مرة أخرى.

تمتمت إسراء: "أين يمكن لذلك الفتى أن يذهب؟ ترى، هل وقع له مكروه؟".

فقال تيومان: "مثل ماذا؟".

رمقته إسراء بنظرة حيرة بدلاً من أن تجيبه.

فقال تيموثي الذي ظل صامتاً حيال الموضوع طوال فترة الصباح: "ربما اختفى عمداً ليزعج إيلاف ويلفت الانتباه لنفسه".

نظرت إسراء إلى الأمريكي بعينين تتوقان لأن تصدقا كلامه. فقد وجدت كلامه منطقياً. فكمال لم يكن من النوع الذي قد يتخلى عن مهمة التنقيب عن الآثار، ولكنه قادر تماماً على القيام بعمل طفولي كالاختفاء بهذا الشكل. فإن اختبأ في مكان ما بالفعل، فلم يتبق لديهم أي خيار سوى انتظاره ليعاود الظهور. نظروا إلى السماء ووجدوا الشمس على وشك أن تشرق.

قالت إسراء: "هيا بنا نذهب إلى الموقع. لن نتمكن من العمل غداً، لذا من الأفضل ألا نضيع أي وقت اليوم".

التفت الأمريكي إلى خلف قبل أن يركب سيارة الجيب، وقال: "إن

عاد كمال، فمن فضلك، اترك كل ما تفعله واتصل بـي. سيظل هاتفي المحمول مفتوحاً".

ظلت إسراء تفكر بكمال طوال الطريق إلى موقع التنقيب عن الآثار. وحاولت أن تقنع نفسها أنه لم يتعرض لمكروه. ووجدت تخمين تيموثي الأكثر منطقية. فقد كان هدف كمال جذب انتباه إيلاف- ربما بسبب اعتقاده أنها ما زالت تحبه- من خلال الاختفاء لبعض الوقت. ورغم أنها حاولت أن تهدئ قلقها بهذه الأفكار، إلاّ أن تلك الشكوك المزعجة القابعة في أعماق تفكيرها لم ترضَ أن تدعها وشأنها؛ بصوتها المنذر بالشؤم وهي تهمس لها بأسوأ السيناريوهات الممكنة. وفجأة، وجدت نفسها تفكر باحتمال تعرض كمال للقتل، ولكنها اعتبرت ذلك تفكيراً سخيفاً. فسواء أكان القتلة هم الانفصاليين- حسب اعتقاد أشرف- أو شخصاً آخر ينشد الانتقام- كما خطر ببال إسراء- فليس هناك أي سبب يدفع أحداً لقتل كمال. وإن وقعت جريمة أخرى، فلا بدّ أن ضحيتها نحاس؛ كما ظنت إسراء. ولكن، ماذا لو غيَّر المجرم خطته؟ وحتى لو غيَّر خطته، فما الذي سيدفعه لاستهداف كمال دون غيره؟

أنجزت إسراء أعمالها في أنحاء الموقع ورأسها يضج بقلق عميق لا يرحم. حاولت بكل جهدها أن تكبحه فيما هو ينهشها بلا هوادة. فبذل الجميع- ولا سيما إيلاف وكذلك أفراد الفريق من رئيس العمال ماهو إلى مراد- جهدهم لتجنبها قدر المستطاع. فقد ظلت تذرع المكان بتعابير وجه متجهمة، وترد على أسئلة الجميع بأجوبة مقتضبة. خلال استراحة منتصف النهار، وبينما توجه العمال للجلوس تحت شجرة التين الكبيرة، استدعت إسراء تيموثي، فقال لها إن "كمال" لم يعد بعد، ولكنه طلب منها ألا تقلق، وأكد لها أنه سيعلمها في حال ظهوره. ما أسهل الكلام! ترى، أين ذهب ذلك الفتى؟ عندما عاد جميع أفراد الفريق إلى العمل بعد تناول الفطور، لم تشعر إسراء بأي رغبة في العمل، لذا واصلت الجلوس في ظل الشجرة. وجدت كل ما يجري لهم يفوق قدرتهم على الاحتمال. ترى، ما الذي يريده هؤلاء المجرمون منهم جميعاً؟ لقد استمر ذلك الأحمق بيرند بالتحدث عن الأرمن، ولكن ما علاقة كل هذا بهم على أية حال: الأرمن والأكراد؟ شعرت أن حالتها قد تحسنت بعد أن شربت فنجاناً آخر من القهوة الثقيلة وتناولت قرص أسبرين، ولكنها لم تذهب بعد إلى المكتبة، فهي لم تحتمل فكرة الذهاب إلى هناك في الشمس وهي تعاني من ذلك الصداع الرهيب. راقبت بقية أفراد الفريق أثناء عملهم وهي نصف

مستيقظة ونصف نائمة ومتكئة على شجرة التين القديمة والنسيم العليل يهب عليها من نهر الفرات. وعندئذ، بدأت تفكر بكمال مرة أخرى. نظرت إلى ساعتها ووجدت أن الوقت قد شارف على الظهر، ولكن "كمال" لم يظهر بعد. استدعت إيلاف إليها، فأتت الفتاة وهي تجر قدميها بتثاقل طوال الطريق. ومع ذلك، فقد سارعت بالكلام قبل أن تتسنى لإسراء الفرصة للقيام بذلك.

وقالت وهي مطرقة نحو الأرض وكأنها مجرمة تعترف بجريمتها: "إنني أعتذر عن كل ما يجري. إن أردت، فسوف أستقيل من مهمة التنقيب عن الآثار على الفور".

قطبت إسراء جبينها، وقالت: "لا أريد لأحد أن يستقيل من المهمة. سئمت من سماع الناس وهم يتحدثون عن مغادرة موقع التنقيب عن الآثار. بعد الكثير من العمل الشاق والمضني، بات يمكننا أخيراً أن نرى الضوء في نهاية النفق والجميع يتحدثون عن الاستقالة... إذاً، أخبريني الآن، هل هناك أي مكان قد يرغب كمال في الذهاب إليه عندما يود أن يبقى وحده؟".

تلعثمت إيلاف قائلة: "ماذا تعنين؟".

أخذ صداع إسراء يزداد سوءاً كلما تحدثت، وتعجبت من شدة غباء هذه الفتاة المدعوة إيلاف.

فردت عليها بنبرة توبيخ قائلة: "ماذا تظنين أنني أعني؟ أعني مكاناً اعتدتما على الذهاب إليه لقضاء بعض الوقت معاً. على سبيل المثال، شاطئ منعزل على ضفة نهر الفرات، أو حديقة هادئة، أو كهف...".

"كلا، كنا نذهب فقط إلى ضفة نهر الفرات. وقد سبق أن بحث تيومان هناك".

"حسناً، إذاً هل سبق أن استشاط كمال غضباً واندفع هارباً إلى مكان ما؟".

قالت الشابة: "أحياناً. كلما وقع جدال بيننا، خرج من المكان. ولم يعد يتصل أو يفعل أي شيء. وإن اتصلت به، لا يرد على هاتفه. وإن سألته إلى أين ذهب، قال إنه لم يذهب إلى أي مكان، بل راح يتمشى في الأنحاء من دون هدف معين".

تمتمت إسراء: "آمل أنه ذهب ليتمشى في الأنحاء هذه المرة أيضاً. ولكن، إن كان هذا صحيحاً فسوف يندم أشد الندم على ما فعله". وفجأة، لاحظت "مراد" وهو يلوح لها، فقالت: "هل يستدعوننا لنذهب إليهم؟".

فضيقت إيلاف عينيها لترى بشكل أوضح، وقالت: "نعم. أظن أنهم عثروا على شيء ما".

لم تسرع إسراء في الذهاب، بل شربت كأساً من الماء من إبريق الفخار، فرطبت برودة المياه العذبة شفتيها الجافتين وغمرت فمها. ثم نهضت وهي تشعر بالانتعاش، واعتمرت قبعتها، ثم التفتت إلى إيلاف وقالت: "هيا، دعينا نذهب ونرى ما يجري لديهم".

قابلهما مراد قبل أن تصلا إلى المكتبة، وبدا في غاية البهجة والسرور.

وقال وهو يقفز من فرط السعادة: "لقد عثرنا على الألواح الثلاثة الأخيرة. ليس ذلك فقط، بل وجدناها في حالة ممتازة وكأن باتاسانا وضعها بالأمس".

وهكذا، أصبح نص باتاسانا الذي يروي تاريخه الشخصي في ثمانية وعشرين لوحاً كاملاً الآن. لقد شكل هذا الاكتشاف إنجازاً ضخماً ونجاحاً تاريخياً. فعانقت إسراء إيلاف احتفالاً بهذه المناسبة، وغمرها الشعور بالفرح، ولكنها لم تستطع أن تمنع نفسها من القول: "ليت كمال هنا...". فقد لعب هو أيضاً دوراً في تحقيق هذا النجاح الهائل.

á á á

اللوح الرابع والعشرون

ليس هذا ذنبي الأول، بل سأقول إنها ثورتي الأولى. لقد ارتكبت ذنبي الأول مع أشمونيكال، وقررت أن أحقق ثورتي الأولى معها على حد سواء. ارتكبت ذنبي الأول عندما أحببت امرأة لا يفترض بي أن أحبها. في ذلك الوقت، كنت لا أزال طفلاً ذا قلب ساذج أنظر إلى العالم من حولي بدهشة، وأدرك أن ما أفعله خطأ وإثم. هذه المرة، قررت أن أفكر وأتأمل وأخطط وأستمتع بالذنب الذي أريد أن أرتكبه لأنني لم أعد أؤمن بتيشوب وعائلته ولا أحترم وجودهم. لم تعد مخاوفي متعلقة بالملك بيزيريس، بل بات أكبر همي هو أن تسامح أشمونيكال هذا الحبيب الخائن الغبي المتعطش للشهرة، الذي تخلى عن حبه الأول والوحيد من أجل الحفاظ على رتبته ومنصبه.

لقد منحتني حبها، وأدخلت إلى حياتي سعادة وبهجة لم أعهدهما من قبل، وعرضت عليّ قلبها وكيانها، وعلمتني كيف أكون شجاعاً وحراً، وجعلتني أقدر قيمة الحياة، ولكنني الآن وأنا أفكر في العودة إليها خشيت ألا تسامحني. فأرسلت مساعدي الجديد إيريا- وهذا الخوف نفسه يملأ قلبي- إلى مكان الحريم ليقابلها. وحمّلت مساعدي رسالة لها بأن الألواح الجديدة التي تحوي قصائد لودينغيرا قد وصلت، وأن السيدة الموقرة المعجبة بهذا الشاعر بوسعها إن أرادت أن تأتي وتقرأها. وبعد ذلك، جلست منتظراً بقلق في المكتبة. وعندما عاد مساعدي إيريا وزف لي الخبر السعيد بأن السيدة ستأتي لزيارة المكتبة في الغد، غمرني الفرح والسعادة لدرجة أنني لم أعرف ماذا يجب عليّ أن أفعل.

في اليوم التالي، أرسلت مساعدي إلى خارج البلدة مع عبدين ليحضر لي بعض الطين للألواح. وبدأت أنتظر في المكتبة في ساعات الصباح الباكر، فلم تتركني أشمونيكال أنتظر وقتاً طويلاً كعادتها. رحبت بها عند باب المكتبة، فنظرت إليّ بفضول بعينيها الشبيهتين بعيني الغزلان. وأظن أنها في تلك اللحظة فهمت ما يجري، فمشت نحو الرفوف مبتعدة عني، وبدأت تنظر إلى الألواح.

وقالت: "سمعت أن ألواح لودينغيرا قد وصلت. أريد أن أراها".

بدا سلوكها فاتراً ومتشامخاً وكأنها غريبة تماماً عني. ها قد بدأت أخسرها، أو بالأحرى ربما خسرتها وانتهى الأمر. ذهبت تلك الفكرة بصوابي، فأمسكت بيدها بتهور، ومن دون الاكتراث لحقيقة أن أحدهم قد يرانا

ركعت أمامها على ركبتي، وتوسلت إليها بالكلمات التالية:

"سامحيني! سامحي هذا المدعي الذي ملأه تدريبه وعلمه وأصله النبيل بالغرور الكاذب. سامحي هذا الأحمق الجاهل غير القادر على التمييز بين الخير والشر، والجمال والقبح، والحبيب والعدو. سامحي هذا الأحمق الذي أمسك الذهب بيديه، ثم ألقى به وكأنه حصى. سامحي هذا الساذج عديم الحس الذي لم يدرك أن الحياة بدونك ستصبح أكثر جفافاً من أشد الصحاري القاحلة. سامحي هذا الرجل الوقح الذي كان طماعاً وطموحاً وخائناً بشكل لا يمكن غفرانه.

إن لم تسامحيه، فآخر قطعة حجر تثبت هذا الرجل المسكين الواقف على حافة الهاوية ستنهار إلى أعماق سحيقة وتجره معها. إن لم تسامحيه، فسيختفي هذا الجسد الضعيف في أعماق نهر الفرات. إن لم تسامحيه، فسيفقد كل ما فيه من خير وجمال وبراءة وسيعلق في العالم المظلم. إن لم تسامحيه...".

شعرت بيد أشمونيكال التي ظلت ساكنة طوال هذا الوقت تبدأ بالتحرك.

فقالت لي بصوت متهدج: "قف". وعندما رفعت رأسي، نظرت إلى وجهها ورأيته غارقاً في الدموع. في تلك اللحظة أدركت أنها لا تزال تحبني. فنهضت وعانقت جسدها الرقيق الذي راح يرتجف من آهاتها، وشعرت بحرارتها ودفئها. وحالما انتهت نشوة لقائنا وخفتت، شعرت بالقلق يندفع إلى قلبي مرة أخرى. فتركنا المكتبة، وأسرعنا إلى المكتب الصغير حيث اعتدنا أن نلجأ خلف أمان الباب المقفل.

عندما دخلت إلى ملجئنا الصغير، عبّرت لها بعفوية عن امتناني لغفرانها لي، فوضعت يدها على فمي لتسكتني.

وقالت: "لا تشكرني لأنني لا أقدم لك أي معروف. صحيح أنني قد غضبت منك لبعض الوقت، ولكن كيف تظن أنني كففت عن حبك؟ هل تتوقف الأرض عن حب الغيوم لأنها لا تمطر؟ هل تتوقف الأم عن حب طفلها لأنه لا يبتسم؟ هل يمكن للبذرة أن تنمو من دون التراب والشمس؟ هل تعيش الفراشات من دون الزهور؟ كيف تظن أنني لم أعد أحبك؟".

كلما تحدثت أكثر، اضطربت العاطفة المتأججة في قلبي، وانتشرت حرارتها في عروقي، فتطهرت من كل خوفي؛ وكأننا الرجل والمرأة الوحيدان على وجه الأرض. اقتربت منها ففتحت لي بوابة قلبها على مصراعيها، ورأيت

أن لمستي لأشمونيكال حولتها إلى زهرة أثيرية خالدة. وجعلت النيران التي اشتعلت في عينيها جمالها أكثر سماوية، وجلدها أكثر نضارة وكأنها الأرض في أوج فصل الربيع. فتساءلت كيف تمكنت طوال تلك الأيام من العيش من دون أشمونيكال، وفهمت العاطفة التي جعلت جدي يقع في الحب في أواخر أيام حياته. فحفرت هذا الشعور في ذاكرتي لأتذكره ما حييت.

ولكن هناك حقيقة أخرى توجب عليّ أن أحفرها في ذاكرتي، وهي أن أشمونيكال ما زالت ملكاً للملك. فحتى لو لم يعد بيزيريس مهتماً بها- وهذه هي الحقيقة- فقد ظلت جزءاً من ملكيته. وأولئك الذين يجرؤون على الاقتراب من نساء الملك تنـزل بهم أقسى العقوبات في هذه البلاد. فجعل مجرد التفكير بهذه الفكرة وجهي مظلماً بالكآبة، وقلبـي مرتعشاً بالخوف.

á á á

الفصل الخامس والعشرون

قالت إسراء بقلق: "يجب علينا أن نعثر على كمال".

وبهذه الكلمات، استولت على انتباه جميع الجالسين حول الطاولة.

فكررت كلامها قائلة: "يجب علينا أن نعثر عليه. كم ساعة مضت عليه وهو مفقود؟ إنني في غاية القلق عليه".

عندما عادوا من موقع التنقيب عن الآثار وعرفوا أن أي خبر لم يصل عن كمال، أصبح من الواضح لها أن الوقت قد حان لكي يفعلوا شيئاً ما. وقبل التحدث مع أفراد الفريق، حاولت مرتين أن تصل إلى النقيب أشرف، وتلقت الرد نفسه في كلتا المكالمتين: "إن النقيب خارج المخفر". ولم يقدموا لها أي معلومات عن مكان تواجده أو الموعد الذي سيعود فيه. ترى، هل جرحت شعوره بتصرفاتها في الليلة الفائتة ولهذا السبب لم يعد يرغب بالرد على مكالماتها؟ فكرت في سرّها: "ما كان ينبغي علي التورط في علاقة معه". وكانت تلك هي المرة الأولى التي تندم فيها على معرفتها به. لماذا اتصلت به على أية حال؟ لتخبره عن حادثة اختفاء كمال ولتطلب منه المساعدة. ترى، هل ذلك هو سبب اتصالها بالفعل؟ أم إنها أرادت الشعور بالراحة لسماع كلمات شخص عزيز عليها وهي في غاية العجز والحيرة؟ قاومت ذلك الصوت الملح الذي سمعته في رأسها قائلة: "كلا، إنني لا أسعى إلى سماع كلمات النقيب أو أي شيء من هذا القبيل، فلدي مسألة أكثر أهمية لأتعامل معها الآن". وبينما هي تحاول أن تطرد فكرة النقيب من بالها، استدعت أفراد الفريق ليجتمعوا حولها، ووجدت الجميع في مزاج مرح بسبب عثورهم على الألواح الأخيرة المتبقية. وهكذا، أتت كلمات إسراء مفسدة لمتعة الآخرين. ورغم أنها أدركت تأثير كلماتها على حد سواء، إلا أنه لم يعد لديها خيار آخر. فقد اختفى أحد أصدقائها، والشيء الأخطر من ذلك هو أن اختفاءه حصل في أعقاب جريمتي قتل.

تابعت كلامها قائلة: "ينبغي أن نتخلى عن كل أعمالنا ونبدأ بالبحث عنه. مجال البحث في هذا المكان واسع جداً، لذا فلنشكل فرقتين، ولتتوجه إحداها للبحث في البلدة، بينما تبحث المجموعة الأخرى على ضفتي نهر الفرات...".

تجمع أفراد الفريق حول الطاولة، وأصغوا بقلق إلى كلماتها التي نطقت بها من دون التفكير كثيراً، ولم يتفوه أحد منهم بحرف. إذ إن عقولهم انشغلت بالتحضيرات للمؤتمر الصحفي الذي سيعقد في اليوم التالي.

فقد عثر تيموثي على النص الذي كتبته إسراء على جهاز الكمبيوتر وترجمه للغة الإنكليزية، ولكن الترجمة ظلت بحاجة للطباعة، وكذلك توجب تظهير الصور التي سيتم توزيعها على الصحفيين. أما إيلاف، فقد همت بالدخول إلى الغرفة المظلمة لتعمل على تظهير الصور، ولم يعد لديها أي وقت تضيعه. وهكذا، لم يبد من المناسب لهم قضاء وقتهم الثمين في ظل هذه الظروف المثيرة للأعصاب وهم يبحثون عن كمال الذي آثر الخروج والابتعاد لبعض الوقت ليداوي مشاعره المجروحة. اتفق الجميع على وجهة النظر ذاتها باستثناء إسراء، ولكن لم يجد أحد في نفسه الجرأة الكافية للتعبير عن رأيه. فآثر بيرند أن يتولى هذه المهمة الصعبة بنفسه.

فقد قال خبير الآثار الألماني: "لن نتمكن من التوصل إلى أي نتيجة بكل هذا الاستعجال". وبدا صوته ناعماً ولكنه مملوء بالتصميم، ثم قال: "لا نعرف إن خرج كمال باختياره أم تعرّض لمكروه، ولكنني أظن أنه من المبكر أن نصاب بالفزع والقلق حول هذا الموضوع، ولا سيما في ظل وجود الكثير من العمل لنقوم به الآن".

عبست إسراء وأوشكت أن تعارض كلامه عندما تدخل تيموثي وقال: "أظن أن بيرند محق تماماً في كلامه. إننا نعرف كل المعرفة مدى التوتر الذي عانى منه كمال في الأيام القليلة الماضية. فقد كاد أن يضربني بالأمس، لذا من الطبيعي بالنسبة لشخص في مثل هذا المزاج أن يخرج وينأى بنفسه لبعض الوقت".

فأجابت إسراء وهي تهز رأسها بيأس قائلة: "ليس من عادته التصرف بعدم مسؤولية. كان ينبغي عليه أن يتصل على الأقل بحلول هذا الوقت".

وضع تيومان الذي جلس بجانب إسراء يده على كتفها وقال: "إن القلق يتملكني بالضبط كما يتملكك أنت. ولكن، بينما نحن عائدون من مباراة كرة القدم بالأمس، ظل كمال يقول: لقد فقدت هذه المهمة سحرها. سوف أرحل من هنا . إذاً، ربما رحل فعلاً".

"ولكن أمتعته وكل أشيائه ما زالت في غرفته. ولو رحل بالفعل، فلماذا قد يخلف أغراضه وراءه؟".

اعترض مراد بنية طيبة وقال: "لقد قال إن "رستم" مدير المتحف في غازي عنتاب صديق له، وربما ذهب لمقابلته".

فكرت إسراء بذلك الاحتمال على حد سواء، ولكن كيف يمكنه الوصول إلى غازي عنتاب في تلك الساعة المبكرة من الصباح؟".

فسألت قائلة: "وكيف ذهب إلى هناك؟".

أجاب خلف: "بالشاحنة. إن الشاحنات القادمة من القرى التي تقع في آخر الطريق تمر من هنا وهي في طريقها لنقل الخضار إلى غازي عنتاب. ولا بد أنه استقل إحدى تلك الشاحنات".

"في ذلك الوقت المبكر!؟".

"نعم، في ذلك الوقت المبكر. إنهم ينطلقون في شاحناتهم وقت طلوع الفجر لئلا تبقى الخضار في الشمس وتفقد لونها".

"ولكن، هل ذلك ممكن؟".

قال مراد بصوت مفعم بالأمل: "هذا ممكن. لقد ركبت متطفلاً ذلك اليوم وأنا عائد من البلدة. فأوصلوني من دون أي مشاكل، وأحضروني كل الطريق إلى المدرسة".

قالت إيلاف بانفعال: "دعونا نتصل بالمتحف، فبهذه الطريقة سنتأكد إن كان قد ذهب إلى هناك أم لا".

كانت الفتاة محقة، فأخرجت إسراء هاتفها المحمول بسرعة وطلبت الرقم. التزم الجميع حول الطاولة الصمت وبصرهم مركز على إسراء.

"مرحباً... هل يمكنني التحدث إلى السيد رستم؟ ليس هنا. هل تعرفين أين هو الآن؟ لديه ضيف من إسطنبول؟ هل تعرفين اسم الضيف؟ فهمت. هل يمكنك أن تعطيني رقم هاتفه المحمول؟ إسراء خبيرة الآثار تتكلم. إنني مستعدة لكتابته. حسناً... حسناً... شكراً جزيلاً لك".

التفتت إسراء إلى أصدقائها وقالت: "إن "رستم" خارج مكتبه، فقد ذهب إلى متحف يسميك للهواء الطلق مع أحد الضيوف، وسيقضيان الليلة هناك".

فابتسم مراد لأنه أثبت أن كلامه صحيح.

وقال: "حسناً، ها قد توصلنا إلى حل المشكلة. لا بد أن "كمال" معه".

ومع ذلك، لم تتسرع إسراء في التوصل إلى الاستنتاجات، بل قالت وهي تبدأ بطلب رقم رستم: "الآن، يمكننا أن نتأكد من ذلك". وضعت الهاتف على أذنها وانتظرت... ثم أطفأت الهاتف وهي تبدو محبطة.

"لا يمكن الوصول إليه".

فقال تيومان: "إنك تقلقين نفسك بلا أية فائدة. أراهن أن "كمال" معه. فكما تعرفين، لقد شارك في مشروع رسومات الطبيعة في المتحف قبل عامين".

تذكرت إسراء أنها شاهدت "رستم" يتحدث همساً مع كمال في

المستشفى فشعرت ببعض الراحة؛ ولو أنها لم تقتنع قناعة تامة بذلك. فقد يكون كمال معه.

بعد أن تناولوا وجبة سريعة، انطلق الجميع ليستأنفوا أعمالهم، فانسحبت إيلاف ومراد إلى الغرفة المظلمة لكي يعملا على تظهير طبعات الألواح بالأبيض والأسود، فيما بدأ تيموثي يفك شيفرة اللوح رقم ثمانية وعشرين ويترجمه، بينما راجع بيرند النص الذي سيلقيه في المؤتمر الصحفي، وجلس تيومان وإسراء أمام الكمبيوتر وحضرا لائحة بكامل المكتشفات الأثرية التي عثروا عليها بالإضافة إلى ألواح باتاسانا. لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً حتى انتهت المهمة الأخيرة، فتوجهت إسراء إلى البلدة برفقة مراد لتعدّ نسخاً من النص الذي سيتم توزيعه على الصحفيين.

قاد مراد سيارة الجيب. وكانت الحرارة المتصاعدة من الطريق الأسفلتي تتدفق تحتهما بكثافة لدرجة أنها بدت مرئية للعين المجردة. ولم يحلق طائر واحد في السماء. فقد التجأ كل من الناس والحيوانات والحشرات إلى أي مكان بارد يمكن اللجوء إليه هرباً من ذلك الحر الجهنمي. وحتى إن نهر الفرات الذي لطالما استمتعت إسراء بالنظر إليه بدا حاراً وثقيلاً كالرصاص المذاب. كل نوافذ سيارة الجيب كانت مفتوحة، ولكن الرياح التي ملأتها لم تزودها بأقل قدر من البرودة. لاحظت إسراء أنها لم تعد تعاني من أي صداع، غير أنها ظلت تشعر بثقل في رأسها، ولكنها استطاعت أخيراً التخلص من ذلك الخفقان اللعين. أخذت زجاجة المياه المجمدة التي وضعتها بجانب قدميها. ورغم أنهما لم يقطعا سوى أقل من نصف الطريق، غير أنها وجدت الثلج ذائباً. ردت رأسها إلى الوراء لتشرب، فتدفق الماء من الزجاجة وسال على فمها ثم على ذقنها وتقاطر من هناك على ملابسها، فأغمضت عينيها وحاولت أن تشعر بالانتعاش الذي منحها إياه الماء البارد.

سأل مراد إسراء ليحثها على فتح عينيها: "أليس هذا هو النقيب؟". فقد لاحت من بعيد سيارة جيب تتقدم نحوهما، فضيقت إسراء عينيها لتنظر إليها بتركيز. نعم، لقد رأت أشرف جالساً إلى جانب الجندي الذي يقود السيارة. دلت حركاته على أنه بدوره لاحظ وجودهما، فخفف مراد من سرعة سيارة الجيب، بينما توقفت سيارة الجيب الأخرى القادمة من الجانب الآخر على الجانب الأيمن من الطريق. شاهدا النقيب يشير إليهما بيده ليتوقفا، فركن مراد سيارة الجيب في ظل شجرة جوز إلى جانب الطريق. وكان النقيب قد ترجل من السيارة ومضى في طريقه إليهما بحلول الوقت الذي ترجلا فيه من السيارة.

"كنت في طريقي لمقابلتكم للتو".

فابتسمت إسراء وقالت: "حقاً؟! وأي شأن يجعلك تأتي لزيارتنا في هذا الجو الحار؟".

ولكن النقيب لم يرد لها الابتسامة بمثلها، بل ظل وجهه المتعب محتفظاً بتعبيره الجاد القلق.

شرح النقيب قائلاً: "لدي خبر سيئ لكم. لقد وقعت جريمة قتل أخرى".

شعرت إسراء بأن العالم برمته ينهار عليها، فتمتمت قائلة: "كمال".

نظر النقيب إليها بتعبير وجه يدل على الدهشة وقال: "ماذا حدث لكمال؟".

"إذاً، فالضحية ليس "كمال"؟".

"كلا ياعزيزتي، إنه ناهسين من قرية تيميل. ما علاقة كمال بأي من هذا؟".

قالت إسراء بحزن: "إنه مفقود منذ الصباح".

"ماذا تعنين بأنه مفقود؟".

قالت إسراء: "لا نعرف". ورغم قلقها لاختفاء صديقها، إلا أن فضولها غلب على كل شيء آخر، فقالت: "سنتحدث بالأمر لاحقاً. هيّا أخبرنا عن الرجل الذي قتل".

"إنه قروي يناهز الخمسين من عمره. لقد أمضى ليلته نائماً تحت التعريشة في حديقته ليحرسها من اللصوص. وعندما ذهبوا لرؤيته في الصباح وجدوه مشنوقاً ويتدلى من إحدى عوارض التعريشة".

سألت إسراء بانفعال: "هل كان الرجل نحاساً؟".

فقال أشرف: "كلا، ولكن والده كان ذلك". التقت عيونهما للحظة. فقد تذكرا كلاهما المحادثة التي أجرياها في مقر إقامته، ثم قال: "ليس ذلك وحسب، بل لقد عمل متدرباً عند الأسطة غارو، ولكن والده مات قبل خمس سنوات".

"إذاً، لقد قتلوا الابن بدلاً من أبيه".

"على ما يبدو. فقد لفوا سلكاً نحاسياً حول عنق الرجل".

"هل شنقوه بسلك نحاسي؟".

"كلا، لقد شنقوا الرجل باللجام الذي اعتاد أن يربط به حصانه، ولكنهم ربطوا أيضاً سلكاً نحاسياً حول عنقه".

لمعت عينا إسراء لمعاناً غريباً، وتمتمت قائلة: "هذه رسالة مقصودة.

إن القاتل يريدنا أن نعرف سبب ارتكابه تلك الجرائم. ثمة رسائل في الجريمتين السابقتين أيضاً: راهب متسربل بالسواد دفع بالحاج عبد الستار عن المئذنة في طريقة تذكرنا بطريقة قتل الكاهن كريكور، كما قتل رشيد آغا بالطريقة نفسها التي قتل فيها أوهانيس آغا...".

قال النقيب: "بات من الواضح الآن أنك محقة في قولك إنّ هذه الجرائم نسخة طبق الأصل عن الجرائم المرتكبة قبل ثمانية وسبعين عاماً". ثم توقف وهو يمسح قطرات العرق المتجمعة على جبينه بظهر يده وأضاف قائلاً: "ولكنني ما زلت أعتقد أن الانفصاليين هم الذين يقفون وراءها كلها".

وجدت إسراء عناد النقيب الطفولي محبباً إلى حد ما، فنظرت إليه بعطف وسألته قائلة: "هل أنت عطشان؟ هل تريد بعض الماء؟".

فقال النقيب: "نعم، أود ذلك. فنحن نذوي هنا تحت الشمس المحرقة منذ الصباح الباكر".

فأخرج مراد قارورة الماء وقدّمها للنقيب.

تمتم النقيب بسعادة عندما تحسس القارورة: "باردة كالثلج". ثم أرجع رأسه إلى الوراء وبدأ يبتلع المياه العذبة وعيناه مغمضتان.

فقالت إسراء وهي تراقبه: "على مهلك وإلا فستمرض".

وبعد أن أخذ أشرف كفايته، التفت إلى الجندي الجالس في سيارة الجيب، وقال له: "انظر يا إيرول، لديهما مياه باردة".

فقال مراد: "هات القارورة، سأعطيه إياها".

قالت إسراء حالما بدأ الطالب الشاب يشق طريقه نحو سيارة الجيب الخاصة بالنقيب وبحوزته قارورة الماء: "في الواقع، إنني أتفق معك في أن هذه الجرائم ذات دافع سياسي. إذ يبدو لي من غير المنطقي تماماً أيضاً أن يقف شخص واحد وراء كل هذه الجرائم، لذا أظن أن الدافع سياسي. ولكنني على عكسك أنت، لا أظن أن الأكراد هم الذين يقفون وراءها، بل الانفصاليين".

نظر النقيب إلى وجه إسراء بإمعان، وقال: "هل تعرفين شيئاً ما؟".

"لقد سمعت أن الحاج "عابد" كان أرمنياً؟".

رمقها النقيب بنظرة لسان حالها يقول: "هل تدركين ما تقولينه؟".

"لا تنظر إلي بهذه الطريقة. إن الرجل من أصل أرمني، والأهم من ذلك أنه قريب لأوهانيس آغا. والأكثر أهمية من ذلك كله أنه اتخذ من شقيقة رشيد آغا عشيقة له".

تحولت دهشة النقيب إلى شك فقال: "من أين لك بكل هذه المعلومات بحق الله؟!".

"من هنا وهناك. لو أجريتم بعض الأبحاث لتمكنتم من التوصل إلى المعلومات نفسها بأنفسكم".

"يجب على ما تقولينه أن يكون صحيحاً لكي أتمكن من التحقيق فيه. هل هذه المعلومات من مصدر يمكن الاعتماد عليه؟ أم إنها جوهرة أخرى من جواهر طاهيكم المتطفل؟".

"الجميع يعرفون هذا. اذهب واسأل العجائز في البلدة".

عانى النقيب من وقت عصيب في تصديق ما يسمعه، وتأملت عيناه وجه إسراء لبعض الوقت وكأنه يفكر بكلماتها.

فقال: "إذاً، هل تعنين أن الحاج "عابد" هو من قتل "رشيد"؟".

انضم مراد الذي عاد لتوه إلى محادثتهما عندما سمع اسم الحاج عابد.

قالت إسراء مؤكدة على كل كلمة: "ليس "رشيد" وحده، بل الثلاثة جميعهم".

فقال النقيب: "هذا ادعاء خطير جداً. دعينا نفترض أن الحاج "عابد" لديه دافع لقتل رشيد، ولكن ماذا عن الآخرين؟".

"لقد أراد أن ينتقم للجرائم التي وقعت قبل ثمانية وسبعين عاماً. أليس من المحتمل أن عائلته جعلته يتشرب هذه الكراهية منذ طفولته؟ كيف يمكنك أن تصبح مسلماً حقيقياً في حين أن الدين مفروض عليك؟".

فقال النقيب: "إن ثمانية وسبعين عاماً مدة طويلة وكفيلة بقتل أي كراهية من هذا النوع".

أتى جواب إسراء جاهزاً، فقالت: "إن المعتقدات لها حياة طويلة أيضاً، فهي تعيش لقرون. هناك امرأة تعرف باسم نديدة المرتدة. لم تتخل هذه المرأة كلياً عن معتقداتها، فهي تؤمن بكل من القرآن والإنجيل".

قال النقيب مجعداً جبينه: "لا أعرف. إنه ليس رجلاً عادياً، بل إنه شيخ في المسجد".

أراد مراد أن يدلي بدلوه هو الآخر فقال: "في الواقع، إنني أشك بالحاج عابد على حد سواء. عندما تحدثنا عن جريمة قتل الحاج عبد الستار، قال خلف إن الحاج "عابد" هو الوحيد الذي يملك مفتاح المئذنة. أعني أن الحاج كان موجوداً عندما قتل الحاج عبد الستار".

استاء النقيب من رغبة مراد بالإدلاء بتخميناته الخاصة حول الجرائم،

فقال له موبخاً: "إنه لم يخف حقيقة تواجده هناك، فقد تحدثت إليه بنفسي، وقال إنه فتح باب المئذنة بنفسه لكي يتمكن الحاج عبد الستار من الصعود، ثم دخل إلى المسجد بالضبط كما يفعل كل يوم جمعة. ومن المستحيل بالنسبة إليه أن يرى أو يسمع ما يجري في المئذنة بينما هو في المسجد، لذا لم يعرف شيئاً عن وقوع الجريمة إلى ما بعد سقوط الحاج عبد الستار على الأرض. فقد أخبره الناس الذين حضروا للصلاة بما جرى".

فقالت إسراء: "ماذا إن كذب في ادعائه هذا؟ ماذا إن دفع بالحاج عبد الستار عن المئذنة ثم دخل إلى المسجد؟".

"ليس هناك أي سبب يدعوه لذلك. حسناً، لنقل إن هذا هو ما فعله. هناك شهود عيان يقولون إنهم شاهدوا رجلاً متشحاً بعباءة سوداء يهرب من موقع الجريمة...".

"لا بد أن الحاج "عابد" ارتدى عباءة سوداء كالراهب لكي يخفي شخصيته ثم دخل المسجد. ولم يكن هناك أحد في الداخل لأن الأذان لم يكن قد رفع بعد، لذا خلع العباءة وخبأها في مكان ما، ثم جلس بانتظار حضور المصلين".

قال النقيب وهناك تعبير يدل على العجز في عينيه: "إنني لا أعرف وحسب. لسبب ما، لا يبدو هذا الكلام منطقياً بالنسبة لي".

مرة أخرى، ساد صمت قصير لم يعد يسمع فيه سوى صوت حفيف أغصان شجرة جوز التي تتخللها الرياح الحارة. فبادرت إسراء أخيراً بكسر الصمت، وقالت: "ولكن، ليس لديك أي مشتبه بهم آخرين. إن لم يكن الحاج عابد هو القاتل، فمن قد يكون؟".

أصغى النقيب إلى كلام إسراء وهو ينظر إليها بعينين نصف مغمضتين. لم يستغرق الأمر منه وقتاً طويلاً حتى قدم لها جوابه على سؤالها.

"ماذا عن بيرند؟ لقد تحدث الرجل وكأنه أشد الأرمن تعصباً في الليلة الماضية. هل رأيت الغضب في عينيه وهو ينظر إلي؟ ماذا إن كان الرجل مجنوناً من دون أن ندري؟ هل لديك فكرة عن مكان تواجده ساعة وقوع الجرائم؟".

لم تعرف إسراء ماذا يجب أن تقول. فلو أخبرته بما دار برأسها من أفكار حول بيرند، لأعلن أشرف أنه المشتبه به الأول في تلك اللحظة وذلك المكان، ولما وجدت تصرفه مثيراً للاستغراب. ألم تتوصل هي أيضاً للاعتقاد بأن بيرند قاتل قبل أن تعرف أن الحاج "عابد" من أصل أرمني؟ تغير كل شيء في نظرها حالما اكتشفت أمر الأخير، فقد وجدت أن الحاج "عابد"

لديه دوافع أقوى لارتكاب الجرائم.

فقالت: "ليس هناك مجرم قد يتورط في نقاشات ربما تفتضح دوافعه الخفية. ولو أن بيرند يقف وراء الجرائم، إذاً لامتنع عن الدفاع عن الأرمن بهذا التعصب وحاول أن يخفي وجهة نظره".

أدرك النقيب أن كلامها صحيح.

فتابعت إسراء قائلة: "أظن أنه ينبغي عليك أن تستجوب الحاج "عابد". إن خشيت من رد فعل تلامذته ومريديه، إذاً فلتفعل ذلك بالخفاء. على الأقل يجب أن تعرف مكان تواجده في وقت وقوع الجرائم لأن الرجل لديه الكثير من المصادر. هناك أناس مثل فياض يطيعونه طاعة عمياء. كيف تعرف أنه لم يشكل منظمة من نوع ما حوله؟".

أحس النقيب أنه نال كفايته من كلامها، فصاح قائلاً: "هيا يا إسراء، هل تحاولين أن تقنعيني بأن هناك منظمة إسلامية ترتكب جرائم القتل دعماً للقضية الأرمنية؟".

ولكن إسراء لم يخامرها أدنى شك في فرضيتها، فقالت: "إن هذا الرجل بالغ الذكاء، وهو بالتأكيد لم يخبر رجاله أن الجرائم ترتكب من أجل القضية الأرمنية، بل قال لهم إن لها علاقة بصحوة إسلامية كبرى أو ما شابه".

تنهد النقيب باستياء، وسألها قائلاً: "هل أنت مدركة أننا عدنا إلى حيث بدأنا؟ عندما قتل الحاج عبد الستار، قلت لك إن الانفصاليين هم الذين يقفون وراء الجريمة بينما قلت أنت إن المتعصبين الدينيين هم الذين فعلوا ذلك...".

"لا أظن أننا عدنا إلى حيث بدأنا، بل أظن أننا في الواقع قطعنا مسافة طويلة. وإن تصرفنا بحكمة فسوف نلقي القبض على القاتل في أسرع وقت".

أراد النقيب أن يقول شيئاً آخر، ولكنه لم يكن واثقاً في ما إذا كان عليه أن يخبر إسراء بذلك أم لا. وأخيراً، قرر أن يفصح عمّا في قلبه.

فقال النقيب: "لا أعرف إن كان هذا يفيد في أي شيء، ولكن لدينا مفتاحاً آخر للغز. فنحن نظن أن القاتل قد تعرض لإصابة".

"كيف تعرفون هذا؟".

"لقد عثرنا على آثار دم قرب التعريشة. وباعتبار أن الضحية لم ينـزف قطرة دم واحدة، فلا بد أن الدم يعود إلى القاتل. كما عثرنا أيضاً على منجل عليه آثار دم، لذا نظن أن الضحية أبدى بعض المقاومة، فألحق

الأذى بالقاتل بواسطة المنجل وهو يقوم بخنقه. وعثرنا على آثار الدماء نفسها على عربة يجرها جواد واحد يملكها الرجل المغدور. لذا، لا بد أن القاتل قد هرب بالعربة بعد أن تعرض للإصابة".

"وأين عثرتم على العربة؟".

"في المرج على أطراف القرية".

قالت إسراء: "هذه أخبار عظيمة". وبدأت عيناها تلمعان من فرط الانفعال، ثم قالت: "إذاً، هذا يعني أن القاتل جريح. الآن، كل ما علينا فعله هو التأكد من أن الحاج "عابد" أو أيًّا من رجاله جريح".

"سنفعل ذلك. ولكن، لأتوخى الصراحة، فلا يزال يخامرني شك كبير بأننا سنعثر على أي شيء".

قالت إسراء: "بل ستعثر". ولمست يده وهي تبتسم بثقة قائلة: "صدقني، هذه المرة سنكتشف الحقيقة".

نظر النقيب إليها وكأنه يريد أن يقول: "آمل أنك محقة". ثم ضغط على يد الشابة برفق وأضاف قائلاً: "على أية حال، لن أؤخركما أكثر من ذلك. يبدو أنكما ذاهبان إلى البلدة، صحيح؟".

فقال مراد: "سنذهب إلى مبنى البلدية. فلدينا نصوص يجب أن نحصل على نسخ منها".

التفتت إسراء إلى النقيب قبل أن تعاود الركوب في سيارة الجيب، وقالت: "تعال لزيارتنا مساء اليوم إن أحببت".

فظهر تعبير مرتبك على وجه أشرف وقال: "إنك دائماً متعبة جداً، ولا أريد أن أزعجك".

ظهر بعض الاحمرار على وجه إسراء، وقالت: "إنني آسفة بشأن الليلة الماضية، ولكنني لن أكون متعبة مساء اليوم".

لم تنطق بأي كلمة وكذلك مراد إلى أن ركب النقيب في سيارة الجيب الخاصة به. وبينما توارت سيارة الجيب العسكرية في آخر الطريق الأسفلتي الذي بدا عليه أنه يتبخر من تحتها، توجه مراد وإسراء في طريقهما نحو البلدة.

قال مراد وهو غير قادر على إخفاء إعجابه: "لقد راقبتك وأنت تتحدثين مع النقيب. بدوت أشبه بتحرية وليس خبيرة آثار".

"إذاً؟".

"لقد تأثرت بكلامك، وبالطريقة التي تنظرين بها إلى الأشياء، وقدرتك على حل الألغاز، والأهم من ذلك تصميمك. لطالما ظننت أنني لن أتعلم

أي شيء من امرأة سوى أمي، ولكنك غيرت قناعتي هذه. أنت تصرخين في وجهي أكثر من أي شخص آخر في فريق التنقيب عن الآثار، ولكنك أيضاً تعلمينني أكثر مما يعلمني الآخرون جميعاً".

أحبت إسراء ما سمعته منه، فقالت: "إنني مسرورة من طريقة تفكيرك. أنت تعلم أنني معجبة بك وأريدك أن تصبح خبير آثار بارعاً، ولكن يجب عليك أن تتخلى عن كل تلك المعتقدات الخرافية السخيفة التي تدور برأسك. تعرف عمّا أتكلم!".

فهز الطالب الشاب رأسه وقال: "نعم، أعرف". وبعد أن نظر إلى الطريق الممتد أمامه لبعض الوقت، بدأ يتحدث مرة أخرى.

فقال بخجل: "أريد أن أقول لك شيئاً، ولكن عديني بألا تغضبـي".

نظرت إسراء إليه بفضول، فتابع كلامه قائلاً: "لقد أعجبتني فعلاً الطريقة التي تحدثت بها وتصرفت بها مع النقيب، ولكن بدا لي أنك تتدخلين زيادة بعض الشيء. هل تظنين أنه من الصائب بالنسبة لك أن تحاولي التأثير عليه بهذا الشكل؟".

اعترضت إسراء قائلة: "إنني لا أحاول التأثير عليه، بل أعبر عن رأيي ليس إلا. وأنت أيضاً فعلت ذلك".

"لقد شاركته أفكاري أيضاً، وهذا صحيح، ولكن الرجل المسكين أصيب بارتباك شديد".

في أي وقت آخر، ربما كانت لتسلم بأن كلام مراد صحيح لأنها أدركت أن لديها ما يحثها على القيادة وتوجيه الآخرين. ومع ذلك، فقد وجدت الآن صعوبة في تقبل هذه الحقيقة.

فتابعت قائلة: "إن بعض الارتباك قد يفيده، فهو يبحث عن المجرمين في المكان الخطأ. انظر كيف حاول أن يدافع عن الحاج عابد".

فقال الطالب الشاب: "ربما خشي من أن يرتكب ذنباً".

"آه، صحيح. إذاً، أنا من ارتكب الذنب الأول لأنني حاولت التأثير عليه".

á á á

اللوح الخامس والعشرون

بدا على بيزيريس أنه نسي كل ما يتعلق بأشمونيكال بالإضافة إلى ذنوبه وآثامه. فطوال تلك السنوات التي ساد فيها السلام، كرس نفسه لرياضته المفضلة؛ رياضة الصيد. فأمضى أياماً طويلة وهو يتعقب غزالاً كبيراً أو أسداً ضارياً أو وعلاً جريحاً. فمنحني هذا الشغف ومنح أشمونيكال الكثير من الفرص لقضاء الوقت معاً. وتعلمنا جيداً جداً كيف نحول هذه الفرص إلى لحظات سعادة من دون أن نسمح لأي شخص أن يكتشف سرنا، وإن حدث ذلك فقد حرصنا أيضاً على تشويش أذهان كل من يخامره أي شك. ولكن، بعدما تحولت إلى خائن لتيشوب وعائلته بدا واضحاً أنهم مصممون على الثأر مني، وربما سمحوا لي بتذوق لحظات السعادة تلك مع أشمونيكال لكي أعاني معاناة أكبر في المستقبل. فالكلمة الأخيرة لهم دائماً وأبداً، فكان حبنا سيصل إلى نهايته المحتومة؛ كنهاية شجرة تسممت بزهرتها، بسبب الثمرة التي حملتها.

كان بيزيريس عقيماً لا ينجب الأطفال. ومع ذلك، لم يعترف الملك الطماع بمسؤوليته عن هذا، بل ألقى باللوم على الملكة والنساء الأخريات في حريمه، ولكن مهما بلغ عدد النساء اللواتي ضمهن إلى حريمه، فقد ظلت النتيجة نفسها، ولم تحمل أي منهن طفلاً له. لم يسأم بيزيريس، بل ظل ينتظر المرأة التي قال له العرافون إنها ستنجب له وريثاً، ولكن تلك كانت كذبة. فالحقيقة هي أن بيزيريس كان عقيماً كالصخرة الصماء. ولسوء الحظ، شاء القدر أن أثبت هذه الحقيقة بنفسي، وتلك ربما من أقسى الطرق للانتقام من عدوك. وعلى الرغم من احتقاري لبيزيريس، لم يكن ذلك النوع من الانتقام ما أردته؛ لأنني أدركت أن كارثة ضخمة ستحل بنا نتيجة لذلك.

كشف الحب الذي أخفيناه عن العيون الشريرة والنساء الثرثارات والمتملقين وموظفي القصر عن نفسه في الأرض الخصبة لرحم أشمونيكال.

ففي أثناء غياب بيزيريس في رحلة أخرى من رحلات الصيد التي اعتاد الخروج فيها، حضرت أشمونيكال إلى المكتبة في موعد مختلف عن الموعد الذي اعتدنا أن نلتقي فيه، فرأيت وجهها الجميل مفعماً بالحزن.

فتفوهت بما أرادت قوله بنفس واحد قائلة: "أنا حامل".

في البداية، لم أدرك بشكل كامل ما يجري.

وسألتها: "من بيزيريس؟".

فخيمت على عينيها سحابة قلق وهي تهز رأسها، ثم قالت: "كلا، بل منك أنت. فأنا لم أقض أي وقت مع بيزيريس منذ أشهر".

مما يثير الاستغراب أنه تولد في داخلي شعور طاغٍ بالفخر، ولكنني لم أستغرق وقتاً طويلاً لأدرك المشكلة الملحة التي وقعنا فيها.

همست قائلاً: "ما الذي سنفعله الآن؟".

فقالت: "لست أدري". ونكست رأسها وفكرت لبعض الوقت، ثم قالت أخيراً: "يجب عليّ أن أقضي ليلة حميمة مع بيزيريس".

وجدتها محقة في كلامها، فذلك هو الحل الوحيد، ولكنني عجزت عن تسكين الألم الذي اعتصر قلبي أو منع الغيرة القاتمة من السيطرة عليّ. أخذنا ننتظر بكل ألم وخوف عودة بيزيريس من رحلة صيده، ولكننا لم نتخل عن الأمل. ولسوء الحظ، لم تجر الأمور كما توقعنا لها. فقد حضرت حبيبة جديدة إلى قصر الملك قبل أن يعود من الصيد، ولم يعد هناك ما يدعو بيزيريس المتحرق شوقاً للحصول على وريث للنظر إلى أشمونيكال بوجود الفتاة الجديدة، وهذا بالضبط ما حدث. وعندما أدركت أنه ليس هناك خيار آخر، قررت أشمونيكال أن تنتظره لينسى العشيقة الجديدة، ولكن بطنها بدأ يكبر، وخشيت أن تلاحظ النساء الأخريات أنها حامل. ويا حسرتاه! لم يمض وقت طويل حتى تحول خوفها إلى حقيقة. فقد أدركت بودوها، وهي أول امرأة تم ضمها للحريم، توتر أشمونيكال وبدأت تراقبها عن كثب. وعندما تأكدت من شكوكها بحمل أشمونيكال، هرعت إلى بيزيريس لتزف له الخبر السعيد.

عندما سمع بيزيريس أن أشمونيكال حامل، كان أول رد فعل ظهر عليه هو الصدمة، ثم تبعها غضب عارم، فاقتحم غرفة الحريم وهو يرغي ويزبد، وصرع أشمونيكال أرضاً بصفعة واحدة؛ تلك التي أخشى عليها من أن تجرحها نسمة هواء، وهدد بأن يقتلها إن لم تعترف له باسم الشخص الذي تسبب في حملها. غابت أشمونيكال الرقيقة عن الوعي بعد الصفعة الثانية، ثم تم احتجازها في غرفة تطل على نهر الفرات في الطابق العلوي من قسم الحريم.

شعر بيزيريس بخزي مرعب لهذه الخيانة غير المتوقعة، فحاول أن يخفي هذه الحادثة عن الجميع، لذا، أعطى أوامر مشددة بألا يخرج الخبر من بين جدران غرف الحريم، وهدد النساء بعواقب وخيمة إن كشفن السر.

وبعد أن أمر بإعلامه إن استيقظت أشمونيكال، أجرى بيزيريس تحقيقاً

ليكتشف كل من قابلتهم أشمونيكال. وكنت أنا لا أزال جاهلاً بما يجري، فقال له بعض الموظفين في القصر إن المرأة الآثمة اعتادت أن تزور المكتبة، ولكن بيزيريس لم تخامره الشكوك حولي، بل آثر أن يركز انتباهه على زيارة قامت بها أشموينكال إلى ذويها قبل ثلاثة أشهر. فقد خطر بباله أن الخيانة وقعت هناك. وهكذا، تم إحضار والدي أشمونيكال إلى القصر.

بحلول ذلك الوقت، لاحظت بودوها أن أشمونيكال قد استعادت وعيها، لذا أخبرتها أن الملك قرر أن يستدعي والديها إلى القصر، وأمرتها بأن تفصح عن اسم حبيبها وإلا فإن الملك سوف يعذب والديها. فقالت أشمونيكال: "سوف أفصح عن اسم حبيبـي. استدعي الملك إلى هنا". وحالما غادرت بودوها الغرفة، ألقت أشمونيكال بنفسها من نافذة غرفة الحريم المفتوحة على الصخور في الأسفل؛ كأنها أنثى نسر مكسورة الجناح.

عندما تلقى بيزيريس خبراً عن رسالة بودوها عاد إلى غرفة الحريم، ولكنه عندما فشل في العثور على أشمونيكال، فقد صوابه من شدة الغضب، وانهال بالضرب على المرأة التي بجانبه. وعندما رأى الحراس الذين نظروا من النافذة دماء أشمونيكال الحمراء تخضب الحجارة في الأسفل، نـزل بيزيريس إليها، وهناك عثر على أشمونيكال جثة هامدة. جعلت شجاعة هذه الشابة التي تحدت بيزيريس حتى في موتها الملك يصاب بحالة هياج، فكلف أقرب رجاله على الفور بالعثور على حبيب أشمونيكال بأي ثمن.

أعلمني مساعدي إيريا بهذه الأخبار المؤلمة. فبينما أنا جالس في المكتبة أكتب رسالة إلى الملك الآشوري الجديد شلمنصر محتفلاً باعتلائه العرش مؤخراً ومعبراً عن ولائنا له، دخل إيريا.

فقال لي: "سيدي، لقد قفزت السيدة أشمونيكال الموقرة محبة الشاعر لودينغيرا من نافذة غرفة الحريم، ثم عثروا على جثتها فوق الصخور".

نعم، لقد وقف إيريا هناك عند باب المكتبة، وقال هذه الكلمات بالحرف الواحد. وحالما فعل ذلك، فهمت حقيقة ما جرى، ولكنه لم يفاجئني لأنني رغم عدم اعترافي بالأمر لنفسي إلا أنني توقعت هذه النهاية. فقد أظهرت أشمونيكال الشجاعة التي عجزت أنا عن امتلاكها، وهجرت هذا العالم القاسي والخائن والمليء بالخداع.

تلك المتعة التي ملأت حياتي، والتوق العذب في الليالي، والانفعال المرتبك في أيامي، والجمال الذي حاصر وحدتي، والدفء الذي عانق ظلي، والجنون الذي دفع عقلي إلى حافة الانهيار؛ كلها لم تعد موجودة بعد الآن. تلك الحبيبة ذات الرائحة العذبة والشعر المتدفق كالمطر؛ الحبيبة التي

جرت كالدماء في عروقي تركتني وحدي مع مخاوفي وتفاهتي من دون رجعة.

ورغم أنني أدركت الحقيقة، إلا أنني لم أفقد صوابـي، ولم أمزق شعري، ولم أصح في وجه مساعدي إيريا الذي نقل لي خبر هذه الكارثة: "كلا، إنها لا تحب لودينغيرا بل تحبني أنا"، ولم أخف خنجراً في ملابسي وأحاول أن أمزق قلب بيزيريس القاسي، بل قمت بمجرد الوقوف بجمود في وسط المكتبة، ثم نهض ذلك الوغد من أعماقي إلى السطح، وكبح خوفي ودهشتي وحزني. فقد خشيت أن يمسك بـي بيزيريس ويعذبني، لذا أخفيت حزني وحبست دموعي؛ حتى إنني كبحت غضبـي، ولكنني فشلت في الوصول إلى حدّ الذهاب ورؤية الجسد الممزق للمرأة التي أحببتها إكراماً لروحي البائسة.

لكن مخاوفي كلها ذهبت عبثاً؛ فقد ضحت أشمونيكال بحياتها لتحمي حياتي. لم أدرك تلك الحقيقة إلى أن حل اليوم التالي. ومع ذلك، لم أستطع أن أخلص نفسي من الشعور بالفزع. فقد فكرت أن بيزيريس بكل تأكيد لن يدع المسألة تمضي بسلام. كان الشخص الوحيد الذي لديه علم بعلاقتي بأشمونيكال هو كبير الكهنة فالفازيتي، ولكنه توفي في العام الفائت. فأدركت أن الملك سيعجز عن إثبات أبوتي للطفل الذي حملته أشمونيكال في رحمها. وتأكدت أن كل شيء سيمضي كما أردت له، فبدأت أحرر نفسي من ذلك الخوف المميت الذي أحكم قبضته علي. ولكن للأسف، لم يعد بوسعي أن أحظى بأي سلام على وجه الأرض بعد الآن.

لقد تسبب الملك بيزيريس في موت المرأة التي أحببتها وطفلي الوحيد، وأنا باتاسانا الضعيف لم أواجهه، ولم أبصق في وجهه. فقد سيطر الخوف على عقلي وقلبـي، وهيمن على كامل جسدي كليلة مظلمة تخنق النور. نعم، لقد جبنت، ولكن الجبناء أيضاً يسعون وراء الانتقام. في الواقع، إن الجبناء هم الذين يحصدون ثمار الانتقام أكثر من غيرهم، فهم ينتظرون ويترقبون من بعيد بمكر إلى أن تحين اللحظة غير المتوقعة...

á á á

الفصل السادس والعشرون

لقد انتظر بمكر ثم ارتكب جرائمه الغادرة في لحظة غير متوقعة. إن سلسلة من الجرائم التي تم التخطيط لها وتنفيذها بكل إتقان وحدها تكفي لتهدئة عداوة وبغضاء دامت ثمانية وسبعين عاماً. نعم، نعم، لا يمكن أن يكون القاتل سوى الحاج عابد. تلك هي الأفكار التي ظلت تدور في رأس إسراء وهي في طريقها إلى مبنى البلدية في المدينة.

وعندما وصلا إلى هناك، انحنى موظف واقف أمام الباب لهما باحترام ورحب بهما. قيل لهما في الداخل إن رئيس البلدية "أديب" أراد أن يحضر لاستقبالهما بنفسه لولا أنه قد تم استدعاؤه لمسألة ما تتعلق بحفر القناة، ولكن ما بيده حيلة، فالواجب يأتي بالضرورة قبل كل شيء آخر. ومع ذلك، فقد أكد لهما الموظف أنه سيحضر في اليوم التالي عندما يصل المراسلون الصحفيون، وطلب منهما ألا يقلقا لأن مجلس المدينة تحت خدمتهما وسيوفر لهما كل ما يمكن أن يحتاجا إليه. سرت إسراء لأنه لم يتوجب عليها مقابلة رئيس البلدية كي لا تضيع وقتها بالمحادثات الطويلة المهذبة. وقالت للموظف إنهما يريدان استخدام آلة النسخ على الفور لأن وقتهما ضيق، فلبى الموظف الذي لم تغب ابتسامته عن وجهه أمنية إسراء على الفور، وأرشدهما إلى مكان وجود آلة التصوير، ثم سألهما إن كانا يرغبان بشرب أي شيء قبل أن يتركهما ليقوما بعملهما. وبينما بدأ مراد بنسخ الأوراق، أخرجت إسراء هاتفها المحمول، وطلبت رقم رستم، ولكنها لم تتمكن من التوصل إليه. ترى، هل طلب منه كمال أن يطفئ هاتفه؟ ولكنها في هذه الحالة لم تجد أي داعٍ للمبالغة بالقلق؛ لأنه بكل تأكيد لن يبتعد.

لم يستغرق منهما إنهاء المهمة قضاء وقت طويل في مبنى البلدية، فقد أنهى مراد نسخ الأوراق قبل أن تنتهي إسراء من شرب زجاجة الكولا التي تحملها. وبينما هما يخرجان من مبنى البلدية، شاهدا الحاج "عابد" يدخل إلى المسجد، فوقفت إسراء هناك، وراقبته من بعيد بعناية لتتأكد من أنه لا يعاني من أية إصابات أو ندبات. وعلى العكس من ذلك، بدا في حالة جيدة للغاية، ففكرت إسراء في سرّها: "إنه ربما مجرد جرح سطحي يخفيه تحت قميصه".

لاحظت أن الحاج "عابد" مشى منكس الرأس وكأنه يخشى أن تفضح عيناه سره الدفين. ولولا خشيتها من إثارة المتاعب لذهبت إليه، وأوقفته

لتلقي عليه نظرة فاحصة، وترى أي معلومات يمكنها أن تحصل عليها منه بالحيلة والمناورة. ولكنها أدركت أن هذا سيزيد من تشويش النقيب. وبعد أن تأملت بعجز الحاج وهو يدخل المسجد، واصلت المشي لتنضم إلى مراد في سيارة الجيب. عندما شاهدت إسراء الحاج "عابد" يمشي بتلك الطريقة وعيناه مطرقتان نحو الأرض، ازدادت قناعتها بأنه القاتل بلا شك. فقد كانت تثق كثيراً بلغة الجسد؛ إذ إن لغة الجسد من وجهة نظرها هي ما يفضح مشاعر الإنسان في أغلب الأحيان ويكشف عن ضعفه والأكاذيب التي يحاول أن يخفيها. تذكرت أنها لاحظت نظرة تردد في عيني الحاج عندما قابلته أول مرة. وهذه المرة، باتت واثقة أكثر من ذي قبل أن هذا الرجل هو القاتل، والسبب هو أنه لم يستطع أن يتحمل عبء أعماله مما جعله يحني ظهره ويمشي خلسة مخفياً وجهه. ولكن، بقيت هناك نقطة واحدة لم تستطع أن تفهمها. فقد استطاعت أن تفهم كيف تمكن من التخلص من الحاج عبد الستار، ولكن كيف استطاع أن يقتل رجلاً قوياً مثل رشيد آغا؟ أما الرجل المسكين الذي قتل في اليوم الفائت، فلا بد أنه أخذ على حين غرة لأنه حاول أن يدافع عن نفسه، ونجح في إلحاق جرح بالقاتل، ولكنه فشل في الهرب. وعلاوة على كل هذا، لم يخامر الضحايا أي شك حياله لأنه شيخ في المسجد، لذا لا بد أنه وجد سهولة في التسلل إليهم على حين غفلة. من قد يخطر بباله أن هذا الحاج التقي مجرم؟

عندما عادت إلى المدرسة وشاهدت حشداً من الناس متجمعين حول التعريشة، ظنت أن "كمال" قد عاد بلا شك، لذا قفزت بسعادة من سيارة الجيب حتى قبل أن يركنها مراد. ولكن سعادتها ذهبت عبثاً لأنها لم تر "كمال" بين المجموعة المتجمهرة هناك. كان أول شخص ميزته هو جوتشيم من مكتب إسطنبول التابع للمعهد الألماني للآثار، ثم تذكرت أنه سبق لها أن قابلت من قبل الألمانيين الآخرين اللذين وقفا للتحدث مع بيرند على حد سواء. ففكرت بأنهما بلا شك من أفراد الفريق الذي وصل من إسطنبول في اليوم الفائت. حالما لاحظ جوتشيم وصول إسراء، وقف مبتسماً.

"سيدة إسراء، كيف حالك؟".

فأجبرت إسراء نفسها على الابتسام، وقالت: "شكراً جزيلاً لك، وكيف حالك أنت؟".

صافحت الضيفين الآخرين ورحبت بهما. ولم تجد تيموثي وتيومان وإيلاف في الجوار. ففكرت في سرّها: "لا بد أنهم يعملون في غرفهم. من لديه وقت للترحيب بالضيوف بوجود الكثير من العمل للقيام به".

بدأ جوتشيم الحديث باللغة الإنكليزية قائلاً: "تهانينا". ورغم أنه تحدث اللغة الإنكليزية بلكنة ألمانية إلا أنها وجدت فهمها أسهل بكثير من فهم لغته التركية الركيكة. تابع قائلاً: "لقد حققتم شيئاً استثنائياً بالفعل هنا. فأن تكشفوا عن مكتشف أثري بهذه الأهمية في هذا الموقع، وهو موقف تم التنقيب فيه قبل عدة سنوات، فهذا عمل ليس أقل من أعجوبة. إن الحلقات الأثرية تظهر اهتماماً بالغاً بعملكم هنا. ورسائل البريد الإلكتروني تتدفق علينا من كل حدب وصوب. وهناك عشرات العلماء الذين يريدون الحضور إلى تركيا من أمريكا وإنكلترا وألمانيا لمجرد رؤية الألواح والموقع. هذا بالفعل أمر مثير للإعجاب".

بذلت إسراء ما بوسعها لكي تتحلى باللباقة، وقالت: "إن الإنجاز يعود لنا جميعاً، ومساهمتكم فيه ليست مساهمة يستهان بها. بالمناسبة، كيف تتم التحضيرات في غازي عنتاب؟".

أصغى جوتشيم وكله آذان صاغية ليتمكن من التماشي مع لغة إسراء الإنكليزية السريعة.

فأجاب أخيراً: "كل شيء جاهز. حدثت مشكلة صغيرة أمس، ولكن بفضل تيم وبيرند تمكنا من حلها في الحال. تحدثت إلى السيد كرينشر قبل ساعة. فقال إن كل شيء جاهز في إسطنبول. سيكونون هنا بحلول الغد".

تدخل بيرند وهو غير قادر على التزام الصمت وقتاً أطول من ذلك: "نحن جاهزون أيضاً". ثم التفت إلى إسراء وقال: "سآخذ ضيوفنا في جولة صغيرة في موقع التنقيب عن الآثار، فسيكون من المفيد لهم أن يروه قبل أن يراه الصحفيون".

قالت إسراء: "فكرة حسنة". وبينما هي تقول ذلك، ظل بصرها مركزاً على جوتشيم، ثم قالت له: "بالطبع ستبقون لتناول العشاء معنا".

"لسوء الحظ، يجب علينا العودة إلى الفندق مساء اليوم. فقد يحاول الصحفيون القادمون من أنقرة الوصول إلينا".

سرت إسراء بينها وبين نفسها لسماع هذا الخبر. ومع ذلك، ألحت عليه قائلة: "هيا الآن، من المؤكد أنه يمكنكم الوصول متأخرين بضع ساعات".

ظهر تعبير يدل على شيء من التنازل في عيني جوتشيم الذي وجد الكثير من الإلحاح تصرفاً تركياً بحتاً، فقال: "شكراً لك، ولكننا حقاً لا نستطيع".

تظاهرت إسراء أنها حزنت لرفضه ولكنها تقبلت قراره، فطلبت الإذن

بلطف كي تذهب وتجهز النسخ التي أحضرتها. فنهض الرجال جميعاً وودعوها إلى حين لقائهم في اليوم التالي عندما يرون بعضهم بعضاً في الفندق.

لاحظت وهي تمشي على طول الممر في مبنى المدرسة أن باب غرفة تيموثي مفتوح، فمشت نحوه، ولكنها وجدت نديدة المرتدة وحفيدها بالداخل، لذا تراجعت خطوة إلى الوراء. إذ لم يكن لديها وقت لتضيعه معهما. لذا، توجهت إلى الغرفة التي تحوي أجهزة الكمبيوتر.

وجدت تيومان جالساً أمام الكمبيوتر؛ بالضبط كما تركته.

فسألته حالما دخلت: "هل هناك أي خبر عن كمال؟".

بدت عينا تيومان مرهقتين من التحديق بالشاشة، فقال وهو ينظر إليها بعينين نصف مغمضتين: "كلا، لم يتصل بعد. هل سنحت لك الفرصة للتحدث إلى رستم؟".

"كلا".

وضعت إسراء المجلد الذي في يدها على مقعد المدرسة، ثم أخرجت هاتفها وطلبت رقم رستم، ولكن الجواب لم يتغير: "الرقم المطلوب لا يمكن الوصول إليه".

تذمر تيومان قائلاً: "ألا يحوي متحف الهواء الطلق ذلك أي هاتف؟".

"على ما يبدو، إنه لا يحوي واحداً، أو إن الشخص الذي تحدثت إليه على الأقل لا يعرف بوجوده". توجه نظر إسراء إلى شاشة الكمبيوتر، فلاحظت أن تيومان كان يكتب شيئاً عن الألواح.

"ماذا تفعل؟".

"لقد ترجم تيم الملخصات المكتوبة على ظهر الألواح. وبكلمات أخرى، لقد توصل إلى لمحة موجزة عن الألواح. وأنا الآن أطبعها وأحفظها على جهاز الكمبيوتر؛ فقد قال إنه قد يحتاج إليها في المؤتمر الصحفي".

"هذا ذكاء منه. فمن المؤكد أننا سنتلقى أسئلة عن مضمون الألواح".

توجهت إسراء نحو الباب، وقالت: "سوف آخذ حماماً. أشعر أنني دبقة من العرق".

وبعد أن مشت بضع خطوات، تراجعت إلى الوراء، وأعطت تيومان هاتفها المحمول، وقالت: "سأتركه معك في حال اتصل بنا كمال".

ظلت إسراء تحت الماء البارد لبعض الوقت، وشعرت بالقطرات المنهمرة على جبهتها تمسح كل الأفكار التي ظلت تنهش دماغها؛ وكأنها تندمج مع روحها في هدوء عميق. أصابها النعاس حالما خرجت من الحمام، فمشت

بخطوات سريعة نحو غرفتها في محاولة منها لتجنب الآخرين. وحالفها الحظ لأنها تمكنت من الوصول إلى غرفتها من دون أن تصادف "خلف" أو تيموثي. فتمددت على سريرها واستغرقت في النوم لساعة أو نحو ذلك. وبحلول الوقت الذي استيقظت فيه، وجدت نفسها غارقة في العرق من جديد، فنهضت وغادرت غرفتها.

وجدت تيموثي جالساً تحت التعريشة، و"خلف" يقشر بعض البصل المجفف والثوم الطازج أمام المطبخ ليحضر وجبة المساء، فمشت إسراء نحو تيموثي.

"مرحباً، يبدو لي أن الضيوف قد غادروا".

فقال تيموثي مستجمعاً شتات نفسه: "مرحباً. نعم، لقد غادروا".

"لا تبدو في مزاج جيد جداً".

فقال تيموثي: "لسوء الحظ، لم أتمكن من الحصول على أية أخبار جيدة للمرأة المسنة". وبدا مكتئباً جداً لدرجة أنها لو لم تكن تعرفه بشكل جيد لأقسمت أنه كان يبكي.

"إذاً، ألم تتمكن من العثور على معلومات عن الشقيق الأكبر؟".

تنهد تيموثي وأجاب قائلاً: "نعم، كما ذكرت لك من قبل، إنني أعرف ذلك التلميذ الذي يعيش في نيويورك، لذا أرسلت له رسالة عبر البريد الإلكتروني تتضمن العنوان المذكور في الرسالة، وطلبت منه أن يحاول اكتشاف أي شيء عن ذاك المدعو ديكران بابازايان. فتلقيت منه رداً بالأمس".

"بهذه السرعة!".

"لحسن الحظ، فقد راسلته في وقت يحظى فيه بالكثير من وقت الفراغ. وهكذا، فقد عثر على المبنى في مكانه حسب العنوان، ولكنه لم يصادف أحداً يعرف ذلك الرجل. وعلى الرغم من ذلك، فقد عثر على رجل اسمه بيل يعمل في أحد المقاهي هناك منذ سنوات عديدة. قال الجميع للطالب إن بيل هو الشخص الوحيد الذي يمكنه أن يساعده في البحث عن ضالته المنشودة، لذا أرسلوه إلى هناك. وكما تبين في ما بعد، استطاع بيل العجوز تمييز اسم ديكران بابازايان في الحال. إذ إن ديكران كان صديقاً له، فقد عرفه منذ الوقت الذي انتقل فيه إلى ذلك الحي. وكان ديكران قد تمكن من النجاة بنفسه مع والدته حين ذهبا إلى حلب، ومن هناك إلى بيروت بعد أن خلفا اخته ناديا وراءهما في تركيا. ولكن والدته المريضة فارقت الحياة في بيروت، فبقي ديكران في بيروت لبعض الوقت

قبل أن يتوجه إلى نيويورك بعد إلحاح من أقاربه الذين هربوا إلى هناك قبل وقت طويل. فأمن له أقاربه وظيفة ومسكناً. وفي ذلك الوقت من الماضي، تعرف بيل على ديكران. قال بيل إن ديكران كان رجلاً هادئاً ومهذباً. في الواقع، قال إنه كان شديد الصمت، ولكنه اعتاد أن يفرط في احتساء الشراب ويفقد أعصابه ويبدأ بالبكاء ثم يهاجم جميع من حوله. وبما أنه رجل ضخم الجثة، لم يكن من السهل السيطرة عليه، ولهذا السبب توقف بيل عن تقديم الشراب له. أدرك ديكران فداحة بلواه هذه، لذا حاول أن ينأى بنفسه عن الآخرين ولا سيما النساء. ومع ذلك، فوسامة ديكران جعلت النساء يرفضن تركه وشأنه. وأخيراً، جذبته تلك المرأة المدعوة نانسي ولكينسون؛ فقد ظلت تتودد إليه وتحوم حوله إلى أن وافق أخيراً على الزواج بها. طوال السنة الأولى من زواجهما، مضى كل شيء على ما يرام، فأنجبا ابناً وعاشا بسعادة تامة. وأطلق ديكران على الطفل اسم أرميناك، ولكن كلما كبر الطفل كبرت معه مخاوف ديكران. فقد بدأ يعاني من كوابيس، ثم يستيقظ في منتصف الليل ويهرع إلى سرير طفله وهو يصيح قائلاً: "سوف يقتلون ابني...". فتحول خوفه هذا تدريجياً إلى جنون ارتياب، وبدأ يقول لجميع من يراهم إنهم يسعون وراء أذية ابنه. وإن أصيب ابنه بأقل مرض، ضرب زوجته، واتهمها بأنها دست السم للولد. استطاعت المرأة المسكينة أن تتحمل الضرب والإهانة لبضعة أشهر فقط قبل أن تترك البيت بفزع ذات ليلة في منتصف الليل خشية أن يقتلها زوجها. وعندما بقي ديكران وحده مع ابنه، انهارت أعصابه بشكل كامل. فلم يتردد الأطباء الذين فحصوه في التوصل إلى تشخيص حالته؛ وهي فصام الشخصية الارتيابي. وهكذا، سارعوا إلى حجزه في مستشفى للأمراض العقلية، وهذا هو الوقت الذي توقفت فيه نديدة عن تلقي الرسائل منه. وتوفي الرجل في المستشفى نفسه قبل عشرين عاماً.

تأثرت إسراء بما سمعته، فقالت: "إذاً، ما الذي حدث لأرمنياك الصغير؟".

"لقد بحثت عائلة ديكران في كل الأنحاء عن أم الطفل، ولكنها فشلت في العثور عليها. وعندها، تبنّته عائلة أمريكية من الطبقة المتوسطة. ولكن تلك الأمور كانت محاطة بسرية تامة في ذلك الوقت في أمريكا، لذا سيكون من المستحيل بالنسبة لنا أن نعثر عليه الآن. وبالإضافة لذلك، إنني أشك بأن العمة نديدة سوف تبذل كل هذا الجهد في سبيل العثور عليه على أية حال".

"ماذا فعلت نديدة عندما اكتشفت حقيقة ما حدث لأخيها؟".

"ما الذي يسعها أن تفعله؟ في البداية، تنهدت ثم ذرفت الدموع. وحالما هدأت، أشارت إلى السماء وقالت: "هذا قدرنا. هذا هو المكتوب علينا. فكل ما يحدث يحدث وفقاً لإرادة الله". وبالمختصر، لقد استخدمت وسيلة دفاعية استخدمها سكان الأناضول منذ آلاف السنين لتخفف عن نفسها. لقد حاولت، ولكن هذه المرة بلا أية فائدة. فقد نظرت بإمعان إلى عينيها الداكنتين، ووجدت أنها بدت حزينة كالسابق. وعندما رأيتها بهذا الشكل، قلت لنفسي: أيها الأحمق تيموثي، لماذا أخبرتها الحقيقة؟ ".

فقالت إسراء: "إن ما حدث ليس ذنبك أنت، لذا لا تظلم نفسك. فقد ساعدت تلك المرأة المسكينة".

قال تيموثي: "لا أظن أنني قدمت لها أية مساعدة". لم تره إسراء من قبل وهو يبدو بهذا القدر من اليأس. تابع كلامه قائلاً: "إن الطريقة الفضلى لمساعدتها كانت بأن أكذب عليها، وعندها ستستمر بالعيش وهي تظن أن لها أخاً في مكان ما؛ حتى لو اعتبرته أخاً خائناً. ولكنني عندما أخبرتها الحقيقة جردتها من آخر أمل تبقى لديها. إذاً، أخبريني الآن، هل الحقيقة ضرورية إلى هذا الحد فعلاً؟".

"هيا، ياتيم. تعرف أنه من الخطأ أن تفكر بهذه الطريقة. فلولا وجود الحقيقة، لما وجد أي شيء آخر. انظر إلينا كم نحن مبتهجون للعثور على ألواح باتاسانا لأنها تقربنا من معرفة الحقيقة".

"أنت محقة. ولكن، في النهاية، كل شيء لا معنى له".

نظرت إسراء إلى تيموثي من دون أن تدرك ما يدور في باله. في الواقع، هناك أوقات ظنت فيها إسراء أن تيموثي لا يعلق الكثير من الأهمية بالفعل على ما يجري، وأنه يراقب كل شيء من حوله ثم يواصل عمله بالتنقيب عن الآثار بإحساس من اللامبالاة. والآن، أدركت أنها محقة في تفكيرها، ومع ذلك لم تستطع أن تمنع نفسها من الشعور بالتفاجؤ.

تابع الأمريكي كلامه قائلاً: "أخبريني من فضلك ياعزيزتي إسراء. ما هي بالضبط الحقيقة غير المعروفة مسبقاً التي تكشفها لنا ألواح باتاسانا؟".

بدأت إسراء كلامها قائلة: "كيف أن الحثيين الجدد وصلوا إلى...".

"كلا، كلا، أعني أي حقيقة جوهرية كونية تعلمنا إياها؟".

لم تفهم إسراء ما يقصده تيموثي بكلامه. وأخيراً، توجب على تيموثي أن يجيب عن سؤاله بنفسه.

فقال: "قسوة البشر، أليس كذلك؟ إن ألواح باتاسانا تخبرنا هذه

الحقيقة. ولكن، هل هذا شيء لا نعرفه من قبل؟".

رفع تيموثي صوته مكرراً السؤال قائلاً: "أخبريني، هل هذا شيء لا نعرفه من قبل؟".

حدق بإسراء بعينين ملؤهما الإلحاح. وبعد لحظات قصيرة ساد فيها الصمت، تابع كلامه.

فقال: "إن تاريخ البشرية يحكي لنا هذه القصة من بدايتها على أية حال. لذا، إن استمر بعض الحمقى بالتحدث عن مدى طيبة البشر وجمالهم ونبلهم، فهذا لن يغير من الحقيقة شيئاً...".

التزم الصمت وراح يأخذ أنفاساً عميقة وكأنه يكابد ليتمكن من الكلام.

ثم قال: "هل تعرفين لماذا لم أشارك في مهمات للتنقيب عن الآثار منذ وقت طويل؟".

فأخفضت إسراء رأسها مشيرة إلى أنها لا تعرف.

قال تيموثي: "بسبب الحقيقة التي تحدثت عنها للتو. لقد جعلتني تجربتي في فيتنام مريضاً، فتلقيت علاجاً نفسياً في إحدى العيادات لأشهر عدة".

تفوه تيموثي بهذه الكلمات وكأنها مجرد تفاصيل لا أهمية لها، ولكنها بالنسبة لإسراء شكلت صدمة كبيرة. وهكذا، فقد تلقى الأمريكي علاجاً نفسياً، وهذا هو السبب الذي جعله يبدو واثقاً من نفسه عندما تحدث عن متلازمة الحرب عند أشرف. فقد جرب المشاعر نفسها، وتمكن من أن يفهم النقيب حق الفهم، ولكن إسراء تساءلت عن سبب عدم إخباره إيّاها عن ذلك من قبل. ولكن، من قد يفعل ذلك؟ إذ ليس من السهل أن يخبر المرء الآخرين أنه خضع لعلاج نفسي. ومع ذلك، فقد ظنت أن رجلاً مثل تيموثي يبدو عليه أنه يعيش بسلام تام مع نفسه لا يعاني من مشكلة في الكشف عن سر من هذا النوع. وها هو يخبرها الآن، ولكن السؤال الذي حيرها هو: ما الذي أخره في فعل هذا حتى هذه اللحظة؟

تابع تيموثي قائلاً: "هناك أخصائي نفسي ضخم الجثة له شعر أحمر لا أعرف اسمه الحقيقي، ولكننا أطلقنا عليه اسم جيري. لطالما وجدته مختلفاً عن كل الآخرين لأنه اعتاد أن يقول لنا إن الحرب أمر عادي. فكان يقول لي: "لست الشخص الوحيد الذي ارتكب جريمة قتل. فهناك الملايين من الناس الذين قتلوا أناساً آخرين قبلك. أعني، إن ما فعلته طبيعي، فلا تلم نفسك". وهكذا، فقد تمكنت بهذا التشجيع من استعادة طبيعتي المعهودة.

تعلمت منه للمرة الأولى أن هذا الشعور بالوحشية والرغبة بالقتل ليس مرضاً فريداً من نوعه في عصرنا. وهكذا تمكنت من نسيان رفاقي الذين ماتوا أمام عيني، والذين قطعت أذرعهم وأرجلهم وأنوا من الألم وارتجفوا من الخوف، والجثث المتفحمة في القرى التي أحرقناها، وصراخ الجنود الفيتناميين؛ الرجال منهم والنساء على حد سواء، والذين أطلقنا عليهم الرصاص حتى الموت. وتمكنت من العودة إلى العمل بعد الحرب بفضل جلسات إعادة التأهيل التي أجريتها مع جيري.

كرست نفسي بشكل كلي وتام لعلم الآثار حالما عدت إلى العمل لكي أتمكن من نسيان كل الأشياء الرهيبة التي عانيتها. فقد مضى أوان القتل والدمار، وحان وقت الإبداع. وفكرت أنني عالم أكاديمي، ويجب علي أن أكشف عن الماضي لكي يتمكن الناس من أن يؤسسوا مستقبلاً أكثر تطوراً وحضارة. وخطر ببالي أن هناك الكثير من القصص التي يمكن أن نتعلمها من الحضارات المجهولة المندثرة. وهكذا، توجهت مباشرة إلى بلاد الرافدين حالما أنهيت درجة الماجستير في جامعة ييل سعياً وراء تعلم كل هذه الأشياء. فبدأت أحفر في الأرض وأنا ممتلئ بالأمل والإيمان والإصرار. ولسوء الحظ، مع كل كومة تراب وكل حضارة قديمة وكل مدينة أثرية وكل معبد ومكتبة وقبر تم الكشف عنها لم أجد شيئاً مختلفاً عما قاله جيري. إذ ليس فقط في عصرنا، ولكن منذ بداية الوجود لم تنجب البشرية سوى الناس الفاسدين أنفسهم الذين يجنون متعتهم من التسبب بسفك الدماء وإلحاق المعاناة بالآخرين. ولكنني لم أفقد الأمل رغم كل شيء، فواصلت الحفر بكل إصرار في الأرض ظنًّا مني أنني سوف أعثر على لوح ما أو نقش أو نحت أو أية إشارة تدل على عكس ذلك، ولكنني في كل مرة وجدت نفسي أتلوى من الألم والخزي كتحر حاول مراراً أن يثبت براءة والده المدان ولكنه وجد نفسه مدمراً مع كل دليل يجده وكل شاهد يثبت أن والده ليس إلا وحشاً عديم الرحمة. ولهذا السبب، هربت من هناك إلى هذه البلاد قبل خمس سنوات. هنا في هذا المكان المتخلف إلى حد ما، استطعت أن أكوِّن صداقات جديدة وأشعر بأمور جميلة وبسيطة ساعدتني على إعادة تأسيس علاقتي مع الحياة. فنجحت في تكوين صداقات وعلاقات جديدة في غازي عنتاب وفي البلدات والقرى، وأفسح لي هؤلاء الناس الكرام مكاناً في حياتهم. وعندئذ، اكتشفت احمرار زهرة الرمان الخادع، والحلاوة الحامضة في الخوخ، وطعم العنب الممتاز، والأعجوبة في كل أغنية شعبية يرددها الناس، ولكنني اكتشفت أن الحقيقة التي طاردتني

طوال حياتي موجودة جنباً إلى جنب مع كل تلك الأشياء. فالوحشية نفسها التي توجد في أمريكا وفيتنام موجودة هنا على حد سواء، لذا توقفت عن الاستماع إلى الأخبار أو قراءة الصحف لكي لا أسمع عن أخبار كل ذلك الموت. حاولت أن أهرب من البشرية ومن نفسي، ولكنني عجزت عن ذلك. فمن المستحيل أن يهرب المرء من نفسه... ولهذا السبب، ترددت في القبول عندما دعوتني للانضمام إلى هذه الحملة للتنقيب عن الآثار. فقد خشيت من التوصل إلى النتيجة اللعينة نفسها، وهذا ما حدث بالفعل. فقد وجدت نفسي وجهاً لوجه مع الحقيقة المرعبة نفسها مرة أخرى. ليس فقط في ألواح باتاسانا، بل في هجرة تلك المرأة العجوز، والعداوات العرقية، والحياة التي تمزقها التعصبات الدينية".

بينما واصل تيموثي حديثه، تذكرت إسراء الحادثة التي أخبرها عنها أشرف. وفكرت كيف أصبحت أخبار النـزاعات المسلحة جزءاً عادياً من حياتهم اليومية. وظهرت صور جثث الأكراد الشباب المبعثرة في كهوف الجبال، وجنائز الجنود الموضوعين في التوابيت الملفوفة بالأعلام، ودموع المشيعين الذين يحيطون بهم ويرافقونهم إلى مثواهم الأخير ونحيبهم واحدة تلو الأخرى أمام عينيها. فأدركت معنى كلام تيموثي، وشعرت أنها تشاطره مشاعره نفسها؛ لأنها استطاعت أن تفهم الألم نفسه في قلبها، ولكنها لم تستطع أن تتحمل رؤية رجل بارع مثله وهو يشعر بالمرارة حيال علم الآثار ويصبح غريباً عن مهنته.

فقالت: "أنت محق. ولكن مع ذلك لا يزال يجب علينا أن نؤدي واجبنا في الحياة". أتى صوتها مفتقراً للتصميم الذي أرادت أن يتمتع به، ولكنها تابعت رغم ذلك قائلة: "على الأقل، هكذا سنظهر للناس هذه الحقيقة...".

"عزيزتي إسراء، حتى لو كشفنا عن آلاف الألواح مثل ألواح باتاسانا، فلا فائدة من هذا. فالإنسان مخلوق من التفاهة ولا شيء سواها".

فتذمرت إسراء قائلة: "إذاً، ما الذي سنفعله في هذه الحالة؟". وشعرت أنها بدأت تصاب بالقلق من تشاؤم زميلها الذي اعتاد من قبل أن يمنحها كل الدعم والأمل، ثم قالت: "هل سنقف مكتوفي الأيدي من دون أن نفعل أي شيء لأن البشرية قاسية وشريرة، والقتل متأصل في طبيعتها؟".

قال تيموثي: "بالطبع سنفعل ما علينا فعله". وعندما أوشك أن يقول شيئاً ما، وصل تيومان جرياً إليهما وهاتف إسراء المحمول في يده.

وقال: "هناك مكالمة لك من المتحف في غازي عنتاب".

أخذت إسراء الهاتف بلهفة ظناً منها أن المتصل هو رستم، وأنها أخيراً ستتلقى خبراً عن مكان تواجد كمال، ولكن ما توقعته لم يحدث. فقد كان المتصل هو الموظف نفسه الذي تحدثت إليه صباح ذلك اليوم، وقال لها إنه تحدث إلى رستم وأخبره أن إسراء قد اتصلت به. فأجاب رستم بأن هاتفه معطل وأنه سيتحدث إلى إسراء في المؤتمر الصحفي في اليوم التالي، وهذا كل شيء.

فقال تيومان: "لا بد أن ذلك الأحمق مع رستم، وإلا فكيف عرف رستم بأمر المؤتمر الصحفي. من المؤكد أننا لم نخبره عنه".

فأشرق وجه إسراء بتفاؤل وقالت: "أنت محق. فقد نسينا أن نخبره عن المؤتمر. لا بد أنه سمع عنه من كمال. إذاً، يبدو أن صاحب الجلالة لا ينوي أن يظهر للجماهير قبل صباح الغد. سألقنه درساً لن ينساه عندما نلتقي؛ سواء أكان هناك مؤتمر صحفي أم لا".

لم يبد أن هذا الحديث قد خفف من تشاؤم تيموثي. فقد ظل واقفاً هناك بصمت مطأطئاً رأسه بشكل منخفض. أما خلف، فعندما شعر من النقاش بأن هناك أخباراً جديدة عن كمال، فقد وضع البصل والثوم من يده واقترب منهم، فلاحظت إسراء الفضول في عينيه، وقالت: "لا توجد أي تطورات جديدة. نحن فقط نقوم بسرد الاحتمالات ليس إلا".

فقال خلف: "آمل من الله أن يظهر كمال سليماً ومعافى".

"آمل هذا أيضاً".

وعندما لاحظت أن "خلف" ظل واقفاً هناك أمامها، سألته إسراء: "هل هناك شيء آخر تريد أن تسأل عنه؟".

فقال وهو يبتسم بخجل: "ليس أنا، ولكن أنت من ينبغي عليك ذلك...".

"حقاً؟ وما الذي ينبغي علي أن أسأل عنه؟".

"ما طبخته على العشاء. أنت تسألينني دائماً عند الظهر".

فانفجرت إسراء ضاحكة وقالت: "باركك الله ياخلف. لقد ظننت أن هناك شيئاً مهماً".

فقال تيومان: "هل تقولين إن هذا أمر غير مهم؟ وما هو الشيء الذي يهم أكثر من الطعام على وجه الأرض؟".

"حسناً... حسناً... ماذا سنتناول على العشاء مساء اليوم ياخلف؟".

"سأعد لكم طبقاً لذيذاً يكون مفاجأة سارة".

فقالت إسراء: "حسناً إذاً، لنر كيف سيكون. آه، بمناسبة الحديث عن

الطعام، زد الكمية قليلاً لأن النقيب قد يمر لتناول العشاء معنا الليلة".

ارتسمت ابتسامة خبيثة على وجه تيومان العريض، وقال: "أنت رجل مبدع ياخلف. كل من يتناول من طعامك لا ينساه طيلة حياته. لقد حضر النقيب إلى هنا الليلة الماضية، وأراهنك بأنه سيأتي مرة أخرى الليلة".

أدركت إسراء أن زميلها أراد بهذا الكلام أن يغيظها، ولكنها آثرت أن تتجاهل ذلك.

فقال خلف قبل أن يتوجه إلى المطبخ: "على أية حال، سوف أفتح مطعماً في البلدة بعد الانتهاء من مهمة التنقيب عن الآثار".

"هذه فكرة حسنة. ينبغي أن تطلق عليه اسم مطعم الحثيين، وستجد أن أول زبون واقف في الطابور أمام المطعم هو النقيب أشرف".

والآن، بدأ تيومان يسترسل في سخافته، فحان الوقت لكي يصفع أحدهم هذا الفتى صفعة على يده ليجعله يقف عند حده. فكرت إسراء في سرّها: "لنأمل ألا يواصل هذا الأسلوب غير اللبق على طاولة العشاء بوجود النقيب". ولكن، لم تسنح لتيومان الفرصة لذلك؛ لأن النقيب اتصل قبل موعد العشاء بساعة، وقال إنه لن يتمكن من الحضور لأن هناك تطورات مهمة حصلت، ودلها على ذلك الانفعال الذي شعرت به في نبرة صوته. لم يتمكن من أن يشرح لها ذلك عبر الهاتف، ولكنه أطلعها على جزء بسيط؛ وهو أنهم استدعوا الحاج "عابد" إلى المخفر للتحقيق معه. وكان سيتحدث إليه في غضون وقت قصير.

سرت إسراء حين عرفت أن الحاج "عابد" سيخضع للاستجواب. ورغم أنها عبرت عن أسفها لأن النقيب لن يتمكن من الحضور لتناول العشاء، إلا أنها سرت بينها وبين نفسها لغياب النقيب لسببين. أولهما أنهما بدآ يقابلان بعضهما بعضاً كثيراً، وهذا ما لفت انتباه أفراد الفريق إلى درجة مزعجة. والثاني هو خوفها من أن يشتعل الجدال المتعلق بالموضوع الأرمني مرة أخرى هذه الليلة. ومع ذلك، فبيرند لم يتطرق إلى الموضوع طوال اليوم. ولكن، من أين لها أن تثق به؟

وجدوا طبق خلف الجديد لذيذاً جداً. فلم يكن تيومان الشره وحده من سأل "خلف" عن الوصفة لإعداد هذا الطبق، بل أيضاً إيلاف التي ليست عادة على علاقة جيدة مع الطعام. فلم يبدِ خلف أي ممانعة، وبدأ يشرح لهم الوصفة بكل حماسة.

فقال: "أولاً، نضع قطع اللحم في المقلاة، ثم نضيف عليه حبوب الحمص ونتركها لتنضج، ثم نضيف حبات البصل والثوم المقطعة بحجم عقلة

الإصبع. وبعد ذلك، نضع اللبن الرائب المصفى في وعاء آخر، ونضيف عليه بيضة، ونخلطه ونضعه على النار حتى يغلي. وبعد أن يغلي اللبن، نضيفه على الخليط الأول ونمزجه. وحالما ينضج الطعام، نرش عليه بعض النعناع والهسبر والفلفل الأسود ثم نقدّمه".

فكان تيومان الذي أصغى إلى الوصفة بكل حرص أول من علق عليها قائلاً: "وما هو الهسبر بالله عليك؟!".

"هذه الأعشاب الحمراء على وجه الطبق هي الهسبر. إنها تمنح الطبق نكهة مميزة، كما أنها تقوي الجسم".

وبينما هم يشربون الشاي، واصلوا تحضيراتهم للمرة الأخيرة. فقد أصبح النصّان التركي والإنكليزي اللذان سيتم توزيعهما على الصحفيين جاهزين. وأنهى كلّ من تيموثي وبيرند كتابة الكلمة التي سيلقيها. وبدأت إيلاف بتظهير صورها، وكتب تيومان ملخصاً للألواح على جهاز الكمبيوتر، وطبع منه نسختين. وهكذا، بدا الجميع على أهبة الاستعداد لحدث اليوم التالي. تملك إسراء شعور لطيف بالراحة والاطمئنان. وبدا أن قلقها المزعج الذي استولى عليها لاختفاء كمال قد تلاشى. فنظرت إلى كل واحد من زملائها بعطف وحنان.

وقالت وصوتها مفعم بالتعب ولكن من دون كآبة: "في هذه الحالة، كلنا نستحق الراحة لهذه الليلة، ولكن لا تنسوا أنه يجب علينا أن نستيقظ في وقت مبكر من صباح الغد".

على الرغم من تحذيرها، لم يأوِ أحد إلى فراشه باكراً. فقد ساعد تيومان "خلف" في غسل الأطباق، وظل يثرثر حول الطعام لبعض الوقت، بينما راجع بيرند كلمته التي سيلقيها في اليوم التالي مرة أخرى، ولم يشعر بالرضى عن خاتمتها، لذا قام بتنقيحها مرتين. أما تيموثي ومراد، فقد خرجا ليتمشيا على ضفة النهر، وانغمسا في مناقشة حول تقليد التضحية البشرية بين شعب الأزتك. استدعت إيلاف إسراء إلى غرفتها لتساعدها في اختيار ملابسها لليوم التالي، ولكن الشابة بدت صعبة الإرضاء حيال الموضوع، لدرجة أنها أبقت إسراء حبيسة غرفتها إلى أن حضر خلف ليخبر إسراء أن النقيب أشرف ينتظرها عند التعريشة.

ماذا؟ هل حضر النقيب؟ نظرت إلى ساعتها ووجدتها تشير إلى الحادية عشرة ليلاً. لا بد أن شيئاً مهماً قد حدث، وإلا ما كان ليحضر في هذه الساعة المتأخرة. أسرعت إسراء خارجة من الغرفة ومتجاهلة سؤال إيلاف: "إذاً، هل تظنين أن الكنـزة ذات اللون الكريمي مناسبة؟".

وجدت النقيب واقفاً تحت التعريشة بمفرده، وسيارة الجيب التي أقلته واقفة على جانب الطريق وأضواؤها ساطعة. بدا على النقيب التوتر، ولكنه عندما رأى إسراء حاول أن يبتسم.

فقال: "مساء الخير".

سألت إسراء: "إذاً، ما الذي أحضرك إلى هنا؟ آمل ألا يكون هناك مكروه؟".

"لا شيء يستدعي القلق". ولكن، بينما هو يقول ذلك أشاح بوجهه، ثم قال: "لقد عثر بعض الصيادين على ملجأ مهجور بداخله إرهابي ميت. نحن متوجهون إلى هناك. وبما أن المدرسة تقع على طريقي، فكرت بأن أمر بكم".

"ليس هناك شيء خطير، أليس كذلك؟".

"أشك بذلك. أظن أن ذلك المكان هو المخبأ الذي استخدمه محمود ورفاقه. لا بد أنهم اعتادوا أن يبيتوا هناك عندما لا يكونون في القرية".

"ماذا عن الإرهابي الميت؟".

"ربما تعرض لإصابة في النـزاع الذي حدث الأسبوع الماضي وهرب، ولكنه لم يتمكن من الوصول إلى مكان أبعد من المأوى ثم مات هناك".

لم يكن من المعقول أن يحضر النقيب إلى المدرسة لمجرد قول هذا الكلام. ولم يغب عن ملاحظتها تعبير وجهه المرتبك والخوف في عينيه وحركة ذراعيه المتوترة. وفجأة، فهمت إسراء كل شيء.

فقالت بشيء من التوبيخ في صوتها: "ماذا حدث مع الحاج عابد؟".

قال النقيب: "إنه بريء". وخرجت الكلمتان من بين شفتيه بسرعة.

فكرت إسراء في سرّها: "إنه يخفي عني شيئاً ما".

كرر النقيب كلامه قائلاً: "إنه بريء". وهذه المرة، تفوه بالكلمات على مهل، وحوَّل عينيه الخجولتين إلى وجه الشابة وشرح لها قائلاً: "لقد ثبت تواجده في مكان آخر عندما وقعت الجريمة، وهناك شهود على ذلك".

"أتقصد عندما وقعت الجريمة الأخيرة؟".

"نعم".

"وماذا عن الوقت الذي وقعت فيه جريمة قتل رشيد؟".

قال أشرف: "أصغي إلي يا إسراء. إن الحاج "عابد" بريء. فقد تحدثت مع الشهود، وليس لدينا على الإطلاق أي دليل يشير إليه".

"إذاً، لماذا شعرت بالحاجة لاستجوابه؟".

"أردت أن أتأكد من ذلك".

"إذاً، فقد قال لك: "أنا بريء"، وعندئذ أصبحت متأكداً، أهكذا هو الأمر؟".

"ليس الأمر بهذه البساطة. عندما أقول لك إنه بريء، فهذا يعني أنه بريء. ثقي بـي".

نظرت إسراء إلى أشرف وعيناها مفعمتان بالغضب. وكانت واثقة من أنه يخفي عنها شيئاً، ولكنها أدركت أيضاً أنه ليس مخادعاً بما يكفي لكي يحمي مجرماً قاتلاً.

فسألته بوقاحة: "أنت لا تحميه، أليس كذلك؟".

"ما الذي تحاولين قوله؟".

عندما لاحظت أن كلماتها أشعلت لهيب الغضب في عيني النقيب، باتت إسراء واثقة أن أشرف لا يحمي الحاج "عابد".

فقالت بصوت أكثر ليونة: "أنت تخفي شيئاً عني، وهذا يثير الشكوك في نفسي".

وكانت محقة في ذلك. فقد أخفى عنها حقيقة عمل الحاج عابد لصالح المخابرات. فقد شوهد الحاج عابد في قرية أخته في الليلة التي قتل فيها رشيد، وهذا هو السبب الذي جعل النقيب يشعر بالحاجة إلى استجوابه في المخفر. فسأل الحاج "عابد" عن مكان تواجده في ليلة مقتل رشيد.

فأجاب الحاج عابد: "كنت في البيت. فقد عدت متأخراً من القرية".

وكان يعيش وحده، لذا لم يكن هناك أحد ليؤكد صحة ما قاله.

ولكن، عندما سأله النقيب: "إذاً، أين كنت بالأمس؟". أجاب الحاج عابد أنه توجه إلى غازي عنتاب لزيارة صديق.

طلب النقيب عنوان الصديق ورقم هاتفه. وعندما تردد الحاج في إعطاء ذلك للنقيب، حذره الأخير قائلاً: "تذكر أنك هنا لأنك مشتبه بك في ارتكاب ثلاث جرائم قتل".

جعلت هذه الكلمات الحاج "عابد" متوتراً بشكل واضح، فقال إنه يريد أن يجري مكالمة هاتفية، ولكن النقيب لم يسمح له بذلك.

فقد قال: "إما أن تعطيني اسم ذلك الشخص الذي قابلته في غازي عنتاب وعنوانه أو سنجرب وسيلة أخرى للتواصل معك".

بدأ القلق يتملك الحاج "عابد"، لذا قرر أن يتعاون معهم، وقال إنه يريد أن يتحدث مع النقيب على انفراد. وحالما خرج الجنود من الغرفة، أخبر الحاج عابد النقيب أن الشخص الذي قابله في غازي عنتاب ليس

سوى القائد العام يلماظ من وحدة مكافحة الإرهاب. وقال إنه بوسع النقيب الاتصال به للتأكد من ذلك بنفسه. في البداية، فوجئ القائد يلماظ من مكالمة النقيب المفاجئة. ولكن، حالما شرح له النقيب القضية، أسرع بالإجابة قائلاً: "نعم، لقد كان الحاج عابد برفقتي أنا في الليلة الماضية. يمكنك الوثوق به، فهو مواطن مخلص".

ومع ذلك، لم يستطع النقيب أن يتحلى بثقة كاملة حيال هذا الكلام، فاتصل بالعقيد نديم من مخابرات الشرطة التركية، وسأله عن القائد يلماظ. فقال له إن القائد يلماظ رجل يمكن الاعتماد عليه بنسبة مائة بالمائة. وهكذا، اعتذر النقيب من الحاج عابد، وسمح له بالانصراف إلى شؤونه.

قال الحاج عابد قبل أن يغادر: "آمل أن يبقى هذا الموضوع سراً بيننا".

فأكد له النقيب أن الموضوع سيبقى سراً بينهما في كل الأحوال لأنه سر من أسرار الدولة، ولهذا السبب لم يتمكن من أن يخبر إسراء عنه.

صدقته إسراء رغم أنها أدركت أنه يخفي عنها سراً. لم يكن تصديقها هذا مبنياً على أي دليل ملموس، أو على ثقة مبنية على سنوات عدة من الرفقة، أو وعد قطعه لها، بل على علاقة تسمى الحب؛ ولكنها علاقة تمتاز بالتقلب وتسير في طريق مشكوك فيه. وبالإضافة إلى ذلك، فتصديق إسراء للنقيب لم يثبت لها أي شيء، بل فتح أمامها مرة أخرى باب ذلك السؤال المزعج الخطير الذي ظل ينتظر إجابة منذ وقعت جريمة قتل الحاج عبد الستار على مصراعيه. فإن ثبت أن الحاج "عابد" بريء، فمن هو القاتل إذاً؟ لم يكن النقيب يملك إجابة عن هذا السؤال على حد سواء. وفي تلك اللحظة، لم يشعر برغبة في التفكير بالأمر. فترك إسراء وحدها وهناك أسئلة محيرة تحتل تفكيرها وغادر وهناك شيء وحيد يشغل باله؛ وهو تلك الجثة التي تم العثور عليها في الكهف.

á á á

اللوح السادس والعشرون

لقد اختفى جسد أشمونيكال. فقد رفض بيزيريس أن يعيد جثمانها الممزق والمهشم إلى عائلتها، أو أن يضع رفاتها في جرة من الفخار ويمنحها جنازة ملائمة كما فعل مع بقية حبيباته اللواتي فارقن الحياة، ولم يخبر أحداً عما فعله بها. فقد طمس ودمر ومحا جسد أشمونيكال عن وجه الأرض؛ ذلك الجسد الذي تغار منه النسمات.

استشاط بيزيريس غضباً لأن حقيقة عقمه انكشفت أكثر من غضبه لخيانة أشمونيكال له. والآن، بات كل سكان القصر يعرفون السر الذي تكتم عليه لسنوات عديدة. تملكه الخوف من أن ينتشر خبر هذه الحادثة المحرجة خارج بوابات القصر، فأوقف التحقيقات. وعمل على نشر قصة مفبركة بين الناس؛ وهي أن أشمونيكال سقطت خطأً من نافذة غرفة الحريم. وفي تلك الأثناء، أطلق سراح والديها، ولكن بعد التهديد والوعيد. وتحدث إلي حول أشمونيكال مرة واحدة. فقد سألني عن آخر مرة رأيتها فيها، وعن آخر لوح قرأته، وإن كنت قد وجدتها حزينة. قدمت أجوبة بسيطة ومختصرة، فأصغى إلي وهو يهز رأسه بوقار، ثم غير مجرى الموضوع.

عاش بيزيريس أسوأ سنوات حياته. فأحلامه في إعادة تأسيس مملكة الحثيين الكبرى لم تصل لثمرتها المرجوة بسبب الهجوم الآشوري، وانكشفت حقيقة عقمه، وأدرك أنه لن يحظى بوريث يواصل سلالة عائلته. كان من الصعب على شخص مثله أن ينصاع لهذه الحقائق المرة، فانغمس بالنشاط الوحيد الذي وجد فيه شغفه منذ الطفولة، وهو الصيد. وأصبح يستغل كل فرصة تسنح له ليترك جدران الحصن المنيعة السميكة خلفه ولا يعود لأيام عدة. وبينما هو يسعى لنسيان سنوات فشله ويداوي شرفه الجريح من خلال سعادته بحفلات الصيد، رحتُ أغذي في داخلي كراهية كفيلة بأن تورده موارد الهلاك وتؤدي به إلى القبر لا محالة.

طيلة وجودي في البيت وفي القصر وفي المكتبة وعلى طول نهر الفرات، ظللت أفكر باستمرار في الطريقة التي تمكنني من أن أنال انتقامي من بيزيريس. لم أخطط لانتقام سريع وقصير الأجل، بل قررت أن آخذ وقتي في التحضير لنصب الفخ المثالي له. وصممت ألا أدع بيزيريس يشعر بالمكيدة التي أحوكها له، وألا يدرك أنه وقع في فخي إلا بعد فوات الأوان. ما احتجته لانتقامي أكثر من كل شيء آخر هو الصبر. فبدأت أنتظر

بلا حراك كأفعى عمياء حلول اللحظة المناسبة لأنقض على فريستي.

في تلك الأثناء، وضعت حداً لعزوبيتي التي بدأت تصبح مادة للثرثرة والإشاعات. وهكذا، أبعدت عني بعض الانتباه غير المرغوب به، فتزوجت فتاة اسمها بيششوفاتي، وهي ابنة رجل من النبلاء. وأدخلت بعض السعادة إلى قلب والدتي والفتاة التي تزوجتها وكذلك بيزيريس، ولكن لحظة سعادتي الحقيقية التي انتظرتها لم تكن قد حانت بعد.

عاشت مملكتنا فترة يسودها السلام والهدوء؛ فقد انشغل الآشوريون بشؤونهم الخاصة. ومع ذلك، لم تدم فترة حكم سلمنصر طويلاً، ووجد خليفته سرجون نفسه يتولى حكم إمبراطورية مشحونة بالفوضى والقلاقل. وحالما أثبت سلطته عن طريق سفك الكثير من الدماء في مملكته نفسها، بدأ يركز انتباهه على البلدان الأخرى.

كان الملك الأورارتي الجديد روسا يتوق لنيل انتقامه للهزائم التي لحقت بشعبه على أيدي الآشوريين. ولم يخف نواياه تلك، ولم يحجم عن التحدث عنها بصراحة في ألواحه المرسلة إلينا ومحادثاته معنا. وعندما قرأت لبيزيريس الألواح التي وصلت من روسا، رأيت لمعاناً شبيهاً بذلك اللمعان من الأيام الخوالي في عينيه اللتين بدأ التقدم في السن يبدو عليهما. ولكي أحقق انتقامي، شعرت أنني بحاجة إلى تغذية تلك الأفكار الشجاعة والجاهلة في آن معاً، والتي يدل عليها ذلك البريق، ولكن بيزيريس تذكر هزائم السنوات التي خلت، فلم يتخل عن حذره وحافظ على علاقات طيبة مع الأورارتيين ممتنعاً طوال الوقت عن دعم محاولاتهم.

توجب عليّ أن أنتظر أكثر إلى أن يتمكن الزمن من أن يضع غشاوة على ذاكرة بيزيريس وينسيه الدروس التي علمه إياها الماضي، وإلى أن تمحى الندوب التي خلفتها الأعمال الشريرة التي تم ارتكابها في الماضي. وهكذا، طال انتظاري أياماً وشهوراً وسنوات. وأصبحت زوجتي حاملاً، ثم أنجبت طفلنا الأول وأنا أنتظر. وكسا البياض شعر رأسي، وظهرت التجاعيد على جبيني وأنا أنتظر. وماتت أمي، وأنجبت زوجتي طفلنا الثاني وأنا أنتظر. وظل الأورارتيون يرسلون لنا رسائل التودد، بينما واصل الآشوريون زيادة الضرائب علينا، كل هذا وأنا أنتظر.

حالما بدأ بيزيريس يتفوه بكلمات الغضب عن الآشوريين على الملأ، أدركت أن فترة انتظاري قد وصلت إلى نهايتها. فتسللت بمهارة إلى عقل بيزيريس، وأدركت أنه رغم غضبه من الآشوريين، فقد ظل يخشى الانحياز إلى جانب الأورارتيين. وعندما أدركت ذلك، اقترحت عليه طريقاً آخر من

المؤكد أنه سيقضي عليه. فتحدثت أمامه عن إقامة علاقات مع الفريجيين الذين رغم عدم دخولهم في حالة حرب معلنة مع الآشوريين إلاّ أنهم كانوا يسعون وراء الفرصة المناسبة لهزيمتهم. بدت الحرب بين الملك الآشوري سرجون والملك الأوراري روسا وشيكة. ففكرت أن تلك الحرب ستنهك جيوش كل من الملكين بغض النظر عن المنتصر بينهما. وهكذا، في وضع من هذا النوع، عرضتُ أن نقوم مقام الحليف مع الفريجيين وجيشهم المستريح القوي لنحرر أنفسنا من الآشوريين. أعجب بيزيريس باقتراحي، وقَبِل ذلك الملك الطموح الأحمق هذه النصيحة التي تبدو عديمة الأذى وهو غافل عن خططي الحقيقية. وسرعان ما أملى علي لوحاً يُعبِّر فيه عن نيته الطيبة حيال الفريجيين وملكهم الحكيم ميداس الذي ابتهج لدى تلقيه أخبار ملكنا بيزيريس. وأي ملك في مثل هذا الوضع لن يفعل ذلك؟ فقد وجد مملكة تحت إدارة عدوه الرئيس، الآشوريين، تحاول أن تتودد إليه. فاستجاب الملك الفريجي على الفور بلوح يعبر فيه عن بهجته لتلقي رسالتنا. والآن، أصبح بيزيريس جريئاً إلى حد التهور، والفضل يعود بشكل جزئي إلى تخطيطي. فوجَّه هذه المرة لوحاً يعبر فيه بشكل صريح عن نواياه، ويشرح فيه أن الآشوريين ليسوا إلا برابرة استغلوا الممالك الحثية كالطفيليات، ويصف ميداس بالمنقذ لهم. وأتى رد ميداس حتى أكثر سخاء؛ فأعلم بيزيريس أنه مستعد لتقديم أي مساعدة من أي نوع.

وفي غمرة هذه المراسلات بين الطرفين، أصبحت أنا باتاسانا- أكثر الناس الموثوقين في القصر- على اتصال بأحد القادة في المناطق التي تقع تحت إدارة الآشوريين. فأعلمت القائد الآشوري أن الملك بيزيريس يحضِّر لجرنا إلى مغامرة دموية، ثم بدأت أزوده بنسخة من كل رسالة نرسلها إلى ميداس، لكي يرسلها بدوره إلى الملك سرجون.

في ذلك الوقت، وبعد أن أنهى سرجون مآثره في كل من سوريا ومصر، بدأ يجيش جيوشه نحو الشمال باتجاه نهر الفرات. فوصل أول الأمر إلى تابال، وهناك عيَّن سرجون ملكاً موالياً له، وبعد ذلك حضر ليدق على بواباتنا قبل أن ينخرط في معركة مع الأوراريين. والآن، حانت فرصتي الحقيقية لأصفي حساباتي مع بيزيريس. وأخيراً، أوشكت أن أنال انتقامي لوالدي وأشمونيكال وطفلي الذي لم يبصر النور.

á á á

الفصل السابع والعشرون

أخيراً، حلّت اللحظة التي طال انتظارها. فإسراء كسائر خبراء الآثار، لطالما تحرقت شوقاً للكشف عن الأدلة والوثائق والعلامات التي تلقي بالضوء على الصفحات المظلمة في سجل التاريخ القديم. لقد حلمت دائماً ككل من يشاطرها مهنتها بأن تكون واحدة من بين الذين سيكتشفون اكتشافات مهمة تكشف عن الصورة الحقيقية لتلك الحضارات الضائعة والبقايا التي حاول الزمن القاسي أن يمحوها بالزلازل، والحروب، والحرائق، والهجرات، والأوبئة. أخيراً، تمكنت من تحقيق حلم لا يمكن حتى لمئات خبراء الآثار تحقيق إنجاز قريب منه وهي لا تزال في ريعان شبابها؛ بالرغم من تكريسهم حياتهم برمتها لذلك الجهد.

نهضت من سريرها مرحة، وقررت عدم السماح لأحد بإلقاء أي ظل داكن على بهجتها صباح ذلك اليوم. ومع ذلك، كانت قد أمضت معظم الليل وهي تتقلب على سريرها بقلق. فعندما قال النقيب إن الحاج "عابد" ليس القاتل، خطر بيرند ببالها مرة أخرى، ولكن يجب أن يكون القاتل مصاباً بجرح، أليس كذلك؟ ومع ذلك، وجدت بيرند في أفضل حال ممكن، أو على الأقل هذا ما رأته. ولكن، ما الذي يفترض أن يعنيه هذا؟ فقد بدا الرجل في حالة ممتازة. ومن المستحيل لأحد أن يخفي أي جروح خطيرة تحت قميص قطني رقيق، وهذا يعني أنه ليس المسؤول عن الجرائم. ولكن، هل سيصدق النقيب هذا؟ بعد الجدال الذي نشأ بينهما تلك الليلة، لا بد أنه بدأ ينظر إلى بيرند على أنه مجرم محتمل. إذاً، ماذا إن وضعه رهن الاحتجاز أيضاً؟ إن حدث هذا، فسيؤثر تأثيراً سلبياً على مزاج أعضاء فريق التنقيب عن الآثار بالكامل، وهم منـزعجون بما فيه الكفاية بسبب غياب كمال. فكرت في أن تتحدث إلى النقيب في أول فرصة، وتشرح له أن بيرند لا يمكن أن يكون مذنباً. ولكن، ماذا إن ثبت أن بيرند هو القاتل فعلاً؟ ماذا إن لم تهاجر عائلة زوجته من هاتاي كما قال بل من هذه المنطقة؟ وماذا إن كان لا يزال لديه أقارب هنا؟ ماذا إن ارتكب الجرائم بمساعدة أحدهم؟ محت سلسلة الأسئلة الملحة تلك النوم من عينيها. ولكن، يا لها من كومة من الترهات! فهي لم تر بيرند يتحدث مع أحد من السكان المحليين. من الواضح أن جنون شكها قد بدأ يقض مضجعها من جديد، وها هي الآن تبالغ في تقدير كل شيء. فكرت في أن الوقت قد حان لكي تخلص عقلها من كل هذه الأفكار العقيمة. فقد

وصلت الجهود التي بذلوها طوال أيام عديدة إلى ثمارها المرجوة، وحققوا نجاحاً كبيراً في موقع التنقيب عن الآثار. ما الذي قد يكون أهم من هذا؟ ولكن، بدلاً من أن تستمتع بنجاحها، شغلت إسراء نفسها بهواجس عن جرائم غير محلولة، ومشتبه بهم محتملين وكأنها تحرية هاوية. وتذكرت مرة أخرى والدها وحديثه عن "التفكير الصحيح"، فوجدت أن الوقت قد حان لكي تضبط عقلها. وبالرغم من أن اختفاء كمال أثار القلق في نفسها، وبالرغم من أن الشخص المسؤول عن جرائم القتل الأخيرة لم يُقبض عليه بعد، فقد توجب عليها أن تركز انتباهها على المؤتمر الصحفي وتمتنع عن التفكير بأي شيء سواه. وحالما تنجح بهذا الاختبار، فبوسعها العودة للتفكير بالجرائم. بعد أن سرت لتوصلها لهذا القرار، أغمضت عينيها، واستغرقت في النوم في غضون دقائق بسبب إرادتها القوية أو بسبب الإرهاق، من يدري؟ وعندما استيقظت، شعرت أن النوم قد حررها من كل القلق الذي ظل يلح عليها في الليلة الفائتة. فنهضت واغتسلت، ثم ارتدت ملابسها، وسرحت شعرها المتموج المتمرد ليصبح في هيئة أكثر أناقة. نظرت إلى نفسها في المرآة محاولة أن تتخيل كيف ستبدو في المؤتمر الصحفي، فسرتها الصورة التي بدت عليها، لذا غادرت الغرفة.

وجدت بقية أفراد فريق التنقيب عن الآثار جالسين حول طاولة الفطور ومزاجهم كمزاجها. وكان هذا أول صباح لا يتأخر فيه أحد في الاستيقاظ أو يحضر بعينين مثقلتين بالنعاس. وبدا توتر محبب وواضح على وجوههم، وبدا الفخر لنجاحهم متألقاً في عيونهم. وتخلى الجميع عن سراويل الجينـز الممزقة، وسراويل القماش المبقعة، والقمصان القطنية الباهتة بسبب الشمس، واستبدلوها بالسراويل المكوية والكنـزات والقمصان الأنيقة.

باستثناء بعض الصور الفوتوغرافية القليلة التي فشلت إيلاف في تظهيرها، أتت كل التحضيرات خالية من العيوب ومكتملة حسب ما تمّ التخطيط له. فبدا فريق التنقيب عن الآثار جاهزاً لمواجهة جيش من الصحفيين.

عندما شاهدهم خلف بهذه الهيئة المتوترة اللطيفة وكلهم مهندمون كالأطفال في يوم العطلة القومية، تأثر وسأل قائلاً: "هل يمكنني حضور المؤتمر الصحفي معكم؟".

فقالت إسراء: "كلا، لسوء الحظ. إذ يجب على أحدهم أن يبقى هنا. فالصحفيون قادمون إلى هنا أيضاً، لذا يجب أن يبقى كل شيء في حالة منظمة. لقد قام الجميع بترتيب غرفهم، ولكن ستكون فكرة حسنة إن

قمت بتفقدها مرة أخرى وحرصت على ترتيب كل شيء بعد أن نذهب".

لم يلحّ خلف كثيراً؛ فقد أدى خدمته العسكرية في فرقة المغاوير، الأمر الذي علمه أهمية الانضباط. فقد شكل هو أيضاً جزءاً من الفريق. وإن طلبوا منه الالتزام بالانضباط، فيتوجب عليه أن يفعل ذلك.

لم يبق أثر من هدوء بيرند المعهود صباح ذلك اليوم. فقد انتهى من تناول فطوره قبل الجميع، وظل يُذكِّر الآخرين مراراً وتكراراً بأن عليهم ألا يتأخروا.

فقال تيومان المشغول بالاستمتاع بفطوره: "اهدأ الآن يا بيرند. لا تزال الساعة الخامسة صباحاً".

قال الألماني: "ولكن أمامنا رحلة طويلة. وهناك عمل يجب إنجازه في غازي عنتاب".

"سنصل في الوقت المحدد. لا تقلق".

ولكن، لم يكن بيرند وحده على عجلة من أمره، لأن تيموثي سارع بالتأكيد على كلامه فقال: "كلما تحركنا في وقت أبكر من هنا كان ذلك أفضل". وبدا عليه التوتر وهو يقول: "إنني أعرف القليل عن المؤتمرات الصحفية. وصدقوني، غالباً ما تقع مشكلة ما تعرقل الأمور في اللحظات الأخيرة".

وكانت إسراء هي صاحبة الكلمة الأخيرة، فقد قالت: "إنني أتفق مع بيرند. فلا ينبغي أن نترك جوتشيم يتولى الاهتمام بكل شيء بمفرده".

أخذ تيومان يتنحنح ويتلعثم، ولكنه لم يستطع أن يتجاهل ملاحظات الآخرين التحذيرية، لذا أسرع بابتلاع طعام فطوره. راقبت إسراء مبتسمة، بينما راح صديقها النهم يبذل قصارى جهده ليلتهم كل لقمة بسرعة، وشعرت بالأسى لأنها ضغطت عليه، وتمنت لو أنهم استيقظوا في وقت أبكر بقليل. ولكن، حتى لو فعلوا ذلك، فهل سيختلف أي شيء؟ فعلى أية حال، لقد انشغلت عقولهم بأفكار عن المؤتمر الصحفي، لذا أدركت أنهم لن يعودوا إلى طبيعتهم ما لم يصلوا إلى قاعة الاجتماعات ويظهروا أمام الصحفيين. وهكذا، فأفضل شيء يمكن فعله هو الإسراع والانطلاق في أسرع وقت ممكن. ومع ذلك، فهناك ما عطل سيرهم. إذ بينما هم يهمون بمغادرة مائدة الفطور، ظهرت سيارة الجيب الخاصة بالنقيب أشرف، وتوقفت على بعد بضعة أمتار. فالتفت الجميع لينظروا إلى سيارة الجيب وهي تقترب منهم حالما سمعوا صوت المحرك.

فقال تيومان مازحاً: "يبدو أن النقيب خلط بين الفطور والعشاء".

ولكن أحداً لم يضحك، بل انتظر الجميع بقلق، وشعروا أن النقيب حضر ليبلغهم خبراً سيئاً.

فقال تيومان ليكسر الصمت: "ربما حضر ليرافقنا. فقد أصبحنا على علاقة ودية بهذا الرجل، أعني أنه يكاد يصبح واحداً من أفراد فريق التنقيب عن الآثار".

لم تبال إسراء بكلمات تيومان التي شكلت في جزء منها سخرية موجهة نحوها، بل ظل بصرها مركزاً على سيارة الجيب وهي تراقب أشرف يترجل منها ويقترب من الطاولة.

وكان خلف هو من عبَّر بصراحة عن أفكار الجميع في تلك اللحظة.

فقد قال: "إن مرور النقيب في مثل هذه الساعة المبكرة لا يبشر بالخير. آمل ألاّ يكون مكروه قد حدث".

لاحظت إسراء أن أشرف يجر قدميه بترهل؛ كما فعل بالضبط يوم الجمعة عندما حضر ليبلغهم بخبر مقتل الحاج عبد الستار. ففكرت بأن مكروهاً قد وقع بلا شك. وعندما لاحظت التشاؤم على وجهه، وكيف حرك عينيه المنهكتين، تمتمت قائلة: "هناك شيء مريع قد حدث بالفعل". وكانت محقة في ذلك؛ فالنقيب لم يلقِ عليهم أية تحية، بل وقف هناك للحظات وهناك نظرة شعور بالذنب على وجهه وكأنه مسؤول عن الخبر السيئ الذي يوشك أن يبلغهم إيّاه. اتجهت كل العيون نحوه، وهذا لم يفعل سوى زيادته ارتباكاً. فاكتفى بالوقوف هناك وهو غير قادر على حمل نفسه على النطق بالكلام الذي أراد قوله. وعندما رفع رأسه ونظر إلى عيني إسراء بشكل مباشر، تفوه بما أتى ليقوله في نفس واحد: "إن الجثة التي عثرنا عليها في الكهف ليست جثة إرهابـي". لم تكن لدى أحد سوى إسراء أية فكرة عما تحدث عنه أشرف. أما الشابة، فقد أصبحت كلها آذاناً صاغية. تابع النقيب قائلاً: "لقد أخطأ الصيادون". ففهمت إسراء ما أراد النقيب قوله، ولكنها حاولت أن تقنع نفسها بأنها مخطئة، وانتظرت النقيب ليقول الكلمات بنفسه. ولكن عندما لم يفعل ذلك، لم تعد تستطيع أن تتحمل تردده وقالت أخيراً: "أهو كمال؟".

فقال النقيب: "نعم. لسوء الحظ، الجثة التي تم العثور عليها في الكهف هي جثة كمال".

صاحت إسراء منتحبة: "يا إلهي، كمال، كلا!". وبدأ جسدها يهتز، والدموع تنهمر على خديها. وفي اللحظة نفسها، سمع صوت صرخة من خلفها، وكانت تلك إيلاف.

فقد صاحت الشابة قائلة: "كلا، لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً!".

نسيت إسراء حزنها وعانقت إيلاف. وأجهشتا بالبكاء معاً، بينما نظر الرجال حول الطاولة إلى النقيب وعيونهم مليئة بالرعب والخشية. فقد قتل ثلاثة أشخاص من قبل، ولكن، لا أحد منهم من بين أفراد فريق التنقيب عن الآثار. أما هذه المرة، فقد اختار القاتل أن يستهدف واحداً منهم.

تذمر تيومان بغضب، وكانت قبضتا يديه مشدودتين: "لماذا؟ لماذا قد يقتلون "كمال"؟".

فقال مراد: "لماذا تظن ذلك؟ لأنه شهد على جريمة قتل أخرى، لذا قتل المجرم "كمال" لأنه خشي أن يلقى القبض عليه".

التزم كل من تيموثي وخلف سكوتاً مطبقاً، وهما يطأطئان رأسيهما بحزن ويحاولان فهم حقيقة هذا الحادث المروع.

أما بيرند، الذي وجَّه عينيه الزرقاوين المليئتين بالخوف نحو النقيب، فقد كانت لديه نظريته الخاصة.

فقال: "هناك من يحاول أن يضع حداً لمهمة التنقيب عن الآثار. لقد قتلوا ثلاثة أشخاص من خارج فريقنا بهدف بث الخوف في نفوسنا، ولكن عندما فشلوا في ذلك قتلوا فرداً من فريقنا نفسه. لماذا قد يختارون اليوم الذي يسبق يوم المؤتمر الصحفي بالذات ليقتلوا فيه "كمال"؟".

قال النقيب: "أظن أن الوضع معقد أكثر من هذا بقليل". وظل الغضب والاهتياج باديين عليه، وكأنه لم يتوصل بعد لما يريد قوله بالفعل. نظر إلى إسراء التي كانت لا تزال تبكي وقال: "إن استعدتم هدوءكم، فإنني أود أن أخبركم بما أفكر به". ورفع صوته عمداً لكي تسمعه إسراء. ومع ذلك، لم يأت الرد على كلماته منها بل من بيرند.

"إننا نود أن نسمع كل ما يتعلق بالموضوع ونساعدك. ولكن، في هذه اللحظة لدينا مؤتمر صحفي يجب علينا أن نستعد له".

حلت البرودة المعهودة محل نظرة الخوف في عيني بيرند الزرقاوين كالفولاذ. وساد للحظة شعور بالارتباك بين الجالسين حول الطاولة إلى أن تدخلت إسراء.

فصاحت وهي تبعد نفسها بقوة عن الفتاة الأخرى، وقالت: "كلا! ليذهب المؤتمر الصحفي إلى الجحيم. لن أتحرك شبراً واحداً من هنا إلى أن أعرف ما حدث لكمال!".

ولمعت عيناها المحمرتان بإصرار في ضوء الصباح الخافت مؤكدة أنها لن تقوم بأية تنازلات.

همّ بيرند بالاعتراض، فقالت إسراء: "لا مجال للاعتراض هنا. لن أذهب إلى المؤتمر الصحفي إلى أن أعرف ما حدث لكمال".

فقال بيرند وهو يعقد حاجبيه الأشقرين: "إذاً، سأذهب أنا".

أجابت إسراء وهي تلفظ كلماتها بكل حزم: "أنت أيضاً لن تذهب، بل ستبقى هنا وتستمع إلى ما سيقوله النقيب".

"ولماذا سأفعل هذا؟".

فصاحت إسراء باستغراب: "لماذا تظن ذلك؟! هناك أربعة أشخاص نعرفهم معرفة شخصية تعرضوا للقتل. إذاً، ربما يكون القاتل بيننا".

أصابت هذه الكلمات بقية أفراد الفريق بالصدمة والرعب. فبادر بيرند مجدداً بالرد عليها.

فقال: "إذاً، هل تعنين أن القاتل واحد منا؟".

"إنني أقول إن هذا محتمل. حتى الآن بحثنا عن القاتل خارج دائرتنا. ولكن، أليس من المحتمل أن يكون أحدنا هو القاتل بالفعل؟".

وبعد أن قالت تلك الكلمات، أخذت منديلاً من على الطاولة وجففت دموعها. وبينما هي تمسح أنفها الصغير، تحدث تيومان.

فقال: "هل أنت بخير يا إسراء؟".

لم يستطع تيومان أن يستوعب أن إسراء تتهم أفراد فريق التنقيب عن الآثار بارتكاب الجرائم.

صاحت إسراء قائلة: "كلا، لست بخير. إنني حزينة وغاضبة ومليئة بالشكوك وقلقة وخائفة، ولكنني لا أزال في كامل قواي العقلية. ولن أدع أحداً منكم يغادر إلى أن نصغي إلى ما يريد النقيب قوله".

فقال النقيب قبل أن تسنح الفرصة لأحد للاعتراض: "دعيني أدخل في صلب الموضوع مباشرة. إنه موقف شديد التعقيد. ما ستسمعونه مني الآن قد يكون الأكثر إزعاجاً على الإطلاق. وقد تظنون أنني فقدت صوابي". والتزم الصمت قليلاً، ثم التفت لينظر إلى إسراء، وقال: "قد تظنون جميعاً أنني فقدت صوابي بالكامل، ولكن يجب علي أن أعرف رأيكم لأتمكن من إجراء تحقيق فعال".

احتارت إسراء من هذه الكلمات التي بدت مفعمة بالشك والريبة. ما الذي يحاول هذا الرجل قوله؟ لم يتوجب عليها أن تنتظر وقتاً طويلاً لتعرف.

فقد شرح النقيب قائلاً: "الليلة الماضية، بعد أن غادرت المكان هنا ذهبت إلى الكهف حيث أخبرنا الصيادون أنهم عثروا على الجثة. إنه كهف

صغير حفرته المياه على ضفة نهر الفرات على بعد ثلاثة كيلومترات من هنا. هناك حجر ضخم يقف في وجه المدخل، لذا فهو مخفي بشكل جيد جداً، وهذا هو السبب الذي جعل الصيادين يستغرقون وقتاً طويلاً حتى يلاحظوه. فقد عثروا عليه فقط عندما قادتهم كلابهم إلى هناك بعد أن شمت رائحة الدماء. وعندما دخلوا إلى هناك عثروا على الجثة ممددة على الأرض وإلى جانبها بعض المعدات، لذا قاموا بإبلاغنا ظناً منهم أنه مخبأ سري للإرهابيين. وعندما وصلت إلى الكهف، سارعت بتسليط ضوئي الكشاف على الجثة الملقاة على الأرض لأتمكن من رؤيتها بشكل أوضح. كانت الملابس هي ما لفت نظري في أول الأمر. فقد شعرت أنني أميز تلك الملابس من مكان ما. ولكن، سواء أكان السبب هو الصدمة أو الانفعال، ففي البداية لم يخطر ببالي أن الملابس تخص "كمال". يمكنكم أن تتخيلوا دهشتي عندما قلبت الجثة ورأيت وجهه. وجدت رأسه مصاباً بجرح عميق يبلغ عرضه سنتمترين ونصف على الصدغ الأيمن، ولكنني لم أر الكثير من الدماء على الأرض. وحالما تجاوزت الصدمة الأولى التي أصابتني، بدأت أبحث في أنحاء الكهف. وجدت ملابس ملوثة بالدماء، وجزمة طويلة، وسكينين للمغاوير، وفأساً حادة، وستة أزواج من القفازات الرقيقة، وثلاثة مصابيح كشافة من مختلف الأحجام، وزجاجتين من بخاخ الإغماء، ومسدس بيريتا من عيار 9 ملم، ومعدات إسعافات أولية، وعباءة سوداء كتلك التي يرتديها الرهبان...".

سألت إسراء: "هل تعني أن القاتل اعتاد أن يستخدم هذا الكهف للاختباء؟".

"بالضبط. وهكذا، أصبحنا نعرف الآن لماذا ليست هناك أية أسلحة أو بصمات أصابع أو أدلة من أي نوع في موقع الجريمة. فقد كان القاتل يقصد الكهف بعد أن يرتكب جرائمه، ويخفي أسلحته هناك، ثم يغير ملابسه ويعود للظهور أمام العامة".

أنّ مراد قائلاً: "يا للمسكين كمال! لقد عثر على مخبأ القاتل، وهذا ما تسبب بقتله".

حافظ النقيب على اتزانه وقال: "هذا ما ظننته في البداية، ولكننا لم نتمكن من العثور على السلاح الذي استُخدم في قتل كمال في الكهف".

فخمنت إسراء قائلة: "لقد ذكرت وجود فأس".

"لم نعثر على أي آثار دماء على الفأس. وبالإضافة لذلك، فالفأس لن تتسبب بجرح أعرض من سنتمترين. لقد قتل كمال بأداة حادة، ولكنها

ليست سكيناً بل إنها شيء أشبه بالمنجل". وركز نظره على إسراء ثم أضاف: "لاحظي أنني قلت منجلاً".

عندما لاحظ نظرة عدم الفهم في عيني إسراء الحائرتين، تابع النقيب كلامه:

"لقد ذكرت من قبل أننا عثرنا في مسرح الجريمة الماضية على منجل عليه آثار دماء".

قالت إسراء: "نعم، لقد قلت إن الضحية ألحق إصابة بالمجرم بواسطة المنجل...". ثم أمسكت عن الكلام. والآن فهمت معنى صمت النقيب، فقالت: "انتظر لحظة... انتظر لحظة...". ثم قالت بصوت مفعم بالتوتر: "أنت لا تظن أن "كمال" هو القاتل؟".

نظر أشرف إليها وهو يتوقع منها أن تتحلى بالتفهم، ولكن عندما لاحظ آثار الغضب في عينيها، تراجع خطوة للوراء.

"يجب علينا أن نحلل الشعر وبصمات الأصابع على الملابس قبل أن نتمكن من قول أي شيء بشكل مؤكد. ولكن الجزمة التي عثرنا عليها في الكهف هي من قياس رجل كمال".

قالت إسراء: "هذا محض هراء. لا يمكن لكمال أن يرتكب جريمة قتل".

"لسنا واثقين من أنه هو، ولكنني أظن أنه ينبغي علينا دراسة كل الاحتمالات".

أتت جهود النقيب في تهدئة إسراء كلها عبثاً. فهي لم تعد حتى تصغي إليه.

وقالت بغضب: "حسناً، إنك مخطئ حيال ذلك. لا يمكن لكمال أن يقتل! قل ما تشاء، واعثر على أي دليل تريده، ولكن لا يمكنك أن تقنعني بذلك".

"لم أتوقع أي شيء من هذا القبيل أيضاً، ولكن هذا يورطه. وإن وجدنا دليلاً على ذلك، فليس لدينا خيار سوى أن نمضي به حتى نصل لنتيجة. لا يهم إن كان أعز صديق لدي هو موضوع التحقيق، فهذه هي الطريقة التي تسير بها الأمور والتي ينبغي أن نتبعها".

اعترض تيومان قائلاً: "حسناً، هذا كله جيد ومناسب. ولكن، ليس هناك سبب يدعو "كمال" لقتل أولئك الأشخاص الثلاثة".

"لقد أرسلنا ما عثرنا عليه إلى غازي عنتاب. ولا تزال التحقيقات الجنائية جارية. آمل أن يتضح أن القاتل ليس "كمال"، ولكن يجب عليكم

أن تفهموا وجهة نظري. لا يمكننا أن نجري هذه التحقيقات استناداً إلى مشاعرنا".

قال تيومان: "إنني لا أتحدث عن المشاعر". وبدا على الأقل هادئاً بقدر هدوء النقيب، فقال: "إنني أتحدث عن الدافع وراء الجرائم. إن لم يكن القاتل مجنوناً أو مريضاً نفسياً، فعندئذ لا بد من أن يكون هناك سبب يدفعه لارتكاب هذه الجرائم. ولكن "كمال" لم يلتق كبير حراس القرية "رشيد" أو الضحية المسكين في الجريمة الأخيرة. أما بالنسبة للحاج عبد الستار، فقد كان كمال مولعاً به مثلنا جميعاً؛ وربما أكثر. إذاً، لماذا قد يقتله؟".

فقال النقيب: "هذا ما آمل أن أعرفه منكم. هل رأيتم "كمال" من قبل يتصرف بطريقة مثيرة للشك؟ هل تصرف بأسلوب غريب من قبل؟".

قالت إسراء بلهجة باردة تكاد تصل لحد العدائية: "أنت تبحث في المكان الخطأ. نحن لسنا من الناس الذين قد تصل بهم الوضاعة لحد الافتراء على صديقهم".

ظهر تعبير رقيق على وجه النقيب الأسمر، ثم قال: "لا داعي لهذه القسوة. فأنا لست عدواً لكم أو لكمال. إنني أحاول أن أطارد مجرماً يشكل خطراً عليكم. إن كنت مخطئاً في ظني فساعدوني في تصويب مسار التحقيق، ولكن ليس هناك سبب للتصرف بهذه الطريقة الدفاعية".

تكلم تيموثي بعد أن التزم الصمت بشكل مريب منذ البداية، فقال: "إن النقيب محق في كلامه ياجماعة. فحتى لو لم يعجبنا ما قاله، يجب علينا أن نساعده. نحن مجبرون على هذا؛ ليس فقط لأنه رجل شرطة، ولكن فكروا وحسب بحجم المساعدة التي قدمها لنا. صحيح أن أحد أعضاء فريقنا قد قتل وهو صديق لنا، ولكن يجب علينا أن نجيب عن أسئلة النقيب إن أراد أن يفتح تحقيقاً ملائماً".

رفعت إيلاف يدها وعيناها محمرتان كالدم من البكاء؛ وكأنها تلميذة في المدرسة تطلب الإذن من معلمتها لتتكلم، فقالت: "أريد أن أقول شيئاً". وراحت تتنشق وصوتها يرتعش من الانفعال: "لا يمكن لكمال أن يقتل أحداً". ثم التزمت الصمت خوفاً من أن تجهش بالبكاء، وحاولت أن تستجمع هدوءها مرة أخرى، وواصلت كلامها قائلة: "إنه غيور ومتقلب المزاج وحقود، ولكنه لن يقتل أحداً". وعجزت عن قول المزيد، فأطرقت وبدأت تبكي من جديد.

تحدث تيموثي مرة أخرى، وقال: "إنني أتحدث نيابة عن نفسي عندما

أقول إنني لم أر "كمال" يقوم بأي عمل مثير للريبة. نعم، لقد كان غيوراً، واعتاد أن يصيح على الناس من وقت لآخر، ولكنني لم أره يتصرف بأي طريقة تشير إلى أنه قادر على ارتكاب جريمة قتل. ليست لدي أية فكرة عن سبب وجود جثته في الكهف، أو عما يعنيه الجرح على صدغه، ولكنني أتفق مع الآخرين في أنني لا أظن أنه قد ارتكب تلك الجرائم. ربما يكون القاتل نفسه هو من قتله ثم وضع جثته في الكهف لأنه لا يريد لأحد أن يعثر عليها".

نشّطت نظرية تيموثي المناقشة.

فقال مراد: "وهذا رأيي أنا أيضاً. إن الاحتمال الأقرب إلى الواقع هو أن "كمال" ذهب إلى الكهف بعد أن تعرض للإصابة في رأسه. لقد شاهد كمال المجرم وهو يرتكب جريمته، فحاول أن يمنعه ونشب عراك بينهما. فضرب المجرم "كمال" على رأسه بالمنجل مما أدى إلى مقتله. لذا، حمل المجرم الجثة ووضعها في الكهف لكي لا يتمكن أحد من العثور عليها".

قال النقيب الذي أصغى إلى كلام الآخرين بصمت: "حسناً. ولكن، لماذا أخفى المجرم الجثة؟ ما الذي يجعله يخاطر ويضع الجثة على عربة يجرها حصان ثم ينقلها كيلومترات إلى ذلك الكهف؟ لا بد أن لديه سبباً مقنعاً لفعل ذلك. لقد فكرت بالأمر طوال الليل وعجزت عن التوصل إلى سبب مقنع. صدقوني، سأكون في غاية البهجة إن تمكن أحدكم من تفسير هذا الأمر لي".

لم يتمكن أحد من التوصل لجواب مقنع عن سؤالَي النقيب. تم طرح عدة نظريات، ولكن أياً منها لم تكن مقنعة.

تابع النقيب كلامه قائلاً: "إنني أتفهم موقفكم جميعاً. لا يمكنكم أن تتقبلوا فكرة اتهام صديقكم بالقتل، ولكن لا تقلقوا. إن لم يكن هو القاتل، فسوف تطلعنا نتائج فحص البصمات على ذلك على الفور. وفي هذه الأثناء، يجب علينا أن نواصل التحقيق قبل أن نضيع المزيد من الوقت".

أخذ نفساً عميقاً، وأبعد بصره عن نظرات إسراء التي يقدح منها شرر الغضب وطرح سؤالاً على المجموعة، فقال: "هل سمع أحدكم "كمال" يقول أي كلام عن الأرمن أو تحدث معه عنهم؟".

استقرت عيناه على تيموثي، فقال الأمريكي ظناً منه أن السؤال موجه إليه هو: "كلا، على الإطلاق. لم نتحدث بالموضوع قط".

سأل بيرند وعيناه ترمشان بشكل يدل على الريبة: "ما علاقة الأرمن بأي من هذه الأمور؟".

لم يغب رد فعل بيرند عن ملاحظة إسراء.

فقال النقيب: "إنه مجرد سؤال". ولم يبد عليه أنه يعطي اهتماماً خاصاً للموضوع، ثم قال: "هل تحدثت إليه من قبل عنهم؟".

أجاب بيرند: "لقد دار بيننا ما يشبه المناقشة الجماعية. وتحدثنا عن الموضوع في ما بيننا مرة واحدة. فقد انتقدت الموقف التركي من القضية، ووافقني كمال الرأي. فقد اتفق معي بأن مجزرة بحق الأرمن قد وقعت بالفعل".

صاحت إسراء قائلة: "أنت تكذب. كمال لم يقل شيئاً من هذا القبيل".

نظر الجميع إلى إسراء بخوف، فهم لم يروها من قبل في هذه الحالة من الغضب المتفجر.

فقال تيومان: "اهدئي ياإسراء من فضلك". ولكن الأوان فات على ذلك.

"لا تتدخل في هذا ياتيومان. إن الرجل يكذب".

فقال بيرند: "كلا، إنني لا أكذب". فاجأه رد فعل إسراء، والأكثر من ذلك أنه جعله يشعر بالخزي، فكرر كلامه ووجهه محمر كالدم: "إنني لا أكذب".

قالت إسراء وعيناها تتأججان من فرط الغضب: "بل تكذب". وخبطت بقبضة يدها على الطاولة وصاحت: "والآن ستخبرنا لماذا تكذب؟ ما الذي تخفيه؟ أم إنك أنت القاتل؟".

"إسراء، ما الذي تظنين أنك تفعلينه!؟". وكان تيموثي هو من اعترض هذه المرة، فقال: "هدِّئي من روعك قليلاً فقط".

فقال النقيب في محاولة منه لتهدئة إسراء: "تيم محق. لن نصل إلى أية نتيجة عن طريق توجيه الاتهامات إلى بعضنا بعضاً".

لم يمض وقت طويل حتى أصبح النقيب مرة أخرى هدفاً لغضب إسراء المشتعل.

"ولكنك تصل إلى نتيجة عندما تتهم "كمال"، أليس كذلك؟ لأنه ميت ولا يمكنه أن يدافع عن نفسه. هل هذا صحيح؟".

ثم التفتت لتواجه جميع الجالسين حول الطاولة، وتابعت قائلة: "أيها الأصدقاء، أريد أن أخبركم شيئاً ما. إن النقيب يعرف كل شيء عن الموضوع، ولكنكم لا تعرفون. هذه الجرائم هي نسخة طبق الأصل عن جرائم وقعت قبل ثمانية وسبعين عاماً. وهناك رجل مجنون أو عدة رجال يكررون هذه الجرائم من أجل الانتقام لمقتل ثلاثة من الأرمن الذين قتلوا

قبل ثمانية وسبعين عاماً. ولا بد أنكم تعرفون حق المعرفة أنه ليس هناك أي سبب قد يدفع "كمال" لارتكاب عمل من هذا النوع".

ثم التفتت مجدداً نحو الألماني، وقالت: "ولكن أنت، ياسيدي، قد يكون لديك سبب قوي جداً. فقد بدأت تتحدث بصخب عن وقوع مجزرة في حق الأرمن منذ اليوم الذي وصلت فيه إلى هنا. وتسببت بالكثير من الفوضى والقلاقل عدة مرات عن طريق التطرق لهذا الموضوع. ومن الممكن جداً أن تكون أنت من ارتكب هذه الجرائم ثم قتلت "كمال" لكي تتمكن من إلقاء اللوم عليه".

ابتسم بيرند الذي حاول أن يبدو قوياً حتى تلك اللحظة ابتسامة توتر، وقال: "لقد فقدت عقلك. إنك تتهمينني بالقتل لمجرد أنني دافعت عن حقيقة من حقائق التاريخ المعروفة".

"ليس بسبب ذلك فقط، فأنا أعرف كم تحب زوجتك. ألم تخبرني أنك مستعد لفعل أي شيء من أجلها؟ إذاً، إن كان أحد أولئك الناس الذين قتلوا قبل ثمانية وسبعين عاماً أحد أقارب زوجتك، على سبيل المثال، جدها...".

"ولكن زوجتي ليست من هذه المنطقة".

"هذا ما تدعيه أنت".

"إن لم تصدقيني، فبإمكاني أن أعطيك اسم والد زوجتي وشهرته، ويمكنكم أن تقوموا ببحثكم. وعندئذ، سترين أنني أقول الحقيقة".

أتى أسلوبه الواثق من نفسه وهو يتفوه بهذه الكلمات مثيراً للغضب. وبينما حاولت إسراء أن تأتي بجواب مناسب، تدخل النقيب.

فقال: "هذه فكرة رائعة. سأقدر لك صنيعك إن كتبت لنا الاسم وكذلك الكنية والشهرة، أو أي أسلاف تعرفهم، واسم المدينة والبلدة التي عاشوا فيها".

بدا بيرند منـزعجاً بشكل ملحوظ من هذا الرد، وقال بصوت يدل على الشعور بالإهانة: "ظننتك تشك بكمال".

"لسوء الحظ، يجب أن أشك بالجميع. هلا تكتب لي هذه المعلومات من فضلك".

لم يبد بيرند مسروراً جداً من هذا الطلب، ولكنه لم يُضِع الوقت، وأخرج قطعة ورق صغيرة، ودوّن كل المعلومات المطلوبة منه.

وبينما بدأت الشمس صعودها في الأفق، أصبحت الوجوه أكثر توتراً، ونظرات العيون أشد حدة، بينما استمرت المناقشة من دون التوصل لأية

نتيجة. فكان تيموثي في النهاية هو من تدخل ليضع حداً لهذه الحلقة المفرغة.

فقال بلطف: "يا سيد أشرف، إنك ربما تلاحظ أننا نواصل التحدث عن الأشياء نفسها مراراً وتكراراً. وكلما طال حديثنا، أمعنا في توجيه الإهانة وإلحاق الأذى ببعضنا بعضاً. ليس هذا وضعاً ساراً بالنسبة إلى مجموعة مثلنا تعيش في مكان واحد، ولا سيما أن هناك مؤتمراً صحفياً بانتظارنا بعد بضع ساعات. إنني أستميحك عذراً في أن تضع حداً لاستجوابك لهذا اليوم. سيكون لدينا وقت فراغ كافٍ بعد المؤتمر الصحفي. فربما يكون أثر القاتل قد أصبح أكثر وضوحاً بحلول ذلك الوقت. ولكن، من فضلك، دعنا الآن نتابع عملنا". وأشار إلى السماء المصطبغة بلون الشفق الأحمر، وقال: "إن الشمس على وشك أن تشرق. وينبغي علينا أن نصل إلى غازي عنتاب قبل أن يتأخر الوقت أكثر من ذلك".

قال النقيب ونظرة خجل تبدو على وجهه: "حسناً. إنني أعتذر إن سببت لكم أي معاناة، ولكنني أحاول تأدية واجبي وحسب. شكراً لكم جميعاً".

ركّز النقيب نظره على إسراء، ولكن الشابة بدت غير مكترثة له، لذا التفت وهو مثبط الهمة، وتوجه في طريقه نحو سيارة الجيب.

خاطب تيموثي رفاقه وهو يتنفس الصعداء، وقال: "بعد إذن رئيسة فريق التنقيب عن الآثار، أود أن أقوم باقتراح. دعونا ننسى كل هذه المحادثة البغيضة إلى أن ينتهي المؤتمر الصحفي. دعونا نتظاهر بأن أحداً منا لم يتهم أحداً آخر أو يؤذي مشاعره. لم يأت النقيب إلى هنا صباح اليوم، ونحن لا نـزال العلماء المرحين أنفسهم الذين يستعدون للركوب في سيارتهم لإخبار العالم بأسره عن مكتشفاتهم...".

فقال بيرند وهو ينظر إلى بقية أفراد الفريق من فوق إطار نظارته: "إنني مستعد لنسيان كل شيء. فأنا ببساطة لن أسمح لبضع لحظات من الغضب أن تلقي بظلها القاتم على يوم مهم كهذا اليوم".

قالت إسراء وهي لا تزال ترتعش من شدة الغضب: "أما أنا فلن أنسى شيئاً، ولكنني أتفق مع فكرة تيموثي بأن نضع كل شيء وراء ظهورنا إلى ما بعد انتهاء المؤتمر الصحفي". ثم التفتت نحو بيرند وتابعت كلامها قائلة: "كمال ليس مجرماً ولا قاتلاً، وهذا ما أنا واثقة منه. ويمكن للقاتل الحقيقي أن يكون واثقاً من شيء واحد، وهو أنني سأقبض عليه ولو كلفني هذا حياتي".

التزم بيرند الصمت لدى سماعه هذه الكلمات التي تفوهت بها إسراء بشكل مباشر وهي تنظر إلى وجهه. فنهض مع تيموثي، وتوجها نحو سيارة الجيب، بينما تبعهما الآخرون. كانوا على وشك أن يعلنوا للعالم بأسره نجاحهم المتميز، ومع ذلك، فقد أثقل على قلب كل واحد منهم الشعور المنذر بالشؤم.

á á á

اللوح السابع والعشرون

هيمن التوتر على الملك بيزيريس ومجلس الدولة والشعب والعبيد وكل من في المدينة، ولكن أحداً منهم؛ بمن فيهم أنا، لم يستطع أن يتوقع حقيقة الكارثة الفادحة التي أوشكت أن تحل علينا. عندما وصلت قوات الملك سرجون إلى بوابات مدينتنا، افترض الجميع أن الجيش الآشوري حضر للحصول على مؤن. ولم يخامر أي شك الملك بيزيريس ولا النبلاء ولا الشعب بوجود أية نية أخرى. وعاش الجميع، كل أولئك الذين نجوا من المذابح التي ارتكبتها قوات الملك السابق تيغلاث بيليسير- وهو هروب دفع والدي آراراس حياته ثمناً له- في حالة اطمئنان حيال وصول قوات الملك الآشوري. وشعرت وحدي بالبهجة والحماسة وحتى الفرح. فها قد حان اليوم الذي سآخذ فيه بثأري من الملك بيزيريس. رحت أراقب بيزيريس من ركن غير بعيد وهو يستعد للركوع أمام الملك سرجون كعبد ذليل أمام سيده، غير مدرك أنه على وشك أن يصبح كبش فداء حقيقياً. لا يسعني أن أصف شعوري بالبهجة لدى رؤية هذا المشهد. فتلك هي المرة الأولى التي فهمت فيها كيف يشعر أولئك الذين يتحكمون بمصير البشرية بين أيديهم. فقد حضّرت لهذه النهاية القاسية لبيزيريس، وقررت مصيره بنفسي. ومع ذلك، فقد وقف بجسده السمين من جراء سنوات عديدة من السلام، وأخذ يمطر الأوامر باهتياج في محاولة منه للترحيب بضيوفه. فأمر بذبح الماشية والخراف، وإحضار أفخر أنواع الشراب من القبو، وخبز الخبز الأبيض من القمح النقي.

وأخيراً، حانت اللحظة الحاسمة، وتوقفت عربات سرجون الحربية عند أسوار مدينتنا، ودخل الجيش متأنياً إلى مدينتنا وكأنه يدخل إلى بيته. إذ وجد بوابات المدينة مشرعة على مصاريعها، بينما كان كل أفراد المجلس وخاصة الملك والملكة مرتدين أبهى حللهم وكأنهم في احتفال من الاحتفالات. لم يمض وقت طويل حتى ظهر الملك سرجون بقامته المهيبة ووجهه الداكن في القصر. فتقدم بيزيريس نحو سرجون بصحبة زوجته، ولكن عندما شاهد الحراس يقتحمون القصر خلف سرجون كجيش من السلابين، أخذته الدهشة وتملكه الخوف، وأجهشت الملكة بالبكاء. ومع ذلك، سرعان ما تمكن بيزيريس من استعادة رباطة جأشه ببراعة تصيب حتى أشد متملقي القصر بالخزي، وابتسامته تصل إلى أذنيه، وانحنى باحترام أمام الملك الآشوري، وقال: "يا صاحب الجلالة المبجل الملك البطل سرجون، إنه لشرف عظيم لنا

أن نستقبلك في قصرنا".

ولكن سرجون لم يبد أي اكتراث له. وبدلاً من ذلك، نظر إلى مبنى القصر الشامخ من خلف بيزيريس وسأل:

"من منكم الكاتب باتاسانا؟".

التزم جميع من في القصر الصمت المطبق، فاستطعت أن أشعر بعيني بيزيريس المصدومتين الخائفتين والمفعمتين بالكراهية تتجهان نحوي، ووجهه متجمد من الخوف، كما شعرت بعيون النبلاء الذين أعمل معهم في المجلس وحراس القصر جميعهم تنظر إلي بدهشة.

ومع ذلك، لم أُبد أي اكتراث لتحديقاتهم؛ لأنني تمكنت أخيراً من تحقيق الانتقام الذي تعطشت إليه سراً لسنوات عديدة.

فقلت وأنا أتقدم خطوة نحو الأمام: "أنا باتاسانا ياسيدي المبجل".

مشى سرجون نحوي، ووضع يده على كتفي وقال: "إذاً، أنت باتاسانا. لقد قدمت لي خدمة جليلة أشكرك عليها. وسوف يتم تعويضك على خدماتك".

ثم التفت لينظر إلى بيزيريس، وقال له: "أما بالنسبة لك أنت، فسوف تعاقب على أعمالك".

نظر بيزيريس إلي وهو مصعوق، ثم إلى سرجون، وألقى بنفسه بفزع تحت قدمي سرجون في عرض مثير للشفقة، وراح يتوسل إليه ويستعطفه وكأنه مجرد عبد ذليل. فظهرت أمام عيني صورة وجه والدي الجليل آراراس الذي حافظ على شرفه حتى في مواجهة الموت، وجسد أشمونيكال الشجاعة المحطم على الصخور. وشعرت بكراهيتي نحو بيزيريس تتأجج في صدري أكثر من ذي قبل.

لم يلق سرجون أي أهمية لتوسلات بيزيريس اليائسة، ولم يلتفت حتى لينظر إليه، بينما جر حراسه بيزيريس إلى حديقة القصر ليفصلوا رأسه القبيح عن جسده السمين. وحالما تم إخراج بيزيريس من الغرفة، ألقى سرجون نظرة كريهة نحو موظفي القصر المرعوبين الواقفين أمامه، وأمر حراسه قائلاً: "استثنوا الملكة ومحظيات الملك واقطعوا رؤوس الباقين".

استل الحراس سيوفهم وهاجموا موظفي القصر. فنظرت إلى الناس الذين عملت معهم كل يوم وهم يحاولون الهرب صارخين. لم أتوقع حدوث شيء من هذا القبيل، بل ظننت أن سرجون سيعاقب الملك وحده كما فعل في تابال، ولكن تبين لي أن نيته هي القضاء على الحثيين وتحويل هذا المكان إلى مدينة آشورية. وبينما حاول أصدقائي وأبناء بلدي

الهرب والنجاة بحياتهم، ألقيت بنفسي تحت قدمي سرجون وتوسلت إليه.

فقلت: "أرجوك أيها الملك سرجون المبجل. كل هؤلاء الناس أبرياء".

لمعت عينا سرجون وأضاءتا بجنون كعيني حيوان بري أسكرته رائحة الدماء، ونظر إلي بتينك العينين وقال:

"لا تقلق. فأنت وأفراد عائلتك ستبقون بأمان".

ذهبت توسلاتي عبثاً. إذ صمم سرجون على تحويل هذه المدينة إلى مدينة آشورية. فوقعت مذبحة حتى أكثر دموية من تلك التي حدثت داخل القصر في تلك الأثناء خارج أسواره. فقد أُحرقت البيوت عن بكرة أبيها، وذبح الناس، واغتصبت النساء والفتيات، ونهبت المعابد. وأولئك الذين قاوموا سلخ جلدهم وهم أحياء، وأضرمت فيهم النيران، واقتلعت عيونهم. وفي تلك الأثناء، أنا باتاسانا الجاهل المثير للشفقة الذي صدق أنه يستطيع أن ينتصر، تراجعت إلى الزاوية، ونظرت بخوف بينما أقدم الآشوريون على إبادة شعبي عن بكرة أبيه.

دفعت ثمن طيشي غالياً جداً، واستمرت المذبحة الآشورية أقل من سبعة أيام بلياليها. ظللت طوال الأيام والليالي السبع أصغي إلى صراخ شعبي وعويله وأنينه. وفي اليوم السابع، مر كل الناجين بجانب رؤوس كل من بيزيريس ونخبة نبلاء القصر المقطوعة والمعروضة على رؤوس الرماح عند بوابة الملك، وتجمعوا أمام أسوار المدينة.

أجبر الصغار والكبار والنساء والأطفال والجرحى والمرضى على الاصطفاف ثم الانطلاق في مسيرتهم نحو آشوريا، والحراسُ الذين يبدون أشبه بالكلاب المسعورة يرافقونهم في المقدمة والمؤخرة وعلى الجانبين. لو عرفت أنني سأتمكن من الصمود أمام نظرات عيونهم وكلماتهم القاسية لاتخذت مكاناً لي في تلك المسيرة المثيرة للشفقة وهي تشق طريقها، وأنا أذرف الدموع وأطلق صرخات الألم. ولكنني، كرجل يعرفني الناس بأنني عالم ونبيل وموظف ماهر، لم أستطع أن أنضم إليهم؛ ليس خوفاً من أن يقتلوني بل من الخزي والعار.

بعد ذلك اليوم، لم يعد يسطع علي أي ضوء شمس. بعد ذلك اليوم، لم أعد أستطيع أن ألمس زوجتي أو أنظر إلى وجوه أولادي. فالهواء الذي أتنفسه والماء الذي أشربه والطعام الذي آكله، كلها باتت لي سماً زعافاً. وأصبح الفرات- الذي لطالما اعتبرته رفيقي عندما أخرج لأتمشى بتمهل لأهدئ أعصابي- عدواً لي. فلم يعد النهر يفرح روحي أو يخفف من قلقي. ولم أعد أستطيع أن أواجه ضوء الشمس. والنومُ العذب الذي لطالما

منحني راحة البال هجرني. ونسيت يداي ما يعنيه اللمس، ونسي صوتي ما يعنيه الكلام، ونسيت شفتاي معنى الابتسام، ونسيت عيناي ما تعنيه الرؤية. وجف نهر الحياة الذي يتدفق في عروقي شيئاً فشيئاً، ولكنني قاومت وكابدت لأبقى واقفاً على قدمي، وأهرب من صواعق القادر على إسقاط أضخم الأشجار بضربة واحدة. قاومت لأنني أردت لحياتي المليئة بالشر والخديعة والتي ظننت أنها لن تستمر أطول من ذلك أن تنتهي بطريقة ذات مغزى. فقد أردت أن أخبر كل الناس بكل ما فعلته، وبكل الجرائم الرهيبة التي تسببت بها بطيشي وجهلي.

á á á

الفصل الثامن والعشرون

قال تيومان متحدثاً بهمس كي لا يسمعه الآخرون: "سيتوجب علينا أن نوقف مهمة التنقيب عن الآثار الآن".

وبينما هو يمشي مع إسراء جنباً إلى جنب في حديقة الفندق عديمة الأشجار متقدمين مترين عن بقية أفراد الفريق، أكد تيومان مرة أخرى قائلاً: "لم نعد بأمان. ولا يمكننا أن نخاطر بتعريض حياة شخص آخر منا للخطر".

أخذت حرارة أشعة الشمس التي بدأت تشع بلطف عليهم وهم في طريقهم إلى غازي عنتاب تزداد قسوة بمرور كل دقيقة.

سألت إسراء وعلى وجهها تعبير متوتر وحتى اتهامي: "حسناً. ولكن، ماذا عن قاتل كمال؟ هل ينبغي أن نتركه ينجو بجريمته؟".

"كلا، ولكن اقتفاء أثر المجرم ليس مهمتنا! نحن خبراء آثار ولسنا من الشرطة".

توقفت إسراء عن السير، ثم قالت وهي تنظر إلى عيني تيومان: "ولكن الشخص الذي تعرض للقتل صديقنا. وقد يكون المجرم بيننا".

فقال تيومان بعد أن توقف أيضاً: "لا يمكننا أن نعرف حقيقة الأمر بشكل مؤكد. إن حاولنا مطاردة المجرم، فأنا واثق من أن هذا العمل سيتسبب بفوضى عارمة، وقد يعرض حياة آخرين منا للخطر. لذا، أظن أنه يجب علينا أن نمنح أنفسنا استراحة قصيرة. دعينا نؤجل مهمة التنقيب عن الآثار، هذا هو كل ما علينا فعله".

"لا يمكنني فعل ذلك. لم يحن الوقت بعد".

بدآ يمشيان مرة أخرى. فأطلق تيومان الذي راح يمشي وراء إسراء آهة عميقة وسأل قائلاً: "حسناً، متى إذاً؟".

فأجابت باقتضاب قائلة: "لست أدري". واكتسبت ملامح وجهها تعبيراً منهكاً، ثم قالت: "لست أدري. إنني لا أريد أن أتحدث بالموضوع بعد الآن".

"ولكن، يجب علينا أن نتحدث عنه. إنك تأخذين الموضوع على محمل شخصي في حين أنه ليس كذلك. إنني أتفهم إحساسك بالمسؤولية، ولكن هذه الجرائم ليست هجوماً موجهاً نحو مهمة التنقيب عن الآثار. نحن لسنا الهدف الحقيقي للقاتل. أما بالنسبة إلى كمال، فقد تعرض للقتل لأنه تواجد في المكان الخطأ والزمان الخطأ، وهذا كل ما في الأمر".

فاعترضت إسراء، ولكن هذه المرة بلهجة أكثر لطفاً: "إنني لا آخذ الموضوع على محل شخصي، بل أفكر في مصلحة الجميع في هذه المهمة". وأدركت أن تيومان محق في كلامه؛ إذ لم يكن لديها الحق في المخاطرة بحياة أحد. وبعد أن كشفوا عن كل ألواح باتاسانا، فالفرصة مثالية لأخذ استراحة. فقد كانت المدينة الحثية الأثرية أكثر من سخية معهم، وأعطتهم أكثر مما تمنوا في حياتهم. والآن، حان الوقت للانسحاب. ولو أن أي مدير حملة تنقيب وجد نفسه في هذا الموقف لفعل الشيء نفسه. وكما قال تيومان، فمهمتهم تلخصت في الكشف عن الماضي، وليس إلقاء القبض على القتلة والمجرمين. لذا، توجب عليهم أن يتركوا الموضوع لأشرف ليلقي القبض على المجرمين بنفسه. لم تنكر إسراء أن كل ما قاله صحيح تماماً. ومع ذلك، لم تستطع أن تجبر هذا الطموح العنيد أو الغضب المتأجج في داخلها على الإصغاء لصوت العقل والمنطق. لقد تحداهم ذلك المجرم عندما قضى على حياة واحد منهم، وقلب حياتهم رأساً على عقب. ولم تستطع أن تحتمل التفكير في أنه لم يتم القبض عليه بعد، وأنه من المحتمل أن يمضي في ارتكاب الجرائم حتى بعد أن يرحلوا. وفكرت في أنه سيكون من الجبن أن تتخلى عن المهمة وتنجو بجلدها الآن وتعود أدراجها إلى الجامعة مدعية أنها تلك الأكاديمية الناجحة.

ألح تيومان قائلاً: "إن أردت الحرص على مصلحة الجميع وسعادتهم، ينبغي عليك أن توقفي مهمة التنقيب عن الآثار. هذا هو الشيء الصحيح الذي ينبغي فعله".

بحلول هذا الوقت، أوشكا على الوصول إلى باب الفندق حيث وجدا جوتشيم واثنين آخرين بانتظارهم. فأدركت إسراء أن فرصتها قد حانت للهرب من أسئلة تيومان المتكررة.

فقالت وهي تتوجه نحو الباب: "سوف نتكلم بعد انتهاء المؤتمر". ساعدها رأس جوتشيم بشعره الأحمر على تمييزه على الفور بين الحشد الصغير المتجمع عند المدخل.

وعندما لاحظ عيني إسراء المحمرتين والمتورمتين من البكاء، سألها بلغته الإنكليزية ذات اللكنة الثقيلة: "هل أمضيت ليلة قلقة أو ما شابه؟".

قالت إسراء باذلة أقصى جهدها لتجنب الموضوع: "يمكنك قول ذلك. أعني، لقد عملت حتى وقت متأخر من الليلة الماضية".

"ما كان عليك ذلك. ينبغي عليك تجنب القيام بأي شيء قد يؤثر سلباً على جمالك في يوم كهذا".

سرعان ما سئمت إسراء من حديث جوتشيم، فسألت لتغير الموضوع: "هل وصل الصحفيون أم لا؟".

"كلا، ليس بعد. لا يزال الوقت مبكراً. لقد أقلعت طائرتهم لتوها على الأرجح".

خلفوا وراءهم حرارة الصباح الجافة، والتجؤوا إلى برودة الفندق. فمروا أمام أنظار عمال الفندق الفضوليين، ثم بجانب الزهور البلاستيكية الضخمة، ومشوا على سجادة حمراء متجهين إلى قاعة المؤتمرات في الطابق السفلي. كانت القاعة عبارة عن غرفة صغيرة الحجم ومحببة المظهر تطل على نهر صغير تحفه من الجانبين أشجار الدُّلب التي تمتاز بها مدينة غازي عنتاب. تم وضع الطاولة الطويلة والضيقة التي سيجلس خلفها المتحدثون بجانب النافذة، بالإضافة إلى خمسين كرسياً تنتظر وصول الصحفيين. وتم ترتيب أماكن جلوس المتحدثين عن طريق وضع بطاقات تتضمن أسماءهم على الطاولة؛ حيث تجلس إسراء الثانية إلى اليمين، وإلى يمينها البروفسور كرينشر، وإلى يسارها تيموثي، بينما يجلس بيرند في آخر الطاولة إلى جانب النافذة. تأملت إسراء عمال الفندق وهم يتفقدون الميكروفون للمرة الأخيرة وقالت لنفسها: "آمل ألا أفقد أعصابي وأجهش بالبكاء وأنا أتكلم". في الواقع، شعرت أنها أفضل حالاً الآن، فتلك العقدة الخانقة التي جثمت على صدرها وسدت حنجرتها أخذت تتلاشى. وعندما رأت "مراد" وتيومان يكدّان في العمل، ساعدها هذا على التخفيف من حدة قلقها. فقد شرعوا جميعاً بتوزيع النسخ وصور إيلاف، وتركوا مغلفاً كبيراً على كل كرسي من أجل الصحفيين. رأت بيرند واقفاً عند مدخل القاعة ممسكاً بيده النص الذي سيلقيه وهو يسأل جوتشيم شيئاً ما، ويبدو عليه أنه نسي كل ما يتعلق بموت كمال والمحادثة البغيضة التي جرت صباح اليوم. كيف يمكن لشخص ما أن يبدو بهذا الاسترخاء بعد مناقشة حادة كتلك؟ جعل سلوك بيرند إسراء تزداد شكاً من ناحيته. شاهدت تيموثي واقفاً أمام النافذة وهو ينظر إلى الأشجار القديمة. وحالما رأته، شعرت بقلبها يفيض دفئاً وثقة. فبدأت تتجه من تلقاء نفسها نحو النافذة، ثم لاحظت وجود إيلاف فتوقفت عن المشي. فقد كانت الشابة جالسة على حافة أحد الكراسي في الصف الخلفي، وذقنها مسنود على يدها وهي تفكر متأملة. في غضون بضع ساعات، تحولت هذه الفتاة السعيدة المعافاة إلى أكثر الناس بؤساً على وجه الأرض. تملك إسراء شعور مريع من أجلها، فعدلت عن فكرة التحدث إلى تيموثي وذهبت إلى إيلاف بدلاً من ذلك.

مدت يدها للشابة وقالت بابتسامة من القلب: "هيا، تعالي".

فسألت إيلاف والألم على وجهها لا يزال واضحاً: "إلى أين؟".

ألحت إسراء قائلة: "تعالي وحسب". وأمسكت إيلاف من يدها، وكادت أن تجرها جراً إلى خارج قاعة المؤتمرات. وسألت الحارس الواقف عند الباب عن مكان الحمام، فأشار إلى آخر الممر. لم يكن هناك أحد آخر في الحمام، فأمسكت إسراء بوجه إيلاف بين يديها، ونظرت إلى عينيها بحنان، وقالت: "ستكونين الآن أجمل مصورة في العالم، وستجعلين الصحفيين الذين سيرونك ينسون كل ما يتعلق بألواح باتاسانا".

امتلأت عينا الفتاة الخضراوان بالدموع، وبدأ جسدها يرتعش، وقالت بصوت أجش: "لقد مات بسببـي أنا. لو أنني لم أتركه لبقي على قيد الحياة".

فقالت إسراء وهي تمسح الدموع عن خدي الشابة: "كلا، لم يمت بسببك أنت".

"إنني أراه أمامي بنظرته المريرة... تلك الطريقة التي ينظر بها إليك من تحت حاجبيه، وعيناه مليئتان باللوم...".

"لست ملامة على أي مما حدث".

"ولكنه وجه لي اللوم. فقد مات وهو غاضب مني. لا بد أنه سيدخل إلى أحلامي، ولن يتركني وشأني".

"سيكون كل شيء على ما يرام ياإيلاف. سوف يمضي كل هذا. لم يكن يريد أن يحدث لك أي مكروه لك. ولم تكوني لتريدي أن يقع أي مكروه له أيضاً".

"بالتأكيد ما كنت أريد ذلك. ولو عرفت أن الأمور ستنتهي إلى هذه النتيجة، لما انفصلت عنه".

قالت إسراء: "أعرف ذلك". وعانقت إيلاف لكي تخفي دموعها المنهمرة. ومن خلال التخفيف عن إيلاف، تمنت في الواقع أن تهدئ نفسها، وتخفف من حدة مخاوفها وشكوكها وقلقها.

بحلول الوقت الذي وصل فيه الصحفيون، كانت كل الاستعدادات قد تمت على أكمل وجه. وانتهت إسراء من إصلاح تبرّج إيلاف. ورغم أنها لم تنجح في تحويل إيلاف إلى أجمل مصورة في العالم، إلاّ أنها تمكنت من إضاءة ذلك الجو المتشائم الذي خيم عليها، ومنحتها مظهراً لائقاً. وصل البروفسور كرينشر ذو اللحية والوجه الباسم ورئيس فرع إسطنبول للمعهد الألماني للآثار إلى الفندق مع الصحفيين، وهنأ فريق التنقيب عن الآثار فرداً

فرداً. وأمطر إسراء بعبارات الثناء من دون أن يلقي بالاً لنظرات الغيرة التي صوبها بيرند نحوهما. ووصل به الأمر لحد الإعلان للصحفيين الواقفين أمامه أن "البطلة الحقيقية لهذه الحملة هي السيدة الشابة الواقفة هناك". وعندما لاحظ غياب كمال سأل عنه، فسادت فترة صمت مرتبك إلى أن تدخل تيموثي وأخبره أن "كمال" مريض. إذ إنه لم يرغب بأن يخبر عالم الآثار المسن الذي يصعب توقع رد فعله بما حدث ذلك اليوم ويخاطر بأن يعلن إلغاء المؤتمر الصحفي أو تأجيله وهو لا يزال في بدايته. وبعد ساعة أو نحو ذلك من الحديث وتناول المرطبات، اتخذ المتحدثون والصحفيون أماكنهم في قاعة المؤتمرات.

أصيبت إسراء - التي جلست خلف الطاولة محاطة بثلاثة رجال - بالانـزعاج من فلاشات الكاميرات، توجب عليها أن تضيق عينيها لتنظر إلى الصحفيين المتجمعين حولها. أما تيومان ومراد وإيلاف، فقد وقفوا في الجانب البعيد قرب الطاولة والفرحةُ على وجوههم تشوبها مسحة من الحزن، بينما وقف جوتشيم ومساعداه بجانب الباب.

استهل البروفسور كرينشر إلقاء كلمته، فشكر الصحفيين لحضورهم كل هذه المسافة للانضمام إليهم، ثم تحدث عن العمل الناجح الذي أنجزه المعهد الألماني للآثار في تركيا على مدى السنوات السبع الماضية التي أصبحت البلاد خلالها موقعاً لأحد الفروع العشرة التي أسسها المعهد في المراكز الرئيسة لأهم الآثار في أنحاء العالم. وتحدث عن الاكتشافات التي حققها المعهد عن طريق مهمات التنقيب التي عمل على تمويلها. وأخيراً، أنهى حديثه الموجز بالتحدث عن اكتشاف ألواح باتاسانا التي شكلت عملاً فذاً آخر في تاريخ علم الآثار.

حان دور إسراء لتلقي كلمتها. في البداية، تملكها بعض التوتر، وأخذ صوتها يرتعش، وعانت من وقت عصيب في نطق الكلمات. ولكن هذا ساعد في جعل كلمتها تبدو أكثر الكلمات صدقاً وعفوية، وسرعان ما تأثر الصحفيون بانفعالها. قدمت بعض المعلومات عن تاريخ المدينة القديمة. ورغم أنها وضعت النص المكتوب أمامها، إلا أنها حاولت ألا تنظر إليه ظناً منها أن هذا سيزيد في إرباكها. تحدثت عن فترة حكم الحثيين الجدد التي عاش فيها باتاسانا حديثاً مفصلاً وبسيطاً. وبحلول الوقت الذي وصلت فيه إلى نهاية كلمتها، شعرت أنها هدأت بما يكفي لكي تنظر إلى عيون الصحفيين. وفي تلك اللحظة، شاهدت النقيب جالساً بين الحضور. وجدت شكله متميزاً جداً بين المدنيين بلباسه العسكري الموحد. فتساءلت إسراء في

سرّها عن سبب حضوره. ربما حضر لكي يفوز بقلبها من جديد. ورغم أنها استشاطت غضباً منه صباح ذلك اليوم، إلاّ أنه عندما التقت عيناها عينيه، لم يسعها إلا أن تبتسم ابتسامة صغيرة.

بعد إسراء، حان دور بيرند ليلقي كلمته. فشرح الجوانب الجيوسياسية للبلاد في تلك المنطقة في عام 700 قبل الميلاد. وتحدث بلغة أكاديمية أمام الحشد عن العلاقة بين المملكة الحثية الجديد وممالك أرارتو وفريجيا وآشوريا. أتت كلمته مملة في بعض المواضع، ولكن من المؤكد أنه لم يغفل أي تفصيل؛ مستخدماً أمثلة شرح فيها كيفية تواصل الناس في تلك الفترة، والعلاقة بين حثي- وهي قبيلة محلية في الأناضول- وبين الحثيين المتحدرين من أصل هندو أوروبـي، وتأثير الآراميين- وهم قبيلة من أصل سامي- وهو مستمر بدفع نظارته إلى أعلى أنفه طوال مدة حديثه.

وأخيراً، حان دور كلمة تيموثي. فبدأها بلهجة أكاديمية كما فعل بيرند، وشرح أن الألواح كتبت قبل ألفين وسبعمائة سنة باللغة الأكادية والخط المسماري على ألواح طينية تم شيّها بالنار لجعلها أكثر دواماً واستمرارية. وكان قد أحضر اللوح الأول معه، فباشر بعرضه على الصحفيين الذين سرعان ما وجهوا كاميراتهم ليصوروا هذه التحفة الهامة. وبعد ذلك، بدأ تيموثي بشرح الأهمية التي تنطوي عليها ألواح باتاسانا.

وفي تلك اللحظة، لاحظت إسراء أن صوت الأمريكي اكتسب نبرة مرتفعة، وأن الكلمات تدفقت بكل انسجام من فمه وكأنها قصيدة أو مرثية. تحدث بغضب وخوف وشغف وحرقة وكأنه هو، وليس باتاسانا، من كتب الألواح بيده، وكأنه هو من شهد المذبحة التي وقعت قبل ألفين وسبعمائة سنة بأم عينيه وسمع صراخ الناس المذبوحين على يد الجنود بأذنيه، واستطاع أن يشم بأنفه رائحة الدماء النازفة على حجارة شوارع المدينة. فلامس حديثه الذي يذكّر بصراخ حيوان جريح غاضب قلوب الجميع بمن فيهم إسراء. فنظرت إلى زميلها بطرف عينها، ورأت ذقن تيموثي يرتجف تحت لحيته الحمراء، فتساءلت بينها وبين نفسها: "ما الذي يجري مع هذا الرجل؟".

تابع الأمريكي كلامه قائلاً: "قد يحاول بعض خبراء الآثار تغيير حقيقة الموضوع والكتابة عن هذه الألواح على أنها أساطير أو قصص خرافية، ولكنني بصفتي الشخص الذي ترجم هذه الألواح، فإنني أقسم لكم إن باتاسانا كتب هذه الألواح بنور عقله وروحه، وبذل محاولة مخلصة لنقل الحقيقة كما فهمها بعقله وروحه على هذه الألواح الطينية. فعلى اللوح

الأول، الذي أريتكم إياه، كتب:

قد يخامرك الشك حيال ما كتبته، ولكن يجب أن تكون واثقاً من أن هذه الألواح المسمارية لا تحوي بين سطورها كلمة زيف واحدة. فقد كتبت فيها عن خوفي، وشجاعتي، وطيبتي، وشروري، وثقتي، وشكي، وتعاطفي، وخيانتي، وأنانيتي، وتضحيتي بنفسي كما حدثت بالحرف الواحد. ثم قلّبت هذه الاعترافات في ذهني، وأقصيت عنها تلك الكلمات المبتذلة والمزيفة والمبالغ بها، لذا أتمنى ألا يعتري الملل من يأخذ هذه الاعترافات وهذا العهد الكبير الذي قدمته بين يديه، وأن يقرأها جملة واحدة كما يقرأ أسطورة تيليبينو. ورغم أنني فشلت في التعبير عن أفكاري بأسلوب بليغ، فيجب أن تكون واثقاً من أن ما كتبته لا يحتوي على كلمة كذب واحدة. فكلماتي الكاذبة هي تلك التي حفرتها على جدران بوابة المياه ثناء على الملك بيزيريس. بتلك الكلمات زخرفت حروفاً للملك ميداس ملك الفريجيين لأخدعه، وربطت تلك الكلمات ببعضها لأُربك الملك روسا ملك الأورارتيين، وبعثتها لأستفز الملك الآشوري سرجون. لجأت للمبالغة والخيال وكلمات الكذب المعسولة لأخدع الملوك الذين تلمع أسماؤهم الضخمة في السماء، ولكن لهم نفوساً صغيرة تافهة تنتفخ غروراً لسماع كلمات المديح المزيف والنفاق والتملق. ولكن، لا توجد كلمة واحدة من تلك الكلمات بين كلمات الألواح التي ستجدها ".

إنني أصدق كل ما قاله. فباتاسانا هو الرائد الأول لمفكري يومنا هذا. إنه ذلك المسؤول الحكومي الذي عاش أسوأ بلايا عصره ومحنه، وتمكن بنجاح من التفكير بشكل مستقل عن الملك، وأراد أن يروي تجربته للأجيال القادمة لئلا تتكرر المذابح والجرائم الجماعية وطغيان عصره مرة أخرى في المستقبل. فعل هذا وهو يوجّه أقسى نقد بحق نفسه، وتحدى إرادة الظالمين. إن باتاسانا من أوائل المؤلفين الذين اكتشفوا الوحش الكامن داخل بني البشر، وألواحُه مليئة بجمل تحذرنا من بعضنا بعضاً. ولهذا السبب، فألواح باتاسانا مكتشف أثري على قدر كبير من الأهمية. ومع ذلك، لا تقتصر أهميتها على علم الآثار وحسب، بل على التاريخ وعلم الاجتماع والسياسة والأخلاق. وبالمختصر، على الإنسانية على حد سواء".

التزم تيموثي الصمت، ونظر إلى الحشد وعيناه السوداوان المخمليتان مكسوتان بغشاوة، وقال وهو يمد كفيه نحو السماء بيأس: "إنها مهمة، ولكن لسوء الحظ، لن تعود على البشرية بأية فائدة".

تعالى صوت الهمس، بينما راح حشد الصحفيين ينظرون إلى بعضهم

بعضاً ليتأكدوا أن آذانهم لم تخدعهم، بينما افترض بقية أفراد فريق التنقيب عن الآثار أن خبير الآثار المتمرس ذلك يحاول أن يقدم عبارة ملفتة للنظر ليضفي بعض التأثير على حديثه.

زمجر تيموثي قائلاً: "لقد سمعتموني جيداً. إن ألواح باتاسانا لا تكفي؛ بالضبط كما لم تكفِ إلياذة هوميروس وغيرها من الكتب الدينية وآلاف الصفحات التي كتبها مئات الفلاسفة، لوضع حد للوحشية في قلوب الرجال".

تحول فضول إسراء في هذه اللحظة إلى إحساس متزايد بالقلق والحيرة. فلم تعد تستطيع أن تبعد عينيها عن تيموثي. وشعرت أن حالة غريبة من نوعها بدأت تسيطر على زميلها. فقد انتفخت أوداجه، وتقلصت عضلات وجهه من الانفعال، وأخذ ذقنه يرتجف وهو يتحدث بنبرة صوت شرسة. كلا، لم يكن هذا تيموثي الذي تعرفه، ذلك العالم العقلاني المنطقي والوقور والمثقف، بل حل محله رجل مجنون وغاضب استنـزفته عاطفته وانفعالاته. حول كرينشر وبيرند بصرهما بفضول نحو خبير الآثار الأمريكي محاولين أن يدركا ما يجري. ومع ذلك، لم يلقِ تيموثي أي انتباه لنظرات زملائه المندهشة أو لوميض الكاميرات في وجهه، بل واصل حديثه بكل بساطة:

"واصل الإنسان، أو في الواقع ضاعف أعماله الشنيعة رغم كتابة كل هذه النصوص. سيذكر التاريخ أن القرن العشرين هو عصر الوحشية والفظائع. إذ لم يحدث من قبل في التاريخ أن شهدت البشرية أي مذبحة كتلك التي ارتكبها النازيون، أو الإبادة الجماعية لمائة ألف شخص كما حدث في هيروشيما...".

بدأ كرينشر يشعر بعدم الراحة للمحتوى الحالي لكلمة خبير الآثار الأمريكي، لذا كتب له رسالة على قطعة ورق صغيرة: "أنت تخرج عن السياق. من فضلك، عد إلى موضوعك الأساسي". ووضعها أمامه، فقرأ تيموثي الملاحظة، والتفت بكل ثقة ويقين إلى كرينشر وقال: "إنني لا أخرج عن السياق. بل على العكس من ذلك، إنني أناقش صلب الموضوع. لم يكن باتاسانا ليكتب هذه الألواح لولا أمله بأن البشرية ستتغير. فقد كتب هذه الألواح لكي يكف الناس عن قتل بعضهم بعضاً، وكذلك النصوص العظيمة الأخرى كتبت للسبب نفسه على حد سواء".

وعندئذ، التفت فجأة إلى حشد الصحفيين في قاعة المؤتمرات وسألهم وكأنه يتبادل محادثة ودية مع شخص آخر: "أخبروني، ما الخير الذي يمكن أن تقدمه هذه الألواح؟ أليس الناس في معظم أرجاء العالم الآن يقطعون

رقاب بعضهم بعضاً ويستخدمون الاختلافات اللغوية والدينية والعرقية كذريعة للسيطرة على البلدان والخيرات والأسواق؟ مضت ألفان وسبعمائة سنة منذ أن كتب باتاسانا هذه الألواح، وخلال هذا الوقت كشف البشر عن لغز الأرض والبحار والسماء، ولكن لاحِظوا أنهم لم يضعوا حداً لعادتهم في قتل أحدهم الآخر. إذاً، هل ستتمكن برأيكم ألواح باتاسانا من تحقيق ما فشل ملايين الناس ومعتقداتهم في تحقيقه؟ هل أنتم من السذاجة بما يكفي لتصدقوا شيئاً من هذا القبيل؟".

انفجرت موجة من الضحك والهمسات بين الحشد.

فسألت صحفية شابة: "إذاً، لماذا دعوتمونا إلى هنا؟ إن كانت ألواح باتاسانا كما تقول عديمة الفائدة إلى هذا الحد، فلماذا جعلتمونا نقطع كل المسافة إلى هنا لنحضر هذا المؤتمر؟".

همّ البروفسور كرينشر بأن يقدم شرحاً، ولكن تيموثي قاطعه وقال: "من فضلك يابروفسور، إن الدور دوري أنا بالكلام. ويمكنك التكلم مطولاً بقدر ما تريد بعد أن أنتهي".

قال هذا الكلام بنبرة حاسمة لدرجة جعلت الرجل المسن يمتنع عن الإصرار أكثر من ذلك. فالتفت تيموثي إلى الصحفية التي طرحت هذا السؤال وقال: "لن تشعري بالندم لأنك حضرت إلى هنا ياسيدتي الصغيرة". وظهر تعبير غامض على وجهه ثم قال: "لن يندم أحد من الصحفيين الحاضرين اليوم على حضوره إلى هنا. سوف تعودون جميعاً إلى إسطنبول محملين ببعض عناوين الأخبار الهامة، ولكن يجب عليكم أن تتحلوا بالمزيد من الصبر".

أراد صحفيان آخران طرح المزيد من الأسئلة على تيموثي، ولكنه أسكتهما وطلب منهما التحلي بالصبر، ثم تابع كلامه من حيث توقف.

فقال: "لقد شعر باتاسانا بظلام القلب البشري، ولكنه لم يعرف كيف يحدد ذلك. فحاول التملص من تلك الورطة عن طريق وضع اللوم على تيشوب ومعشره وهو متمسك بالأمل في أن الأجيال القادمة ستثبت أنها أفضل من جيله. ومع ذلك، ليس باتاسانا سوى مفكر كالكثير من المفكرين السذج الذين استولى عليهم الوهم بأن ما يكتبونه قادر على التأثير في البشر وتغيير حقيقتهم. ولكن حقيقة الأمر هي أن حلم تغيير البشر نحو الأفضل بفضل تأثير الأديان والعلم والفن والفلسفة ليس إلاّ حلماً مزيفاً. فلا الدين ولا الفن ولا العلم لديه أي سيطرة في هذا الصدد. فالموت هو الظاهرة الوحيدة التي يمكنها بالفعل أن تتمتع بأي تأثير على الإنسان".

التزم الصمت مرة أخرى، وكان الضحك والهمس في قاعة المؤتمرات قد توقفا، فتوجهت عيون الجميع وآذانهم نحو تيموثي.

وقال بصوت تتردد أصداؤه في قاعة المؤتمرات الصغيرة: "إن الإنسان هو الأكثر ذكاء من بين المخلوقات الأنانية. بالنسبة له، إن الحفاظ على وجوده يحتل الأولوية على كل شيء آخر وكل القيم الأخرى، وهذا لا ينطبق على يومنا الحاضر وحسب بل على كل العصور. والشيء المناقض للوجود هو الموت، وكلما أتى شكل الموت أكثر تأثيراً وصدمة وغرابة، أصاب الإنسان بالخوف والتأثر وحتى البهجة. والشعور بالموت يعني أن تقترب منه وتلمسه وتراقبه، فليس هناك شيء أكثر إثارة. ولهذا السبب، الموت هو أكثر الكلمات قوة في كل لغات العالم. عند ذكر الموت، يلتزم الجميع الصمت من الخوف والهيبة والقلق؛ بالضبط كما فعلتم في قاعة المؤتمرات هذه قبل بضع دقائق. إن الموت يغرينا جميعاً، ولهذا السبب فالطريقة الفضلى لإقناع الناس بعدم القتل هي، لسوء الحظ، القتل".

ساد صوت اهتياج في قاعة المؤتمرات، بينما أخذ الصحفيون يتهامسون في ما بينهم باستغراب. فنظرت إسراء إلى تيموثي برعب، وتلاشى كل الدم من وجهها، وبدا قلقُها مما هي على وشك سماعه أكبر من صدمتها لما سمعته.

سألت الصحفية نفسها التي تحدثت قبل قليل: "إذاً، هل تعني أن القتل طريقة جيدة لمنع القتل؟".

فقال تيموثي بلهجة طبيعية قدر المستطاع: "نعم، فليست هناك طريقة أشد بلاغة من الموت نفسه لإيصال رسالتك للناس".

رفعت الصحفية قلمها وقالت: "ولكنك قلت بنفسك إن هناك مئات الحروب التي شنها الإنسان على مر التاريخ وقتل فيها ملايين البشر، ولكن الإنسان لم يتعلم الدرس. إذاً، ما أعنيه هو أن القتل لم يأت بأية فائدة".

ارتسمت ابتسامة باردة وقاسية على وجه تيموثي الساخن والمحمر بتعبير لم يعهده أصدقاؤه على وجهه من قبل.

وقال: "قال مؤسس فلسفة السادية الفيلسوف الفرنسي الكبير ماركيز دو ساد: "إن جريمة قتل واحدة قد تخز الضمير. ولكن، عندما يزداد عدد جرائم القتل وتتكرر على يد العشرات وحتى الآلاف من الناس، فإن الضمير يلتزم الصمت". ولهذا السبب، إن الحرب تحول القتل إلى أمر عادي. ومع ذلك، فحقيقة الأمر هي أن الجرائم المخطط لها تنقذ الجريمة من التحول لمجرد حدث عادي وتلفت الانتباه، وهذا هو الخبر الذي أريد أن أطلعكم

عليه. سأخبركم عن ثلاث جرائم قتل تم التخطيط لها وتنفيذها بكل ذكاء وبراعة. وسأنقل لكم رسالة على أهمية كبيرة للبشرية؛ رسالة يرسلها لكم مفكر واقعي لا يضيع وقته بالأحلام المزيفة".

أصبح الصحفيون الآن آذاناً صاغية بعد أن انتقل تيموثي من موضوع الموت إلى موضوع الجريمة.

اعترض البروفسور كرينشر قائلاً: "أي جرائم؟ ما الذي تتحدث عنه؟". لم يعد لدى خبير الآثار المسن أي صبر ليتحمل هذا الهراء بعد الآن. وبدأ جفن عينه اليمنى يرفرف بتوتر، ثم قال: "من فضلك اختم كلمتك على الفور!".

ظهر تعبير غير مبال على وجه تيموثي، وظلت شفتاه منفرجتين بالابتسامة الباردة نفسها، ثم قال: "لنسألهم هم. إن لم يرغبوا بسماع تصريحي عن الجرائم التي وقعت هنا، فسوف أتوقف عن الكلام".

هاج حشد الصحفيين في فوضى صاخبة، وعبروا جميعاً عن رغبتهم في سماع ما يريد تيموثي قوله.

فقال تيموثي وهو ينظر باحتقار إلى زميله المسن: "أترى؟ إنهم يريدون أن يسمعوا عن الجرائم".

التفت لينظر إلى الصحفيين، ونظر إلى المجموعة المحتشدة بعينين ملؤهما الامتنان، ثم استأنف حديثه:

"كنت واثقاً من أنكم ستهتمون بالجرائم أكثر من اهتمامكم بباتاسانا، لذا إنني أشكركم فرداً فرداً لأنكم أثبتم صحة كلامي. نعم، ياأصدقائي، لقد سمعتموني بشكل صحيح. فهناك ثلاث جرائم كبرى ارتكبت في هذه المنطقة منذ يوم الجمعة الماضي. فقد ألقي بإحدى الشخصيات البارزة في القرية- واسمه الحاج عبد الستار- من على مئذنة المسجد، بينما قُطع رأس كبير حراس القرية رشيد، وأخيراً شُنق ابن أحد النحاسين حتى الموت في حديقته. لقد استغرق التخطيط لهذه الجرائم سنة كاملة، ولكن تنفيذها الفعلي تم حصره في مجرد خمسة أيام لكي تنتهي في الموعد المحدد لهذا المؤتمر الصحفي. تم التخطيط لهذه الجرائم وتنفيذها لتلفت الانتباه لثلاثة أشخاص قتلوا بالطريقة نفسها قبل ثمانية وسبعين عاماً. فقبل ثمانية وسبعين عاماً، وفي هذه المنطقة، ألقي بالكاهن كريكور من أعلى برج الجرس في كنيسة القرية في ذلك الوقت؛ وهي الآن مسجد القرية، وقُطع رأس أوهانيس آغا ووضع في حضنه، أما النحاس غارو فقد شنق من عارضة في سقف متجره. من الواضح من أسماء هؤلاء الناس أنهم جميعهم من الأرمن، ولكن جرائم

الأيام الماضية لم ترتكب انتقاماً لموتهم".

فسأل أحد مراسلي التلفزيون بصوت ثاقب: "كيف تعرف هذا؟".

فأجاب تيموثي وهو لا يزال يبتسم: "لأنني ارتكبت هذه الجرائم بنفسي".

سادت موجة من الهمسات داخل قاعة المؤتمرات، فرمقت إسراء أشرف بنظرة سريعة، ووجدته مصاباً بحالة صدمة كالتي أصابتها. فقد بدا متجهم الوجه، وكأنه يبذل جهده ليفهم ما يجري؛ مثله مثل بقية أفراد فريق التنقيب عن الآثار. فتلك الكلمات التي تدفقت بكل سهولة من فم تيموثي فسّرت الحقيقة اللعينة المجهولة التي ظلت تعبث بعقولهم وتنهش قلوبهم لأيام، ولكنهم لم يرغبوا بتصديق ما سمعته آذانهم. إذ إن عقولهم لم تكن مستعدة لفهم هذه الحقيقة التي أجبروا على مواجهتها في تلك اللحظة غير المتوقعة. فتسمروا في أماكنهم وعيونهم مركزة على تيموثي وهم لا يدرون ماذا يفعلون أو يقولون، ولكن بصيصاً من الأمل ظل يطل من عيونهم. فانتظروا منه أن يتراجع عن كلماته، أو يقدم تفسيراً للسبب الذي جعله يتحدث بتلك الطريقة. ولكن، بدلاً من ذلك، التزم تيموثي الصمت وكأنه يريد أن يستمتع بالتأثير الذي أحدثته كلماته. وكانت إسراء أول من أفاق من الصدمة واستعاد القدرة على الكلام. فسألته بنبرة متوترة: "ما الذي تحاول قوله يا تيموثي؟".

أجاب الأمريكي: "لست تيموثي. إن اسمي هو أرميناك بابازيان. لقد تخلى عني ديكران بابازيان، حفيد الكاهن كريكور المقتول، في دار أيتام وأنا طفل صغير قبل أن يفقد عقله، وهناك تبنتني عائلة هيرلي. هذا صحيح، فأنا أرمنياك، ابن أخ تلك المرأة المسنة المعروفة باسم نديدة المرتدة، أي ناديا الصغيرة في الماضي".

التزم الجميع الصمت، بينما ارتفع ضجيج التقاط الصور. وشعر كل فرد من أفراد الفريق بالإضافة إلى النقيب أشرف أن موجة أخرى من الصدمات تكتسحه. فوجه بيرند السؤال التالي إلى تيموثي وهو يرنو إليه بعينيه الزرقاوين المفتوحتين على وسعهما.

"أتعني القول إنك أنت من ارتكب تلك الجرائم؟".

فارتسمت على ملامح الأمريكي نظرة صريحة لا تدع مجالاً للشك في حقيقة كلامه وهو يقول: "نعم، هذا هو بالضبط ما أعنيه. لقد ارتكبت كل واحدة منها".

عانى أفراد الفريق كما عانى بيرند من وقت عصيب في استيعاب ما

يجري.

فقال بيرند: "إذاً، فقد أتيت إلى هذه المنطقة لتقتل أولئك الناس؟".

"كلا، فعندما أتيت إلى هنا قبل خمس سنوات، لم يكن ليخطر ببالي ولو بعد مليون سنة أنني قادر على ارتكاب هذه الجرائم؛ رغم أنه من المؤكد أنهم علموني شتى وسائل القتل هناك في فيتنام. لقد قاتلت في الخطوط الأمامية، وأثبت فيها مدى براعتي في فنون الموت. فقد كنت أرقص مع الموت مراراً وتكراراً قبل أن أنسحب إلى الخنادق، وأستلقي معه جنباً إلى جنب، وأتنفس الهواء نفسه، وآكل التراب نفسه. لم تعد هناك أية مسافة تفصل بيننا، فأصبحت على يقين من أن الموت سيستولي علي يوماً ما لدرجة أنني لم أعد أخشاه، ولكن الموت يحب المفاجآت، لذا أخذ عائلتي بدلاً من أن يأخذني. فقد مات والداي بالتبني السيد والسيدة هيرلي في حادث تحطم طائرة، فشكل موت الرجل والمرأة الطيبين اللذين اعتبرتهما أبـي وأمي السبب الذي جعلني في نهاية المطاف أخضع للعلاج النفسي بعد الحرب. فشعرت بوجود قوة خفية ما تعاقبني على الجرائم التي ارتكبتها في الحرب.

عندما خرجت من العيادة، وجدت نفسي مرة أخرى أعاني الوحدة؛ بالضبط كما حدث معي عندما خرجت من ملجأ الأيتام. فكرت بأن أتقدم للحصول على شهادة الماجستير من جامعة ييل ثم أزاول مهنة حقيقية في علم الآثار، ولكن لم يكن بحوزتي المال الكافي. وبحلول ذلك الوقت، بدأت أعمل في أحد المتاحف مقابل راتب صغير. وفي نهاية العام الثاني، حدثت الأعجوبة التي ساعدتني على العودة إلى مهنتي الأصلية. فقد تمكنت أمي، التي تركت البيت قبل وقت طويل عندما فقد والدي عقله، من العثور علي، وأخبرتني كل شيء عن والدي، وقالت لي إن أصله يعود إلى إحدى البلدات التي تقع على ضفتي نهر الفرات في تركيا. ومنذ ذلك الوقت فصاعداً، صممت أن أزور تركيا، ولكن هذا حدث قبل عشرين عاماً؛ عندما كنت لا أزال خبير آثار مبتدئاً عنده رغبة متأججة لممارسة مهنته. وهكذا، تمكنت بمساعدة والدتي من إكمال دراستي الجامعية. فأمضيت خمسة عشر عاماً وأنا مشغول بكل سعادة بمزاولة مهنة علم الآثار. خلال تلك الفترة، عبرت الحدود عدة مرات إلى تركيا عندما ذهبت للتنقيب عن الآثار في العراق. فسنحت لي الفرصة لزيارة تلك الأماكن التي عاش فيها والدي، وسحرني ما شاهدته فيها، وتأثرت بمدى دفء الناس الذين يعيشون هنا على الرغم من تخلف المنطقة، وتأثرت لاستمرار الحضارة القديمة فيها إلى

حد ما. مكثت هنا قرابة الشهر قابلت خلاله ديفيد كبير الأطباء في المستشفى الأمريكي ووالده نيكولاس. ومع ذلك، أخفيت هويتي، وحاولت أن أجمع أكبر قدر من المعلومات عن عائلتي. وجدت الكلام الذي سمعته بغاية الفظاعة، ولكنني لم أضمر أي عداء لسكان المنطقة. ولم تخطر فكرة القتل ببالي في ذلك الوقت. فقد كنت أعرف التاريخ حق المعرفة، ورأيت بأم عيني في مواقع التنقيب مدى قسوة الناس تجاه بعضهم بعضاً. فقررت أن أنسى ما حدث، وأبحث عن آثار تلك الحضارة القديمة لموطن والدي. ينبغي أن أضيف أن زوجتي السابقة لعبت دوراً في هذا الصدد. فحالما هجرتني، لم تعد هناك أي روابط تربطني بأمريكا، وهكذا زودتني بلاد أبـي بالفرصة لبدء حياة جديدة.

قررت الاستقرار هنا بشكل مؤقت. فتعرفت على أهالي هذه المناطق وأحببتهم، وانفتح قلبـي لهم. وفي تلك الأثناء، اقتفيت أثر عمتي نديدة، ثم بدأت أقابلها وأتحدث إليها مخفياً هويتي. ونظرت إلى وجهها المسن المليء بالتجاعيد، وحاولت أن أتخيل شكل والدي الذي لم أره في حياتي. صدقوني، لم يتولد في نفسي حتى أقل تعطش للانتقام على الإطلاق. لم يحدث ذلك إلى أن حان اليوم الذي ركبت فيه في حافلة أوقفتها عصابات الأكراد في الطريق إلى غازي عنتاب. في ذلك اليوم، جلس بجانبـي ملازم شاب اسمه عمر وبصحبته زوجته وابنته التي تبلغ من العمر خمس سنوات. أراد عمر التوجه إلى غازي عنتاب ليتسلم وظيفته التي تم تعيينه فيها في تلك الآونة. وجدته شاباً مبتهجاً يجيد التحدث باللغة الإنكليزية بعض الشيء. وعندما اكتشف أنني أمريكي، راح يتجاذب معي أطراف الحديث باللغة الإنكليزية. عندما أوقفت العصابة حافلتنا كان نائماً، ولكنه استيقظ بفزع عندما سمع أصواتهم. صعد أحد أفراد العصابة الحافلة، وطلب رؤية هويات جميع الركاب، ثم أمرنا نحن الاثنين أن نترجل منها. فبكت زوجة عمر وتوسلت إلى رجال العصابة، بينما قلت لهم أنا إنني مواطن أمريكي وطلبت منهم أن يدعوني وشأني، ولكنهم رفضوا أن يصغوا إلي أو إليها. وكان آخر ما رأيته عندما نظرت إلى الحافلة قبل أن تختفي في الظلام تلك الليلة هو عينَي تلك الفتاة الصغيرة الكبيرتين الممتلئتين رعباً وهي تمسح الغشاوة المتشكلة على زجاج النافذة بحثاً عن أبيها.

قيدوا أيدينا وجرونا إلى الجبال، وأجبرونا على المشي طوال الليل، ثم توقفوا ووضعونا في أحد الكهوف، وفكوا قيود أيدينا، وعينوا حارساً مسلحاً ليراقبنا. لم يعاملونا معاملة سيئة، بل شاطرونا طعامهم وشرابهم. فما

يتناولونه هم نتناوله نحن. بقينا هناك ليومين ونحن لا ندري ماذا أو من أو لماذا ننتظر. أصيب عمر بانهيار شديد، وراح يرتعش كورقة شجر في مهب الريح وهو يقول مراراً وتكراراً إنهم سيقتلوننا. حاولت أن أهدئه، وأكدت له أنني لن أسمح لهم بفعل ذلك. طلبت أن أتحدث إلى قائد المجموعة، ولكنهم لم يسمحوا لي بذلك مدّعين أنني جاسوس. قرابة المساء، حضرت مجموعة من ثلاثة أشخاص وأخذت عمر من دون أن تقدم أي تفسير. فتشبث بـي برعب، بينما تمسكت أنا بقدميه وحاولت أن أتعلق به، ولكنهم ضربوا يدي بأخمص بندقياتهم وفرقونا عن بعضنا بعضاً ثم جروه مبتعدين.

لقد شهدت حوادث مشابهة عديدة في فيتنام، حتى إنني شاركت في بعض عمليات الإعدام. وفي ذلك الوقت من الماضي، اعتدت أن أعزي نفسي قائلاً إننا في حالة حرب وسيعود كل شيء إلى سابق عهده حالما أعود إلى الحياة المدنية. ولكن، في تلك الحالة كيف يمكنني أن أفسر ما يجري؟

في اليوم التالي، اقتادوني إلى الطريق الخارجي أسفل الجبل، وأطلقوا سراحي مرة أخرى من دون أي تفسير، ولكنني في تلك المرحلة لم أعد آبه حتى لو قتلوني. تجولت على غير هدى لمدة شهر وأنا مخدر الشعور بشكل كامل، ثم بدأت أفكر بجدي الذي ألقي به من أعلى برج الكنيسة، وبوالدي الذي فقد عقله، وبالملازم الشاب الذي قتل أمام عيني، وبابنته الصغيرة ذات العينين الجميلتين، وبـي أنا. وظهرت صور كل الناس الذين قتلتهم في المعارك أمام عيني، وتذكرت دلائل الوحشية التي رأيتها في مواقع التنقيب عن الآثار، وراجعت كل شيء عرفته في حياتي. فلم تختلف النتيجة التي توصلت إليها عما قاله لي الطبيب جيري الذي عالجني في عيادته، وهي أن الإنسان مخلوق شرير يستمتع بممارسة الوحشية والتدمير.

لم أعتبر نفسي مختلفاً عن غيري. فقد شاركت في إحدى الحروب، وقتلت الناس الأبرياء في سبيل بعض المبادئ كالدفاع عن الديمقراطية والقضاء على الشيوعية، ولهذا حمّلت نفسي مسؤولية هذه الحالة كأي شخص آخر. شكلت هذه الأفكار الخطوة الأولى نحو مشروع جرائمي. فقد قررت أنه ينبغي عليّ أن ألفت انتباه الناس لأنفسهم، ولذلك المكان المظلم في قلوبهم الذي يولد بشكل دائم العدوان والوحشية. إذ إن ذلك الظلام الكامن في داخلنا موضوع يتجنبه الجميع بشكل لا مفر منه. فنحن نستمتع عندما نسمع الآخرين يقولون إننا طيبون ومفيدون ورائعون. ولا يريد أحد أن يشير إلى أعمالنا الوحشية وشرنا وأنانيتنا وضيق عقولنا

وغرامنا بالموت. وبدلاً من ذلك، نردد تلك الكذبة البراقة التي تؤكد كم نحن مخلوقات راقية وكأن أياً من هذه المجازر والحروب والوحشية لم يقع أو يحدث على الإطلاق.

لا أنكر أن بعض الأشخاص مثل باتاسانا حاولوا أن يفسروا هذه الوحشية ولكن بطريقة تشوبها العيوب، ولهذا السبب لم يقدم ما كتبوه أي نفع. فرفضت أن تقع رسالتي ضحية للمصير نفسه. وهكذا، اخترت أكثر طريقة فعالة في إيصالها؛ وهي الموت. وأدركت أن حالات الموت التي أتحدث عنها يجب أن يتم التخطيط لها بذكاء، وأن تكون جرائم تبعث الرهبة في نفوس الناس وتذكرهم بالماضي. ولهذا السبب، اخترت تلك الجرائم الثلاث التي وقعت قبل ثمانية وسبعين عاماً - وأحد ضحاياها هو جدي - لتكون مثالاً يحتذى بالنسبة إلي. لم تنبع رغبتي بارتكاب هذه الجرائم بأي حال من الأحوال من حب الانتقام. صحيحٌ أن الأرمن سقطوا ضحية لإبادة جماعية، ولكن حتى لو وجد الأرمن أو الأكراد أو العرب أنفسهم في موقف الأتراك، فأنا واثق من أنهم لم يكونوا ليترددوا في فعل الشيء نفسه الذي فعله الأتراك. كما أنني لم أفعل هذا بدافع من العقاب العرقي، ولكن ما حاولت فعله هو حمل مرآة للناس من خلال الجرائم التي ارتكبتها ليروا فيها وجوههم المريعة ويبذلوا بعض الجهد للتحرر من هذا المشهد المقزز الذي يجري داخل ذواتهم...".

عندما وصل إلى هذه المرحلة من حديثه، ظهر تعبير خجول على وجه تيموثي، ونظر إلى إسراء بعينين ملؤهما الخجل.

"في ذلك الوقت من الماضي، دعتني إسراء - التي أعرف أنني مهما فعلت ومهما اعتذرت فلن تسامحني - للانضمام إلى مهمة التنقيب عن الآثار. وعرفت أنهم ينقبون في المنطقة التي وقعت فيها الجرائم التي أريد أن أقلدها. ورغم أنني قررت من قبل ألا أمارس مهنة الآثار مرة أخرى، فقد تظاهرت بالتمنع قبل أن أسارع بقبول عرضها. وبعد أن باشرنا عملنا بمدة بسيطة، حدث شيء لا يصدق. فقد كشفنا عن مكتشف أثري على قدر كبير من الأهمية، وهو ألواح باتاسانا. وحالما بدأنا نخطط لعقد هذا المؤتمر الصحفي، أدركت أن الوقت قد حان لكي أنفذ مهمتي التاريخية. وهكذا، قتلت أولئك الرجال الثلاثة بطريقة مشابهة لتلك الجرائم التي حدثت قبل ثمانية وسبعين عاماً في الوقت المناسب لكي تنتهي مع وقت انعقاد المؤتمر...".

تحدث تيموثي عن الجرائم بالهدوء نفسه الذي تحدث فيه عن

ترجمته ألواح باتاسانا. ووقفت إسراء مصغيةً إليه ووجهها أبيض كلون الأشباح، وجسدها يرتعش، ويداها اللتان شبكتهما أمامها ترتجفان بانفعال، ولكن من دون أن تعي ذلك. وأخيراً، تمكنت من أن تستجمع الكلمات التي ازدحمت بتشوش وفوضوية داخل رأسها.

فسألته بصوت مليء بالاحتقار: "كيف يسعك أن تتحلى بكل هذا الهدوء؟ كيف تستطيع أن تقف هنا وتتحدث بكل هدوء بعد أن قتلت كل أولئك الناس؟".

التفت تيموثي لينظر إلى الشابة وهناك تعبير خانع يعبر عن الندم الحقيقي يبدو على وجهه، وقال: "إنني آسف بشأن كمال. لم أكن أريد قتله، ولكنه أصيب بنوبة غيرة عمياء فظن أنني على علاقة بإيلاف، لذا أخذ يتبعني ويراقبني. وعندما رآني أرتكب الجريمة الثالثة هاجمني، فاضطررت للدفاع عن نفسي. وعندما تأكدت أنه مات، حملته إلى الكهف كي لا يتم تأجيل المؤتمر الصحفي".

صاحت إسراء: "ليست المشكلة مشكلة كمال وحده". وترددت برهة وهي غير واثقة مما تريد أن تفعله، ثم نظرت إلى الأمريكي وتابعت نحيبها الحزين قائلة: "يا إلهي! ألا تدرك ما فعلته يا تيموثي؟".

أطرق خبير الآثار، ونظرت عيناه المخمليتان نحو الأسفل بتعبير يدل على الخزي والكآبة، وقال بصوت مندهش: "ألم تسمعي ما قلته؟ لقد قمت بتنفيذ واجبي. لم أستطع أن أقف مكتوف اليدين بينما يكرر الناس ذلك الخطأ التاريخي الفظيع نفسه. ألا تفهمين؟ توجب علي فعل ذلك". وهز رأسه بخيبة أمل ثم قال: "يا للأسف! لقد ظننتكم جميعاً ستفهمون وجهة نظري".

صاحت إسراء بصوت أعلى من ذي قبل: "ما الذي يفترض بي أن أفهمه؟! أنك أوقعت بأولئك الناس بكل غدر وخسة وقتلتهم واحداً تلو الآخر؟!". وسيطرت عليها نوبة ألم وحزن، ثم صاحت: "ما الذي فعلته يا تيموثي؟ ما الذي فعلته!؟".

فقال تيموثي: "لقد فعلت الصواب". وعاد ذلك الوميض العنيد للظهور في عينيه الداكنتين مرة أخرى. فقال: "حتى لو لم تفهمي، فما فعلته هو الصواب".

عانت إسراء من مشقة في التنفس، وكأن الكلمات علقت في حنجرتها. ومع ذلك، تمكنت من الكلام متلعثمة.

فقالت: "وماذا عن أولئك الذين قُتلوا؟ ما ذنبهم؟ ماذا فعل الحاج

عبد الستار ليستحق هذا المصير؟ وكمال؟ وذلك القروي المسكين؟".

التزمت الصمت مرة أخرى وهي عاجزة عن العثور على الكلمات المناسبة لتعبر عن صدمتها وخيبة أملها، ثم قالت: "ألا تفهم؟ أنت مجرم". وذلك هو كل ما استطاعت قوله.

بدا تيموثي مذهولاً قليلاً من حدة رد فعلها، ولكنه سرعان ما استعاد رباطة جأشه مرة أخرى، وقال بينما بدت وقفته والنظرة في عينيه وصوته كلها مشبعة بالسخرية: "نعم، إنني قاتل، ولكنني قاتل ارتكب جرائمه لمنع وقوع المزيد من القتل".

تلاشت نظرة الشفقة من عيني إسراء، وتجاهلت الدموع التي تدفقت على وجهها وهمسات الصحفيين، وصاحت مؤكدة على كل حرف: "إن هذا لا يغير حقيقة أنك قاتل!". وراح صوتها يتهدج بعنف وهي تقول: "هل تفهم يا تيموثي!؟ أنت قاتل... ولكنك لست مجرد قاتل فحسب، بل أنت وحش أيضاً...". والتزمت الصمت مرة أخرى. فقد هيمن عليها الغضب لدرجة جعلتها عاجزة عن الكلام، ثم قالت أخيراً: "أنت... أنت وغد لا يتورع عن خداع أصدقائه لتحقيق أهدافه الدنيئة!".

حدق تيموثي بالشابة لبضع لحظات وعلى وجهه سيماء إحساس عميق بالأسى، وقال مطأطئاً رأسه: "أنت محقة. فأنا وغد يعيش في زمن الطغاة".

á á á

اللوح الثامن والعشرون

أيها القارئ الصبور، يا من يعرف نذالتي، ويشهد على النتائج الفظيعة التي ترتبت على طيشي وحماقتي. لقد تحديتُ وحاولت أن أغير القدر الذي رسم لي، لذا تسببتُ بموت الملك الذي يمثل تيشوب وعائلته على الأرض. فحلت بي أشنع العقوبات الممكنة، وحكم علي أن أحترق بنيران ضميري الملوث مدى الحياة.

نعم، نحن البشر أشرار، ولكن تيشوب وعائلته، ومن مثلهم عند الآشوريين هم الذين زرعوا فينا هذه العواطف المظلمة، وهم الذين سمحوا بحدوث هذه الكوارث. فبناء على أوامرهم يعلن الملوك الحرب، وبناء على أوامرهم يقتل الناس ويعذبون ويسلبون وينهبون.

إنني جبان ومدرك لحقيقتي، ولكنني أعرف أن معشر تيشوب لن يسامحوني بعد موتي. فقد عارضت إرادتهم، ووقفت في وجههم، ثم تعرضت للهزيمة على أيديهم. لن أطلب منهم المغفرة بعد الآن. وحالما أنقل كلماتي على هذه الألواح، لن ألقي بنفسي على الصخور حيث لقيت أشمونيكال حتفها لأن ذلك عمل بطولي لا يليق برجل خسيس وجدير بالازدراء مثلي. فأنا لست بطلاً وعاشقاً مستعداً لفعل أي شيء في سبيل المرأة التي يحبها كما فعل جدي ميتانوا، ولست موظف حكومة نبيلاً ومستعداً للتضحية بحياته ليحمي بلاده كما فعل والدي آراراس. بل إنني أسوأ خائن خسيس شهدته أرض الحثيين في تاريخها، وأكبر نذل استجلب أعظم الشرور على شعبه وبلده. سألقى العقوبة المناسبة لي، وسأعيش على وجه هذه الأرض متحملاً عبء ضميري المثقل بالآثام إلى أن تحين لحظة وفاتي.

ولكنني أريد للناس أن يقرؤوا هذه الألواح كي يتعلموا ألا يعارضوا معشر تيشوب وعائلته لأنني لا أريد لأحد أن يعاني الألم الذي أعاني منه. إنني أريد للناس أن يعرفوا أنفسهم وأن يعرفوا الملوك على حقيقتهم. ولهذا السبب كتبت هذه الألواح. لقد كتبتها ليتعلم الناس التكيف مع أقدارهم المرسومة لهم، ولئلا يتمكن الملوك بعد الآن من توجيههم والمضي بهم إلى حيث يشاؤون وليتعلموا أن يرووا هذه الأراضي بين النهرين ليس بدماء إخوتهم بل بالحب والمودة، وليصبحوا ربما يوماً ما أكثر حكمة، وليعيشوا بسعادة ويحولوا حياتهم إلى احتفال دائم، وليورثوا الأجيال القادمة الفرح بدلاً من الألم، والابتسامات بدلاً من الدموع، والحب بدلاً من الكراهية، والحياة بدلاً من الموت... ربما...

النهاية

ketab4pdf.blogspot.com